دراسات

في الشعر الأندلسي

منشورات جامعة حلب
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة



دراسات
في الشعر الأندلسي

الدكتور أحمد عبد القادر صلاحيّة

لطلّاب السنة الثالثة
قسم اللغة العربيّة

مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

المحتوى

المحتوى ٥- ٦

المقدّمة ٧-٩

التمهيد ١١- ٤٨

اسم الأندلس ١١

ملامح جغرافيّة الأندلس ١٦

ملامح تاريخ الأندلس ٢٠

ملامح البيئة الاجتماعيّة ٢٥

ملامح البيئة الثقافيّة ٣٨

الفصل الأوّل: الشعر الأندلسيّ وخصائصه الفنيّة ٤٩- ١٠٤

أوّلاً: نشأة الشعر الأندلسي ٥٠

عصر الولاة (٩٢-١٣٨ هـ) ٥١

عصر الإمارة وتوطيدها (١٣٨-٢٠٠ هـ) ٥٤

ثانياً: الأصول المشرقيّة وبداية التجديد (٢٠٠-٣٠٠هـ) ٥٩

ثالثاً: تطوّر الشعر الأندلسي (٣٠٠-٤٢٢ هـ) ٦٧

رابعاً: التجديد في الشعر الأندلسي ٨٥

عصر ملوك الطوائف (٤٢٢-٤٨٣ هـ). ٨٥

عصر المرابطين(٤٨٣-٥٤٢ هـ). ٩٠

خامساً: تراجع الشعر الأندلسي ٩٥

عصر الموحّدين (٥٤٢-٦٦٧هـ). ٩٥

عصر بني نصر (٦٢٩-٨٩٧ هـ). ١٠٠

الفصل الثاني: موضوعات الشعر الأندلسي الموسعة ١٠٥- ١٧٨

- شعر الطبيعة ١٠٦

دواعي شعر الطبيعة ١٠٦

تأصيل ظاهرة وصف الطبيعة ١١٢

- رثاء المدن والممالك ١٤٢

رثاء المدن التي سقطت بفعل الفتن الإسلاميّة ١٤٢

رثاء الدويلات والممالك ١٤٦

رثاء المدن التي تغلّب عليها الإسبان ١٥٦

الفصل الثالث: أشكال جديدة في الشعر الأندلسي ١٧٩-٢٥٧

- الموشّح ١٨٠

- الزجل ٢٢١

الفصل الرابع: أعلام الشعر الأندلسي ٢٥٩ – ٤٢٦

- يحيى بن حكم الغزال ٢٦١

- ابن هذيل القرطبي ٢٨٠

- يوسف بن هارون الرمادي ٢٩٩

- ابن درّاج القسطلي ٣١٢

- ابن شهيد الأشجعي ٣٣٥

- ابن حزم القرطبي ٣٥٥

- ابن زيدون المخزومي ٣٦٤

- المعتمد بن عبّاد ٣٨٢

- أبو الحسن الحصري ٣٩٨

- لسان الدين بن الخطيب ٤٠٧

الفصل الخامس : ابن خفاجة الشقري ٤٢٧- ٥١٠

الفصل السادس : تحليل نص شعري ٥١١- ٥٥٦

المصادر والمراجع ٥٥٧- ٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الأندلس ساهور قمر في عيون العاشقين، لم تزل ترمقه بنظرات الحنين..

الأندلس ياقوتة تاج من ذهب ولجين، هل فارقت منّا الجبين؟..

الأندلس طاقة ورد وظلّ ممدود، فهل يموت الورد ونلبس ثوب الحداد؟..

الأندلس ذلك الفردوس المفقود، كيف لنا أن نجعله الفردوس المعاد؟..

فإن لم نستطع إعادته جسداً فلا أقلّ من إعادته روحاً؛ بإحياء تراثه وبعثه من أدراج النسيان، ونفض غبار السنين عنه، وتحقيق أصوله المخطوطة المتبقّية تحقيقاً علميّاً دقيقاً، وطبعه في حلل قشيبة جميلة جمال الأدب الأندلسي وروعته، ومن ثمّ درسه درساً عميقاً عمق الفلسفة الأندلسيّة العظيمة، وتعريفه وتعريف أعلامه وإبراز بعض ما أبدعوه في فنون العلم والأدب.

وهذه صفحات من الشعر الأندلسي طويت بها صفحات من العمر الجميل، وقضيت معها سنوات من العمل الدؤوب الماتع والشائق والشائك معاً، في مسيرة عشق طويلة للتراث الأندلسي، زادت على ربع قرن، أنفقت فيها من نور عيني، ووهبت لها من ذوب عقلي، ما نازعت فيه أولادي وأهلي، وبذلت فيها من واسع جهدي ما لا مزيد عندي، وخصصت لها من وقتي ما لا أستطيع أن أعدّ أو أحصي، وهل يعدّ العاشق ساعات قربه من الحبيب؟.

وأثمرت هذه المسيرة عدداً غير يسير من الكتب والبحوث الأندلسيّة زادت على اثني عشر كتاباً أندلسيّاً، دراسةً وتحقيقاً، لتتوّج بكتاب "دراسات في الشعر الأندلسي" أقدّمه إلى طلّابي الأعزّاء في قسم اللغة العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة حلب الشهباء؛ يشتمل على المفردات المقرّرة عليهم في المنهج الجامعي.

يبدأ الكتاب بمبحث عالج فيه موضوعات تمهيديّة ضروريّة، تبيّن الملامح العامّة للعصر على الأصعد كافّة، وهي: اسم الأندلس وجغرافيّتها، وتاريخها السياسي، وتكوينها الاجتماعي، وبيئتها الثقافيّة التي نشأ فيها الشعر الأندلسي وترعرع، وكوّن بها ومعها شخصيّته الأندلسيّة المتميّزة.

ثمّ يخصّص الفصل الأوّل لدراسة نشأة الشعر الأندلسي وتطوّره، واستخلاص خصائصه الفنّيّة، وتبيان الأصول المشرقيّة وجوانب التجديد فيه، دراسة مستفيضة وفق عصوره السياسيّة المعروفة؛ عصر الولاة والإمارة والخلافة الأمويّة، فعصر ملوك الطوائف، فعصر المرابطين، فعصر الموحّدين ، فعصر بني نصر.

ثمّ يعوج البحث في الفصل الثاني على دراسة أهمّ موضوعات الشعر الأندلسي وأغراضه الموسّعة التي تميّز بها من الشعر المشرقي وهي: موضوع وصف الطبيعة ؛ وهو عنوان الشعر الأندلسي، وموضوع رثاء المدن والممالك الزائلة؛ وهو يشكّل ديواناً مستقلّاً.

ثمّ ينتقل في الفصل الثالث إلى دراسة أشكال الشعر الجديدة التي ظهرت في الأندلس وتجلّت في الموشّحات ذات الهياكل البديعة غير المتناهية وشقيقتها العامّية؛ الأزجال، متحدّثاً عن نشأتهما وتطورهما وأغراضهما وموضوعاتهما الجزئيّة وخصائصهما الفنّيّة والأسلوبيّة.

ثمّ يقوم في الفصل الرابع بتعريف عدد من أهمّ أعلام الشعر الأندلسي، بحسب المفردات المقررة ؛ وهم: يحيى بن حكم الغزال، وابن هذيل، ويوسف بن هارون الرمادي، وابن درّاج القسطلّي، وابن شهيد الأشجعي، وابن حزم، وابن زيدون، والمعتمد بن عبّاد، وأبو الحسن الحصري، ولسان الدين بن الخطيب.

ويدرس في الفصل الخامس ابن خفاجة دراسة تحليليّة موسّعة في كلّ جزء من أجزاء حياته، معالجاً القضايا الاجتماعيّة والروحيّة لديه، موضّحاً سماته الشعريّة المميّزة في أثناء عرض أغراضه الشعريّة، وما فيها من تجديد في بنية الشعر العربي وروح الشعر؛ أو الصورة الفنّيّة خاصّة.

وينهد في الفصل السادس لتحليل قصيدة لابن حمديس الصقلّي تحليلاً أسلوبيّاً مبسّطاً بمستوياته المتعدّدة؛ مستوى البنية العامّة، فمستوى الدلالة، فمستوى التركيب، فمستوى اللفظ، فمستوى الصوت، فمستوى الصورة الفنّيّة.

ويعتمد الكتاب المنهج العلمي في البحث، والدقّة المتناهية في توثيق الشواهد الشعريّة والنثريّة التي استفاد منها، كما أنّه يعرّف قسماً كبيراً من الشعراء المذكورين في تضاعيف البحث؛ فمن كان منهم موجوداً في كتاب "الأعلام" للأستاذ خير الدين الزركلي فقد اقتصر على الإحالة عليه، ومن لم يكن منهم موجوداً فقد عرّف به واتّسع في ذكر مصادر ترجمته.

وهذه الصفحات التي تصافح أيديكم التي تفتحها، وتقبّل عيونكم التي تقرؤها، تبتعد عن كثير من الادّعاء لتقترب إلى شيء من العطاء، فتقدّم صورة مختصرة دقيقة لتطوّر الشعر الأندلسي، والموضوعات الرئيسة والأعلام البارزين فيه، وهي ليست سوى لبنة صغيرة أضعها في صرح المكتبة الأندلسيّة العظيم، ولعلّها تسدّ ثلمة كان لا بدّ من سدّها، وتستدرك نقصاً يجب استدراكه، ولكنّ كلّ بداية قد تحتمل الخطأ وتتّصف بالنقصان، فرحم الله من أهدى إليّ عيوبي، وحسبي أن أخلصت النيّة وبذلت الوسع، وفوق كلّ ذي علم عليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المؤلّف

تمهيد

الملامح العامّة للعصر الأندلسي

اسم الأندلس:

لم يحظ اسم الأندلس بدراسة متقصّية له في كتب التراث العربي والإسباني معاً إلى الآن، وإن برز شيء من الاهتمام بتفصيله في بعض الدراسات الحديثة[1]، ونقل كثيرٌ عن قليل ممّن توسّعوا في ذلك.

وأوّل ما نبدأ به هو ضبط اسم الأندلس، فالمشهور أنّ «الأَنْدَلُس بفتح الألف، وفتح الدال المهملة، وسكون النون بينهما، وضمّ اللام، ثمّ سين مهملة»[2].

لكنّ ياقوتَ الحَمَوي (ت ٦٢٦ هـ) يذكر هذا الاسم ويذكر ضبطاً آخر له وهو الأندُلس، ويرجّحه، فيقول: «الأندُلس: يقال بضمّ الدال وفتحها، وضمّ الدال ليس إلّا. وهي كلمة أعجميّة لم تستعملها العرب في القديم، وإنّما عرفتها العرب في الإسلام، وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام، وقد استعمل حذفهما في شعر ينسب إلى بعض العرب فقال عند ذلك:

سألتُ القومَ عنْ أنسٍ فَقالوا بأَنْدَلُسٍ وأَنْدَلُسٌ بعيدُ»[3]

أمّا أصول اسم الأندلس والأسماء التي أُطلقت على هذه شبه الجزيرة فثمّة شيء من الغموض يلفّها كما ذكر كولان [4].

ولعلّ أهمّ مؤرّخ عربيّ عرض لاسم الأندلس والأسماء القديمة التي كانت تُعرف بها هو ابن عبد المنعم الحميري (ت ق ٨ هـ)، إذ قال: «قيل اسمها في القديم ابارية، ثمّ سميّت

١- من أوائل من توسّع في هذه المسألة:شكيب أرسلان في«الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة»، ومصطفى صادق الرافعي في «تاريخ آداب العرب»، و ج.س. كولان في «دائرة المعارف الإسلاميّة، الأندلس» و د.أحمد هيكل في «الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة»، و د.الطاهر أحمد مكّي في «دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة».

٢- تقويم البلدان: ١٨٤

٣- معجم البلدان: ٢٦٢/١.

٤- دائرة المعارف الإسلاميّة: ١٧.

بعد ذلك باطقة، ثمّ سميّت اشبانية، من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه اشبان، وقيل سُميّت بالاشبان، سكنوها في الأوّل من الزمان. وسُميّت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها»[١].

وهذا القول يصيب قسماً كبيراً من الحقيقة، ولكنّه يحتاج إلى تحرير وتفسير وتدقيق، فالاسم الأوّل الذي عُرف لشبه الجزيرة هذه كان إيبريا (Iberia)، فقد نقل القلقشندي عن الرازيّ المؤرّخ عن المؤرّخ اليوناني القديم هروشيوش قوله في تفسير هذه اللفظة: «قال هروشيوش مؤرّخ الروم: أوّل من سكنها بعد الطوفان قومٌ يقال لهم: الاباريّون، وهم ولد طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام، فسكنوها بعد الطوفان»[٢].

والإيبيريّون شعب مجهول المصدر، وهم أقدم أمم غربي أوربا[٣]. قال شكيب أرسلان عنهم:«كانت أقدم أمّة عمرت تلك البلاد، ولم يُعرف قبلها هناك أمّةٌ أخرى»[٤].

ورأى أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ) أنّ أصل هذه المادّة مستمدّ من نهر فيها، قال: «يُذكر أنّ اسمها في القديم إبارية من وادي إبرُه»[٥].

وكان الفينيقيّون — وهم أجداد العرب الأوائل — أوّل من مدّنوا هذه البلاد وعمروها، فأدخلوا إليها حضارتهم، وجعلوها قسماً من مملكتهم أواخر الألف الثانية قبل الميلاد، فقد ذكرَ المؤرّخ يولي تسيركين أنّ المؤرّخ اليوناني ديودوروس وصف «الإسبان المتعاملين مع التجّار الفينيقيّين بالسذّج لعدم درايتهم بفائدة الفضّة. ويعتبر مثل هذا الوصف صحيحاً إذا أعدناه فقط إلى الأزمنة التي سبقت ظهور الدولة التريسيّة»[٦].

١– الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣٢ ، ونقل في صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣٢٨/٥.

٢– صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣٢٨/٥.

٣– دائرة المعارف الإسلاميّة: ٤١.

٤– الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة: ٣١/١.

٥– المسالك والممالك: ٥٨.

٦– الحضارة الفينيقيّة في إسبانيا: ٤١– ٤٢.

وقال الرافعي في تأريخه لحضارة هذه البلاد: «ولهذه البلاد إسبانيا في تاريخ الحضارة أربعة أعصر، الأوّل: عصر الفينيقيّين الذين اكتشفوها، والثاني: عصر الرومانيّين، والثالث: عصر القوطيّين، والرابع: العصر الإسلامي»[1].

فهذا القول على قدرٍ كبيرٍ من الأهمّيّة، وإن كان أنقص عصر اليونانيّين، لأنّه ينصّ على أنّ الفينيقيّين العرب هم الذين اكتشفوا هذه الجزيرة، وهذا الاكتشاف لا يعني أنّهم أوّل من سكن فيها، فقد سبقت إليها قبائل وثنيّة غير متمدّنة، بل يعني أنّهم أوّل من شيّد المدن الكبيرة فيها وأقام حضارةً عريقة فيها.

ولمّا دخل الفينيقيّون هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة نحو القرن الحادي عشر قبل الميلاد صادفوا الكثير من الأرانب فيها فسمّوها سبان Span أو ايشبانيم أي شاطئ الأرانب[2].

وعندما استعمرها اليونانيّون نحو سنة (٧٧٦ ق.م) استعملوا اللفظتين كلتيهما في كتاباتهم «إيبيريا وإسبانيا أو سبانيا» كما نجدهما عند المؤرّخ اليوناني هيرودوت (ق ٥ ق.م)، والكاتب اليوناني ارتيمادورو[3].

وعرف العرب هذا الاسم القديم الحديث لهذه الجزيرة، وورد في كتبهم الجغرافيّة فقال الإدريسي: «بلاد الأندلس المسمّاة باليونانيّة إسبانية». ونصّ ابن عبد المنعم على ذلك فقال: «اسم الأندلس في اللغة اليونانيّة اشبانيا»[4].

ولمّا ورث الرومانيّون في القرن الأوّل قبل الميلاد أملاك اليونانيّين حوّروا الاسم إلى هسبانيا "Hispania" ثمّ إلى سبانيا "Spania"[5].

وقد حاول بعض المؤرّخين العرب القدامى نسبة اسم إسبانيا إلى اسم ملك –كعادتهم – فذكروا أنّها سُمّيت بإسبانية لأنّ الرومان احتلّوها، وكان «ملكهم إشبان بن

١– تاريخ آداب العرب: ٢٠٦/٣.

٢– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ١٣.

٣– دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة: ٩–١١.

٤– نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: ٥٢٥/٢، الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣٢.

٥– دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة: ١١.

طيطش، وباسمه سميّت الأندلس إشبانية»[1].

وذكرَ بعضهم أنّ أصل الاسم هو أصبهان فتحوّل بلسانهم إلى أشبان، قال المقّري «وذكر بعضهم أنّ اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم، وقيل:بل كان مولده بأصبهان فغَلب اسمها عليه»[2].

وكلّ ذلك ما لا دليل علميّاً تاريخيّاً عليه.

أمّا باطقة أو باتيكة "Baetica" التي ذكرها ابن عبد المنعم سابقاً فهي لفظة أُطلقت على جنوبي هذه الجزيرة، قال شكيب أرسلان: إنّ «بلاد جنوبي إسبانية كان يقال لها إلى ذلك الوقت باتيكه»[3].

أمّا اسم الأندلس وأصله لدى القدامى والمحدثين فإنّ المؤرّخين العرب القدامى قد ذكروا أنّه أُخذ من الأندلش نسبةً إلى قوم الأندلشيّين فقد سبق أن ذكرنا قول ابن عبد المنعم الحميري إنّها «سمّيت – بعد ذلك – بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها»[4].

ونقل القلقشندي عن الرازي في كتابه الضائع «الاستيعاب في تاريخ الأندلس» قوله: « أوّل من ملكها بعد الطوفان – على ما يذكره عجمها – قوم يعرفون بالأندلش بالشين المعجمة، وبهم سمّي الأندلس، ثمّ عرّب بالسين المهملة»[5].

وعلّق د. أحمد هيكل على هذا القول بقوله: «فهذا تعليل يطابق أحدث التعليلات العلميّة المبنيّة على أسس تاريخيّة... أمّا قوله إنّ أصلها بالشين فسببه في رأيي أنّ السين أو الحرف S ينطق كثيراً في اللسان الإسباني بين السين والشين، لكنّ العرب ينطقونها سيناً خالصة،فكأنّ الإسبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشرّبة بالشين فلمّا

١– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٣٤/١.وانظر الكامل في التاريخ:٣٣٩/٢

٢– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٣٤/١.

٣– الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة:١/ ٣٢، وانظر: دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة: ١٢.

٤– الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣٢.

٥– صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣٢٨/٥.

جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها»[١].

وتحويل السين إلى شين أو قراءة اللفظة بالحرفين معاً هو أمر معروف في عدد من اللغات ومنها العربيّة، مثل الحمس والحمش: الغضب، وسرمه وشرمه: قطعه، وسباط وشباط: الشهر المعروف، وتسميت العاطس وتشميته، وسروال وشروال... [٢].

ويعلّل بعض المؤرّخين العرب القدامى هذا الاسم تعليلاً أسطوريّاً بنسبة المكان إلى عَلَم، ويتمحّل في ذلك فقد نقل ابن غالب (ق ٦هـ) عن الرازي أنّه قال: «وأندلس من ولد يافث بن نوح هو أوّل من عمر الأرض فسمّيت به»[٣].

أمّا المؤرّخون المحدثون من عرب ومستشرقين فقد توافق أكثرهم على أنّ اسم الأندلس قد استمدّ من لفظة الواندال، وهم قبائل جرمانيّة زحفت من الشمال إلى الجنوب حتّى جبل طارق واحتلّت الإقليم الجنوبي في شبه الجزيرة المسمّى باطقة أو باتيكه زهاء ١٨ عاماً في أوائل القرن الخامس ميلادي [٤] من (٤١١ – ٤٢٩ م) وأطلقت عليه اسمها فدعوه واندلوسية أو واندليسيا "Vandalicia".

ولـمّا جاء العرب المسلمون غيّروا شيئاً يسيراً في اللفظة، بإدراجها وفق قواعد العربيّة، وقوانين الصوت العربي، فقلبوا الواو همزة، فصارت "الأندلس" بدل "وندلس". ومجيء الهمزة بدل الواو معروف في العربيّة مثل جمع وجه: وجوه وأجوه، والتأكيد والتوكيد، والتأليف والتوليف، وأرّخ وورّخ[٥] أي قلبت واو "وندلس" المفتوحة إلى همزة فصارت "الأندلس"، وهي أكثر مناسبة وأوفر استساغة على الذوق والسمع العربيّين.

ولا يكاد يختلف المؤرّخون المحدثون على أنّ نسبة الأندلس جاءت من وندلس والواندال، ولكنّهم يختلفون فيمن أطلق عليهم ذلك، فيزعم بعضهم أنّ البربر «أهل إفريقيّة

١– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ١٥.

٢– انظر تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين لمجد الدين الفيروزآبادي.

٣– فرحة الأنفس (مجلّة معهد المخطوطات العربيّة): ٢٨١/٢/١

٤– دائرة المعارف الإسلاميّة: ١٨.

٥– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ١٣– ١٤.

أطلقوا اسمهم على البلاد التي جاؤوهم منها وسمّوا هذه البلاد بالأندلس»[1]. ولا دليل قاطعاً على هذا بل على العكس نجد اسم الأندلس محفوراً في المسكوكات والنقود العربيّة منذ سنة (٩٨) للهجرة أي بُعيد دخول المسلمين إليها بوقت يسير فقد كتب على وجه بعض النقود الأندلسيّة ما نصّه:

«ضرب هذا الدينار **بالأندلس** سنة ثمان وتسعين»[2].

وكانت لفظة " الأندلس" تعني كلّ شبه الجزيرة إلى جبال البرتات أو الأبواب الفاصلة بينها وبين فرنسا، ثمّ تقلّص هذا المدلول الجغرافيّ بحسب سيطرة العرب على أجزاء من شبه الجزيرة، حيث اقتصر في العصر الأخير لحكم العرب لها على جنوبها فحسب، وإلى الآن ما يزال اسم الأندلس أو أندلسيّا – أندلوثيا حاضراً في جنوبها، ويضمّ ثماني ولايات هي: قرطبة وإشبيليّة وغرناطة ومالقة وجيّان وقادس وولبة والمريّة[3].

ملامح جغرافيّة الأندلس

الأندلس شبه جزيرة تقع في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة للقارّة الأوربّيّة، تحيط بها المياه من جميع جوانبها ما عدا شمالها الشرقي، إذ تجاورها فرنسا، ويفصل ما بينهما جبال وعرة تسمى جبال البرانس أو البرتات أو الأبواب.

ويحدّها من الشرق والجنوب الشرقيّ والجنوب البحر المتوسّط، ويحيط بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال الغربي المحيط الأطلسي.

ويفصل الأندلس عن قارة إفريقيّة جزء صغير من البحر المتوسّط، وهو مضيق جبل طارق ويسمّى أيضاً بحر الزُّقاق، ولا يزيد عرضه في بعض المناطق على عشرة أميال أو خمسة عشر كيلومتراً أو مسافة نحو اليومين كما يقول ابن الشبّاط (ت٦٨١ هـ)[4].

١– الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة: ٣٢/١، وانظر: دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة: ٢٤–٢٦.

٢– دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة: ٢١.

٣– فصول في الأدب الأندلسي في القرن الثالث الهجري: ٣٠.

٤– صلة السمط وسمة المرط: ١٢٧– ١٢٨.

أمّا تحديد الأندلسيّين للأندلس فنجده في قول صاعد بن أحمد الأندلسي: «وأمّا حدود الأندلس، فإنّ حدّها الجنوبي منها الخليج الرومي الخارج ممّا تقابل طنجة في موضع يُعرف بالزقاق، سعته اثنا عشر ميلاً، ثمّ ينتهي إلى مدينة صور من مدائن الشام.وحدّاها الشماليّ والمغربيّ البحر الأعظم المسمّى اقيانس المعروف عندنا بحر الظلمات، وحدّها المشرقيّ في الجبل الذي كان فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين: بحر الروم والبحر الأعظم... هو الحاجز ما بين الأندلس وبين بلاد افرنسة من الأرض الكبيرة التي هي بلاد افرنجة العظمى. والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنّها كما ذكرنا منتهية إلى بحر اقيانس الأعظم الذي لا عمارة وراءه»[1].

ومن حيث تضاريس الأندلس فإنّ أغلب الأندلس هضبة كبيرة تسمّى هضبة مسّيتا يتخلّلها جبال وسهول ووديان وأنهار وينابيع عذبة ومعدنيّة، ففي الجنوب جبال سيرّا نيفادا، ويسمّيها العرب جبال الثلج، يليها باتجاه الشمال جبال الشارات، ثمّ جبال كنتبريّة أو الجبال القنطبريّة في الشمال، وتنحدر الهضبة في الغرب حتّى تنتهي إلى سهل منبسط واسع كبير هو السهل الغربيّ[2].

وفي الأندلس أنهار متعدّدة؛ شطر منها يصبّ في المحيط الأطلسي، وأهمّها: نهر الوادي الكبير في جنوبي الأندلس، وتقع عليه قرطبة وإشبيليّة، ثمّ نجد شمالاً منه نهر وادي يانه، وتقع عليه مدينتا مارِدة وبَطَلْيُوس، ثمّ شمالاً نهر التاجُه، وتقع عليه مدينة طُلَيْطُلَة، ثمّ نهر دويرة. وثمّة أنهار تصبّ في البحر المتوسّط وأهمّها نهر إبرُه، وتقع عليه مدينة سرقسطة، ونهر الوادي الأبيض ويقع شمال بلنسية، ونهر شُقْر وتقع عليه مدينة شقر، ونهر شقورة وتقع عليه مدينة مرسية، وثمّة أنهار أصغر منها وعيون كثيرة [3].

ولاختلاف مصبّ أنهار الأندلس وتباين هبوب رياحها جعلها «عجم الأندلس»

١- طبقات الأمم: ١٥٧-١٥٨.

٢- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ١٧-١٨، في الأدب الأندلسي (د.الداية): ١٩.

٣- دائرة المعارف الإسلاميّة: ٦٦-٦٧.

أندلسَيْن، قال ابن غالب: «ذكرت النصارى الأوائل عن الأندلس أنّه بلد ذو ثلاثة أركان، قد أحاط بها البحران المحيط والمتوسّط الخارج إلى بلد الشام.وذكرت عجم الأندلس أنّ الأندلس أندلسان؛ أدنى وأقصى، وقال الرازي: لاختلاف هبوب رياحها، ومواقع أمطارها، ومجاري أنهارها، أندلس غربيّ، وأندلس شرقيّ»[1].

وأمطار الأندلس غزيرة بصفة عامّة ومياهها كثيرة وقد تحدث سيول مغرقة، وفي قبالة ذلك قد يشحّ الماء ويبخل القطر ويهلك الحرث والضرع وتحدث مجاعات في أوقات قليلة كما ذكر ابن حيّان[2].

يتنوّع مناخ الأندلس تنوّعاً شديداً، بحسب امتدادها في خطوط العرض، وبحسب تضاريسها، ففي المناطق الشماليّة والجبال المرتفعة يشابه مناخَ القارّة الأوربيّة، فيشتّد البرد وتكثر الثلوج والأمطار، وفي المناطق الوسطى والجنوبيّة يشابه مناخَ بلاد الشام، والشواطئ الشماليّة المقابلة لها في المغرب والجزائر وتونس من قارّة إفريقيّة، فيميل الجوّ إلى الاعتدال في الفصول والأمطار والحرارة، قال أحمد بن محمّد بن موسى الرازي عن الأندلس: «هي موسطة من البلدان، كريمة البقعة، بطبع الخلقة، طيبة التربة مخصبة القاعة، منبجسة العيون الثرار، منفجرة بالأنهار الغزار، قليلة الهوامّ ذوات السموم، معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعمّ سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسّط من الحال، وفواكهها تتّصل طول الزمان، فلا تكاد تُعدم لأنّ الساحل ونواحيه يبادر بباكوره، كما أنّ الثغر وجهاته والجبال التي يخصّها برد الهواء وكثافة الجوّ تستأخر بما فيها من ذلك حتّى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان، فمادّة الخيرات فيها متّصلة كلّ أوان»[3].

وتكثر أقوال القدامى من مشارقة وأندلسيّين في وصف الأندلس واعتدال أجوائها وكثرة خيراتها، «قال أبو عمر السالمي في كتابه المسمّى بـ "درر القلائد وغرر الفوائد":

١- فرحة الأنفس: ٢٨١/٢/١.

٢- المقتبس: ١٤٣/٢/٢ ، ٥/ ١٠٣.

٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٤٠/١، وانظر ١٢٩/١-١٣٠.

الأندلس من الإقليم الشامي وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وتراباً وأعذبها ماءً، وأطيبها هواءً وحيواناً ونباتاً، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوسطها»[١].

وعطّر ابن عبد المنعم الحميري روضه المعطار بذكرها فقال: «والأندلس بقعة كريمة طيبّة التربة كثيرة الفواكه، والخيرات فيها دائمة، وبها المدن الكثيرة، والقواعد العظيمة، وفيها معادن الذهب والفضّة والنحاس والرصاص والحديد والزئبق واللازورد...» [٢].

وأخيراً قال ياقوت الحموي[٣]: «ولولا خوف الإضجار والإملال لبسطت القول في هذه الجزيرة، فوصفها كثير، وفضائلها جمّة، وفي أهلها أئمّة وعلماء وزهّاد، ولهم خصائص كثيرة ومحاسن لا تحصى».

لذلك كلّه فقد وصفت الأندلس في العصر الحديث وصفاً حالماً فصوّرت بالجنائن الغنّاء والحدائق الساحرة، فهذا وإن كان صحيحاً في بعض الأماكن فهو لا يشمل الأندلس كلّها أو جلّها، لذلك فقد رغب العرب في النزول والإقامة في المناطق الجنوبيّة والشرقيّة والغربيّة السهليّة وحول شواطئ البحار وسواحل الأنهار حتّى ذكر أنّه كان يوجد حول نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه قرطبة وإشبيليّة «اثنا عشر ألف قرية، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلّا بالأندلس، ومن بركتها أنّ المسافر لا يسير فيها فرسخين دون ماء أصلاً»[٤].

لذلك تميّزت الأندلس من بين البلدان الإسلاميّة فجمعت أحسن ما لدى هذه البلدان، ووصفت بأفضل ما لدى هذه البلدان، قال ابن غالب[٥]: «الأندلس شاميّة في طيب أرضها ومياهها، يمانيّة في اعتدالها واستوائها، أهوازيّة في عظيم جبايتها، عدنيّة في منافع سواحلها، صينيّة في جواهر معادنها، هنديّة في عطرها وطيبها».

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/١٢٦.

٢- الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣٢.

٣- معجم البلدان: ١/٢٦٤.

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/٢٢٦.

٥- فرحة الأنفس: ٢٨١.

أوّلاً: عصر الولاة والدولة الأمويّة في الأندلس:

أ): عهد الولاة: (٩٢-١٣٨هـ)

بدأت مرحلة الحكم العربي الإسلامي للأندلس ذلك الصقع البعيد بعد جواز طارق ابن زياد وجيشه البحر إلى شبه الجزيرة الإيبيريّة وانتهاء الفتح الذي أتمّه بمساعدة موسى بن نصير، وبعد إنهاء شطر كبير منه عاد موسى بن نصير إلى المشرق، ونصّب ابنه عبد العزيز أوّل والٍ على الأندلس سنة ٩٦هـ، وبذلك أصبحت الأندلس ولاية عربيّة تابعة للخلافة الأمويّة في المشرق، ومن ثمّ صار الولاة يُنصّبون من قبل الخليفة في دمشق مباشرة أو أحد ولاته في إفريقيّة والمغرب حتّى عام ١٣٨هـ[١]، و«دام عصر الولاة في بلاد الأندلس أربعين سنة تولّى خلالها إمارة الأندلس عشرون والياً أي بمعدّل سنتين في المتوسط لكلّ والٍ وهو رقم يدلّ على اضطراب هذه الفترة وعدم استقرارها»[٢].

ب) عهد الإمارة:(١٣٨-٣١٦هـ)

يبدأ منذ تسنُّم عبد الرحمن الداخل الحكم عام (١٣٨هـ) بحنكته وذكائه، وإقامة إمارة أندلسيّة منفصلة عن المشرق العربي والدولة العبّاسية، عاصمتها ودار حكمها قرطبة، وينتهي بانقضاء مدّة حكم الأمير عبد الله بن محمّد (ت ٣٠٠هـ)، ويتّسم الشطر الأوّل منه حتّى نهاية حُكْم الحَكَم الرَّبَضِي(ت ٢٠٦هـ)، بأنّه كان غير مستقرّ؛ داخليّاً: حيث الصراع العربي على الحكم، ومحاولة أبي جعفر المنصور إثارة الفتنة في الأندلس لاسترداد حكمها، وفتنة الربض[٣]، والثورات البربريّة، وخارجياً: حيث الحروب مع الإسبان في بعض المناطق الشماليّة التي لم تطأها سنابك الخيل العربيّة فيما وراء جبال البرانس.

١- ينظر في هذا المجال: فتوح إفريقيّة والأندلس لابن عبد الحكم ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس،تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيّة، أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمجهول.

٢- المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس: ١٧٨.

٣- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها: ١١٨.

ويبدأ الشطر الثاني منه بتسلّم الأمير عبد الرحمن بن الحَكَم مقاليد الإمارة، ويتّسم عهده بالاستقرار النسبي والازدهار الحضاري والرخاء والترف لتدفّق الثروات، مع وجود بعض الثورات والفتن الداخليّة والحروب الخارجيّة وأخطرها غزو النورمانديّين للشواطىء الغربيّة، ثمّ ينقلب ذلك الاستقرار إلى الاضطراب حتّى انتهاء الإمارة، فلم تفتأ هذه الفتن وتلك الحروب تشتعل في سائر مرحلة الإمارة ولاسيّما فتنة عمر بن حفصون وانفصال بعض الأقاليم حتّى فتّ من عضد الدولة الأمويّة وكادت شمسها تغيب[1].

ج) عهد الخلافة الأموية:(٣١٦-٤٢٢هـ)

يبدأ بحكم الخليفة الأمويّ الأوّل والأقوى في الأندلس عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)، وينتهي بحجابة عبد الرحمن بن أبي عامر (ت ٣٩٩ هـ)، في هذا القرن بلغت الأندلس أوج قوتّها السياسيّة والعسكريّة وذروة ازدهارها الحضاري، وفيه انتقلت الدولة من الإمارة إلى الخلافة فلم يكن الأمراء في القرن السابق ليتلقّبوا بها لوجود خليفة المسلمين في المشرق حتّى تلقّب عبد الرحمن الثالث باسم الخليفة[2] سنة ٣١٦ هـ، سوّغ هذا التلقّب وقيام الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية في المشرق فصار هنالك - خلافاً للعادة - خلافتان ضعيفة في المشرق، وقويّة في الأندلس، فقد رأب الناصر صدع الدولة الذي كاد يهدّ أركانها، ولاسيّما انفصال بعض المناطق من الدولة، والفتن الداخليّة والحروب الخارجيّة مع مملكتي ليون ونافارا، حتّى صارت الأندلس في عهده أقوى ما تكون وأشدّ هيبة من جميع العهود الأندلسيّة، يقول د. أحمد هيكل «وقد عرفت الدول الأخرى قوّة الخلافة القرطبيّة فسعت السفارات من ملوكها إلى الخليفة الأندلسي، وكان من أشهر تلك السفارات سفارة ملك الروم التي استقبلها الخليفة في قصر الزهراء، كما استقبل به ملوك ليون ونافارا في عظمة وجلال »[3] واستمرّ ابنه الحكم المستنصر على طريقته[4].

١- انظر: الأدب العربي في الأندلس: ٥٦.

٢- انظر كتاب: تاريخ الناصر لمؤلّف مجهول:٥٥، المقتبس (ج٥): ٢٤١.

٣- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ١٧٩.

٤- انظر كتاب: المقتبس (ج٧) يتحدث عن خمس سنوات من حُكْم الحَكَم المستنصر (٣٦٠- ٣٦٤ هـ) .

وبعد هذين الحاكمين العظيمين قامت في كنف هذه الدولةِ الحجابةُ العامريّة إذ كان هشام بن الحكم المستنصر صغيراً فتولّى أبو عامر محمّد بن أبي عامر الحجابة وتلقّب بالمنصور سنة ٣٧١، وكان له الأمر والنهي بعد أن تخلّص من جميع منافسيه، وظلّت الدولة منيعة في عهده وعهد ولده الحاجب عبد الملك المظفّر، وفتحت مناطق لم تكن قد فتحت من قبل في شبه الجزيرة الأندلسيّة.

ثانياً: عصر ملوك الطوائف: (٤٢٢– ٤٨٤هـ)

تسبق هذا العصرَ مرحلةُ اضطراب وفتنة بدأت بخلافة محمّد المهدي (٣٩٩-٤٠٠ هـ) وانتهت بخلافة هشام المعتدّ بالله (ت ٤٢٢هـ) إذ لم يتوقّف الصراع على السلطة بين الأمويّين والبربر حتّى انفرطت حبّات عِقد الخلافة الأمويّة، وانقسمت الأندلس دويلات كثيرة متناحرة، تطمع كلّ واحدة منها في الأخرى، وأهمّها: بنو عبّاد في إشبيليّة، ومن ثمّ بنو جَهْور في قرطبة، وبنو الأفطس في بَطَلْيُوس، وبنو صُمَادِح في المريّة، وبنو ذي النون في طُلَيْطُلَة، وبنو حمّود في مالَقة والجزيرة، وبنو زِيري في غرناطة، واستمرّت هذه الدويلات حتّى نحو سنة (٤٨٤ هـ) وبعدها[1]، و«كانت كلّ دويلة من دويلات الطوائف تتألّف من مدينة وما حولها، أو من مدينتين، وكان ملوكها من عصبيّات مختلفة عرباً وبربراً ومولّدين (مسلمين إسبانيي الأصل) ثمّ كانوا متنافسين متخاصمين يغزو بعضهم بعضاً، وربّما استعان بعضهم بالطاغية (بملك من ملوك النصارى الإسبان) على بعض ولقد اتّخذ ملوك الطوائف جميع مظاهر الدول من التلقّب بألقاب الخلافة، ومن الحجابة (رئاسة الوزراة) والوزارة ومن أسباب الترف ، كما كانوا يجمعون في بلاطاتهم الأدباء والشعراء فيغدقون عليهم الأموال، يمثّل ذلك كلّه قول ابن رشيق[2](ت٤٥٦ هـ):

مِـــمَّا يُزَهِّـــدُنِي في أرضِ أندلـــسٍ ... ألقـــابُ مُعْتَمِـــدٍ فيهـــا ومُعْتَضِـــدِ

ألقـــابُ مَمْلَكَـــةٍ في غـــيرِ موضعِـــها ... كـالهرِّ يحكـي انتفاخـاً صـورةَ الأسـدِ"

١– انظر تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين: ١٢.

٢– تاريخ الأدب العربي لفرّوخ: ٤/ ٣٨٦.

وفي هذا العصر اتّسعت مساحة الممالك الإسبانيّة التي كانت محصورة في مناطق محدودة في الشمال والشمال الغربي، وازدادت وطأتها على دويلات ملوك الطوائف حتّى زال بعضها، ودفع بعض آخر الجزية لملوكها ونال المسلمين منها أذى شديد[1].

ثالثاً: عصر المرابطين:(٤٨٤ – ٥٤٢ هـ)

استغاث بعض ملوك الطوائف بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين، فدخل الأندلس وجيشه، وانتصر في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ انتصاراً باهراً ردّ فيه خطر الإسبان، ثمّ عاد إلى العدوة المغربيّة، ولكنّه وجد أنّ ملوك الطوائف قد عادوا إلى ما كانوا عليه من اختلاف وتناحر فرجع إلى الأندلس مرّة ثانية وثالثة عام ٤٨٣ وضمّها إلى دولته، وبذلك بدأ الحكم المرابطي المغربي للأندلس، وغدت الأندلس ولاية من ولايات الدولة المرابطيّة «يديرها في أغلب الأحيان واحد من أبناء أمير المسلمين وتحت يده ولاة موزّعون في مختلف المدن، أمّا أمير المسلمين فيجتاز إليها بين الحين والحين رغبة في الجهاد أوّلاً، وفي تفقّد شؤونها العامّة ثانياً »[2] ، التي أخذت تتردّى في زمن حفيده تاشفين بن علي إذ دبّ الضعف والوهن في أعضاء الدولة واستفحلا فقضت نحبها قبل نهاية العقد السادس من عمرها عام ٥٤٢ هـ.

رابعاً: عصر الموحّدين:(٥٤٢– ٦٦٧ هـ)

اضطربت أحوال الأندلس في أواخر عهود المرابطين، واستغلّ الإسبان ذلك فتوسّعوا واستولوا على كثير من الثغور فاستغاث بعض العلماء الأندلسيين وعلى رأسهم أبو بكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ) بخليفة الموحّدين عبد المؤمن بن علي، فسيّر جيشاً إلى الأندلس سنة (٥٤١هـ)، بسط فيه سلطة الموحّدين واستولى على قرطبة سنة (٥٤٣هـ) واستمرّ في توسيع نفوذه وصدّ الإسبانيّين.

ويتسم هذا العصر– سياسيّاً – بأنّه عصر جهاد متواصل إذ ظلّ الخلفاء الموحّديّون

١– الشعر في عهد المرابطين والموحّدين في الأندلس: ١١.

٢– انظر تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين: ٢٩.

في سجال مع الإسبانيّين والبرتغاليّين، وقد كانت كفّتهم راجحة ولاسيّما بعد وقعة الأَرَك الشهيرة سنة (٥٩١هـ) ، بيد أنّ خسارة الموحدين في معركة العُقاب سنة (٦٠٩هـ) «كانت السبب في هلاك الأندلس»، ثمّ تولّى الحكم خلفاء ضعاف تصارعوا عليه، واستغلّ ابن هود الفرصة، واستقل ببعض أجزاء من الأندلس، وتلقّب بالمتوكّل وهزم والي الموحّدين، وعادت الأمور إلى أسوأ ممّا كانت عليه حتّى سقطت قرطبة بأيدي الإسبان سنة (٦٣٣هـ).

خامساً عصر بني نصر:(٦٢٩-٨٩٧ هـ)

ومع «عدم مقدرة الموحّدين على حماية الأندلس؛ فإنّ أهل الأندلس رأوا أنّه لا بدّ من القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم ما تبقّى من بلدهم»[١]، فثار ابن الأحمر على ابن هود، وأسّس دولته وجعل غرناطة عاصمة ملكه (٦٣٥هـ)، و«استمرّت هذه المملكة مدّة قرنين ونصف من الزمن استطاعت خلالها الوقوف في وجه عدوّتها إسبانيا التي تفوّقت عليها في العدَدِ والعُدَدِ والإمكانيّات... ومع ذلك كان لها مواقف مشرّفة في النضال وحقّقت انتصارات عدّة على الإسبان بفضل مؤازرة جيرانها المرينيّين»[٢].

وتوالى على حكم المملكة الصغيرة التي ضمّت أشلاء الأندلس ما يزيد على عشرين سلطاناً وقد ترجّحت أمور الدولة فيها بين قوة نسبيّة وضعف شديد بسبب الفتن الداخلية والحروب مع بني مرين وحركة الاستغلاب الإسبانيّة، حتّى ازداد الوهن بعد موت يوسف الثالث (ت٨٢٠هـ) واستمرّ سقوط المدن الأندلسيّة حتّى أسدل الستار على أعظم حضارة في العصر الوسيط بتسليم أبي عبدالله الصغير محمّد بن عليّ غرناطة المعقل الأخير للمسلمين[٣] سنة (٨٩٧هـ).

---

١ – التاريخ الأندلسي: ٥١١، وانظر: خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة:١– ٩، وانظر في هذا المجال: اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة لابن الخطيب، جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى لابن عاصم، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وأزهار الرياض في أخبار عياض للمقّري.

٢ – الغزل في الشعر الأندلسي في ظلّ بني الأحمر: ١٥.

٣ – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين: ٢٦٣.

ملامح البيئة الاجتماعيّة: السكّان

تعاقب على الأندلس قبل الفتح الإسلامي لها أمم متعدّدة وشعوب متنوّعة، أوّل ما نعرف منهم الإيبيريّون الذين لم يكونوا من أهل حضارة، وظلّوا كذلك حتّى حكمها الفينيقيّون ومدّنوها في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ثمّ استولى عليها الإغريقيّون في القرن السابع قبل الميلاد، ثمّ لحقهم القرطاجنّيّون في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمّ ورثها الرومانيّون في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ونشروا فيها لغتهم والدين المسيحي، ثمّ دخلتها في أوائل القرن الخامس الميلادي قبائل جرمانيّة تعرف بالواندال أو الواندلس، واستقرّوا في جنوبها، ثمّ تغلّب عليهم القوط بعد مدّة يسيرة، وأقاموا دولة عاصمتها طُلَيْطُلَة[1]، ظلّت حتّى الفتح الإسلامي للأندلس سنة (٩٢هـ =٧١١م).

وهذا الفتح الإسلامي استهلّه أوّلاً البربر المسلمون، ثمّ لحقهم العرب ومواليهم بعد وقت قصير، وأتمّوا الفتح، لذلك فإنّ الخيوط التي كوّنت النسيج الاجتماعي للأندلس كانت متنوّعة ومختلفة الألوان، وقد غلب عليها اللون العربي واصطبغت بالدين الإسلاميّ الحنيف.

ولم يخل هذا التركيب الاجتماعي من بعض التفكّك لتباين طباع هذه المكوّنات من عرب وبربر وإسبان، ولاختلاف ديانتها من إسلاميّة ومسيحيّة ويهوديّة.

أوّلاً: عناصر المجتمع الأندلسي

١. العرب:

وهم العنصر البشري الغالب على سائر العناصر التي يتكوّن منها المجتمع الأندلسي بعد الفتح الإسلامي لها، وقد دخل عدد قليل من العرب إلى الأندلس في الحملة الأولى للفتح في جيش طارق بن زياد الذي غلب عليه العنصر البربري المسلم، ثمّ جاء العرب في جموع غفيرة تقدّر باثني عشر ألف رجل، أو ثمانية عشر ألف رجل من وجوه العرب

١- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ٢١-٢٣.

وبعض الموالي في جيش موسى بن نصير سنة (٩٣ هـ)، وسمّيت بالطالعة الأولى للعرب[١]، ثمّ كانت الطالعة الثانية للعرب مع القائد الحُرّ بن يوسف الثَّقَفِي الذي جاء والياً على الأندلس سنة (٩٧هـ) بصحبة أربعمئة رجل وفارس من العرب. ومعظم الطالعتين الأولى والثانية كانوا من العرب اليمانيّين القحطانيّين وقد عرفوا باسم «البلديّين» لأنّه على أكتافهم كان عبء الفتح، وعلى أيديهم تمّ، فكانوا يعدوّن أنفسهم أصحاب بلد الأندلس الحقيقيّين[٢].

والطالعة الثالثة للعرب طالعة بَلْج بن بِشْر القيسي سنة (١٢٤هـ) ومعظمهم من العرب العدنانيّين، وعددهم عشرة آلاف رجل، وسمّوا بالشاميّين.

وقد نشبت بعض الخلافات بينهم وبين البلديّين، فكان البلديّون يقولون لهم: «بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنّا»[٣]. كما نشبت بينهم وبين البربر حروب وفتن كثيرة. واستمرّت الوفود العربيّة ولاسيّما الأمويّة بالقدوم إلى الأندلس والاستقرار بها بعد سقوط الدولة الأمويّة في المشرق (سنة ١٣٢هـ) وقيامها في الأندلس سنة (١٣٨هـ) خوفاً من بطش العبّاسيين وتنكيلهم بهم، قال المقّري: «اعلم أنّه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس، وتتامّ فتحها، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جراثيم العرب وسادتهم جماعة وأورثوها أعقابهم، إلى أن كان من أمرهم ما كان»[٤].

وفي جمهرة الأنساب لابن حزم تفصيل دقيق للقبائل العربيّة وأماكن نزولها في الأندلس[٥]، وكان العرب حكّام الأندلس وسادتها فنزلوا في أخصب المناطق وأطيبها في الأندلس، وشيّدوا حضارة عظيمة لم تزل آثارها دالّة عليها.

١- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها: ١٥.

٢- فتوح إفريقيّة والأندلس: ٩٦.

٣- تاريخ افتتاح الأندلس: ٤٢. أي عن قرطبة.

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/٢٩٠.

٥- انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم.

٢. البربر:

كان أكثر جيش طارق بن زياد المكوّن من نحو (٧٠٠٠) جندي الذي عبر إلى الأندلس وشرع في فتحها من البربر المسلمين من شمال إفريقيّة، وما إن تمّ النصر للمسلمين عامّة حتّى وفد الكثير منهم إلى الأندلس طلباً للرزق والاستقرار، وساعدهم في ذلك قرب بلادهم من الأندلس.

وفضّل البربر النزول في المناطق الجبليّة في جنوبي الأندلس وغربها لشبهها بموطنهم الأصيل، وقد بيّن ابن حزم في جمهرة أنساب العرب منازل البربر في الأندلس وقبائلهم، وقال المقّري: تسامعوا «بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كلّ وجه، وخرقوا البحر على كلّ ما قدروا عليه من مركب»[١].

ووصفهم موسى بن نصير للخليفة سليمان بن عبد الملك فقال: «هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسيّة، غير أنّهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد»[٢]، وقال صاحب أخبار مجموعة: «إنّ بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة وثبوا في أقطار الأندلس »[٣].

ففي عهد الإمارة ساعد البربر عبد الرحمن الداخل في حربه على الوالي يوسف الفهري، ولكنّهم قاموا بثورات متعدّدة وفتن كثيرة، وحاولوا الاستقلال ببعض المناطق في الأندلس كما فعل شقيا بن عبد الواحد البربري في شَنْتَمريّة، والفتح بن موسى بن ذي النون (٣٠٠هـ) الذي نادى بنفسه أميراً في قلعة رَبَاح.

وعندما امتدّ ملك الخليفة الأوّل عبد الرحمن الناصر إلى بعض أجزاء المغرب زادت هجرة البربر إلى الأندلس، واعتمد عليهم المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢هـ) حتّى صاروا قوة كبيرة في عهده، وفي مطلع القرن الخامس كانوا وقود الفتنة إذ دخلوا قرطبة واستباحوها

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢٥٩/١.

٢- سير أعلام النبلاء: ٤٩٩/٤، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ١٤٧/١.

٣- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها: ٣٨.

وعلى أيديهم كان «إبطال الخلافة، وتفريق الجماعة، والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة»[1].

ثمّ كوّنوا دويلات في عهد الطوائف كدويلة بني ذي النون في طُلَيْطُلَة، ودويلة بني زِيْري في غرناطة، ودويلة بني الأفطس في بَطَلْيُوس.

وقد سخر منهم كثير من الشعراء كالسُّمَيْسِر(ت ٤٦٠هـ) الذي قال فيهم:

رأيــتُ آدمَ في نــومي فقلــتُ لــهُ أبــا البريّــةِ إنَّ النــاسَ قــدْ حكمــوا

أنَّ البرابــرَ نســلٌ منــكَ قــالَ إذنْ حــوّاءُ طالقــةٌ إنْ كــانَ مــا زعمــوا[2]

أشار المقّري إلى أنّ أهل الأندلس عرفوا ببغضهم للبربر وعداوتهم لهم «فلم تجد أندلسيّاً إلّا مبغضاً بربريّاً وبالعكس»[3].

وواضح أنّ هذا كان بسبب فتك البربر بالعرب في قرطبة إبّان الفتنة، وأنّهم كانوا أحد أسباب تدهورها وسقوطها، وفي قبالة ذلك كان للبربر يد بيضاء على أهل الأندلس إذ أنقذوها من براثن القشتاليّين، وتداعوا إليها وأغاثوها، وانتصروا في معركة الزلّاقة بقيادة يوسف بن تاشفين؛ أمير المرابطين الذي ارتأى بعد الجواز الثالث له إلى الأندلس أن يضمّها إلى مملكته ويجعلها ولاية تابعة لدولة المرابطين المغربيّة البربريّة الصنهاجيّة، ثمّ ورث الأندلس منهم الموحّدون البربر الزناتيّون، ثمّ عاد الحكم للعرب مع بني نصر الخزرجيّين سنة (٦٣٥هـ) إلى نهاية الحكم العربي للأندلس.

وكما كان للبربر المسلمين فضل كبير في فتح الأندلس فإن لهم أثراً عميقاً في نشر الإسلام فيها، لأنّهم كانوا أسرع اندماجاً من العرب في البيئة الجديدة وأكثر تزاوجاً بنساء البلاد المحلّيّات،زيادة على إتقانهم للعربيّة وتفقّههم في الدين الإسلامي فصار منهم العلماء والشعراء كابن درّاج القسطلّي، والحاجب المصحفي، وألّف بعضهم كتاباً في مفاخر البربر.

١- المقتبس (تح حجّي): ١٩٣.

٢- شعر السميسر:٢٣٢، وتنسب لابن سهل اليكّي، انظر زاد المسافر: ١٢٠.

٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢٤٤/١.

٣. المولّدون:

هم الذين نتجوا من زواج المسلمين من عرب وبربر بالإسبانيّات والصقلبيّات، فقد ترك كثير من الفاتحين زوجاتهم في بلدانهم، وتزوّجوا ببنات أهل البلاد والأوربيّات لما اشتهرن به من جمال ووسامة وصفات تختلف عمّا لدى العرب من شقرة الشعور وزرقة العيون وبياض البشرات، فنتج من ذلك جيل وأجيال بعده امتزجت فيه الدماء العربية والبربريّة بالأوربيّة، وحملت مورّثات الجميع من قوّة وشجاعة، ونجدة من العرب والبربر ومن شقرة ورقّة من الأوربيّات وإن طبعوا بطابع الإسلام لأنّ الولد يتبع أباه في دينه وثقافته وتراثه.

ويعدّ الوالي الأوّل عبد العزيز بن موسى بن نصير أوّل من تزوّج بإسبانية، وتزوّج الحكم المستنصر بصُبْح وهي أمّ ولده هشام، وتزوّج الحاجب المنصور من أميرة سمّاها عَبْدَة، وسواهم كثر[١].

وتألّفت من المولّدين جمهرة كبيرة من السكّان، وسيطرت على النشاط الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وإن كان بعضهم قد تعصّبوا لأصولهم الإسبانيّة والأوربيّة واحتفظوا بأسمائهم القديمة مثل بني غَرْسِيَّة، وبني رُودلف، وبني إنجلين، وبني مَرْدَنِيْش وبني القَبْطُرْنَة، وتولّى بنو قِسِيّ منهم ولاية الثغر الأعلى[٢].

وقد قام بعضهم بفتن كثيرة في القرن الثالث الهجري وأرادوا القضاء على الحكم العربي والانفصال عنه، فاستعان المولّدون في طليطلة بالنصارى، ولكنّهم هزموا أمام جيش الدولة هزيمة نكراء في وادي سليط سنة (٢٤٠هـ) وثار فيهم المولّد عبد الرحمن بن مروان الجلّيقي في ماردة، ويحيى بن بكر بن رودلف في شنت مريّة، وأشدّهم شوكة وأكثرهم قوّة وعناداً هو عمر بن حفصون الذي دامت فتنته أكثر من سبعين سنة، حتّى قضي عليها في عهد الناصر لدين الله سنة (٣١٥هـ).

١- التصوير الفنّي للحياة الاجتماعيّة في الشعر الأندلسي:٣٣.

٢- صور من المجتمع الأندلسي: ٣٤.

وقامت في القرن الثالث الهجري مناقضات شعريّة شهيرة بين شعراء العرب كسعيد ابن جُودي وسَوَّار بن حمدون وشعراء المولّدين كالعَبْلي، ثمّ تلاشى هذا الأمر لاختلاط الناس وضعف العصبيّة، وقوّة الدولة العربيّة في القرن الرابع الهجري.

٤. المسالمة:

وهم كلّ من دخل في الإسلام من نصارى أهل البلاد المحلّيّين، فقد كان لسماحة الإسلام وروعة تعاليمه ووفاء المسلمين ورحمتهم البالغة الأثر البليغ في دخول عدد كبير من نصارى الأندلس في الإسلام، ولأنّهم لم يتعرّضوا لأيّ إكراه ديني بل تعرّضوا لإغراء، فهم عندما يسلمون تسقط عنهم الجزية المفروضة على أهل الذمّة في الدين الإسلامي، ويصيرون كالمسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وصار منهم العلماء والقضاة كأحمد بن سليمان ابن إليان القوطي القرطبي (ت ٣٨٨هـ) الذي قال فيه ابن الفرضي: «دخل المشرق حاجّاً، وكان رجلاً صالحاً مشاركاً في فنون العلم مع سلامة وأمانة»[١].

٥. المستعربون (عجم الأندلس):

هم الذين احتفظوا بدينهم من النصارى الإسبان، وظلّوا يعيشون بين العرب في أحياء خاصّة بهم، ويتكلّمون بلغتهم حيناً، وباللغة العربيّة أحايين كثيرة، وعوملوا وفق الشريعة الإسلاميّة بوصفهم من أهل الذمّة، وعاشوا في كنفها وحمايتها، وتركت لهم كنائسهم وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحريّة ومنحوا الحقّ في تنظيم أمورهم وشؤونهم كما يشاؤون، وعقد المؤتمرات الدينيّة، ونجد جانباً من هذه الأمور في عهد الوالي الأوّل عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير في رجب سنة (٩٤هـ) وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غندرش أنّه نزل على الصلح، وأنّ له عهدَ الله وذمّة نبيّه- صلّى الله عليه وسلّم- ألّا يقدّم له ولا لأحد من أصحابه ولا

١- تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس: ٧١/١.

يؤخّر، ولا ينزع من ملكه، وأنّهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرّق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم ولا تنزع عن ملكه ما تعبّد ونصح»[1].

وقد استحدث عبد الرحمن الداخل لهم منصب القومس وهو رئيسهم، وعيّن عليهم أرطباس وردّ عليه عشرين ضيعة، ثمّ صاروا ينتخبون رئيسهم بأنفسهم[2]، وكان لهم قضاة يفصلون في أمورهم مثل حيزون الذي كان قاضي نصارى قرطبة في عهد الحكم المستنصر، وكان يترجم له ما يقوله وفود الإسبان إليه[3].

وقد تأثروا بالعادات والتقاليد العربيّة الإسلاميّة في ملابسهم وطعامهم وشرابهم، فقلّدوا العرب في لباسهم، وامتنع بعضهم عن أكل الخنزير، وقاموا بالختان، وتسمى بعضهم بأسماء عربية كالأسقف ربيع بن زيد، وأسقف قرطبة أَصْبَغ بن عبد الله بن نبيل، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم(٤)، وأتقنوا اللغة العربيّة إتقاناً عجيباً.

وهنا نذكر تلك الصيحة التي أطلقها رجل الدين المسيحي مستصرخاً مستعجباً من انصراف جمهرة كبيرة من مواطنيه عن لغة دينهم إلى اللغة العربيّة والشغف بها وإتقانها والإبداع بها شعراً ونثراً، قال القسّ إلبيرو القرطبي: «إنّ إخواني في الدين يجدون لذّة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردّوا عليها وينقضوها، وإنّما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربيّاً جميلاً صحيحاً....

يا للحسرة؟ إنّ الموهوبين من شبّان النصارى لا يعرفون اليوم إلّا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرّحون في كلّ مكان بأنّ هذه الآداب حقيقة بالإعجاب...

١- الروض المعطار في خبر الأقطار: ١٣٢.وانظر:تاريخ النصارى في الأندلس:١٤٧.

٢- تاريخ افتتاح الأندلس: ٣٨.

٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٨٢/١.

٤- صور من المجتمع الأندلسي: ٩٣.

يا للألم، لقد أنسي النصارى حتّى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ. أمّا عن الكتابة في لغة العرب فإنّك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منسّق، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنّاً وجمالاً»[1].

ومن شعراء النصارى ابن المِرْعِزِي الإشبيلي الذي «ظهر في دولة المعتمد بن عبّاد وكان من مدّاحه، وله الأبيات المشهورة في كلبة الصيد وهي قوله[2]:

لمْ أرَ مَلْهى لذي اقْتناصٍ ... ومَقْنَعَ الكاسِبِ الحريصِ
كمثلِ خَطْلاءَ ذاتِ جِيْدٍ ... أغيدَ تِبْرِيَّةِ القميصِ
كالقوسِ في شكلِهَا ولكنْ ... تنفذُ كالسهمِ للقنيصِ
إنْ تَخِذَتْ أنفَها دليلاً ... دَلَّ على الكامنِ العويصِ
أَوْ أَرْسلوهَا وراءَ بَرْقٍ ... لمْ يجدِ البرقُ مِنْ مَحِيْصِ»

وبرّز المستعربون في مجال الطب[3]؛ ونبغ فيهم ابن فَرْتُون طبيب الناصر لدين الله وخالد بن يزيد بن رُوْمَان ومحمّد بن أبّا، وابن مَلُوْكَة النصراني.

٦. اليهود

كان اليهود يعانون في الأندلس اضطهاداً دينيّاً في ظلّ الرومانيّين ثمّ القوطيّين، ووصل إلى إجبارهم على التنصير وتعميد أبنائهم[4].

فلمّا جاء المسلمون عوملوا بوصفهم من أهل الذمّة كالنصارى تماماً وفق الشرع الإسلامي، فمنهم من أسلم فسقطت عنه الجزية، ومنهم من بقي على دينه، وأكثرهم تعلموا العربية وتكلّموا بها، وبعضهم أتقنوها وألّفوا فيها، ونظموا الشعر بالعربيّة على

١- تاريخ الفكر الأندلسي: ٤٨٥-٤٨٦، ولكنّه ذكر أنّ إنتاجهم الأدبيّ ضاع!

٢- المغرب في حلى المغرب: ٢٦٩/١.

٣- صور من المجتمع الأندلسي: ٩٣-٩٤.

٤- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار: ٩٨، اليهود في الأندلس: ١٥-١٦-١٧.

الأوزان العربيّة، حتّى إنّنا لنسمع صرخة من أحد أحبارهم تشبه الصرخة التي أطلقها القسّ إلبيرو القرطبي من قبل، يتحسّر فيها سلومون بن يهوذا بن جبرول (ت ٤١٢هـ) في أرجوزة له نظم فيها قواعد النحو العبري على انحراف اليهود عن لغتهم المقدّسة إلى عجميّة أهل الأندلس وإلى اللغة العربيّة، وسمّاهم بالجماعة العمياء[١].

وتجمّع يهود الأندلس في قرطبة وغرناطة وإليسانه الكبرى التي سمّاها الإدريسي «مدينة اليهود»[٢]، وتثقّفوا بالثقافة العربيّة، وترجموا بعض الكتب العربيّة إلى العبريّة، فترجم إسماعيل بن طيبون كتب ابن رشد إلى العبريّة، وترجم إبراهيم بن إسماعيل بن حسداي ميزان العمل للغزالي إلى العبريّة، وترجم يهودا بن شلومون الجزيري «مقامات الحريري» وألّف قصّة سمّاها «تحكيموني» على نهج المقامات[٣].

وإنّ أوّل نحو علمي للغة العبريّة ألّفه يهوذا بن داود المعروف بحيّوج كان مكتوباً باللّغة العربيّة، وعنوانه «جمل النحو العبراني» وأكمله أبو الوليد مروان بن جناح في كتابه «المستلحِق» الذي يقول في مقدّمته: «أمّا بعد – أيّها الأخ الحبيب والحميم القريب – أوضح الله لك المشكلات، كشف عنك الخفيّات، فإنّه لم تزل نفسي منذ أعوام كثيرةٍ وسنين جمّة، إذ نحن في بيضتنا بعد، تطالبني باستلحاق ما أغفله الأستاذ الفاضل والرئيس الكامل أبو زكرياء حيّوج – رحمه الله ونضّر وجهه – من استيفاء الأفعال ذوات حروف اللين والأفعال ذوات المثلين، لأنّه اشترط في صدر هذين الكتابين أن يأتي بكلّيّة هذه الأفعال، وأن يضمّ كلّ نوع منها إلى جنسه، وكلّ شخص إلى نوعه، فأهمل كثيراً جدّاً من الأجناس التي كان يلزمه الإبانة عنّها والتوقيف على بعد غورها، ودقّة معانيها، وأغفل من الأنواع جملةً وضيّع من الأشخاص جمهوراً»[٤]. ولابن جناح هذا كتب أخرى باللغة العربيّة

١– تاريخ الفكر الأندلسي: ٤٩٤، ولكنّ الحبر نفسه قد نظم قواعد النحو العبري على الأوزان العربيّة وكذلك نظم شعره!! ، وألّف بعض كتبه بالعربيّة مثل كتاب «ينبوع الحياة» و«إصلاح الأخلاق»، و«مختار اللآلئ»

٢– نزهة المشتاق: ٥٧١/٢.

٣– تاريخ الفكر الأندلسي: ٤٩٩، ٥٠١.

٤– كتب ورسائل لأبي الوليد مروان ابن جناح القرطبي: ١–٢، تاريخ الفكر الأندلسي: ٤٨٩–٤٩٠.

منها: التنبيه، والتقريب والتسهيل، والتسويه.

وارتبطت صورة اليهودي بالفكر العربي الإسلامي ببيع الخمر قال الغزال:

ولا قــارع بــاب اليهــوديّ موهنــاً وقد هجع النوّام من شهوة الخمر[1]

واقترنت بأخذ الضرائب كذلك، قال ابن حزم في ملوك الطوائف: إنّهم «ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام»[2].

لم يكن لليهود ظهور بارز قبل القرن الرابع الهجري، وأوّل مشاركة سياسية وعلمية كانت لأبي يوسف حسداي بن يوسف بن عزرا بن شبروط (٣٠٣-٣٥٩ هـ) الذي صار سفيراً[3] (٣٢٨هـ) للخليفة الأندلسي الأوّل عبد الرحمن الناصر وطبيباً له ومترجماً شارك في ترجمة كتاب ديسقوريدس.

وفي عصر الطوائف بلغ شأن اليهود ذروته، ووصلوا أوّل مرّة وآخرها إلى مرتبة الوزارة وصار غير واحد منهم وزيراً وأشهرهم أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي بن يوسف إذ صار وزيراً لملوك بني هود التجيبيّين، وكان أديباً شاعراً، ومن أجمل شعره:

تَوْريــدُ خــدِّكِ للأحــداقِ لــذّاتُ عليــهِ مِــنْ عَنْــبَرِ الأَصْــدَاغِ لَامَــاتُ

نِــيرانُ هَجْــرِكَ للعُشَّــاقِ نــارُ لظــى لَكِــنْ وصــالُك إنْ وَاصَــلْتَ جَنَّــاتُ

كأنّمــا الــرّاحُ والرّاحــاتُ تَحملُهــا بُــدورُ تِمٍّ وأيــدي الشَّــرْبِ هَــالَاتُ

حُشاشــةٌ مــا تَرَكْنَــا المــاءَ يَقْتُلهــا إلَّا لتَحْيــا بهــا مِنَّــا حُشَاشَــاتُ[4]

قــدْ كــانَ في كَأْسِــهَا مِــنْ قَبْلِهَــا ثِقَــلٌ فخــفَّ إذْ مُلِئَــتْ مِنْهَــا الزُّجَاجَــاتُ

١- شعر الغزال: ٧٨.

٢- رسائل ابن حزم الأندلسي: ٣/ ٩٧.

٣- المقتبس: ٥/ ٤٦٧. وقد زعم بعض المستشرقين أنه صار وزيراً لابنه الحكم: قصة الحضارة:٢٢/ ١٥٨، وتبعهم بعض الدارسين العرب كالدكتور خالد الخالدي: انظر: اليهود في الدولة العربيّة الإسلامية في الأندلس: ٣٩٧- ٣٩٨.

٤- قلائد العقيان:٤٤٢.

وكان مسلسل تآمر اليهود قديماً وتفاقم في عهد الطوائف إذ استوزر باديس بن حبّوس صاحب دويلة بني زيري في غرناطة، اليهودي إسماعيل بن يوسف النَّغْدِلَّة الذي ألّف كتاباً في تناقض بعض آيات القرآن الكريم، وردّ عليه ابن حزم، كما حلف أن ينظم بعض سور القرآن الكريم، ثمّ استوزر ابنه يوسف، فجمع حوله اليهود وتسلّطوا على المسلمين وأرادوا أن يقيموا دويلة لهم، وقتلوا وليّ العهد بلّقين ؛ ممّا أثار عليهم ثورة عارمة ومشهورة قصيدة أبي إسحاق الإلبيري (ت ٤٦٠ هـ) في التحريض عليهم، ومطلعها:

أَلا قُـــلْ لِصَنْهَاجَـــةٍ أَجْمَعِـــيْنْ ... بـــدورِ النَّـــدِيِّ وأُسْـــدِ العَـــرِيْنْ

لقـــــدْ زلَّ ســـــيِّدُكُمْ زَلَّـــــةً ... تَقَـــرُّ بهَـــا أعـــينُ الشـــامتينْ

تخيَّـــــرَ كاتبَـــــهُ كـــــافراً ... ولـــو شـــاءَ كـــانَ مـــنَ المســـلمينْ

فعـــزَّ اليهـــودُ بـــهِ وانتخَـــوا ... وتـــاهُوا وكـــانُوا مـــنَ الأرذلـــينْ[1]

فثار الناس وقتلوا يوسف بن النغدلة وقتلوا أشياعه.

وتآمر اليهود كذلك مع ابن همشك للخروج على دولة الموحّدين في الأندلس[2].

ومع قبح صورة اليهود في نظر الآخر المسلم فقد حافظ بنو نصر على أهل ذمّتهم اليهود ولم يغدروا بهم ولم يسلموهم للنصارى حتى آخر يوم لحكمهم، بل أشركوهم معهم في المعاهدة الأخيرة التي أبرموها لتسليم غرناطة، فثمّة شروط فيها ينصّ على «أن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما والأراضي التابعة لها بما في هذا العهد من الامتيازات، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر»[3].

ويقرّ المؤرّخون أنّ اليهود عوملوا وفق الشريعة الإسلاميّة ولم ينلهم جور أو تعسّف في جميع العهود الإسلاميّة للأندلس إلّا عندما يتورّطون في المؤامرات والدسائس ومساعدة أعداء المسلمين.

١- ديوان الإلبيري: ١٠٨.

٢- ولا ننسى ابن سهل الإسرائيلي الإسلامي (ت ٦٥٩هـ) الذي كان من أعظم شعراء عصر الموحّدين.

٣- نهاية الأندلس: ٢٣٤

الصقالبة:

وهمّ الرقيق البيض الذين يؤسرون من بلاد البلغار (السلاف) في الأساس، ويجلبون إلى الأندلس ويباعون فيها، ومن ثمّ أطلقت لفظة صقالبة على جميع الرقيق البيض وأسرى الحروب المجتلبين من مختلف البلدان الأوربيّة.

وكانوا يسمّون بالمجبوبين لأنّ أغلبهم كانوا يخصون، وعملية الخِصاء غير الإنسانيّة كان يقوم بها — في الغالب — التجّار اليهود في الأندلس.

وهم قسمان: قسم ينتقون من الأطفال ويخصون ويعلّمون العربيّة والدين الإسلامي وفنّ الخدمة المنزليّة، ليرسلوا لخدمة الحريم في القصور وكبريات الدور، وقسم آخر يعلّمون الفنون القتاليّة، ويتّخذون في الجند.

وكان الحكم بن هشام الربضي (ت ٢٠٦ هـ) أوّل من استكثر منهم وجعلهم من الحرس الخاصّ له «وبلغ مماليكه خمسة آلاف، ثلاثة آلاف منهم فرسان وهم الخُرْس سمّوا بذلك لعجمتهم»[١].

ولم يقتصر مكانهم على الحراسة بل كانوا يخالطون الأمراء وحريمهم وذكر أنّه في عهد ابنه عبد الرحمن بن الأوسط «سرق بعض صقالبته بَدْرة فلمحه، ولمّا عدّت البدر نقصت، فأكثروا التنازع فيمن أخذها، فقال السلطان: قد أخذها من لا يردّها، ورآه من لا يفضحه، فإيّاكم عن العودة لمثلها، فإنّ كبير الذنب يهجم على استنفاد العفو»[٢]. وارتقت مرتبة بعضهم حتّى صاروا من ثقاته[٣]. واعتمد عليهم عبد الرحمن الناصر وكثر عددهم وارتفع شأنهم وصاروا «عظماء الدولة لأنّهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطاني»[٤].

١- المغرب في حلى المغرب: ٣٩/١.

٢- المصدر نفسه: ٤٦/١.

٣- المقتبس: ٥٠/١/٢.

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣٦٧/١.

واعتمد عليهم الناصر فتولّى كثيرٌ منهم مناصب عالية فكان (الدرّي) رئيس الشرطة العليا، و (أفلح) صاحب الخيل، و(نجدة) قائد حملة عسكريّة للناصر، و(قند) والي طليطلة سنة ٣٣٦هـ، وفي عهد ابنه الحكم المستنصر كان (تليد) مشرفاً على مكتبة الحكم المشهورة و(غالب بن عبد الرحمن) قائد حروب المستنصر.

ولم يجد ابن أبي عامر بدّاً من الاعتماد على بعضهم، ولكنه كشف تآمرهم فنكب بعض صقالبة القصر كجؤذر وفائق[١].

وقد كان للصقالبة أثر سلبي في زعزعة أركان الخلافة الأمويّة في أواخر القرن الرابع الهجري، إذ حاول بعضهم خلع الخليفة هشام المؤيّد وتحويل الخلافة إلى المغيرة بن عبد الرحمن بن الناصر ولكنّهم لم يفلحوا.ثمّ تعصّب الفتى (واضح) للمهدي، وطلب من كونت برشلونة مساعدة المهدي في حربه على المستعين.

ولـمّا سقطت الخلافة الأندلسيّة استقلّ الصقالبة بعدد من الدويلات في عهد الطوائف في شرق الأندلس وأنشؤوا ممالك خاصّة بهم فكان الصقلبيّان مبارك والمظفّر في بَلَنْسِيَة، و(لبيب) في طُرْطُوْشَة، و(مُجَاهِد) في دَانِيَة و(خَيْران) و(زهير) في المَرِيَّة.

وكانت للصقالبة نزعة شعوبيّة تجلّت في رسالة ابن غرسيّة في تفضيل قومه على العرب، وألّف حبيب الصقلبي كتاب «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة»[٢].

ولقد امتزجت أغلب هذه المكوّنات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في بوتقة الحضارة الأندلسيّة في بيئة طبيعيّة زاهية فتلوّنت بها واصطبغت بألوانها فكوّنت لهم بعض الصفات الخاصّة بهم جعلتهم يشعرون بأنّهم عرب بالدرجة الأولى وشيء آخر زائد عليه، فالطابع الأساسي لهذه الجزيرة في العصر الإسلامي هو الطابع العربي فاللغة عربيّة والخلافة عربيّة والثقافة عربيّة.

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣٩٧/١.

٢- الصقالبة في إسبانيا: ١٢ وما بعدها.

ملامح البيئة الثقافيّة:

كان قسم من الفاتحين ممّن يحفظون القرآن الكريم، وجمهرة من الحديث النبوي الشريف، وشيئاً من الشعر العربيّ في الجاهليّة وصدر الإسلام، كما كان بعضهم من الأدباء والشعراء والفقهاء، فقد كان موسى بن نصير حريصاً على أن يرافق الجيش بعض الفقهاء، وأهل الدين ليرشدوا الجيش، ويوضّحوا لأهل البلاد المفتوحة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومن ثمّ ليعلّموا من أسلم منهم أحكام هذا الدين وليعلّموا أولاد المسلمين القرآن والحديث والفقه.

لقد جاء المسلمون إلى أرض قاحلة من الإسلام، وأرادوا أن يقيموا نهضة علميّة إسلاميّة من درجة الصفر، وكأيّة مؤسّسة تعليميّة تقام في مكان جديد خال من العلم لابدّ من عوامل أساسيّة لقيامها ونهوضها:

١-المكان:

منذ العهد الأوّل عهد الولاة الأمويّين أنشئت الكتاتيب لتعليم الأولاد العلوم الدينيّة والأدبيّة واللغويّة، وقد توسّعت وكثرت فيما تلا من عصور حتّى صار في قرطبة وحدها (٢٧) كتّاباً في عهد الحكم المستنصر، ثلاثة حول المسجد الجامع، وبكلّ ربض من أرباض قرطبة وفي ذلك يقول ابن شخيص[١]:

وسَاحةُ المسجدِ الأعلى مكلّلةٌ مَكاتباً للیتامى مِنْ نَوَاحِيْهَا

لو مُكِّنَتْ سورُ القرآنِ مِنْ كَلِمٍ نادتْكَ يَا خيرَ تاليها وواعِيْهَا

ثمّ يترقّى الطالب إلى حلقات الشيوخ في المساجد ليتعمّق في العلوم التي يريد.

فقد كانت المساجد مسرحاً لحلقات العلم بمختلف أنواعها، قال ابن سعيد[٢] الأندلسي«ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤون جميع العلوم في

١- شعر ابن شخيص: ٩١.

٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/٢٢٠.

المساجد بأجرة.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان الأساتذة والعلماء يفتحون أبواب بيوتهم لطلّابهم ويتكفّلون بإيوائهم وإطعامهم[1].

وقد كانت الدولة الموحّدية تصطبغ بالصبغة العلميّة حتّى إنّ الخليفة الموحّدي الأوّل «جعل التعليم إجباريّاً وبلا نفقات على كلّ مكلّف من الرجال والنساء فكان أوّل ملك مغربي فرض على شعبه التعليم وجعله مجانيّاً، بل ربّما كان أوّل ملك فعل هذا الصنيع في العصور الوسطى»[2].

ولم تنشأ المدارس النظاميّة المتخصصة في الأندلس إلّا في العصر الأخير من عصور الحكم العربي للأندلس وهو عصر بني نصر، فقد بنى أبو الحجّاج يوسف بن إسماعيل (حكم ٧٣٣ – ٧٥٥ هـ) مدرسة نُقش على واجهتها أبيات لشاعر العصر لسان الدين ابن الخطيب:

أَلَا هكذا تُبنى المدارسُ للعلمِ ... وتبقى عهودُ المجدِ ثابتةَ الرَّسْمِ

ويُقْصَدُ وجهُ اللهِ بالعملِ الرِّضَا ... وتُجْنَى ثمارُ العزِّ مِنْ شَجَرِ العَزْمِ

...

فَيَا ظَاعناً للعلمِ يطلبُ رِحْلَةً ... كُفِيْتَ اعْتراضَ البِيْدِ أو لجِجِ اليَمِّ

بِبابيَ حُطَّ الرحلَ لا تَنْوِ وِجْهَةً ... فقدْ فُزْتَ في حالِ الإقامةِ بالغُنْمِ

فكمْ مِنْ شهابٍ في سمائيَ ثَاقِبٍ ... ومِنْ هالةٍ دارتْ على قمرٍ تَمِّ

يُفيضونَ مِنْ نورٍ مبينٍ إلى هدى ... ومنْ حكمةٍ تجلوْ القلوبَ إلى حُكْمِ

جَزَى اللهُ عنِّي يوسفاً خيرَ ما جَزَى ... ملوكَ بني نصرٍ عنِ الدينِ والعِلْمِ[3]

١– الصلة: ٤١/١.

٢ – الشعر الأندلسي في عصر الموحدين: ٤٨ وانظر: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين: ٣٤، محاضرات في الأدب الأندلسي: ٨٨، شعر الجهاد في عصر الموحدين: ٣١.

٣– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤٨٢/٦.

٢- المؤدّبون والمعلّمون:

كان معلّم الكتّاب يسمّى المؤدّب، وكان له أجر على التعليم، ويوضّح ابن سعيد هذا بقوله: «فهم يقرئون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً، فالعالم منهم بارع لأنّه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتّى يعلّم»[١].

لكنّ المدرّسين في الأندلس حتّى نهاية القرن الثالث لم يكونوا متعمّقين في علوم العربيّة والآداب ولم يكن لأغلبهم مؤلّفات متميّزة خاصّة بهم في هذه العلوم، وكان اعتمادهم على ما يؤلّف في المشرق ويصل إليهم، فلم تكن البيئة السياسيّة غير المستقرّة تساعد على ذلك، حتّى إنّ العالم اللغويّ الأندلسيّ أبا بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) نعى ذلك على مدرّسي الأندلس السابقين فقال: «إنّ المؤدّبين إنّما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربيّة وغوامضها، والاعتلال لمسائلها، ثمّ كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية، ولا يجيبون في شيء منها»[٢].

لذلك كان لابدّ من العامل الثالث وهو:

٣. استقطاب العلماء والمدرّسين الأكفياء:

جذبت الأندلس عدداً من العلماء منذ وقت مبكّر مثل: معاوية بن صالح القاضي (ت ١٥٨ أو ١٦٨هـ)، وحبيب بن الوليد المعروف بدحون (بداية ق ٣ هـ)، وإبراهيم بن سليمان الشامي (ت بعد ٢٥٠هـ)، وأبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني الرياضي (ت ٢٩٨هـ) غير أنّ أهمّ وافد علمي إلى الأندلس في كلّ عصورها هو أبو عليّ القالي البغدادي (ت ٣٥٩هـ) الذي لقي من العامّة والخاصّة كلّ احترام وتقدير، فنشر علمه اللغوي والإخباري والأدبي، وأحضر معه إلى الأندلس أكواماً من كتب التراث، فحرّك

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/٢٢٠- ٢٢١.

٢- طبقات النحويّين واللغويّين: ٣١١.

بذلك بركة النشاط الثقافي[1]، والتأليفي الساكنة. قال ابن حيّان: «وقد كان المخبر سبق بجوازه البحر من قبل عامل بجّانة فكتب الأمير الحكم وليّ العهد المنافس في اقتناء العلم واصطناع أهله إلى هارون بن موسى كاتبه ووزيره، وهو يومئذ ببجّانة لبعض أموره، بتلقّي إسماعيل هذا وتبشيره وإكرامه وإقدامه معه إلى قرطبة، والتقدّم إلى كلّ عامل يمرّ به في طريقه بالاحتفال في مبرّته، والانتهاء في تكريمه، ففعل ذلك إلى أن وصل إلى قرطبة في اليوم المذكور، فأكرم الناصر لدين الله مورده، وأحسن تقبّله، وأكرم مثواه، وبوّأ لديه أسنى مبوّأ، وأوسع عليه في الإنزال والإقطاع، وناغاه في ذلك ابنه وليّ عهده الحكم، بفضل عنايته بالعلم ونزاعه إلى أهله، فنال بها أمنيته، واطمأنّت في كنفها ذراه، وأوعز إليه بنشر ما يحمله من علمه في الناس، وإشاعة إسماعهم وإفادتهم، وتأليف ما التقط من منثور ما أعيي عليهم، فسارع إلى ذلك بجدّ وقوّة، وفاض على طلاب العلم منه ما عظم انتفاعهم به جدّاً، وصحّح لهم صحائف كانت عندهم بوراً، فأجدّ للسان العرب عندهم نشوراً، وكان من أعظم من وفد إلى الأندلس من العلماء»[2].

وألّف القالي كتاب الأمالي أحد أركان الثقافة العربيّة، ووصف ابن حيّان الخليفة المستنصر أنّه كان «مستجلباً للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق»[3].

ولمّا جاء الحاجب المنصور وأراد أن يتشبّه بالناصر قلّده بأمور كثيرة منها أنّه استقبل العالم والشاعر المشرقي صاعداً البغدادي في بلاطه وأكرمه ورفع قدره وجعله من ندمائه قال صاعد:«فبوّأني من عاطفته مبوّأ صدق، وأوردني من فواضله مورداً غير طَرْق، وأعاضني أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان»[4].وألّف صاعد للمنصور بن أبي عامر كتاب الفصوص في اللغة والآداب والأخبار[5].

١- انظر الشعر العربي الأندلسي بين المشرقيّة والأندلسيّة: ١٦٣.

٢- المقتبس: ٥/٤٧٩-٤٨٠.

٣- الحلّة السيراء: ١/٢٠١.

٤- الفصوص: ١/٣٣.

٥- صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره: ٨٤.

٤. الرحلة العلميّة إلى المشرق:

زيادة على استجلاب الأساتذة الأجلّاء كان لابدّ من ارتحال طلّاب العلم إلى منابع العلوم الأصليّة التي كانت – من دون شكّ – في المشرق، مؤئل العلم والثقافة، لذلك فقد كانت الرحلات العلميّة منذ القرن الثاني الهجري «جسراً متّصلاً أساسيّاً دائماً تنقل بوساطته الثقافة العربيّة من المشرق إلى الأندلس، ففي هذا القرن بدأت الرحلات العلميّة إلى المشرق وإلى الأندلس، وبدقّة أكثر وصل إلينا خبر هذه الرحلات العلميّة، فقد تكون أسبق من ذلك الوقت لكونها مرافقة في الأغلب رحلة الحجّ المفروضة على المستطيعين من المسلمين كافّة، ومن المرتحلين من الأندلسيّين إلى المشرق جودي بن عثمان النحوي (ت ١٩٨هـ) ومحمّد بن بشير المعافري (ت ١٩٨هـ) والغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ) »[١].

ومن مشهوري الأندلسيّين المرتحلين إلى المشرق في القرن الثالث: عبّاس بن ناصح (ت ٢٣٨هـ) الذي ارتحل مرّتين إلى المشرق، وأدخل ديوان أبي نواس إلى الأندلس ورواه[٢].

ومنهم محمّد بن عبد الله الغازي (ت ٢٦٩هـ) «وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحات كلّها»[٣]، والشاعر مؤمن بن سعيد (ت ٢٦٧هـ) الذي أدخل ديوان أبي تمّام إلى الأندلس[٤]، وعثمان بن المثنّى النحوي (ت ٢٧٣هـ) الذي أدخل ديوان أبي تمّام الطائي أيضاً[٥].

ومن المرتحلين في القرن الرابع: منذر بن سعيد البلّوطي(ت ٣٥٥هـ) ومحمّد بن يحيى الرباحي (ت ٣٥٨هـ) وابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) وسواهم كثير، فقد خصّص شهاب

١– الشعر العربي الأندلسي بين المشرقيّة والأندلسيّة: ١٣٤.

٢– طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٦٣.

٣– المصدر نفسه: ٢٦٧.

٤– المغرب في حلى المغرب: ١٣٢/١.

٥– طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٦٦.

الدين المقّري (ت ١٠٤١هـ) في سفره الكبير «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» الباب الخامس كلّه الذي بلغ ما يزيد على سبعمئة صفحة للمرتحلين من الأندلس إلى المشرق، وذكر أنّ «حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال»[١].

ويعود بعض هؤلاء الطلّاب المرتحلين لإكمال دراستهم إلى الأندلس بالشهادات العليا والإجازات والكتب الكثيرة، ويتصدّرون للتدريس في بلادهم، ولا تكاد تجد عالماً ليس له رحلة إلى المشرق، بل إنّ الرجل ليعاب إن لم يرحل إلى المشرق[٢].

٥. الكتب:

الكتب هي أوعية العلم، وأدوات المعلّمين المتعلّمين، وقد كانت هذه الكتب تجلب مع المرتحلين إلى المشرق والعائدين إلى الأندلس ومع العلماء الوافدين ومع التجّار.

وحبّ الكتب قديم لدى الأمراء والخلفاء منذ عهد عبد الرحمن الأوسط حكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) فقد أرسل شاعره عبّاس بن ناصح إلى العراق طالباً منه استنساخ بعض الكتب العلميّة القديمة المترجمة إلى العربيّة، «فأتاه بكتاب الزيج والقانون والسند هند والأركند والموسيقا»[٣].

وأهدى ملك بيزنطة قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله- فيما أهداه كتاب ديوسقوريدس في الصيدلة باللغة اليونانيّة، ثمّ أرسل إليه الراهب نيقولا ليترجمه له[٤].

أمّا الحكم المستنصر بالله فكان أمّةً وحده في جمع الكتب والتشجيع على تأليفها، قال فيه الحميدي[٥]: «وكان حسن السيرة جامعاً للعلوم محبّاً لها مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢/٥.

٢- المصدر نفسه: ٢/٢١٧.

٣- المقتبس: ٢/١/٢٧٨.

٤- طبقات الأطبّاء والحكماء: ٢٢.

٥- جذوة المقتبس: ٢٧.

الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان».

وكان الحكم المستنصر متابعاً لكلّ ما يصدر من مؤلّفات في المشرق، ويرسل الورّاقين والنسّاخ بحثاً عمّا جدّ منها لشرائها أو نسخها، ومشهور ذلك الخبر الذي ذكره ابن الأبّار عن الحكم أنّه «بعث إلى أبي الفرج الأصبهاني القرشي المرواني ألف دينار عيناً ذهباً، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألَّفه في الأغاني وما لأحد مثله... فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقّحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق، أو ينسخه أحد منهم»[1].

وكان ابن الأبّار قد وصف الحكم المستنصر بأنّه كان: «مشغوفاً بالعلوم حريصاً على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أثمن الأثمان، ونفق ذلك لديه فحملت من كلّ جهة إليه والـمَلْك سوق، ما نفق فيها جلب إليها، حتّى غصّت بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه... ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمّم بها»[2].

وقال ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا بعده»[3]. وقيل إنّها في نحو (٤٠٠) أربعمئة ألف مجلّد وإنّها لا تحدّ كثرة ونفاسة.

ولم يعد هذا الأمر مقصوراً على الأمراء والخلفاء بل شمل الكثير من الكبراء، حتّى إنّ أهل قرطبة «أشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيّن والرياسة»[4].

وليست قرطبة وحدها فقد ذكر أنّه في غرناطة نحو (٧٠) مكتبة عامّة.

١- الحلّة السيراء: ٢٠١/١-٢٠٢، وانظر المغرب في حلى المغرب: ١٨٦/١.

٢- الحلّة السيراء: ٢٠٠-٢٠١.

٣- تاريخ ابن خلدون: ١٤٦/٤.

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤٦٢/١.

٦. تشجيع الأمراء والخلفاء للعلماء وإكبار الناس لهم:

اشتهرت الأندلس بـ«كثرة علمائها، ووفور أدبائها، وجلالة ملوكها ومحبّتهم في العلم وأهله، يعظّمون من عظّمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه»[١].

وفي الأندلس كان العلم والأدب والشعر سلماً يرتقى بوساطته للمناصب العالية، وكان بعض ملوك الأندلس يرغّبون الناس في العلم، ولا يستوزرون إلّا من كان من الأدباء والعلماء، فهرع الناس إلى العلم يتقنونه، وإلى الأدب يجمعون أدواته.

وقد سبق أن ذكرنا مبلغ ترحيب الناصر وابنه الحكم بالعالم المشرقي أبي علي القالي الوافد إليه وإكرامه وإغداقه عليه.

وورث ابنه الحكم المستنصر من أبيه تكريم العلماء حيثما كانوا، قال ابن الأبّار: «أفاء على العلم ونوّه بأهله، ورغّب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه إلى فقهاء الأمصار النائية عنه: ومنهم أبو إسحاق محمّد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمّد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما»[٢].

وكان الحكم المستنصر يحثّ العلماء الأندلسيّين على التأليف عامّة ويطلب منهم تأليف الكتب في موضوعات متعدّدة وقد ذكر ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) أنّ محمّد بن الحارث الخشني التونسي (ت ٣٦١هـ) ألّف للحكم المستنصر مئة ديوان، وجمع له في رجال الأندلس كتاباً[٣].

وباسمه طرّز القالي كتابه الأمالي المشهور، وتلبية لرغبته ألّف أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) كتابه «طبقات النحويين واللغويين» وفق اقتراحه وخطّته التي أشار بها إلى المؤلّف كما ذكر في خطبته[٤].

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٥٧/٣.

٢- الحلّة السيراء: ٢٠٠-٢٠١.

٣- تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس: ١١٥/٢.

٤- طبقات النحويّين واللغويّين: ١٧.

وقد يشارك الحكم المستنصر بنسخ الكتب والدواوين، قال الحميدي عن ديوان ابن عبد ربّه: «وشعره كثير مجموع، رأيت منه نيفاً وعشرين جزءاً من جملة ما جمع للحكم ابن عبد الرحمن الناصر، وفي بعضها بخطّه»[١].

وكذلك كان أخوه الأمير عبد الله عاشقاً للعلم ومثيباً لأهله فكانا «يتباريان في طلب العلم ويتناغيان في جمعه، ويتبادران إلى اصطناع أهله، واختصاص رجاله، وإدناء منازلهم والإحسان إليهم»[٢].

وازداد تشجيع الخلفاء والملوك والأمراء في عصر دويلات ملوك الطوائف فقد «تحوّل البلاط الواحد الذي يلجأ إليه الشاعر إلى بلاطات متعدّدات، تتهافت عليه لتنافس هذه الدويلات، واهتمامها المتباين بالعلم والأدب، وكون الشاعر الأداة الإعلامية الأولى إلى جانب الافتخار بحيازة الشعراء والعلماء بوصفهم من الأعلاق النفيسة التي تدّخر»[٣]، وتجمّل البلاط وتمنحه شرعيّته، قال أبو الوليد الشقندي (ت ٦٢٩ هـ): «ولمّا ثار بعد انتثار هذا النظامِ ملوكُ الطوائف وتفرّقوا في البلاد، كان في تفرّقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفّقوا سوق العلوم، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلّا قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختصّ بالملك الفلاني»[٤].

وظلّ هذا الأمر إلى آخر عهود العرب في الأندلس.

أمّا احترام العامّة للعلماء وإجلالهم ومساعدتهم وإكرامهم فمعروف مشهور قال ابن سعيد: «والعالم عندهم معظّم من الخاصّة والعامّة، يشار إليه ويحال عليه، وينبه قدرُه وذكرُه عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك»[٥].

١- جذوة المقتبس: ١٠٤.

٢- الحلّة السيراء: ٢٠٦/١.

٣- الشعر العربي الأندلسي بين المشرقيّة والأندلسيّة: ٢٠٨.

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٨٩/٣-١٩٠.

٥- المصدر نفسه: ٢٢٠/١.

ويشير عبد الملك الجزيري إلى أهميّة العلم، وأنّه سبيل السيادة وأنّ الناس تنظر باحترام إلى حامل العلم وتتعلّق به:

واعلـــمْ بـــأنَّ العلـــمَ أرفـــعُ رتبـــةٍ ... وأجـــلُّ مكتســـبٍ وأســـنى مَفْخَـــرِ

فاســـلكْ ســـبيلَ المقتنـــينَ لـــهُ تســـدْ ... إنَّ الســـــيادةَ تُقتـــــنى بالدَّفْتَـــــرِ

والعـــــالمُ المـــــدعوُّ حَـــــبْراً إنَّمـــــا ... ســـمَّاهُ باســـمِ الحَـــبْرِ حمـــلُ المَحْبَـــرِ

تســـمو إلى ذي العلـــمِ أبصـــارُ الـــوَرَى ... وتُغضُّ عنْ ذي الجهلِ لا بلْ تَزْدَرِي[1]

وإلى جانب تشجيع الأمراء والخلفاء والملوك والسلاطين في الأندلس لأهل العلم والأدب والشعر فقد كان شطر منهم من الشعراء والكتّاب والخطباء والعلماء، بل إنّ أغلب أمراء بني أميّة كانوا يقولون الشعر ويثيبون عليه، ومنهم الأمير الأوّل عبد الرحمن الداخل الذي نتج من عقبه من أولاده وأحفاده نحو خمسة عشر شاعراً؛ أهمّهم: الشريف الطليق (ت نحو ٤٠٠هـ) والمستظهر عبد الرحمن بن هشام (ت ٤١٤هـ).

وكذلك كان المعتضد والمعتمد وأولاده في جملة شعراء عصره وعلمائهم، وكذلك كان المظفّر بن الأفطس الذي ألّف كتاب المظفّري في التاريخ والأدب في خمسين جزءاً أو مئة جزء.

وكذلك كان بعض ملوك بني الأحمر من الشعراء العرب ولاسيّما الملك يوسف الثالث الذي صنع لنفسه ديوان شعر وصل إلينا.

بل إنّ الشعر صار طبعاً غالباً في الخاصّة والعامّة حتّى إنّ ياقوت الحموي قال عن أهل مدينة شِلْب في الأندلس: «قلّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلّاح خلف فدّانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأيّ معنى طلبت منه»[2].

١- شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي: ١٤٤-١٤٥.

٢- معجم البلدان: ٣/٣٥٧ - ٣٥٨.

ووصل الأمر في كثرة الشعراء واستبحارهم حتّى قال أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي (ت ٦٣٤هـ): «شاعر أعمّ من شيء»[١].

أمّا حال العلوم في الأندلس وتدريسها للطلّاب، فقد تميّز الأندلسيّون من أهل المشرق في تعليمهم للأطفال بعدم اقتصارهم على العلوم الدينيّة «بل يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشعر في الغالب والترسّل، وأخذهم بقوانين العربيّة وحفظها وتجويد الخطّ والكتابة»[٢]. فيكون الطفل فاهماً لما يقرأ من كتاب الله تعالى وحديث رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

وأشار ابن سعيد إلى اهتمام الأندلسيّين بالعلوم عامّة ما عدا الفلسفة[٣]، والتنجيم وإلى تقدّمهم في العلوم الدينيّة واللغويّة والأدبيّة، ونقتبس هنا بعض ما يتعلّق بالنحو والأدب واللغة، قال: «والنحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة، حتّى إنّهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلّا جدّة، وهم كثيرو البحث فيه، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكلّ عالم في أيّ علم لا يكون متمكّناً من علم النحو- بحيث لا تخفى عليه الدقائق- فليس عندهم بمستحقّ للتمييز ولا سالم من الازدراء...

وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرّب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل.

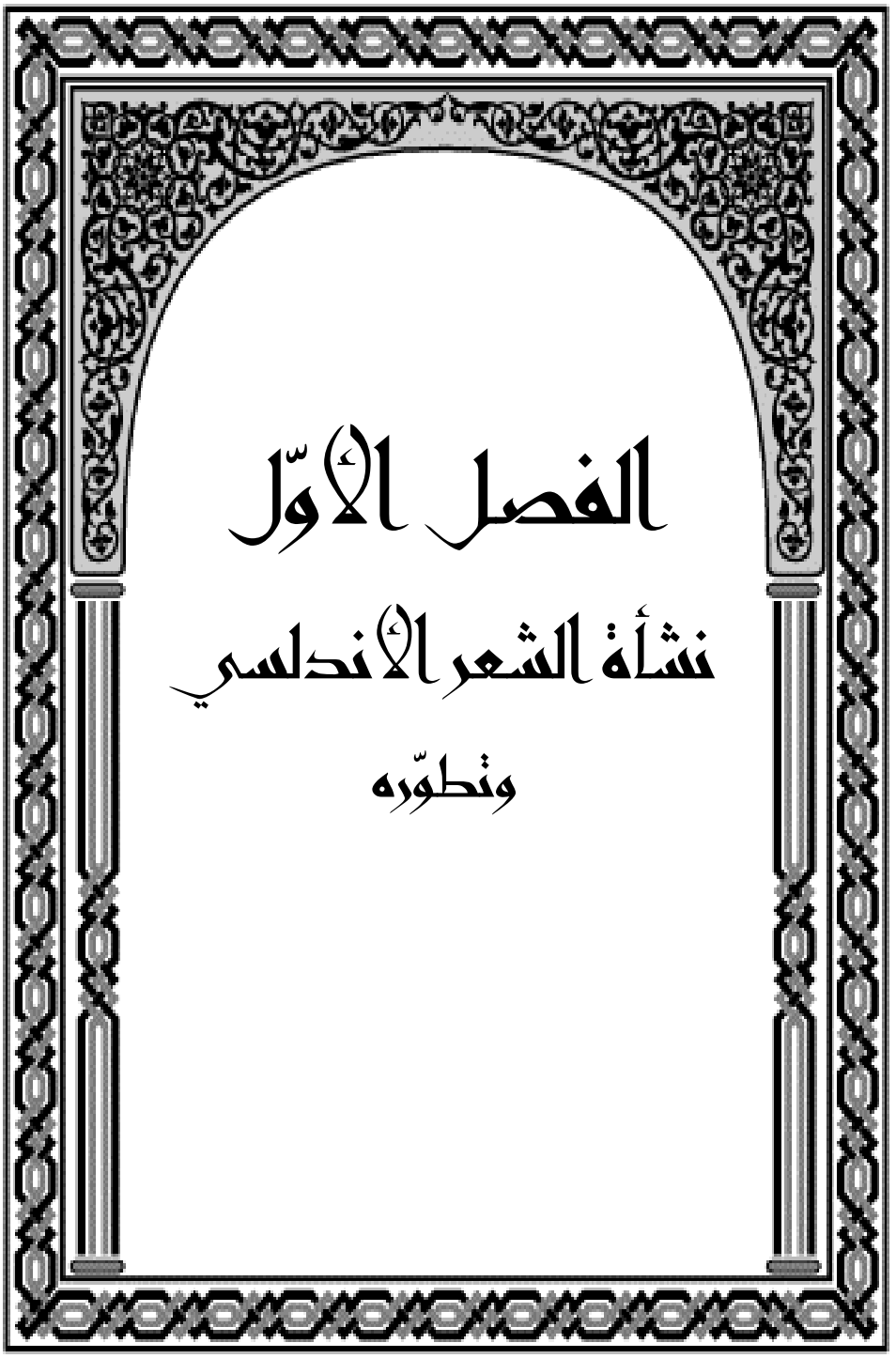
والشعر عندهم له حظّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقّع لهم بالصلات على أقدارهم»[٤].

١- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية: ٢٨٠.

٢- تاريخ ابن خلدون: ١/١٣٩.

٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/٢٢٠.

٤- المصدر نفسه: ١/٢٢١-٢٢٢.



الفصل الأوّل

نشأة الشعر الأندلسي

وتطوّره

نشأة الشعر الأندلسيّ وتطوّره

الأصول المشرقيّة وجوانب التجديد

إنّ الأدب العربي في الأندلس يمتدّ طوال ثمانية قرون ونيّف (٩٢-٨٩٧هـ)، وهي مدّة زمنية تكاد تطابق وتكافئ ما نعرفه من الشعر العربي في المشرق منذ العصر الجاهلي نحو (١٥٠) سنة قبل الهجرة حتّى نهاية العصر العباسي (٦٥٦هـ)، فإذا كان الشعر العربي في المشرق قد قسّم أقساماً متعدّدة واتّصف كلّ قسم من هذه الأقسام بصفات معيّنة، فمن الخطل ألّا يقسم الشعر العربي في الأندلس - المقارب له زمنيّاً - أقساماً متعدّدة، ومن الخطأ أن يوصف جميعاً بوصف واحد، كما فعل - ويفعل - كثير من دارسي الأدب الأندلسي المحدثين، إلّا أنّ الشعر الأندلسي يختلف عن الشعر المشرقي بأنّه لم يمرّ بمراحل النشوء والنمو وتكوين الشخصيّة ثمّ اصطباغها بالصبغة الإسلاميّة وتطوّرها، فقد وفد الشعر العربي إلى الأندلس في ريعان شبابه وعنفوانه حاملاً تقاليد جاهليّة عريقة، وأفكاراً إسلاميّة سامية، وعصبيّات الدولة الأمويّة، لذلك فإنّنا حينما نتحدّث عن أوّليّات الشعر الأندلسي فإنّنا لا نتحدّث عن مراحل هلهلة الشعر ثمّ إحكام نسجه وزركشته، ولا نتحدّث عن مولود خديج ألقي قبل تمام أيّامه، أو غير مكتمل الخلق؛ وإنّما نتحدّث عن فتى فتيّ زادته الأيام فتوّة ونبلاً، أو عن فتاة صبيّة زادتها الأجواء البيئيّة فتنة وجمالاً، وبعبارة أخرى نصف شعراً ذا تاريخ أصيل أثيل انتقل إلى بيئة سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وطبيعيّة مختلفة، فأثّر فيها وتأثّر بها، ونجم عن ذلك شعر أندلسي مميّز تتشابك فيه خيوط المؤثّرات الداخليّة والخارجيّة وتتمازج في لحمة الشعر وسداه.

وإذا كان التاريخ تسجيلاً حقيقيّاً لوقائع الحياة وأحداثها فإنّ الأدب تصوير حقيقيّ أو رمزيّ أو متخيّل لبعض وقائع الحياة وأحداثها، وإن كان للحياة السياسيّة أثر بارز في حياة الأدب فإنّ للأدب - أيضاً - أثراً بارزاً في توجيه الحياة السياسيّة ولاسيّما في الأندلس، إذ كان الأدب سلّماً لارتقاء المناصب العالية، وكان كثير من الملوك والخلفاء والأمراء ممّن يعانون الأدب، ويشجّعون أهله، ويثيبون أصحابه.

ومع ضخامة أثر الظروف السياسيّة في الأدب وشدّتها فإنّهما لا يسيران معاً بسرعة واحدة في خطّين متوازيين تماماً، فلم يزهر الأدب بازدهار السياسة توّاً، ولم يذبل بذبولها فوراً ،فإنّ قرائح الأدباء ليست رهناً بها، ولا وقفاً على المدح والممدوح، وإنّ نورها لا يخبو بزوال دولة وقيام أخرى، ولكنّ الأدب – من دون شك– يتأثّر تأثّراً بالغاً – إيجاباً أو سلباً – وفق اهتمام حكّام البلاد بالأدب أو إهمالهم له.

وثمّة أمر آخر شديد الأهمّيّة هو أنّ الواقع الشعري في الأندلس قد خالف قاعدة ازدهار الأدب باشتداد عود السياسة، فقد ازداد الأدب الأندلسي توهّجاً وصقلاً بضعف الحياة السياسيّة في الأندلس في إبّان تلاشي الدولة الأمويّة القويّة في الأندلس، وانقسامها ممالك ضعيفة للطوائف المختلفة فيها، وإذا كان التاريخ الأندلسي ينشعب إلى خمسة أقسام رئيسة؛ فإنّ الأدب الأندلسي قد مرّ بمراحل كثيرة متوالية تختلف قليلاً عن التقسيم التاريخي السابق، ويجمل بالبحث أن يُجمل مسيرة الشعر الأندلسي، راصداً مراحل تطوّر بنية الشعر وصورته فيها.

أوّلاً– نشأة الشعر الأندلسي (٩٢ – ٢٠٠هـ):

(المرحلة المشرقيّة في الشعر الأندلسي)

أ– عصر الولاة:

من الطبيعي أن يتأثّر الأدب بأوضاع الفتح وعدم الاستقرار وتسارع الأحداث والثورات البربريّة في الأندلس والحروب الأهليّة بين المضريّين واليمنيّين، وبين البلديّين[١] والشاميّين[٢]، وأن يمنع كلّ ذلك من أن يتبوّأ الشعر مركزه السامق اللائق به، ومن ثمّ فإنّ شعر هذه المرحلة أقلّ مستوى من صنوه المشرقي لأنّه شعر فتوح.

وقد كان الأدب الأندلسي في مراحله الأولى مشرقيّاً وبالأحرى أمويّاً لا لشيء سوى أنّ أصحابه في المرحلة الأولى من الفتح كانوا مشرقيّين قدموا مع الفتوح أو من

(١) البلديّون: هم العرب الوافدون في أوّل الفتح مع طارق بن زياد وموسى بن نصير.

(٢) الشاميّون:هم العرب الوافدون في أواخر عصر الولاة مع بَلْج بن بشر من جند الشام.

الطارئين على الأندلس بعدها، فهو أدب أندلسي النسبة مشرقي السمات، وأوّل أدب عرف على هذه الجزيرة هو ما نسب إلى طارق بن زياد من خطبة مشهورة وأبيات ثلاثة هي:

ركبنَا سَفيناً بالمجازِ[1] مُقَيَّرَا عَسَى أنْ يكونَ اللهُ منَّا قَدِ اشْتَرَى

نُفوساً وأَمولاً وأَهلاً بجنّةٍ إذا ما اشْتهينا الشيءَ فيها تيسَّرَا

ولسنَا نُبالي كيفَ سالتْ نفوسُنَا إذا نحنُ أدركنَا الذي كانَ أَجْدَرَا[2]

ولم تبق لنا ذاكرة الأيام من شعراء هذا العصر القصير سوى عدد يسير من الشعراء الفرسان الوافدين إلى الأندلس منهم مغيث الرومي[3](نحو ١٠٠هـ) قال المقّري: «وذكر الحجاري في" المسهب" أنّ لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقاً ويكفي منه هنا قوله:

أعنتكُمُ ولكنْ ما وفيتُمْ فسوفَ أعيثُ في غَرْبٍ وشَرْقِ[4]

ومنهم أبو الخطّار حسام بن ضِرار الكَلْبِي[5](ت١٣٠هـ) الذي وفد إلى الأندلس والياً سنة (١٢٥هـ)، من قبل حنظلة بن صفوان بن نوفل الكلبي والي إفريقيّة لهشام بن عبد الملك، ومن شعره الذي لم ينج منه سوى نزر قليل[6]:

فليتَ ابنَ جوّاسٍ يخبَّرُ أَنَّني سعيتُ بهِ سعيَ امرىءٍ غيرِ غافلِ

قتلتُ بهِ تسعينَ تحسِبُ أنَّهمْ جذوعُ نخيلٍ صُرِّعَتْ بالمسايلِ

ولو كانتِ الموتى تباعُ اشتريتُهُ بكفِّيْ وما استثنيتُ منها أناملي

---

(١) المجاز: جُزت الطريق جوازاً وجَوْزاً ومجازاً، والمقصود بحر الزُّقاق الذي يفصل الأندلس عن المغرب.مقيّر: مطليّ بالقار ، وهو الزفت أو ما يشبهه، تطلى به السفن ليمنع الماء أن يدخل.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢٦٥/١.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام:٢٧٦/٧

(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:١٤/٣

(٥) انظر ترجمته في الأعلام:١٧٥/٢.

(٦) جذوة المقتبس: ١٩٧، وانظر الحلّة السيراء: ٦٦/١.

ومنهم أبو الأَجْرَبِ جَعْوَنَةُ بنُ الصِّمَّةِ الكِلابي[1] (ت قبيل ١٣٨هـ) الملقّب بعنترة الأندلس، وقد باهى ابن حزم به «جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المُحْدَثِيْن »[2]، وبقي من شعره مقطوعات يسيرة تثبت ذلك، يقول:

بني لكَ حاتمٌ بيتاً رفيعاً ... رأيناهُ على عُمُدٍ طوالِ

وقد كانَ ابْتنى شَمْرٌ وعَمْرو ... بيوتاً غيرَ ضاحيةِ الظلالِ

فأنتَ ابنُ الأكارمِ مِنْ مَعَدٍّ ... بمعتلجِ الأباطحِ والرمالِ[3]

ويذكر معهم الصُّمَيْل بن حاتمِ بن الشَّمْرِ بن ذي الجَوْشَن الكِلَابي(٤) (ت ١٤٢هـ) معاون الوالي الأخير للأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري[5] فقد أورد له ابن الأبّار بيتين من الشعر هما:

ألا إنَّ مالي عندَ طَيٍّ وديعةٌ ... ولا بدَّ يوماً أنْ تردَّ الودائعُ

سَلوا يَمَناً عن فعلِ رمحي ومُنْصُلِي ... فإنْ سكتوا أثنتْ عليَّ الوقائعُ[6]

فهذا النزر اليسير المتبقّي من شعر هذه المرحلة يثبت أنّ الطابع العامّ للشعر مشرقيّ أمويّ عربيّ أعرابيّ في موضوعاته وألفاظه ومعانيه وأخيلته، ولكنّه ليس مستورداً ولا دخيلاً

---

(١) أبو الأجرب من قدماء شعراء الأندلس كان من البدو الطارئين على الأندلس فظلّ على حاله يرحل ويحلّ بأكناف قرطبة ،وقد كان فارساً شجاعاً حتّى سمّي بعنترة الأندلس، ذكر أنّ أبا نواس كان يعجب بشعره. توفّي قبل قيام الدولة الأمويّة في الأندلس أي قبيل ١٣٨هـ. طبقات النحويّين واللغويّين:٢٦٣ جذوة المقتبس: ١٨٦ –١٨٧، رسائل ابن حزم: ١٨٧/٢، بغية الملتمس: ٢٣٩، المغرب في حلى المغرب:١٣١/١، الإحاطة في أخبار غرناطة:٣٤٧/٣، نفح الطيب:١٧٧،٢٢٥/٣، تاريخ التراث العربي: ٣٨/٥.

(٢) رسائل ابن حزم:١٨٧/٢، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٧٧/٣.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٤٧/٣، وانظر كذلك: المغرب في حلى المغرب ١٣٢/١. ومعتلج الأباطح: اعتلج: اضطرب ودخل بعضه في بعض، والعالج ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض. والأباطح: جمع أبطح: مسيل واسع فيه حصى الوادي الليّن وترابه ممّا جرفته السيول.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام: ٢٠٩/٣

(٥) انظر ترجمته في الأعلام: ٨/ ٢٣٦

(٦) الحلّة السيراء:١/ ٦٨.

ولا مستجلباً، إذ دخل الشعراء العرب الأندلس، ودخلت طريقتهم طريقة العرب القدامى في الشعر معهم بشكل طبيعيّ، وبها عبّروا عن حياتهم قبل أن تتأثّر بالمؤثّرات البيئيّة المختلفة، وتتّخذ لوناً أندلسيّاً مميّزاً. لذلك فإنّي لا أعدّ صحيحاً مقولة تقليد الأدب الأندلسي للأدب المشرقيّ خاصّة فالأدب الأندلسي أدب عربي، وفرع غزير من نهر الأدب العربي الدائم الجريان، ولا شكّ بأنّ مياه فروع الأنهار تكاد تكون واحدة، تتمايز قليلاً أو كثيراً بالبيئة الطبيعيّة التي تخترقها، وقد تتشابه البيئتان الطبيعيّتان فيبدو الفرعان متشابهين أيضاً، لذلك فإنّ نهر الشعر الأندلسي في هذه المرحلة لم يتأثّر بالبيئة الجديدة، فظلّ مشابهاً لأصله الذي تفرّع عنه.

وكما ذكرت في مكان آخر، فإنّ التكوين العلمي الثقافي للأدباء والعلماء الأندلسيّين تكوين تراثي عربيّ أصيل بشكلّ عام« فهم عندما يستمدّون من القرآن والحديث النبويّ الشريف[وعلوم اللغة العربيّة فإنّهم] يستفيدون استفادة عربيّة، بمعنى أنّه لا يمكننا أن نعدّها استفادة مشرقيّة أو مغربيّة، فهذا تراث عامّ للجميع، ولكنّ الأمر يختلف إذا استفادوا من شاعر معيّن أو من سلالة من الصور الكثيرة والأساليب الكبيرة التي كانت ترد في الشعر المشرقي، فهذا يعدّ من باب الأخذ أو الاستعارة أو ما قد يسمّى السرقة»[1].

ب) تأسيس الإمارة وتوطيدها:

إنّ أصحاب الشعر في هذه المرحلة كانوا على قسمين، قسم من الوافدين إلى الأندلس حديثاً، وقسم من أبناء الجيل السابق ولدوا في الأندلس، وهؤلاء جميعاً تثقّفوا بثقافة المشرق العربيّة القديمة، واستقوا منها معارفهم الأصيلة التي أحضرها معهم الفاتحون والمرتحلون إلى الأندلس، واستمرّت في الرحلات العلميّة التي غدت جسراً متّصلاً أساسيّاً دائماً، تنقل بوساطته الثقافة العربيّة من المشرق إلى الأندلس، ففي هذا القرن بدأت الرحلات العلميّة إلى المشرق وإلى الأندلس معاً وبدقّة أكثر وصل إلينا خبر هذه الرحلات

(١) من ندوة حواريّة لي بمشاركة الدكتور جودت الركابي، مجلّة الكفاح العربي، سنة ١٩٩٤ ، العدد ٨٢٢، ص ٤٥.

العلميّة، فقد تكون أسبق من ذلك الوقت لكونها مرافقة في الأغلب رحلة الحجّ المفروضة على المستطيعين من المسلمين كافّة.

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض المرتحلين من الأندلسيّين إلى المشرق؛ كمحمّد بن بشير المُعَافِرِي (ت ١٩٧هـ) وجُودي بن عثمان النحوي (ت ١٩٨هـ) والغازي بن قيس(ت ١٩٩هـ)، وفي الجهة المقابلة وفد إلى الأندلس جماعة من العلماء المشرقيّين مثل معاوية بن صالح القاضي (ت ١٥٨ أو ١٦٨هـ)، وحبيب بن الوليد المعروف بدَحُّوْن (ت بعد المئتين).

إذاً فقد كانت المؤثّرات الثقافيّة المشرقيّة هي الوحيدة في هذه المرحلة المتقدّمة فكان الولاء للمشرق والتلقّي عنه؛ فمن البديهي أن يكون شعر هذه المرحلة ليس له أيّة سمات أندلسيّة مميّزة، ولولا قوله في الأندلس لعُدّ مشرقيّاً أمويّاً «وكثير من شعراء القرن الثاني الهجري لا يمكن اعتبارهم أندلسيّين حقيقة، لأنّهم في الواقع من العرب الطارئين على الأندلس، فهم يمثّلون الثقافة المشرقيّة والروح الشعريّة المشرقيّة التي لم يظهر فيها التأثير الأندلسي بعد»[1].

ومن أصحاب الشعر الطارئين على الأندلس الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل (ت١٧٢هـ) فقد كان شاعراً فصيحاً غير أنّه لم يبق من شعره سوى نزر من المقطوعات منها[2]:

لا يُلْـــفَ مُمْتَـــنٌّ علينـــا قائـــلُ ... لـــولايَ مَـــا ملـــكَ الأنـــامَ الـــداخلُ
سَـــعدي وحَزْمـــي والمهنَّـــدُ والقَنَـــا ... ومقـــادرٌ بلغـــتْ وحـــالَ حائـــلُ
إنَّ الملـــوكَ مـــعَ الزمـــانِ كواكـــبٌ ... نجـــمٌ يطالعُنَـــا ونجـــمٌ آفـــلُ
والحـــزمُ كـــلُّ الحـــزمِ أنْ لا يَغفلـــوا ... أيـــرومُ تـــدبيرَ البريَّـــةِ غافـــلُ
ويقـــولُ قـــومٌ ســـعدُهُ لا عقلُـــهُ ... خـــيرُ الســـعادةِ مَـــا حماهـــا العاقـــلُ

(١) فصول في الشعر الأندلسي: ٩٢.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣/٤٢-٤٣.

أبـــني أميّـــةَ قـــدْ جبرنَـــا صَـــدْعَكُمْ بـــالغَرْبِ رُغْمـــاً والســـعودُ قَبَائِـــلُ
مـــا دامَ مِـــنْ نَسْـــلِي إمـــامٌ قـــائمٌ فالمُلْـــكُ فـــيكمْ ثابـــتٌ متواصـــلُ

وكذلك أبو المَخْشِيِّ عاصم بن زيد التميمي[1] (ت نهاية القرن الثاني الهجري) وقد اشتهرت له مقطوعة يصف فيها أثر سمل عينيه يقول فيها[2]:

خَضَـــعَتْ أمُّ بنـــاتي للعـــدى أَنْ قضـــى اللهُ قضـــاءً فمضـــى
ورأتْ أعمـــى ضَـــريراً إنَّمـــا مشـــيُهُ في الأرضِ لمـــسٌ بالعصـــا
فبكـــتْ وَجْـــداً [3]وقالـــتْ قولـــةً وهْـــيَ حَـــرَّى[4] بلغـــتْ مـــنِّي المـــدى
ففـــؤادي قَـــرِحٌ مِـــنْ قَوْلِـــهَا مـــا مِـــنَ الأدواءِ داءٌ كـــالعمى
وإذا نـــالَ العمـــى ذَا بَصَـــرٍ كـــانَ حيّـــاً مِثْـــلَ مَيْـــتٍ قـــدْ ثَـــوَى
وكـــأنَّ النـــاعمَ المســـرورَ لَـــمْ يـــكُ مَســـروراً إذا لاح الـــرَّدَى
أبصـــرتْ مســـتبدِلاً مِـــنْ طَرْفِـــهِ قَائـــداً يَســـعى بِـــهِ حيـــثُ ســـعى
بالعَصَـــا إنْ لَـــمْ يَقُـــدْهُ قائـــدٌ وســـؤالِ النـــاسِ يمشـــي إنْ مَشَـــى
وإذا رَكْـــبٌ دَنَـــوا كَـــانَ لهـــمْ هَـوْجَلاً [5] في الـمَهْمَهِ الخَـرْقِ الصُّـوَى
لـــمْ يـــزلْ في كـــلِّ مَخْشِـــيِّ السُّـــرَى يَصْـــطَلِي الحـــربَ ويجتـــابُ الـــدُّجَى

---

(١) أبو المخشيّ من قدماء الشعراء الطارئين على الأندلس نشأ في الأندلس واشتهر بالشعر ولاسيّما المديح والهجاء وصار شاعر الأندلس زمن الداخل. انقطع إلى سليمان بن عبدالرحمن فاغتاظ أخوه هشام وكان أحول، وظنّ أنّه يعرّض به، فأمر بسمل عينيه توفّي في أيّام الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ). قال الحميدي عنه إنّه «شاعر أعرابي مشهور قديم..قديم الحوك والصنعة، عربي الدار والنشأة، وإنّما تردد بالأندلس غريباً طارئاً، وهو من فحول الشعراء المتقدمين ».

تاريخ افتتاح الأندلس: ٥٦-٥٧، طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٦٣، جذوة المقتبس: ٣٨٩، رسائل ابن حزم: ٢ /٤٨، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: ٤٩١، المغرب في حلى المغرب: ١٢٣/٢، الذيل والتكملة:١٠٢/١/٥، نفح الطيب: ١٦٧/٤، تاريخ الأدب العربي: ٨٧/٤، تاريخ التراث العربي: ٣٨/٥.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢٣٣/٤ ،وفي الإحاطة تحريف وتصحيف صحّح بعضه من الذيل والتكملة:١٠٢/١/٥.

(٣) الوَجْد: الحزن والغضب.

(٤) حرّى: عطشى ملتهبة.

(٥) الهوجل: الدليل الحاذق. والمهمه: البلد القفر أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

الخرق: القفر البعيد، أو الفلاة الواسعة تتخرّق فيها الرياح. الصوى: ما غلظ من الأرض وارتفع عنها ولم يبلغ أن يكون جبلاً.

ومن الشعراء الذين ولدوا في الأندلس وترعرعوا فيها من أبناء أولئك الوافدين الأمير الحَكَمُ الرَّبَضِي (ت ٢٠٦هـ) حفيد عبدالرحمن الداخل الذي يقول:

غناءُ صَلِيْلِ[١] البِيْضِ أَشْهَى إلى الأُذْنِ ... مِنَ اللحْنِ في الأوتارِ واللهوِ والرَّدْنِ[٢]

إذا اخْتَلَفَتْ زُرْقُ الأسِنَّةِ والقَنَا ... أَرَتْكَ نجوماً يطَّلِعْنَ مِنَ الطَّعْنِ

بها يَهتدي السَّاري وتنكشفُ الدُّجَى ... وتَسْتَشْعِرُ الدنيا لِبَاساً مِنَ الأَمْنِ

شققتُ غِمَارَ الموتِ تُخْطِىءُ مُهْجَتِي ... سهامُ رَدَى قبلي أصابتْ ذوي الجُبْنِ

إذا لَفَحَتْ رِيْحُ الظَّهَائِرِ لمْ يكنْ ... لِفَاعِيَ[٣] فيها غيرَ فَيْءِ القَنَا اللَّدْنِ

وإنْ لَمْ يجدْ حِصْناً سوى الفرِّ مُقْدِمٌ ... فَمَا ليَ غيرُ السيفِ والرمحِ منْ حِصْنِ

قذفتُ بهمْ مِنْ فَوْقِ يَهْمَاءَ[٤] فارتوتْ ... لهُ الأرضُ واستولى على السهلِ والحَزْنِ

فسارَ يروِّي كلَّ صَدْيَانَ حائمٍ ... وسحَّ كَمَا سحَّتْ[٥] عَزَالٍ منَ المُزْنِ

وإنْ عَنَّ للتيّارِ منْ سَيَلَانِهِ ... ذُرَا شاهقٍ أضحَى كمُنْتَفِشِ[٦] العِهْنِ

هَنأتُ[٧] بهِ حرباً تَقَشَّعَ بَحْرُهَا ... بِجِمْلِ هَنَاءٍ لَيْسَ يَصْلُحُ للبُدْنِ[٨]

فكل هذه النماذج المذكورة تدل دلالة قاطعة على اصصطباغ ما تبقّى من شعر أندلسي بالصبغة المشرقيّة .

ومن الشعراء في هذا العصر الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل[٩] (ت١٨٠هـ)

---

(١) صليل البيض : صوت حديد السيوف عند القراع.

(٢) الردن : مخفّفة من الرَّدَن وهو أحد أنواع الحرير، والمقصود : اللهو والعبث.

(٣) اللفاع : الكساء الغليظ والرداء يجلّل الجسد كلّه.

(٤) يهماء: فلاة لا كَلأَ فيها ولا ماء.

(٥) سحّ المطر : سال من فوق واشتدّ انصبابه ودام هَطْله. والمزنة العزالي : السحابة التي تنهمر بشدّة .

(٦) العِهن : الصوف ، وفيه اقتباس من الآية القرآنيّة ﴿وَتَكُوْنُ الجِبَالُ كَالعِهْنِ المَنْفُوْشِ﴾ سورة القارعة:٥.

(٧) هنأ : طلا بالهِنَاء وهو القَطِرَان تدهن به الإبل الجرب لتشفى.

(٨) الحلّة السيراء : ٤٩/١.

(٩) انظر ترجمته في الأعلام: ٨٦/٨.

وعبدالملك بن بشر[١] (القرن الثاني الهجري)، والحاجب عبدالكريم بن عبد الواحد[٢] (ت ٢٠٩هـ) ، وبكر بن عيسى الكِنَاني[٣]،وغِرْيِبْ بن عبدالله الطُّلَيْطُلِي[٤](ت٢٠٧ هـ)، وابن هُبَيْرَة[٥]، وإبراهيم بن محمّد الأوْدي[٦]، وقد اندثر أكثر شعر هذه المرحلة، ولم يسلم لنا من أشعار القرن الثاني سوى نماذج قليلة[٧]، تثبت سماته المشرقيّة الأمويّة في حماسته ومتانته وخشونته وبدويته، وقلة اهتمامه بالصور الفنّيّة، فهو شطر ثان للشعر الأموي، وامتداد له في تلك البقاع القاصية، ولكنه يعد شعراً أندلسياً خالصاً ذا خصائص مشرقية السمات.

---

(١) عبدالملك بن بشر: شاعر طارىء على الأندلس، قتل أبو جعفر المنصور أباه فنجا بنفسه وقصد الأندلس، ودخلها في صدر إمارة عبدالرحمن الداخل، فقرّبه الداخل وكان يشاوره، وجعله عاملاً له على مدينة يابرة، روى له ابن الأبّار شيئاً من الشعر. المقتبس: ٢٥٥/٥، المغرب في حلى المغرب:٦٠/١، الحلّة السيراء:٥٨/١.

(٢) عبدالكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب، أبو حفص: أديب شاعر وزير قائد من أكابر رجال الدولة المروانيّة كان من العقل وحسن الرأي بمكان كبير، ولّاه هشام الرضا كورة جيّان وأغزاه ألبة والقلاع، وجرت على يديه فتوح جسام، ثمّ صار قائداً من قوّاد الحكم الربضي واستوزره وولّاه الحجابة، واستحجبه أيضاً عبدالرحمن الأوسط وتوفّي في طريقه لفتح جلّيقيّة سنة ٢٠٩هـ.
المقتبس:٢/٢٥-٢٧-٢٨-٣٠-٣١-٣٩-٧٧-٤٤٤، تاريخ افتتاح الأندلس: ٦٤-٧٨-٨٩- قضاة قرطبة: ٦٤، المغرب في حلى المغرب ١/٤٠-٤٤-٥٠، البيان المغرب:٢/٦٤-٦٥-٦٩-٧٥-٨٠-٨٢، الحلّة السيراء ١/١٣٥، أعمال الأعلام: ١٢-١٩، الإحاطة في أخبار غرناطة:١/٤٨٠، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:١/٣٣٨-٣٣٤.

(٣) بكر بن عيسى الكناني:شاعر مجيد من أهل قرطبة، عاش إلى أيّام الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ)، وكان مضرب المثل في الفصاحة حتّى قيل أفصح من بكر الكناني، وكان من أهل العلم باللغة والبصر وبالشعر. طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٦١، المغرب في حلى المغرب: ١١٤/١، نفح الطيب: ٢٦٢/٢.

(٤) غريب بن عبد الله الطليطلي (ت٢٠٧ هـ) شاعر عرّيض ذو منزلة مكينة من صنعة الشعر، ترك قرطبة لانحرافه عن طاعة الحكم الربضي ، ورحل إلى طليطلة لخروجها على الأمير فقدّمه أهلها وأشركوه في آرائهم ، وكان من أهل الدهاء والحكمة فاستعصت طليطلة على الأمير طوال حياته. المقتبس:٢/١/ ١٧٤-١٧٨ومواطن أخرى ،٧٦/٢/٢ ، تاريخ افتتاح الأندلس:٦٨ ، جذوة المقتبس:٣١٩، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:٢٣/٢.

(٥) ابن هبيرة: شاعر أندلسي قديم، كان بينه وبين أبي المخشيّ هجاء مقذع، لم يبق من شعره سوى بيت واحد. المغرب في حلى المغرب: ١٢٤/٢، تاريخ الأدب العربي لفرّوخ: ٨٧/٤.

(٦) إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن مزين الأودي من الشعراء المولّدين أصل سلفه من أكشونبة، سكن قرطبة وكان يتعاقب مع الحجّاب وجلّة الوزراء والقوّاد في أيام الحكم الربضي، ثمّ ولّاه إمارة طليطلة أعواماً متّصلة. أورد له ابن الأبّار شيئاً من الغزل الرقيق. الحلّة السيراء: ٨٨/١، تاريخ الأدب العربي لفرّوخ:٦٥/٤.

(٧) ثمّة شعراء آخرون في هذا القرن لم يصل إلينا إلّا أسماؤهم أو شيء نزر جدّاً من أخبارهم وأشعارهم ، انظر: فصول في الشعر الأندلسي: ١١٤-١١٥، واتّجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري: ٣٨ وما بعدها

ثانياً– الأصول المشرقيّة وبداية التجديد (٢٠٠–٣٠٠هـ)

(المرحلة المترجّحة بين القديم والحديث المشرقيّين وبزوغ الأندلسيّة)

أ. الاتجاه المشرقيّ القديم:

لقد تطوّرت المؤثّرات الثقافيّة المشرقيّة في هذه المرحلة، إذ أدخلت إلى الأندلس طريقة المحدثين إلى جانب طريقة العرب القدامى التي كانت لديهم، والحقّ أنّ لكلّ من الطريقتين ظواهر ساعدت على انتشارها وتوسّعها، ومظاهر تبدّت فيها؛ فمن ظواهر المنهج القديم الذي دخل تلقائيّاً مع العرب الفاتحين استمرار الرحلات العلميّة إلى المشرق، والأخذ عن العلماء المشرقيّين القدامى واتّصال رواية الشعر القديم، واهتمام علماء النحو واللغة به؛ لكونه شواهد يحتجّ بها.

ومن أهمّ من أدخل دواوين الشعراء القدماء وشروحها: محمّد بن عبدالله الغازي (ت ٢٦٩هـ) «وعنه روى المشايخ الأشعار المشروحات كلّها»[(١)]، وكذلك محمّد بن عبدالسلام الخشني (ت ٢٨٦هـ) زيادة على هذا استمرار طرائق التعليم ووجود المشيخات وتوارثها جيلاً بعد جيل.

من مظاهر المنهج القديم في التأليف: الاتّجاه نحو تصنيف أخبار المشرقيّين وأشعارهم ككتاب العقد لابن عبد ربّه، وشروح الكتب المشرقيّة القديمة.

ومن مظاهره في الشعر: طغيان الخصائص المشرقيّة القديمة، واصطباغ شطر من الأساليب والمعاني والألفاظ والأخيلة بالصبغة البدويّة، ومن أمثلة ذلك قول عبّاس بن ناصح[(٢)] (ت ٢٣٨هـ):

تململتُ في وادي الحِجَارةِ مُسْهَرَا أُراعي نُجوماً ما يُرِدْنَ تَغَوُّرَا

(١) طبقات النحويّين واللغويّين:٢٦٧.

(٢) عبّاس بن ناصح الجزيري الثقفي: أديب شاعر قاض مؤدّب من أهل العلم بالعربية ومن ذوي الفصاحة ، ارتحل إلى المشرق مرّتين، كما صار من شعراء الحكم الربضي ومدّاحه، وكان له ديوان شعر جمعه أبو الحزم الغسّاني. طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٦٢–٢٦٣، تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس:١/٣٤٠، المقتبس: ٢/١/ ٢٣٤–٢٣٨.

إليــكَ أبَــا العاصــي نضــيتُ مَطِيَّــتِي تســـيرُ بِـــهَمٍّ سَـــارِياً[1] ومُهَجِّـــرَا
تَـــدَارَكْ نِسَـــاءَ العـــالمينَ بنُصْـــرَةٍ فَإنَّـــكَ أَحْـــرَى أنْ تُغِيْـــثَ وتَنْصُـــرَا[2]

وكذلك قول مؤمن بن سعيد[3] (ت ٢٦٧هـ):

أنصـــارُ صِـــدْقٍ لـــدينِ اللهِ كلُّهُـــمُ مُسْتَبْشِـــرٌ بفتـــوحٍ منـــهُ مســـرورُ
شُـوْسٌ تـراءَتْ لهـمْ في كـلِّ مُعْتَـرَكٍ - فَيُقْـدِمُوْنَ- عَـذَارَى الجَنَّـةِ الحُـوْرُ
وقـادَهُمْ مـنْ بـني مَـرْوَانَ نحـوهمُ إمـامُ عَـدْلٍ بِـهِ الإسـلامُ مَنْصُـورُ
محمّـدٌ خـيرُ مَـنْ يَمْشِـي علـى قـدمٍ ومَـنْ إليـهِ تَنَـاهى المجـدُ والخِيْـرُ
هُـوَ الإمـامُ الـذي لا البخـلُ شِـيْمَتُهُ ولا الفِـرارُ إذا التـفَّ المَسـاعِيْرُ
أَغَـرُّ كالبـدرِ ينجـابُ الظـلامُ بـهِ ويرجِـعُ الطَّـرْفُ عنـهُ وَهْـوَ مَحْسُـوْرُ[4]

وكذلك قول زعيم الثائرين على المولّدين سَوَّارِ بن حَمْدُوْن[5] (ت ٢٧٧هـ):

صَـرَمَ الغـوانِي يَـا هُنَيْـدُ مَـوَدَّتِي إذْ شـابَ مَفْـرِقُ لَمَّتِـي وقَـذَالي[6]
وصَـدَدْنَ عَـنِّي يـا هُنَيْـدُ وطَالمـا عَلِقَـتْ حبـالُ وِصَالِـهُنَّ حِبَـالي[7]

ومن أهمّ شعراء المنهج القديم في هذا القرن زيادة على من اختير لهم عبّاس بن فرناس[8](ت ٢٧٤هـ)،وسعيد بن جودي[9] (ت٢٨٤هـ)،

---

(١) الساري: السائر في الليل. والمهجّر: السائر وقت الهجيرة في منتصف النهار.
(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣٤٣/١.
(٣) انظر ترجمته في الأعلام:٣٣٤/٧، وقد جمعت ما تبقّى من شعره.
(٤) المقتبس: ٣٠٢/٢/٢-٣٠٣. اقتباس من الآية الكريمة ﴿ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ سورة الملك: ٦٧.
(٥) انظر ترجمته في الأعلام ١٤٤/٣.
(٦) اللمّة : الشعر المجاوز شحمة الأذن. والقَذال: جماع مؤخر الرأس.
(٧) الحلّة السيراء: ١٥٤/١.
(٨) انظر ترجمته في الأعلام: ٢٦٤/٣. وقد جمعت ما تبقّى من شعره.
(٩) انظر ترجمته في الأعلام: ٩٥/٣. وقد جمعت ما تبقّى من شعره.

وحسّانة التميميّة[١]، ومحمّد بن عبدالعزيز العُتْبي[٢] (ت ٢٥٥هـ) وعبدالله بن الشَّمْر[٣] (ت٢٣٨ هـ)، وسعيد بن الفرج الرشّاش[٤] (ت ٢٧٢هـ).

ب. الاتجاه المشرقيّ المحدث:

أمّا ظواهر المنهج المحدث فأهمّها وصول دواوين بعض الشعراء المشرقيين المحدثين إلى الأندلس، حاملة معها طرائق المحدثين في نظم الشعر التي تقابل طريقة العرب القدامى وكان وصولها بطريقتين، أوّلهما: وفود بعض العلماء المشرقيّين كأبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني الذي روى شعر أبي تمّام[٥]. وثانيهما: الرحلات العلميّة إلى المشرق التي صارت تزوّد الأندلسيّين بأشعار المحدثين وأخبارهم، فقد رحل الشاعر مؤمن بن سعيد (ت٢٦٧هـ) إلى المشرق وأدخل ديوان أبي تمّام[٦]، وأدخل هذا الديوان المهمّ أيضاً عثمان ابن المثنّى النحوي (ت ٢٧٣هـ) [٧] .

---

(١) حسّانة بنت أبي المخشيّ، أديبة شاعرة تأدّبت على أبيها الشاعر الذي مات أيّام الحكم الربضي فوفدت على الحكم ومدحته مسترفدة فكتب إلى عامله على إلبيرة بأن يجري عليها راتباً ويحسن إليها، ولما جاء عبدالرحمن بن الحكم كان العامل على إلبيرة جابر بن لبيد فقطع الراتب، فأتت إلى عبدالرحمن تشكو إليه جابراً، فعزله وردّ عليها ما كان جارياً أيّام أبيها، فلمّا انصرفت بعثت إليه بقصيدة مدح. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٦٧/٤-١٦٨، تاريخ التراث العربي: ٨٧/٥.

(٢) محمّد بن عبدالعزيز العتبي ؛ من نبهاء شعراء دولة الأمير محمّد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) عاش في قرطبة وكان منقطعاً إلى الأمير القاسم بن محمّد، وكان بينه وبين مؤمن بن سعيد مهاجاة توفّي سنة ٢٥٥هـ.
المقتبس:٣٣٦/١/٢ -٢٤٣ ، يتيمة الدهر: ٢٩/٢، الحلّة السيراء:١٢٨/١-١٣٠-١٤٧، المغرب في حلى المغرب: ١٣٤/١، البيان المغرب: ١١٢/٢-١١٣.

(٣) أبو محمّد عبد الله بن الشمر بن نمير القرطبي، أصله من وَشْقَة، كان شاعراً من أهل العلم بالعربيّة ورئيساً للمنجّمين، وكان مقرّباً لدى الأمير عبدالرحمن بن الحكم قبل حكمه وبعده، يخرجه معه في صيده وغزواته.
العقد:٦١/٣-٦٢، ٤٩٣/٤، تاريخ افتتاح الأندلس:٧٧ ، المقتبس:٦٥/٢/٢-٦٦-٤٧٧، تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس:٢٦٨/١ الحلّة السيراء:١١٦/١-١١٨، المغرب في حلى المغرب:٤٧/١-٥٠-٥١-١٢٤-١٢٧ ، أعمال الأعلام: ١٨ ،تاريخ الأدب العربي:١٠٢/٤ ، تاريخ التراث العربي:٤١/٥-٤٢.

(٤) سعيد بن الفَرَج الرشّاش القرطبي، أبو عثمان، أديب شاعر عالم بالشعر واللغة، راوية يحفظ – فيما يزعم – ٤٠٠٠ أرجوزة، كان غاية في الفصاحة حتّى ضرب المثل فيه فقيل: أفصح من الرشاش وكان من شعراء المديح لعبدالرحمن الثاني، وكان بينه وبين ابن الشمر مهاجاة. توفي سنة ٢٧٢هـ.
المقتبس: ٢/٢/ ١٨٩، تاريخ العلماء ١٩٦/١، طبقات النحويّين واللغويّين:٢٦١.

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:١٣٤/٣-١٣٥.

(٦) المغرب في حلى المغرب:١٣٢/١.

(٧) طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٦٦.

وزيادة على أنّ تلك الرحلات كانت تمدّ الأندلس بروافد ثقافيّة فإنّ بعضها قد خصّص للقاء كبار الشعراء المشرقيّين المحدثين، فعبّاس بن ناصح الأديب الشاعر النحوي الأندلسي رحل رحلتين إلى المشرق كانت الأولى للتحصيل العلمي، وبعد عودته واستقراره في الأندلس ظلّ يسأل الوافدين إليها عمّن نبغ في المشرق من الشعراء بعد ابن هَرْمَة، وعندما سمع بنبوغ أبي نُوَاس رحل إلى المشرق رحلة ثانية، والتقاه وأقام عنده سنة، وبعد عودة عبّاس إلى الأندلس روى ديوان أبي نواس.

ولا شكّ بأنّ بعض العلماء والمؤدّبين قد عكفوا على شرح بعض هذه الدواوين المهمّة لطلّابهم وروايتها كعادتهم. وممّا ساعد على نشر هذا المذهب في الأندلس الاستقرار النسبي في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم، والميل إلى الترف ومجالس اللهو والغناء والشراب، وقدوم المغنّي زرياب وما أشاعه من أفانين وضروب حضارية، زيادة على التأثّر بالبيئة الطبيعيّة الجميلة التي نزلها العرب في بعض بقاع الأندلس، وإلى بدء التفاعل بالبيئة الاجتماعيّة الجديدة التي امتزجت فيها عناصر بشريّة مختلفة ؛كلّ ذلك أدّى إلى قيام الاتجاه المشرقي المحدث في مواجهة الاتجاه المشرقي القديم الذي كان له الغلبة في هذا القرن، فقد كان تأثير الشعراء المشرقيّين المحدثين في الشعراء الأندلسيّين الذين ورثوا تقاليد طريقة العرب القدامى ينحو منحيين، إذ صدف عنها القسم الأكبر من الشعراء الأندلسيّين، واستطرفها ثلّة منهم ونهجوا نهجها حيناً، واتّبعوا قديمهم حيناً آخر، ومزجوا بينهما أحياناً أخر، فسايروا عصرهم من دون أن يتخلَّوا عن ميراثهم القديم «ومن طبيعة الشعر الأندلسي – أيضاً – أنّ التيّار الذي سمّي طريقة العرب حين جاور مذهب المحدثين عايشه في هدوء، وسار التياران متوازيين دون صراع حتّى لتجدهما معاً في شعر الشاعر الواحد» [1]. من مثل ابن عبد ربّه[2] (ت ٣٢٨هـ)، ومؤمن بن سعيد (ت ٢٦٧هـ) وهاشم بن عبدالعزيز[3] (ت ٢٧٣هـ) فبينما يقول آخرهم مفتخراً بجدّه وهزله:

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٤٧٤.

(٢) انظر ترجمته في الأعلام: ٢٠٧/١.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام: ٦٦/٨.

أَهْـــوَى مُعَانَقَـــةَ المِـــلَا ... حِ وشُـرْبَ أكـواسِ الطِّلَـى[1]

ويســـرُّنِي حُسْـــنُ الريَـــا ... ضِ وقـــدْ تَوَشَّـــتْ بـــالحُلَى

وأذوبُ مِـــنْ طـــربٍ إذا ... مَـا الصـبحُ جـرَّدَ مُنْصُـلَا[2]

وأهـــيمُ في قَـــوْدِ الجُيُـــو ... شِ ونيـــلِ أســـبابِ العُـــلَا

وأُهَـــزُّ مُرْتَاحـــاً إذَا ... سَـــرَتِ المواضـــي في الطُّـــلَا

قُـــلْ للـــذي يَبْغِـــي مَكَـــا ... نِي هَكـــذا أوْ لَا فَـــلَا[3]

إذا بنا نجده يقول في سجنه:

وإنّي عَـــدَانِي أنْ أزورَكِ مُطْبِـــقٌ ... وبَـابٌ منيـعٌ بالحديـدِ مُضَـبَّبُ[4]

فـإنْ تَعْجَـبِي يَـا عَـاجُ مِـمَّا أَصَـابَنِي ... فَفِـي رَيْـبِ هَـذَا الـدهرِ مَـا يُتَعَجَّـبُ

وفي الـنفسِ أشـياءٌ أبيـتُ بِغَمِّهَـا ... كَـأنِّي عَلَـى جَمْـرِ الغَضَـى أَتَقَلَّـبُ

تركـتُ رشـادَ الأمـرِ إذْ كُنْـتُ قَـادِراً ... عليـهِ فلاقيـتُ الـذي كنـتُ أَرْهَـبُ

وكَـمْ قائـلٍ قَـالَ انْـجُ وَيْحَـكَ سَـالماً ... ففـي الأرضِ عـنهمْ مُسْـتَرَادٌ ومَـذْهَبُ

فقلـــتُ لـــهُ إنَّ الفِـــرارَ مَذَلَّـــةٌ ... ونفسـيْ علـى الأَسْـوَاءِ أحلَـى وأَطْيَـبُ

سأرضَـى بِحُكْـمِ اللهِ فيمـا يَنُـوْبُنِي ... وَمَـا مِـنْ قَضَـاءِ اللهِ للمـرءِ مَهْـرَبُ

فمـــنْ يَـــكُ مَسْـــرُوراً بحـــالِيْ فإنَّـــهُ ... سـينهلُ في كاسِـي وَشِـيْكاً ويشـرَبُ[5]

من مظاهر المنهج المحدث: الاهتمام بموضوعات حضاريّة طارئة، والاعتماد على المصدر الطبيعي أكثر من المصدر الثقافي، والبعد عن الصور البدويّة والألفاظ الخشنة،

(١) الطِّلى: الخمر. والطُّلا: الأعناق أو أصولها أو صفحاتها

(٢) المُنْصِل: اسم للسيف.

(٣) المغرب في حلى المغرب: ٢/٩٤-٩٥.

(٤) المُطْبِق: سجن تحت الأرض. مضبّب: ملبس بالحديد.

(٥) الحلّة السيراء: ١/١٤٠-١٤١.

والميل إلى السهولة والعذوبة والسخرية، ومن أمثلة ذلك قول أشهر مجدّدي هذا العصر يحيى بن حَكَم الغَزَال[1]:

لقـــدْ سمعـــتُ عجيبـــاً ... مِـــنْ آبِـــدَاتِ[2] يُخَـــامِرْ
قَـــرَا عَلَيْـــهِ غـــلامٌ ... طَـــهَ وســـورةَ غَـــافِرْ
فقـــالَ: مَـــنْ قَـــالَ هَـــذا ... هَـــذَا لَعَمْـــرِيَ شَـــاعِرْ
أردتُ صـــفعَ قفـــاهُ ... فخفـــتُ صـــولةَ جَـــائِرْ
أتيـــتُ يَوْمـــاً بِتَـــيْسٍ ... مُسْـــتَعْبِراً مُتَحَاسِـــرْ
فقلـــتُ: قُوْمُـــوا اذْبَحُـــوْهُ ... فَقَـــالَ إِنّي يُخَـــامِرْ[3]

ومن ذلك قول أوّل أمراء هذه المرحلة عبد الرحمن الأوسط:

قَتَلْتَـــنِي بهواكَـــا ... ومَـــا أحـــبُّ سِوَاكَـــا
مَـــنْ لِيْ بسـحرِ جفـونٍ ... تُـــدِيْرُهُ عَيْنَاكَـــا
وحُمْـــرَةٍ فِي بَيَـــاضٍ ... تُكْسَـــى بِـــهِ وَجْنَتَاكَـــا
اعْطِـــفْ عَلَـــيَّ قَلِـــيْلاً ... وأَحْيِـــنِيْ بِرِضَاكَـــا
فقـــدْ قَنِعْـــتُ وحَسْـــبِيْ ... بِـــأَنْ أَرَى مَـــنْ رَآكَـــا[4]

وهؤلاء هم أهمّ أعلام المنهج المحدث في هذه المرحلة، وقد يذكر معهم مخترع الموشحّات مقدّم بن معافى القبري[5] (ت أواخر القرن الثالث الهجري) بيد أنّ شعره الذي لم يبق منه سوى نزر قليل هو أكثر اقتراباً من المنهج القديم.

---

(١) شعر الغزال: ٧١.

(٢) الآبدات: جمع آبدة، وهي الأمر العجيب المستغرب ، والداهية يبقى ذكرها أبداً.

(٣) يخامر بن عثمان الشعباني ولي القضاء في حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط.

(٤) الحلّة السيراء:١١٨/١.

(٥) نفح الطيب: ٥٣٨/٣، ٦/٧، أزهار الرياض: ٢٠٧/٢.

ج. بداية الاتجاه الأندلسي:

لم يقتصر الأمر في الشعر الأندلسي على طريقتي العرب القدامى والمحدثين في الشعر، بل بدأت تتشكّل فيه بعض ملامح الأندلسيّة الخاصّة، وممَّا ساعد على ذلك الاستقرار النسبي لحياة الناس ولاسيما في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وبداية التفاتهم إلى التنعّم بطبيعة بلادهم.

وقد شفّت بعض هذه الملامح الأندلسيّة الشعريّة في الميل إلى الإبداع في الأخيلة، والتأنّق في عرض المعاني والجنوح إلى ترقيق الألفاظ، وفي بدايات ظهور وصف الطبيعة ومزجها بالغزل، أو الاستفادة الكبيرة من عنصر الطبيعة في صنع الصور الفنّيّة في سائر الأغراض وكذلك من المجوهرات، فمن الميل إلى إبداع الأخيلة والتأنّق في عرض المعاني قول يحيى بن حكم الغزال:

قالتْ: أُحِبُّكَ، قُلْتُ: كَاذِبَةٌ ... غُرِّيْ بِذَا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ

هَذَا كَلَامٌ لَسْتُ أَقْبَلُهُ ... الشَّيْخُ لَيْسَ يُحِبُّهُ أَحَدُ

سِيَّانِ قَوْلُكِ ذَا وقَوْلُكِ إِنْ - نَ الرِّيْحَ نَعْقِدُهَا فَتَنْعَقِدُ

أَوْ أَنْ تَقُوْلِي: النارُ بَارِدَةٌ ... أَوْ أَنْ تَقُوْلِي: الماءُ يَتَّقِدُ[1]

ومن رقّة الألفاظ وسلاسة التراكيب قول الغزال أيضاً:

وَسُلَيْمَى ذَاتُ زُهْدٍ ... فِي زَهِيْدٍ مِنْ وِصَالِ[2]

كُلَّمَا قُلْتُ: صِلِيْنِي ... حَاسَبَتْنِي بِالخَيَالِ

وَالكَرَى قَدْ مَنَعَتْهُ ... مُقْلَتِي أُخْرَى اللَّيَالي

وَهْيَ أَدْرَى فَلِمَاذَا ... دَافَعَتْنِي بِمُحَالِ

---

(١) شعر الغزال:٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٠.

أَتُـــــرَانِي أَقْتَضِـــــيْهَا بَعْـــدُ شَـــيْئاً مِـــنْ نَـــوَالِ

ومـن أوّليّـات المقطوعـات في وصـف الطبيعـة قـول عبـدالرحمن الأوسـط مسـتدعياً شاعره وندیمه عبدالله بن الشَّمْر:

مَـــا تَـــرَاهُ فِي اصْـــطِبَاحٍ وَعُقُـــوْدُ القَطْـــرِ تُنْثَـــرْ
وَنَسِـــيْمُ الـــرَّوْضِ يَخْتَـــا لُ عَلَـــى مِسْـــكٍ وَعَنْبَـــرْ
كُلَّمَـــا حَـــاوَلَ سَـــبْقاً فَهْـــوَ فِي الرَّيْحَـــان يَعْثُـــرْ
لَا تَكُـــنْ مِهْمَالَـــةً وَاسْـــ ـــبِقْ فَمَـــا فِي الـــبُطْءِ تُعْـــذَرْ[1]

ومن مزج الطبيعة بالغزل قول عبّاس بن فِرْنَاس (ت ٢٨٤هـ):

فَبِتْنَـــا وأنـــواعُ النعـــيمِ ابتـــذَالُنَا ولَا غَيْـــرَ عَيْنَيْهَـــا وعَيْـــنِي كَـــالِي
إلى أَنْ بَـــدَا وَجْـــهُ الصـــباحِ كَأَنَّـــهُ جَبِـــيْنُ فَتَـــاةٍ لَاحَ بَـــيْنَ حِجَـــالِ[2]

ومن الاستفادة من عنصر الطبيعة في صنع صور فنّيّة معبّرة عن الفكرة المرادة قول ابن عبد ربه الذي عاش في مفصل القرنين الثالث والرابع:

شَـــبَابِيْ كَيْـــفَ صِـــرْتَ إِلَى نَفَـــادِ وَبُـــدِّلْتَ البَيَـــاضَ مِـــنَ السَّـــوَادِ
ومـــا أَبْقَـــى الحَـــوَادِثُ مِنْـــكَ إِلَّا كَمَـــا أَبْقَـــتْ مِـــنَ القَمَـــرِ الـــدَآدِي[3]

ومن الاهتمام بالجواهر والمعادن الثمينة في صنع صور فنّيّة معبّرة عن الفكرة المرادة قول ابن عبد ربّه:

يَـــا لُؤْلُـــؤاً يَسْـــبِي العقـــولَ أَنِيْقَـــا ورَشـــاً بتقطيـــعِ القلـــوبِ رَفِيْقَـــا
مَـــا إِنْ رأيـــتُ ولا ســـمعتُ بمثلِـــهِ دُرّاً يَعُـــوْدُ مِـــنَ الحَيَـــاءِ عَقِيْقَـــا

(١) المغرب في حلى المغرب:١/٥٠-٥١. الاصطباح: شرب الخمرة صباحاً. كالي: مسهل كالىء: حافظ حارس.
(٢) شعر عبّاس بن فرناس: ١٤٨-١٤٩.
(٣) شعر ابن عبد ربه: ٥٥-٥٦.
والدآدي: ثلاث ليال من آخر الشهر مثل ليالي المُحاق، وقيل إنّها هي.

وإذَا نَظَـــرْتَ إلَى مَحَاسِـــنِ وَجْهِـــهِ أَبْصَـــرْتَ وَجْهَـــكَ فِي سَـــنَاهُ غَرِيْقَـــا

يَـــا مَـــنْ تَقَطَّـــعَ خَصْـــرُهُ مِـــنْ رِقَّـــةٍ مَـــا بَـــالُ قَلْبِـــكَ لَا يَكُـــونُ رَقِيْقَـــا[1]

وفي أواخر هذا القرن ظهر الموشّح ومشى على استحياء- أوّل الأمر – على يد مقدّم بن معافى القبري[2]، بيد أنّه لم يصل إلينا شيء من موشّحاته، وتميّز الموشّح واختلافه عن شكل الشعر العربي كان أوّل انفكاك حقيقيّ من إسار المشرقيّة، وببزوغه ينتقل الأدب العربي في الأندلس إلى المرحلة الأندلسيّة الأولى.

ثالثاً. تطوّر الشعر الأندلسي في عصر الخلافة (٣٠٠ -٤٢٢ هـ)

أ. الاتجاه المشرقي القديم:

اتّسعت في هذا المرحلة المؤثّرات الثقافيّة المشرقيّة، وتعدّدت أنواعها التي لم تنقطع منذ دخول العرب إلى الأندلس حتّى آخر عهودهم. ولعلّ المؤثّرات الثقافيّة هي أهمّ ضروب المؤثّرات على الإطلاق، لأنّها مادّة الأدب وأداته، وهي تؤثّر في الأديب وأدبه، والشاعر وشعره، وما يتضمّن فيه من ألفاظ ومعان وصور وموسيقى. وقد يكون غريباً أن نسم المرحلة الأندلسيّة الأولى باستفحال المؤثّرات المشرقيّة وتبحّرها، ولكنّ هذا الأمر حقيقة لا جدال فيها، بيد أنّ الأثر لا يعني مجرّد التلقّي، بل يعني – زيادة على هذا – الاستفادة والتجديد والتطوير والمعارضة والمنافسة والتفوّق والتغلّب، فإنّ إقبال الأندلسيّين على الثقافة العربيّة التي تهبّ من المشرق كان دليلاً على مدى انفتاح آفاق المثقّفين الأندلسيّين ومظهراً يشي بذكائهم في صراعهم الخفيّ مع الثقافة المشرقيّة وأصحابها أي إنّهم حوّلوا الصراع بين هاتين الشخصيّتين الثقافيّتين إلى صلح كصلح الحُدَيْبِيَّة يفيدون

---

(١) شعر ابن عبد ربه: ١٢٠.

(٢) مخترع الموشّحات، من شعراء الأمير عبد الله بن محمّد ، حكم بين (٢٧٥–٣٠٠هـ)، وزعم الحميدي أنّه "شاعر معروف في أيّام عبد الرحمن الناصر"، كسدت موشّحاته وضاعت لكونها بدعاً في عصره. المقتبس:٣/١٠٠، ١٣١، ٣٥٥. والمقتبس:٥/٢١٧ ، جذوة المقتبس:٣٤٦، بغية الملتمس: ٤٣٩، ٤٤٠، المقتطف من أزاهر الطرف : ٢٥٥، الحلّة السيراء: ١/١٥٦، نفح الطيب: ٣/٥٣٨، ٦/٧، أزهار الرياض: ٢/٢٠٧، فهرس كتاب التشبيهات: ٣٣٤، تاريخ التراث العربي: ٥/، تاريخ الأدب العربي: ٤/١٥٥.

منه ويبذّون أقرانهم، ويظهر – من جانب آخر– تعلّق الأمراء والخلفاء الأمويّين بالأندلس، وحنينهم إلى موطنهم الأوّل ومجد دولتهم الأمويّة الأثيل.

تزاحمت في هذا القرن التيّارات المشرقيّة الثلاثة، طريقة العرب القدامى، وطريقة المحدثين، والطريقة التي مزجت بينهما التي تسمّى بالاتجاه " المحافظ الجديد " واستفاد الشعر العربي في الأندلس من هذه الطرائق جميعها، وتفاعل بها وكوّن معها شخصيّته المميّزة ولونه الزاهي.

وكان لكلّ من تلك التيّارات والاتّجاهات ظواهر ساعدت على انتشارها واتّساعها أو تقلّصها فمن ظواهر الاتّجاه القديم: وفود علماء وشعراء مشرقيّين أهمّهم قاطبة وأوسعهم أثراً هو أبو عليّ القالي البغدادي[١] (ت ٣٥٦ هـ) ومن ثمّ صاعد البغدادي[٢] (ت ٤١٧هـ) والمهنّد البغدادي[٣] (ت ٣٩٠ هـ).

وكذلك رحيل جمهرة من الأندلسيّين وتتلمذهم للعلماء المشارقة وعودتهم إلى الأندلس من هؤلاء: محمّد بن أبي عِلَاقَةَ البوّاب القرطبي (ت ٣٢٥ هـ)[٤] الذي أدخل كتاب الكامل للمبرّد، ومنذر بن سعيد البَلُّوطِي[٥] (ت٣٥٥ هـ) ومحمّد بن يحيى الرَّبَاحِي[٦](ت ٣٥٨ هـ) وابن الفَرَضِي[٧] (ت ٤٠٣ هـ).

---

(١) انظر: ترجمته في الأعلام: ٣٢١/١.

(٢) انظر: ترجمته في الأعلام ١٨٦/١ – ١٨٧ وقد جمعت ما تبقّى من أشعاره وأخباره وطبع بعنوان صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره ،في دار شراع بحلب،٢٠١٢.

(٣) طاهر بن محمّد، أبو العبّاس: من كبار الشعراء الطارئين على الأندلس وتوفي بقرطبة سنة (٣٩٠هـ).
وقد جمعت ما تبقى من شعره ، وطبع بعنوان: المهنّد البغدادي الأندلسي ؛ حياته ومجموع شعره، دار شراع ، حلب، ٢٠١٢م.
وانظر مصادر ترجمته فيه.

(٤) انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٥٠/٢.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام: ٢٩٤/٧ ، وقد جمعت ما تبقّى من شعره ونثره. الأعلام: ١٢١/٤.

(٦) أبو عبد الله الأزدي الرباحي: عالم في النحو شاعر على مذهب العرب الأوائل، فقيه، إمام، أصله من جيّان ومنزله قرطبة، رحل إلى المشرق وأخذ عن ابن النحّاس، ولمّا عاد تصدّر للتدريس وكان بارعاً في إقراء النحو والاحتجاج، استأدبه الناصر لولده المغيرة، ثمّ عمل في دواوينه وصار أثيراً لديه، توفّي سنة ٣٥٨ هـ. طبقات النحويّين: ٣١٠، تاريخ علماء الأندلس:٧١/٢، رسائل ابن حزم: ١٨٧/٢، جذوة المقتبس: ١٠٢، بغية الملتمس: ١٣٦.

(٧) الأعلام: ١٢١/٤

ومن ذلك وصول أفواج من أخبار التراث ولاسيّما ما أملاه القَالي في أماليه، وما جلبه من دواوين الشعراء القدماء وكتب العلماء الأوائل وما أشبه ذلك، وكذلك ما حمله سواه من الطارئين على الأندلس من علماء وتجّار، والعائدين إلى وطنهم من الأندلسيّين، وممّا ساعد على ذلك اهتمام الخلفاء الأندلسيّين بالعلم وتشجيعهم العلماء فقد أحسن عبد الرحمن الناصر استقبال أبي علي القالي، وكذلك كرّمه واستفاد منه ابنه الحكم المستنصر، الذي نشأ على حبّ العلم وجمع مكتبة هائلة؛ ذكر أنّ فيها أربعمئة ألف مجلّد، وكان يرسل إلى المشرق من يشتري له الكتب المهمّة[1]. كما أحسن الحاجب المنصور استقبال صاعد وجعله من ندمائه المقرّبين.

وتجلّى الأثر القديم للثقافة المشرقيّة في الأندلس بإقرار أتباعها الأندلسيّين بتقدّم العلماء المشرقيّين، وتفوّقهم عليهم، ولاسيّما فيما يتعلّق بعلوم اللغة العربيّة والثقافة القديمة لأنّهم مصدرها حتّى إنّ الحكم المستنصر أمر الزبيدي أن يؤلّف كتاباً في " طبقات النحويّين واللغويّين" منذ صدر الإسلام إلى زمنه، وأن يجلب «جملة من نتف أخبارهم، وتاريخ وفاتهم، والحكايات المتضمّنة لفضائلهم، المشتملة على محاسنهم، ليكون ذلك شكراً لجميل سعيهم، وحميد مقامهم، إذ كان ذلك من حقّهم على من أدّوا إليه علمهم، وأعملوا في صلاحه جهدهم»[2] ، ومن ثمّ يقدّم النحويّين البصريّين فالكوفيّين على سائر النحويّين واللغويّين في الأمصار الأخرى يقول: «نبدأ بذكر النحويّين على طبقاتهم، واللغويّين بعدهم، ونقدّم البصريّين من كلتا الطبقتين لتقدّمهم في علم العربيّة، وسبقهم إلى التأليف فيها»[3] وفي آخر تراجم كتابه يثني على المشرق ثناء سابغاً في ترجمته لمحمّد بن يحيى الرباحي الذي رحل إلى المشرق وحمل علوم العربيّة الأصيلة العميقة إلى المؤدّبين الأندلسيّين «وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في الشرق من استقصاء الفنّ بوجوهه واستيفائه على

---

١ – المغرب:١/١٢٠.

٢ – طبقات النحويّين واللغويّين: ١٧

٣ – المصدر نفسه: ١٨.

حدوده، وأنّهم بذلك استحقّوا اسم الرياسة»[1].

ومن مظاهره في التأليف شروح الكتب المشرقيّة واختصارها ،كمختصر كتاب العين للزُّبَيْدِي (ت ٣٧٩ هـ)، وشرح كتاب الأخفش لمحمّد بن أَبَان بن سِيْد وشرح جمل الزجّاجي لابن العريف (ت ٣٩٠ هـ).

ومن أمثلة المذهب القديم – شعريّاً – في هذا القرن قول إسماعيل بن بدر بن زياد[2] (ت ٣٥١ هـ):

وذِي لجَبٍ كالبَحْرِ عَبَّ عُبَابُهُ فَضَاقَ بِهِ رَحْبُ الفَلَا والتَنَائِفِ[3]

قَرِيْبُ الخُطَا نَائِي المَدَى مَالِئُ المَلَا بِجَمْعٍ تَرَاهُ وَاقِفاً غَيْرَ وَاقِفِ

تركنَا بِهِ أرضَ العدوِّ كأنَّهَا مَجَاهِلُ لِلْمُرْتَادِ غَيْرَ مَعَارِفِ

غَدَتْ بعدَ سَحْبِ البِيْضِ فيهَا ذُيُوْلَهَا مَجَرَّ ذُيُولِ الطَّامِسَاتِ العَوَاصِفِ[4]

وقول محمّد بن يحيى الرَّبَاحِي النحوي (ت ٣٥٨ هـ):

خَلِيْلَيَّ مِنْ فَرْعَيْ زُبَيْدِ بنِ مَذْحَجٍ قِفَا وَاسْمَعَا قَدْ يُسْعِدُ الشَّجِنَ الشَّجِي

ألَمْ تعلمَا أَنِّي أَرِقْتُ وَشَاقَنِي خيالٌ سَرَى وَهْناً ولمَّا يُعَرِّجِ[5]

وقول ابن هانئ (ت ٣٦٢ هـ):

أقوى المُحَصَّبُ مِنْ هَادٍ ومِنْ هِيْدِ ووَدَّعُونَا لِطِيَّاتٍ عَبَادِيْدِ

مَا أَنْسَ لا أَنْسَ إِجْفَالَ الحَجِيْجِ بِنَا والرَّاقِصَاتِ مِنَ المَهْرِيَّةِ القُوْدِ

ذَا مَوْقِفُ الصَّبِّ مِنْ رَمْيِ الجِمَارِ ومِنْ مَشَاخِبِ البُدْنِ قَفْراً غَيْرَ مَعْهُوْدِ

---

١ – طبقات النحويّين واللغويّين: ٣١١.

٢ – انظر ترجمته في الأعلام:١/٣١٠.

٣ – التنائف: جمع تَنُوفَة: المفازة أو الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس وإن كانت معشبة.

٤ – الحلّة السيراء:١/ ٢٥٤.

٥ – طبقات النحويّين واللغويّين: ٣١٣.

ومَوْقِـفُ الفَتَيَـاتِ النَاسِـكَاتِ ضُـحىً يَعْثُـرْنَ في حِـبَرَاتِ الفِتْيَـةِ الصِّـيْدِ
يُـحْرِمْنَ في الـرَّيْطِ مِـنْ مَثْـنَى ووَاحِـدَةٍ وَلَيْـسَ يَحْـرِمْنَ إِلَّا في المَوَاعِيْـدِ
ذواتُ نَبْـلٍ ضِـعَافٍ وَهْـيَ قَاتِلَـةٌ وقَـدْ يُصِـيْبُ كَمِيّـاً سَـهْمُ رِعْدِيْـدِ
قَـدْ كنـتُ قَنَّاصَـهَا أَيَّـامَ أَذْعَرُهَـا غِيْـدَ السَّـوَالِفِ في أَيَّـامِيَ الغِيْـدِ
إِذْ لا تَبِيْـتُ ظِبَـاءُ الـوَحْشِ نَـافِرَةً ولَا تُـرَاعُ مَهَـاةُ الرَّمْـلِ بِالسِّـيْدِ[1]

ومن البديهي أنّ أصحاب هذا المنهج ومشجّعيه كانوا من اللغويّين والنحويّين ومن لفّ لفّهم، ومن الملاحظ – أيضاً – أنّ أغلب شعراء المذهب القديم قد عاشوا في الشطر الأوّل من هذا القرن، وكانوا امتداداً للتيّار القديم الذي كان شديداً في القرون السالفة، ثمّ أخذ يضعف ويتضاءل مع كلّ تلك المؤثّرات القديمة، فإنّ رياح التجديد كانت أقوى، ونوافذ الحريّة كانت أوسع، واستعداد الأندلسيّين لتقبّلها كان أشدّ، ومن ثمّ غدت المناهج الجديدة المحدثة أكثر نفوذاً، وأوسع امتداداً في شرائح المجتمع الواسعة، يقول د. إحسان عبّاس «وجد نهج القدامى ونهج المحدثين وعاشا معاً جنباً إلى جنب، ولكنّ الذوق العامّ كان أميل إلى الاتجاه المحدث، ولمّا رثى الرباحيُّ أحمدَ بن موسى بن حُدَيْر بقصيدة بناها على مذاهب العرب، وخرج فيها عن مذاهب المحدثين لم يرضها العامّة»[2]؛ بيد أنّ أبا عليّ القالي كان شديد الإعجاب بها، كثير الثناء عليها، وهي التي أوّلها[3]:

إِحْـدَى الرَّزِيَّـاتِ ولا أُعْطِـي السَّـوَى رُزْءاً بِـهِ دَهْـرِي ولَـو عَـزَّ العَـزَا

ب: الاتجاه المشرقيّ المحدث

واستمرّت –كذلك – ظواهر الاتّجاه المحدث السابقة، وسرى أسلوب المشارقة المحدثين في شطر من الشعراء الأندلسيّين، ومن أمثلة ذلك قول عبد الملك[4] بن شُهَيْد

---

١ – ديوان ابن هاني: ٨٩ – ٩٠
٢ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٤٧٠ – ٤٧١
٣ – طبقات النحويّين واللغويّين: ٣١٣
٤ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٥٦/٤

(ت ٣٩٣ هـ):

هَـــاكَ شـــيخٌ قَـــادَهُ عُـــذْرٌ لَكَـــا ... قـــــامَ فِي رَقْصَـــــتِهِ مُسْـــــتَهْلِكَا

لَـــمْ يُطِـــقْ يَرْقُصُـــهَا مُسْـــتَثْبِتاً ... فَـــانْثَنَى يَرْقُصُـــهَا مُسْتَمْسِـــكَا

عَاقَـــهُ مِـــنْ هَزِّهَـــا مُعْتَـــدِلاً ... نِقْـــرِسٌ أَنْحَـــى عَلَيْـــهِ فَاتَّكَـــا

طَـــرِبَ اللَّهْـــوُ وقَـــدْ حُـــقَّ لَـــهُ ... طَرَبـــاً أَرْمَضَـــهُ حَـــتَّى اشْـــتَكَى

مِـــنْ وزيـــرٍ فـــيهمُ رَقَّاصَـــةٍ ... قَـــامَ مِـــنْ طِيْـــبٍ يُنَـــاغِي مَلِكَـــا

أَنَـــا لَـــوْ كُنْـــتُ كَمَـــا تَعْـــرِفُنِي ... قُمْـــتُ إِجْـــلَالاً علـــى رَأْسِـــي لَكَـــا

قَهْقَـــهَ الإِبْرِيْـــقُ مِـــنِّي ضَـــحِكاً ... ورَأَى رَعْشَـــةَ رِجْلِـــي فَبَكَـــى[1]

وقول المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام المرواني[2] (ت ٤١٤ هـ) أحد أواخر الخلفاء الأندلسيّين[3]:

طـــالَ عُمْـــرُ الليـــلِ عِنْـــدِي ... مُـــذْ تَوَلَّعْـــتِ بِصَـــدِّي

يَـــا غـــزالاً نقـــضَ الـــوِدْ ... دَ ولـــمْ يُـــوْفِ بعهـــدِي

أنسيـــتَ العَهْـــدَ إِذْ بِتْـــ ... ـنَـــا علـــى مِفْـــرَشِ وَرْدِ

واجتمعْنَـــا فِـــي وِشَـــاحٍ ... وانْتَظَمْنَـــا نَظْـــمَ عِقْـــدِ

وتعانَقْنَـــا كَغُصْنَيْـــ ... ـــنِ وقَدَّاتَـــا كَقَـــدِّ

ونجـــومُ الليـــلِ تَحْكِـــي ... ذَهَبـــاً فِـــي لَازَوَرْدِ

وقول ابن شُهَيْد (ت ٤٢٢هـ):

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٤/١/٢٨، وانظر الأبيات مع اختلاف الروايات: المغرب في حلى المغرب:١/٢٠٣، ٢٠٤، نفح الطيب: ٣/٢٦١

٢ – انظر ترجمته في الأعلام:٣/٣٤١.

٣ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١ /٥٧ – ٥٨

أَصُبَيْـــحٌ شِيْـــمَ أَمْ بَـــرْقٌ بَـــدَا ... أَمْ سَنَـــا المحبـــوبِ أَوْرَى أَزْنُـــدَا

هَـــبَّ مِـــنْ مرقـــدِهِ مُنْكَسِـــراً ... مُسْـــبِلاً للكُـــمِّ مُـــرْخٍ للـــرِدَا

يمســـحُ النَّعْسَـــةَ مِـــنْ عَيْـــنَيْ رَشَـــا ... صائـــدٍ فـــي كـــلِّ يَـــوْمٍ أَسَـــدَا

أَوْرَدَتْـــــهُ لُطْفَـــــاً آيَتُـــــهُ ... صَفْـــوَةَ العيـــشِ وأَرْعَتْـــهُ دَدَا

فَهْـــوَ مِـــنْ دَلٍّ عَـــرَاهُ زُبْـــدَةٌ ... مِـــنْ صَـــرِيْحٍ لم يخالـــطْ زَبَـــدَا

قلـــتُ هَـــبْ لِـــيْ يـــا حبيـــبي قُبْلَـــةً ... تُشْـــفِ مِـــنْ غَمِّـــكَ تَـــبْرِيْحَ الصَّـــدَى

فانثنَـــى يَهْتَـــزُّ مِـــنْ مَنْكِبِـــهِ ... قَـــائِلاً لَا ثُمَّ أَعْطَانِـــي اليَـــدَا

كلَّمـــا كلَّمَنِـــيْ قَبَّلْتُـــهُ ... فَهْـــوَ إِمَّـــا قـــالَ قـــولاً رَدَّدَا

كـــادَ أَنْ يرجِـــعَ- مِـــنْ لَثْمِـــي لَـــهُ ... وارْتِشَافِـــي- الثَّغْـــرُ مِنْـــهُ أَدْرَدَا

قَـــالَ لي يَلْعَـــبُ صِـــدْ لِـــيْ طَائِـــراً ... فَتَـــرَانِي الـــدهرَ أَجْـــرِي بِالكُـــدَى

وإِذا اسْتَنْجَـــزْتُ يَوْمـــاً وَعْـــدَهُ ... قَـــالَ لي يَمْطُـــلُ: ذَكِّرْنِـــي غَـــدَا

شربـــتْ أَعْطَافُـــهُ خمـــرَ الصِّبَـــا ... وســـقاهُ الحُسْـــنُ حَتَّـــى عَرْبَـــدَا[1]

ج: الاتجاه المشرقي المحافظ الجديد

غير أنّ أهمّ وافد مشرقي هو مذهب الشعر "المحافظ الجديد"، وهو أكثر حداثة وأوفر مناسبة لجواء المديح وما شابهه، تكوّن هذا المذهب من عناصر قديمة نهجاً ولغة وموسيقى، وعناصر محدثة معنى وصوراً وزركشة وتزييناً جمعها كبار الشعراء المشرقيّين كأبي تمّام والبحتري وابن الرومي والمتنبّي، وكان لديواني أبي تمّام والمتنبّي أثر كبير جدّاً، فقد رافق هذان الديوانان العظيمان العلماء والأدباء الأندلسيّين شرحاً وتعليماً وتعلّماً واستفادة حتّى آخر عهود الفردوس المفقود[2]، وقد بلغ من اهتمام الخاصّة والعامّة به أن أمر عبد الرحمن

---

١ – شعر ابن شهيد: ١٠٢ – ١٠٣

٢ – انظر كتاب " أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة": ١٠ – ١٦٧

الناصر الخليفة الأوّل: « بانتساخ شعر حبيب »[1] ،كما صار يقرأ في حلقات بعض العلماء كالغَابي[2] وابن الأصفر الذي وصفه الزُّبَيْدِي بأنّه كان له «بصر بمعاني شعر حبيب وغيره من أشعار المحدثين»[3]،وكذلك الطُّبْخِي (ت٣٥٢ هـ) الذي ألّف في ذلك فكانت «له شروح في شعر حبيب وصَرِيْع[4] قريبة مبسوطة»[5]، وممّن نقل شعر المتنبّي في هذا العصر زكريّا ابن الأَشَجِّ (ت ٣٩٣هـ).

ومن أمثلة هذا الاتجاه قول الشريف الطَّلِيْق[6]:

أقــولُ ودمعــي يَسْتَهِــلُّ ويَسْفَــحُ ... وقــدْ هــاجَ في الصــدرِ الغليــلُ المُبَــرِّحُ

دَعــوني مِــنَ الصبــرِ الجميــلِ فإنَّنِــي ... رأيــتُ جميــلَ الصــبرِ فــي الحــبِّ يَقْبُــحُ

لقدْ هيَّجَ الأَضْحَى لنفسيْ جوى أَسًى ... كريــــهُ المنايَــــا مِنْــــهُ للنفــــسِ أَرْوَحُ

كــأنَّ بعينــيْ حَلْــقَ كــلِّ ذبيحــةٍ ... بــهِ وبصــدري قلبَهَــا حِيْــنَ تُذْبَــحُ

فيــا ليــتَ شِعْــرِيْ هــلْ لمــولايَ عَطْفَــةٌ ... يُــدَاوَى بهَــا منِّــيْ فــؤادٌ مُجَــرَّحُ

يحــنُّ إلى البــدرِ الــذي فــوقَ خــدِّهِ ... مَكَــانُ ســوادِ البــدرِ وردٌ مُفَتَّــحُ

تقنَّــعَ بــدرُ التِّــمِّ عنــدَ طُلُوْعِــهِ ... مخافــةَ أنْ يســرِي إليــهِ فَيُفْضَــحُ

فقلــتُ لــهُ يــا بــدرُ أَسْفِــرْ فقــدْ عَــدَا ... عليــهِ رقيــبٌ للعِــدَا ليــسَ يَبْــرَحُ

لَعَمْــرِيْ لــذاكَ البــدرُ أجمــلُ مَنْظَــراً ... وأحســنُ مِــنْ بــدرِ التَّمَــامِ وأَمْلَــحُ

وقول الرمادي[7]:

---

١ – طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٨٢

٢ – المصدر نفسه: ٢٩٠

٣ – المصدر نفسه: ٣٠٣

٤ – هو صريع الغواني مسلم بن الوليد، وقد وصل إلينا شطر من هذا الشرح وطبع.

٥ – المصدر نفسه: ٣٠٤

٦ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢٠٨/٧

٧ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢٥٥/٨

مَــنْ حاكــمٌ بينــي وبيــنَ عَذُوْلِــي ... الشَّجْــوُ شَجْــوِي والعَوِيْــلُ عَوِيْلِــي

أَقْصِــرْ فَمَــا دِيْــنُ الهَــوَى كُفْــرٌ ولا ... أَعْتَــدُّ لَوْمَــكَ لِــيْ مِــنَ التَّنْزِيْــلِ

عجبــاً لقــومٍ لــمْ تكــنْ أذهانُهُــمْ ... لهــوىً ولا أجسادُهُــمْ لِنُحُــوْلِ

دَقَّــتْ معانــي الحــبِّ عَــنْ أَفْهَامِهِــمْ ... فتأوَّلُــوْهُ أقبــحَ التَأْوِيْــلِ

فِيْ أيِّ جارحــةٍ أصــونُ معذِّبِــيْ ... سَلِمَــتْ مِــنَ التعذيــبِ والتَنْكِيْــلِ

إنْ قلــتُ فــي عينــي فَثَــمَّ مَدامعــي ... أوْ قُلْــتُ فِــي قَلبــي فَثَــمَّ غَلِيْلِــي

لكــنْ جعلــتُ لــهُ المسامِــعَ مَسْكَنــاً ... وحجبتُــهُ عَــنْ عَــذْلِ كُــلِّ عَــذُوْلِ

وثــلاثُ شَيْبَــاتٍ نزلْــنَ بِمَفْرِقِــيْ ... فعلمــتُ أنَّ نزولَهُــنَّ رَحِيْلِــي

طلعــتْ ثَلاثــاً فــي نــزولِ ثَلاثَــةٍ ... وَاشٍ ووَجْــهُ مُرَاقِــبٍ وثَقِيْــلِ[1]

فعزلْنَنِــيْ عَــنْ صَبْوَتِــيْ فلَئِــنْ ذَلَلْــ ... ــتُ فقــدْ ســمعتُ بذِلَّــةِ المَعْــزُوْلِ

وقول ابن دَرَّاجٍ القَسْطَلِّي[2]:

أضــاءَ لهــا فَجْــرُ النُّهَــى فَنَهَاهَــا ... عــنِ الــدَّنفِ المُضْنَــى بِحَــرِّ هَوَاهَــا[3]

وضَــلَّلَهَا صــبحٌ جَــلا ليلــةَ الــدُّجَى ... وقــدْ كــانَ يَهْــدِيْهَا إليّ دجاهَــا

ويشــفعُ لي مِنْهــا إلى الوصــلِ مَفْــرِقٌ ... يُهِــلُّ إليهَــا حَلْيُهَــا وحُلَاهَــا

فيــا للشــبابِ الغَــضِّ أَنْهَــجَ بُــرْدَهُ ... ويَــا لريــاضِ اللهــوِ جــفَّ سَــفَاهَا

ومَــا هِــيَ إلَّا الشَّــمْسُ حلَّــتْ بِــمِفْرَقِي ... فأعشَــى عيــونَ الغانيــاتِ سَــنَاهَا

وعــينُ الصِّــبَا عــارَ المشــيبُ ســوادَهَا ... فَعَــنْ أَيِّ عَــيْنٍ بَعْــدَ تلــكَ أَرَاهَــا

ســلامٌ علــى شَــرْخِ الشَّــبَابِ مُــرَدَّدٌ ... وآهــاً لوصــلِ الغانيــاتِ وآهَــا

---

١ – شعر الرمادي: ١١١ – ١١٢

٢ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢١١/١

٣ – ديوان ابن درّاج: ٨–٩.

ويـا لـديارِ اللهـوِ أقـوَتْ رسـوْمُهَا ومَحَّـتْ مغانيهَـا وصَـمَّ صَـدَاهَا
وخبَّـرَ عنهـا سَـحْقُ أَثْلَـمَ خَاشِـعٍ كهالـةِ بَـدْرٍ بَشَّـرَتْ بِـحَيَاهَا

وليس يعني استشهادي بنماذج معيّنة على هذه المناهج المشرقيّة الثلاثة أنّ الشاعر المستشهد به قد وقف شعره على طراز واحد منها فقد يجمع الشاعر في شعره بين منهجين منها أو يجمع المناهج الثلاثة جميعها، لكون ظروف حياته تتطلّبها كلّها، فهذا ابن شُخَيْصٍ[1] الأندلسي مثلاً يقول تارة على النهج القديم للشعراء العذريّين:

ومعتلّـةِ الأجفـانِ مـا زلـتُ مُشْـفِقاً عليهـا ولكـنِّي ألـذُّ اعْتِلَالَهَـا
جفـونٌ أجـالَ الحُسْـنُ فـيهنَّ فَتْـرَةً فَحَـلَّ عُـرَى الآجـالِ مُنْـذُ أَجَالَهَـا
هـلْ مِـنْ شَـفِيْعٍ عنـدَ لَيْلَـى إلى الكَـرَى لعلِّـيْ إذا مَـا نِمْـتُ ألقَـى خَيَالَهَـا
يقولـونَ لي صـبراً علـى مَطْـلِ وَعْـدِهَا وَمَـا وَعَـدَتْ ليلـى فَأَشْـكُو مَطَالَهَـا
ومَـا كـانَ ذنـبي غـيرَ حفظِـي عهودَهَـا وطَـيِّ هَواهَـا واحْتِمَـالي دَلَالَهَـا[2]

وحينما يحبّر قصائد المديح فإنّه ينهج النهج المحافظ الجديد، يقول[3] :

كـادَ أنْ يـزحمَ الغـدوَّ العشـيُّ يـومَ وافـاكَ للسـلامِ النَّـدِيُّ[4]
يـؤنسُ الـبعضَ منـهُ بعـضٌ جـلاهُ وجهُـكَ الطَّلْـقُ لا الصـباحُ الجَلِـيُّ
قابـلَ الفطـرُ منـكَ أكـبرَ منـهُ وَهْـوَ مِـنْ وَفْـدِكَ الكـريمُ السَّنِـيُّ
فَهنيئـاً للعيـدِ زَوْرُ إمـامٍ كـلُّ عـيشٍ منـهُ هنـيٌّ مَـرِيُّ
يَحجـبُ النـورُ شخصَـهُ حـينَ يَبْـدُو فَهْـوَ للنـاظرينَ: بَـادٍ جَلِـيُّ

---

١ – محمّد بن مطرّف بن شخيص القرطبي؛ أبو عبد الله، شاعر مقدّم، توفّي قبيل الأربعمئة. وقد جمعت ما تبقّى من شعره، وطبع في دار شراع ، عام ١٩٩٢م.

٢ – شعر ابن شخيص: ٧٢–٧٣

٣ – المصدر نفسه: ٩٢ – ٩٣.

٤ – النديُّ: أهل المجلس؛ مجلس القوم ومتحدّثهم ما داموا فيه.

وعندما يعبّر عن نفسه وذاته ويصف دقائق حياته فإنّه ينهج نهج المحدثين الأكثر حرّيّة، يقول:

أَنـــا بالأكـــلِ مُسْـــتَهَامٌ ورَأْيِـــيْ فيـــهِ رأيُ المجـــوسِ في النِيْـــرَانِ

وإذَا مَـــا انقضَـــى صَـــنِيْعٌ ولمْ أُدْ عَ إليـــهِ في جملـــةِ الجـــيرَانِ

عرضـــتْ ليْ وســـاوسٌ لـــوْ أصـــابتْ قلـــبَ غـــيرِي لشُـــدَّ في الأَكْفَـــانِ

ولَـــوَ انِّي شـــهدتُهُ كـــانَ عِنْـــدِيْ كشـــهوديْ لبيعـــةِ الرِّضْـــوَانِ[1]

د. ظهور الاتجاه الأندلسي

شجّع الخلفاء الأندلسيّون العلماء والأدباء الأندلسيّين، وأوجد الحكم المستنصر حركة ثقافيّة «بعثت في الأندلس شعوراً بالثقة حين ميّزت بين التبعيّة الكاملة للمشرق، والاستقلال الذاتي، وأعانت على النظرة إلى ما يمكن أن يسمّى " شعر الأندلسيّين " مستقلّاً أو متّصلاً بالحركة الشعريّة العامّة في البلاد الإسلاميّة»[2].

ولم يقتصر الشعر في هذا القرن على تلك المناهج الثلاثة بل تجاوز قسم من الشعراء الأندلسيّين طرائق المشرقيّين الثلاث، طريقة العرب القدامى التي دخلت معهم، وطريقة المحدثين التي وصلت إليهم بوساطة القنوات الثقافيّة، وطريقة الشعر" المحافظ الجديد" التي لحقت بسابقتها، فقد امتزجت هذه الطرائق الشعريّة جميعها، وتأثّرت بالبيئة الأندلسيّة الطبيعيّة والاجتماعيّة الجديدة، واصطبغت بصبغة أندلسيّة مميّزة من الرّقة والتأنّق، واكتست حلّة ساحرة من الخيال الذي طالما رفع قدره الشعراء الأندلسيّون، وتشبّث به النقّاد الأندلسيّون[3].

ولقد ظهرت ملامحها الأندلسيّة الأولى في قصائد الشعراء الأندلسيّين، من أهمّ

---

١ – شعر ابن عبد ربه:٨٨

٢ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ٤٧٢.

٣– المرجع نفسه: ٤٧٥.

تلك الملامح الابتكار في الخيال والاختراع في الصور والسعي الحثيث نحوهما، وتطلّب الإبداع والغرابة فيهما مع رقّة عاطفيّة نسبيّاً، وتأنّق في اللفظ وابتعاد عن الخشونة والغريب، واتّضاح المعاني، وسهولة التراكيب، وطلاوة الموسيقى، وفيما يتعلّق بالأغراض فقد كثرت الموضوعات الجزئيّة الجديدة التي تتطلّبها البيئة الجديدة وتبحّر الوصف عامّة، واتّسع وصف الطبيعة وجزئياتها، ووصف مجالس اللهو في مجالي الطبيعة، ومزج الغزل بالطبيعة، وكذلك وصف المدن والعمران والمعارك البرّيّة والبحريّة.

فمن أمثلة الاختراع في الخيال والابتكار في الصور قول الرمادي:

هويتَ فؤاديْ مَنْ يرانيَ عبدَهُ أَنَاْ عَبْدُ رَبٍّ وَهْوَ عَبْدٌ لِرَبَّيْنِ

كأنَّ فؤاديْ بينَ عينيهِ كلَّمَا يُلَاحِظُنِيْ عُصْفُورَةٌ بَيْنَ صَقْرَيْنِ[1]

ومن أمثلة قصد الغرابة في الصور والطرافة في الخيال قول الرمادي أيضاً[2]:

يا ثوبَهُ الأزرقَ الذي قدْ فَاتَ العراقيَّ في السَّنَاءِ

يكادُ وجهُ الذي يراهُ يُكْسَى بَياضاً مِنَ الضِّيَاءِ

كأنَّهُ فِيْكَ بَدْرُ تِمٍّ يَقْطَعُ في زُرْقَةِ السَّمَاءِ

ومن أمثلة الرقّة العاطفيّة واللفظيّة والمعنويّة قوله أيضاً في ألثغ:

لا الرَّاءُ تَطْمَعُ في الوِصَالِ ولَا أَنَا الهجرُ يَجْمَعُنَا فنحنُ سَوَاءُ

فَإذا خَلَوْتُ كتبْتُهَا في رَاحَتِيْ وبَكَيْتُ مُنْتَحِباً أَنَاْ والرَّاءُ[3]

ومن أمثلة الموضوعات الجزئيّة الجديدة قول الرمادي وقد نزل « على بني أَرْقَم بوادي آش، فقدّم إليه فيما أكرم به طبق ورد، وكان في فصل الشتاء فاستغربه، ثمّ أخذ منه وردة واحدة، وقال بديهة:

---

(١) شعر الرمادي: ١٢٨-١٢٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥١-٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ٥١.

يـــا خـــدودَ الحُـــوْرِ في إِخْجَالِـــهَا قَـــدْ عَلَتْـــهَا حُمْـــرَةٌ مُكْتَسَبَـــهْ[1]

اغتربْنَـــا أنـــتِ مِـــنْ جَنَّانَـــةٍ وَأَنَـــا مغـــتربٌ مِـــنْ قُرْطُبَـــهْ

واجتمعنَـــا عنـــدَ إخـــوانِ صَـــفَا بِالنَّـــدَى أموالُهُـــمْ مُنْتَهَبَـــهْ

عُصْـــبَةٌ إِنْ سُـــئِلَتْ عَـــنْ نِسْبَـــةٍ فَـــإِلَى أَرْقَمِهَـــا مُنْتَسِبَـــهْ

إِنَّ لَثْـــمِي لَـــكِ قُدَّامَهُـــمْ لَـــيْسَ فِيْـــهِ فِعْلَـــةٌ مُسْتَغْرَبَـــهْ

لاجْتِمَـــاعٍ في اغْـــتِرَابٍ بَيْنَنَـــا قَبَّـــلَ المُغْتَـــرِبُ المُغْتَرَبَـــهْ

ومن أمثلة وصف الطبيعة وجزئياتها كوصف البرق والرعد قول المهنّد البغدادي الأندلسي[2]:

أقلـــوبُ العُشَّـــاقِ ذاكَ الـــوميضُ أمْ عـــروقٌ يجـــولُ فيهـــا نُبُـــوضُ

أَمْ جُنُـــودٌ دُكْـــنُ السَّـــرَابِيْلِ سُـــلَّتْ للقـــاءٍ فيهـــا ســـيوفٌ بـــيضُ

نَشَـأَتْ مثلَمْـا جَـرَى المـاءُ مِـنْ شَتْـ ـتَـى فَغَصَّـتْ- لـمَّا تَلَاقَـى- الأُرُوضُ

وَأَضَـاءَتْ والرعـدُ فيهـا كَمَـا أَجْـ ـلَبَ مَـوْجٌ فَـلَاحَ فِيْـهِ وَمِـيْضُ

ومن أمثلة وصف مجالس الشراب واللهو في الطبيعة الرائعة الفاتنة قول الشريف الطليق المرواني:

وَعَشـــيٍّ كأَنَّـــهُ صـــبحُ عِيْـــدٍ جَـــامِعٍ بَـــيْنَ بَهْجَـــةٍ وَشُـــحُوبِ

هَـــبَّ فِيْـــهِ النَّسـيمُ مِثْـلَ مُحِـبٍّ مُسْـــتَعِيْراً شَمَائِـــلَ المَـــحْبُوبِ

ظَلْـتُ فِيْـهِ مَـا بَـيْنَ شَـمْسَيْنِ هَـذِي في طُلُـــوعٍ وَهَـــذِهِ في غُـــرُوبِ

وَتَـــدَلَّت شَمـــسُ الأَصـــيلِ وَلَكِـــنْ شَـــمْسُنَا لَمْ تَـــزَلْ بِـــأَعْلَى الجُـــيُوبِ

(١) شعر الرمادي:٥٣.

(٢) المهنّد البغدادي الأندلسي حياته ومجموع شعره: ٥٩.

رَبِّ هَـــذَا خلقتَـــهُ مِـــنْ بَـــديعٍ مَـنْ رَأَى الشَّـمْسَ أُطْلِعَـتْ فِي قَضِـيْبِ
أَيُّ وَقْـتٍ قَـدْ أَسـعفَ الـدَهْرُ فيـهِ وَأَجابَـتْ بِـهِ الـمُنَى عَـنْ قَرِيْـبِ
قَـــدْ قَطَعْنَـــاهُ نَشْـــوَةً وَوِصَـــالاً وَمَلأْنَـــاهُ مِـــنْ كِبَـــارِ الـــذُّنُوبِ[1]

ومن أمثلة مزج الطبيعة بالغزل والتولّع بها ومشاركتها لأحاسيس الشعراء قول الطليق أيضاً :

وَدَّعْـتُ مَـنْ أَهْـوَى أَصِيْـلاً لَيْتَـنِي ذُقْـتُ الحِمَـامَ وَلَا أَذُوْقُ نَـوَاهُ
فوجدتُ حَتَّى الشمسَ تَشْكُو وَجْدَهُ والـوُرْقُ تَنْـدُبُ شَـجْوَهَا بِـهَوَاهُ
وعلـى الأصـائلِ رِقَّـةٌ مِـنْ بُعْـدِهِ فَكَـأَنَّهَا تَلْقَـى الـذي أَلْقَـاهُ
وَغَـدَا النَّسِيْـمُ مُـبَلِّغاً مَـا بَيْنَنَـا فَلِـذَاكَ رَقَّ هَـوىً وَطَـابَ شَـذَاهُ
مَـا الـروضُ قـدْ مُزِجَـتْ بِـهِ أَنْـدَاؤُهُ سَـحَراً بِأَطْيَـبَ مِـنْ شَـذَا ذِكْـرَاهُ
والزهـرُ مَبْسَمُـهُ ونَكْهَتُـهُ الصَّـبَا والـوردُ أَخْضَلَـهُ النـدَى خَـدَّاهُ
فلـذاكَ أُوْلَـعُ بِالريـاضِ لأَنَّهَـا أَبَـداً تُـذَكِّرُنِي بِـمَنْ أَهْـوَاهُ[2]

ومن أمثلة وصف المدن والمباني والمنشآت العمرانيّة قول يحيى بن هذيل في مدينة الزهراء

كـأَنَّ حَنَايَاهَـا جَنَاحَـا مُصَفِّـقٍ إِذَا أَلْهَبَتْـهُ الشَّـمْسُ أَرْخَاهُمَـا نَشْـرَا
كـأَنَّ سَـوَارِيْهَا شَـكَتْ فَتْـرَةَ الضَّـنَى فباتـتْ هَضِـيْمَاتِ الحَشَـا نُحَّـلاً صُـفْرَا
كـأَنَّ الـذي زَانَ البَيَـاضَ نُحُورهَـا يُعَـذِّبُهَا هَجْـراً وَيَقْطَعُهَـا كِبْـرَا
كـأَنَّ النخيـلَ الباسـقاتِ إِلَى العُـلَا عَـذَارَى حِجَـالٍ رَجَّلَـتْ لِمَمـاً شُـقْرا

(١) شعر الشريف الطليق: ٧٥-٧٦.
(٢) المصدر نفسه: ٧٧.

كـــأنَّ غصـــونَ الآسِ والـــريحُ بَيْنَـــهَا مُتُـوْنُ نَشَـاوَى كُلَّمَـا اضْـطَرَبَتْ سُـكْرَا

كـــــأنَّ جـــــنيَّ الجُلَّنَـــــارِ وَوَرْدَهُ عشيقانِ لـمَّا اسْتَجْمَعَا أَظْهَـرَا خَفْـرَا[1]

ومن أمثلة وصف الأساطيل الحربيّة والمعارك البحريّة قول ابن هذيل أيضاً:

وتِلْـــكَ الأَسَـــاطِيْلُ المُســـخّرة الـــتي تمُـــرُّ بتأييـــدٍ وتَغْـــزُو فَتَغْـــنَمُ

إذا مَخَـرَتْ في البحـرِ مَاجَـتْ كَأَنَّـمَا تُخَاصِـمُ أَبْنَـاءَ الضَّـلَالِ فَتَخْصِـمُ

وصُـفَّتْ كَـأَنَّ البَحْـرَ تَحْـتَ صُـدُوْرِهَا قَـدِ اسْتَأْسَـرَتْ أَمْوَاجُـهُ فَهْـوَ أَبْكَـمُ

وقامـــتْ سِـــتَارَاتٌ علـــى جَنَبَاتِـــهَا طِـوَالٌ كَمَـا امْتَـدَّ السـحابُ المُرْكَـمُ[2]

وثمّة قضيّة غاية في الأهمّيّة هي مدى أثر الموروث الثقافي المشرقي في الشعر الأندلسيّ السمات؛ فممّا لا شك فيه أنّه لا يمكن لأيّ شعر كان التخلّي عن جذوره، وعن النسغ الذي يمدّه بعناصره الأساسية، لذلك فقد بقيت صور كثيرة تتردّد لدى الشعراء جميعهم في العصور كلّها لكونها عزيزة عليهم إلى جانب اختراعاتهم، ولكنّ شطراً من تلك الصور لم يتكرّر بشكله الخامّ، بل جاء – منذ هذا العصر – مصنّعاً بطريقة ذكيّة، يشي بظهور طور فنّيّ أوّل، جدّد الصور التراثيّة وأطرف فيها، وحاول تركيبها تركيباً جديداً، فمن ذلك استغلال التراث ذاته التاريخي والأدبي والديني في صنع صور فنّيّة جديدة، فهذا الرمادي يستغلّ مثلاً علّة في أحد أعلام المعتزلة المشارقة؛ واصل بن عطاء هي اللثغة بالراء، فكان يتجنّبها في كلامه، فيقول في وصف محبوب له ألثغ:

أَعِـدْ لَثْغَـةً لَـوْ أَنَّ وَاصِـلَ حَاضِـرٌ ليسـمَعَهَا مَـا أَسْـقَطَ الـرَّاءَ وَاصِـلُ[3]

يستفيد الشريف الطليق كذلك من التراث الإخباري والأدبي فيقف على أطلال أحبّته المتخيّلين وقفة فنّيّة جديدة، يقول:

---

(١) شعر ابن هذيل: ١٦٤ – ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٢.

(٣) شعر الرمادي: ١٠١.

فبقيتُ في العَرَصَاتِ وَحْدِيْ بَعْدَهُمْ حيرانَ بَيْنَ مَعَاهِدٍ مَا تُعْهَدُ

فكأنهنَّ دِيَارُ مَيَّ إِذْ خَلَتْ وكأنَّني غَيْلَانُ فِيْهَا يُنْشِدُ[1]

ففي مثل هذه الموضوعات التي لم تعد سوى تقليد شعريّ تنظر إليه مخيّلة الشعراء نظرة ذي علق، يحاول الشعراء الأندلسيّون صنع صور جديدة لها حضاريّة كقول الرمادي في وصف الصحراء والركائب:

وَرَكْبٍ إذَا قَطَعُوا نَفْنَفاً رَمَى بِهِمُ البُعْدُ فِي نَفْنَفِ

كأنَّ الفَيَافِيَ في طُوْلِهَا ليالٍ على عَاشِقٍ قَدْ جُفِيْ[2]

أو صور شعيريّة كقوله أيضاً:

وَيَهْمَاءَ مِثْلِ البَحْرِ خَرْقَاءَ لَا تَرَى سَبِيْلاً بِهَا يَهْدِي فَبِالظَنِّ يُهْتَدَى

تَرَى الرَّكْبَ فيها مِنْ سُرىً فَوْقَ عِيْسِهِمْ لِغَيْرِ إِلَهٍ رَاكِعِيْنَ وَسُجَّدَا[3]

وكذلك الأمر في الصور النمطيّة كالغزال والقمر والكثيب وما أشبه ذلك يقول ابن شهيد:

مَرَّ بِي فِي فَلَكٍ مِنْ رَبْرَبِ قَمَرٌ مُبْتَسِمٌ عَنْ شَنَبِ

زَيَّنُوا أَعْلَاهُ بِالدُرِّ كما ثَقَّلُوا أَسْفَلَهُ بِالكُثُبِ

فَازْدَهَتْنِي أَرْيَحِيَّاتُ الصِّبَا وَاسْتَخَفَّتْنِي دَوَاعِيْ طَرَبِي

فتعرّضتُ لتسليمٍ لَهُ فَإِذَا التَّيَّاهُ لَا يَعْبَأُ بِي

قَالَ هَذَا العَبْدُ مَنْ دَلَّلَهُ مَا الذِي أَمَّنَهُ مِنْ غَضَبِي

يَا ظُبَا لَحْظِيْ خُذِيْ لِيْ رَأْسَهُ فَهْوَ لَا شَكَّ مِنْ اهْلِ الرِّيَبِ

---

(١) شعر الشريف الطليق: ٨٠.

(٢) شعر الرمادي: ٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ٦٤.

فَـــــانْبَرَتْ أَلْحَاظُـــــهُ تَطْلُبُـــــنِي وَأَنَـــــا قُدَّامَـــــهَا فِي الهَـــــرَبِ

لَـــــوْ تَـــــرَانِيْ وَأَنَـــــا أُلْطِفُـــــهُ وَأُدَارِيْـــــهِ مُـــــدَارَاةَ الصَّـــــبِي

خِلْتَـــــهُ جَبَّـــــارَ قَـــــوْمٍ مَـــــرَدُوا وَأَنَـــــا فِي لُطْـــــفِ الـــــوَعْظِ نَـــــبِي[1]

في أواخر هذا العصر ظهرت نماذج من الصور الفنّيّة المركّبة تدلّ على التطوّر الفنّيّ الذي طرأ على الوجه المرئيّ من الخيال الأندلسي، فهذا الرمادي يقوم بشعائر الحجّ من رمى الجمار والطواف ولكنّ أدوات هذه الشعائر وأماكنها مختلفة عن أدوات الحجّ وأماكنه، وانتقلت من الواقع إلى الفنّ المركّب إذ تسند الجمار إلى الدمع في تركيب إضافي ويتغيّر مكان القذف من منى إلى النوى والبعد، ويطوف كذلك أضعافاً للحجّ الحقيقي لكنّ طوافه حول رسوم ديار أحبّته وربوعها، يجمع الرمادي بين ذينك الأسلوبين الفنّيّين البسيط والمركّب بقوله[2]:

وَقفـــتُ علـــى الـــدارِ الخَـــلَاءِ كَـــأَنَّنِي وَقَفْـــتُ عَلَـــى قَلْـــبٍ مِـــنَ الصَّـــبْرِ بَلْقَـــعِ

رَميـــتُ جِمَـــارَ الـــدمعِ في مَوْقِـــفِ النَّـــوَى وَقَـــدْ طُفْـــتُ أَسْـــبَاعاً بِرَسْـــمٍ وَأَرْبُـــعِ

وبمقدرة أكبر وتمكّن أكثر من الأسلوب المركّب يقول ابن درّاج الذي عاش ما ينوف على عقدين بعد القرن الرابع الهجري[3]:

وَأَنـــتِ أَجَـــرْتِ الليـــلَ إِذْ هـــزَمَ الضُّـــحى كتائِبَـــهُ والصُّـــبحَ لَمَّـــا اســـتجارَكِ

فلِلصُّـــبحِ فيمـــا بَـــيْنَ قُرْطَيـــكِ مطلـــعٌ وَقَـــدْ سَـــكَنَ الليـــلُ البهـــيمُ خِمـــارَكِ

فيـــا لِنهـــارٍ لا يَغِـــيضُ ظلامُـــهُ ويـــا لِظـــلامٍ لا يُغـــيضُ نهـــارَكِ

وَنَجـــمُ الثُّرَيَّـــا أَمْ لآلٍ تقسَّـــمتْ يمينَـــكِ إِذ ضَـــمَّخْتِها أم يَســـارَكِ

لِسُـــلطانِ حســـنٍ فِي بـــديع محاسِـــنٍ يصـــيدُ القلـــوبَ النَّـــافِرَاتِ نفـــارَكِ

---

(١) شعر ابن شهيد: ٩١-٩٢ .

(٢) شعر الرمادي: ٨٣.

(٣) ديوان ابن درّاج: ٨٥.

وَجُنـــــدِ غـــــرامٍ فِي دروع صـــــبابةٍ تقلَّـــدْنَ أَقْـــدَارَ الهـــوى واقتـــدارَكِ

هـــو الـــمُلْكُ لا بلقـــيسُ أَدْرَكَ شَـــأْوُها مَـــداكِ ولا الزَّبَّـــاءُ شـــقَّتْ غُبـــارَكِ

وقَادِمَـــةَ الجـــوزاءِ راعَيْـــتُ مَوْهِنـــاً بحَـــرِّ هـــواكِ أَم تَرَسَّـــمْتُ دَارَكِ

ومن كبار شعراء هذه المرحلة:إسماعيل بن بدر بن إسماعيل (ت٣٥١هـ)، وعبيد الله بن إدريس[١](ت٣٥٢ هـ)، ومنذر بن سعيد(ت٣٥٥هـ) وأحمد بن عبد الملك[٢] (ق ٤ هـ)، وعبد الملك بن جهور[٣] (ق ٤ هـ)، وأغلب بن شعيب[٤] (ت بعد٣٥٠ هـ)، وابن هانئ (٣٦٢هـ) وابن فرج الجيّاني[٥] (ت٣٦٦هـ) وعبد الملك بن سعيد المرادي[٦] (ت٣٦٦ هـ)، والحاجب المصحفي[٧] (ت٣٧٢هـ) ويحيى بن هذيل (ت٣٨٥هـ)، والمهنّد البغدادي الأندلسي (ت ٣٩٠ هـ) وعبد الملك بن إدريس الجزيري[٨] (ت ٣٩٤هـ)، ومحمّد بن حسين الطبني[٩] (ت ٣٩٤هـ)، ومحمّد بن شخيص (ت قبيل ٤٠٠هـ)، والشريف الطليق المرواني (ت نحو ٤٠٠هـ) ويوسف بن هارون الرمادي (ت٤٠٣هـ)،

---

(١) عبيد الله بن يحيى بن إدريس، أبو عثمان، وزير شاعر مقدم، عالم من أهل قرطبة، ولم تخرجه المناصب عن تواضعه فظلّ وهو وزير يؤذّن في مسجده. توفي سنة ٣٥٢. وقد جمعت ما تبقّى من شعره، وطبع بدار شراع ٢٠١٢م ، وانظر مصادره ثمّة.

(٢) أحمد بن عبد الملك بن مروان، أديب شاعر عاش في النصف الأوّل من القرن الرابع الهجري بقرطبة، ذكره ابن حزم في المتقدمين من الشعراء فأثنى عليه، وأورد له ابن فرج في الحدائق أشعاراً.
رسائل ابن حزم:١٨٧/٢، شرح المختار من شعر بشار: ٥١، جذوة المقتبس: ١٣٣، يتيمة الدهر:٣٢/٢، بغية الملتمس: ١٧٦، تاريخ التراث العربي: ٥٨/٥.

(٣) أبو مروان عبد الملك بن جهور وزير أديب كاتب شاعر، تولّى الخزانة في أوائل حكم عبد الرحمن الناصر وتولّى الكتابة ثمّ تقلّد الوزارة سنة ٣٠٥ و صار من آثر الناس لديه و كان بينه وبين الوزير عبد الملك بن شهيد منافسة وتحاسد.طبقات النحويّين واللغويّين: ٢٩٧، جذوة المقتبس: ٢٧٣،، الحلّة السيراء: ٢٣٨،٢٣٣/١.

(٤) أغلب بن شعيب الجياني، شاعر مقدم من أهل جيّان من شعراء عبد الرحمن الناصر سكن قرطبة ذكره ابن حزم في الشعراء المتقدمين، توفي بعد ٣٥٠ هـ
رسائل ابن حزم:١٨٧/٢، يتيمة الدهر: ٢٤/٢ ، تاريخ التراث العربي: ٥٨/٥.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام: ٢٠٩/١. وقد جمعت ما تبقّى من شعره.

(٦) عبد الملك بن سعيد الخازن المرادي القرطبي، أديب شاعر من شعراء عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر.

(٧) الأعلام:١٢٥/٢. وقد جمعت ما تبقّى من أشعاره وأخباره.

(٨) وقد جمعت ما تبقّى من شعره ونثره، وصدر عن دار شراع سنة ١٩٩٧م.

(٩) وقد جمعت ما تبقّى من شعره. وطبع بدار شراع سنة ٢٠١٢م.

وابن بطّال (ت٤٠٤هـ)، والمستظهر عبد الرحمن بن هشام (ت٤١٤هـ)، وابن درّاج (ت ٤٢١ هـ) ، وابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ).

وفي هذا القرن ذاعت الموشحات وانتشرت في الأوساط الشعبية وذُكِرَ أنّه نظم فيها شعراء كبار كابن عبد ربّه ويوسف بن هارون الرمادي الذي طوّرها، وعبادة بن ماء السماء الذي أكمل صورة الموشّحات، بيد أنّه لم يصل إلينا شيء من موشّحات هؤلاء الشعراء وسائر الوشّاحين في عصر بني أميّة سوى موشّحتين لعبادة بن ماء السماء.

رابعاً– التجديد في الشعر الأندلسي (٤٠٠–٥٥٠ هـ)

(مرحلة تبدّر الأندلسيّة)

تقسم هذه المرحلة قسمين:

الأوّل: عصر ملوك الطوائف (٤٢٢–٤٨٣ هـ)

أ. الاتجاه المشرقي

لقد استمرّت مظاهر المؤثّرات الثقافيّة من تأليف كتب تغلب عليها السمة المشرقيّة: كالمظفّري للمظفر ابن الأفطس (ت٤٦٠هـ) على نمط عيون الأخبار لابن قتيبة، وبهجة المجالس (ط) لابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) ومعجم ما استعجم (ط) لأبي عبيد البكري (ت٤٨٧ هـ).

ومن شروح الكتب المشرقيّة: شرح إصلاح المنطق لابن السكّيت شرحه ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)، وشرح أبيات الجمل للزجاجي والنكت في كتاب سيبويه شرحهما الأعلم الشنتمري (ت٤٧٦ هـ).

وكذلك شروح الدواوين والمجموعات الشعريّة والقصائد الشعريّة المشهورة من مثل شرح ديوان المتنبي (ط) لابن الإفليلي (ت ٤٤١هـ)، وشرح مشكل أبيات المتنبّي (ط) والأنيق في شرح الحماسة لابن سِيْدَه (ت٤٥٨ هـ)، وشرح الأشعار الستّة (ط) وشرح أشعار الحماسة (ط) للأعلم الشنتمري (ت٤٧٦هـ)، وشرح الأشعار الستّة الجاهلية

وشرح كتاب معاني أبيات الحماسة لأبي بكر البطليوسي (ت٤٩٤هـ)، ومع ذلك فإنّ الأثر المشرقي القديم في الشعر قد اضمحلّ واستمرّ الأثر المحدث في المجالس الخاصّة وانتصر النوع المحافظ الملّون بالأندلسيّة لمناسبته للبلاطات والمديح.

وممّا يلفت النظر في هذا العصر كثرة الشعراء والعلماء الوافدين إلى الأندلس بالقياس إلى أضرابهم الأندلسيّين الراحلين إلى المشرق ؛ يقول الأستاذ ألبير حبيب مطلق «لست أبعد عن الصواب حين أقرّر أنّ الهجرة إلى الأندلس في هذا العصر قد ازدادت عن ذي قبل مع ما كانت تمنى به البلاد من قلق ومخاوف من الناحية السياسيّة»[١]، وقد ارتحل شطر من أدباء القيروان وعلمائها بعد خرابها على يد الأعراب عام ٤٤١ هـ إلى الأندلس ومن أشهر المرتحلين ابن شرف القيرواني وأبو الحسن الحصري، وكذلك ارتحل شطر من أهل صقلّيّة بعد اشتداد مهاجمة النورمانديّين لهم، ومن بين المهاجرين: ابن حمديس الصقلّي وأبو العرب التميمي، وارتحل –كذلك – إلى الأندلس بعض العلماء المشرقيّين كأحمد بن الصنديد العراقي وثابت بن محمّد الجرجاني[٢] ، وأمّا الهجرة من الأندلس فإنّ اللغويّين الذين ذكرتهم المصادر قلّما قرنت بهم خبراً عن الرحلة إلّا في النادر، وربّما دلّ[٣] هذا على الاكتفاء الذاتي في علم اللغة، ولعلّي أستطيع تعميم هذه النتيجة وتعليلها، فأقول إنّ الاكتفاء الذاتي قد شمل أكثر مناحي الثقافة، وسبب ذلك هو اكتمال عناصر الأندلسيّة.

وظلت القنوات الثقافيّة متّصلة، ولكن للتعرّف لا للتشرّف، وللمعارضة لا للتقليد، فقد تتابعت معارضة القصائد المشرقيّة المشهورة، كمعارضة ابن زيدون قصيدة البحتري النونيّة التي مطلعها[٤]:

يكادُ عَاذِلُنَا في الحُبِّ يُغْرِيْنَا فَمَا لَجَاجُكَ في لَوْمِ المُحِبِّيْنَا

(١) الحركة اللغويّة في الأندلس: ٢٩٥.

(٢) المرجع نفسه: ٢٩٥ –٣٠٠.

(٣) المرجع نفسه: ٣٠١ وانظر : المعجم العربي في الأندلس، والنشاط المعجمي في الأندلس.

(٤) ديوان البحتري: ٤/٢٢٠٠.

في قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

أَضْحَى التَّنائِي بَديلاً مِنْ تَدَانِينا وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا[1]

وكذلك تأليف الكتب على غرار كتب المشارقة كالذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة (ط) لابن بسّام الذي وضعه على طريقة يتيمة الدهر للثعالبي، والحديقة لابن أبي الصلت على أسلوب اليتيمة أيضاً، وملقى السبيل (ط) لابن أبي الخصال الذي عارض به رسائل أبي العلاء المعري، والمنهج في معارضة المبهج للثعالبي لابن أبي الخصال، وكذلك ظهرت المقامات في هذه المرحلة واستوت على يد ابن أبي الخصال.

ب. الاتجاه الأندلسي

أمّا الدوافع التي حدت السمة الأندلسيّة إلى التبدّر فأهمّها: ترسّخ الانفصال السياسي التامّ عن المشرق، وتحوّل الدولة الواحدة القويّة التي تحاول إثبات وجودها أمام المشرق إلى دويلات صغيرة تزيد على العشرين، تحاول كلّ واحدة منها إثبات وجودها أمام المشرق والتفوّق عليه. وكذلك تعمّق أثر البيئات الجديدة ولاسيّما الطبيعيّة والاجتماعيّة فقد ازداد ترف ملوك دول الطوائف، وكثرت مجالس اللهو والطرب في مجالي الطبيعة لهم ولبطانتهم وندمائهم وسمّارهم، وكثرت الجواري والقيان والمغنّيات، وأسرف الملوك في الإغداق على الندامى والشعراء والأدباء والعلماء حتّى كثروا كثرة كاثرة، وفي قبالة ذلك ازدادت الضرائب على سائر أفراد الرعية، وانتشر الفقر حتّى استفحلت الكدية.

وقد بلغ الشعر أوجه في الروعة والجودة وسموّ الخيال وتخمّرت أندلسيّته التي تجلّت أساساً في الخيال والإبداع في الصور والانتقال إلى طور فنّي ثنائي تغزر فيه الصور الفنّيّة تتوالى أو تتشابك، وبذلك فإنّ الشعراء الأندلسيّين استطاعوا بخيالهم الخلّاق تجديد التراث الشعري العربي بالتعبير عن المعاني الجديدة أو المطروقة بصور جديدة ثنائيّة أو تغلب فيها الثنائيّة، كقول ابن زيدون:

---

(١) ديوان ابن زيدون: ١٦٥.

هِـيَ الشَّـمْسُ مَغْرِبُهَـا فِي الكِلَـلْ[1] وَمَطْلَعُهَـا مِـنْ جُيُـوبِ[2] الحُلَـلْ
وَغُصْـنٌ تَرَشَّـفَ مَـاءَ الشَّبَـابِ ثَـرَاهُ الْهَـوَى وَجَنَـاهُ الْأَمَـلْ[3]
تَـهَادَى لَطِيْفَـةَ طَـيِّ الْوِشَـاحِ وَتَرْنُـو[4] ضَـعِيْفَةَ كَـرِّ المُقَـلْ
وتَـبْرُزُ خَلْـفَ حِجَـابِ العَفَـافِ وَتَسْـفِرُ تَحْـتَ نِقَـابِ الخَجَـلْ
بَـدَتْ فِي لِـدَاتٍ كَزُهْـرِ النُّجُـومِ حِسَـانِ التَّحَلِّـي مِـلَاحِ الْعَطَـلْ
مَشَـيْنَ يُـهَادِيْنَ رَوْضَ الرُّبَـا بِيَـانِعِ رَوْضِ الصِّـبَا المُقْتَبَـلْ
فَمِـنْ قُضُـبٍ تَتَثَـنَّى بِـرِيحٍ وَمِـنْ قُضُـبٍ تَتَثَـنَّى بِـدَلّْ
وَمِـنْ زَهَـرَاتٍ تُنَـدَّى بِمِـسْكٍ وَمِـنْ زَهَـرَاتٍ تُنَـدَّى بِطَـلّْ[5]

وقول إدريس بن اليمان[6] (ت ٤٤٠ هـ):

ولـربَّ ليـلٍ قـدْ طرقـتُ وهمَّـتي أسـري بهـا إذْ لـيسَ يَسـري كوكـبُ
في معشـرٍ شُـمِّ الأنُـوفِ كـأنَّهم سِـيْدَانُ رَمْـلٍ أو أُسُـودٌ دُرَّبُ
لبسـوا دياجيرَ الـدجى إذ أسـأدوا وتقنّعـوا بسـنا الضـحى إذ أوَّبـوا
وَسَـرَوا فمغـربُ كـلِّ أرضٍ مَشْـرِقٌ لَهُـمُ ومشـرقُ كـلِّ أرضٍ مَغْـرِبُ
والفجـرُ ملـويُّ النقـابِ مُبَرْقَـعٌ والليـلُ مسـدولُ الـرُّوَاقِ مُطَنَّـبُ
وكـأنَّ بَـاهِرَةَ الكواكِـبِ مَعْشَـرٌ قَـامَ الهـلالُ بهـمْ خطيبـاً يَخْطُـبُ
وكـأنَّ نُـوْرَ الصـبحِ رايـةُ فـارسٍ حمـراءُ يتبعهـا خَمِـيْسٌ أشـهبُ
وكـأنَّ قَـرْنَ الشَّـمْسِ وجـهُ مُجَاهِـدٍ لمّـا أنـارَ سـناهُ كـادتْ تَغْـرُبُ

وقول ابن القُوْطِيَّة (ت ق٥ هـ):

ضَـحِكَ الثَّـرَى وبَـدَا لـكَ استبشـارُهُ واخْضَـرَّ شـارِبُهُ وطُـرَّ عِـذَارُهُ

---

١ – الكِلَل: جمع كِلَّة: وهي ستر رقيق يشبه الخيمة يتوقّى به من البعوض.
٢ – الجيوب: جمع جيب: مدخل الرأس من الثوب. الحُلَل: جمع حُلَّة: وهي الرداء.
٣ – ديوان ابن زيدون: ٢١٤.
٤ – ترنو: تديم النظر وهي ساكنة الطرف. كرّ: رجع وعطف.
٥ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٥٨/١.
٦ – شعر إدريس بن اليمان: ١٤٦– ١٤٧.

وَرَبَـــتْ حَدائِقُـــهُ وآزَرَ نَبْتُـــهُ وَتفطَّـــرتْ أنـــوارُه وثمـــارُهُ
واهتـــزَّ ذابِـــلُ نَبْـــتِ كـــلِّ قَـــرَارَةٍ لـــمَّا أتَـــى مُتَطَلِّعـــاً آذارُهُ
وتَعممَّـــتْ صُـــلْعُ الرُّبَـــا بِنَبَاتِـــهَا وتَرَنَّمـــتْ مـــن عُجمـــةٍ أطيـــارُهُ
وكأنّمـا الـرُّوضُ الأنيـقُ – وقـدْ بَـدَتْ مُتلوِّنـــاتٍ غَضَّـــةً أنـــوارُهُ
بِيْضـــاً وصُـــفْراً فاقعـــاتٍ – صـــائغٌ لم يَنْـــأَ دِرْهَمُـــهُ ولا دينـــارُهُ
سَـــبَكَ الخميلـــةَ عَسْـــجَداً ووَذِيْلَـــةً لمَّـــا غَـــدَتْ شَـــمْسَ الظَّهـــيرةِ نـــارُهُ[1]

ومن أهمّ شعراء عصر ملوك الطوائف:

ابن القوطيّة (ت ق ٥ هـ) ،والجزّار السرقسطي (ق ٥ هـ)،وابن البنّي (ق ٥ هـ) وإدريس بن اليَمَان اليابســـي[2]، وابن حزم[3](ت ٤٥٦ هـ)، وأبو إسحاق الإلبيري[4] (ت ٤٦٠هـ)، والمعتضد بن عبّاد[5] (ت ٤٦١ هـ)، وابن زيدون (ت ٤٦٣هـ)، وأبو جعفر اللَّمَائي[6] (ت ٤٦٥هـ)، وابن طُنَيْز (ت ٤٧٥ هـ)، وابن عمَّار (ت ٤٧٧ هـ)، وابن الحدَّاد[7] (ت٤٨٠ هـ)، والسُّمَيْسِر[8] (ت٤٨٠هـ)،وابن وَهْبُون (ت ٤٨٣ هـ) والمعتمد[9] (ت٤٨٩ هـ)، وابن المِلْح (ت ٥٠٠ هـ) وابن اللَّبَّانَة[10] (ت٥٠٧).

وفي هذا العصر ازدهرت الموشّحات ودخلت في كثير من الأغراض الشعريّة وكتب

---

١ – شعر ابن القوطيّة:٩٨. وهو أبو بكر محمّد بن القوطيّة: أديب شاعر من خواصّ المعتضد من أعيان المئة الخامسة للهجرة، صاحب الشرطة في إشبيليّة، كان يمدح المعتضد ويكثر من وصف الطبيعة.
جذوة المقتبس:٣٨٠، البديع في فصل الربيع (الفهرس: ١٨٦ ومواطن عدّة) الذخيرة:٢/١/٢١٥، بغية الملتمس: ٤٨٢، مطمح الأنفس: ٢٨٨، رايات المبرّزين: ٥٤– ٥٥ ،نفح الطيب: ٤/٢٥

٢ – جمعت ما تبقّى من شعره، وطبع بدار شراع ، ٢٠٠٧م

٣ – انظر ترجمته في الأعلام: ٤/٢٥٤.

٤ – انظر ترجمته في الأعلام: ١/٧٣.

٥ – انظر ترجمته في الأعلام: ٣/٧٣–٧٤.

٦ – أبو جعفر أحمد بن أيّوب اللَّمائي المالقي: أديب بارع كاتب شاعر توفّي سنة٤٦٥هـ، وقد جمعت ما بقي من شعره.

٧ – انظر ترجمته في الأعلام: ٥/ ٣١٥.

٨ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢/٣١١ .

٩ – انظر ترجمته في الأعلام: ٦/١٨١.

١٠ – انظر ترجمته في الأعلام: ٦/٣٢٢.

فيها شعراء كبار كابن عمّار وأبي بكر الجزّار وابن اللبّانة حتّى نسبت موشحة إلى الملك المعتمد ابن عبّاد.

القسم الثاني: عصر المرابطين (٤٨٤-٥٤٣ هـ)

أمّا الحياة الأدبيّة في عصر المرابطين، فمن المعروف أنّ المرابطين القادمين من الصحراء كانوا أقلّ تحضّراً وتمدّناً من أشقّائهم الأندلسيّين، ولكنّ هذا العصر لم يكن عصر انكماش أدبيّ وتدهور حضاريّ –كما أراد بعض المستشرقين تصويره أو تشويهه وتبعهم بعض الدارسين العرب في ذلك – فقد بلغ الشعر العربي في الأندلس أفقه الأسمى، وتخمّرت فيه الأندلسيّة إلى حدّها الأعلى، كانت عجلة الأدب في أشدّ سرعتها ولم يكن قيام دولة ما ليكبح جماحها، وكذلك فإنّ الشعر لا ينطفئ بانطفاء دولة وظهور أخرى، ولكنّه من دون شكّ يتأثّر بالسياسة على نحو كبير ووئيد معاً.

لقد كان الخليفة المرابطي الأوّل قليل الاهتمام بالمديح والشعراء المدّاحين، وكذلك اتّسعت هيمنة الفقهاء وتبحّرت سلطتهم التي عبّر عنها الأعمى التطيلي بقوله:

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعُهُ ... على أنّها للمَكْرُمَاتِ مَنَاسِكُ

وللشعراءِ اليومَ ثُلَّتْ عروشُهُمْ ... فلا الفخرُ مختالٌ ولا العِزُّ تَامِكُ

...

فيا دولةَ الضَّيْمِ أجمِلِي أو تَجَامَلي ... فقدْ أَصْحَبَتْ تلكَ العُرَى والعَرَائِكُ

ويا "قامَ زَيْدٌ" أَعرضي أو تَعَارضي ... فقدْ حَالَ مِنْ دونِ المنى"قَالَ مَالِكُ"[1]

وذلك كلّه كان لطبيعة مرحلة التحرير والإنقاذ والجهاد والتوحيد، أمّا خلفاؤه وولاته في الأندلس بعد أن توطّدت أركان الدولة فقد فتحوا أبوابهم للشعراء، وأجزلوا لهم العطاء، كما أنّ الملثّمين القادمين من الصحراء ما لبثوا أن ذاقوا بُلَهْنِيَة العيش وطيبَه، وتأقلموا مع البيئات الأندلسيّة المتحضّرة المرفّهة بالإضافة إليهم.

---

١ – ديوان الأعمى: ٩٠، ٩١.

أ. **الاتجاه المشرقي**

لقد استمرّت مظاهر المؤثّرات الثقافيّة من تأليف كتب تغلب عليها السمة المشرقيّة: كسراج الملوك (ط) للطرطوشي (ت٥٢٠ هـ).

ومن شروح الكتب المشرقيّة: الحلل في شرح أبيات الجمل (ط)، والاقتضاب في شرح أدب الكتّاب (ط) لابن السيد البطليوسي (ت٥٢١ هـ).

وكذلك شروح الدواوين والمجموعات الشعريّة والقصائد الشعريّة المشهورة من مثل: شرح سقط الزند لابن السِّيْد البَطَلْيُوْسِي (ت٥٢١ هـ) وشرح مقصورة ابن دريد (ط) لابن هشام اللخمي الإشبيلي (ت٥٥٧ هـ).

وإنّ لمحة عابرة في فهرست ما رواه ابن خَيْر الإشبيلي (ت٥٧٥ هـ) عن شيوخه من الدواوين المصنّفة في صنوف العلم وأنواع المعارف وما أشبه من فهارس المشيخات في هذه المرحلة كفهرس ابن عطيّة المحاربي (ت نحو ٥٤١ هـ) لهي كافية لتبيان أوجه الثقافة العامّة في الأندلس والأثر المشرقي فيها، ومع ذلك فإنّ الأثر المشرقي القديم في الشعر قد اضمحلّ واستمرّ الأثر المحدث في المجالس الخاصّة وانتصر الشعر المحافظ الملوّن بالأندلسيّة لمناسبته للبلاطات.

فقد تتابعت معارضة القصائد المشرقيّة المشهورة من النوع المحافظ الملوّن بالأندلسيّة كمعارضة ابن بقي لقصيدة المتنبّي القافيّة التي مطلعها :

تَـذَكَّرْتُ مـا بـينَ العُـذَيْبِ وَبـارِقِ مَجَـرَّ عَوَالِينَـا ومَجْـرَى السَّـوَابِقِ[1]

في قصيدته الشهيرة:

بـأبي غـزالٌ غَازَلَتْـهُ مُقْلَـتِي بـينَ العُـذَيْبِ وبـينَ شَـطّيْ بَـارِقِ[2]

وكذلك تأليف الكتب على غرار كتب المشارقة كالذخيرة في محاسن أهل هذه

---

١ – ديوان المتنبّي: ٣١٧/٢.

٢ – شعر ابن بقي: ٣٢٧.

الجزيرة (ط) لابن بسّام الذي وضعه على طريقة يتيمة الدهر للثعالبي، والحديقة لابن أبي الصلت[1] على أسلوب اليتيمة أيضاً، وملقى السبيل (ط) لابن أبي الخصال[2] الذي عارض به رسائل أبي العلاء المعري، والمنهج في معارضة المبهج للثعالبي لابن أبي الخصال.

وتطوّرت المقامات في هذا العصر، وبلغت أوجها لدى السرقسطي الأشتركوني (ت ٥٣٨هـ) الذي ألّف المقامات اللزومية (ط) ناهجاً نهج أبي العلاء في لزومياته مثبتاً قدرته على الرقص مهما كانت القيود والأغلال.

ب. **الاتجاه الأندلسي**

أمّا الدوافع التي حدت السمة الأندلسيّة إلى التبدّر فأهمّها: ترسّخ الانفصال السياسي التامّ عن المشرق ووجود شيء من التنافس بين الأندلس والمغرب ، بعد أن صارت ولاية تابعة لدولة المرابطين في المغرب.

وتغلب في شعر هذا العصر الصور المركّبة والكثيفة، وإن لم تخل من الصور الثنائيّة أو البسيطة، وبذلك غيّروا في بنية الشعر العربي كما غيّروا في شكله الخارجي في الموشّحات، ولن أسترسل في ذكر الخصائص العامّة للشعر الأندلسي في هذه المرحلة بل أرجئ ذلك إلى دراسة تطبيقيّة لاحقة مبتعداً عن الأحكام المسبقة جاعلاً النصوص الشعريّة الحكم العدل الوحيد، مكتفياً بعرض نماذج ثلاثة توضّح التطوّر الفنّيّ الكبير الذي أصاب الشعر الأندلسي أسوة بسائر العصور السابقة، قال ابن خفاجة:

وظَلَامِ لَيْلٍ لا شِهَابَ بأُفْقِهِ ... إلَّا لنَصْلِ مُهَنَّدٍ أو لَهْذَمِ[4]

لَاطَمْتُ لُجَّتَهُ بمَوْجَةِ أَشْهَبٍ[3] ... يَرْمِي بِهَا بَحْرَ الظلامِ فيَرْتَمِي

قَدْ سالَ في وجهِ الدُّجُنَّةِ غُرَّةً ... فالليلُ في شِيَةِ الأَغَرِّ الأَدْهَمِ

---

١ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢/٢٣.

٢ – انظر ترجمته في الأعلام: ٧/٩٥ – ٩٦.

٣ – الأشهب: أي الحصان تشقّ معظم لونه شعرات بيض كميتاً كان أو أدهم أو أشقر.

٤ – اللهذم: القاطع من الأسنّة.

أَطْلَعْتُ منهُ ومِنْ سِنانٍ أزرَقٍ ... ومُهَنَّدٍ عَضْبٍ ثلاثةَ أنْجُمِ
إنْ يَعتكرْ ليلُ العَجاجَةِ تَسْتَنِرْ ... أَوْ يَعْتَرِضْ شَيطانُ حَرْبٍ تُرْجَمِ
جاذَبْتُهُ فَضْلَ العِنَانِ وقدْ طَغَى ... فانصاعَ يَنسابُ انْسِيابَ الأَرْقَمِ
في خَصْرِ غَوْرٍ بالأراكِ مُوَشَّحٍ ... أو رأسِ طَوْدٍ بالغَمَامِ مُعَمَّمِ
أوْ نَحْرِ نَهْرٍ بالحَبَابِ مُقَلَّدٍ ... أو وَجْهِ خَرْقٍ[1] بِالضَّرِيْبِ مُلَثَّمِ
حتَّى تَهَادَى الغُصْنُ يَأْطُرُ مَتْنُهُ ... طَرَباً لِشَدْوِ الطائِرِ المُتَرَنِّمِ
وكأنَّ ضَوْءَ الصُّبْحِ رايةُ ظَافِرٍ ... نَفَضَتْ بِهَا الهَيْجَاءُ نَضْحاً مِنْ دَمِ[2]

وقال ابن حمديس[3]:

قُمْ هاتِهَا من كفّ ذاتِ الوِشاحْ ... فقَد نَعَى اللّيلَ بشيرُ الصّباحْ
واحللْ عُرَى نَوْمِكَ عن مُقَلةٍ ... تَمْقُلُ أحداقاً مِراضاً صِحَاحْ
خَلِّ الكَرَى عَنْكَ وَخُذْ قَهْوةً ... تُهدي إلى الرُّوْحِ نسيمَ ارتِياحْ
هَذَا صَبُوحٌ وَصَبَاحٌ فما ... عُذْرُكَ في تَرْكِ صَبُوحِ[4] الصّباحْ
باكِرْ إلى اللّذّاتِ وَارْكَبْ لها ... سَوابقَ اللّهْوِ ذَوَاتِ المِراحْ
مِنْ قبلِ أنْ تَرْشُفَ شمسُ الضُّحَى ... رِيْقَ الغَوَادِي[5] مِنْ ثُغُورِ الأَقَاحْ
أو يطويَ الظلُّ بِساطاً إذا ... مَا بَرِحَ الظَّلُّ لَهُ عَنْ بَرَاحْ
يا حَبّذا ما تُبْصِرُ العَينُ مِنْ ... أنْجُمِ راحٍ فوقَ أفلاكِ راحْ
في روضةٍ غنّاءَ غَنّتْ بها ... في قُضُبِ الأوْرَاقِ وُرْقٌ فِصَاحْ
لا يَعرفُ النّاظرُ أغصانَها ... إذا تثنّتْ مِنْ قدودِ المِلاحْ
كأنَّ مفتوتَ عبيرٍ بِهَا ... مُطَيَّبٌ منهُ هُبُوبُ الرّياحْ[6]

---

١ – الخرق: الفلاة الواسعة تتخرّق فيها الرياح.والضريب: الثلج والصقيع والجليد.

٢ – الديوان: ٢٤٤– ٢٤٥.

٣ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢٧٤/٣.

٤ – الصَّبُوح: الخمر تشرب صباحاً.

٥ – الغوادي: السحب تنشأ غدوة، أو مطر الغداة.

٦ – ديوان ابن حمديس: ٨٩– ٩٠

وقال ابن بَقِيّ [1]:

كيفَ صبري عنِ الكؤوسِ إذَا ما ... عَثَرَ الروضُ في ذيولِ النسيمِ
ورنَا نرجسُ الرُّبا بعيونٍ ... وجَلا الوردُ عن مُحَيَّا وسيمِ
وبدا مِعْصمُ الخليجِ فَخَطَّتْ ... فَوْقَهُ الريحُ أسْطراً من وُشُومِ
سوفَ تَدري الهمومُ أيّةَ راحٍ ... أخذتْ منْ أرواحِنَا والجسومِ
بِنْتُ دَنٍّ رِيقَتْ ببيداءِ نفسي ... فَهْيَ تَعْدُو بها كَعَدْوِ الظَّليمِ
كَرْمَةٌ في حَدَائِقٍ غروسُهَا ... لكرامٍ فَسُمِّيَتْ بالكرومِ
طُفْتُ بالأيكِ فاستهلّتْ دُموعي ... لحمامٍ تبكي فِراقَ حَمِيمِ
عُجْمَةٌ أَعْرِبَتْ بوجهٍ دقيقٍ ... وكَلَامٌ مُقَطَّعٌ مِنْ كُلُومِ
أَوْضَعَتْ بي إليهِ وَجْنَاءُ حَرْفٌ ... أَكَلَتْهَا السّفارُ أكلَ القَضِيمِ
تتركُ الريحَ خَلْفَها وَهْيَ حَيْرَى ... بينَ إيضاعِها وبَيْنَ الرَّسِيمِ [2]

ومن أهمّ شعراء عصر المرابطين: ابن صَارة [3](ت ٥١٧ هـ) ، وابن رحيم [4] (ت ٥٢٠ هـ)، وابن السِّيْد البطليوسي [5] (ت ٥٢١هـ)، والأعمى التُّطَيْلي [6](ت ٥٢٥ هـ)، وابن حَمْدِيْس الصقلّي (ت ٥٢٧ هـ)، وابن عبدون اليابري [7](ت ٥٢٧هـ)، وابن الزقّاق البلنسي [8] (ت ٥٢٩هـ)، وأبو الصلت الداني (ت ٥٢٩هـ)، وابن خفاجة (ت ٥٣٣هـ) وابن بَقِيّ القرطبي (ت ٥٤٠هـ)، وابن أبي الخِصَال الغافقي (ت٥٤٠هـ). وفي هذا العصر اتّسعت الموشّحات، وبلغت أوجها، وكتب فيها شعراء كبار كالأعمى التطيلي وابن بقي.

---

١ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٥٢/٨.

٢ – شعر ابن بقي: ٣٥٣ – ٣٥٤.

٣ – انظر ترجمته في مقدّمة ديوانه جمع د. مصطفى عوض عبد الكريم.

٤ – انظر ترجمته في مقدّمة ديوانه جمع محمّد الطويل.

٥ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٢٣/٤.

٦ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٥٨/١.

٧ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٤٩/٤.

٨ – انظر ترجمته في الأعلام: ٣١٢/٤.

خامساً– تراجع الشعر الأندلسي (٥٥٠–٨٩٧هـ)

(مرحلة تناقص الاتّساق الأندلسي)

تقسم هذه المرحلة قسمين كذلك:

الأوّل: عصر الموحِّدين (٥٤٢–٦٦٧ هـ)

أ. الاتجاه المشرقي:

استمرّت المؤثّرات الثقافيّة المشرقيّة الأصيلة ولاسيّما المؤلّفات النحويّة واللغويّة والدينيّة بل حرص العلماء الأندلسيّون على ذكر مشايخهم وعرض إجازاتهم وقراءاتهم عليهم تلك المؤلّفات ، ظهر ذلك في فهارس مرويّاتهم وفهارس شيوخهم وبرامجهم وأثباتهم؛ كبرنامج الرُّعَيْنِي (ت٦٦٦هـ) وفهرست اللَّبْلِي (ت٦٩١هـ) وبنظرة سريعة إلى مرويّاتهم وإجازاتهم يتبدّى سيل الثقافة المشرقيّة الذي لم ينقطع قطّ. وتتابعت حركة وفود العلماء إلى الأندلس، ولكن ببطء في عصر الموحّدين وبقلة في عصر بني نصر، وكثر رحيل العلماء الأندلسيّين إلى المشرق من دون عودة واستقرارهم فيه بسبب الأوضاع المضطربة في الأندلس، كالعالم الأديب النحوي علم الدين اللُّوْرَقي[1].

ومن أهمّ مظاهر الأثر المشرقي استمرار التأليف عن المشرق وشروح الكتب المشرقيّة واختصارها وغلبة الطابع المشرقي، فمن ذلك: النبراس في خلفاء بني العبّاس (خ) لابن دِحْيَة (ت٦٣٣هـ)، والإعلام بالحروب في صدر الإسلام (خ) للبَيَّاسي (ت٦٥٤هـ)، والمشرق في حلى المشرق (خ) ونشوة الطرب في أخبار جاهليّة العرب (ط) لابن سعيد (ت٦٨٥هـ).

- والإملاء المختصر في شرح غريب السير (شرح سيرة ابن إسحاق) (ط) للخُشَنِي (ت٦٠٤هـ)، وشرح مقامات الحريري (ط) للشريشي (ت٦١٩هـ)، والبسيط في شرح جمل الزجّاجي (ط) لابن أبي الربيع الإشبيلي (٦٨٨هـ).

---

١ – انظر كتابي "عَلَمُ الدِّيْنِ اللُّوْرَقِي؛ حياتُهُ وقصيدتُهُ الميميّة "، دار شراع ، ١٩٩٨م.

- اختصار المحتسب لابن جني، والأحكام السلطانيّة للماوردي لعبد المنعم ابن الفرس الغرناطي (ت٥٩٨هـ).

أو مزجها بالأخبار والأشعار المشرقيّة، وغلبة الطابع المشرقي مثل "ألف باء" البلوي (ط) (ت٦٠٤هـ)، والحماسة البيّاسيّة (مخ) لابن البَيَّاسِي الأندلسي (ت٦٥٣هـ)، وإعتاب الكتّاب (ط) لابن الأبّار[1] (ت٦٥٨هـ).

ب. الاتجاه الأندلسي

أمّا ظواهر الأندلسيّة ودوافعها في هذا العصر فقد تناسبت طرداً مع توافر الاستقرار السياسي ومدى القوّة التي حازتها الدولة واهتمامها بالعلم والأدب وأهلهما، ومن الطبيعي أنّ للحالة السياسيّة أثراً واضحاً في الحالة الحضاريّة والثقافيّة، وقد كانت الدولة الموحّديّة تصطبغ بالصبغة العلميّة ممّا أدّى إلى ازدهار الحركة الثقافيّة في هذا العصر، حتّى إنّ الخليفة الموحّدي الأوّل «جعل التعليم إجباريّاً وبلا نفقات على كلّ مكلّف من الرجال والنساء، فكان أوّل ملك مغربي فرض على شعبه التعليم وجعله مجانيّاً، بل ربّما كان أوّل ملك فعل هذا الصنيع في العصور الوسطى»[2].

أمّا الشعر في هذه المرحلة الطويلة التي تنشعب إلى عصرين سياسيّين هما عصر الموحدين، وعصر بني نصر فقد كان يمرّ بمرحلة الكهولة، وهي بين الأربعين إلى الستّين، ويمكن أن نعدّ العصر الأوّل الشطر الأول من الأربعينات، ونعدّ العصر الثاني ما تبقّى من الأربعينات والخمسينات كلّها، وقد انتهت حياة الشعراء في الأندلس قبل أن يمرّ شعرهم بمرحلة الشيخوخة.

وفي كلا العصرين استحالت الترسّبات الثقافيّة أكواماً هائلة، وغدا الإبداع أشدّ صعوبة، واضطرّ الشعراء لتكرير الكثير من الصور والمعاني، وتحويرها من الشعر المشرقي

---

١ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢٣٣/٦.

٢ – الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين: ٤٨ وانظر:الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين: ٣٤، محاضرات في الأدب الأندلسي: ٨٨، شعر الجهاد في عصر الموحّدين: ٣١.

والأندلسي المتقدّم عليهما، وقلّت النماذج الشعريّة التي تنهج نهج ابن خفاجة، وإن لم تنفد الخيالات الشعريّة لدى مبرّزيهم، ومع أنّ نظريّة الأندلسيّة قد اكتملت ونضجت في المرحلة السابقة وأرست قواعدها وأسسها التي تنصّ على تطلّب الصور الجديدة والغريبة والمعاني المخترعة والمبتدعة فإنّ ذلك لم يكن يسيراً على الشعراء كافّة، ولم يتحقّق دائماً، كما شاب الشعر ازدياد أثر المحسّنات البديعيّة في أواخر عهد الموحّدين إلّا أنّه كان أقلّ درجة ممّا كان بالمشرق حتّى إنّ النقّاد الأندلسيّين كانوا يفرّقون بين الشعر الأندلسي والمشرقي على هذا الأساس، فابن سعيد « يرى أنّ شعراء الأندلس أميل إلى المعاني والغوص على الفكرة، بينما يرى أنّ شعراء إقليم الوسط في مصر والشام والعراق كانوا أكثر اهتماماً بديباجة الشعر وألفاظه وبديعه ومحسّناته الأسلوبيّة »[1].

ومن النماذج الشعريّة المشهورة في هذا العصر قول الرصافي البلنسي[2] في قصيدة يمدح عبد المؤمن بن عليّ حين نزوله بجبل طارق[3]:

لَو جِئْتَ نارَ الهُدَى مِنْ جَانِبِ الطُّوْرِ ... قَبَسْتَ مَا شِئْتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نُوْرِ
مِنْ كُلِّ زَهْرَاءَ لَمْ تُرفَعْ ذُؤابَتُهَا ... لَيْلاً لِسَارٍ وَلَمْ تُشْبَبْ لِمَقْرُوْرِ
فَيْضِيَّةُ القَدْحِ مِنْ نُوْرِ النُبُوَّةِ أَوْ ... نُوْرِ الهِدَايَةِ تَجلو ظُلْمَةَ الزُّوْرِ
مَا زالَ يُقْضِمُها التَقْوَى بِمَوْقِدِهَا ... صَوَّامُ هَاجِرَةٍ قَوَّامُ دَيْجُوْرِ
حَتّى أَضاءَتْ مِنَ الإيمانِ عَنْ قَبَسٍ ... قَدْ كانَ تَحْتَ رَمادِ الكُفرِ مَكْفُوْرِ
نُوْرٌ طَوَى اللَّهُ زَنْدَ الكَوْنِ مِنْهُ عَلَى ... سِقْطٍ إلى زَمَنِ المَهدِيِّ مَذْخُوْرِ
وَآيَةٌ كَإِياةِ الشَمسِ بَينَ يَدَي ... غَزوٍ عَلى المَلِكِ القَيسِيِّ مَنذوْرِ
يَا دَارُ دَارَ أَمِيرِ المُؤمِنينَ بِسَفـ ... ـحِ الطَّوْدِ طَوْدِ الهُدَى بُوْرِكْتِ في الدُّوْرِ
ذَاتَ العِمَادَيْنِ مِنْ عِزٍّ وَمَملَكَةٍ ... عَلى الأَسَاسَيْنَ مِنْ قُدْسٍ وَتَطْهِيْرِ
مَا كَانَ بانيكِ بِالوانِي الكَرامَةِ عَنْ ... قَصْرٍ عَلَى مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ مَقْصُوْرِ

---

١ – الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين: ٢٢٧، وانظر الغصون اليانعة: ١٢٠

٢ – انظر ترجمته في الأعلام: ٦/ ٣٢٤.

٣ – ديوانه: ٧٧–٧٩.

مَـوَاطِئٌ مِـنْ نَـبِيٍّ طَـالَ مَـا وُصِـلَتْ ... فيهـا الخُطَـا بَـيْنَ تَسْـبِيْحٍ وَتَكْبِـيْرِ
حَيْـثُ اِسْـتَقَلَّتْ بِـهِ نَعْـلَاهُ بُوْرِكَتَـا ... فَطَيَّبَـتْ كُـلَّ مَوْطُـوْءٍ وَمَعْبُـوْرِ
وَحَيْـثُ قَامَـتْ قَنَـاةُ الدِّيْـنِ تَرفُـلُ فِي ... لِـوَاءِ نَصْـرٍ عَلَـى البَـرَّيْنِ مَنْشُـوْرِ
فِي كَـفِّ مُنْشَـمِرِ الـبُرْدَيْنِ ذِيْ وَرَعٍ ... عَلـى التُقَـى وَصَـفاءِ الـنَّفْسِ مَفْطُـوْرِ

وقول ابن زهر الحفيد[1] الوشّاح الشهير الذي شاخ وغلب عليه الشيب:

إِنِّي نَظَـرْتُ إلى المِـرْآةِ إِذْ جُلِيَـتْ ... فَـأَنْكَرَتْ مُقْلَتَـايَ كُـلَّ مَـا رَأَتَـا
رَأَيْـتُ فيهـا شُـيَيْخاً لَسْـتُ أَعْرِفُـهُ ... وَكُنْـتُ أَعْـرِفُ فِيْهَـا قَبْـلَ ذَاكَ فَـتَى
فَقُلْـتُ أَيْـنَ الَّـذي مَثْـواهُ كَـانَ هُنَـا ... مَـتَى تَرَحَّـلُ عَـنْ هَـذَا المكـانِ مَـتَى
فَاسـتَجْهَلَتْنِي وقَالَـتْ لِي ومَـا نَطَقَـتْ ... قَـدْ كَـانَ ذَاكَ وهَـذَا بَعْـدَ ذَاكَ أَتَـى
هَـوِّنْ عَلَيْـكَ فَهَـذَا لَا بَقَـاءَ لَـهُ ... أَمَـا تَـرَى العُشْـبَ يَفْـنَى بَعْـدَمَا نَبَتَـا
كَـانَ الغَـوَانِي يَقُلْـنَ يـا أُخَـيَّ فَقَـدْ ... صَـارَ الغَـوَانِي يَقُلْـنَ اليَـوْمَ: يَـا أَبَتَـا[2]

وقول ابن مَرْجِ الكُحْل[3] في وصف مجلس أنس:

وعَشِـيَّةٍ كَانَـتْ قَنِيْصَـةَ فِتْيَـةٍ ... أَلْفُـوا مِـنَ الأَدَبِ الصَّـرِيْحِ شُـيُوْخَا
فكأَنَّهَـا العَنْقَـاءُ قَـدْ نَصَـبُوا لَهَـا ... مِـنَ الانحنـاءِ إلى الوُقُـوْعِ فُخُـوْخَا
شَـمِلَتْهُمُ آدَابُهُـمْ فَتَجَـاذَبُوا ... سِـرَّ السـرورِ محـدِّثاً ومُصِـيْخَا
والـوُرْقُ تقـرأُ سـورةَ الطَـرَبِ الـتي ... يُنْسـيكَ منهـا ناسـخٌ منسـوْخَا
والنهـرُ قـدْ طَمَحَـتْ بِـهِ نَارِنْجَـةٌ ... فَتَيَمَّمَـتْ مَـنْ كَـانَ فِيْـهِ مُنِيْـخَا
فَتَخَالُهُـمْ خَلَـلَ السـماءِ كواكبـاً ... قـدْ قَارَنَـتْ بِسُـعُودِهَا المِرِّيْـخَا
خَـرَقَ العوائـدَ في السـرورِ نهـارُهُمْ ... فجعلـتُ أبيـاتي لهـا تاريخـا[4]

ومن أبرز شعراء العصر الموحّدي: الرُّصَافِيُّ البَلَنْسِي (ت ٥٧٢هـ)، وحَفْصَة الرُّكُوْنِيّة

---

١ – انظر ترجمته في الأعلام: ٦/٢٥٠.
٢ – شعر ابن زهر: ١٣٩.
٣ – انظر ترجمته في الأعلام: ٦/٢٧.
٤ – شعر ابن مرج الكحل: ١١٤.

(ت ٥٨٠ هـ)، وعبدُ الرحمن السُّهَيْلِي (ت ٥٨١ هـ)، وابن لَبَّال[١] (ت ٥٨٢ هـ)، وابن مُغَاوِر الشاطبي (ت ٥٨٧ هـ)، وابن مُجْبَر الأندلسي (ت ٥٨٨ هـ)، وابن زُهْر الحفيد (ت ٥٩٥ هـ)، وأبو بحر صَفْوَان ابن إدريس التُّجَيْبِي[٢] (ت ٥٩٨ هـ)، وعبد المنعم الجِلْيَاني (ت ٦٠٢ هـ)، وأبو عمران المِيْرْتُلِي (ت ٦٠٤ هـ)، وابن شَكِيْل (ت ٦٠٥ هـ)، وابن جُبَيْر[٣] (ت ٦١٤هـ) وابن حَرِيْق البلنسي (ت ٦٢٢ هـ)، وأبو زيد الفازازي [٤] (ت ٦٢٧ هـ)، وابن مَرْج الكُحْل (ت ٦٣٤ هـ)، وأبو الربيع الكِلَاعي (ت ٦٣٤ هـ)، وابن عربي[٥] (ت ٦٣٨ هـ)، وابن الجنَّان الأنصاري (ت ٦٥٥ هـ)، وابن الأَبَّار (ت ٦٥٨ هـ)، وابن سهل[٦] (ت٦٥٩ هـ)، والشُّشْتَرِي[٧] (ت ٦٦٨ هـ)، وحازم القرطاجَنِّي[٨] (ت ٦٨٤ هـ) وأبو البقاء الرُّنْدِي[٩] (ت ٦٨٤ هـ)، وابن حُبَيْش (ت ٦٨٧ هـ).

أمّا الموشّحات فقد اعترف بها رسميّاً ودخلت في مجال التأليف والاستشهاد بها بعد أن كانت نمطاً شعريّاً شعبيّاً أو شبه شعبي، تتعالى عليها المجموعات الشعريّة والكتب الأدبيّة الأندلسيّة، وقد صرّح ابن بسّام بخلوّ كتابه منها، وكذلك قال عبد الواحد المراكشي: «ولولا أنّ العادة لم تجر بإيراد الموشّحات في الكتب المجلّدة المخلّدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك»[١٠]، ولعلّ أوّل كتاب أفرد للموشّحات هو: "نزهة الأنفس وروضة التأنّس في توشيح أهل الأندلس لابن سعد الخير البلنسي(ت٥٧١ هـ).

---

١ – أبو الحسن علي بن أحمد بن علي المعروف بابن لبّال الشريشي، أديب قاض زاهد له شعر، ولد في شريش سنة ٥٠٨ هـ، ووصل إلينا بعض شعره ورسالة: روضة الأديب في التفضيل بين المتنبي وحبيب(ط)، مقدّمة تحقيق روضة الأديب: ١٧٣ – ١٨٠.

٢ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢٠٥/٣.

٣ – انظر ترجمته في الأعلام: ٣١٩/٥–٣٢٠.

٤ – انظر ترجمته في الأعلام: ٣٤٢/٣.

٥ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢٨١/٦–٢٨٢.

٦ – انظر ترجمته في الأعلام: ١/ ٤٢–٤٣.

٧ – انظر ترجمته في الأعلام: ٣٠٥/٤.

٨ – انظر ترجمته في الأعلام: ٢/ ١٥٩.

٩ – انظر ترجمته في الأعلام: ١٩٨/٣.

١٠ – المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٩٢.

القسم الثاني: عصر بني نصر(٦٢٩-٨٩٧ هـ)

أ. الاتجاه المشرقي:

ظلَّ ظلُّ التراث ممدوداً على الأدب الأندلسي في العصر الأخير فيه، فكثر الاعتماد عليه، وأقرّ الشعراء النزوع إليه، والسير نحوه، حتّى غدوا يستطرفون ذلك، ويعترفون بأنّهم ينظمون بعض قصائدهم على أساليب بعض الشعراء المشارقة؛ نزعة عربيّة عروبيّة منهم، إذ اغتلى الحنين إلى المشرق بوصفه مصدر حضارتهم وأمجادهم وقوتّهم ولاسيّما بازدياد سقوط المدن الأندلسيّة بأيدي الإسبان[١].

من ذلك تقديم ابن الخطيب[٢] لبعض شعره بما يثبت ذلك كقوله:«وقلت في أسلوب الحسن بن هاني»[٣] «وقلت على طريقة المشارقة وهو معنى غريب»[٤]، «وقلت في التضمين على طريقة المشارقة»، وكذلك تضمين الأشطار المشرقيّة الشهيرة كقوله:

وَتَحْتَمِلُ الرَّكْبَانُ طِيْبَ حَدِيثِهِ فَيَأْتِيْكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

والتوطئة لها كقوله: «وقلت موطّئاً على بيت قيس المجنون:

يُعَاهِدُنِي دَمْعِي عَلَى كَتْمِ سِرِّهِ وَيَجْرِي إِذَا ذِكْرٌ جَرَى وَيَمِينُ[٥]

وذَاكَ لأنِّ مِنْ نَجِيعِي خَضَبْتُهُ (وَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ[٦] البَنَانِ يَمِينُ)»[٧]

وكذلك وصف الأطلال والرسوم والصحارى والقفار وما أشبه ذلك.

ومن ذلك القبيل أيضاً قول الملك يوسف الثالث[٨] في تقديمه لأبيات له: «كذلك على طريقة الرضيّ:

---

١ –انظر الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري:٤٠٢.

٢ – انظر ترجمته في الأعلام: ٦/ ٢٣٥.

٣ – الصيّب والجهام: ٦٤٨.

٤ – المصدر نفسه: ٤٥٤ ، ٣٣٦ ،٤٤٠.

٥ – يمين: يكذب.

٦ – مخضوب البنان: في الأصل كناية عن المرأة.

٧ – الصيّب والجهام: ٦٠١.

٨ – انظر ترجمته في الأعلام ٨/ ٥٩.

طــلاب المعــالي بالرِّقــاق القواضــب ونَيــلُ الأمــاني في اقتيــاد المَقَــانب»[1]

وقوله أيضاً «ومن ذلك ما عارضنا به طريقة النابغة وتضمّن البيت المشهور[2]:

خطــرتْ فــأزرت بالغصــون المُيَّــدِ ورنَــتْ فــأودتْ بــالجفُونِ الهُجَّــدِ»

وفيه ضمّن قول النابغة الذبياني الشهير الذي أقوى فيه وهو[3]:

بِمُخَضَّــبٍ رَخْــصٍ كــأنَّ بنانَــهُ عَــنَمٌ يكــادُ مــنَ اللَّطافــةِ يُعْقَــدِ

ب. الاتجاه الأندلسي

وفي القرن الثامن ازدهرت الحياة الثقافيّة إبّان قوّة دولة بني نصر – على تقلّص مساحة دولتهم – إذ «كان هذا القرن حافلاً بالأعلام في الآداب والفنون والعلوم وشؤون الهندسة والعمران، وحافظ الأندلسيّون على خبراتهم الموروثة كما ظلّت الأندلس الباقية منار إشعاع فكريّ وحضاريّ على الرغم من ظروفها السياسيّة والعسكريّة القاسية»[4].

أمّا الشعر في هذا العصر فقد ازدادت وطأة الموروث الثقافي على الشعراء الأندلسيّين في عصرهم الأخير، وكان لتشجيع ملوك بني نصر للأدب وتقريب الأدباء والعلماء واستيزارهم أن وسم الشعراء والأدباء بطغيان العلم، ولاسيّما من طمح للارتباط بالبلاط حتّى إنّ شطراً منهم كانوا من العلماء والمؤلّفين في فنون كثيرة أدبيّة ولغويّة وتاريخيّة ودينيّة، وحتّى من خرج عن هذه القاعدة من الشعراء فإنّ تكوينهم الثقافي مكين متنوّع فيه المشرقيّ والأندلسيّ، ممّا وسم الشعر بأنّه متخم بالعلم، وفي هذا العصر حاول الشعراء الجنوح إلى الإبداع والاختراع في الخيال، ولاسيّما ابن خاتمة الأنصاري وابن زمرك ذي النزعة الوصفيّة الخفاجيّة إذ كانت تلك المقاييس النقديّة التي يحثّ عليها النقّاد ويسعى إليها الشعراء مع الفارق الشاسع بين النظريّة التي بلغت قمّتها، والتطبيق الذي ظلّ يراوح

---

١ – ديوان يوسف الثالث: ٥ ، المقانب: سرايا الخيل

٢ – المصدر نفسه: ٢١٦.

٣ – المصدر نفسه: ٢١٧ وانظر ديوان النابغة: ٩٣.

٤ – مقدّمة تحقيق نثير الجمان: ٥.

بين القمّة والسفوح والوديان، لذلك فقد ظلّ شعرهم دون شعر أولئك الفحول في مرحلة الاتّساق الأندلسيّ وتحدّر تدريجيّاً مع تحدّر الوجود العربي في الأندلس.

ولقد يكون أثر استفحال المحسّنات البديعيّة في الشعر الأندلسي في عصره الأخير شديداً لكونها تقليداً مشرقيّاً ومع ذلك فإنّ الشعر الأندلسي ظلّ أقلّ اصطباغاً بلألائها من الشعر المشرقي، ووجد من حثّ على الاعتدال فيها من الشعراء والعلماء، فالشاعر «أبو البركات البلّفيقي كان يتمنّى أن لو أنزلت الدولة عقوبة شديدة بكلّ أديب ينتحل فنون البديع في شعره ونثره وأن تعرضّه للإعلان والتشهير، وأبو القاسم الشريف كان يقول: "هذه الفنون البديعيّة إذا وقعت للشاعر أو الكاتب فيقبح أن يستكثر منها لأنّها من محسّنات الكلام ومزيّناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها»[1]. لهذا ظلّ الشعر يتمتع بنضارة أكثر من شقيقه المشرقيّ في عصر المماليك وبداية عصر العثمانيّين. ومن الأمثلة الشعريّة الدالّة على نمط شعر هذا العصر ومستواه الفني قول ابن خاتمة[2]:

يا نازِحِيْنَ وَهُمْ بالقلبِ سُكَّانُ ... وراحِلينَ وما سارُوا ولا بَانُوا
ذَواتُكُم بين أحْناءِ الضُّلُوعِ ثَوَتْ ... فَكيفَ لِيْ مِنكُمُ صَدٌّ وهِجْرَانُ
عَجِبْتُ تَشتاقُكُمْ نَفْسٌ وناظِرُها ... وأنْتُمُ فِيْهِمَا رُوْحٌ وإنْسَانُ
أنْتُمْ أنا وأنا أنْتُمْ مُطابقةً ... لو افْتَرَقْنا لَغالَ الحُبّ نِسيانُ
لا تَطْلُبُوني على عِشْقِي بِبَيِّنَةٍ ... فما يُقامُ على المحْسُوسِ بُرْهَانُ[3]

وقول ابن زمرك من مقدّمة قصيدة مطوّلة[4]:

مَعَاذَ الهَوَى أَنْ أَصْحَبَ القَلْبَ سَالِيَا ... وَأَنْ يَشْغَلَ اللُّوَّامُ بِالعَذْلِ بَالِيَا
دَعَانِيَ أُعْطِ الحُبَّ فَضْلَ مَقَادَتِي ... وَيَقْضِي عَلَيَّ الْوَجْدُ مَا كَانَ قَاضِيَا

---

١ – ابن الأحمر (زمامة): ١٩٩.

٢ – انظر ترجمته في الأعلام: ١/ ١٧٦.

٣ – ديوان ابن خاتمة: ٨٣.

٤ – ديوان ابن زمرك: ٥١٤–٥١٥.

وَدُونَ الَّـــذِي رَامَ الْعَـــوَاذِلُ صَـــبْوَةٌ رَمَـــتْ بِيَ فِي شِـعْبِ الْغَـرَامِ الْمَرَامِيَـا
وَقَلْـبٌ إِذَا مَـا البَـرْقُ أَوْمَـضَ مَوْهِنـاً قَـدَحْتُ بِـهِ زَنْـداً مِـنَ الْشَّـوْقِ وَارِيَـا
خَلِيلَـــيَّ إِنِّي يَـــوْمَ طَارِقَـــةِ النَّـــوَى شَـقِيْتُ بِمَـنْ لَـوْ شَـاءَ أَنْعَـمَ بَالِيَـا
وَبِـالخَيْفِ يَـوْمَ النَّفْـرِ يَـا أُمَّ مَالِـكٍ تَخَلَّفْـتُ قَلْـبِي فِي حِبَالَـكِ عَانِيَـا
وَذِي أُشُـرٍ عَـذْبِ الثَّنَايَـا مُخَصَّـرٍ يُسَـقِّي بِـهِ مَـاءُ النَّعِـيمِ الأَقَاحِيَـا
أَحُـوم عَلَيْـهِ مَـا دَجَـا اللَّيْـلُ سَـاهِراً وَأُصْـبِحُ دُونَ الْـوِرْدِ ظَمْـآنَ صَـادِيَا
يُضِـيءُ ظَـلاَمَ اللَّيْـلِ مَـا بَـيْنَ أَضْـلُعِي إِذَا الْبَـارِقُ الْنَجْـدِيُّ وَهْنـاً بَـدَا لِيَـا
أَجِيرَتَنَـــا بالرَّمْـــلِ وَالرَّمْـــلُ مَنْـــزِلٌ مَضَـى الْعَـيْشُ فِيـهِ بِالشَّـبِيبَةِ حَالِيَـا

وقول القيسي البسطي آخر شعراء الأندلس الذين وصل إلينا ديوان شعرهم:

أتهجُـرني قَصْـداً وتسـألُ لِـمْ أَبْكِـي كأنّـكَ مـن هجـري وحُـبِّيَ في شَـكِّ
وأشـكوكَ مـا ألقـى مـن الهجـرِ والهـوى فتـأبى سـوى الإعـراضِ عنّي ومـا تَشْـكِي
ومهمـا أُطِـلْ مـن أجـلِ هِجْرانِـكَ البُكـا تَصِلْ ضحْكَ ذاكَ السّنِّ منِّيَ بالضِّحْكِ
تَعَطّـفْ علـى مُضْـنَاكَ بـالعفوِ والرضَـا فبالعطفِ مَنْ يبغي الشَّماتَ به تَنْكِي
إلى كَـمْ إلى كَـمْ ذا القطيعـةُ والجفـا أَمَـا آنَ مِـنْ كَـفٍّ أَمَـا آنَ مِـنْ تَـرْكِ
فَأُقْسِـمُ إنْ لَمْ تـتركِ الهجـرَ سـيِّدِي هلكـتُ ومَـنْ لِيْ بالنجـاةِ مِـنَ الهُلْـكِ
وبحـرُ الهـوى مَـنْ خاضَـهُ يُـوْرَدُ الـرَّدَى وإنْ كـانَ في الحصـنِ الحصـينِ مِـنَ الفُلْـكِ
سَـفَكْتَ دَمِـي جُرْمـاً بغـيرِ جنايـةٍ ووجْنتُـكَ الحمـراءُ تشـهدُ بالسَّـفْكِ
وجِئْتَ بِفَتْـكِ اللَّحْظِ أَمْضَى مِنَ الظُّبَا ولَمْ تَخْشَ عُقْبَى مَا بِهِ جِئْتَ مِنْ فَتْكِ
وَصَـيَّرْتَنِي بـينَ الـوَرَى مَـثَلاً بِـهِ يُحاضَـرُ في الإسـلامِ والـرومِ والتُّـرْكِ[1]

ومن أبرز شعراء عصر بني نصر: أبو حيّان محمّد بن يوسف[2] (ت ٧٤٥ هـ) ، وإبراهيم بن محمّد الطويجن الساحلي (ت ٧٤٧ هـ)، وأبو بكر محمّد بن أحمد ابن شبرين

١ – ديوان البسطي: ٣٣٤ – ٣٣٥.
٢ – الأعلام: ٧ / ١٥٢.

السبتي (ت ٧٤٧ هـ)، وعلي بن محمّد ابن الجيّاب (ت ٧٤٩ هـ) ، ويحيى بن أحمد بن هـذيل التجيـبي (ت٧٥٣هـ)، وأبـو عبـد الله محمّـد بـن محمّـد ابـن جـزي الغرنـاطي (ت٧٥٧هـ)، ومحمد بن أحمد الشريف الغرناطي السبتي (ت٧٦٠) وأحمد بن علي ابن خاتمة (ت ٧٧٠ هـ)، ومحمّد بن إبراهيم ابن الحاجّ البَلَّفِيْقِي (ت ٧٧٣ هـ)، ولسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)، أبو جعفر أحمد بن يوسف الرعيني الغرناطي (ت ٧٧٩ هـ) ومحمّد بن علي ابن جابر[١] (ت ٧٨٠ هـ) ، وإبراهيم بن عبد الله ابن الحاجّ النميري الغرناطي (ت ٧٩٣ هـ)، ومحمّد بن يوسف ابن زَمْرَك (ت بعد ٧٩٧ هـ)، ويوسف الثالث بن يوسف بن محمّد النصري (ت ٨٢٠ هـ) ، وأبو الحسين بن أحمد ابن فُرْكُوْن (ت بعد ٨٢٠ هـ)، وأبو يحيى محمّد بن محمّد ابن عاصم الغرناطي (ت٧٥٧هـ)، وعبد الكريم بن محمّد القيسي البَسْطِي (ت أواخر ق ٩ هـ).

أمّا الموشّحات فقد توافدت إلى ساحة المؤلّفات ككتاب المطرب من أشعار أهل المغرب (ط) لابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ)، والمقتطف من أزاهر الطرف (ط) لابن سعيد المغربي [٢] (ت ٦٨٥ هـ)، ومقدّمة ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، كما أفردها بعض المؤلّفين الأندلسيّين بكتب خاصّة فقد ألّف لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) جيش التوشيح (ط)، وألّف علي بن بشري (ق٩ هـ) عدّة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس (ط)[٣].

---

١ – الأعلام: ٣٢٨/٥.

٢ – انظر الموشّح الأندلسي: ١٤ – ٢٤.

٣ – طبع منه الخرجات في كتاب المختار الأنيس، ثمّ اكتشفت مخطوطته بعد ضياعها، وطبعت بإنكلترا عام ١٩٩٢م.

الفصل الثاني

موضوعات الشعر الأندلسي

الموسعة

شعر الطبيعة

رثاء المدن والممالك

شعر الطبيعة

انتقل شطر من العرب من الحياة البدويّة البسيطة في شبه الجزيرة العربيّة إلى حياة الحضارة المركّبة، وتركوا طبيعتهم الصحراويّة القاسية الحارّة الجرداء إلى الطبيعة المتوسّطيّة المعتدلة المليئة بالخضرة والماء. وعندما انتقل العرب إلى الأندلس وجدوا هذه الطبيعة الخضراء في أبهى حللها، وأجمل مظاهرها، فأنتجوا أدباً كان وليداً لتلك الأجواء السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والبيئيّة بشكل خاصّ، وكانت الطبيعة فيه العنصر الأبرز والمميّز للأدب الأندلسي من سواه من الآداب العربيّة حتّى صارت العنوان الأساسيّ لكتاب الأدب العربي في الأندلس.

وشعر الطبيعة هو الشعر الذي يجعل من الطبيعة وعناصرها مادّة لموضوعاته الشعريّة فيصف عناصرها الطبيعيّة وحدها ويستفيد منها في صنع صوره الفنّيّة في أغراض متنوّعة.

دواعي شعر الطبيعة في الأندلس:

١- البيئة الطبيعيّة: (جمال بيئة الأندلس الطبيعيّة عامّة)

من المعروف - بيئيّاً- أنّ الأندلس ذات مناخ متوسّطي معتدل أقرب إلى الدفء في الجنوب، وأقرب إلى البرودة النسبيّة في الشمال، وأنّها تمتاز بغزارة الأمطار، ووفرة المياه، من أنهار وعيون وآبار وثلوج، أدّى هذا إلى كثرة النبات والأشجار، واتّشاح الأرض بالخضرة الدائمة، ولاسيّما في المناطق السهليّة والمتوسّطة، وحول سواحل البحار وشواطئ الأنهار، ممّا جعل قسماً من الأندلس- وليست كلّها- جنائن غنّاء، سندسيّة البساط، موشّاة الأديم، مع علمنا أنّ في الأندلس بوادي وسهوباً ومناطق وعرة وقاحلة، ولكنّ العرب قد نزلوا في أطيب بقاع الأندلس وأكثرها جمالاً، وقامت كبريات المدائن والعواصم في المناطق الجنوبيّة السهليّة حول نهر الوادي الكبير كقرطبة وإشبيليّة وغرناطة، وهذا الجمال الخلّاب وذاك الطيب وذلك التأنّق حبّب إليهم طبيعة بلادهم، وأسر أفئدتهم بجمالها، وحرّك مشاعرهم، وهزّ قرائحهم، وجعلهم يرسمون أجمل اللوحات في جنانهم

ويفضّلونها على غيرها من الجنان، ويبالغون في ذلك كثيراً، كقول جنّان الأندلس ابن خفاجة:

يَـــا أَهْـــلَ أَنْـــدَلُسٍ لله دَرُّكُـــمُ مـــاءٌ وظِـــلٌّ وأنهَـــارٌ وأَشـــجارُ

مَـــا جَنَّـــةُ الخُلْـــدِ إلَّا في ديـــارِكُمُ وهـــذهِ كنـــتُ لـــوْ خُيِّـــرْتُ أَختـــارُ

لا تَتَّقُـــوا بعـــدَها أَنْ تدخلـــوا سَـــقَراً فلـــيسَ تُـــدْخَلُ بعـــدَ الجَنَّـــةِ النـــارُ[1]

ولم يقتصر الأدباء والشعراء خاصّة على المبالغة في وصفها وإطرائها بل شارك المؤرّخون والجغرافيّون الأندلسيّون، فنسبوا إليها أفضل ما لدى البلدان الأُخَر كقول البكري: «الأندلس شاميّة في طيبها وهوائها، يمانيّة في اعتدالها واستوائها، هنديّة في عطرها وذكائها، أهوازيّة في عظم جبايتها، صينيّة في جواهر معادنها، عدنيّة في منافع سواحلها»[2].

ومثل هذه الأوصاف في الثناء على طبيعة الأندلس كثير.

٢- البيئة السياسيّة:

إنّ للبيئة السياسيّة أثراً كبيراً في الشعر عامّة، وفي شعر الطبيعة خاصّة، ولمّا كانت الأحوال السياسيّة حتّى نهاية القرن الثالث الهجري في الأندلس غير مستقرّة بصورة عامّة، ما عدا أويقات محدودة فيه، فإنّ شعر الطبيعة في الأندلس لم يزدهر إلّا منذ القرن الرابع الهجري، حين انتقل الحكم من الإمارة إلى الخلافة سنة (٣١٦هـ) واستقرّت الأمور في عهد الخليفتين الناصر والمستنصر، والحاجب المنصور، ووجدت الطبيعة مزيداً من اهتمام الحكام وولعاً بها، ولاسيّما لدى المنصور الذي سمّى بناته بأسماء الأزهار، وجعل الشعراء يصفون هذه الأزهار أو يتحدّثون على ألسنتها، كعبد الملك بن إدريس الجزيري (ت

١- الديوان: ٣٦٤

٢- نسب هذا القول إلى أبي عبيد البكري (ت٤٨٧هـ) في كتاب وصف الأندلس:١٢٩، وفي نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٢٦/١، ونسب في نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣٥٨/١ لابن حزم، ولم ينسب في الروض المعطار في خبر الأقطار: ٣٣ وكتاب فرحة الأنفس: ٢٨١.

٣٩٤هـ) الذي قال:

حَـــدَقُ الحِسَـــانِ تُقِـــرُّ لِيْ وَتغـــارُ ... وَتَضِـــلُّ في صِـــفتي النُّهـــى وتَحَـــارُ

طَلَعَـتْ علـى قُضُبِـي عيـونُ كمـائِمِي ... مِثْـــلَ العيـــونِ تَخُفُّهَـــا الأَشْـــفَارُ

وَأَخَـــصُّ شـــيءٍ بي إذا شَـــبَّهْتَني ... دُرَرٌ تَنَطَّـــقَ سِـــلْكَها دِيْنَـــارُ

أهـــدتْ لـــهُ قُضُـــبُ الزُّمُـــرّدِ ســـاقَهُ ... وحَبـــاهُ أنفـــسَ عطـــرِهِ العَطَّـــارُ

أنـــا نَـــرْجِسٌ حقّـــاً بَهَـــرتُ عقـــولَهُمْ ... ببـــديعِ تـــركيبي فقيـــلَ بَهـــارُ

إنّي لمـــنْ زمـــنِ الربيـــعِ تَرُبُّنِـــي ... قِطَـــعُ الريـــاضِ وتُلْقِـــحُ الأمطـــارُ

فـــأكونُ عِطْـــراً للأنـــوفِ ومَنْظَـــراً ... بَهِجـــاً تَهَافَـــتُ نحـــوَهُ الأَبصـــارُ

وتحيّـــةٌ بـــينَ النُّـــدَامِ تُحَـــثُّ لِـــيْ ... نُخَـــبُ الكـــؤوسِ وتَنْطِـــقُ الأَوْتـــارُ

وكـان المنصـور يـزيّن قصـره «بشـقائف مصـنوعة مـن جميـع النـواوير، ووضـع علـى الشقائف لعباً من ياسمين في شكل الجواري»[1].

وكان المنصور يطلب من الشعراء أن يصفوا الأزهار مباشرة على البديهة، قال ابن بسّام: «وخرج المنصور مع صاعد يوماً إلى رياض الزاهرة، فمدّ يده إلى شيء من التُّرُنْجَان فعبث به، ورماه إليه معرّضاً أن يصفه فقال

لَمْ أَدْرِ قَبْـــلَ تُرُنْجَـــانَ عَبَثْـــتَ بِـــهِ ... أنَّ الزُّمـــــــرُّدَ قُضْـــــــبَانٌ وَأَورَاقُ

مِـــنْ طِيبِـــه سَـــرَقَ الأَتْـــرُجُّ نَكْهَتَـــهُ ... يَـا قَـوْمُ حَـتَّى مِـنَ الأَشْـجَارِ سُـرَّاقُ

يُشَـــارِكُ الخَمْـــرَ في نَفْـــيِ الهُمُـــوْمِ إِذَا ... مَـــا شَـــمَّهُ مُـــوْتَرٌ بِـــالهَجْرِ مُشْـــتَاقُ

كَأَنَّمَـــا الحَاجِـــبُ المَنْصُـــوْرُ عَلَّمَـــهُ ... فِعْـــلَ الجَمِيْـــلِ فَطَابَـــتْ مِنْـــهُ أَخْـــلَاقُ

مَـــنْ لَـــيْسَ يُقْعِـــدُهُ مِـــنْ سُـــؤْدُدٍ قَـــدَمٌ ... وَلَا تَقُـــوْمُ لَـــهُ في سَـــوْأَةٍ سَـــاقُ»[2]

١- معجم الأدباء: ١٠/ ١٨٧

٢- صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي: ٣١٩

وورث ابنه عبد الملك الحاجب المظفّر من أبيه ارتياحه للطبيعة وحبّه للتنزّه بين أزهارها، وثمّة خبر مشابه للخبر السابق في مماشاته للشاعر ابن شخيص القرطبي في بستان فنظر إلى ورد مقابل آس ورغب أن يقول شاعره في ذلك ففعل. وكان المظفّر يطلب من شعرائه أن يصفوا الأزاهير في قطع لتغنيّها جواريه كما فعل صاعد وابن درّاج[1].

وظلّ هذا الأمر في عصر ملوك الطوائف وشارك بعض الملوك والوزراء في وصف النواوير والطبيعة وظلت تلك البدعة في صنع جواري من الأزهار، فابن خفاجة الذي أدرك قسماً من عصر ملوك الطوائف ذكر أنّ المعتصم بن صمادح «أحضر مجلسه في بعض ليالي أنسه صورة حسنة قد ركّبت من ريحان في هيئة جارية ثمّ طيّبت وقلّدت، وأمر من حضر من الشعراء بوصفها فقال...

لقدْ زَفَّ بِنتاً للخَمِيلةِ طفلةً ... يَهُزُّ إِليها الدَّسْتُ أعطافَ مُعْرِسِ

تُشِيْرُ إِليها كلُّ راحةِ سُوسَنٍ ... وتَشْخَصُ فيها كلُّ عَيْنٍ لنرجسِ»[2]

٣- البيئة الاقتصاديّة:

وممّا يستتبع الاستقرار السياسي الرخاء الاقتصادي، وقد وصفت الأندلس بعظم جبايتها[3] وكثرة خيراتها الطبيعيّة وما فيها من معادن، وهذا الرخاء كانت تحيا به شريحة واسعة من أبناء الشعب، جعلهم يتفرغون للتملّي بجمال الطبيعة، والتنبّه لجزئيّاتها، ووصفها بدقّة.

ففي أواخر القرن الرابع الهجري أسقط الحاجب المظفّر «عن جميع البلاد سدس الجباية»[4] لذلك فإنّ الناس قد «باحوا بالنعم، واستثاروا الكنوز، وتناهوا في الأحوال، وتناغوا في المكاسب، وتحاسدوا في اقتناء الأصول، وابتناء القصور، وغالوا في الفرش

١- انظر شعر ابن شخيص الأندلسي: ٦٥، وانظر صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي حياته ومجموع شعره: ٢٣٢، وديوان ابن درّاج القسطلّي: ٣٥- ٣٦، وانظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ١٨/٣- ١٩

٢- الديوان: ١٥٥- ١٥٦

٣- انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢١١/١

٤- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٣/٣

والأمتعة، واستفرهوا المراكب والغلمان، وغالوا في الجواري والقيان، فسمت أثمان ذلك في تلك المدّة، وبلغت الأندلس فيها الحدّ الذي فاق الكمال»[1].

٤– البيئة الاجتماعيّة:

تكوّن النسيج الاجتماعي في الأندلس من خيوط مختلفة من عرب وبربر وصقالبة، وأهل البلاد المحلّيّين، وإن اتّشح باللون العربي لغة وأدباً، واصطبغ به قلباً وقالباً، وامتزج كلّ ذلك بالبيئة الطبيعيّة الخضراء ممّا أدى إلى عدّة أمور أهمّها:

أ– شاعريّة الأندلس:

وصفاء أذهان الأندلسيّين واتّقاد قرائحهم وتوهّج شاعريّتهم ،أدّى إلى استبحار الشعر فيهم، وسبق قول ياقوت الحموي في ذلك.

لذلك فإنّ الطبيعة كانت من المصادر الأساسيّة لشاعريّة الأندلسي.

ب– ميل المجتمع الأندلسي إلى التحرّر ولاسيّما أواخر عهد الدولة الأمويّة وفي أثناء عهد دويلات الطوائف، وجنوحهم إلى اللهو والغناء والطرب، وبعدهم عن الفلسفة والمنطق، وصارت مجالس أنس الأندلسيّين على ضفاف الأنهار، وفي أحضان الطبيعة الدافئة، فقد خرج اللهو والمجون والخبور من جليلات القصور وكبريات الدور إلى العلن والظهور، حتّى إنّ بعض المناطق على شواطئ الأنهار صارت مسرحاً خاصاً للنبيذيّين والظرفاء، تحدّث ابن عبد المنعم الحميري عن موضع يعرف بالرَكَيْن في مُنْيَة نَصْر بقرطبة فقال: «وهو على النهر وفيه ثمرات زيتون وبين النهر وبين الركين موضع ينتابه النبيذيّون، وينتجعه الظرفاء، فلا يكاد يخلو منهم يتفيّؤون ظلّه، ويعومون في نميره لاشتهاره وبرده، وفي ذلك يقول محمّد بن شخيص على لسان ابن الحمّالة إذ كان غائباً في القسطنطينيّة في شعر له طويل:

اِقْـرِ الســلامَ علــى الــركينِ وقــلْ لــهُ مُــذْ غبــتَ لم أرتــحْ لظــلِّ نســيمِ

١– أعمال الأعلام: ٨٤– ٨٥

سَــقْياً لظلِّــكَ بالعشــيِّ وبالضــحى ولــبردِ مائِــكَ في احتــدامِ سَــمُومِ

لَـو كنـتُ أملـكُ منـعَ مائِـكَ لم يُقِـمْ في ظــلِّ ســاحِكَ منــتمٍ للئــيمِ[1]

لـذلك فـإنّ الطبيعـة كانـت المسـرح الأوّل للهـو والغـزل، ممّـا أدّى إلى امتـزاج الغـزل بالخمر بالطبيعة امتزاجاً شديداً في كثير من الأحيان.

ج- ارتباط الشعراء الأندلسيّين بمدائنهم وبلداتهم وإعلاؤهم لشأنها فابن خفاجة مثلاً يعلي من منزلة الأندلس عامّة حتّى ليجعلها جنّة الله على الأرض ويصف بلدته جزيرة شقر خاصّة وصفاً عاطفيّاً جميلاً:

أَجَبْـتُ وَقَـد نَـادى الغَـرامُ فَأَسمَعـا عَشِـيَّةَ غَنّـاني الحَمـامُ فَرَجَّعـا

فَقُلـتُ وَلي دَمـعٌ تَرَقْـرَقَ فَـاهَمى يَسـيلُ وَصَـبْرٌ قَـدْ وَهـى فَتَضَعضَـعا

أَلا هَـلْ إِلى أَرضِ الجَزيـرَةِ أَوْبَـةٌ فَأَسْـكُنَ أَنفاسـاً وَأَهْـدَأَ مَضْـجَعا

وَأَغـدو بِواديهـا وَقَـد نَضَـحَ النَّـدى مَعـاطِفَ هاتيـكَ الرُّبـا ثُمَّ أَقشَـعا

أُغـازِلُ فيهـا لِلغَزالَـةِ سُـنَّةً تَحُـطُّ الصَّـبا عَنهـا مِـنَ الغَـيمِ بُرقُعـا

وَقَـد فَـضَّ عِقْـدَ القَطـرِ فِي كُـلِّ تَلْعَـةٍ نَسـيمٌ تَمَشّـى بَيْنَهـا فَتَضَـوَّعا[2]

د- الأندلسيّة:

وتولّدت باحتكاك الأندلسيّين بالمشارقة خصوصاً منذ القرن الثالث الهجري، وبالمغاربة عموماً- بعد قدوم المرابطين المغاربة إلى الأندلس.

والأندلسيّة هي تفضيل كلّ ما في الأندلس على ما عداها؛ ممّا جعلهم يظنّون أنّ القمر في سمائهم أجمل منه في سماء سائر البلاد، لذلك فقد وصفوا الطبيعة الأندلسيّة، وافتخروا بها، وجعلوها كعلق نفيس يدّخر ليوم المفاخرة تمجيداً لوطنهم ولأنفسهم، وصاروا

١- شعر ابن شخيص الأندلسي: ٨٥

٢- ديوان ابن خفاجة: ١٢٨

يفضّلونها على جميع البقاع كقول ابن سفر المريني:

في أرضِ أنـــدلسٍ تُلْتـــذُّ نَعْمَـــاءُ ولا يفـــارِقُ فِيهـــا القلـــبَ سَـــرَّاءُ

ولـــيسَ في غيرِهَـــا بـــالعيشِ مُنتفَـــعٌ ولا تقـــومُ بحـــقِّ الأنْـــسِ صَهْبَـــاءُ

وأيـــنَ يُعْـــدَلُ عـــنْ أرضٍ تَحُـــضُّ بهـــا علـــى المُدَامـــة أَمْـــوَاهٌ وأَفْيَـــاءُ

وكيـــفَ لَا يُـــبْهِجُ الأبصـــارَ رؤيَتُهَـــا وكـــلُّ روضٍ بهـــا في الوَشـــيِ صَنْعَـــاءُ

أنهارُهَـــا فضّـــةٌ والمســـكُ تُرْبَتُهَـــا والخَـــزُّ رَوْضَـــتُهَا والـــدُّرُّ حَصْبَـــاءُ

وللهـــواءِ بِهَـــا لطـــفٌ يـــرِقُّ بـــهِ مَـــنْ لَا يَـــرِقُّ وتَبْـــدُوْ منـــهُ أَهْـــوَاءُ[1]

تأصيل ظاهرة وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي

بدأ فتح الأندلس سنة (٩٢هـ) واستمرّ أعواماً، ولم يصل الجيش إلى الأندلس إلّا بوساطة السفائن، فعبر البحر وجاز المضيق، فرأى الطبيعة البحريّة رأي العين، وعرفها عن كثب، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في أوّل أبيات عرفت على هذه الأرض الأندلسيّة، والتي نسبت إلى طارق بن زياد ومطلعها[2]:

ركبنـــا سَـــفِيْناً في المجـــازِ مُقَـــيَّرا عَسَـى أنْ يكـونَ اللهُ مِنَّـا قـدِ اشـتَرَى

وصف الطبيعة في القرن الثاني:

صارت الأندلس بعد الفتح الإسلامي لها ولاية أمويّة تابعة للخلافة الأمويّة، وبعد سقوط الدولة الأمويّة وانتقال عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس سنة (١٣٨هـ) صارت إمارة أندلسيّة أمويّة ثمّ خلافة أندلسيّة أمويّة (٣١٦هـ) استمّرت إلى أوائل العقد الثالث من القرن الخامس الهجري.

ولا نكاد نجد للطبيعة في القرن الثاني في الأندلس حيّزاً واضحاً فليس ثمّة سوى مقطّعات قلائل، فلا نعرف من شعراء هذا القرن إلّا عدداً يسيراً منهم ولا نكاد نجد من

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٢٠٩/١- ٢١٠

٢- المصدر نفسه: ٢٦٥/١

أشعارهم إلّا نتفاً وقصائد قصيرة، وأهمّ ما لدينا من شعر الطبيعة في هذا القرن قطعتان قصيرتان مشهورتان للأمير عبد الرحمن الداخل، يتشوّق في الأولى إلى طبيعة المشرق، إذ رأى في منية الرصافة نخلة فهيّجت أشجانه لأنّها رمز العرب والعروبة ولأنّها ذكّرته بطبيعة بلاده في المشرق، ومثوى آبائه وأجداده، فقال مخاطباً إيّاها بديهاً:

تَبَـدَّتْ لنَـا وَسْـطَ الرُّصَـافةِ نَخْلَـةٌ ... تنـاءَتْ بـأرضِ الغـربِ عـنْ بلـدِ النخـلِ

فقلـتُ شَـبيهيْ في التغـرُّبِ والنَّـوَى ... وطـولِ التنـائي عـنْ بَـنِيَّ وعـنْ أهلـي

نشـأتِ بـأرضٍ أنـتِ فيهَـا غريبـةٌ ... فمثلُـكِ في الإقصـاءِ والمُنتَـأَى مِثْلِـي

سَقَتْكِ غَوَادي المُزْنِ من صَوْبِهَا الَّذي ... يَسُـحُّ ويسـتمريْ السِّـمَاكَيْنِ بالوَبْـل[1]

ويخاطبها الداخل صقر قريش مرّة ثانية ويسألها أن تبكي منابتها في المشرق، ولكنّها عجماء لا تفهم قوله:

يَـا نخـلُ أنـتِ غريبـةٌ مِثْلِـي ... في الغـربِ نائيـةٌ عَـنِ الأَصْـلِ

فـابكِيْ وهـلْ تبكـيْ مُكَبَّسَـةٌ ... عجمـاءُ لمْ تُطْبَـعْ عَلَـى خَبْـلِ

لَـوْ أَنَّهـا تبكـيْ إِذَاً لَبَكَـتْ ... مـاءَ الفُـراتِ وَمنْبِـتَ النَّخْـلِ

لكنَّهَـا ذَهَلَـتْ وأَذْهَلَنِـيْ ... بُعْضِـيْ بَـنِي العَبَّـاسِ عَـنْ أَهْلِـي[2]

وظفرنا كذلك بقطعة ثالثة فيها شيء من وصف البحر لأبي المَخْشِيِّ عاصم بن زيد الذي عاصر الداخل وابنه هشاماً وحفيده الحكم الربضي (حكم١٨٠- ٢٠٦هـ) وتوفّي في عهده، وصف فيها ركوبه للبحر لسوء طالعه، لأنّ للبحر دلالة سلّبية عند العرب عامّة، فيزداد همّاً على همّ، قال:

وَهَـمٍّ ضَافَنِـيْ فِي جَـوْفِ يَـمٍّ ... كِـلَا مَوْجَيْهِمَـا عِنْـدِي كَبِيْـرُ

١- الحلّة السيراء: ٣٧/١، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٦٠/٢، نفح الطيب: ٥٤/٤

٢- الحلّة السيراء: ٣٧/١،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٦٠/٤، وتنسب القطعتان لبعض أقارب الداخل، وإن كان ابن الأبّار يرجّح نسبتها إليه، وعلى كلّ حال فهم في العصر نفسه.

فَبِتْنَـــا والقلـــوبُ مُعَلّقَـــاتٌ وأجنحـــةُ الريـــاحِ بنَـــا تَطِيْـــرُ[1]

وصف الطبيعة في القرن الثالث الهجري:

يعدّ هذا القرن الإرهاص الحقيقيّ الأوّليّ لشعر الطبيعة الأندلسيّة، وقد وصل إلينا في هذا العصر قدر قليل من الشعر، وفي هذا القرن نجد بداية الاهتمام بالطبيعة والارتياح إليها، وشرب الراح فيها، وبواكير وصفها، وفي أوائل هذا القرن نجد شيئاً من وصف الطبيعة لدى الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم الربضي (حكم ٢٠٦- ٢٣٨هـ) الذي كان يتميّز عهده من سائر عهود الإمارة الأندلسيّة بالاستقرار النسبي والرخاء الاقتصادي، وكثرة الخيرات، والميل إلى الدعة والاستمتاع بالحياة، فقد استدعى هذا الأمير شاعره ابن الشمر للاصطباح معاً في يوم ربيعي جميل:

مَـــا تَـــرَاهُ في اصْـــطِبَاحٍ وعُقُـــودُ القَطْـــرِ تُنْثَـــرْ
ونســـيمُ الـــروضِ يَخْتَـــا لُ علـــى مِسْـــكٍ وعَنْبَـــرْ
كلَّمَـــا حـــاولَ سَـــبْقاً فَهْـــوَ في الرَّيْحَـــانِ يَعثُـــرْ
لا تَكُـــنْ مِهْمَالَـــةً واسْـــبقْ فمَـــا في الـــبُطءِ تُعْـــذَرْ[2]

وكان أغلب هذا الارتياح إلى الطبيعة والتمتّع بها محصوراً في الطبقة الحاكمة ووزرائها وشعرائها كقول الوزير هاشم بن عبد العزيز (ت ٢٧٣هـ) يصف سروره بالطبيعة وعناصرها في قسم من قطعة في الفخر تفيض عذوبة وسلاسة:

أَهْـــوى مُعَانَقَـــةَ المِـــلا حِ وشُـــرْبَ أَكْـــواسِ الطِّلَـــى
وَيَسُـــرُّنِي حُسْـــنُ الريـــا ضِ وَقَـــدْ تَوَشَّـــتْ بـــالحُلَى
وأَذُوْبُ مـــنْ طَـــرَبٍ إذَا مـــا الصُـــبْحُ جَـــرَّدَ مُنْصُـــلا[3]

ونجد ذلك أيضاً لدى محمّد بن عبد العزيز العتبي (ت ٢٥٥هـ) وكان يلزم الأمير

١- جذوة المقتبس: ٣٨٩
٢- المغرب في حلى المغرب: ١/٥٠- ٥١
٣- المصدر نفسه: ٢/٩٤

محمّد بن عبد الرحمن، مجسّداً المزج بين الطبيعة والخمر:

إذا نَفَـــحَ النســـيمُ فقُـــمْ وبَاكِـــرْ ... ريـــاضَ النهـــرِ والأنـــداءُ تَهْمِـــي
ولا تَشْـــرَبْ بنـــاتِ الكَـــرْمِ إلَّا ... علـــى روضٍ نَـــدٍ وبنـــاتِ كَـــرْمِ[1]

أمّا وصف عناصر الطبيعة من أزهار وأشجار وأنهار وعناصر كونيّة وما إلى ذلك فقليل وجزئي في شعر ما تبقّى من هذا القرن، فثمّة بيت مفرد من قصيدة لعبّاس بن فرناس (ت ٢٨٤هـ) يصف فيه الورد والأقحوان وصفاً جميلاً قال فيه:

تَـــرَى وَرْدَه والأُقْحُـــوَانَ كَأنَّـــهُ ... بِـهَا شَـفَةٌ لَـمْيَاءُ ضَـاحَكَهَا ثَغْـرُ[2]

ولإسحاق بن إسماعيل المنادي (ت ق ٣هـ) حديث جميل قصير مع التفّاحة يطوّعه للمديح قال فيه:

وآرِجَـــةٌ مـــنَ التُّفَّـــاحِ تُزْهَـــى ... بِطِيْـــبِ النَّشْـــرِ والحُسْـــنِ الفَرِيْـــدِ
أقـــولُ لَهَـــا فَضَـــحْتِ المِسْـــكَ طِيْبـــاً ... فقالـــتْ لِيْ: بطيـــبِ أبي الوَلِيْـــدِ[3]

وفي بيت مفرد لعبّاس بن ناصح (ت ٢٣٠هـ) وصف الشاعر الشمس وصفاً أنثويّاً معنويّاً، مبرزاً قدم العلاقة بين المرأة والطبيعة[4]:

وشمـــسُ نهـــارٍ قـــدْ هَـــوَتْ لمغيبِهَـــا ... كعـــذراءَ تبغِـــي في الحجـــالِ التوارِيَـــا

وفي نتفة متبقيّة من قصيدة غزليّة وصف عبّاس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ) الصباح مؤكّداً انعكاس الصفات الطبيعيّة في الأنثى:

فَبِتْنَـــا وأنـــواعُ النعـــيمِ ابتذالُنَـــا ... ولا غـــيرَ عينيهَـــا وعيـــنيَ كَـــالِي
إلى أنْ بـــدَا وجـــهُ الصـــباحِ كأنَّـــهُ ... جبـــينُ فتـــاةٍ لاحَ بـــينَ حِجَـــالِ[5]

١- المغرب في حلى المغرب: ١/١٣٤
٢- جذوة المقتبس: ٣١٢
٣- المصدر نفسه: ١٦٧
٤- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٩
٥- شعره (ضمن كتاب فصول في الأدب الأندلسي): ١٤٨- ١٤٩

وثمّة وصف قصير للبحر وركوبه في قطعة صغيرة ليحيى بن حكم الغزال قال فيها:

قـــالَ لِيْ يَحْـــيَ وصِـــرْنَا بَـــيْنَ مَـــوْجٍ كالجِبَـــالِ

وتَوَلَّتْنَـــــا رِيَـــــاحٌ مِـــنْ دَبُـــوْرٍ وشَـــمَالِ

شَـــقَّتِ القَلْعَـــينْ وَانْبَتْـــ ـــتَتْ عُـــرا تلـــكَ الحِبـــالِ[1]

وقد نعجب أن نجد قطعاً في وصف الصحراء في هذا القرن في الأندلس، وإن كانت لا تخلو الأندلس منها في مواضع محدودة، وقد نغدو أكثر تعجّباً إذا سمعنا أبيات عبّاس ابن ناصح (ت ٢٣٠هـ) بأسلوبه القديم المشابه لقدامى الشعراء من جاهليّين وإسلاميّين واستخدامه الألفاظ الغريبة في قوله:

ومَجُوْبَـــةٍ تَنْفِـــيْ مَخَافَتُهَـــا نَـــوْمَ الفَـــتَى ذِي المِـــرَّةِ النَّـــدْبِ

للجـــنِّ في أجوازِهَـــا لَغَـــطٌ باللَيـــلِ مِثْـــلُ تَنَـــازُعِ الشَّـــرْبِ

وتَـــرَى بِهَـــا جَـــوْنَ النَّعَـــامِ إِذا أَشْـــرَفْنَ كَالمَهْنُـــوْءَةِ الجُـــرْبِ[2]

وبألفاظ أقلّ غرابة وصف عبّاس بن فرناس الفلاة فقال:

مَوْسُـــوْمَةٌ بالبعـــدِ تحسَـــبُ ســـهلَهَا أَلْقَـــى السَّـــمَاءُ بحولِـــهِ أَطْنَابَـــا[3]

فكأنَّهَـــا دَارٌ تَقَـــاذَفَ صَـــحْنُهَا لَـــمْ يَجْعَـــلِ البَـــانِي لَهَـــا أَبْوَابَـــا

وصف الطبيعة في القرن الرابع الهجري:

هذا القرن هو البداية الحقيقيّة لشعر الطبيعة في الأندلس بل هو الظهور الحقيقيّ الواضح للشعر الأندلسي ذاته، فقد تجمّع لدينا جمهرة كبيرة من شعر هذا القرن في الكتب الأدبيّة والتاريخيّة الأندلسيّة، ولكن لم يصل إلينا أيّ مخطوط لديوان شاعر أندلسي حتّى نهايته مطلقاً، فضلاً عن خروج كتاب التشبيهات في أشعار أهل الأندلس لابن الكتّاني

١- ديوان يحيى بن حكم الغزال: ٧١

٢- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس: ١٧٣

٣- شعره (ضمن كتاب فصول في الأدب الأندلسي): ١٥٠

الطبيب (ت نحو ٤٢٠هـ) إلى النور، الذي يحتوي على أشعار كثيرة في وصف الطبيعة وجزئيّاتها في القرنين الثالث والرابع الهجريّين.

لذلك كلّه فإنّ شعر الطبيعة في هذا القرن يغطّي وصف أكثر عناصر الطبيعة ولاسيّما الرياض وما فيها، كقول ابن عبد ربّه[1]:

ورَوْضَـةٍ عَقَّـدَتْ أيـديْ الرَّبيـعِ بِهَـا ... نَـــوْراً بنَـــوْرٍ وتَزويجـــاً بِتَزْوِيْـــجِ
بِمُلْقَـــحٍ مـــنْ سَـــواريْهَا ومُلْقَحَـــةٍ ... ونَـــاتِجٍ مِـــنْ غَوَادِيْهَـــا ومَنْتُـــوْجِ
توشّـــحَتْ بِمُـــلاةِ غـــيرِ مُلْحَمَـــةٍ ... مِـــنْ نَوْرِهَـــا ورِدَاءٍ غـــيرِ مَنْسُـــوْجِ
فَأَلْبَسَـــتْ حُلَـــلَ المَوْشِـــيِّ زَهْرَتَهَـــا ... وجَلَّلَتْهَـــا بِأَنْمَـــاطِ الدَّيَابِيْـــجِ

وكذلك وصف الأزهار عامّة كقول عبيد الله بن إدريس (ت ٣٥٢هـ):

قَـدْ حُلِّيَـتْ بـأزاهرٍ مـن صَـوْغِها ... نَـــوْرٌ حكـــينَ لآلئـــاً بنُحُـــوْرِ
وأَرَتْـــكَ أَعْـــيُنَ خُـــرَّدٍ مَرْمُوْقَـــةٍ ... خَجِلَـــتْ وأعـــينَ آنســـاتٍ حُـــوْرِ
بَيْضَـــاءُ تَرْفُـــلُ في مَلَابِـــسِ خُضْـــرَةٍ ... نُظِمَـــتْ بأحســـنِ نَوْرِهَـــا المَمْطُـــوْرِ
فَكأَنَّهَـــا عـــذراءُ في إِجْلَائِهَـــا ... تُهْـــدَى إِلَى جَـــذِلٍ بِهَـــا مَسْـــرُوْرِ[2]
وَكأَنَّمَـــا صَـــبَغَ الحيـــا أثوابَهَـــا ... صَـــبْغَ الحيـــاءِ الخَـــدَّ بـــالتَّخْفِيرِ

أو وصف نوع معين من الأزهار خاصّة كوصف الورد والنرجس والبهار والنيلوفر والياسمين والبنفسج والسوسن، ومن وصف النوع الأخير نتفة مشهورة يتنازعها شاعران هما ابن هذيل القرطبي (ت ٣٨٩هـ) والحاجب المصحفي (ت ٣٧٢هـ):

وربَّ سَوْسَـــنَةٍ قَبَّلْتُهَـــا كَلَفـــاً ... ومَـا لَهَـا غـيرُ نَشْـرِ المِسْـكِ مَنْشُـوْقِ
مُصْـــفَرَّةُ الوَسْـــطِ مُبْـــيَضٌّ جَوَانِبُهَـــا ... كأَنَّهَـا عاشـقٌ فِي حِجْـرِ مَعْشُـوْقِ[3]

١- ديوان ابن عبد ربّه: ٣٧

٢- شعر عبيد الله بن يحيى بن إدريس الأندلسي: ١٠٣

٣- شعر ابن هذيل القرطبي: ٢٨١

ووصف الأندلسيّون في هذا القرن أنماطاً كثيرة من الفاكهة، كالتفّاح والعنب والرمّان والخوخ والتوت والإجّاص والجوز والسفرجل وعلى صعوبة وصف السفرجل وغرابته استطاع الحاجب المصحفي أن يصفه وصفاً بديعاً؛ قال:

ومصفرّةٍ تختالُ في ثوبِ نَرْجِسٍ ... وَتْعبَقُ عنْ مسكٍ ذكيِّ التَّنَفُّسِ

لها ريحُ محبوبٍ وقسوةُ قلبِهِ ... ولونُ مُحِبٍّ حُلّةَ السُّقْمِ مُكْتَسِ

فَصُفْرَتُهَا منْ صُفْرَتِي مستعارةٌ ... وأنفاسُهَا في الطّيْبِ أنفاسُ مُؤْنِسي

وكانَ لَهَا ثوبٌ منَ الزُّغْبِ أَغْبَرٌ ... عَلى جِسْمِ مصفرٍّ مِنَ التّبْرِ أَمْلَسِ

فَلَمَّا اسْتَتَمَّتْ في القَضيْبِ شَبَابَهَا ... وحاكَتْ لَهَا الأَوْراقُ أثوابَ سُنْدسِ

مَدَدْتُ يَدِي باللّطْفِ أبغيْ اجتناءَهَا ... لأجعلَهَا رَيْحَانَتِي وَسْطَ مَجْلِسِي

فَبَزَّتْ يديْ غَصْباً لَهَا ثَوْبَ جِسْمِهَا ... وأَعْرَيْتُهَا باللّطْفِ مِنْ كُلِّ مَلْبَسِ

ولمَّا تَعَرَّتْ فِي يَدِيْ مِنْ بُرُودِهَا ... ولَمْ تَبْقَ إِلَّا في غُلَالَةِ نَرْجِسِ

ذكرتُ بِهَا مَنْ لَا أَبُوْحُ بِذِكْرِهِ ... فَأَذْبَلَهَا فِي الكَفِّ حَرُّ التَّنَفُّسِ[1]

وفي مجال الطبيعة الكونيّة نجد وصف الأمطار والبروق والرعود والسحاب والريح، وقد اشتهرت قطعة لابن هذيل يقول فيها:

ولقدْ شفَّنِيْ وأسهرَ طَرْفِي ... لمعُ بَرْقٍ يرفُّ في لَمَعَانِهْ

شِمْتُهُ والظلامُ يَفْتَرُّ عَنْهُ ... كافترارِ الزنجيِّ عَنْ أَسْنَانِهْ[2]

ومن الطبيعة الحيّة اهتمّوا بالطيور الداجنة والجارحة، فوصفوا النسور والصقور وأشباهها، ووصفوا الحمام والحسّون والغراب، وكان للحمام مكانة خاصّة، وعليه قامت مسابقات ومساجلات فممّا يذكر عن يوسف بن هارون الرمادي أنّه استنشد

١- مطمح الأنفس: ١٥٨- ١٥٩، الحلّة السّيراء: ٢٦١/١

٢- شعر ابن هذيل القرطبي: ٢٦٦

أستاذه ابن هذيل فأنشده قصيدته التي يقول فيها في صفة الحمامة:

ومُرِنَّـــةٍ والدَّجْـــنُ ينســـجُ فوقَهَـــا بُـــرْدَيْنِ مِـــنْ طَـــلٍّ ونَـــوْءٍ بَـــاكِ
مالـــتْ عَلَـــى طَـــيِّ الجَنَـــاح وإنَّمَـــا جَعلـــتْ أريكتَهَـــا قَضِـــيْبَ أَرَاكِ
وتَرَنَّمَـــتْ لَحْنَيْـــنِ قـــدْ حَلّتْهُمَـــا بغنـــاءِ مُسْـــمِعَةٍ وأنّـــةِ شَـــاكِ
ففقـدتُ مـنْ نَفْسِـي لفَـرْطِ تَلَهُّفِـيْ نَفَـسَ الحيـاةِ وقلـتُ مَـنْ أَبْكَـاكِ

فحرّكه ذلك فعارضه بقصيدة يقول فيها في وصف الحمامة:

أحمامـــةً فـــوقَ الأَرَاكَـــةِ تَنْثَنِـــيْ بحيـــاةِ مَـــنْ أبكـــاكِ مَـــا أبكـــاكِ
أَمَّـا أَنَـا فبكيـتُ مِـنْ حُـرَقِ الهَـوَى وفِـرَاقِ مَـنْ أَهْـوَى أَأَنْـتِ كَـذَاكِ

فلمّا سمعها ابن هذيل قال: عارضتني، قلتُ: لا والله إلَّا ناقضتُك، فقال: اذهبْ فقد أخرجتُك من المكتب»[1].

ومن الطبيعة المصنوعة وصف المدن والمتنزهات والنواعير، كوصف ابن شخيص للزهراء:

هـذي مبـاني أمـيرِ المـؤمنينَ غَـدَتْ يُـزْرِي بِهَـا آخـرُ الـدنيا علـى الأُوَلِ
كَذَا الدَّرَارِي وَجَدْنَا الشمسَ أعظمَهَا قَـدْراً وإنْ قَصُـرتْ في العُلْـوِ عَـنْ زُحَـلِ
لقـدْ جَـلَا مَصْـنَعُ الزهـراءِ عَـنْ أَثَـرٍ مُوَحَّـدِ القَـدْرِ عَـنْ مِثْـلٍ وعَـنْ مَثَـلِ
فَاتَـتْ محاسـنُهَا مجهُـودَ واصِـفِهَا فـالقولُ كالسَّـكْتِ والإيجـازُ كالخَطَـلِ
بـلْ فضْـلُهَا في مَبَـاني الأَرْضِ أَجْمَعِهَـا كفضـلِ دَوْلـةِ بانِيْهَـا عَلَـى الـدُّوَلِ
كـادتْ قِسِـيُّ الحَنَايَـا أنْ تُضَـارِعَهَا أَهِلَّـةُ السَّـعْدِ لـولا وَصْـمَةُ الأَفَـلِ
تألَّفَـتْ فَغَـدَا نقصانُهَـا كَمَـلاً وربَّـمَا تَـنْقُصُ الأشـياءُ بالكَمَـلِ[2]

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣/١/٣٤٦- ٣٤٧- ٣٤٨، وشعر ابن هذيل: ٢٢٠- ٢٢١

٢- شعر ابن شخيص الأندلسي: ٧٩- ٨٠

ومن الأوصاف الصناعيّة المميزة في هذا القرن وصف السفائن والمراكب ومن ذلك قول الرمادي:

والسُّفْنُ قَدْ جَلَّلَهَا قَارُهَا ... كَأَنَّهَا أَعْرَاءُ حُبْشَانِ

كأَنَّهَا في دارِ مِضْمَارِهَا ... خَيْلٌ يُصَنَّعْنَ لِمَيْدَانِ

كأَنَّهَا والماءُ ميدانُهَا ... في الجَوِّ مُنْقَضَّةُ عِقْبَانِ

تَرَى المَقَاذِيْفَ بِأَحْنَائِهَا ... كأَنَّمَا ترمي بنيرانِ

لذاكَ تمشي مَشْيَ صَاحٍ فلوْ ... جاوزَ أمستْ شِبْهَ نَشْوَانِ

كَالأَعْيُنِ الحُوْرِ مَجَاذِيْفُهَا ... مِنْ حَوْلِهَا أَشْفَارُ أجفانِ

كأَنَّمَا أبراجُهَا فِي الوَغَى ... تَرْمِي مِنَ النِّفْطِ بِبُرْكَانِ[1]

أمّا خصائص شعر الطبيعة في هذا القرن فأهمّها:

١. الميل إلى الرقّة والألفاظ المأنوسة بشكل عامّ حتّى في البحور الواسعة كالطويل والبسيط ومن ذلك قول ابن هذيل[2]:

كأنَّ ليليَ مِمَّا طالَ جَانِبُهُ ... أَخَافَ صبحيَ حتَّى ضَلَّ أوْ هَرَبَا

كأنَّ صبحيَ يَخْشَى أَنْ يُؤَنِّبَهُ ... أَهْلُ الهَوَى فاختفَى باللَيلِ وانْتَقَبَا

٢. بداية ظهور فنّ المناظرات الشعريّة، ومن ذلك قول ابن شخيص في التفضيل بين الورد والآس في قطعة صغيرة له[3]:

أرادَ الوَرْدُ بالآسِ انْتِقَاصاً ... فَقَالَ لَه نَقِيْصَتُكَ المَلَالُ

فقالَ الوَرْدُ لَسْتُ أَزُوْرُ إلَّا ... على شَوْقٍ كَمَا زارَ الخَيَالُ

١- شعر الرمادي: ١٣١- ١٣٢

٢- شعر ابن هذيل القرطبي: ١٢٤

٣- شعر ابن شخيص الأندلسي: ٦٥

وأَنـــتَ تُدِيْـــمُ تَثْقِـــيلاً طَـــوِيلاً تَـــدُومُ بـــهِ كمَـــا رَسَـــتِ الجِبَـــالُ
فَتَسْـــأَمُكَ العيـــونُ لـــذاكَ بُغْضـــاً وتَرْقُبُنِـــي كَمَـــا رُقِـــبَ الهِـــلَالُ

ونرى هنا أنّ الورد هو الذي يتكلّم فقط، ولا يردّ الآس عليه، ولعلّ هناك سقطاً في الأبيات، أو لعلّ هذه القطعة البديهيّة هي من أوائل هذا الفنّ وبداياته غير المكتملة، فكان الحوار من جهة واحدة فحسب.

٣. بداية ظهور المعارضات والمناقضات ولاسيّما لقصائد زهريّة مشرقيّة كمعارضة عدد من الشعراء الأندلسيّين لتفضيل ابن الرومي السوسن على الورد في قوله[١]:

أيـــنَ العيـــونُ مِـــنَ الخـــدودِ نَفَاسَـــةً ورياســـةً لـــولا القِيَـــاسُ الفَاسِـــدُ

فقد عارضه أبو عثمان بن فرج الجيّاني بقصيدة على البحر والقافية والرويّ ذاته فقال:

عـــنّي إِلَيْـــكَ فَمَـــا القِيَـــاسُ الفَاسِـــدُ إِلَّا الـــذي أَدَّى العِيَـــانَ الشَّـــاهِدُ
أَزَعَمْـــتَ أَنَّ الـــوردَ مِـــنْ تفْضِـــيلِهِ خَجِـــلٌ وناجِلُـــهُ الفَضـــيلَةَ عَانِـــدُ
إِنْ كَـــانَ يَسْـــتَحْيِيْ لفَضْـــلِ جمالِـــهِ فَحَيـــاؤُهُ فِيْـــهِ جمـــالٌ زَائِـــدُ
والنَّرجِـــسُ المُصْفَـــرُّ أَعْظَـــمُ رَيْبَـــةً مِـــنْ أَنْ يَحُـــوْلَ عَلَيْـــهِ لَـــوْنٌ وَاجِـــدُ
لَبِـــسَ البَيَـــاضَ لِصُـــفْرةٍ في وجهِـــهِ صِـفَةً كما وُصِـفَ الحزينُ الفَاقِـدُ[٢]

وعارضه جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة:

الـــوَرْدُ أحســـنُ مَـــا رَأَتْ عينِـــيْ وأَزْ كَـــى مَـــا سَـــقَى مَـــاءُ السَّـــحابِ الجَائِـــدُ
خَضَـــعَتْ نـــواوِيرُ الرّيـــاضِ لِحُسْـــنِهِ فتـــذلَّلَتْ تنقـــادُ وَهْـــيَ شَـــوَارِدُ
وإِذَا تبـــدَّى الـــوردُ في أَغْصَـــانِهِ ذَلُّـــوا فَـــذَا مَيْـــتٌ وهَـــذَا حَاسِـــدُ
وإِذَا أَتَـــى وَفْـــدُ الرَّبِيْـــعِ مُبَشِّـــراً بطلـــوعِ صَفْحَتِـــهِ فَنِعْـــمَ الوَافِـــدُ
لـــيسَ المبشِّـــرُ كالمبشَّـــرِ بِاسْـــمِهِ خَبَـــرٌ عليـــه مـــن النبـــوَّةِ شـــاهِدُ

١- ديوان ابن الرومي:٣/٣٨٩

٢- البديع في فصل الربيع: ٧٥- ٧٦، جذوة المقتبس: ٢٢١

وإذا تعـــرَّى الـــوردُ مـــن أَوْراقِـــهِ بَقِيَـــتْ عَوَارِفُـــهُ فَهُـــنَّ خوالِـــدُ[1]

٤. تطويع الطبيعة للمديح فقد انتشرت في هذا القرن مقطوعات زهريّة موجّهة للمديح فتكون بلسان الزهر نفسه كما سلف ، أو بلسان الشاعر عنها كما في قول مبدعها عبد الملك بن إدريس الجزيري:

حَيَّتْـكَ يَـا قَمَـرَ العُـلا والمَجْلِـسِ أَزْكَـى تَحِيَّتِهَـا عيـونُ النَّرْجِـسِ
زَهْـراً تُرِيْـكَ بشـكلِهَا وبلونِـهَا زُهْـرَ النجـومِ الجَارِيَـاتِ الكُنَّـسِ
طَلَعَـتْ مَطَالِعُهَـا عَلَـى مُخْضَـرَّةٍ مِـنْ سُـوْقِها كُسِيَتْ بُـرُوْدَ السُّـنْدُسِ
فَتزيَّنَـتْ حُسْـناً أَتَمَّ تـزيُّنٍ وتنفَّسَـتْ طِيْبـاً أَلَـذَّ تَـنَفُّسِ
وَمَلَكْـنَ أَفْئِـدَةَ النَّـدامَى كلَّمَـا دَارَتْ بِمَجْلِسِـهِم مَـدَارَ الأَكْـؤُسِ
مِلْـكَ الهُمَـامِ العَـامِرِيِّ مُحَمَّـدٍ لِلْمَكْرُمَـاتِ وَلِلنُّهَـى وَالأَنْفُـسِ
لـبسَ الزمـانُ وأهلُـهُ مِـنْ عَهْـدِهِ وفِعالِـهِ المشـكورِ أَكْـرَمَ مَلْـبَسِ
فـإذَا ذَهَبْـتَ إلى الثنـاءِ فَقِفْـهُ مِـنْ بَـيْنِ الأَنَـامِ علـى عُـلَاهُ واحْـبِسِ[2]

٥. مزج الغزل بالطبيعة والامتزاج بها، ومشاركتها له في أفراحه وأتراحه، فمن النوع الأوّل قول سعيد بن فرج الجيّاني:

للـرَّوْضِ حُسْـنٌ فَقِـفْ عَلَيْـهِ واصْـرِفْ عِنَـانَ الهَـوَى إليْـهِ
أمَـا تَـرَى نَرْجسـاً نَضِـيراً يرنـو إلينـا بمُقْلَتَيْـه
نَشْـرُ حَبيـبي علـى رُبَـاهُ وصُـفْرتي فَـوْقَ وَجْنَتَيْـهِ
فَهْـوَ أَنَـا تَـارَةً وإِلْفِـيْ أُخْـرَى رَوَامـاً لِحَالَتَيْـهِ[3]

ومن أمثلة مشاركة الطبيعة لأحاسيس الشعراء، وهذا تطوّر كبير في مسار شعر الطبيعة، قول الشريف الطليق (ت نحو ٤٠٠هـ):

١- جذوة المقتبس: ١٨٦، مطمح الأنفس: ١٨٥ ونسبها لحفيده، الحلة السيراء: ٢٤٨

٢- شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي: ١٦٦

٣- جذوة المقتبس: ٢٢١، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤٦/٤- ٤٧

وَدَّعْـتُ مَـنْ أَهْـوَى أَصِـيْلاً لَيْتَنِـيْ ذُقْـتُ الحِمَـامَ ولَا أَذُوْقُ نَـوَاهُ
فَوَجَدْتُ حتَّى الشمسَ تَشكوْ وَجْدَهُ والـوُرْقُ تنـدبُ شـجوَهَا بِهَـوَاهُ
وعلـى الأصـائلِ رِقَّـةٌ مِـنْ بُعْـدِهِ فَكَأَنَّهَـا تَلْقَـى الَّـذي أَلْقَـاهُ
وغَـدَا النسـيمُ مبلِّغـاً مَـا بَيْنَنَـا فلـذاكَ رَقَّ هَـوًى وطَـابَ شَـذَاهُ
مـا الـروضُ قـدْ مُزِجَـتْ بِـهِ أَنْـدَاؤُهُ سَـحَراً بأَطْيَـبَ مِـنْ شَـذَا ذِكْـرَاهُ
والزَّهْـرُ مَبْسِـمُهُ ونَكْهَتُـهُ الصَّـبَا والـوردُ أخْضَـلَهُ النَّـدَى خَـدَّاهُ
فلـذاكَ أُوْلَـعُ بالريـاضِ لأَنَّهَـا أبـداً تُذَكِّرُنِـيْ بِـمَنْ أَهْـوَاهُ[1]

٦. ظهور مجالس اللهو والخمر من السرّ إلى العلن في أحضان الطبيعة، وقد سبق أن ذكرنا أنّ الركين من المواضع المخصصّة لذلك كما نصّ على ذلك ابن شخيص في شعره[2]، وهذا ابن درّاج يدعو إلى غزوة في مجال اللهو والطرب في معاقل الأزهار:

جَهِّـزْ لَنَـا في الأَرضِ غـزوةَ مُحْتَسِـبْ وانْـدُبْ إِلَيْهَـا مَـنْ يُسَـاعِدُ وانْتَـدِبْ
واحْمِـلْ علَى خيـلِ الهـوَى شِـيَمَ الصِّبَا واعقِـدْ لجـيشِ اللَّهْـوِ أَلْوِيَـةَ الطَّـرَبْ
واهْتِـفْ بأَجنـادِ السـرورِ وَقُـدْ بِهَـا نحـوَ الريـاضِ وأنـتَ أَكْـرَمُ مَـنْ رَكِـبْ
جَيْشـاً تكـونُ طبولُـهُ عِيدانَـهُ وقرونُـهُ النَّايَـاتِ تُسْـعِدُهَا القَصَـبْ
واهْـزُزْ رِماحـاً مِـنْ تباشـيرِ المُنَـى واسـلُلْ سـيوفاً مِـنْ مُعَتَّقَـةِ العِنَـبْ
وانْصِـبْ مَجَانِيْقـاً مِـنَ النِّـيَمِ الـتي أحجـارُهُنَّ مِـنَ الرَّوَاطِـمِ والنّخَـبْ
لمعاقـلٍ مـن سَوْسَـنٍ قـد شَـيَّدَتْ أيـدِي الربيـعِ بِنَاءَهَـا فـوقَ القُضُـبْ
شُرُفَاتُهَـا مِـنْ فِضَّـةٍ وحُمَاتُهَـا حـولَ الأميرِ لهـمْ سُيُوفٌ مِـنْ ذَهَـبْ[3]

ومن أمثلة مجالس اللهو الفرديّة في مجالي الطبيعة والامتزاج بها قول الشريف الطُّلَيْق

١- شعر الشريف الطليق: ٧٧

٢- الروض المعطار في خبر الأقطار: ٥٤٨، شعر ابن شخيص الأندلسي: ٨٥.

٣- ديوان ابن درّاج القسطلّي: ٣٠- ٣١

المرواني:

رُبَّ يـــومٍ قـــدْ ظـــلَّ فيـــهِ نـــديمي ... يتغـــــنَّى بروضـــــةٍ غَنَّـــــاءَ

وكـــأَنَّ الريـــاضَ حُسْـــناً حبيـــبٌ ... عـــاطرٌ ســـامهُ المُحِـــبُّ لقـــاءَ

ضَرَبَـــتْ سُـــحْبُهُ رُوَاقـــاً علينَـــا ... وارتـــــديْنَا مِـــــنَ الغمـــــامِ رِدَاءَ

قـــدْ تحلَّـــى بزهـــرِهِ وتبـــدَّى ... مـــــاثِلاً في غلالـــــةٍ خضـــــراءَ

فأَرَتْنَـــا الريـــاضُ مِنْهَـــا نجومـــاً ... وأَرَانَـــا سَـــنَا العُقَـــار ذُكَـــاءَ

فكأَنَّـــا بِهَـــا شـــرِبْنَا سَـــنَاهَا ... وحللْنَـــا بِمَـــا حللْنَـــا الســـماءَ[1]

٧. التشخيص والتجسيد: تستحيل الطبيعة في وصف هؤلاء الشعراء إلى كائن بشري بما فيه من أعضاء وأفعال، وتغرق أحياناً فتعبّر عن النواحي النفسيّة الداخليّة كقول ابن هذيل:

هبّـــتْ لنـــا ريـــحُ الصَّـــبَا فتعانقـــتْ ... فـــذكرتُ جِيْـــدَكِ في العنـــاقِ وجِيْـــدِي

وإذا تـــــألّفَ في أعاليهَـــــا النـــــدَى ... مالـــــتْ بأعنـــــاقٍ ولطـــــفِ قـــــدودِ

وإذا التقـــتْ بـــالريحِ لَـــمْ تُبْصِـــرْ بِـــهَا ... إلَّا خـــــــدوداً تلتقِـــــي بخـــــدودِ

فكـــأنَّ عُـــذْرَةَ بينهَـــا تحكـــيْ لَنَـــا ... صِـــفَةَ الخضـــوعِ وحالـــةَ المَعْمُـــودِ[2]

٨. صنع صور جديدة للموضوعات الشعريّة الطبيعيّة القديمة المغرقة في القدم كوصف الصحراء والرحلة فيها، فهي في الأكثر لم تعد سوى تقليد شعريّ، ينظرون إليه نظرة ذي علق، ويحاولون صنع صور جديدة له كقول ابن هذيل [3]:

ومطَّـــرِدِ الأعـــلامِ خـــالٍ ســـرابُهُ ... علـــى الأَمْعَـــزِ العَـــاري بُـــرُوْدٌ تُنَشَّـــرُ

كـــأنَّ روابيْـــهِ إذا اتّـــزَرَتْ بِـــهِ ... رجـــالٌ ببِـــيْضِ الـــرَّيْطِ ظُهْـــراً تَـــأَزَّرُوا

١- شعر الشريف الطليق: ٨١- ٨٢

٢- شعر ابن هذيل القرطبي: ١٤٦

٣- المصدر نفسه: ١٥٧

وصف الطبيعة في القرن الخامس الهجري:

يشمل القرن الخامس الهجري في الأندلس عهد الفتنة وزوال الخلافة الأمويّة الأندلسيّة وتحوّلها إلى دويلات لملوك الطوائف، ثمّ تلاشيها في بداية عهد المرابطين.

وقد وصلت إلينا في هذا القرن دواوين شعريّة تعتمد على أصول شعريّة مخطوطة، وظهرت-كذلك – مجاميع شعريّة لبعض الشعراء جمعت من بطون أمّهات الكتب التراثيّة. كما وصل إلينا كتاب فريد من نوعه خاصّ بالطبيعة الأندلسيّة وبالشعراء الأندلسيّين اسمه "البديع في فصل الربيع" للوزير أبي الوليد إسماعيل الحميري المعروف بحبيب، وجعله في ثلاثة فصول: الأوّل: في القطع في وصف الربيع عامّة، والفصل الثاني: في القطع التي اشتملت على نوعين وأكثر من الأزهار، والفصل الثالث: في القطع المنفردة بنوع خاصّ من الزهر، كالورد أو السوسن أو الياسمين....

خصائص شعر الطبيعة في هذا القرن:

١. استبحار وصف الطبيعة في شعر الأندلسيّين ولا سيّما في عصر الطوائف فقد استشرى الترف واللهو في كثير من قصور ملوك هذه الدويلات الصغيرة منها والكبيرة، وشارك بعض الملوك والوزراء في وصف الطبيعة حتّى في أكبرها قاطبة وهي دويلة بني عبّاد، فقد كان المُعْتَضِد ومن بعده المُعْتَمِد يشاركان في النظم فيها كقول المعتضد بن عبّاد في الياسمين:

كأنَّمَـــا يَاسَـــمِيْنُنَا الغَـــضُّ كَوَاكِـــبٌ في السَّـــمَاءِ تَبْـــيَضُّ

والطُّـــرُقُ الحُمْـــرُ في جَوانِبِـــه كَخَـــدِّ عَـــذْرَاءَ نَالَـــهُ عَـــضُّ[1]

واهتمّوا بعناصر الطبيعة الأندلسيّة بشكل عامّ ، مهملين ما يتعلّق بالبيئة البدويّة من صحارى وبوادٍ وجمال وما يتبعها، بل وصل الأمر إلى استبعاد أشعار المشارقة في وصف الطبيعة والاقتصار على شعر الأندلسيّين قال حبيب الحميري «ولست أودعه إلّا ما أذكره لأهل الأندلس خاصّة في هذا المعنى، إذ أوصافهم لم تتكرّر على الأسماع، ولا

١– شعر المعتضد: ٤٠١ ، البديع في فصل الربيع: ٩٧

كثر امتزاجها بالطباع، فتردها شيّقة، وترودها تيّقة»[1].

٢. توسّع المعارضات الشعريّة حيث يقوم شاعر بوصف عنصر طبيعي فيقوم عدد من الشعراء بوصف هذا العنصر على الوزن نفسه والقافية نفسها، فقد نظم الفقيه أبو الحسن الأستجي قصيدة ضاديّة في الزهر ووجّهها لمديح المعتضد قال فيها:

كأنّمَا الرَّوْضُ لَمَّا وَشَّتْ يَدُ المُزْنِ أَرْضَهْ
بكلِّ حمراءَ صِرْفٍ وكلِّ بيضاءَ بَضَّهْ
كواكبٌ في سَمَاءٍ مِنَ الزَّبَرْجَدِ مَحْضَهْ

فلما بلغت القصيدة أبا الوليد الحميري صاحب كتاب البديع عارضها بقصيدة في معناها وعروضها ورويّها:

انظُرْ إلى النهرِ واعْجَبْ لِحُسْن مَرْآهُ وارْضَهْ

فأنشدها للقاضي إسماعيل بن عبّاد صاحب الإمارة العبّاديّة فأمر باستحضار كلّ من الشعراء: ابن القوطيّة وابن الأبّار الإشبيلي وابن نصر وطلب منهم أن يصنعوا شعراً في معناه وقافيته فقال أبو بكر ابن القوطيّة:

بشاطئِ الوادي نَهْرٌ كَسَا الدَّرَانِكُ أَرْضَهْ

وصنع ابن الأبّار قصيدة مطلعها:

لا تُرْضَ للَّحْظِ غَضَّهْ والْمَحْ مِنَ النَّوْرِ غَضَّهْ

وقال أبو بكر بن نَصْر:

أمَا تَرَى الأرْضَ خَضْرَا ءَ بالأَزَاهِرِ غَضَّهْ

ثمّ إنّ الوزير الكاتب أبا الأصبغ بن عبد العزيز علم بذلك فصنع شعراً على هيئتها في المعنى والعروض والقافية نفسها:

١- البديع في فصل الربيع: ٣.

يَـــا مَـــنْ تَأَمَّـــلَ رَوْضـــاً بِـــهِ النَّـــوَاوِيْرُ غَضَّـــهْ

ثمّ يقوم القاضي إسماعيل بن عبّاد فيملي على كاتبه بديهة:

أبْلِـــغْ شَـــقِيْقِيَ عَنِّـــي مَقَالَـــةً لِتُمِضَّـــهْ[1]

٣. المشاركة الوجدانيّة للطبيعة معهم، فلم تعد الطبيعة عناصر جامدة توصف من بعد، بل تغدو عناصر فعّالة تشارك الشاعر في أفراحه وأتراحه، ومشهورة قصيدة ابن زيدون القافيّة التي يقول فيها[2]:

إنِّي ذَكَرْتُـــكِ بـــالزَّهْراءِ مُشْـــتاقًا وَالأُفْـقُ طَلْـقٌ ووجـه الأَرْضِ قَـدْ رَاقـا

وَلِلنَّسِـــيْمِ اعْـــتِلالٌ في أصـــائِلِهِ كَأنَّـــهُ رَقَّ لي فَاعْتَـــلَّ إِشْـــفَاقا

والـرَّوْضُ عَـنْ مَائِـهِ الفِضِّـيِّ مُبْتَسِـمٌ كَمَـا شَـقَقْتَ عَـنِ اللَّبَّـاتِ أَطْوَاقـا

نَلْهُـوْ بِمَـا يَسْـتَمِيلُ العَـيْنَ مِـنْ زَهَـرٍ جَـالَ النَّـدَى فيـهِ حـتَّى مـالَ أَعْنَاقـا

كَـــأنَّ أَعْيُنَـــهُ إِذْ عايَنَـــتْ أَرَقِـــي بَكَـــتْ لِمَـا بِي فَجَـالَ الـدَّمْعُ رَقْرَاقـا

وَرْدٌ تَأَلَّـــقَ في ضـــاحِيْ مَنَابِتِـــهِ فـازْدادَ منـهُ الضُّـحَى في العَـيْنِ إِشْـرَاقا

سَـــرَى يُنَافِحُـــهُ نَيْلُـــوفَرٌ عَبِـــقٌ وَسْـنَانُ نَبَّـهَ مِنْـهُ الصُّـبْحُ أَحْـدَاقا

كُـــلٌّ يَهِـــيجُ لَنَـــا ذِكْـــرَى تَشَـــوُّقِنَا إِلَيْـكِ لَمْ يَعْـدُ عَنْهَـا الصَّـدْرُ أَنْ ضَـاقا

لا سَـــكَّنَ اللهُ قَلْبـــاً عَـــقَّ ذِكْـــرَكُمُ فَلَـــمْ يَطِـــرْ بِجَنـــاحِ الشَّـــوْقِ خَفَّاقـا

لَـوْ شَـاءَ حَمْلي نَسِـيمُ الرِّيحِ حِينَ سَرَى وَافـــاكُمُ بِفَـــتًى أَضْـــناهُ مَـــا لَاقَـــى

٤. جعل وصف الطبيعة مقدّمة لقصائد المديح بدل الغزل والنسيب كقول ابن الأبّار الإشبيلي[3] (ت ٦٣٣هـ):

لَـــبِسَ الرّبيـــعُ الطَّلّـــق بُـــرْدَ شـــبابِهِ وافْتَـــرَّ عَـــنْ عُتبـــاهُ بعـــدَ عِتابِـــهِ

١- البديع في فصل الربيع: ٤٦- ٥٣

٢- ديوان ابن زيدون: ١٧١- ١٧٢

٣- البديع في فصل الربيع: ٢٧- ٢٨

مَلِـكُ الفصـولِ حَبَـا الثّـرَى بثرائِـهِ مُتبرّجـاً لِوِهَـادِهِ وهِضَـابِهِ
فـأراكَ بـالأنوارِ وَشْـيَ بُـرُوْدِهِ وأراكَ بالأشـجارِ خُضْـرَ قِبَابِـهِ
أمسَـى يُـذَهِّبُهَا بشـمسِ أصـيلِهِ وغـدَا يُفضِّضُـهَا بـدمعِ جِنابِـهِ
عقـلَ العقـولَ فمَـا تكَيّـفَ حسـنُهُ وثَنَـى العيـونَ جنائبـاً بجنابِـهِ
بالحاجـبِ المـأمولِ أضـحكَ ثغـرَهُ فَرَحـاً وأُنطِـقَ جَهْرُنَـا بِصَـوَابِهِ
بعمـادِ هـذا الـدينِ والمَـلِكِ الـذي تتبـادَرُ الأَمْـلَاكُ لَثْـمَ رِكَابِـهِ
هـزَّ الصِّعَـاد فَأُرْعِـدَتْ مِـنْ خوفِـهِ وعَـلا الجيـادَ فأصـبحتْ تُزْهَـى بِـهِ

٥. كثـرة القطـع المفـردة الخاصّـة بـه علـى خـلاف مـا ذكـر بعـض الدارسـين المحـدثين غيرالمختصّين، بل إنّ أكثر هذا الشعر في هذا القرن هو قطع تميل إلى القصر وتكثر من التشخيص بالاعتماد على الاستعارة لما لها من أثر كبير في بعث الحياة في الموات، وتحريك الجماد، حتّى ليشعر القارئ لشعر الطبيعة في هذا القرن وما يليه أنّها تعج حياة وحركة وتنبض مشاعر وأحاسيس كقول ابن القوطيّة:

قـدْ أخـذَ الأُفْـقُ في البُكَـاءِ واغْرَوْرَقَـتْ مُقْلَـةُ السـماءِ
فـالأرضُ إنْ أظهـرتْ جَفَـاءً أرسـلَ عينيـهِ بالبكـاءِ
كأنَّـهُ عاشـقٌ مَشُـوْقٌ يَشْـكُو هـواهُ إلى الهـواءِ
مُرجِّيـاً أنْ يَلِـيْنَ منهَـا مَـا أظهرتْـهُ مِـنَ الجفـاءِ
حـتَّى إذَا راضَـهَا سَـفيراً صَـدَّتْ بوَجْـهٍ مِـنَ الحيـاءِ
وانتقبـتْ بالنبـاتِ عنـهُ والتحفـتْ منـهُ فِي رداءِ[1]

٦. الولع بإبداع الصور الجديدة والإغراق في الخيال وكثرة الارتجال والنظم على البديهة مع الميل إلى السهولة والرقّة كقول إدريس بن اليمان اليابسي:

طرقَتْنِـيْ والدُّجَـى لَبِسَـتْ خِلَعَـاً مِـنْ جِلْـدَةِ الحَنَـشِ

١- شعر ابن القوطيّة: ٩١

وكـــأنَّ النَّجْـــمَ حِـــيْنَ بَـــدَا دِرْهَـــمٌ في كَـــفِّ مُرْتَعِـــشِ[1]

٧. شيوع ظاهرة مجالس اللهو في أحضان الطبيعة المبهجة بين خاصّة الناس وعامّتهم ومنها مجالس ليليّة ومجالس نهاريّة، ويمتزج فيها وصف الطبيعة غالباً بالغزل والخمرة كقول ابن عمّار (ت ٤٧٧هـ):

أَدِرِ الزُّجاجَـةَ فالنَّسِـيمُ قـدِ انْبَـرَى والـنجمُ قـدْ صَـرَفَ العِنَـانَ عَـنِ السُّـرَى
والصـبحُ قـدْ أهـدَى لَنَـا كَـافُوْرَهُ لَمَّـا اسـتردَّ الليـلُ منَّـا العَنْبَـرَا
والـروضُ كالحَسْـنَا كسـاهُ زَهْـرُهُ وَشْـياً وقَلَّـدَهُ نَـدَاهُ جـوهَرَا
أوْ كـالغلامِ زَهَـا بـوَرْدِ رِيَاضِـهِ خَجَـلاً وتَـاهَ بِآسِـهِنَّ مُعَـذِّرا
روضٌ كـأنَّ النهـرَ فيـهِ مِعْصَـمٌ صَـافٍ أطـلَّ علـى رداءٍ أَخْضَـرَا[2]

وصف الطبيعة في القسم الأوّل من القرن السادس:

أي في عصر المرابطين من (٤٨٤- ٥٤٢هـ)، وهو الشطر الثاني من المرحلة التي سمّيناها مرحلة تبدّر الأندلسيّة في الشعر الأندلسي، وليس صحيحاً أنّ الشعر الأندلسي قد تراجع مستواه في عصر المرابطين كما ذكر بعض المستشرقين بل على العكس تماماً، فإنّه قد وصل إلى أعلى ذراه، وبلغ أوجه، واعتلى قمّته، وإن كنّا لا ننكر أنّ المراحل الأولى من قيام دولة المرابطين لم يكن للشعر حيّز كاف من اهتمام المرابطين لانشغالهم بالجهاد وتحرير مدائن الأندلس، وهذا أمر طبيعيّ بديهيّ ، لذلك فإنّ شعر الطبيعة فاح عطر زهره، وحان نضج ثمره في هذا العصر ولا سيّما لدى ابن خفاجة الذي أكثر من وصف الطبيعة، وأبدع فيها حتّى صار شاعر الطبيعة الأوّل في الشعر العربيّ كلّه[3].

وتتّسع ظاهرة تعلّق الشعراء بمدائنهم بشكل واسع، فهذا الفتح ابن خاقان صاحب

١- شعر إدريس بن اليمان اليابسي: ١٨٠

٢- شعر ابن عمّار: ١٨٩

٣- انظر بحث وصف الطبيعة في ترجمة ابن خفاجة ص ٤٩٦من هذا الكتاب.

"قلائد العقيان" و "مطمح الأنفس" يقول في إشبيليّة، واسمها حِمْص عندهم لنزول أجناد حمص الشام من الفاتحين فيها:

سَقَى أَرْضَ حِمْصٍ بالأَصِيلِ وبالضُّحَى ... سحابٌ كدمعي يَسْتَهِلّ ويَسْجُمُ

ومُدَّتْ بها للروضِ أبرادُ سُنْدُسٍ ... تطرِّزُهَا كَفُّ الغمامِ وتَرْقُمُ[1]

ونمت في هذا العصر ظاهرة التمليط في مجال وصف الطبيعة، والتمليط كما يقول ابن ظافر: «أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريد أفكارهم وتجريب خواطرهم في العمل في معنى واحد»[2].

وذكر ابن ظافر قال: «اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والأستاذ أبو العبّاس ابن سارة في يوم جلا ذهب برقه، وأذاب ورقَ ودقه، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء، واهتزّت وربت عند نزول الماء، فترافدا في صفتها، فقال ابن سارة:

هذِي البسيطةُ كاعبٌ أبرادُها ... حللُ الربيعِ وحليُهَا النَّوَّارُ

فقال ابن القبطرنة:

وكأنَّ هذَا الجوَّ فيها عاشقٌ ... قَدْ شفَّه التعذيبُ والإضرارُ

فقال ابن سارة:

فإذَا شكَا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ ... وإذا بكَى فدموعُهُ الأمطارُ

فقال ابن القبطرنة:

مِن أجلِ ذلَّةِ ذا وعزَّةِ هذهِ ... يبكِي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ»[3]

ويظلّ الإبداع الهاجس الأوّل لشعراء هذا القرن ويظلّ التجديد ديدنهم حتّى في الصور المعروفة والمشهورة كقول ابن الزقّاق:

١- المغرب في حلى المغرب: ٢٦٠/١

٢- بدائع البدائه: ١٦٧

٣- المصدر نفسه: ١٩٦

وريـــاضٍ مِـــنَ الشـــقائقِ أضْـــحَتْ يتهـــادَى فيهـــا نســـيمُ الريـــاحِ
زرتُهـــا والغمـــامُ يجلـــدُ منهـــا زَهَـــرَاتٍ تـــروقُ لـــونَ الـــراحِ
فقلـــتُ مـــا ذنْبُهَـــا فقـــالَ مجيبـــاً سَـــرَقَتْ خُمْـــرَةَ الخـــدودِ المـــلاحِ[1]

وصف الطبيعة في النصف الثاني من القرن السادس والقرن السابع:

ولدينا في هذا العصر دواوين ومجموعات شعريّة كثيرة لعدد من شعراء الموحّدين، ومع أنّنا وصفنا أشعار هذا العصر بأنها تقع في نطاق تراجع تبدّر الأندلسيّة وانتقاصها، فإنّ شعر الطبيعة فيها هو أجود ذلك الشعر، وهو من أهمّ الموضوعات التي تنسّم فيها الشعراء عبق الحرّية والذاتيّة، وظهرت فيها بدائعهم وحلّقت قرائحهم في سماء الإبداع كقول ابن مرج الكحل في مجلس أنس ليلي على النهر في قصيدة[2]:

عَـــرِّجْ بِمُنْعَـــرَجِ الكَثِيْـــبِ الأعْفَـــرِ بَـــيْنَ الفُـــرَاتِ وبَـــيْنَ شَـــطِّ الكَـــوْثَرِ
وَلْتَغْتَبِقْهَـــــا قَهْـــــوَةً ذَهَبِيَّـــــةً مِـــنْ راحـــتَيْ أَحْـــوَى المَرَاشِـــفِ أحْـــوَرِ
وَعَشِـــيَّةٍ كـــمْ كنـــتُ أَرْقُـــبُ وَقْتَهَـــا سَـــمَحَتْ بِهَـــا الأيّـــامُ بَعْـــدَ تَعَـــذُّرِ
نِلْنَـــا بِهَـــا آمَالَنَـــا في رَوْضَـــةٍ تُهْـــدِي لِنَاشِـــقِهَا نســـيمَ العَنْـــبَرِ
والدَّهْـــرُ مِـــنْ نَـــدَمٍ يسَـــفّهُ رَأْيَـــهُ في مـــا مضـــى مِنـــهُ بِغَـــيْرِ تَكَـــدُّرِ
والـــوُرْقُ تَشْـــدُو والأَرَاكَـــةُ تَنْثَـــنِي والشَّـــمْسُ تَرْفُـــلُ في قَمِـــيصٍ أَصْـــفَرِ
والـــرَّوْضُ بَـــيْنَ مُـــذَهَّبٍ ومُفَضَّـــضٍ والزَّهْـــرُ بـــين مُـــدَرْهَمٍ ومُدَنَّـــرِ
والنَّهْـــرُ مَرْقُـــومُ الأبَـــاطحِ والرُّبَـــا بِمُصَنْـــدَلٍ مِـــنْ زهْـــرِهِ ومُعَصْـــفَرِ
وكأنَّـــهُ وكَـــأَنَّ خُضْـــرَةَ شَـــطِّهِ سَـــيْفٌ يُسَـــلُّ علـــى بِسَـــاطٍ أخْضَـــرِ
وكأنَّمـــا ذَاكَ الحَبَـــابَ فِرِنْـــدُهُ مَهْمَـــا طَفَـــا في صَـــفْحِهِ كَالجَوْهَـــرِ

١- ديوان ابن الزقّاق البلنسي: ١٢٥

٢- شعر ابن مرج الكحل: ١١٩- ١٢٠

وَكَأَنَّـــــهُ وَجِهَاتُـــــهُ مَحْفُوْفَـــــةٌ بـــالآسِ والنُّعْمَـــانِ خَـــدُّ مُعَـــذَّرِ
نَهْـرٌ يَهِـيْمُ بِحُسْنِـهِ مَـنْ لَـمْ يَهِـمْ وَيُجِيـدُ فيـهِ الشِّـعْرَ مَـنْ لم يَشْـعُرِ
مَـا اصْـفَرَّ وَجْـهُ الشَّـمْسِ عنـدَ غُروبِـهَا إِلَّا لِفُرقَـــةِ حُسْـــنِ ذاكَ المَنْظَـــرِ

وممّا اشتهر في هذا العصر وصف الجبل في قصيدة الرصافي البلنسي الذي مدح أمير الموحّدين عبد المؤمن بن علي حين نزولـه بجبل الفتـح:

للهِ مـا جَبَـلُ الفَتْحَـيْنِ مِـنْ جَبَـلٍ مُعَظَّـمِ القَـدْرِ في الأجبـالِ مَـذْكُورِ
مِـنْ شامخِ الأنـفِ في سَـحْنَائِهِ طَلَـسٌ لَـهُ مِـنَ الغـيمِ جَيْـبٌ غَيْـرُ مَـزْرُورِ
مُعَـــبَّراً بـــذَرَاهُ عـــن ذَرىَ مَلِـــكٍ مُسْـتَمْطَرِ الكـفِّ والأكْنـافِ مِمْطـورِ
تُمْسِـي النجـومُ علـى إكليـلِ مَفْرِقِـهِ في الجـوِّ حائمـةً مثـلَ الـدَّنانيرِ
وربَّمَـا مَسَـحَتْهُ مِـنْ ذَوَائِبِهـا بكـلِّ فضـلٍ علـى فَوْدَيْـه مَجْـرُورِ
وأدْرَدٍ مِـنْ ثنايـاهُ بِمَـا أَخَـذَتْ منـهُ معـاجمُ أعْـوَادِ الـدَّهَارِيرِ
مُحَنَّـكٌ حَلَـبَ الأَيَّـامَ أَشْـطُرَهَا وسـاقَهَا سَـوْقَ حـادي العِـيْرِ للعِـيْرِ
مُقَيَّـدُ الخَطْـوِ جَـوَّالُ الخـواطرِ فِيْ عجيـبِ أمْرَيْـهِ مِـنْ مـاضٍ ومَنْظُـورِ
قـدْ وَاصـلَ الصمتَ والإطـراقَ مُفْتَكِـراً بَـادِي السَّـكينةِ مُغْفَـرّ الأَسَـارِيرِ
كأَنَّـــهُ مُكْمَـــدٌ ممّـــا تَعَبَّـــدَهُ خَـوْفُ الوعيـدينِ مـن دكٍّ وتَسْـيِيْرِ[1]

ومن الموضوعات الجديدة والغريبة في هذا العصر الرحلات البحريّة لصيد السمك قال أبو بحر صفوان بن إدريس[2]:

وَفِتْيَـــانٍ كَمَـــا انْتُقِيَـــتْ لآلٍ يَلُـــوحُ الـــدَّهْرُ مِـــنْهُمْ في حُـــلَاهُ
أَلِفْـــتُهُمُ بِلَيْـــلٍ قَـــدْ تَجَلَّـــتْ بـــأَوْجُهِهِمْ وَأَكْؤُسِـــهِمْ دُجَـــاهُ
علـــى حَبَشِـــيَّةٍ بَلْقَـــاءَ خَاضَـــتْ عُبَـــابَ البَحْـــرِ واقْتَعَـــدَتْ مَطَـــاهُ

١- شعر الرصافي البلنسي: ٨٢-٨٣

٢- شعر أبي بحر التجيبي: ١٣٠، وله رسالة في المفاخرة بين بلدان الأندلس وللطبيعة فيها حيّز واسع: انظر: ٢٠٦- ٢٠٧

كَـــأَنّ شِـــرَاعَهَا شَـــيْبٌ بِفَـــوْدَيْ نَجَاشِـــــيٍّ تَثُـــــورُ ذُؤَابَتَـــــاهُ

وَبَحْـــرٍ كَالسَّـــمَاءِ لَـــهُ حَبَـــابٌ لَهَـــا بِكَوَاكِـــبِ الأُفْـــقِ اشْـــتِبَاهُ

تَبَـــــدَّتْ فِي دُرَا الأَمْـــــوَاجِ دُرّاً كَمِثْـــلِ الزَّهْـــرِ تَحْمِلُـــهُ رُبَـــاهُ

فَطَارَدْنَـــا هُنَـــاكَ الحُـــوتَ صَـــيْداً بِكَيْـــدٍ نَسْـــتَبِيحُ بـــهِ حِمَـــاهُ

نُرِيـــهِ أَنَّنَـــا نَقْرِيْـــهِ بِـــرّاً فَنَأْكُلُـــهُ وَلَمْ يَأْكُـــلْ قِـــرَاهُ

كَـــأَنَّ المَـــوْجَ لمّـــا أَنْ فَرَغْنَـــا هُنَـــالِكُ فِي تَصَـــيّدِنا ذُرَاهُ

جِبَـــالُ زُمُـــرُّد والحُـــوتُ فِيهَـــا سَـــبَائِكُ كاللُّجَيْـــنِ لِمَـــنْ يَـــرَاهُ

رَآنَـــا البَحْـــرُ نَـــرْزَؤُهُ بَنِيْـــهِ فَضَعْضَـــعَ مِـــنْ مُنَانَـــا مَـــا بَنَـــاهُ

وَهَبَّـــتْ رِيحُـــهُ فِيْنَـــا زَفِـــيراً فَكَـــادَتْ تَلْتَظِـــي مِنْـــهُ المِيَـــاهُ

وَكَـــادَ يَرُدُّنَـــا للأَصْـــلِ مِنَّـــا لأَنَّ الـــدُّرَّ مَوْطِنُهَـــا حَشَـــاهُ

فَطِرْنَـــا والـــدُّعَاءُ لَنَـــا جَنَـــاحٌ وَبَعْـــدَ اليَـــأْسِ أَفْلَتَنَـــا رَدَاهُ

وكما ابتدأ الأندلسيّون بمقدّمات طبيعيّة في مدحهم فإنّهم ينتقلون إلى غرضهم الأساسي بوساطة الطبيعة كقصيدة أبي البقاء الرندي التي مطلعها:

سَـلِّمْ علـى الحـيِّ بـذاتِ العَـرَارْ وحَـيِّ مـنْ أجـلِ الحبيـبِ الدِّيَـارْ

إذ يربط قسم الغزل بقسم المديح بوصف الطبيعة أو يجعلها جسراً واسعاً يعبر فيه إلى غرضه:

ولَيْلَـــةٍ نَبَّهْـــتُ أجفانَهَـــا والفجـرُ قـدْ فجّـرَ نهـرَ النّهـارْ

والليـلُ كـالمهزوم يـوم الـوَغَى والشُّـهبُ مثـلُ الشُّـهبِ عنـدَ الفِـرَارْ

كأنَّمَـا اسـتخفى السُّـها خيفَـةً وطولـبَ الـنجمُ بثـارٍ فثـارْ

لـذاكَ مـا شـابتْ نواصـي الـدُّجى وطَـارَحَ النسـرُ أخـاهُ فطـارْ

وفي الثريّـــــا قمـــــرٌ ســـــافرٌ عـــنْ غـــرّةٍ غَيَّـــرَ مِنْهَـــا السِّـــفَارْ
كـــأنَّ عنقـــوداً تَثَـــنَّى بِـــهِ إذْ صـــارَ كـــالعُرْجُوْنِ عنـــدِ السِّـــرَارْ
كأنَّهـــا تَسْـــبُكُ دينـــارَهُ وكفُّهَـــا يفتـــلُ منـــهُ السِّـــوَارْ
كأنَّمـــا الظلمـــاءُ مَظلومـــةٌ تَحَكَّـــمَ الفجـــرُ عليهَـــا فَجَـــارْ
كأنَّمـــا الصـــبحُ لِمُشْـــتَاقِهِ عِـــزٌّ غِـــنًى مِـــنْ بَعْـــدِ ذُلٍّ افتقـــارْ
كأنَّمـــا الشـــمسُ وقَـــدْ أشـــرقتْ وَجْـــهُ أبي عبيـــدِ الإلـــهِ اسْـــتَنَارْ[1]

كما برزت ظاهرة معارضة الأندلسيّين لقصائد الأندلسيّين الشهيرة فقد عارض حازم القرطاجنّي الأديب الناقد الشهير قصيدة ابن عمّار الشهيرة السالفة الذكر في قوله:

أَدِرِ الزُّجَاجَـــةَ فالنَّسِـــيْمُ مُـــؤَرَّجُ والـــرُّوضُ مَرقـــومُ الـــبُرودِ مُـــدَبَّجُ
والأرضُ لابســـةٌ بُـــرُوْدَ مَحَاسِـــنٍ فكأَنَّـــما هِـــيَ كَاعِـــبٌ تَتَـــبرَّجُ
والنَّهـــرُ لمَّـــا ارتـــاحَ مَعْطِفُـــه إلى لُقْيَـــا الريـــاحِ عُبَابُـــهُ مُتَمَـــوِّجُ
يُمْسِـــي الأصـــيلُ بِعَسْـــجَدِيِّ شـــعاعِهِ أَبَـــداً يُوَشِّـــي صـــفحةً ويُـــدَبِّجُ
وتـروهُ أيـدِي الـريحِ تسلبُ مَـا اكتَسَى فتزيـدَهُ حُسْـناً بِـمَا هِـيَ تَنْسِـجُ[2]

من كلّ هذا نجد أن شعر الطبيعة بما يتّصل به من أغراض ذاتيّة ظلّ محتفظاً بنضارته أكثر من غيره من الأغراض الشعريّة في هذا العصر.

وصف الطبيعة في القرن الثامن:

ضعف الشعر في عصر بني نصر، وضعف شعر الطبيعة فيما ضعف من أغراض الشعر فيه، وقد اتّسم بأنّ أغلب أصحابه كانوا من العلماء والمؤلّفين، ممّا وسم شعرهم بهذه الصفة أي إنّه من شعر العلماء، وهو أقلّ حتماً من شعر الشعراء المطبوعين، وقد

١- أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس: ١٢٠- ١٢١.
٢- شعر حازم القرطاجنّي: ٢٨

عرف ذلك كبير الشعراء وعلم الأدباء في القرن الثامن الهجري وهو لسان الدين ابن الخطيب فسمّى ديوانه الذي جمعه بنفسه" الصيّب والجهام والماضي والكهام"، أي إنّ شعره يجمع بين الجيّد الرائع والضعيف الرديء الخاوي.

وبشكل عام ظلّ شعر هذا القرن دون سابقه جودة وخيالاً، وإن سعى بعض كبار الشعراء فيه كابن خاتمة وابن الخطيب وابن زمرك للإجادة والإبداع، فكان شعر الطبيعة من أهمّ النوافذ التي نفذت إليها أشعّة الإبداع والاختراع لديهم.

ومن الموضوعات الجديدة في هذا العصر حديث ابن خاتمة عن الفصول وتفضيل الشتاء عليها:

جَـــاءَ الشِّـــتَاءُ بِغَيْمِـــهِ مُتَحَجِّبَـــا ... أَهْـــلاً بِسُـــلْطانِ الفُصُـــولِ ومَرْحَبَـــا
أَعْظِـــمْ بِـــهِ مَلِكـــاً عَلَيْـــهِ مَهابَـــةٌ ... عَمَّـــتْ كتائِبُـــهُ الأَبَـــاطِحَ والرُّبَـــا
فَصْـــلٌ تَـــوَزَّعَ كُـــلُّ فَصْـــلٍ فَضْـــلَهُ ... فَنَمـــا وآنَـــقَ حُسْـــنُهُ أو أَخْصَبَـــا
فـــإذا الرَّبيـــعُ تَبَرَّجـــتْ أنـــوارُهُ ... وتأَرَّجَـــتْ أســـحارُهُ وَتَطَيَّبَـــا
وجَلَا حُلَى الزَّهْـرِ النَّضِيـرِ مُدَبَّجاً ... ومُدَمْلَجـــاً ومُفَضَّضـــاً ومُذَهَّبَـــا
فَـــتَرَى انْفِتَـــاحَ الـــوَرْدِ خَـــدَّاً أَحمـــراً ... وتَـــرَى ابتِســـامَ الزَّهْـــرِ ثَغْـــراً أَشْنَبَـــا

...

وأَتـــى المَصِيْـــفُ بِـــإِثْرِهِ مُتَقَـــيِّلاً ... آثـــارَهُ في الفَصْـــلِ نَـــدْباً مُخْصِبَـــا
فَكَسـا الوجـودَ ثِيـابَ دفءٍ واغْتَـدَى ... يُسْـــدِي الهِبـــاتِ مُشَـــرِّقاً وَمُغَرِّبَـــا
يُهْـدِي مِـنَ الثَّمـراتِ كُـلَّ طَرِيفَـةٍ ... ويُنيـلُ مِنهـا كُـلَّ شَـيءٍ يُجْتَـبَى
وأتـى الخَرِيـفُ بـإِثْرِ ذاكَ مُعـاوِداً ... حُسْـنَ الرَّبيـعِ وطِيْبَـه المُسْتَعْذَبَـا
فَوَشـى ثِيـابَ الـرَّوضِ مِـنْ أوراقِـهِ ... وَشْـياً تَنَـوَّعَ صِـبْغُهُ وَتَنَسَّبَـا
وسَـرَى النَّسـيمُ مَـعَ الصَّـباحِ مُبَشِّـراً ... بِـدُنوِّ إِقْبـالِ الشِّـتاءِ مُرَحِّبَـا

وَتَفَهْقَهَـتْ وُطْـفُ الغَمَـامِ بِرَعْـدِها لَمَّـا تَبَيَّنَـتِ الـبُروقَ تَطَرُّبَـا
وَتتابَعَـتْ كُـلُّ الفُصـولِ بنسْـبَةٍ حَـتَّى تَكَمَّـلَ حُسْـنُها وَتَرَتَّبَـا
فَمِـنَ الشِّـتاءِ قِـوامُ ذاكَ وحُسْـنُهُ وبِمـا أنـالَ مِـنَ الحَيَـا وبِمَـا حَبَـا
كُـلٌّ بِقَـدْرِ مِثالِـهِ مِـنْ وَبْلِـهِ أَسْـدَى وأَبْـدَى بَهْجَـةً وتَهَذَّبَـا
والحـقُّ يَشـهدُ أنَّ عَقْـدَ نِظَامِهَـا ومِلاكِهـا كـانَ الغَمَـامَ الصَّيِّبَـا[1]

وهذا لسان الدين بن الخطيب يصف مجلس لهو في يوم ربيعي ممطر، ويحاول إبراز أعظم ما لديه من صور وإبداع يقول:

وَهَـذَا زَمَـانُ الزَّهْـرِ حَيَّـاكَ بَاسِـماً تَلُـوْحُ سِمَـاتُ البِشْـرِ في وَجْهِـهِ الطَّلْـقِ
وَقَـدْ قَـادَ يَـوْمُ الغَـيْمِ سُـحْباً كَأَنَّهَـا رِفَـاقٌ أَتَـتْ تَمْشِـي الهُوَيْنَى عَلَـى رِفْـقِ
كَـأَنَّ حُـدَاةَ الرَّعْـدِ ضَـلَّتْ طَرِيقَهَـا فَهَـزَّتْ لِكَيْمَـا تَهْتَـدِي مِشْـعَلَ البَـرْقِ
وَكَعْبَـةُ رَوْضٍ زَارَهَـا القَطْـرُ والتَقَـتْ بِمِيقَاتِهَـا جَوَّابَـةَ الغَـرْبِ والشَّـرْقِ
وَقَـدْ قَلَـبَ السُّوسَـانُ فِيهَـا رِدَاءَهُ كَـأَنَّ النُّعَـامَى أَبْرَزَتْـهُ لِيَسْتَسْـقِي
كَـأَنَّ عَلِيْـلَ النَّرْجِـسِ اهْتَـاجَ دَاؤُهُ وَقَـدْ قَعَـدَتْ تَبْكِيـهِ سَـاجِعَةُ الـوُرْقِ
وَقَـدْ أَشْـفَقَ الغَـيْمُ الظَّلِيـلُ لِمَـا بِـهِ فَتَنْفُـثُ فِيْـهِ سُـحْبُهُ وَالصَّـبَا تَرْقِـي
حَلَلْـتُ بِهَـا والْـوَرْدُ هَـدْيٌ مُقَـرَّبٌ فَمَـا كَـانَ إِلَّا أَنْ نَحَـرْتُ بِهَـا زِقِّـي
وَسَـيَّلْتُهَا حَمْـرَاءَ وَالْغَـيْمُ عَـاكِفٌ فَضَـاءَ لَهَـا جَـوَّايَ وَضَـاعَ بِهَـا أُفْقِـي[2]

ويغرق ابن زمرك في جعل كلّ عناصر الطبيعة خدماً لممدوحه ولأجله:

وَالطَّيْـرُ أَلْسِـنَةٌ عَلَيْـكَ ثَنَاؤُهَـا وَالـدَّوْحُ أَلْوِيَـةٌ لِنَصْـرِكَ تُعْقَـدُ

١- ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي: ٩٣- ٩٤

٢- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني: ٦٩٤

والنَّـــوْرُ ثَغْـــرٌ مِـــنْ سُـــعُودِكَ بَاسِـــمٌ وَالغُصْـــنُ جِيْـــدٌ مِـــنْ حَـــلَاكَ يُقَلَّـــدُ
وَالأُفْـــقُ فَوْقَـــكَ قُبَّـــةٌ مَحْبُوكَـــةٌ وَالبَـــدْرُ تَـــاجٌ والنُّجُـــومُ مُقَلَّـــدُ
وَالغَيْـــثُ إنْ وَافَى رِيَاضَـــكَ زَائِـــراً فَلَـــهُ لِجُـــودِكَ نِسْـــبَةٌ لا تُجْحَـــدُ
مَـــا جَـــاء إلَّا لِلْهَنَـــاءِ أَمَـــا تَـــرَى لِلْبَـــرْقِ فِيْـــهِ تَبَسُّـــمٌ يَـــتَرَدَّدُ[1]

أمّا ابن خاتمة فيجعل عناصر الطبيعة آيات دالّات على عظمة الخالق جلّ اسمه وكرمه، قال: «في التنبيه على مواقع النَّعْماء وموارد الآلاء»:

الأرضُ بـــينَ مُـــدبَّجٍ ومُحَلَّـــلِ والـــرَّوضُ بـــينَ مُتَـــوَّجٍ وَمُكَلَّـــلِ
والزَّهْـــرُ بـــينَ مـــورَّدٍ ومُـــوَرَّسٍ والنَّشْـــرُ بـــينَ مُمَسَّـــكٍ ومُصَـــنْدَلِ
والمـــاءُ قـــدْ صـــقَلَ النســـيمُ فَرِنْـــدَهُ فتوشَّـــحَتْ منـــهُ الريـــاضُ بِمُنْصُـــلِ
لُوِيَـــتْ مَذانِبُـــهُ علَـــى أدواحِهَـــا فـــاختلْنَ بـــينَ مُنَطَّـــقٍ ومُخَلْخَـــلِ
مَـــا ذاكَ ســـجعُ نســـيبِهِ فِي ظِلِّهَـــا لكنَّـــهُ وَســـواسُ هاتيـــكَ الحُلِـــي
أهـــلاً بأيَّـــامِ الرَّبيـــعِ وطِيْبِهَـــا أُنْـــسِ الخليـــعِ ونُزهـــةِ المُتَبَتِّـــل
زَمَـــنٌ أَرَقُّ مِـــنَ الـــوِدادِ شَمَـــائلاً وألـــذُّ مـــنْ عصـــرِ الشـــبابِ الأَوَّلِ

...

وأَجِـــلْ لِحاظَـــكَ في صِـــفَاحِ كتابِـــهِ حـــتَّى تَبَـــيَّنَ واضِـــحاً مـــنْ مُشْـــكِلِ
وإنِ اعـــتراكَ عَشَـــىً لِنَيِّـــرِ نَـــوْرِهِ فَاعْـــدِلْ لإثمـــدِ ظِلِّـــهِ فتكحَّـــلِ
مَـنْ لَـمْ يُشـاهِدْ موقـعَ الحُسـنِ الخَفِـي مِـنْ مَنْظَـرٍ لَـمْ يَـدْرِ مَـا الحُسْـنُ الجَلِـي
فالحُسْـنُ مَـا وَضُـحَتْ شَـواهدُ فَضْـلِهِ للمُجْتَنِـــي كوضـــوحِهَا للمُجْتَلِـــي

...

١- ديوان ابن زمرك الأندلسي: ١٢٣

فـالرَّوْضُ قـدْ فَـتحَ الحَيـا في خَـدِّهِ وَرْداً سَـبَى وردَ الحيـاءِ المُخْجِـلِ
عَجبـاً وحَـتَّى الحُسْـنُ يَعْشَـقُ بَعْضُـهُ بَعْضـاً لقـدْ أَزْرَى الهَـوَى بالعُـذَّلِ
لُطَـفٌ مـن الإحسـانِ أعْجَـزَتِ الـوَرَى أوْصَـافُهَا سُـبحانَ مُبْـدِعِهَا العَلِـي[1]

ويجنح ابن زمرك في انتقاء الموصوفات الغريبة كقوله في وصف الزرافة ضمن قصيدة المديح:

وَأَتَتْـكَ يَـا مَلِـكَ الزَّمَـانِ غَرِيبَـةٌ قَيْـدُ النَّـوَاظِرِ نُزْهَـةُ الأَبْصَـارِ
مَوْشِـيَّةُ الأَعْطَـافِ رَائِقَـةُ الحُلَـى رَقَمَـتْ بَـدَائِعَها يَـدُ الأَقْـدَارِ
رَاقَ العُيُـونَ أَدِيْمُهَـا فكأنَّـهُ روضٌ تفـتَّحَ عـنْ شـقيقِ بَهَـارِ
مَـا بَـيْنَ مُبْـيَضٍّ وَأَصْـفَرَ فَـاقِعٍ سَـالَ اللُّجَـيْنُ بِـهِ خِـلَالَ نُضَـارِ
يَحْكِـي حَـدَائِقَ نَـرْجِسٍ في شَـاهِقٍ تَنْسَـابُ فيـهِ أَرَاقِـمُ الأَنْهَـارِ
تَحْـدُو قَـوائِمُ كَالجُـذُوعِ وَفَوْقَهَـا جَبَـلٌ أَشَـمُّ بِنُـورِهِ مُتَـوَارِ
وَسَـمَتْ بِجِيـدٍ مِثْـلَ جِـذْعٍ مَائِـلٍ سَـهْلِ التَعَطُّـفِ لَيِّـنٍ خَـوَّارِ
تَسْتَشْـرِفُ الجُـدْرَانُ مِنْـهُ تَرَائِيـاً فَكَأَنَّمَـا هُـوَ قَـائِمٌ بِمَنَـارِ
تَاهَـتْ بِكَلْكَلِهَـا وَأَتْلَـعَ جِيْـدُهَا وَمَشَـى بِهَـا الإِعْجَـابُ مَشْـيَ وَقَـارِ
خَرَجُـوا لَهَـا الجَـمَّ الغَفِـيرَ وَكُلُّهُـمْ مُتَعَجِّـبٌ مِـنْ لُطْـفِ صُـنْعِ البَـارِي
كُـلٌّ يَقُـولُ لِصَـحْبِهِ قُومُـوا انْظُـرُوا كَيْـفَ الجِبَـالُ تُقَـادُ بالأَسْـيَارِ
أَلْقَـتْ بِبَابِـكَ رَحْلَهَـا وَلَطَالَمَـا أَلْقَـى الْغَرِيْـبُ بِـهِ عَصَـا التَّسْـيَارِ[2]

وظلّت بعض موضوعات وصف الطبيعة حاضرة ولاسيّما المجالس الطبيعيّة والغزل والخمر ومن ذلك قول الطويجن الساحلي (ت ٧٤٧هـ):

١- ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي: ٢٢- ٢٣، ٢٥

٢- ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٤٣١

ومفروشـــةٍ بـــالآسِ والنـــرجسِ الغـــضِّ وبـــالوردِ والنســـرينِ بعضـــاً علـــى بَعْـــضِ
كـــأنَّ احمـــرارَ الـــوردِ خجلـــةُ غـــادةٍ يلاعِبُهَـــا المشتـــاقُ بالقُبْـــلِ والعَـــضِّ
كـــأنَّ اصـــفرارَ النـــرجسِ الغـــضِّ إذْ بـــدَا يـــميسُ بأغصـــانٍ مـــنَ العَسْـــجَدِ الغَـــضِّ
كـــأنَّ اخضـــرارَ الآسِ قُضْـــبُ زُمُـــرُّدٍ تنمّقُـــهُ أيـــدي القيـــانِ علـــى الأرضِ
كـــأنَّ ضـــياءَ الكـــأسِ بـــدرٌ بـــدَا لنـــا فطَـــوْراً إلى رَفْـــعٍ وطَـــوْراً إلى خَفْـــضِ
كـــأنَّ خـــدودَ الشـــاربينَ وقـــدْ بَـــدَتْ بِهَا الخمرُ جمرٌ قدْ توقَّدَ مِنْ رَمْضِ[1]

وصف الطبيعة في القرن التاسع الهجري:

لم يصل إلينا في القرن الأخير من الوجود العربي سوى عدد يسير من الدواوين الشعريّة منها ديوان القيسي البَسْطِي (ت النصف الثاني من القرن التاسع) الذي يقرّ بأنّ شعره «منحطّ عن الدرجة المتوسّطة»[2].وهو كذلك في شعر الطبيعة النزر لديه فيميل إلى الضعف والركاكة كما في قوله في وصف طبيعة بلده بسطة:

بالدِّمْنَـــةِ الغَـــرَّاءِ مِـــنْ بَسْـــطَةٍ أذْوَاحُ أعْنَـــابٍ تَـــرُوقُ العُيُـــونْ
تَلَوَّنَـــتْ فِيهَـــا عَنَاقيـــدُهَا وَأَظْهَـــرَتْ لِلْحُسْـــنِ شَـــتَّى الفُنُـــونْ
قَـــالُوا هِـــيَ الشَّـــهْدُ لَـــدَى ذَوْقِهَـــا طِيْبـــاً فَقُلْـــتُ الشَّـــهْدُ واللهِ دُونْ
وَتِيْنُهَـــا الأيُّـــوْبِ في طِيبِـــهِ وَحُسْـــنِهِ لَيْـــسَ يُسَـــاوِيْهِ تِـــينْ
وَعَاصِـــمِيْهَا الفَـــذُّ في لَوْنِـــهِ وَطِيبِـــهِ لَـــيْسَ لَـــهُ مِـــنْ قَـــرِينْ
وَخَوْخُهَـــا يُشْـــبِهُ مُحْمَـــرُّهُ خُـــدُودَ حُـــورٍ فُقْـــنَ في الحُسْـــنِ عِـــينْ
وَكَـــالنُّهُودِ المُدْمَجَـــاتِ اغْتَـــدَى اسْـــفَرْجَلٌ يَحْمِلُـــهُ كُـــلَّ حِـــينْ
وَمِثْلُهَـــا في الشَّـــكْلِ رُمَّانُهَـــا كَمِثْـــلِ إجَّـــاصٍ بِهَـــا مُسْـــتَبِينْ

١- إبراهيم الساحلي: ٤٥- ٤٦

٢- ديوان القيسي البسطي: ٢٣

وَكَالنُّجُـــومِ الزُّهْـــرِ زُعْرُوْرُهَـــا أوْ كَالمَصَابِيْـــحِ بِـــأعْلَى العُصُـــونْ

مَـــنْ لَمْ يَكُـــنْ فِيْهَـــا لَـــهُ جَنَّـــةٌ فَعَـــدَّهُ مِـــنْ بَسْـــطَةٍ يُنْكِـــرُونْ

وَكُـــلُّ مَـــا الأَعْنَـــابُ أَصْـــلٌ لَـــهُ فَإِنَّـــهُ نَـــزْرٌ لَدَيْـــهِ يَكُـــونْ [1]

ولا نعدم في قبالة ذلك بعض القصائد والمقطّعات في وصف الطبيعة تميل إلى الجودة وتجنح نحو الإبداع كقول يوسف الثالث:

وحديقـــةٍ بـــاكرتُ صَـــفْوَ نعيمِهَـــا والفجـرُ يُبْصَـرُ مِـنْ خِـلالِ سـحابِ

كمتَـــيَّمٍ جحـــدَ الغـــرَامَ وإنَّـــمَا دلَّـــتْ عليـــهِ دلائـــلُ الأَوْصَـــابِ

مُتَسَـــتِّراً والطَّـــرْفُ يرنـــوْ خِلْسَـــةً حـــذرَ الرقيـــبِ فلـــمْ يَفُـــهْ بِجَـــوَابِ

والطَّـــلُّ يـــنظمُ في الغصـــونِ لآلئـــاً فَيَمِلْـــن طـــوعَ الحُسْـــنِ والإعجـــابِ

والغُصْـــنُ رَيَّـــانُ المعـــاطِفِ مُنْـــتَشٍ يُـــوْمِيْ إليَّ بزهـــرِهِ ويُحَـــابي

والـــروضُ مبتســـمُ الأَسِـــرَّةِ ضـــاحكٌ كزمـــانِ وصْـــلٍ بعـــدَ طُـــوْلِ عِتَـــابِ

تَحْكِـــيْ بطائحُـــهُ نَمَـــارقَ سُـــنْدُسُ وتِلَاعُـــهُ قَـــدْ أُلْحِفَـــتْ بِمَـــلَابِ

مَـــرَّتْ تُصـــافحنَا أنامِـــلُ سَوْسَـــنٍ ورَنَـــتْ تغازِلُنَـــا مـــعَ الإعْجَـــابِ

والـــريحُ تَسْـــحَبُ ذَيْـــلَ كـــلِّ خميلـــةٍ تَهْـــدِي الأنـــوفَ روائِـــحَ الأَحْبَـــابِ

والآسُ صُـــدْغٌ للحَبِيْـــبِ مُعَطَّفـــاً والخَـــدُّ وَرْدٌ مُشْـــرِقاً كَشِـــهَابِ [2]

أمّا ابن فركون شاعر المديح فإنّه -كسلفه ابن زمرك- يطوّع عناصر الطبيعة للمديح كقوله:

ومَـا رَاقَ نظـمُ الشِّـعْرِ إلَّا لِأَنْ غَـدَتْ لِناصِـرِ ديـنِ اللهِ فِيـهِ المَـدائِحُ

١- ديوان القيسي البسطي: ١٨٢- ١٨٣

٢- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ١١

ومَـا أشـرَقَ الإصـبَاحُ إلَّا لأنْ بَـدَتْ عَلى الشمسِ مِنْ وَجْهِ ابْنِ نَصْرٍ مَلَامِحُ

ومَـا رَاعَ نَسْـرَ الشُّـهْبِ إلَّا جَمَالُـهُ فَحُـثَّ جَنَـاحٌ منـهُ لِلْغَـرْبِ جَـانِحُ

ومَـا ارْتَاعَـتِ الشـهْبانُ إلَّا لأنَّـهُ تَعَـالَى لَـهُ قَـدْرٌ عَلَـى الشُّـهْبِ طَـامِحُ

ومَـا رَعِشَـتْ إلَّا لِتَأْخُـذَ حِـذْرَهَا وقَـدْ رَاقَ صُـبْحٌ مِـنْ مُحَيَّـاهُ لَائِـحُ[1]

وأخيراً لابدّ من أن نشير إلى أنّ آراء الدّارسين قد اختلفت في تقدير شعر الطبيعة بل في معرفته بين إيجاب وسلب في الموازنة بين شعر الطبيعة في المشرق والأندلس، ولن أتعرّض لكلّ قول سالب يدل على أنّ صاحبه غير متخصّص في الأدب الأندلسي على الأقلّ، لأنّ شعر الطبيعة على شهرته لم يدرس بعد دراسة معمّقة في عصوره كلّها، وأقتصر على قول د.عبد العزيز عتيق: إنّ «الأندلسيّين قد فاقوا المشارقة في شعر الطبيعة كمّاً وكيفاً وتوسّعوا ونوّعوا في موضوعاته توسّعاً وتنوّعاً فاق كلّ اعتبار، كما أنّهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكاراً وتجديداً ودقّةَ تصوير»[2].

١- ديوان ابن فركون: ١١٠

٢- الأدب العربي في الأندلس: ٢٩١

رثاء المدن والممالك الزائلة

هذا موضوع شجيّ حزين، كتبت أحرفه بمداد أحمر من دماء ودموع، يرصد انكسار الخطّ البياني للقوّة العربيّة، وانحسار الوجود العربي في الأندلس وتلاشيه، وما تبع ذلك من ويلات ومآس، وما رافقه من فجائع تشيب لها النواصي.

وينقسم هذا الموضوع الشائك ثلاثة أقسام هي:

أولاً– رثاء المدن التي سقطت بالفتن والحروب العربيّة والبربريّة في الأندلس

لقد بدأ عهد الفتنة في نهاية القرن الرابع الهجري بعد تولّي المأمون عبد الرحمن شنجول بن المنصور بن أبي عامر منصب الحجابة في (١٧ صفر سنة ٣٩٩ هـ) وكان لاهياً ماجناً أخرق لا يقدّر عواقب الأمور، فأراد أن يتولّى ولاية عهد الخليفة هشام المؤيّد لا حجابته فحسب، فثارت ثائرة الأمراء الأمويّين فعزله محمّد بن عبد الجبّار وتولّى الخلافة وتلقّب بالمهدي (١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ) ثمّ قبض على شنجول وقتله في (٣ رجب سنة ٣٩٩ هـ)، ولكنّه لم يهنأ بالخلافة طويلاً إذ نافسه أمير أمويّ آخر هو سليمان ابن الحكم الملقّب بالمستعين الذي استعان في حربه على المهدي بالبربر ثمّ بالقشتاليّين، الذين استغلّوا هذه الفرصة أبشع استغلال، فاشترطوا عليه أن يسلّمهم الكثير من الحصون الحدوديّة التي يقال إنّها زادت على مئتي حصن[1]، فكان ذلك أوّل ثارات النصارى على المسلمين الذين خسروا بذلك خطّ دفاعهم الأوّل عن الأندلس.

فَهُزم المهديّ وهرب من قرطبة، فاستعان هو الآخر بالإسبانيّين، ولكنّه هزم ثمّ قتل في الثامن من ذي الحجة سنة (٤٠٠ هـ). وحاصر البربر قرطبة سنة(٤٠١ هـ) ثمّ دخلوها سنة(٤٠٣ هـ) وقتّلوا أهلها، واستباحوا حريمها، «فقلّصت أذيالها، وانتسفت جبالها،واشتفّت الماء من عودها، وألوت بمعظم طارفها وتليدها»[2] كما قال ابن بسّام.

١– انظر أعمال الأعلام: ١١٧

٢– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣/ ١/ ٩

ومن أوائل ما وصف به خراب قرطبة وتشرّد أهلها أبيات لابن درّاج (ت٤٢١هـ) طالما غفل عنها الدارسون المحدثون لأنّها ضمن قصيدة مدحيّة قيلت سنة (٤٠٤ هـ) قال فيها:

مغـــانِي السُّـــرُورِ لَبِسْـــنَ الحِـــدَادَ ... عَلَـــى لَابِســـاتِ ثِيَـــابِ الـــذُّهُولِ
خطيبـــاتِ خَطْـــبِ النَّـــوى والمُهُـــورُ ... مَهـــارى عليهـــا رِحـــالُ الرَّحِيـــلِ
فَمِـــنْ حُـــرَّةٍ جُلِيَـــتْ بِـــالجِلَاءِ ... وعَـــذْرَاءَ نُصَّـــتْ بِـــنَصِّ الذَّمِيـــلِ
ولا حَلْـــيَ إلَّا جُمـــانُ الـــدُّمُوعِ ... يَسِـــيلُ علـــى كُـــلِّ خَـــدٍّ أسِـــيلِ
فَبُـــدِّلْنَ مِـــنْ بَعْـــدِ خَفْـــضِ النَّعـــيمِ ... بِشَـــقِّ الحُـــزُونِ وَوَعْـــثِ السُّـــهُولِ
ومِـــنْ قِصَـــرِ اللَّيْـــلِ تَحْـــتَ الحِجـــالِ ... بِهَـــوْلِ السُّـــرى تَحْـــتَ لَيْـــلٍ طَوِيـــلِ
وَمِـــنْ عَلَـــلِ المـــاءِ تَحْـــتَ الظِّـــلالِ ... صِـــلَاءَ القُلُـــوبِ بِحَـــرِّ الغَلِيـــلِ
ومِـــنْ طِيْـــبِ نَفْـــحٍ بِنَـــوْرِ الرِّيَـــاضِ ... تَلَظِّـــيَ لَفْـــحٍ بِنَـــارِ المَقِيـــلِ
ومِـــنْ أُنْسِـــهَا بـــينَ ظِئْـــرٍ وتِـــرْبٍ ... سُـــرَى لَيْلِهَـــا بَـــيْنَ ذِيْـــبٍ وغُـــولِ
ومِـــنْ كُـــلِّ مَـــرْأَى مُحَيَّـــا جَمِيْـــلٍ ... تَلَقِّـــي الخُطُـــوبِ بِصَـــبْرٍ جَمِيـــلِ[1]

وكما نرى هنا فإنّ ابن درّاج اقتصر على تصوير جانب عاطفي مثير للمشاعر هو مصير الحرائر اللواتي هجّرن من قرطبة، وقاسين من شدائد ومصائب بعدما كنّ مرفّهات يرفلن في حلل النعيم.

أمّا ابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) الأشجعي القرطبي حتّى الصميم فله في رثاء قرطبة لوحة دامعة، صوّر فيها شجنه الطويل وحزنه الدائم على ما حلّ بقرطبة وأهلها قال:

مـــا في الطُّلُـــولِ مِـــن الأَحِبَّـــةِ مُخْـــبِرُ ... فَمَـــن الَّـــذِي عـــن حالِهَـــا نَسْـــتَخْبِرُ
لا تَسْـــأَلَنَّ سِـــوَى الفِـــرَاقِ فإِنَّـــهُ ... يُنْبِيْـــكَ عـــنهمْ أَنْجَـــدُوا أَم أَغْـــوَرُوا
جـــارَ الزَّمـــانُ علَـــيْهِمُ فَتَفَرَّقُـــوا ... في كُـــلِّ ناحِيَـــةٍ وبـــادَ الأَكْثَـــرُ

١- ديوان ابن درّاج القسطلّي: ٦٦

جَـرَتِ الخُطُـوبُ علـى محـلِّ دِيـارِهِمْ وعلَـــيْهِمُ فَتَغَـــيَّرتْ وَتَغَيَّـــرُوا

فَــدعِ الزَّمــانَ يصــوغُ في عَرَصَــاتِهِمْ نُــوْراً تكــادُ لــه القُلُــوْبُ تُنَــوَّرُ

فلِمثْــلِ قُرْطُبــةٍ يَقِــلُّ بُكَــاءُ مَــنْ يَبْكِــي بعَــيْنٍ دَمْعُهَــا مَتَفَجِّــرُ

دَارٌ أَقَــــالَ اللهُ عَثْــــرَةَ أَهْلِهَــــا فَتَبَرْبَــــرُوا وَتَغَرَّبُــــوا وَتَمَصَّــــرُوا

في كُــلِّ نَاحِيَــةٍ فَرِيْــقٌ مــنهمُ مُتَفَطِّــرٌ لفِرَاقِهَــا مُتَحَيِّــرُ[1]

ثمّ يسترجع بخياله ذكرياته في قرطبة، ويصوّر ماضيها الرائع، وحياتهم الرغيدة الحلوة فيها:

عَهْــدي بهــا والشــملُ فيهــا جــامِعٌ مِــن أَهْلِهــا والعَــيْشُ فيهــا أَخْضَــرُ

ورِيــاحُ زَهْرَتِهــا تلــوحُ علَــيْهِمُ بــرَوائِحٍ يَفْتَــرُّ منهــا العَنْــبرُ

والــدارُ قــدْ ضَــرَبَ الكَمَــالُ رُوَاقَــهُ فيهــا وبــاغُ الــنقصِ فيهــا يَقْصُــرُ

والقَــوْمُ قــد أَمِنُــوا تَغَيُّــرَ حُسْــنِهَا فَتَعَمَّمُــوا بجَمَالِهَــا وتَــأَزَّرُوا

يــا طِيْــبَهُمْ بقُصُــوْرِهَا وخُــدُورِهَا وبُــدُورُها بقُصُــورِها تَتَخَــدَّرُ

والقَصْــرُ قَصْــرُ بَــنِي أُمَيّــةَ وَافِــرٌ مِــنْ كُــلِّ أَمْــرٍ والخِلَافَــةُ أَوْفَــرُ

والزاهِرِيَّــةُ بالمَرَاكِــبِ تُزْهِــرُ والعَامِرِيِّــةُ بالكَوَاكِــبِ تُعْمَــرُ

والجَــامِعُ الأَعْلَــى يَغُــصُّ بكُــلِّ مَــنْ يَتْلُــوْ ويَسْــمَعُ مَــا يَشَــاءُ وَيَنْظُــرُ

ومَسَــالِكُ الأَسْــوَاقِ تَشْــهَدُ أَنَّهَــا لَا يَسْــتَقِلُّ بِسَــالِكِيْهَا المَحْشَــرُ[2]

ثمّ يتحسّر ابن شهيد على زوال كلّ هذا الجمال في حاضرها، ولكنّه لا يصف هذا الحاضر بل يتأسّف على زوال ماضيها فحسب:

يــا جَنَّــةً عَصَــفَتْ بِهَــا وبأَهْلِهَــا رِيْــحُ النَّــوَى فَتَــدَمَّرَتْ وتَــدَمَّرُوا

آسَــى عَلَيْــكِ مِــنَ الــمَمَاتِ وَحَــقَّ لي إِذْ لمْ نَــزَلْ بِــكِ في حَيَاتِــكِ نَفْخَــرُ

١- ديوان ابن شهيد الأندلسي: ١٠٩- ١١٠

٢- المصدر نفسه: ١١٠

كَانَـــتْ عِرَاصُـــكِ لِلْمُـــيَمِّمِ مَكَّـــةً يَـــأْوِي إِلَيْهَـــا الخَـــائِفُونَ فيُنْصَـــرُوا
يـــا مَنْـــزِلاً نَزَلَـــتْ بِـــهِ وبِأَهْلِـــهِ طَيْـــرُ النَّـــوَى فَتَغَيَّـــرُوا وتَنَكَّـــرُوا
جَـــادَ الفُـــرَاتُ بِسَـــاحَتَيْكِ ودِجْلَـــةٌ والنِّيْـــلُ جَـــادَ بِهَـــا وجَـــادَ الكَـــوْثَرُ
وسُـــقِيْتَ مِـــنْ مَـــاءِ الحَيَـــاةِ غَمَامَـــةً تَحْيَـــا بِهَـــا مِنْـــكَ الرِّيَـــاضُ وتُزْهِـــرُ[1]

ثمّ يعود إلى التأسّف وإبداء الحزن على دياره ومن فيها، وأحواله السالفة المشرّفة مشيراً إلى زوال كلّ ذلك:

أَسَـــفِي علـــى دارٍ عَهِـــدْتُ ربوعَهَـــا وظباؤُهَـــا بفِنَائِهَـــا تَتَبَخْتَـــرُ
أَيَّـــامَ كَانَـــتْ عَـــيْنُ كُـــلِّ كَرامـــةٍ مِـــنْ كُـــلِّ نَاحِيَـــةٍ إِلَيْهَـــا تَنْظُـــرُ
أَيَّـــامَ كَـــانَ الأَمْـــرُ فيهـــا وَاحِـــداً لِأَمِيْرِهَـــا وأَمِـــيْرِ مَـــنْ يَتَـــأَمَّرُ
أيَّـــامَ كانَـــتْ كَـــفُّ كُـــلِّ سَـــلامةٍ تَسْـــمُو إِلَيْهَـــا بالسَّـــلَامِ وتَبْـــدُرُ
حَـــزْنِي علـــى سَـــرَواتِها ورُوَاتِهَـــا وثِقَاتِهَـــا وحُمَاتِهَـــا يَتَكَـــرَّرُ
نَفْسِـــي علـــى آلَائِهَـــا وصـــفائِها وبَهَائِهـــا وسَـــنائِها تَتَحَسَّـــرُ
كَبِـــدِي علـــى عُلَمَائِهَـــا حُلَمَائِهَـــا أُدَبَائِهَـــا ظُرَفَائِهَـــا تَتَفَطَّـــرُ[2]

وإذا كان ابن شهيد لا يذكر سبب ما حدث لقرطبة وأحالها إلى أطلال فإنّ صديقه ومعاصره ابن حزم القرطبي يحيل سبب كلّ ذلك إلى القضاء والقدر في قطعة نثريّة موصولة بقصيدة مؤثّرة، يندب فيها قرطبة ويصف خرابها بحرقة وألم، ويذكر أنّ فراقه لها كان اضطراراً لا اختياراً، قال: «فأبكى ذلك عيني على جمودها، وقرع كبدي على صلابتها، وهاج بلابلي على تكاثرها، وحرّكني للقول على نبوّ طبعي، فقلت:

سَـــلَامٌ علـــى دَارٍ رَحَلْنَـــا وغُـــوْدِرَتْ خَـــلَاءً مِـــنَ الأَهْلِـــيْنَ مُوْحِشَـــةً قَفْـــرا
تَرَاهَـــا كَـــأَنْ لَمْ تَغْـــنَ بِـــالأَمْسِ بَلْقَعـــاً ولا عمـــرتْ مِـــنْ أَهْلِهَـــا قبلنـــا دَهْـــرا

١- ديوان ابن شهيد الأندلسي: ١١٠

٢- المصدر نفسه: ١١٠- ١١١

فيـــا دَارُ لمْ يَقْفِـــرْكِ مِنَّـــا اخْتِيَارُنَـــا ولَـــوْ أَنَّنَـــا نَسْـــطِيْعُ كُنْـــتِ لَنَـــا قَـــبْرا
ولَكِـــنَّ أَقْـــدَاراً مِـــنَ اللهِ أُنْفِـــذَتْ تُـــدَمِّرُنا طَوْعـــاً لِمَـــا حَـــلَّ أو قَهْـــرا
ويَـــا خَيْـــرَ دَارٍ قَـــدْ تُرِكْـــتِ حَمِيْـــدَةً سَـقَتْكِ الغَـوَادِي مَـا أَجَـلَّ ومَـا أَسْرى[1]

وإذا كان ابن حزم لحبّه الشديد لقرطبة وولعه الدائم بها لا يبحث عن الأسباب التي كانت وراء سقوط قرطبة ولا يشير إليها، ويقصر كلّ ذلك لقضاء الله وقدره، فإنّ ابن عذاري المراكشي يورد أبياتاً لشاعر مجهول يوبّخ أهل قرطبة ويلومهم على تفريطهم في تدبير شؤون مدينتهم ويجعل ذلك السبب الرئيس في خرابها: «قال آخر من قصيدة في المعنى:

أَضَـــعْتُمُ الحَـــزْمَ في تَـــدْبِيْرِ أَمْـــرِكُمُ سَـتعلمونَ مَعـاً عُقْـبَى البَـوَارِ غَـدَا[2]
فَلَـــوْ رأيـــتُمْ بعـــينِ الفِكْـــرِ حَـــالَكُمُ بَكَيْـــتُمُ بِـــدَمٍ إِنْ دُمْـــتُمُ بَـــدَدَا
لَكِـــنَّ سُـــبْلَ العَمَـى أَعْمَـتْ بَصَـائِرَكُمْ فَأَلْبَسَـــتْكُمْ ثِيَابـــاً لِلْبِلَـــى جُـــدُدَا
يَـــا أُمَّـــةً هَتَكَـــتْ مَسْـــتُوْرَ سَـــوْءَتِهَا مَـا كُـلُّ مَـنْ ذَلَّ أَعْطَـى بِالصَّـغَارِ يَـدَا
في سُـــوْرَةِ الحَشْـــرِ آيَـــاتٌ مُفَصَّـــلَةٌ في شَـأْنِكُمْ أُنْزِلَـتْ لمْ تَعْـدُكُمْ أَحَـدَا
نَعَـمْ وفي الكَهْـفِ فِي العِشْـرِيْنَ خَاتِـمَةٌ تَقْضِـي عَلَـيْكُمْ بِـأَنْ لَا تُفْلِحُـوا أَبَـدَا
فَاسْتَشْـعِرُوا سُـوْءَ عُقْبَـاكُمْ فَقَـدْ شَمِلَـتْ جَمِيْعَـــكُمْ مِحْنَـــةٌ لَا تَنْقَضِـــيْ أَبَـــدَا

ثانياً– رثاء الدويلات والممالك:

بعد أن انفرط عقد الخلافة وتحوّلت الدولة الواحدة إلى دويلات كثيرة متفرّقة ومتناحرة، يستقوي بعضها على بعض، وتسعى كلّ واحدة منها لقضم الأخرى، ويدفع بعضها الجزية للإسبان صاغراً، خوفاً منهم، ويسقط بعضها في براثنهم، ويستعين بعضها بالإسبان على أخواتها من الدويلات المسلمة، وفي قبالة ذلك كانت الدويلات النصرانيّة

١– أعمال الأعلام: ١٠٧– ١٠٨
وثمّة قصيدة بائيّة في رثاء إلبيرة لأبي إسحاق الإلبيري الزاهد. ديوانه: ٨٥– ٨٨
٢– البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٣ / ١١٠– ١١١

تتصالح وتتوحّد وتقوى شوكتها، ذكر ذلك ابن بسّام وبيّن موقف الشعراء المتملّقين الذين يحسّنون القبيح، ويجعلون الذلّ عزّاً، ويسوّغون فعلتهم الشنيعة، قال: «وكانت طوائف الروم مدّة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب داؤهم بكلّ إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلّط والعناد، حتّى استصفوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة، إلى ما يتبعها من هديّات ونفقات، وشعر العصر، شاهد بالأمر، كقول حسّان بن المصّيصي يمدح المعتمد ويهوّن عليه الأتاوات، من جملة أبيات:

ولم تَطْوِ دون المسلمين ذخيرةً ... تُهيُن كرام المُنْفساتِ لتكرما

تَحَيَّلُ في فَكِّ الأسارى وإنَّما ... تُعَاقِدُ كفّاراً لتطلقَ مسلما

وما كنتَ ممّنْ شحَّ بالمالِ والقَنَا ... فتكنزَ دِيْنَاراً وتَرْكُزَ لَهْذَما

فترسلَهُ للصُّفْرِ أصفرَ عَسْجَداً ... وإنْ خَالفوا أَرْسَلْتَ أبيضَ مِخْذَما

وفي ذلك يقول أبو بكر الداني من جملة قصيدة:

في نُصْرَةِ الدينِ لَا أُعْدِمَتْ نُصْرَتَهُ ... تلقَى النَّصَارى بما تلقَى فَتَنْخَدِعُ

تُنِيْلُهُمْ نِعَماً في طَيِّهَا نِقَمٌ ... سيستضرُّ بها مَنْ كانَ يَنْتَفِعُ

وقلَّ مَا تَسْلَمُ الأَجْسَامُ مِنْ عَرَضٍ ... إذا تَوَالى عَليها الرِّيُّ والشِّبَعُ

لا يخبطُ الناسُ عَشْوا عندَ مُشْكِلَةٍ ... فأنتَ أَدْرَى بِمَا تَأْتي ومَا تَدَعُ

وهذا مدح غرور، وشاهد زور، وملق معتف سائل، وخديعة طالب نائل، وهيهات بل حلّت الفاقرة بعد بجماعتهم»[1].

وذكر ابن بسّام بعض الكتب التي تكتب عن بعض الملوك كالمعتمد بن عبّاد تخاطب بها العمّال في استعجال قبض الأموال لتقديمها للعدوّ متعذّرين بأنّ مداراة العدوّ أولى وأحرى ما لم تمكن مضاهاته، «ومن لا يمكن مقاواته ومخاشنته فليس إلّا مداراته

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢ / ١ / ٢٤٨- ٢٤٩

وملاينته» وأنّه «وقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدّم إليه، ونستكفّ بها الشرّ المرهوب لديه»[1].

ونصّ ابن بسّام كذلك على أنّ «أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يداخلون طوائف الروم، ويكتري كلّ واحد منهم عسكراً بجملة من المال، يخرجه إلى بلد كاشحه، ويسلّطه على معانده ممّن يجاوره من البلاد، حسداً له وطمعاً في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعيّة مهملة، لأنّ جملة غلّاتهم، وجميع اعتمالاتهم، كانت تتلف بأيدي تلك الطواغيت، الخارجة إليهم في أكثر المواقيت، وما كان يفلت من الخراب يغرمونه في المغارم وما يجشمونه من المجاشم، فقطعوا أيّامهم بقرع الظنابيب، وشرع الأنابيب،نكايات قعدة، لا نكايات مردة، إذ كان كلّ واحد منهم يختفي عن قرنه بقصره، ويطيل الهزّ لسيف غيره، ويسلّه على جاره، حتّى غدا ذلك السيف مسلولاً عليه!»[2].

ووضّح الكاتب أبو عبد الله محمّد الفازازي كلّ هذا في قطعة شعريّة صغيرة «قيل إنّها وجدت برقعة في جيبه يوم موته:

الـرُّوْمُ تَضْـرِبُ في الـبلادِ وتَغْـنَمُ ... والجَـوْرُ يَأْخُـذُ مَـا بَقِـيْ والمَغْـرَمُ
والمـالُ يُـوْرَدُ كُلُّـهُ قَشْـتَالَةً ... والجنـدُ تسـقطُ والرعيّـةُ تُسْـلَمُ
وذَوو التَّعَـيُّنِ لـيسَ فـيهمْ مُسْـلِمٌ ... إلَّا معـينٌ في الفسـادِ مُسَـلِّمُ
أَسَـفِي عَلَـى تلـكَ الـبِلَادِ وأَهْلِهَـا ... اللهُ يَلْطُـفُ بـالجميعِ ويَـرْحَمُ

وقيل إنّ هذه الأبيات رفعت إلى سلطان بلده، فلمّا وقف عليها قال بعدما بكى: صدق، رحمه الله تعالى، ولو كان حيّاً ضربت عنقه!»[3].

هذه الأبيات وقصّتها تدلّان على الوضع السياسي الصعب الذي جعل الشاعر الكاتب لا يذيع هذه الأبيات بل يبقيها سرّاً حتّى موته، هذا من جهة، وتدلّان من جهة

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢ / ١ / ٢٥٢- ٢٥٣

٢- المصدر نفسه: ٢ / ١ / ٢٥٤

٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٤٦٧، وانظر مثل هذا في البيان المغرب: ٣ / ٢٢٩

أخرى- على طباع ملوك الطوائف الذين قد يرجعون إلى الحقّ لوقت يسير فيبكون اعترافاً وإقراراً بكلّ ما في الأبيات، ثمّ تأخذهم العّزة بالإثم فيعودون سريعاً إلى طبيعتهم، ويتصرّفون على سجيّتهم، ولا غرو في ذلك فقد كان أغلب أصحاب هذه الدويلات غارقين من أخامص أقدامهم إلى مفارق شعورهم في أوحال اللهو وشرب الخمر، ويثقلون ظهور مواطنيهم بالضرائب الباهظة لينفقوها في ملاهيهم وليدفعوا الأتاوات لأعدائهم فكانوا كما وصفهم أبو الحسن ابن الجدّ لا يشعرون:

وكيفَ يَشْعُرُ مَنْ في كَفِّهِ قَدَحٌ ... يَحْدُو بِهِ مُلهِياهُ[1] النايُ والوَتَرُ

صَمَّتْ مَسَامعُهُ عَنْ غَيْرِ نَغْمَتِهِ ... فَمَا تَمُرُّ بهِ الآياتُ والسُّوَرُ

تلقاهُ كالعِجْلِ مَعْبُوْداً بِمَجْلِسِهِ ... لَهُ خُوَارٌ ولكنْ حَشْوُهُ خَوَرُ

وحَوْلَهُ كُلُّ مُغْتَرٍّ ومَا عَلِمُوا ... أَنَّ الذي زَخْرَفَتْ دُنْيَاهُمُ غَرَرُ[2]

ثمّ يمدح أمير المرابطين يوسف بن تاشفين ويجعل الصبح سيفاً في يده يجلو به ليل ملوك الطوائف الحالك:

وانظر إلى الصبْحِ سيفاً في يدي مَلكٍ ... في الله من جُنْدِهِ التأييد والظفر

يرعى الرعايا بطرفٍ ساهرٍ يقظٍ ... كما رعاها بطَرْفٍ ساهرٍ عمرُ[3]

وذكر ابن رشيق القيرواني سبب زهده في الأندلس ورغبته عنها لأن ملوك الطوائف «كالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ!»[4].

وحذّر السُّميسر ملوك الطوائف وقرّعهم مراراً فقال[5]:

وَلِيْتُمْ فَمَا أَحْسَنْتُمُ مُذْ وَلِيْتُمُ ... ولا صُنْتُمُ عَمَّا يَصُوْنُكُمُ عِرْضَا

١- في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: مذهلات ، وآثرنا رواية أعمال الأعلام

٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢ / ١ / ٢٥٦-٢٥٧، أعمال الأعلام: ٢٤٢

٣- المصدر نفسه: ٢/ ١/ ٢٥٧

٤- ديوان ابن رشيق: ٦٥- ٦٦

٥- شعر السميسر: ٢٢٤

وكنـــتمْ سمـــاءً لا يُنَـــالُ مَنَالُهَـــا فصـرتمْ لـدىْ مَـنْ لَا يُسَـائِلُكُمْ أَرْضَـا
ستســـترجعُ الأيّـــامُ مَـــا أَقْرَضَـــتْكُمُ أَلَا إِنَّهَـــا تَسْـــتَرْجِعُ الـــدَّيْنَ وَالقَرْضَـــا

ووصف أبو طالب عبد الجبّار حكّام الطوائف وصفاً دقيقاً في أرجوزته التاريخيّة:

ثمَّ تمـــــادتْ هـــــذهِ الطوائـــــفُ تَخَلّفُهـــم مِـــنْ آلهـــمْ خوالـــفُ
دانَـــتْ بـــدينِ الجَـــوْرِ والعُـــدُولِ إذ سُـــلِبِتْ عقائِـــل العُقُـــولِ
فَـــأَهْمَلُوا الـــبِلادَ والعِبـــادا وعَطَّلُـــوا الثُّغُـــورَ والجِهَـــادا
واشْـــتَغَلَتْ أَذْهَـــانُهُمْ بالخَمْـــرِ وبالأغـــاني وسَـــمَاعِ الزَّمْـــرِ
وزادهُـــمْ في الجهْـــلِ والخُـــذْلَانِ أَنْ ظَـــاهَرُوا عِصَـــابَةَ الصُّـــلْبَانِ
لمَّـــا طَـــوَتْ صُـــدُوْرُهُمْ مِـــنْ غِـــلّ ولاختبـــارِ الـــبعضِ حَـــالَ الكُـــلّ
فَخَسَـــــفَتْ [....] بِـــــالأَرْضِ وضَـــيَّقُوا مِـــنْ طُوْلِهَـــا والعَـــرْضِ
فاســـتولَتِ الـــرُّومُ علـــى الـــبِلادِ واســـتعبَدُوا حرائـــرَ العِبـــادِ
وقَتَّلُـــوا الرجَـــالَ كيـــفَ شـــاؤوا وضـــاعَ دَلْـــوُ الـــدّيْنِ والرَّشَـــاءُ
وإِذْ أَطَـــالَ القَـــومُ أَسْـــرى القَـــدَرُ نَحْـــوَهُمُ خَسْـــفاً ومَـــا إِنْ شَـــعَرُوا[1]

ثمّ ذكر استنجاد الناس بابن تاشفين ونجدته لهم، وجعل خلع ملوك الطوائف واجباً، فقال:

فـــإِذْ أرادَ اللهُ نَصْـــرَ الـــدّينِ استصـــرخَ النّـــاسُ ابـــنَ تاشـــفينِ
فجـــاءهُمْ كالصُّـــبْحِ في إثْـــرِ غَسَـــقْ مُســـتدركاً لِمَـــا تَبَقَّـــى مِـــنْ رَمَـــقْ
وافَى أَبُـــوْ يعقـــوبَ كالعُقَـــابِ فَجَـــرَّدَ الســـيفَ مِـــنَ القِـــرَابِ
وواصـــلَ السَّـــيرَ إلى الزَّلَّاقَـــه وَسَـــاقَهُ لِيَوْمِهَـــا مَـــا سَـــاقَه

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/ ٢ /٩٤٣

لِلّهِ دَرُّ مِثْلِهَـــــا مِـــــنْ وَقْعَـــــةْ قَامَـــتْ بنصْـــرِ الـــدّيْنِ يَـــوْمَ الجُمْعَـــةْ

وثُـــلَّ للشـــركِ هنـــاكَ عَرْشُـــهُ لم يُغْـــنِ عَنْـــهُ يَوْمَـــهُ أَذْفُنْشُـــهُ

فَوَجَـــبَ الخَلْـــعُ لِـــذِي الخَلَاعَـــةْ وصَـــرَّحُوا ليُوْسُـــفٍ بِالطَّاعَـــةْ

واتّصَـــلَ الأَمْـــرُ عَلَـــى نِظَـــامِ وامْتَـــدَّ ظِـــلُّ اللهِ لِلإِسْـــلَامِ[1]

فمنذ نحو منتصف القرن الخامس بدأت المدائن والحصون الأندلسيّة تسقط في يد الإسبان الذين ما برحوا يتوسّعون بسرعة مستغلّين الضعف الشديد لهذه الدويلات المتناحرة، فكان لابدّ من الاستنجاد بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين وجيش المرابطين الذين لبّوا نداءهم وآزروهم ونصروهم في موقعة الزَّلَّاقَة الشهيرة سنة (٤٧٩هـ) نصراً مبيناً، ثمّ عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب ممّا يثبت إثباتاً قاطعاً أنّ الغنائم والتوسّع والسيطرة لم تكن من أهدافه، بل كان هدفه الجهاد في سبيل الله، ونصرة المسلمين وإعلاء كلمة الدين.

ثمّ جاز يوسف بن تاشفين بجيشه إليهم سنة (٤٨١هـ) وآزرهم ثانية في حربهم وعاد إلى المغرب بعد أن رأى أنّ ملوك الطوائف ظلّوا على حالهم المخزي من التناحر فيما بينهم، والاستقواء على العباد، والاستخذاء أمام القشتاليّين، حتّى إنّ بعضهم تحالف مع الإسبان على يوسف بن تاشفين كالمتوكّل بن الأفطس فقد ذكر ابن الخطيب أنّه «راسل أذفونش ملك قشتالة، وأطمعه- زعموا- في المدينة، وخرج له عن مدينة شنترين»[2].

فكان لابدّ من القضاء على ملوك دويلات الطوائف وتوحيد الأندلس، وأفتاه فقهاء الأندلس وقضاتها بوجوب عزل ملوك الطوائف وتوحيد أجزاء الجزيرة الأندلسيّة تحت حكم إسلامي واحد، فجاز إليهم يوسف بن تاشفين بجيشه للمرّة الثالثة وقضى على أغلب ملوك الطوائف وقتل بعضهم وأسر بعضهم، وحرّر شطراً من المدائن المغتصبة، وضمّ قسماً كبيراً من أشلاء الجزيرة النازفة، وداواها وأضافها إلى مملكته ثمّ عاد إلى المغرب وترك

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/٢/ ٩٤٤

٢- أعمال الأعلام: ١٨٥- ١٨٦

ابنه عليّ بن يوسف أميراً عليها.

واتّخذ شعراء الأندلس من سقوط ممالك الطوائف وزوالها موقفين متناقضين هما:

أ. رثاء الممالك الزائلة وبكاؤها:

اهتمّ ملوك الطوائف بحيازة الشعراء والأدباء والعلماء في بلاطاتهم لأنّهم كانوا أعلاقاً نفيسة يزيّنون أرجاءه، وأدوات إعلاميّة يسجّلون انتصارات الممدوح ويسوّغون هزائمه ويحسّنون قبائحه، ويسطّرون فيه قصائد المديح في كلّ مناسبة، ويتنافسون في ذلك حتّى يحصلوا على رضا الممدوح، ومن ثمّ على أمواله وعطاياه، وبعض هؤلاء الشعراء تفجّعوا على ما جرى على ملوكهم وعليهم أيضاً، إذ قتل بعضهم وتلاشى مورد رزقهم، فرثوا هذه الممالك وأصحابها في قصائد مؤثّرة وأهمّ هذه الممالك:

١. **مملكة بني عبّاد:**

فقد رثاها ابن اللبّانة شاعر المعتمد الذي سبق أن رأيناه يسوّغ دفع الأتاوات للنصارى على مخالفتها للشرع الحنيف، وقد اشتهرت له قصيدة داليّة مطلعها:

تَبْكِي السماءُ بِمُزْنٍ رائحٍ غَادِ ... عَلَى البَهَالِيْلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ

عَلَى الجِبَالِ التي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا ... وكانتِ الأَرْضُ منهمْ ذَاتَ أَوْتَادِ[1]

وصوّر فيها ساعات الرحيل أو الترحيل، وبكاهم بدموع شعريّة حارّة:

نَسِيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النهرِ كونَهُمُ ... في المُنْشَآتِ كأمواتٍ بِأَلْحَادِ

والناسُ قَدْ مَلَؤُوا العَبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا ... مِنْ لُؤْلُؤٍ طَافِيَاتٍ فوقَ أَزْبَادِ

حُطَّ القِنَاعُ فلمْ تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ ... وَمُزِّقَتْ أَوْجُهٌ تَمْزِيْقَ أَبْرَادِ

تَفَرَّقُوا جِيْرَةً مِنْ بَعْدِ مَا نَشَؤُوا ... أَهْلاً بِأَهْلٍ وَأَوْلَاداً بِأَوْلَادِ

حَانَ الوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ ... وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاةٍ وَمِنْ فَادِ

١- شعر ابن اللبّانة الداني: ٣٩

سَـارَتْ سَـفَائِنُهُمْ وَالنَّـوْحُ يَصْـحَبُهَا كَأَنَّهَـا إِبِـلٌ يَحْـدُو بِهَـا الحَـادِي
كَمْ سَالَ فِي المَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ تِلْـكَ القَطَـائِعُ مِـنْ قِطْعَـاتِ أَكْبَـادِ[1]

كما اشتهرت لابن اللبّانة قصيدة تائيّة تدلّ على وفائه للمعتمد «حينما زاره في أغمات» بالمغرب أوائلها:

لكُـلِّ شـيءٍ مـن الأشْـياءِ مِيْقَـاتُ وللْمُـنى مِـنْ مُنَـائِيْهِنَّ غَايَـاتُ
والـدهرُ في صِـبْغِة الحربـاءِ مُـنغمسٌ ألـوانُ حالاتِـهِ فيهَـا اسْـتِحَالَاتُ
ونحـنُ مـن لُعَـبِ الشّـطرنْجِ في يـدهِ وربَّمَـا قُمـرتْ بالبَيْـدَقِ الشَّـاةُ
انفـضْ يـديكَ مِـنَ الـدُّنْيَا وَسَـاكِنِهَا فَـالأَرْضُ قَـدْ أَقْفرتْ وَالنَّاسُ قَـدْ مَـاتُوا
وَقُـلْ لعالِمِهَـا السِّـفْلِيِّ قَـدْ كَتَمَـتْ سَـرِيرةَ العـالِمِ العُلْـوِيِّ أَغْمَـاتُ
طَـوَتْ مَظلَّتَهَـا لَا بَـلْ مَـذَلَّتَهَا مَـنْ لَـمْ تَـزَلْ فَوْقَـهُ للعـزِّ رَايَـاتُ
مَـنْ كَـانَ بَـيْنَ النَّـدَى والبَـأْسِ أَنْصُـلُهُ هِنْدِيَّـةٌ وعَطَايَـاهُ هُنَيْـدَاتُ
رَمَـاهُ مِـنْ حَيْـثُ لَـمْ تَسْـتُرْهُ سَـابِغَةٌ دَهْـرٌ مُصِـيْبَاتُهُ نُبْـلٌ مُصِـيْبَاتُ

ثمّ يصفه بالليث والبحر ويتلهّف عليه وعلى آله، ولكنّه ينصّ على انغماسهم باللذات وما جرّت عليهم[2]:

بَحْـرٌ محـيطٌ عَهِـدْنَاهُ تَجِـيْءُ لَـهُ كَنُقْطَـةِ الـدَّارَةِ السَّـبْعُ المُحِيْطَـاتُ
وبَـدْرُ سَـبْعٍ وَسـبْعٍ تَسْـتَنِيْرُ بِـهِ السـ سَـبْعُ الأَقَـالِيْمُ وَالسَّـبْعُ السَّـمَاوَاتُ
لَـهُ وَإِنْ كَـانَ أَخْفَـاهُ السَّـرَارُ سَـنًى مِثْـلُ الصـباحِ بِـهِ تُجْلَـى الـدُّجِنَّاتُ
لَهْفِـيْ عَلَـى آلِ عَبَّـادٍ فَـإِنَّهُمُ أَهِلَّـةٌ مَـا لَهَـا فِي الأُفْـقِ هَـالَاتُ
تَمَسَّـكَتْ بِعُـرَى اللَّـذَاتِ ذَاتُهُـمُ يَـا بِـئْسَ مَـا جَنَـتِ اللَّـذَاتُ والـذَّاتُ

١- شعر ابن اللبّانة الداني: ٤٢
٢- المصدر نفسه: ٢٥

٢. مملكة بني الأفطس:

ويعرفون بأبناء مسلمة، وهم من البربر وقد اشتهرت كلمة ابن عبدون في رثائهم شهرة واسعة، وامتلأت بالإشارات التاريخيّة الغامضة، فشرحها ابن بدرون (ت ٥٦٠هـ) بكتاب اسمه "كِمَامة الزهر وفريدة الدهر".

الدَّهْـرُ يُفْجِـعُ بعـدَ العَـيْنِ بِـالأَثَرِ فَمَـا البُكَـاءُ عَلَـى الأَشْـبَاحِ والصُّـوَرِ؟

...

بـــني المظفَّـــرِ والأيَّـــامُ لا نَزَلَـــتْ مَرَاحِـلٌ والـوَرَى مِنْهَـا عَلَـى سَـفَرِ

سُـحْقاً لِيَـوْمِكُمْ يَوْمـاً وَلَا حَمَلَـتْ بمثلِـهِ ليلـةٌ في غـابرِ العُمُـرِ

مَـنْ لِلْأَسِـرَّةِ أوْ مَـنْ لِلْأَعِنَّـةِ أَوْ مَـنْ لِلْأَسِـنَّةِ يُهْـدِيْهَا إِلَى الثُّغُـرِ

مَـنْ للظُّبَـا وعَـوالي الخِـطِّ قَـدْ عُقِـدَتْ أَطْـرَافُ أَلْسُـنِها بِـالعِيِّ والحَصَـرِ

وطُوِّقَـتْ بالمنايـا السُّـوْدِ بِيْضُـهُمُ فَاعْجَبْ لِـذَاكَ ومَا مِنْهَـا سِوَى الـذِّكَرِ

مَـنْ لِلْيَرَاعَـةِ أَوْ مَـنْ لِلْبَرَاعَـةِ أَوْ مَـنْ لِلْسَـمَاحَةِ أَوْ للنفـعِ والضَّـرّرِ

أَوْ دَفْـعِ كَارِثَـةٍ أَوْ رَدْعِ آزِفَـةٍ أَوْ قَمْـعِ حَادِثَـةٍ تَعْيَـا عَلَـى القُـدَرِ[1]

٣. مملكة بني صمادح:

لأبي الحسن ابن الحاجّ اللُّوْرقي مخمّس في رثائهم قال فيه:

تَنْتَحِـبُ الـدنيا عَلَـى ابْـنِ مَعْـنِ كأنَّهَـا ثَكْلَـى أُصِـيْبَتْ بِـابْنِ

أَكْـرَمِ مَـأْمُولٍ وَلَا أَسْـتَثْنِي أُثْـنِي بِنُعْمَـاهُ ولا أُثْـنِي

والروضُ لا يُنكِرُ معروفَ المطرْ[2]

ولابن الحاجّ اللورقي هذا قطعة قصيرة في رثاء خمسة من أكبر ملوك الطوائف قال:

١- ديوان ابن عبدون اليابري: ١٣٩، ١٤٧- ١٤٨

٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٠٥/٤

كَـمْ بِالمغـاربِ مِـنْ أَشْـلَاءِ مُخْتَـرَمٍ ... وعَـاثِرِ الجَـدِّ مَصْـبُورٌ علـى الـهَوْنِ
أبنـاءِ مَعْـنٍ وعَبَّـادٍ ومَسْـلَمَةٍ ... والحِمْيَرِيَّـيْنِ بَـادِيْسٍ وذِي النُّـوْنِ
راحُـوا لَهُـمْ فِي هِضَـابِ العِـزِّ أَبْنِيَـةٌ ... وأصْـبَحُوا بَـيْنَ مَقْبُـورٍ ومَسْـجُوْنِ[1]

ب. التشفّي من ملوك الطوائف والشماتة بهم:

من أشدّ الشعراء الأندلسيّين تشفيّاً بهم هو السُّمَيْسِر(ت ٤٨٠هـ) الذي شفى صدره ونقع غلته بما آل إليه حالهم وشمت بهم وتشفّى منهم، فذكر أنّ ما أصابهم عدل وإنصاف فكما تدين تدان، وأنّهم شربوا من الكأس التي طالما أجبروا الناس على تجرّعها قال:

يَـا مُشْـفِقاً مِـنْ خُمُـوْلِ قَـوْمٍ ... لَيْـسَ لَهُـمْ عِنْـدَنَا خَـلَاقُ
ذَلُّـوا وكَـمْ طَالَمَـا أَذَلُّـوا ... دَعْهُـمْ يَـذُوْقُوا الـذي أَذَاقُـوا[2]

وذكر في قطعة ثانية تفريط ملوك الطوائف في الإسلام والمسلمين، وإساءتهم إليه بإكراه المسلمين على دفع الضرائب، ودفعهم الجزية للنصارى، لذلك لا عجب في تنكّر الناس عليهم بل هو أمر واجب:

نَـادِ المُلُـوْكَ وَقُـلْ لَهُـمْ ... مَـاذَا الـذي أَحْـدَثْتُمُ
أَسْـلَمْتُمُ الإِسْـلَامَ فِي ... أَسْـرِ العِـدَا وَقَعَـدْتُمُ
وَجَـبَ القِيَـامُ عَلَـيْكُمُ ... إِذْ بِالنَّصَـارَى قُمْـتُمُ
لَا تُنْكِـرُوا شَـقَّ العَصَـا ... فَعَصَـا النَّبِـيِّ شَـقَقْتُمُ[3]

وسخر السميسر من ملك غرناطة[4] ويصفه بالسفيه لمصانعته النصارى ومملكته في

١- الحلّة السيراء: ٢ / ١٠١- ١٠٢

٢- شعر السميسر: ٢٢٤، ٢٢٥.

٣- المصدر نفسه: ٢٢٧.

٤- حكم دويلة بني مناد في غرناطة في عصر ملوك الطوائف أربعة: زاوي بن زيري (٤٠٣- ٤١٠هـ)، ثمّ حبوس بن ماكسن (٤١١-٤٢٨هـ)، ثمّ باديس بن حبوس (٤٢٨- ٤٦٥هـ)، ثمّ عبد الله بن بلقين (٤٦٥- ٤٨٣هـ)، وعاصر السميسر الملكين الأخيرين، فالمقصود أحدهما.

جنوبي الأندلس:

صَـــــاحِبُ غَرْنَاطَـــــةٍ سَـــــفِيْهٌ وَأَعْلَـــــمُ النَّـــــاسِ بِـــــالأُمُوْرِ

صَـــــانَعَ أَدْفُـــــونْشُ والنَّصَـــــارَى فَـــــانْظُرْ إلى رأْيِـــــهِ الـــــدَّبِيْرِ[1]

وهذا الأديب الكاتب الشاعر ابن الجدّ يسخر منهم ويشمت بهم ويذكر بأنّهم ماتوا قبل موتهم بسوء فعلهم، وأنّهم نالوا ما استحقّوا، وفعل بهم ما كانوا يكرِهون الناس على فعله:

رِدُوا مَـــــوَارِدَ قَـــــدْ أُوْرِدْتُمُ حَنَقـــــاً بِهَـــا الأَنَـــامَ وَلَكِـــنْ مَـــا لَكُـــمْ صَـــدَرُ

كَـــأَنَّنِيْ بِكُـــمُ قَـــدْ صِرْتُـــمُ سَـــمَراً وَمَـــا لَكُـــمْ فِي الـــوَرَى عَـــيْنٌ وَلَا أَثَـــرُ

أَمَـــاتَكُمْ قَبْـــلَ مَـــوْتٍ سُـــوْءُ فِعْلِكُـــمُ وَكَيْـــفَ بِالـــذِّكْرِ إِذْ لَـــمْ تَحْسُـــنِ السِّـــيَرُ[2]

ثالثاً– رثاء مدن الأندلس التي تغلّب عليها الإسبان:

وهو القسم الأكبر والأهمّ من هذه الأقسام الثلاثة، ويظنّ عدد من الدارسين المحدثين أنّ رثاء المدن المنكوبة في الأندلس بدأ في الشطر الثاني من القرن الخامس الهجري، غير أنّ هذا الأمر ليس صحيحاً، فقد هاجم النورمانيّون أو الأردمانيون كما يسميّهم العرب، من غربي فرنسة سنة (٢٣٠هـ) الجزيرة الخضراء في جنوبي الأندلس وتوغّلوا حتّى وصلوا إلى إشبيلية، وعاثوا في البلاد والعباد فساداً لأنّهم «صادفوا أهلها في غفلة وبحال غرّة»[3]، ولكنّ الأمير عبد الرحمن الأوسط ردّهم على أعقابهم خائبين، ثمّ عادوا غير مرّة، وفي سنة (٢٤٧هـ)نزلوا الجزيرة الخضراء وخرّبوا وقتّلوا في عهد ابنه الأمير محمّد فقال عبد الله المورواي يرثي أهله في الجزيرة ويصف ما حلّ بها[4]:

لِتَبْـــكِ لِقَتْلَاهَـــا العُيُـــوْنُ السَّـــوَاجِمُ فَقَـــدْ عَظَّـــمَ الخَطْـــبَ الخُطُـــوْبُ العَظَـــائِمُ

١– شعر السميسر: ٢٢٣.

٢– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢/ ١ / ٢٥٧

٣– المقتبس: ٢ / ١ / ٤٥٧

٤– المصدر نفسه: ٢ / ٣١٣/٢

أَلَا إِنَّ فَـيْضَ الدَّمْـعِ هَـاجَ هُمُوْلَـهُ رِجَـالٌ ثَـوَوْا فِي الحَـرْبِ صِـيْدٌ أَكَـارِمُ

إِلَى اللهِ أَشْـكُوْ -لَا إِلَى غَـيْرِهِ- الَّـذِي دُهِيْنَـا بِـهِ وَاللهُ حَنَّـانُ رَاحِـمُ

أَلَمَّـتْ بِأَبْنَـاءِ الجَزِيْـرَةِ أُمَّـةٌ مَجُوْسِـيَّةُ الأَنْسَـابِ مُغْـرٌ أَشَـائِمُ

فَصَـدَّعَتِ الشَّـمْلَ الجَمِيْـعَ بِفُرْقَـةٍ إِلَى يَـوْمِ بَعْـثِ الحَشْـرِ لَا يَـتَلَاءَمُ

فَيَـا لِصُـرُوْفِ الـدَّهْرِ كَيْـفَ تَصَـرَّفَتْ بِقَاصِـمَةٍ تَنْفَـدُّ مِنْهَـا الحَيَـازِمُ

ذكرت الدكتورة مهجة الباشا في سفرها الكبير هذا الشعر وقالت: « إنّه كان النواة الأولى لفنّ رثاء المدن الأندلسيّة الذي بدأ في منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً»[1].

لقد كان الهجوم الأوّل للأردمانيّين في عهد عبد الرحمن الأوسط (حكم ٢٠٦-٢٣٨هـ) الذي مال إلى اللهو والدعة والترف والغناء، وهذا هو السبب الرئيس لزوال مجد العرب في الأندلس، وغفل عن تحصين الشواطئ الغربيّة للأندلس ففاجأه النورمانيّون وغزوا شواطئه الغربيّة والجنوبيّة وتوغّلوا في البلاد، ولكنّه لم يلبث أن تنبّه لسدّ هذه الثلمة، وكانت كفّة المسلمين راجحة طوال زمن الدولة الأمويّة في الأندلس حتّى نهاية القرن الرابع الهجري، بل إنّ هيبة المسلمين كانت شديدة بل كانت كابوساً مرعباً للإسبان، فعندما تأهّب المنصور ابن أبي عامر لغزو"شنت ياقب" وعلم أهلها بهذا هربوا ولم يبق منهم أحد قبل أن يصل بجيشه إليها.

ثمّ كان عهد الفتنة قُبيل بداية القرن الخامس بقليل، ثمّ تلاشت الخلافة الأمويّة، وظهرت أكثر من عشرين دويلة متناحرة ضعيفة، وبدأ بعضها بالسقوط بُعيد منتصف القرن الخامس، ويلفت الانتباه أنّ أوّل مدينة زالت كانت بأيدي النورمانيّين أو الأردمانيّين أيضاً أي من خارج إسبانية، أمّا الإسبانيّون فقد كانوا يقتصرون على إثارة الفتنة في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري ويساعدون متغلِّباً طامعاً على آخر، في مقابل حصولهم على بعض الأراضي والحصون، فهذا الأمر يدلّ دلالة قاطعة على اشتراك أعاجم

١- رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي: ٥٦

أوربّة في إزاحة المسلمين عن الأندلس واستغلابهم عليها. ففي سنة (٤٥٦هـ) اجتاحت جيوش النورمانيّين مدينة بربشتر، وهي من مدن الثغر الأعلى، وكان صراع أمراء دويلة بني هود السبب الرئيس في سقوطها فلم ينجد المقتدر بن هود المدينة لأنّها كانت تحت حكم أخيه يوسف، وقد صوّرت لنا قصيدة ابن العسّال هول الفاجعة التي حلّت بالمسلمين والفظائع التي ارتكبها المحتلّون:

ولَقَـدْ رَمَانَـا المُشْـرِكُونَ بِأَسْـهُمٍ ... لَمْ تُخْـطِ لَكِـنْ شَـأْنُهَا الإِصْـمَاءُ

هَتَكُـوا بِخَيْلِـهُمُ قُصُـوْرَ حَرِيْمِهَـا ... لَمْ يَبْـقَ لَا جَبَـلٌ وَلَا بَطْحَـاءُ

جَاسُـوا خِـلَالَ دِيَـارِهِمْ فَلَهُـمْ بِـهَا ... فِي كُـلِّ يَـوْمٍ غَـارَةٌ شَـعْوَاءُ

مَاتَـتْ قُلُـوبُ المسـلمينَ بِـرُعْبِهِمْ ... فَحُمَاتُنَـا فِي حَرْبِهِـمْ جُبَنَـاءُ

كَـمْ مَوْضِـعٍ غَنِمُـوْهُ لَمْ يُـرْحَمْ بِـهِ ... طِفْـلٌ وَلَا شَـيْخٌ وَلَا عَـذْرَاءُ

وَلكَـمْ رَضِـيْعٍ فَرَّقُـوا مِـنْ أُمِّـهِ ... فَلَـهُ إِلَيْهَـا ضَـجَّةٌ وَبُغَـاءُ

وَلَـرُبَّ مَوْلُـودٍ أَبُـوْهُ مُجَـدَّلٌ ... فَـوْقَ التُّـرَابِ وَفَرْشُـهُ البَيْـدَاءُ

وَمَصُـوْنَةٍ فِي خِـدْرِهَا مَحْجُوْبَـةٍ ... قَـدْ أَبْرَزُوْهَـا مَـا لَهَـا اسْـتِخْفَاءُ

وَعَزِيْـزِ قَـوْمٍ صَـارَ فِي أَيْـدِيْهِمُ ... فَعَلَيْـهِ بَعْـدَ العِـزَّةِ اسْـتِخْذَاءُ[1]

أمّا السبب الرئيس في ذلك- برأيه- فهو الذنوب واللهو واقتراف الكبائر وفساد الدين والخلق:

لَـوْلَا ذنـوبُ المسـلمينَ وأَنَّهُـمْ ... رَكِبُـوا الكَبَـائِرَ مَـا لَهُـنَّ خَفَـاءُ

مَـا كَـانَ يُنْصَـرُ لِلنَّصَـارَى فَـارِسٌ ... أَبَـداً عَلَـيْهِمْ فَالذُّنُـوْبُ الـدَّاءُ

فَشِـرَارُهُا لَا يَخْتَفُـوْنَ بِشِـرِّهِمْ ... وَصَـلَاحُ مُنْتَحِلِـي الصَّـلَاحِ رِيَـاءُ[2]

١- الروض المعطار في خبر الأقطار: ٩٠

٢- المصدر نفسه: ٩١

وكان صدى هذه النكبة مدويّاً، وثار بعض الفقهاء والعلماء وأهل الحميّة ومنهم الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني وأرسل إلى صديقه القديم عبّاد ملك إشبيليّة كبرى دويلات الطوائف رسالة مطوّلة يستحثّه فيها على إنقاذ بربشتر وأرسلها إليه من مرسيّة «واستفتحها بهذه الأبيات:

أَعَبَّادُ جَلَّ الرُّزْءُ والقَوْمُ هُجَّعُ ... عَلَى حَالَةٍ مِنْ مِثْلِهَا يُتَوَقَّعُ

فَلَقِّ كتابي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً ... وَإِنْ طَالَ فَالموصوفُ لِلطُّوْلِ مَوْضِعُ

إِذَا لَمْ أَبُثَّ الدّاءَ رَبَّ دَوَائِهِ ... أَضَعْتُ وَأَهْلٌ لِلْمَلَامِ المُضَيِّعُ

....

فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجز، وطبِّقْ مضاربها فكأن قد أمكنك الحزّ، ولا غرو أن يستمطر الغمام من الجدب، ويستصحب الحسام في الحرب»[1].

وردّ عليه في رقعة كتبها أبو الوليد محمّد بن عبد العزيز المعلِّم عنه، وقال: «واقتضيت ما تلا ذلك من وعظكَ المبرور، واحتسابكَ المشكور، في الحال التي أشرت إليها فأقنعتَ، ورمزت بها فأسمعتَ، بصحّة دينكَ، وبرد يقينكَ، حتّى نظرت إلى ما دَهَم المسلمين من كَلَب العدوّ عليهم؛ يجوسون البسيط من ديارهم، ويستبيحون المحوط من ذمارهم، ليس إلى الانقياد عن أحكامهم دفاع، ولا سوى الانحياز من أمامهم امتناع، قد تبيّن لهم أنّ تخاذلنا لهم علينا ناصر، وتواكلنا مظاهر مؤازر، فلا يعدمون من يتخلّى لهم عن بلد، أو يعطيهم الجزية عن يد ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾... وأمّا ما ندبتَ إليهِ، وحضضتَ عليهِ، من إحفاد السعي فيما يقمع المشركين -بدّدهم الله- ويجمع عليه كلمة المسلمين، فيعلم الله أنّي قد ناجيتُ بذلك وناديتُ، وراوحتُ فيه وغاديتُ، وبثثتُ رسلي إلى ذلك داعين، يصلون التذكرة، ويؤكّدون التبصرة، ويتلون المواعظ، ويستثيرون الحفائظ، فصَمَّتِ المسامع، واتّفقتْ في التثاقل المنازع، وخلج بالخذلان، وتجوزتِ الجمجمة في ذلك إلى الإعلان، ولو شاء الله لجمعهم على

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢ / ١ / ٨٣ ، ٨٥- ٨٦

الهدى»[1].

وللوزير الكاتب أبي عبد الله ابن عبد البَرِّ النَّمِرِي رسالة مطوّلة: «كتبها على ألسنة أهل بربشتر» فيها تشخيص لسبب الداء والبحث له عن دواء والسبب هو الذنوب والفُرقة قال:« ولولا فرط الذنوب، لما كان لريحهم علينا من هبوب، ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنّا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم، ولا ذلّ لنا حزب، ولا فلّ لنا غَرْب، ولا روّع لنا سرب، ولا كدّر لنا شرب، ولكُنّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذرَ الحذر، فإنّه رأس النظر، من بركان تطاير منه شرر ملهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلّما يؤمن من هذا إحراق، ومن هذا إغراق، فتنبّهوا قبل أن تنبّهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم، قبل أن يجاهدوكم في دوركم، ففينا متّعظ لمن اتّعظ، وعبرة لمن اعتبر، فانظروا إلى ثغورنا كيف تهتضم، وإلى أطرافنا كيف تخترم، وفيئنا كيف يقتسم، وأموالنا كيف تصطلم، ودماؤنا مطلولة، وحدودنا مفلولة، وأنتم عنّا لاهون، في غمرة ساهون، وكأنّا لسنا منكم، ولا نحن سداد دونكم مضروبة، وجنن نحوكم منصوبة»[2].

ويبدو أنّ هذه الأشعار والرسائل قد نجحت في تحريك الهمم فعقب "جمادى الأولى من سنة سبع وخمسين"[3] صمد لبربشتر المقتدر مع مدد من المعتضد واستعادها بفضل الله وعونه ومدده.

وفي السنة نفسها حدثت موقعة بَطَرْنَة قرب بلنسية، والناس غارقون في ملذّاتهم «لا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلّا وقد اتّخذ عند نفسه مغنيّة أو أكثر من ذلك»[4] كما يقول العذري الدلائي.

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢/ ١/ ١١٨ – ١١٩

٢- المصدر نفسه: ٣ / ١ / ١٧٨– ١٧٩، وانظر: ٣ / ١ / ٨٦

٣- المصدر نفسه: ٣ / ١ / ١٨٩– ١٩٠

٤- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار: ٢٧٧

بل وصفهم ابن حيّان بأشد من هذا، فهم ما بين «جاهل غرّ، أو مترف مغترّ، أو غفل لا خير ولا شر، قد خلوا بشهواتهم، وانخدعوا بإغضاء الدهر عن غرّاتهم، لا عهد لهم يومئذ بصريع إلّا من كأس شمول، أو لحظات أعين كحيل»[1].

وقد سخر الشاعر أبو إسحاق ابن معلّى من أهل بلنسية الذين خرجوا بزينتهم لمفاوضة العدو، فانقضّ عليهم وفتك بهم فقال:

لبسوا الحديدَ إلى الوَغَى وَلَبِسْتُمُ ... حُلَلَ الحريرِ عليكمُ أَلْوَانَا

مَا كانَ أَقْبَحَهُمْ وأَحْسَنَكُمْ بِهَا ... لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَطَرْنَةٍ مَا كَانَا[2]

وفي سنة (٤٨٧هـ) سقطت طليطلة إحدى كبريات قواعد الأندلس في براثن ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان سقوطها شديداً مدوّياً لمكانتها الكبيرة عند المسلمين والنصارى على حدّ سواء، فهي من أمنع مدن الثغر الأوسط وأكثرها تحصيناً، وقد كانت سابقاً عاصمة للقوطيّين، لذلك كان سقوطها إيذاناً بتوالي سقوط مدائن الأندلس، قال ابن بسّام: «ثمّ لم يزل التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتّى حلّت الفاقرة، وقُضيتِ القضيّة، وتُعجلّتِ البليّة، بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصارى، وذلك في سنة ثمان وسبعين، وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة، وواسطة القلادة، تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الإضرار بها قاصيها ودانيها»[3].

ورثاها بعض الشعراء رثاء حارّاً شديداً غاضباً حزيناً، غير أنّ اسمه سقط فيما سقط وتلاشى في بلاد الأندلس[4]:

لِتُكْلِكِ كيفَ تبتسمُ الثُّغُوْرُ ... سُرُوْراً بعدما سُبِيَتْ ثُغُوْرُ

أَمَا وأَبِي مُصَابٌ هُدَّ مِنْهُ ... ثَبِيْرُ الدينِ فاتَّصلَ الثُّبُوْرُ

...

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣ / ٢ / ٨٥٥

٢- المصدر نفسه: ٣/ ٢ /٨٥٠

٣- المصدر نفسه: ٢ / ١ / ٢٤٩

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٤٨٣

لقــدْ خضــعتْ رقــابٌ كُــنَّ غُلْبــاً وزالَ عتوُّهَــــا ومَضَــــى النُّفُــــوْرُ
وهـــانَ علـــى عزيـــزِ القـــومِ ذِلٌّ وســـامحَ فِي الحريـــمِ فَـــتًى غَيُـــوْرُ
طُلَيْطُلَـــةٌ أَبَـــاحَ الكُفْـــرُ مِنْهَـــا حِمَاهَـــــا إنَّ ذَا نبـــــأٌ كَبِيْـــــرُ

وفيها يشير إلى المفاسد التي كان أهل الأندلس غارقين في وحولها وأدرانها، أهل طليطلة وسواهم، ويتساءل لماذا خصّت طليطلة بالعقوبة من دون غيرها إن كان أكثرهم يجترحون الآثام والمحرّمات:

فـــإنْ قُلْنَـــا العقوبـــةُ أدركـــتهمْ وجـــاءُهُمُ مِـــنَ الله النَّكِـــيرُ
فإنَّـــا مـــثلُهُمْ وأشـــدُّ مـــنهمْ نجـــورُ وكيـــفَ يســـلمُ مَـــنْ يَجُـــورُ
أَنَـــأْمَنُ أَنْ يحـــلَّ بنـــا انتقـــامٌ وفينَـــا الفســـقُ أجمـــعُ والفُجُـــورُ
وأَكْـــلٌ للحـــرامِ ولا اضـــطرارٌ إِلَيْـــهِ فيَسْـــهُلَ الأمـــرُ العَسِـــيرُ
ولكـــنْ جـــرأةٌ فِي عُقْـــرِ دارٍ كـــذلكَ يفعـــلُ الكلـــبُ العَقُـــورُ

وفيها يحرّض- غير مرّة- الأندلسيّين على الجهاد ويحثّهم عليه ويوبّخهم على تركه:

خُـــذُوا ثـــأرَ الديانـــةِ وانصُـــرُوها فقـــدْ حامـــتْ علـــى القَتْلَـــى النُّسُـــورُ
ولا تَـــهِنُوا وسُـــلُّوا كُـــلَّ عَضْـــبٍ تهـــابُ مَضـــارباً منـــهُ النُّحُـــورُ
ومُوْتُـــوا كُلُّكُـــمْ فَالمَـــوْتُ أَوْلَى بكـــمْ مِـــنْ أَنْ تُجَـــارُوا أَوْ تجُـــورُوا
أَصـــبراً بعـــدَ سَـــبْيٍ وامتحـــانٍ يُـــلَامُ عليهِمَـــا القلـــبُ الصَّـــبُورُ
فَـــأُمُّ الثُّكْـــلِ مِـــذْكَارٌ ولـــودٌ وأُمُّ الصـــقرِ مِقْـــلَاتٌ نَـــزُورُ
نخـــورُ إِذَا دُهِيْنَـــا بِالرَّزَايَـــا وَلَـــيْسَ بِمُعْجِـــبٍ بَقَـــرٌ يَخُـــورُ[1]

ويكثر الشاعر من توبيخ أهل طليطلة والأندلس عامّة وتقريعهم لا لأجل التوبيخ والتقريع بل ليحضّهم على الدفاع عن مدينتهم وعن الأندلس كافّة قبل أن يتسع الخرق على الراقع، يقول في أواخرها:

ولا تَجْـــنَحْ إلى سِـــلْم وحـــاربْ عســـى أَنْ يُجْبَـــرَ العظـــمُ الكَسِـــيرُ

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٤٨٤-٤٨٥

أَنعمـــى عـــنْ مراشـــدِنَا جميعـــاً ومَـــا إنْ مِـــنْهُمُ إلَّا بَصِـــيرُ
ونلقَـــى واحـــداً ويفـــرُّ جَمْـــعٌ كَمَـــا عـــنْ قَـــانِصٍ فَـــرَّتْ حَمِـــيرُ
ولـــوْ أنَّـــا ثَبَتْنَـــا كـــانَ خـــيراً ولكِـــنْ مَـــا لَنَـــا كَـــرَمٌ وخِـــيرُ
إذا لَمْ يكـــنْ صـــبرٌ جميـــلٌ فلـــيسَ بنـــافعٍ عـــددٌ كَثِـــيرُ
أَلَا رَجُـــلٌ لَـــهُ رَأْيٌ أصـــيلٌ بِـــهِ ممَّـــا نُحَـــاذِرُ نَسْـــتَجِيرُ
يكـــرُّ إذا الســـيوفُ تناولَتْـــهُ وأيـــنَ بِنـــا إذا ولَّـــتْ كُـــرُورُ
ويطعـــنُ بالقَنَـــا الخطَّـــارِ حـــتَّى يقـــولَ الـــرمحُ مـــا هَـــذا الخَطِـــيرُ
عظـــيمٌ أنْ يكـــونَ النـــاسُ طُـــرّاً بأنـــدلسٍ قتيـــلٌ أوْ أَسِـــيرُ
أذكِّـــرُ بـــالقراعِ الليـــثَ حِرْصـــاً عَلَـــى أنْ يقـــرعَ البِـــيْضُ الـــذُّكُورُ
يُبَـــادِرُ خَرْقَهَـــا قَبْـــلَ اتِّسَـــاعٍ لخطـــبٍ مِنْـــهُ تَنْخَسِـــفُ البُـــدُورُ
...
ونرجـــوْ أنْ يُتِيْـــحَ اللهُ نَصْـــراً علـــيهمْ إنَّـــهُ نِعْـــمَ النَّصِـــيرُ[1]

ختم الشاعر بالدعاء إلى الله والاستغاثة به لثقته به – سبحانه– وارتيابه بكلّ ما سواه، فقد ضاعت طليطلة ولم تعد إلى حوزة المسلمين بعد هذا الزمن، لقد نادى الناس واستحثّهم ولكن لا حياة لمن تنادي، لذلك كان رأي ابن العَسَّال في سقوط طليطلة معاكساً لرأيه الأوّل في سقوط بربشتر لأنّه رأى من تخاذل ملوك الطوائف ما رأى، وشاهد من خور الناس وجبنهم ما شاهد قال:

يَـــا أَهْـــلَ أنـــدلسٍ حُثُّـــوا مَطِـــيَّكمُ فَمَـــا المُقَـــامُ بِهَـــا إلَّا مِـــنَ الغَلَـــطِ
الثـــوبُ يُنْسَـــلُ مِـــنْ أطرافِـــهِ وأَرَى ثَـــوْبَ الجزيـــرةِ مَنْسُـــوْلاً مِـــنَ الوَسَـــطِ
ونحـــنُ بـــينَ عَـــدُوٍّ لَا يُفَارِقُنَـــا كَيْـفَ الحيـاةُ مـعَ الحيَّـاتِ فِي سَـفَطِ[2]

ثمّ كانت معركة الزلّاقة العظيمة سنة (٤٧٩هـ)، واستعيدت مدائن كثيرة كانت وقعت في أيدي الإسبان كطلبيرة وقلمرية وقوريّة، وفي قبالة ذلك سقطت بلنسية السقوط

١– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٤٨٥– ٤٨٦
٢– المصدر نفسه: ٤ / ٣٥٢

الأوّل بيد السيّد القمبيطور (الكمبيادور) سنة (٤٨٧هـ) وظلّت تحت حكم القشتاليين إلى رمضان سنة (٤٩٥هـ) ونال الناس منهم أذى شديد حتّى ألف أبو عبد الله ابن علقمة الصدفي (ت ٥٠٩هـ) كتاباً في ذلك سمّاه «البيان الواضح في الملمّ الفادح»[١].

قال ابن بسّام: «وتجرّد أميرُ المسلمين- رحمه الله- لـمّا بلغه هذا النبأ الفظيع، واتّصل به هذا الرزء الشنيع، فكانت قذى أجفانه، وجماعَ شانه، وشغلَ يده ولسانه، يُسرّب إليها الرجال والأموال، وينصب عليها الحبائل والحبال، والحرب هنالك سجال، والحال بين العدوّ وبين عساكر أمير المسلمين في ذلك إدبار وإقبال، حتّى رحض عارها، وغسل شنارها، وكان آخر أمراء أجناده، المجهّزين إليها في جماهر أعداده، الأمير أبو محمّد مزدلي، ظبةَ حسامه، وسلكَ نظامه، ففتحها الله عليه، وأذن في تخلّصها على يديه، في شهر رمضان سنة خمس وتسعين»[٢].

ولكنّ القشتاليّين أحرقوا بلنسية قبل أن يُطردوا منها فقال ابن خفاجة في رثائها:

عَاثَتْ بِسَاحَتِكِ العِدَا يَا دَارُ ... وَمَحَا مَحاسِنَكِ البِلَى وَالنَّارُ

فَإِذَا تَرَدَّدَ في جَنَابِكِ نَاظِرٌ ... طَالَ اعْتِبَارٌ فِيكِ وَاسْتِعْبَارُ

أَرْض تَقَاذَفَتِ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا ... وَتَمَخَّضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْدَارُ

كتبتْ يدُ الحدثانِ في عَرَصاتها ... «لا أنْتِ أنتِ ولا الدِّيَارُ دِيَارُ»[٣]

ثمّ سقطت وَشْقَة (٤٨٩هـ)، وتُطَيْلَة (٥٠٣هـ)، ولَارِدَة (٥١١هـ)، وسَرَقُسْطَة (٥١٢هـ)، والمَرِيَّة (٥٤٢هـ) وشَنْتَرِيْن (٥٤٢هـ) في آخر عهد المرابطين في الأندلس.

ولم يستطع الموحّدون (٥٤٢- ٦٦٧هـ) إيقاف المدّ الإسباني في الأندلس لانشغالهم بتثبيت دعائم دولتهم في المغرب، وقضائهم على المرابطين في المغرب والأندلس، وصراعهم مع ابن مردنيش زيادة على صراعهم مع الإسبان، وقد كانت كفّة الموحّدين راجحة حتّى أوائل القرن السابع، ولاسيّما في معركة الأرك وما تلاها من معارك، ولكنّ

١- دول الطوائف: ٢٤٥- ٢٤٦

٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣ / ١ /١٠٠ -١٠١

٣- ديوان ابن خفاجة الأندلسي: ٣٥٤

خسارة المسلمين في معركة العُقاب (٦٠٩هـ) غيّرت موازين القوى ورجّحت كفّة النصارى المتحالفين من مناطق متعدّدة، قال في هذه المعركة أبو إسحاق ابن الدبّاغ[١]:

وقائلـــــةٍ أراكَ تُطِيـــــلُ فِكْـــــراً ... كأنّـكَ قـدْ وقفـتَ لـدَى الحِسَـابِ
فقلـــتُ لهَـــا أُفكـــرُّ فِي عِقَـــابٍ ... غـــدَا سَـــبَباً لمعركـــةِ العُقَـــابِ
فمـــا فِي أَرْضِ أنـــدلسٍ مُقَـــامٌ ... وقـدْ دخَـلَ البَـلَا مـنْ كـلِّ بَـابِ

وذكر ابن الخطيب هذه المعركة المشؤومة في أرجوزته التاريخيّة[٢]:

كانَـــتْ عليـــهِ وَقْعَـــة العُقَـــابِ ... حكّـــمَ فِيهـــا السَّـــيْفَ فِي الرِّقَـــابِ
وعُظِّمـــتْ مِـــنْ أَجْلِهِـــا المَعَـــرَّه ... ولمْ يَكُـــنْ مِـــنْ بَعْـــدِهَا [مِـــنْ] كَـــرَّهْ

ثمّ حدث ما يسمّى بالانهيار السريع فسقطت لوشة (٦٢٢هـ) وبطليوس (٦٢٧هـ)، وماردة (٦٢٧هـ)، وأبذة (٦٣٠هـ) وسقطت عاصمة الخلافة الأمويّة في الأندلس قرطبة (٦٣٣هـ) وحوصرت بلنسية سنة (٦٣٥هـ) فارتحل ابن الأبّار إلى تونس وأنشد قصيدته السينيّة الشهيرة لنجدتها نادباً بها قرطبة أيضاً:

أَدْرِكْ بِخَيْلِـــكَ خَيْـــلِ اللهِ أَنْدلسَـــا ... إنَّ السَّـــبِيْلَ إلى مَنْجَاتِهَـــا دَرَسَـــا
وَهَـبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَمَسَتْ ... فَلَـمْ يَـزَلْ مِنْـكَ عِـزُّ النَّصْـرِ مُلْتَمَسَـا

...

تَقَاسَـمَ الـرُّوْمُ لَا نَالَـتْ مَقَاسِـمُهُمْ ... إلَّا عَقَائِلَهَـــا المَحْجُـــوبَةَ الأُنُسَـــا
وَفِي بَلَنْسِـــيَةٍ مِنْهَـــا وَقُرْطُبَـــةٍ ... مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفَسَا
مَـــدَائِنٌ حَلَّهَـــا الإِشْـــرَاكُ مُبْتَسِـــماً ... جَـــذْلَانَ وَارْتَحَـــلَ الإِيمَـــانُ مُبْتَئِسَـــا
وَصَـــيَّرَتْهَا العَـــوَادِي العَابِثَـــاتُ بِـــهَا ... يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفَ مَا أَنِسَا
فَمِـــنْ دَسَـــاكِرَ كَانَـــتْ دُونَهَـــا حَرَسـاً ... وَمِـــنْ كَنَـــائِسَ كَانَـــتْ قَبْلَهَـــا كُنُسَـــا
يَـــا لِلْمَسَـــاجِدِ عَـــادَتْ لِلعِـــدَا بِيَعـــاً ... وَلِلنِّـــدَاءِ غَـــدَا أَثْنَاءَهَـــا جَرَسَـــا

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٤٦٤

٢- شرح رقم الحلل في نظم الدول: ١٩٢

لَهْفِـي عَلَيْهَـا إلى اسْـتِرْجَاعِ فَائِتِهـا مَدَارِسـاً لِلْمَثَـانِي أَصْـبَحَتْ دُرُسَـا[1]

وتتوزّع القصيدة بين الاستنفار والرثاء، ويغلب الاستنفار على الرثاء فيها، فيتوجّه ابن الأبّار إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي:

صِلْ حَبْلَهَا أَيُّهَا الـمَوْلَى الرَّحِيمُ فَمَا أَبْقَـى المِـرَاسُ لَهَـا حَـبْلاً ولَا مَرَسَـا
وَأَحْـيِ مَـا طَمَسَـتْ مِنْـهُ العُـدَاةُ كَمَـا أَحْيَيْتَ مِنْ دَعْوَةِ الـمَهْدِيِّ مَا طُمِسَا
أَيَّـامَ سِـرْتَ لِنَصْـرِ الحَـقِّ مُسْـتَبِقاً وَبَـتَّ مِـن نُـورِ ذَاكَ الهَـدْيِ مُقْتَبِسَـا
وَقُمْـتَ فِيهَـا بِـأَمْرِ اللهِ مُنْتَصِـراً كَالصَّـارِمِ اهْتَـزَّ أو كَالعَـارِضِ انْبَجَسَـا
تَمْحُـو الـذِي كَتَـبَ التَّجْسِيمُ مِـنْ ظُلَـمٍ وَالصُّـبْحُ مَاحِيَـةٌ أَنْـوَارُهُ الغَلَسَـا
وَتَقْتَضِـي المَلِـكَ الجَبَّـارَ مُهْجَتَـهُ يَـوْمَ الـوَغَى جَهْـرَةً لَا تَرْقُـبُ الخُلَسَـا
هَـذِيْ وَسَـائِلُهَا تَـدْعُوْكَ مِـنْ كَثَـبٍ وَأَنْـتَ أَفْضَـلُ مَرْجُـوٍّ لِمَـنْ يَئِسَـا[2]

ثمّ ينتقل إلى المديح ليملأ الممدوح زهواً وفخراً وحماسة ويختم بالاستنجاد والاستنفار والحثّ على إنقاذ الأندلس:

يَـا أَيُّهَـا المَلِـكُ الـمَنْصُورُ أَنْـتَ لَهَـا عَلْيَـاءُ تُوْسِـعُ أَعْـدَاءَ الهُـدَى تَعَسَـا
وَقَـدْ تَـوَاتَرتِ الأَنْبَـاءُ أَنَّـكَ مَـنْ يُحْيِـي بِقَتْـلِ مُلُـوكِ الصُّـفْرِ أَنْدَلُسَـا
طَهِّـرْ بِـلَادَكَ مِـنْهُم إِنَّهُـمْ نَجَـسٌ وَلَا طَهَـارَةُ مَـا لَمْ تَغْسِـلِ النَّجَسَـا
وَأَوْطِـئِ الفَيْلَـقَ الجَـرَّارَ أَرْضَـهُمُ حَـتَّى يُطَـأْطِئَ رَأْسـاً كُـلُّ مَـنْ رَأَسَـا
وَانْصُـرْ عَبِيْـداً بِأَقْصَـى شَـرْقِهَا شَـرِقَتْ عُيُـوْنُهُمُ أَدْمُعـاً تَهْمِـي زَكَـاً وَحَسَـا
هُـمْ شِيعَةُ الأَمْرِ وَهْيَ الدَّارُ قَدْ نُهِكَتْ دَاءً وَمَـا لَـمْ تُبَاشِـرْ حَسْـمَهُ انْتَكَسَـا
فَـامْلأْ هَنِيْئِـاً لَـكَ التَّمْكِـيْنُ سَـاحَتَهَا جُـرْداً سَـلَاهِبَ أَوْ خَطِّيَّـةً دُعُسَـا
وَاضْـرِبْ لَهَـا مَوْعِـداً بِـالفَتْحِ تَرْقُبُـهُ لَعَـلَّ يَـوْمَ الأَعَـادِي قَـدْ أَتَـى وَعَسَـى[3]

١- ديوان ابن الأبّار: ٣٩٥- ٣٩٦

٢- المصدر نفسه: ٣٩٧

٣- المصدر نفسه: ٣٩٩- ٤٠٠

ولكن أدوات الترجّي صارت أدوات التمنّي إذ سقطت المدينة في صفر سنة (٦٣٦هـ)....

واشتهرت كذلك قصائد متعدّدة في الاستصراخ والاستنجاد كقصيدة ابن طفيل (ت ٥٨١هـ):

أَقِيمُوا صدورَ الخَيْلِ نَحْوَ المَغَارِبِ لِغَزْوِ الأَعادي واقْتِنَاءِ الرَّغَائِبِ[١]

وقصيدة ابن سهل الإشبيلي (ت ٦٥٩هـ):

وِرْداً فَمَضْمُوْنٌ نجاحُ المَصْدَرِ هِيَ غِرَّةُ الدنيا وَفَوْزُ المَحْشَرِ[٢]

وقصيدة ابن المرابط (ق ٧ هـ):

هَلْ مِنْ مُعِيْنٍ في الهَوَى أَوْ مُنْجِدِ مِنْ مُتْهِمٍ فِي الأَرْضِ أَوْ مِنْ مُنْجِدِ[٣]

ثمّ سقطت مدينة شُقْر سنة (٦٣٩هـ) ثمّ دانية وشاطبة سنة (٦٤١هـ)، ثمّ تهاوت إشبيليّة عاصمة العبّاديّين سنة (٦٤٦هـ) بعد حصار شديد، وبعد أن نفد الطعام حتّى أكل الناس الجلود، ففجّرت هذه الحادثة أجمل قصائد رثاء مدائن الأندلس، قصيدة أبي البقاء الرُّنْدِي (ت ٦٨٤هـ):

لِكُلِّ شَيءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُغَرَّ بِطِيْبِ العَيْشِ إِنْسَانُ[٤]

وبعد مقدّمة حكميّة وصف ما أصاب الأندلس ومدائنها من ويلات:

دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلَانُ

أَصَابَهَا العَيْنُ فِي الإِسْلامِ فارْتُزِئَتْ حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وبُلْدَانُ

فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَا شَأْنُ مُرْسَيةٍ وأَيْنَ شَاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ

وَأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دَارُ العلومِ فكَمْ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيْهَا لَهُ شَانُ

وأَيْنَ حِمْصٌ ومَا تَحْوِيْهِ مِنْ نُزَهٍ ونَهْرُهَا العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلْآنُ

١- المنّ بالإمامة: ٣٢٥

٢- ديوان ابن سهل: ١٥٧

٣- تاريخ ابن خلدون: ٧ / ١٩٨

٤- أبو البقاء الرندي، شاعر رثاء الأندلس: ١٤٣

قَوَاعِـدٌ كُـنَّ أَرْكَـانَ الـبِلَادِ فَمَـا ... عَسَـى البَقَـاءُ إِذَا لَـمْ تَبْـقَ أَرْكَـانُ

تَبْكِـيْ الحنيفيّـةُ البَيْضَـاءُ مِـنْ أَسَـفٍ ... كَمَـا بَكَـى لِفِـرَاقِ الإِلـفِ هَيْمَـانُ

علـى دِيَـارٍ مِـنَ الإِسـلامِ خَالِيَـةٍ ... قَـدْ أُسْـلِمَتْ ولَهَـا بـالكُفْرِ عُمْـرَانُ

حَيْـثُ المساجِدُ قَدْ صارتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيْهِـنَّ إِلَّا نَـوَاقِيْسٌ وصُـلْبَانُ

حـتَّى المَحـارِيْبُ تَبْكِـي وَهْـيَ جَامِـدَةٌ ... حَـتَّى المَنَـابِرُ تَرْثِـي وَهْـيَ عِيْـدَانُ[1]

ثمّ يعوج على الاستنجاد مستصرخاً أهل العُدْوَة في عهد بني مَرِيْن ومليكهم آنذاك يعقوب بن عبد الحقّ:

يَـا أَيُّهَـا المَـلِكُ البَيْضَـاءُ رايَتُـهُ ... أَدْرِكْ بِسَـيْفِكَ أَهْـلَ الكُفْـرِ لَا كَـانُوا

يَـا رَاكِبِـيْنَ عِتَـاقَ الخَيْـلِ ضَـامِرَةً ... كَأَنَّهَـا فِي مَجَـالِ السَّـبْقِ عِقْبَـانُ

وحَـامِلِيْنَ سُـيُوفَ الهِنْـدِ مُرْهَفَـةً ... كَأَنَّهَـا فِي ظَـلَامِ النَّقْـعِ نِيْـرَانُ

ورَاتِعِـيْنَ وَرَاءَ البَحْـرِ فِي دَعَـةٍ ... لَهُـمْ بِأَوْطَـانِهِمْ عِـزٌّ وسُـلْطَانُ

أَعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِـنْ أَهْـلِ أَنْـدَلُسٍ ... فَقَـدْ سَـرَى بِحَـدِيْثِ القَـوْمِ رُكْبَـانُ

كَـمْ يَسْـتَغِيْثُ بَنُـو الـمُسْتَضْعَفِيْنَ وهُـمْ ... أَسْـرَى وقَتْلَـى فَمَـا يَهْتَـزُّ إِنْسَـانُ

مَـاذَا التَّقَـاطُعُ فِي الإِسْـلَامِ بَيْـنَكُمُ ... وأَنْـتُمُ يَـا عِبَـادَ اللهِ إِخْـوَانُ

أَلَا نُفُـوسٌ أَبِيَّـاتٌ لَهَـا هِمَـمٌ ... أَمَـا عَلَـى الخَـيْرِ أَنْصَـارٌ وأَعْـوَانُ[2]

ثمّ يقوم بوصف الفظائع التي ارتكبها القشتاليّون ليحمّس المسلمين ويحثّهم على نجدة الأندلس وأهلها:

يَـا رُبَّ أُمٍّ وطِفْـلٍ حِيْـلَ بَيْنَهُمَـا ... كَمَـا تَفَـرَّقُ أَرْوَاحٌ وأَبْـدَانُ

وطِفلَـةٍ مَـا رَأَتْهَـا الشَّـمْسُ إِذْ بَـرَزَتْ ... كَأَنَّمَـا هِـيَ يَـاقُوتٌ ومَرْجَـانُ

يَقُودُهَـا العِلْـجُ لِلمَكْـرُوهِ مُكْرَهَـةً ... والعَـيْنُ بَاكِيَـةٌ والقَلْـبُ حَيْـرَانُ

لِمِثْـلِ هَـذَا يَـذُوْبُ القَلْـبُ مِـنْ كَمَـدٍ ... إِنْ كَـانَ فِي القَلْـبِ إِسْـلَامٌ وإِيْـمَانُ[3]

١- أبو البقاء الرندي، شاعر رثاء الأندلس: ١٤٥- ١٤٦

٢- المصدر نفسه: ١٤٧

٣- المصدر نفسه: ١٤٨

قال الأستاذ عبد الله عنان: «لم يأت منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) حتّى كانت ولايات الأندلس الشرقيّة والوسطى كلّها قد سقطت في يد إسبانيا النصرانيّة»[1].

ثمّ قامت دولة بني نصر في جنوبي الأندلس قبل سقوط دولة الموحّدين بمدّة، فقد استطاع محمّد بن يوسف بن الأحمر أن يؤسّس مملكة غرناطة سنة (٦٣٥هـ) التي استمرّت ما يزيد على قرنين ونصف من الزمن حتّى سنة (٨٩٧هـ)، وقد استنجد بنو نصر بالمرينيّين غير مرّة، وقد نهد المنصور أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس، وكانت معركة إستجّة الشهيرة سنة (٦٧٦هـ) وتمّ استعادة بعض المدن الصغيرة كالقبذاق وبعض الحصون كحصن الصخرة ومشاقر، ولكنّ القشتاليّين استولوا على مدينة قادس (٦٦٠هـ) وشريش (٦٦٢هـ) والجزيرة الخضراء(٧٤٤هـ).

وكان القرن الثامن الهجري في الأندلس يميل إلى الاستقرار والمهادنة، مع كثرة الحروب والاستنجاد بالمرينّيين كقول لسان الدين بن الخطيب:

أَإِخْوَانَنَا لَا تَنْسَوا الفَضْلَ وَالعَطْفَا ... فَقَدْ كَادَ نُوْرُ اللهِ بِالْكُفْرِ أَنْ يُطْفَا
وَإِذْ بَلَغَ المَاءُ الزُّبَى فَتَدَارَكُوا ... فَقَدْ بَسَطَ الدِّينُ الحَنِيفُ لَكُمْ كَفَّا
تَحَكَّمَ فِي سُكَّانِ أَنْدَلُسَ العِدَا ... فَلَهفاً عَلَى الإِسْلَامِ مَا بَيْنَهُمْ لَهَّفَا
وَقَدْ مُزِجَتْ أَمْوَاهُهَا بِدِمَائِهَا ... فَإِنْ ظَمِئَتْ لَا رِيَّ إِلَّا الرَّدَى صِرْفَا
وَجَاسَتْ جُيُوشُ الكُفْرِ بَيْنَ حِلَالِهَا ... فَلَا حَافِراً أَبْقَتْ عَلَيْهَا وَلَا ظِلْفَا
أَنَوْماً وَإِغْفَاءً عَلَى سِنَةِ الكَرَى ... وَمَا نَامَ طَرْفٌ فِي حِمَاهَا وَلَا أَغْفَى[2]

ثمّ يصور حال الأندلس وما جرى على أهلها ولاسيّما النساء والأطفال ليحرّك نخوة المسلمين:

أَحَاطَ بِنَا الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... فَلَا وَزَراً عَنْهُمْ وَجَدْنَا وَلَا كَهْفَا

١- نهاية الأندلس: ٢٠-٢١

٢- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني: ٦٧٧- ٦٧٨

ثُغُـورٌ غَـدَتْ مِثْـلَ الثُّغُـورِ ضَـوَاحِكاً أَقَـامَ عَلَيْهَـا الكُفْـرُ يَرْشُـفُهَا رَشْـفَا
فَمِـنْ مَعْقِـلٍ حَـلَّ العَـدُوُّ عِقَالَـهُ وَمِـنْ مَسْـجِدٍ صَـارَ الضَّـلَالُ بِـهِ وَقْفَـا
وَمِـنْ غَـادَةٍ بَكْـرٍ جَلَتْهَـا يَـدُ الجَـلَا وَلَمْ تَـدْرِ إِلَّا دَايَـةً قَـطُّ أَوْ سَـجْفَا
وَمِـنْ صِـبْيَةٍ حُمْـرِ الحَوَاصِـلِ أَصْـبَحَتْ تُقَلِّـبُ دُعْـراً بَـيْنَ أَعْـدَائِهَا الطَّرْفَـا
وَمِـنْ نِسْـوَةٍ أَضْـحَتْ أَيَـامَى حَوَاسِـراً تُعَـايِنُ فِي أَعْوَانِهَـا الـوَهْنَ والضَّـعْفَا

ثمّ يعود ليستنجد بأهل العدوة المغربيّة مرغّباً تارة في الجهاد، مرهّباً من مغبّة تركه:

وَسِـيْلَتُنَا الإِسْـلَامُ وَهْـوَ أُخُـوَّةٌ مِـنَ المَـلَإِ الأَعْلَـى تُقَرِّبُنَـا زُلْفَـى
أَخَوْفـاً وَقَـدْ لُـذْنَا بِجَـاهِ مَـنِ ارْتَضَـى وَذُلّاً وقَـدْ عُـذْنَا بِعِـزِّ مَـنِ اسْتَصْـفَى
فَهَـلْ نَاصِـرٌ مُسْتَبْصِـرٌ فِي يَقِينِـهِ يُجِيْرُ مَنِ اسْتَعْدَى وَيَكْفِي مَنِ اسْتَكْفَى
وَمُسْـتَنْجِزٌ فِيْنَـا مِـنَ اللهِ وَعْـدَهُ فَـلَا نَكْـثَ فِي وَعْـدِ الإِلَـهِ وَلَا خُلْفَـا
وَهَـلْ بَـائِعٌ فِيْنَـا مِـنَ اللهِ نَفْسَـهُ فَـلَا مُشْـتَرٍ أَوْلَى مِـنَ اللهِ أَوْ أَوْفَى
أَفِي اللهِ شَـكٌّ بَعْـدَمَا وَضَـحَ الهُـدَى وَكَيْفَ لِضَوْءِ الصُّبْحِ فِي الأُفْقِ أَنْ يَخْفَى[1]

ويثني على قبائل المغرب المستنجد بها واصفاً إيّاها بالكرم والكثرة والقوّة مشعلاً فيها جذوة الحميّة والحماسة، ويلوذ بهم راجياً من الله النصر واللطف بالأندلس:

وَكَيْـفَ يَعِيْـثُ الكُفْـرُ فِيْنَـا وَدُوْنَنَـا قَبَائِـلُ مِـنْكُمْ تُعْجِـزُ الحَصْـرَ والوَصْـفَا
غُيُـوْثُ نَـوَالٍ كُلَّمَـا سُـئِلُوا النَّـوَى لُيُـوْثُ نِـزَالٍ كُلَّمَـا حَضَـرُوا الزَّحْفَـا
إِذَا كَتَبَـتْ يَوْمـاً فَأَقْلَامُهَـا الْقَنَـا وَإِنْ أَرْسَلَتْ يَوْماً كَانَتْ صَفَائِحُها الصُّحْفَا
فَقُومُـوا بِرَسْـمِ الحَـقِّ فِيهَـا فَقَـدْ عَفَـا وَهُبُّـوا لِنَصْـرِ الـدِّين فِيهَـا فَقَـدْ أَشْـفَى
وَهَـا نَحْـنُ قَـدْ لُـذْنَا بِعِـزِّ حِمَـاكُمُ وَنَرْجُـوْ مِـنَ اللهِ الإِدَالَـةَ واللُّطْفَـا[2]

واشتهرت لابن الخطيب- كذلك- أبيات ألقاها أمام سلطان المغرب أبي عنان قبل أن يقرأ عليه الرسالة التي حملها عن سلطان الأندلس[1]:

١- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني: ٦٧٨

٢- المصدر نفسه: ٦٧٨- ٦٧٩

١- المصدر نفسه: ٤٠٣- ٤٠٤

خَلِيْفَـــةَ اللهِ سَـــاعَدَ القَـــدَرُ عُـــلَاكَ مَـــا لَاحَ فِي الـــدُّجَى قَمَـــرُ
وَدَافَعَـــتْ عَنْـــكَ كَـــفٌّ قُدْرَتِـــهِ مَـــا لَـــيْسَ يَسْـــتَطِيعُ دَفْعَـــهُ البَشَـــرُ
لَيْـــسَ لَنَـــا مَلْجَـــأٌ نُؤَمِّلُـــهُ سِـــوَاكَ أَنْـــتَ الثِّمَـــالَ وَالـــوَزَرُ
وَجْهُـــكَ فِي النَّائِبَـــاتِ بَـــدْرُ دُجـــىً لَنَـــا وَفِي المَحْـــلِ كَفُّـــكَ المَـــطَرُ
وَالنَّـــاسُ طُـــرّاً بِـــأَرْضِ أَنْـــدَلُسٍ لَـــوْلَاكَ مَـــا أَوْطَنُـــوا وَلَا عَمَـــرُوا
وَجُمْلَـــةُ الأَمْـــرِ أَنَّـــهُ وَطَـــنٌ فِي غَـــيْرِ عَلْيَـــاكَ مَـــا لَـــهُ وَطَـــرُ
وَمِـــنْ بِـــهِ مُـــذْ وَصَـــلْتَ حَـــبْلَهُمُ مَـــا جَحَـــدُوا نِعْمَـــةً وَلَا كَفَـــرُوا
وَقَـــدْ أَهَمَّـــتْهُمُ نُفُوسُـــهُمُ فَوَجَّهُـــونِي إِلَيْـــكَ وَانْتَظَـــرُوا

ولابن زمرك (ت بعد ٧٩٧هـ) تلميذ ابن الخطيب وشاعر البلاط النصري من بعده قصائد متعدّدة في الاستنفار والاستنجاد بسلاطين المغرب، ووصف حال الأندلس قال مخاطباً السلطان أبا فارس عبد العزيز بن علي المريني (٧٦٧- ٧٧٤هـ) سلطان المغرب وقد توجّه إليه من سلطان الأندلس الغنيّ بالله يستنفره إلى المظاهرة في الجهاد:

كَـمْ مِـنْ غَرِيـبٍ فِي حَـدِيْثِ جِهَـادِهِمْ تَرْوِيْـهِ أَنْـدَلُسٌ لِأَهْـلِ المَغْـرِبِ
غَابَـتْ بُـدُوْرُهُمُ قَـدِيْماً فِي الثَّـرَى لَكِنَّـهُ مَـا نُـوْرُهُمْ بِمُغَـيَّبِ
ذَهَبُـوا لِرِضْـوَانِ الإِلَـهِ وَإِنَّمَـا آثَـارُهُمْ مِـنْ بَعْـدِهِمْ لَمْ تَـذْهَبِ
أَنْـتَ الْـذِّي تَقْفُـوْ سَـبِيْلَ جِهَـادِهِمْ فَتَعُـودُ بِـالْفَتْحِ المُبِيْـنِ الأَقْـرَبِ

...

فَاصْـرِفْ إِلَى قَصْـدِ الجِهَـادِ أَعِنَّـةً سَـبَقَتْ بِشَـأْوٍ لِلسُّـعُودِ مُغَـرِّبِ
وَأَجِـزْ فَـوَارِسَ مِـنْ مَـرِيْنٍ تَرْتَـمِي نَحْـوَ الكَرِيهَـةِ مِقْنَبـاً عَـنْ مِقْنَـبِ
أُسْـدٌ وَمَـا أَغْيَالُهَـا إِلَّا القَنَـا فَلَهُـمْ حِمـىً مِـنْ بَأْسِـهَا لَمْ يُقْـرَبِ
رُهْبَـانُ لَيْـلٍ مَـا تَنَـامُ جُفُونُهَـا وَإِذَا تَهُـبُّ عُـدَاتُهَا لَمْ تَرْهَـبِ
غُـرُّ الوُجُـوْهِ عَرِيْقَـةٌ أَحْسَـابُهَا غَيْـرَ المَحَـامِدِ والعُـلَا لَمْ تَخْطُـبِ

ومنها:

رُحْمَـــى لِقُطْـــرٍ بَـــيْنَ بَحْـــرٍ زَاخِـــرٍ وَعَـــدوٍّ دِيْـــنٍ بِالإِلَـــهِ مُكَـــذِّبِ
لَـــوْلَا دِفَـــاعُ اللهِ بَاتَـــتْ نُهْبَـــةً مَـــا بَـــيْنَ نَـــابٍ لِلْخُطُـــوبِ وَمِخْلَـــبِ
لَمْ يَبْلُغُـــوا مِعْشَـــارَ عُشْـــرِ عَـــدُوِّهُمْ وَلَهُـــمْ عَلَيـــهِ سَـــطْوَةُ المُتَغَلِّـــبِ
مَـــا ذَاكَ إِلَّا عِـــزَّةُ اللهِ الـــتِّي مَـــنْ غَالَبَـــتْ أَعْـــدَاءَهُ لَمْ يُغْلَـــبِ
وَاللهِ إِنَّ بَقَاءَهَـــا لَغَرِيبَـــةٌ لَكِنَّهَـــا مِـــنْ بَعْـــضِ مُعجِـــزَةِ النَّـــبِي[1]

وازدادت وطأة الإسبان على مملكة غرناطة في القرن التاسع الهجري، فسقطت انتقيرة (٨١٣هـ) وسقط جبل طارق (٨٦٦هـ)، وحصن أرشذونة (٨٦٧هـ) الذي يقول فيه البسطي القيسي:

مَخَايِـلُ هَـذا الحـالِ تُـؤْذِنُ بالهُلْـكِ وتَقْضِـيْ لَنَـا بِالـذُّلِّ والعِـزِّ لِلشِّـرْكِ
وإنّ بـــلادَ المســـلمينَ بأسْـــرِهَا بِـذَا القُطْـرِ يَحْوِيْهَـا العَـدُوُّ بِـلَا شَـكِّ
ويَقْسِـمُ بـينَ القَتْـلِ والأَسْـرِ أَهْلَهَـا فَمَا عَنْ كِلَا الأَمْرَينِ شَخْصٌ بِمُنْفَكِّ
فمَـنْ قَسْـمُهُ القتـلُ اسـتراحَ مـنَ العَنَـا ومَـنْ سـهمُهُ الأسـرُ اسـتمرَّ بِـلَا فَـكِّ
وقـدْ رَفَـعَ الإِشْـكالَ أَخْـذُ ارْشَـذُوْنَةٍ وتصـييرُهَا مُلْكـاً لـهُ أعظـمَ الملْـكِ
ومِـنْ قبلِهَـا حِصْـنَ اللَّقُـوْنِ اسـتباحَهُ ومـنْ جبـلِ الفـتحِ انتقَـى دُرَّةَ السِّـلْكِ
ونحـنُ علـى نَهْـجِ الشـتاتِ مسـيرُنَا لإدراكِ مـــالِ المســـلمينَ أو الـــمُلْكِ
وهيهـــاتَ مِـــنْ إدراكِ حـــقٍّ بباطِـــلٍ وغِـــشٍّ وتـــدليسٍ وبهتـــانِ أَوْ إِفْـــكِ
وفِيْ ذَاكَ مَـا نأبـاهُ مِـنْ هَتْـكِ حُرْمَـةٍ لنَـا ودمـاءٍ لـيسَ تخلـوْ مـن السَّـفْكِ
وعـيشٌ إذا مَـا العقـلُ راعَـهُ راعَـهُ لكـونِ مُعانِيْـهِ مـنَ الضِـيْقِ فِي ضَـنْكِ
رَضِـيْنَا بهـذا مـذهَباً دونَ غيرِنَـا ولمْ يَـأْنِ مِـنْ كَـفٍّ ولمْ يَـأْنِ مِـنْ تَـرْكِ
فَـوَا أَسَـفاً للـدّينِ أُهمِـلَ حَقُّـهُ وقُوبـلَ منـهُ السِّـتْرُ بالكشـفِ والهَتْـكِ
وهُـدَّتْ مبانيـهِ ودُكّـتْ سـفاهةً فساءتْ بِـمَا تُبـديْ مِـنَ الهَـدِّ والـدَّكِّ
أَفيقـوا أَفيقـوا واهْجُـرُوا النـومَ إنَّـهُ حـديثٌ صـحيحٌ مَـا أقـولُ ومَـا أَحْكِـي

١- ديوان ابن زمرك الأندلسي: ١٦٤- ١٦٥

ومَنْ كانَ فيما قَدْ مَضَى الدَّمْعَ بَاكِياً فَفَرْضٌ عليهِ قَانِيَ الدَّمِ أَنْ يَبْكِي[1]

وسقطت رندة سنة (٨٩٠هـ) بعد حصار مطبق دام عشرين يوماً، وهي من أمنع ما تبقّى للمسلمين في الأندلس وثمّة قصيدة مطوّلة قالها أحد الشعراء المجهولين في رثاء رُندة وبعض مدائن الأندلس:

أَحَقّاً خَبَا مِنْ جَوِّ رُنْدَةَ نُوْرُهَا وَقَدْ كُسِفَتْ بعدَ الشموسِ بدورُهَا
وَقَدْ أَظْلَمَتْ أَرْجَاؤُهَا وتزلزلَتْ منازُهَا ذاتُ العُلَا وقصورُهَا
أَحقّاً خليليْ أنَّ رندةَ أقفرَتْ وَأُزْعِجَ عنها أَهْلُهَا وَعَشِيْرُهَا
وهُدَّتْ مبانيهَا وثُلَّتْ عروشُهَا ودارتْ عَلَى قُطْبِ التفرّقِ دُوْرُهَا
وكانتْ عُقَاباً لَا يُنَالُ مطارُهَا ومَعْقِلَ عِزٍّ زاحمَ النسرَ صُوْرُهَا
هَوَتْ رُنْدَةُ الغرَّاءُ ثمَّ حصونُهَا وأنظارُهَا شَنْعَاءُ عَزَّ نَظِيْرُهَا[2]

ثمّ سقطت مدينة مالقة (٨٩٢هـ) ثمّ بلّش (٨٩٣هـ) ثمّ المريّة والمنكّب (٨٩٥هـ) ولم يبق سوى مدينة غرناطة التي أطبق عليها القشتاليّون وحاصروها بقيادة الملكين فرديناندو وإيزابيلا حصاراً مريعاً سبعة أشهر وصفه أبو عبد الله العقيلي خاتمة أدباء الأندلس وكاتب آخر سلاطين بني الأحمر:

بِالطَّبْلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وبِالنَّفِيْرِ نُرَاعُ
ولَيسَ مِنْ بَعْدِ هَذَا وَذَاكَ إِلَّا القِرَاعُ
يَا رَبِّ جَبْرَكَ يَرْجُوْ مَنْ هِيْضَ منهُ الذِّرَاعُ
لَا تَسْلُبَنِّيَ صَبْراً مِنْهُ لِقَلْبِي ادِّرَاعُ[3]

ونقص الطعام وما برح الإسبان يضربون أسوار مدينتهم بالمدافع والنفط، فاتّفق سلطان غرناطة وأعيانها على مفاوضة، ملك قشتالة لتسليم غرناطة، وكان ثمّة معاهدتان

١- ديوان البسطي القيسي: ٣٦٣- ٣٦٤
٢- مرثية أندلسيّة: ٤٥
٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٥٥٠

معاهدة عامّة علنيّة تضمن للمسلمين في الأندلس حرّيّة العقيدة واللغة والحركة وممارسة الشعائر الإسلاميّة والعمل بأنظمتهم وعاداتهم باستثناء حمل الذخائر الحربيّة[1]، ومعاهدة خاصّة سريّة تضمن للسلطان وأسرته وحاشيته امتيازات والتزامات وحقوقاً وواجبات، وتمنحهم بعض الأراضي والمدائن الصغيرة ومبالغ ماليّة عقب تسليم غرناطة!! وتعطيهم حرّيّة التحرّك في الأندلس وخارجه.

وفي يوم الثلاثاء الثاني من ربيع الأوّل سنة (٨٩٧هـ) سلّم أبو عبد الله الصغير مفاتيح غرناطة إلى الملكين القشتاليّين، وتزعم الرواية القشتاليّة أنّ أبا عبد الله أشرف في أثناء مسيره في شعب تلّ البذول على منظر غرناطة، فراح يسرّح بصره للمرّة الأخيرة، فانهمرت دموعه وبكى فقالت له أمّه: أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال، ونظم هذا المعنى بعضهم في بيت شعري هو:

ابــكِ مثــلَ النِّســاءِ مُلكــاً مُضــاعاً ... لمْ تحــافظْ عليــهِ مثــلَ الرِّجــالِ

وتسمّي الرواية الإسبانيّة هذه الأكمة التي وقف عليها أبو عبد الله الصغير بـ "زفرة العربي الأخيرة"[2].

وانتقل إلى بلدة أندرش وأنشأ بلاطاً صغيراً له وعاش في ترف نحو سنة ونصف ثمّ ضويق، وطلب منه الجلاء فخاطب أمير فاس وطلب اللجوء إليه على لسان كاتبه وشاعره أبي عبد الله محمّد بن عبد الله العربي العقيلي في رسالة شعريّة نثريّة سمّاها «الروض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس» ، أوائلها:

مَــولَى الملــوكِ ملــوكِ العُــرْب والعَجَــم ... رَعْيــاً لمِــاَ مِثْلُــهُ يُرْعَــى مِــنَ الــذِّمَمِ

بــك اســتجرْنَا ونِعْــم الجــارُ أنــتَ لمــن ... جــار الزمــان عليــه جَــوْر مُنــتقمِ

حــتّى غــدا مُلكُــهُ بــالرَّغْم مســتلَباً ... وَأَفْظَــعُ الخَطْــبِ مــا يــأتي علــى الــرَّغَم

حُكْــمٌ مــن الله حَــتمٌ لا مــرَدَّ لــه ... وهــلْ مــرَدٌّ لحكــمٍ منــهُ مُنْحَــتِمِ[1]

١- التنصير القسري لمسلمي الأندلس: ٤٦- ٥٥

٢- نهاية الأندلس: ٢٦٧

١- أزهار الرياض في أخبار عياض: ١ / ٧٢، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٥٢٩

واستقر أبو عبد الله في فاس وأنشأ بعض القصور على الطراز الأندلسي وتوفّي نحو سنة (٩٤٠هـ) واستمرّ عقبه في المغرب وانحدروا إلى الفقر والكدية لعدم قيامهم بأيّ عمل فصاروا يعيشون من أموال الصدقات « يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدّون من جملة الشحّاذين »[1].

وبعد أن سقطت غرناطة سقطت الأندلس كلّها فبكاها غير واحد من الشعراء وتركوا لنا مراثي دامعات، ومن أهمّ ما بقي لنا من ذلك قصيدة ليحيى القرطبي يقول فيها[2]:

وأينَ غرناطةٌ دارُ الجهادِ فكَمْ ... أُسْدٌ بهَا وهُمُ في الحربِ فرسانُ
وأين حَمراؤُهَا العُليا وزُخْرُفهَا ... كأنَّها منْ جنانِ الخلدِ عَدْنَانُ
والماءُ يجري بساحاتِ القُصورِ بهَا ... قدْ حفَّ جدوَلَها نهرٌ وريحانُ
ونهرُهَا العَذْبُ يحكِي في تَسلسُلِهِ ... سيوفَ هِنْدٍ لهَا في الجَوِّ لَمْعانُ
وأينَ جامِعُهَا المَشْهُورُ كمْ تُليَتْ ... فِي كلِّ وقتٍ بهِ آيٌ وقُرآنُ
وعالِمٌ كانَ يَهْدِي للجَهولِ هدًى ... مُدَرِّسٌ ولهُ في العلمِ تبيانُ
وعابِدٌ خاشِعٌ لله مُبتهِلٌ ... والدَّمعُ منهُ على الخَدّينِ طُوْفَانُ

وللفقيه المقرئ الخطيب أبي عبد الله أحمد بن محمّد الدقون الصنهاجي (ت ٩٢١هـ) قصيدة في رثاء الأندلس قدّم لها بقوله: «إنّه لمّا غابت شمس الجزيرة الخضراء بأخذ الحمراء، قرعت باب الندبة، لما تقدّم من الصحبة، فقلت أبياتاً صدرت من قلب كئيب، مبكية كلّ لبيب أريب، وسمّيتها "بالموعظة الغرّاء بأخذ الحمراء" » ، وفيها يلقي باللوم على أهل غرناطة- بعد مدحهم- لتفريطهم وعدم نصرتهم لأبطالهم:

والمسلمونَ منَ الأَضغانِ قدْ مُلِئَتْ ... قُلُوبُهُمْ وأَبَوْا تَسْديدَ أَخْلَالِ
والحقُّ مختلِفٌ والحمقُ مؤتَلِفٌ ... والكلُّ منصرفٌ عنْ نصرِ أبطالِ

١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤ / ٥٢٩

٢- صحيفة المعهد المصري (١٩٥٨م): ٤ / ٢٠٩

وهـــمْ لديْـــهِ كطـــيرٍ وَهْـــوَ يَنْتِفُـــهُ والطـيرُ يرجـو البَقَـا مَـعْ كَيْـدِ قَتَّـالِ
إذا تجَـــرَّدَ مِـــنْ ريـــشٍ يطـــيرُ بِـــهِ أضـــحَى يـــدافعُ عـــنْ رُوْحٍ بأوصـــالِ
سَـــــدُّوا مســـــالكَ أرزاقٍ ومنفعـــــةٍ كـــدودةِ القَـــزِّ فِي نَسْـــجٍ لِسِـــرْبَالِ
ثمَّ اســـتغاثوا: أَلَا فُرْسَـــانَ عاديـــةٌ قـالَ الصَّـدَى لستَ ذا رُمْـحٍ وَنَبَّـالِ[1]

ثمّ ذكر سقوط غرناطة بعدما قلّ الطعام وعدم الناصر، وتفرّق أهلها وتشرّدوا ورحل قسم منهم إلى المغرب، فطلب من أهله أن يكرموا الوافدين إليها[2]:

وكـــانَ مَـــا كـــانَ والألطـــافُ شـــاملةٌ لَاحَـــتْ بنُقْلَـــةِ نِسْـــوانٍ وأطفـــالِ
فلنكـــرمِ الآنَ مَـــنْ ينـــزلْ بمنزلِنَـــا فالدهـــرُ ذوْ دُوَلٍ فاســـمعْ لأمثـــالِ
وإذْ ولَا قـــدرةٌ تُـــدْنِي المُنَـــى فلهـــمْ حـــقُّ الجِـــوَارِ ولَا تُوْصَـــفْ بإهمـــالِ
نلقـــاهمُ ولنَـــا بِشْـــرٌ ومَعْـــذِرَةٌ ورحمـــةٌ يَـــا حُمَـــاةَ العَـــمِّ والخـــالِ
ولا نَـــذُدْ عَـــنْ وُرودِ الحـــوضِ واردَهُ ولا نـــدعْ قـــولَ ذيْ نُصْـــحٍ وإجمـــالِ
إخـوانكمْ رَفَعُـوا أيـدي الضـراعةِ مَـعْ كَسْـرِ القلـوبِ فَـلَا يُلْقَـوْا بإخمـالِ
وقـــلْ لـــوالٍ تلطَّـــفْ فِي مَغَـــارِمِهِمْ يَلْطُـــفْ بـــكَ اللهُ إذْ تُـــدْعَى لأَحمـــالِ

بل يحثّ أهل الأندلس على مغادرتها إذ لم يعد لنصرهم ذكر يذكر[3]:

واربـأْ بنفســكَ عــنْ أَرْضٍ تهـانُ بِـهَا فحيثُمَـا كنـتَ لَا تَخْشَـى مِـنِ اقْـلالِ
فـالموتُ عنـديَ خـيرٌ مـنْ حيـاةِ فـتًى قَـدِ اكتَسَـى بعـدَ عِـزٍّ ثـوبَ إذلالِ
والهِجْـرَةُ الآنَ قَـدْ عَـادَتْ كَمَـا سَـبَقَتْ فَـافْهَمْ تَفَاصِـيْلَ أَقْـوَالٍ وإجْمَـالِ

وتصوّر المرثية الثالثة للأندلس مأساة المسلمين التي لم ير مثلها في العصور كلّها فكلّ تلك الشروط التي اشترطها الغرناطيّون لتسليم غرناطة لم تنفّذ، وكلّ تلك العهود التي تعهّد بها الملكان القشتاليّان لا تساوي الحبر الذي كتبت به، فلم يلبث أن نقضت كلّ

١- أزهار الرياض في أخبار عياض: ١ / ١٠٤- ١٠٦
٢- المصدر نفسه: ١ / ١٠٧
٣- المصدر نفسه: ١ / ١٠٨

بنود الاتّفاق الذي أبرم، فصار المسلمون في الأندلس يعيشون تحت نير دولة متعصّبة متشدّدة دينياً، بعيدة عن مبادئ الدين المسيحي الحنيف.

صوّرت ذلك مرثية مجهولة القائل أرسلها صاحبها إلى السلطان العثماني بايزيد مستغيثاً به شاكياً ما نزل ببلاد الأندلس من رزايا ومصائب؛ أشدّها هو التنصير القَسْري، فذكر له حالهم في الأندلس وصراعهم المتوالي مع نصارى الأندلس وسواها من بلدان أوربّة، حتّى حصار غرناطة واضطرارهم لتسليمها خوفاً على أولادهم وبناتهم من الأسر والقتل والفضيحة فعاهدوهم واشترطوا شروطاً تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة[1]:

فلمَّا دخلْنَا تَحْتَ عَقْدِ ذِمامهمْ ... بَدا غَدْرُهُمْ فِينا بنقضِ العزيمةِ
وخانَ عُهُوداً كانَ قدْ غَرَّنا بِهَا ... ونَصَّرَنَا كَرْهاً بعُنْفٍ وسَطْوةِ
وأحرقَ مَا كانتْ لنَا منْ مَصَاحِفٍ ... وخَلَّطَهَا بالزَّبْلِ أَوْ بالنَّجاسةِ
وكلُّ كتابٍ كانَ فِي أمرِ دينِنَا ... فَفِي النارِ أَلْقُوْهُ بهُزْءٍ وحَقْرةِ
ولمْ يتركوا فيهَا كِتاباً لمُسْلِمٍ ... ولَا مُصْحَفاً يُخْلَى بهِ للقراءةِ
ومنْ صامَ أوْ صلَّى ويُعلمُ حالُهُ ... ففِي النارِ يُلْقُوْهُ علَى كلِّ حالةِ

ثمّ يتأوه الشاعر على تبديل أسمائهم ودينهم ومساجدهم تأوّهاً تكاد تنقدّ منه الحيازيم:

وقدْ بُدِّلتْ أسماؤُنَا وتحوَّلَتْ ... بغيرِ رِضاً منَّا وغيرِ إرادةِ[2]
فآهاً على تبديلِ دينِ محمّدٍ ... بدينِ كلابِ الرومِ شَرِّ البريَّةِ
وآهاً على أسمائِنَا حينَ بُدِّلَتْ ... بأسماءِ أعلاجٍ مِنَ اهْلِ الغَبَاوَةِ
وآهاً على أبنائِنَا وَبَنَاتِنَا ... يَرُوْحُوْنَ للَّبَّاطِ فِي كلِّ غُدْوَةِ
يُعلِّمهمْ كُفْراً وزُوْراً وفِرْيَةً ... ولا يقدِرُوا أَنْ يَمنعوهمْ بحيلةِ
وآهاً على تلكَ المساجدِ سُوِّرَتْ ... مَزَابِلَ للكفَّارِ بَعْدَ الطَّهارةِ

١- أزهار الرياض في أخبار عياض: ١ / ١١١-١١٢

٢- المصدر نفسه: ١ / ١١٢

وفي أواخرها يطلب من السلطان أن يطلب منهم أن يسمح لهم بأن يقيموا شعائرهم الدينيّة وإلَّا فالجَلَاء خير لهم وأشرف:

فهـا نحـنُ يَـا مـولايَ نشـكوْ إلـيكمُ ... فهـذَا الـذي نلنـاهُ مِـنْ شَـرِّ فُرْقَـةِ
عَسَـى دينُنَـا يبقَـى لنَـا وصـلاتُنَا ... كَمَـا عَاهـدونَا قبـلَ نقـضِ العزيمـةِ
وإلَّا فيُجْلُوْنَـا جميعـاً مِـنَ ارْضِـهِمْ ... بِأموالنَـا للغَـرْبِ دارِ الأحبَّـةِ
فإجلاؤُنَـا خـيرٌ لنَـا مِـنْ مُقَامِنَـا ... عَلَـى الكفـرِ فِي عـزٍّ عَلَـى غَـيْرِ مِلَّـةِ
فهَـذا الـذيْ نرجـوهُ مـنْ عِـزِّ جـاهِكُمْ ... ومِـنْ عنـدِكُمْ تُقْضَـى لَنَـا كـلُّ حَاجَـةِ [1]

وتلاشى صدى هذه الصرخة الدامعة النازفة ومضت أدراج الرياح وغابت شمس الأندلس في عين حمئة، في صدور المسلمين.

١- أزهار الرياض في أخبار عياض: ١ / ١١٤

الفصل الثالث

أشكال جديدة

في الشعر الأندلسي

الموشّحات

الأزجال

الموشّح

تعريفه :

أحد الفنون الشعريّة المستحدثة في الأندلس التي اتخذت قالباً جديداً في الهيكل الشعري وتنوّع القافية وتغيّر الوزن أحياناً بين أجزائه .

قال ابن سناء المُلْك: « الموشّح كلام منظوم على وزن مخصوص » [١] ، ونقل الصفدي هذا التعريف وزاد عليه : « بقواف مختلفة » [٢].

سبب تسميته :

في اللغة يقال: « الوِشَاح: كِرْسَان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر» تتوشّح به المرأة و«الكِرْس منظومة من منظومات القلادة» وهو من حلي النساء، والوشاح أيضاً:« أديم عريض يرصّع بالجوهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها» ، «وثوب موشّح وذلك لوشي فيه »[٣] .

قال المحبّي (ت ١١١١ هـ) «سمّي موشّحاً لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له»[٤] فهيكل الموشح الذي تتعدّد أسماطه وتتفرّع أغصانه هو كالوشاح المزيّن على جسد القصيدة .

لذلك فقد سمّي هذا النمط الشعري الجديد بالموشّح تشبيهاً له بوشاح المرأة سواءً بالمعنى الأوّل أو الثاني لما فيه من زركشة وتزيين وترصيع بالجواهر واللآلئ على نمط منظّم ، لما في الموشّح من هيكل أجزاؤه منظمة ومتقابلة ومتناظرة على نحو مخصوص ومرصّع بالقوافي الملوّنة المنظّمة بصنعة فنّيّة عالية [٥] .

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات : ٣٢.

٢ – توشيع التوشيح: ٢١.

٣ – القاموس المحيط وتاج العروس : وشح .

٤ – خلاصة الأثر : ١٠٨/١.

٥ – فنّ التوشيح : ١٨ .

دواعي ظهوره

١ . **البيئة الاجتماعيّة الجديدة** المكوّنة من عناصر عرقيّة مختلفة عربيّة وبربريّة وإسبانيّة ، ومكوّنات دينيّة مختلفة إسلاميّة ومسيحيّة ويهوديّة التي شكّلت نسيجاً ملوّناً جديداً ولاسيّما أنّ العرب والبربر قد أكثروا من الزواج بالإسبانيّات، منذ عهد أوّل الولاة الأندلسيّين عبد العزيز بن موسى بن نصير، ولابدّ أن يكون لذلك أثر كبير في الجيل الجديد .

٢ . **ازدهار فنّ الغناء** ولاسيّما بعد وفود المغنّي الشهير زرياب[١] (٢٣٨هـ) إلى الأندلس وانتشار مجالس اللهو والغناء وامتزاجها بالأغاني الشعبيّة الأندلسيّة للإسبانيّات؛ كلّ ذلك استدعى نمطاً جديداً من الشعر الخفيف ليكون مادّة صالحة للغناء بما فيه من تنويع في القافية، وتكرار للنغمات وجرس جميل يشبه التوزيع الموسيقي .

٣ . **طبيعة الأندلس المونقة** وقد خصصنا حيّزاً من المقدّمة لوصف جمال طبيعة الأندلس وتنوع تضاريسها من جبال شاهقة وهضاب مرتفعة وصحارى قليلة وسهول بسيطة، ووفرة مياهها وتعدد أنهارها،وروعة ينابيعها العذبة والمعدنيّة ونضرة أشجارها، وتنوع أزهارها، وكثرة متنزهاتها[٢] ولاسيما في المناطق الجنوبية وحول الأنهار.

٤ . **النزعة الأندلسيّة** التي ظهرت في القرن الثالث الهجري« وتجلّت شعوراً حماسيّاً وردّ فعل على استعلاء بعض المشارقة عليهم، وازدرائهم بهم، وغمطهم حقوقهم، وبخسهم أقدارهم، مع كونهم فرعاً نضيراً من شجرة الحضارة الإسلاميّة»[٣] .فكان لابدّ لأهل الأندلس من فنّ يفاخرون به المشرق، لذلك فإنّ ظهور الموشّح وتميّزه « واختلافه عن شكل الشعر العربي كان أوّل انفكاك حقيقي من إسار المشرقيّة »[٤] وأهمّ تميّز له من الشعر المشرقي.

١– له ترجمة وأخبار متعدّدة في المقتبس :٢ /٣٠٧ – ٣٣٥

٢– انظر مبحث ملامح جغرافيّة الأندلس : ص ١٨ من الكتاب

٣– انظر كتابي: الشعر العربي الأندلسي بين المشرقيّة والأندلسيّة : ١٥٤

٤– انظر المرجع نفسه: ١٦٠

نشأته :

الموشّحات بضاعة أندلسيّة صرفة، ذكر ذلك الأندلسيّون والمغاربة وأقرّ به المشارقة ، فقال ابن بسّام الشنتريني عن الموشّحات إنّه « نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها »[1] . وجعل ابن دحية الموشّحات « من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق »[2].

وقال ابن سعيد في" الخميلة الثانية عشرة المشتملة على ملح الموشّحات والأزجال : " « هذان طرازان كان الابتداء بعملهما من المغرب، ثمّ ولع بهما أهل المشرق»[3]. ولمّا قال الملك الناصر له عن الدوبيت « هذا طراز لا تحسنه المغاربة» ، ردّ ابن سعيد: «كما أنّ الموشّحات والأزجال طراز لا تحسنه المشارقة والمحاسن قد قسمها الله على البلاد والعباد»[4]

وقال ابن خلدون في مقدّمته :« وأمّا أهل الأندلس فلمّا كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخّرون منهم فنّاً منه سمّوه الموشّح... وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة، الخاصّة والكافّة، لسهولة تناوله وقرب طريقه »[5] .

واعترف المشارقة بذلك فقال ابن سناء المُلْك المصري بأنّ الموشّحات هي ممّا « أجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق»، وأردف قائلاً: «صار المغرب بها مشرقاً لشروقها بأفقه ، وإشراقها في جوّه، وصار أهله بها أغنى الناس لظفرهم بالكنز الذي ذخرته لهم الأيّام، وبالمعدن الذي نام عنه الأنام »[6].

١– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٤٦٩/١/١.

٢– المطرب من أشعار أهل المغرب : ٢٠٤

٣ – المقتطف من أزاهر الطرف : ٢٥٥

٤– تاج المفرق في تحلية علماء المشرق :١٣٥/٢

٥ – مقدّمة ابن خلدون : ١١٣٧

٦ – المصدر نفسه:٢٩–٣٠

وقال صلاح الدين الصفدي[1] : « الموشّح فنّ تفرّد به أهل المغرب وامتازوا به على أهل المشرق، وتوسّعوا في فنونه وأكثروا من أنواعه وضروبه».

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ ثمّة من كان يزعم أنّ الموشّحات من اختراع المشارقة وينسب إلى ابن المعتزّ موشّحة شهيرة مطلعها :

أيُّهـــا الســـاقي إليـــكَ المُشْـــتكى قَـــدْ دعونـــاكَ وإنْ لمْ تَسْـــمَعِ

والصواب أنّها لابن زهر الحفيد (ت ٥٩٥ هـ) الشاعر الوشاح الطبيب، وهي في ديوانه[2] .

وقد ظهرت الموشّحات في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومخترع الموشّحات هو مُقَدَّم بن مُعَافَ القَبْرِي (المتوفّ أواخر القرن الثالث الهجري وقد قدّر د . عمر فرّوخ ولادته في نحو سنة (٢٢٥ هـ)، نقل ابن سعيد عن الحجاري في كتابه " المسهب في غرائب أهل المغرب " أنّ المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمّد المرواني، وأخذ عنه ذلك أبو عمر ابن عبد ربّه صاحب العقد، ولم يظهر لهما مع المتأخّرين ذكر ، وكسدت موشّحاتهما»[3].

وممّا لا شكّ فيه أنّ البدايات تكون محاولات بسيطة غير مكتملة، وقد ذكر ابن بسّام الشنتريني أنّ أكثر الموشّحات الأوائل كانت تبنى على الأعاريض المهملة والأوزان غير المستعملة لذلك فقد كسدت الموشّحات الأوائل، ولم يصل إلينا منها شيء . وذكر ابن بسّام مخترعاً آخر لها يقول :« وأوّل من صنع أوزان هذه الموشّحات بأفقنا واخترع طريقتها – فيما بلغني – محمّد بن محمود القبري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار، غير أنّ أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، ... وقيل إنّ ابن عبد ربّه صاحب كتاب " العقد " أوّل من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا »[4]، ولا نظنّ ذلك

---

١ – توشيع التوشيح : ٢٠

٢ – ابن زهر الحفيد : ١٨٠–١٨٢ ، ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ٢٩٤

٣ – المقتطف من أزاهر الطرف : ٢٥٥ ، وكذلك نسبها إليه ابن خلدون في المقدّمة : ١١٣٧

٤ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٤٦٩/١/١

صحيحاً فهو لم يشر إلى الموشّحات أصلاً في كتابه العقد الذي ما فتئ يباهي بالاستشهاد فيه بشعره ولو كان ذلك صحيحاً لاستشهد بهذا الفنّ الجديد الذي تفرّدت بإبداعه الأندلس .

وممّن طوّر الموشّح في القرن الرابع الهجري يوسف بن هارون الرمادي (ت٤٠٣هـ) « ثمّ نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان أوّل من أكثر فيها من التضمين في المراكيز، يضمّن كلّ موقف يقف عليه في المركز خاصة. فاستمرّ على ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن» أي أكثر من أشطار المراكز وجزّأها، ولم يصل إلينا من موشّحاته شيء.

وأوّل من وصل إلينا شيء من موشّحاته هو الشاعر أبو بكر عبادة بن ماء السماء (نحو٤٢٢هـ) الذي طوّر شكل الموشّح وأعطاه صورته الأخيرة، باهتمامه بتفريع الأغصان وتقسيمها، يقول ابن بسّام :« وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة، سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً، فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة هذا منآدها، وقوّم ميلها وسنادها، فكأنّها لم تسمع بالأندلس إلّا منه، ولا أخذت إلّا عنه، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته » [١].

فابن بسّام وإن أثبت لعبادة فضل إكمال شكل الموشّحات إلّا أنّه لم يكن راضياً عن فنّ الموشّح كلّه، وصرّح ابن بسّام بخلوّ كتابه منها، وأنّها طمّت على إحسان عبادة في الشعر وضيّعته. ثمّ يقول « ثمّ نشأ عبادة هذا فأحدث التضفير »[٢].

وكذلك لم يبق من موشّحات عبادة سوى موشّحة أو موشّحتين لأنّ الثانية تنسب إلى غيره أيضاً ، ونموذج من موشّحاته قوله:

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٤٦٨/١/١

٢ – المصدر نفسه ٤٦٩/١/١

مَنْ وَلِيْ في أُمَّةٍ أَمْراً وَلَمْ يَعْدِلِ يُعْزَلِ إلاَّ لِحاظَ الرَّشَأِ الأَكْحَلِ

جُرْتَ فِيْ حُكْمِكَ فِي قَتْلِيَ يا مُسْرِفُ
فانْصِفِ فواجبٌ أنْ يُنْصِفَ المُنْصِفُ
وارْأفِ فإنَّ هَذَا الشَّوْقَ لَا يَرْأفُ

عَلِّلِ قلبي بذاكَ البارِدِ السَّلْسَلِ يَنْجَلِ مَا بفؤادِيْ مِنْ جَوَى مُشْعَلِ

إنَّمَا تَبْرُزُ كَيْ تُوْقِدَ نَارَ الفِتَنْ
صَنَمَا مُصَوَّراً فِي كُلِّ شَيْءٍ حَسَنْ
إنْ رَمَى لم يُخْطِ مِنْ دونِ القلوبِ الجُنَنْ

كيفَ لِيْ تَخَلُّصٌ مِنْ سَهْمِكَ المُرْسَلِ فَصِلِ واسْتَبْقِنِي حَيّاً ولَا تَقْتُلِ

يَا سَنَا الشَّمْسِ ويا أَبْهَى مِنَ الكَوْكَبِ
يَا مُنَى النَّفْسِ ويا سُؤْلِي ويَا مَطْلَبِي
هَا أَنَا حَلَّ بِأَعْدَائِكَ مَا حَلَّ بِي

عُذِّلِي مِنْ أَلَمِ الهِجْرَانِ في مَعْزِلِ وَالخَلِيْ في الحبِّ لَا يَسْأَلُ عَمَّنْ بُلِي

أَنْتَ قَدْ صَيَّرْتَ بالحُسْنِ مِنَ الرُّشْدِ غَيْ
لَمْ أَجِدْ في طَرَفَيْ حبِّكَ ذَنْباً عَلَيْ
فَاتَّئِدْ وإنْ تَشَأْ قَتْلِيَ شَيْئاً فَشَيْ

أجْمِلِ ووَالِنِي مِنْكَ يَدَ المُفْضِلِ فَهْيَ لِي مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقْبِلِ

مَـــا اغتَـــذَى طَرْفِـــيَ إِلَّا بِسَـــــنَـــــى نَاظِرَيْـــكْ

وكَـــــــــــذَا فِي الحُـبِّ مَـا بِي لَـيْسَ يَخْفَـى عَلَيْـكْ

ولِـــــــــــذَا أُنْشِـــدُ والقَلْـــبُ رَهِـــيْنٌ لَدَيـْـــكْ

يَـا عَلِـيْ سَلَّطْتَ جَفْنَيْكَ عَلَى مَقْتَلِي فَابْقِ لِي قَلْبِي وَجُدْ بِالفَضْلِ يَا مَوْئِلِي[1]

إذاً فقد اكتمل هيكل الموشّح منذ أواخر عصر الخلافة على يد عبادة بن ماء السماء، ثمّ تنوّعت أشكاله وتعدّدت أنماطه، مع الحفاظ على هيكله العامّ على يد من جاء بعده **في عصر الطوائف** ولاسيّما محمّد بن عبادة القزّاز(ت٤٨٨هـ) ، وإن كان ابن سعيد زعم أنّه « كان أوّل من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المريّة»[2] وإن كنّا نعتقد أنّ عبادة ابن ماء السماء أسبق إلى ذلك لتقدمه زمنيّاً، وإجادته فنّيّاً .

ومن رجال الموشّح في عصر الطوائف أيضاً: ابن رافع رأسه (ق٥هـ) ، وأبو بكر الجزّار السرقسطي، والكميت البطليوسي، وأبو الأصبغ ابن الأرقم، وابن اللبّانة الداني (ت٥٠٧ هـ).

وفي عصر المرابطين :الأعمى التُّطَيْلِي (ت٥٢٥هـ)،وأبو الحسن ابن الزقَّاق(ت٥٢٨ هـ) وأبو بكر ابن رُحَيْم (ت ٥٣٣هـ) وأبو بكر ابن بَاجَة (ت ٥٣٣هـ) وأبو بكر ابن بَقِي (ت ٥٤٠هـ) وأبو بكر الأبيض (ت ٥٤٤هـ) وأبو عامر ابن ينق ، وأبو القاسم الحضرمي المنيشي، وأبو بكر بن الصيرفي (ت ٥٥٧هـ).

وفي عصر الموحدين :أبو بكر ابن مالك السرقسطي، وعبد الرحمن بن الفرس الملقب بالمهر، وأبو بكر ابن هردوس (ت٥٧٢هـ)، وابن زهر الحفيد (ت٥٩٥هـ)، ابن حزمون (

---

١ – توشيع التوشيح: ١١٣، ديوان الموشّحات الأندلسيّة:٧٧، وهي في الوافي بالوفيات:١٨٩/٣– ١٩٠، منسوبة – وهماً – لمحمّد بن عبادة المعروف بابن القزّاز ومنسوبة لعبادة بن ماء السماء في ترجمته٦٢١/١٦ . فوات الوفيات: ١٥١/٢–١٥٢

٢ – المقتطف من أزاهر الطرف : ٢٥٥

ت بعد ٦١٤هـ) وابن حريق (ت ٦٢٢هـ) وابن عربي (ت ٦٣٨هـ) وابن سهل الإشبيلي (ت ٦٤٩هـ) وأبو حسن الشّشتري (ت ٦٦٨هـ).

وفي عصر بني نصر: ابن حكيم (ت ٧٠٨هـ)، وابن الصبّاغ (ت ٧٥٨هـ)، وابن خاتمة (ت٧٧٠هـ) ولسان الدين ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، وابن زَمْرَك (ت بُعيد ٧٩٧هـ) وأحمد بن علي اللخمي الغرناطي (بعد ٨٤٩ هـ)، وأبو يحيى ابن قاسم (ت ٨٥٧ هـ)، ومحمّد بن علي ابن الأزرق(ت ٨٩٦ هـ).

وقد لقي الموشّح مقاومة شديدة لما فيه من خروج على المنهج القديم حتّى إنّه لم يؤلّف فيه حتّى القرن السادس حين اعترف به رسميّاً ودخل في مجال التأليف والاستشهاد به بعد أن كان نمطاً شعريّاً شعبيّاً أو شبه شعبيّ ، تتعالى عليه المجموعات الشعريّة والكتب الأدبيّة الأندلسيّة، وقد صرح ابن بسّام بخلوّ كتابه منه[١] ، وكذلك قال صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب « ولولا أنّ العادة لم تجر بإيراد الموشّحات في الكتب المجلّدة المخلّدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك »[٢].

ولعلّ أوّل كتاب أفرد للموشّحات هو : " نزهة الأنفس وروضة التأنّس في توشيح أهل الأندلس " لابن سعد الخير البلنسي (ت ٥٧١ هـ) ومن ثمّ توافدت الموشّحات إلى ساحة المؤلّفات ككتاب المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية (ت ٦٣٣ هـ)، والمقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد[٣] (ت ٦٨٥ هـ)، ومقدّمة ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، ونفح الطيب وأزهار الرياض للمقّري (ت ١٠٤١ هـ).

كما أفردها بعض المؤلّفين الأندلسيّين بكتب خاصّة بها ، فقد ألّف ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) جيش التوشيح ط . وألّف ابن بشري (ق٩ هـ) كتاباً كبيراً عن الموشّحات سمّاه " عدّة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس " [٤].

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ١/١/ ٤٧٠. دار الطراز في عمل الموشّحات: ٤٦ .

٢ – المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٩٢ .

٣ – انظر الموشّح الأندلسي : ١٤ – ٢٤ .

٤ – طبع في انجلترا سنة ١٩٩٢، تصحيح ألن جونز ، جامعة أكسفورد.

أقسـام الموشّح

للموشّح شكل هندسي يتكوّن من أجزاء معيّنة ترد بتكرار وترتيب معيّن[1] ولم يقم المتقدّمون ولا المتأخّرون من علماء الأدب الأندلسيّين بشرح أقسام الموشّح وأجزائه بالتفصيل بل تكلّموا كلاماً مجملاً عنه، ومن أهمّ ذلك قول ابن بسّام عن القبري إنّه «يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه **المركز**، ويضع عليه الموشّحة دون تضمين فيها ولا أغصان.. ثمّ نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان أوّل من أكثر فيها من التضمين في **المراكيز**، يضمّن كلّ موقف يقف عليه في المركز خاصة. فاستمرّ على ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن ثمّ نشأ عبادة هذا فأحدث التضفير ، وذلك أنّه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمّنها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في **المركز**»[2].

وقول ابن خلدون: « استحدث المتأخّرون منهم فنّاً منه سمّوه بالموشّح ، ينظمونه **أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً**، يكثرون من أعاريضه المختلفة، ويسمّون المتعدّد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. **ويشتمل كلّ بيت على أغصان** عددها بحسب الأغراض والمذاهب» [3] .

وذكر أبو جعفر ابن الزبير مصطلح المراكز في حديثه عن محمّد بن عبادة "ومن أظرف ما وقع له في المديح من التوشيح موشحته التي أولها:

كَـمْ في القـدودِ اللِّيَـانْ تحـتَ اللِّمَـمْ مِـنْ أَقْمُـرٍ عَـوَاطِي

ومن أظرف ما وقع له من خلالها من حسن الانتظام وسهولة النظام ما يندر وجود مثله في منثور الكلام وذلك في أحد **مراكزها**..." [4]

---

١ – في مصطلحات أقسام الموشحات خلط شديد ووهم عجيب لدى كثير ممّن درسوا الموشّحات ، وقد خالفنا ما درج عليه بعض الدارسين من أقسام خاطئة، وصحّحنا ذلك بما أورده العلماء الأقدمون .

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ٤٦٩/١/١

٣ – مقدّمة ابن خلدون: ١١٣٧.

٤ – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض :٢ / ٢٥٤. وانظر الموشحة كاملة في دار الطراز:٨١–٨٤

وفي نص فائق الأهميّة- فات أغلب من تحدّثوا عن الموشّحات وأقسامها والمصطلحات الخاصّة بها- تحدث ابن خيرة المواعيني الأندلسي المتوفّى (٥٦٤هـ)، في كتابه النقدي المهمّ الذي مايزال مخطوطاً وعنوانه:"ريحان الآداب وريعان الشباب" عن نوع من أوزان الشعر سمّاه الوزن المركّب؛ فقال "ولعلّ الملاعب والتوشيح فيما أخالها من هذا المقصد المركّب " ثمّ أورد مثالاً على غريب التوشيح بموشّحة يتنازعها غير وشّاح إذ نسب بعضها ابن سعيد الأندلسي في مقتطفه لمحمّد بن عبادة المعروف بابن القزّاز[١] ، ونسبها لسان الدين بن الخطيب في جيش توشيحه لأبي بكر ابن بقيّ[٢]، وأوردها ابن سناء الملك في دار طرازه ولم ينسبها[٣] :

بِأَبِـــــي ظَـبْيُ حِمَـــى تَكْنُفُـــــــهُ أُسْـــدُ غِـيْـــلْ

مَذْهَبِـــي رَشْـفُ لَمَـــى قَرْقَفُـــــــهُ سَـــلْسَـبِيْـــلْ

يَسْتَبِـــي قَلْبِـــي بِـــمَا يَعْطِفُـــــــهُ إِذْ يَـمِـيْـــــلْ

ذُوْ اعتـــــدالْ يُعْـــــــــزَى إِلَى ذِيْ نِعْمَـــةٍ ثَابِـــتِ

فِي ظـــــلالْ تَحْـــــتَ حُلَـــــى قَطْـرِ النَّـدَى بَايِـتِ

ثمّ قال:«وهي من ستّة أبيات، فتأمّل أيّدك الله إحكام نسجه وإتقان نظمه – أربع تضمينات في كلّ غصن؟

وفي الخرجات (ستّ) تضمينات،

في كلّ بيت ثمانية عشر بيتاً وأكثرها سهل،

وليس هذا من قصدنا وإنّما ذكرنا منها هذه النكتة لكونها مسندة من تلقاء بعض شيوخنا، ولأنّها فذّة في نظمها، وتنظيمها سهل مكين فغصونها لا تكاد تشعر بها»[٤].

---

١ – المقتطف من أزاهر الطرف : ٢٥٥

٢ – جيش التوشيح:٥–٧

٣ – دار الطراز في عمل الموشّحات : ٨٨–٨٩، ديوان الموشّحات الأندلسيّة:١٧٦

٤ – ريحان الآداب: الورقة ١٤٧–١٤٨

مثال تطبيقي : موشّحة ابن بقيّ: (ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ٢٠١)

عَبَــثَ الشــوقُ بقلــبي فاشتكَــى ... أ لمَ الوجــــدِ فَلبَّـــتْ أدمـــــعي

أيُّهـــا النـــاسُ فـــؤاديْ شَـــغِفُ

وَهْـوَ مِـنْ بَغْـيِ الهَـوَى لَا يُنصـفُ

كـــمْ أداريـــهِ ودمعـــيْ يَكِـــفُ

أيُّهـــا الشـــادِنُ مَـــنْ عَلَّمَكَـــا ... بســـهامِ اللحـــظِ قَتْـــلَ السَّـــبُعِ

بـــدرُ تِـــمٍّ تحـــتَ ليـــلٍ أَغْطَـــشِ

طـــالِعٌ في غصـــنِ بـــانٍ مُنْـــتَشِ

أهيـــفُ القَـــدِّ بخـــدٍّ أَرْقَـــشِ

ســـاحرُ الطـــرفِ وكـــمْ ذَا فَتَكَـــا ... بقلـــوبِ الأُسْـــدِ بـــينَ الأضـــلُعِ

أَيُّ رِيْـــــمٍ رُمْتُـــــهُ فاجتَنَبَـــــا

وانثـــنَى يهتـــزُّ مِـــنْ سُـــكرِ الصِّـــبَا

كقضـــيبٍ هـــزَّه رِيْـــحُ الصَّـــبَا

قلـــتُ: هَـــبْ ليْ يَـــاحبيبي وَصْـــلَكَا ... واطَّـــرِحْ أســـبابَ هَجـــري وَدَعِ

قـــالَ خَـــدِّيْ زهـــرُهُ مُـــذْ فُوِّفَـــا

جَـــرَّدَتْ عينـــايَ ســـيفاً مُرْهَفَـــا

حَـــذَراً منـــهُ بـــأنْ لَا يُقْطَفَـــا

إنّ مَـــــنْ رامَ جَنَـــــاهُ هَلَكَـــــا ... فَـــأزِلْ عَنْـــكَ عُـــلَالَ الطَّمَـــعِ

ذابَ قلـــبي في هَـــوَى ظـــبيٍ غَرِيْـــرْ

وجهُـــهُ في الـــدَّجْنِ صـــبحٌ مســـتنيرْ

وفـــؤادي بـــينَ كفَّيـــهِ أســـيرْ

لمْ أجِـــدْ للصـــبرِ عنـــهُ مَسْـــلَكَا ... فانتصـــارِي بانســـكابِ الأَدْمُـــعِ

ومن النصوص الأندلسيّة السابقة نستطيع أن نستخلص مصطلحات الموشّح :

الوحدة التركيبية الأولى: المراكز أو المراكيز

وتطلق على مجموعة الأجزاء الشعرية التي يبتدئ بها الموشّح وينتهي، وتكون متناظرة في الوزن والعدد والحجم والقافية.

١ – المركز ويسمّى بحسب موضعه:

أ – المطلع أو المذهب:

هو المركز الأوّل تفتتح به الموشّحة أو القفل الأوّل في مصطلحات ابن سناء الملك، ويتكوّن من جزئين أو سمطين فأكثر، وقد يصل أحياناً إلى ثمانية أسماط، ونادراً إلى عشرة أو أحد عشر سمطاً لدى المتكلّفين، وهو في مثالنا من سمطين اثنين في موشّحة ابن بقي، وهو نوع مبسّط شائع:

عَبَــثَ الشــوقُ بقلــبي فاشــتكَى أ لمَ الوجــــدِ فلَبَّــــتْ أدمعِــــي

وقد تختلف قافية المطلع في عروضها وضربها كما هو في مثالنا (الكاف والعين)، وقد تتّفق كما في مطلع موشّحة ابن اللبّانة :

سـامِروا مَــنْ أَرِقَــا وارحمُــوا مَــنْ عَشِــقَا } **المطلع ١**

السمط ١ **السمط ٢**

ب – المركز:

وهو الجزء المتكرّر كالمطلع أو المذهب أو المركز الأوّل في الوزن والعدد والقوافي، والمركز الأوّل في مثالنا هو:

عَبَــثَ الشــوقُ بقلبِــي فاشــتكَى أَلَــمَ الوجــدِ فَلَبَّــتْ أدمعِــي

والمركز الثاني هو:

أيُّهـــا الشـــادِنُ مَـــنْ علَّمكَـــا بســـهامِ اللحـــظِ قَتْـــلَ السَّـــبُعِ

والمركز الثالث هو :

ســـاحرُ الطَّـــرْفِ وكـــمْ ذَا فَتَكَـــا بقلـــوبِ الأُسْـــدِ بـــينَ الأضـــلُعِ

فنراها تتماثل في الوزن فهي من بحر الرمل، وفي العدد فهي مكوّنة من سمطين اثنين، وفي القافية فيلتزم حرف الكاف في السمط الأوّل في جميع المراكز ، ويلتزم حرف العين في السمط الثاني في جميع المراكز .

جـ- الخرجة: هي المركز الأخير في الموشّح أو المركز العامّي، وفيها تفصيل.

٢- السِّمْط

هو اسم لكلّ شطر من المراكز سواء في المطلع أو في المتن أو في الخرجة، وهي متساوية في كلّ الموشّحة من حيث عدد الأسماط وترتيبها ووزنها وقوافيها.

أ- وأقلّ عدد الأسماط اثنان على قافية واحدة أو قافيتين مختلفتين [١].

ب- وقد تكون ثلاثيّة الأسماط على قافية واحدة كقول الوزير ابن رحيم:

مَـنْ صَبَا كما أَصْبُو فَهْـوَ للصِّـبَا نَهْـبُ واعْلَـمْ أيُّهَـا القَلْـبُ

أو على ثلاث قواف مختلفات كقول أبي بكر السرقسطي:

سَـــــقْياً لدَهْـــــرِ قـدْ نلـتُ فيـهِ اقتراحِـي مِـــنْ رَشَـــا وَسْـــنَان

ج- وكثيراً ما تكون رباعيّة الأسماط على قافيتين كقول أبي الحسن الحصري:

مَـنْ عَلَّـقَ القُرْطَـا فِي أُذُنِ الشِّعْرَى وأَلْحَـفَ المِرْطَـا الغُصُنَ النَّضْرَا

أو على ثلاث قواف كقول ابن اللبّانة :

في نَرْجِسِ الأَحْدَاقْ وسَوْسَنِ الأَجْيَادْ نَبْتُ الهوَى مغروسْ بينَ القَنَا المَيَّادْ

د- وقد تكون خماسيّة :

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٣٣.

يا مَنْ أجودُ ويبخلْ على شُحِّي وافتقاري أَهْوَاكْ وعندي زيادَهْ فها شَوْقي وادِّكَارِي

د- وقد تكون سداسيّة كقول ابن عربي:

سـائرُ الأعيـانْ لاحـتْ علـى الأكـوانْ للنـاظرينْ
والعاشـقُ الغَـيرانْ مِـنْ ذاكَ في حَـرَّانْ يُبْـدِي الأنـينْ

و- وقد تكون سباعيّة وهو نادر ولم يورد مثاله ابن سناء الملك لأنّه ملحون، وأورد الصفدي مثالاً له وهو :

من شاني عن شاني بِهِ جَفْنِي قدِ اسْتَعْبَرْ وقَدْ عَبَّرْ عَنِ المُضْمَرْ بما عندي

و- وقد تكون ثمانيّة كقول ابن حزمون:

يـاعَيْنُ بكِّـي السِّـراجْ الأزهـرا النَّـيِّرا اللامـعْ
وكـان نِعْـمَ الرِّتـاجْ فكُسِّـرا كـي تُنَثَـرا مـدامعْ

وقال ابن سناء الملك : « وقد يوجد في النادر ما قفله تسعة أجزاء وعشرة أجزاء، ولم أجد للمغاربة منه ما أثق بنسبه، فلهذا لم أذكر مثالاً منه »[1].

الوحدة التركيبية الثانية : الأغصان

١- الغصن : هو اسم لكلّ جزء من الأجزاء الشعريّة بين مركزين في الموشّح ويشترط في قوافي الأغصان أن تأتي على رويّ واحد، وقد يكون الغصن من جزء واحد كما هو في مثالنا التطبيقي، وقد يكون الغصن مركّباً من جزئين إلى أربعة أجزاء، فمثال الأغصان المركبة من جزئين قول عباده بن ماء السماء[2]:

إنّـما تَبْـرُزُ كـي تُوقِـدَ نـارَ الفِـتَنْ } **غصـن١**
صَـنَما مصـوَّراً في كـلِّ شـي حَسَـنْ } **غصـن٢**
إنْ رَمَـى لم يُخْطِ منْ دونِ القلوبِ الجُنَنْ } **غصن٣**

١- دار الطراز في عمل الموشّحات: ٣٣.

٢ - ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ٧٧.

ومثال الأغصان المركبة من ثلاثة أجزاء[1] قول ابن زهر[2] :

هـــلْ تُســـتعادُ أيّامُنـــا بـــالخليجِ وليالينـــا

أوْ يُسْـــــتفادُ مـــنَ المســكِ الأريــجِ مِســكُ دارينـا

أوْ هَـــلْ يكـــادُ حسـنُ المكـانِ البهـيجِ أَنْ يُحيِّينـــا

ومثال الأغصان المركّبة من أربعة أجزاء موشح منسوب إلى ابن القزّاز أو ابن بقيّ[3] :

بَـــدْرُ تِـــمٌّ شَـمْسُ ضُـحَى غصـــنُ نَقَـــا مِسْـكُ شَـمْ

مَـــا أَنَـــمْ مَـــا أَوْضَـــحَا مَـــا أورقَـــا مَـــا أَنَـــمْ

لا جَـــــرَمْ مَـــنَ لَـمَـــحا قَـــدْ عَشِـــقَا قَـــدْ حُـــرِمْ

والمركز الذي يلي مجموع الأغصان السابقة هو:

فَالوصـــــالْ مَـــا قـــدْ خَـــلَا مِنْ أَمَـــلٍ فَـــايِـتِ

وَالخيـــــالْ مَـــا قـــدْ عَـــلَا مِـنْ نَفَـسٍ خَافِـتِ

ومجموعهما يسمّى بيتاً كما نصّ على ذلك المواعيني.

٢- البيت والدور:

البيت عند الأندلسيّين هو عبارة عن مجموع الأغصان مع المركز الذي يليها مباشرة، والبيت الأوّل في مثالنا:

بيت ١

دور ١

أيُّهـــا النـــاسُ فـــؤاديْ شَـــغِفُ **}غصن ١**

وَهْـوَ مِـنْ بَغْـيِ الهَـوَى لَا يُنصـفُ **}غصن ٢**

كـــمْ أداريـــهِ ودمعـــيْ يَكِـــفُ **}غصن ٣**

أيُّهـا الشـادِنُ مَـنْ عَلَّمَكَـا بسـهامِ اللحـظِ قَتْـلَ السَّـبُعِ

١- انظر دار الطراز في عمل الموشّحات: ٧٥ وما بعدها .

٢- ديوان الموشّحات الأندلسيّة :٢٩٩.

٣- ديوان ابن بقي : ١٧٦.

ويرى ابن خلدون[1] وابن سناء الملك أنّ البيت هو مجموع الأغصان بين مركزين، وهو ما يطلق عليه بعض المشارقة اسم الدور، ولا بأس في إطلاق الدور على الأغصان بين مركزين، ويتألف الدور طوليّاً من ثلاثة أغصان غالباً كمثالنا :

دور

أيُّهـــا النـــاسُ فـــؤادي شـــغفُ (غصـــن)١

وَهْـوَ مـنْ بَغْـيِ الهَـوَى لَا ينصـفُ (غصـن)٢

كَـــمْ أداريـــهِ ودمعـــي يَكِـــفُ (غصـــن)٣

وقال ابن سناء الملك: « وقد يكون في النادر من جزأين ، وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف »[2]وقد تزيد لتكون أربعة أغصان كقول أبي بكر محمّد بن باجة في موشحة شهيرة[3]:

دور

واخْضُـبِ الزَّنْـدَ منـكَ باللَّهَـبِ (غصـن)١

مِـنْ لُجَيْـنٍ قـدْ حُـفَّ بالـذهبِ (غصـن) ٢

تحـتَ سِـلْكٍ كجـوهرِ الحَبَـبِ (غصـن)٣

مَـعَ أَحْـوَى وأعـذبِ الشَّنَـبِ (غصـن)٤

وقد تصل إلى خمسة أغصان نادراً [4].

ويشترط في الأدوار تكرارها بالعدد والحجم والوزن نفسه من دون القافية كما هو في مثالنا، فالدور الأوّل على قافية الفاء المضمومة ، والثاني على قافية الشين المكسورة، والثالث على قافية الباء المفتوحة، والرابع على قافية الفاء المفتوحة، والخامس على قافية الراء الساكنة.

---

١ – مقدّمة ابن خلدون: ١١٣٧، دار الطراز في عمل الموشّحات: ٣٣. وبعض المشارقة يسمّون ذلك دوراً كالأبشيهي في المستطرف في كل فنّ مستظرف: ٤٤٧

٢ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٣٣.

٣ – ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ١٩٠ .

٤ – دار الطراز: ٨١–٨٤

الخرجة

هي المركز الأخير في الموشّح وهي ختام الموشّح، وقرارة النغمة الموسيقيّة والدلاليّة، يقول ابن سناء الملك: «الخرجة أبزار الموشّح وملحه وسكّره، ومسكه وعنبره، وهي العاقبة التي ينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة»[1] ،والعبارة الأخيرة خطيرة جداً ؛ يشرحها ابن ابن سناء الملك بقوله: « وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها، ويعملها من ينظم الموشح في الأول، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية، وحين يكون مسيَّباً مسرَّحاً ومتبحبحاً مُنفسحاً، فكيف ما جاءه اللفظ والوزن خفيفاً على القلب أنيقاً عند السمع مطبوعاً عند النفس حلواً عند الذوق تناوَله وتنوّله وعامله وعمله وبنى عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذَّنَب ونصب عليه الرأس»[2].

والخرجة في موشّحنا هي:

لَـمْ أَجِـدْ للصـبرِ عنـهُ مَسْـلَكَا فانتصـارِي بانسـكابِ الأدمـعِ

وهي ثلاثة أنواع:

أ–الخرجة المعربة :

ولا يفضلها ابن سناء الملك الذي يقول معترضاً « فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدّمها من الأبيات والأقفال خرج الموشّح من أن يكون موشّحاً اللّهم إلّا إن كان موشّحَ مَدْحٍ،وذكر الممدوح في الخرجة فإنّه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بقي:

إنّمـا يَحْـيَى سَـليلُ الكِـرامِ واحـدُ الـدنيا ومَعْـنَى الأنـامِ

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح، ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً هزّازة سحّارة خلّابة، بينها وبين الصبابة قرابة، وهذا معجز معوز، وما

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٤٣.

٢ – المصدر نفسه: ٤٣.

يوجد منه في الموشّحات سوى موشّحين أو ثلاثة كقول ابن بقي:

ليـلٌ طويْـلْ وما مُعيْـنْ يا قلبَ بعضِ الناس أَمـا تَليْـنْ

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب وإلّا فليغرب »[1].

والحقّ أنّ هذا القول يجانب الحقّ لأنّ الخرجة المعربة الفصيحة الألفاظ ترد في أغلب أغراض الموشّحات، وإنّ نظرة يسيرة في خرجات الموشّحات التي اخترناها في مختلف الأغراض تثبت ذلك، أمّا أن تكون ألفاظها (هزّازة سحّارة خلّابة) فهذا صحيح ومرغوب فيه لأنّ الخرجة لدى الوشّاحين بمنزلة مطلع القصيدة لدى الشعراء، ومن الخرجات الجميلة التي أعجب بها الوشّاحون خرجة الأعمى التطيلي في المديح :

أمَـا تَـرَى أَحْمَـدْ فِي مَجْـدِهِ العَـالي لَا يُلْحَـقُ

أَطْلَعَـهُ المغـربُ فَأرِنَـا مِثْلَـهُ يَـا مَشْـرِقُ

ويقول ابن سناء الملك «والمشروع بل المفروض في الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثباً واستطراداً وقولاً مستعاراً على بعض الألسنة إمّا ألسنة الناطق أو الصامت، أو على الأغراض المختلفة الأجناس. وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران. ولا بدّ في البيت الذي قبل الخرجة من: قال أو قلتُ أو قالت أو غنّى أو غنيتُ أو غنتْ»[2]. وقد تسبق الخرجة بما يدلّ على الإنشاد والغناء مثل: غنّى وأنشد وشدا وقال ونادى وأنادي كقول الوشّاح :

نَأَى بفؤادي وصيَّرَنِي حَادِي فظَلْتُ أُنَادِي محبوبي مُسَافِر صَبِّرُوني

وقد تأتي الخرجة على لسان النسوان والصبيان كقول ابن لبّون :

يـا طيـبَ وَقْـتٍ وطيـبَ زَمَـانِ

قطعتُـهُ بطيـبِ الأَمَـاني

والـبَمُّ مُنْشِـدٌ والمَثَـاني

١- دار الطراز في عمل الموشّحات: ٤٠ ، ٤١.

٢- المصدر نفسه: ٤٠ ، ٤١.

وَدَّعَـــــتْ وقالـــــتْ بتَحْنِـــــيْنْ اللهُ لَــك يَــا غريْــب يــا مِسْــكِيْنْ

وقد تكون على ألسنة الحيوانات كالحمام في قول الوشّاح عبادة القزّاز:

إنّ الحَمَـــــــامْ في أيْكِهـــــــا تَشْـــــــدُوْ

قُلْ هل عُلِمْ أو هَلْ عُهِدْ أو كَانْ كالمعْتَصِمْ والمعْتَضِدْ مَلِكَانْ

ب – الخرجة العامّيّة :

وهي التي يفضلها ابن سناء الملك لبثّ روح الدعابة والهزل فيقول: « والشرط فيها أن تكون حجّاجيّة من قبل السخف قزمانيّة من قبل اللحن، حارّة محرقة حادّة منضجة، من ألفاظ العامّة، ولغات الداصّة »[1].

ومن الخرجات العامّيّة خرجة موشّحة أبي جعفر ابن سعيد :

بـــاللهْ قُـــلْ يـــا رســـولي لِـــشْ يغِـــبْ بـــدري

وخرجة الأعمى التطيلي:

أَنَـــا فِيْـــهِ أَهِـــيْمْ وَهْـــوَ بي يُغَـــنِّي

قَدْ رَأَيْتُكْ عِيَانْ لِسْ عَلِيْكْ سَاتَدْرِي سَا يَطُولُ الزَّمَانْ وَسَتَنْسَى ذِكْرِي

وإذا استحسن الوشّاحون الألفاظ العامّيّة في الخرجة فإنّهم لا يقبلون أن تكون في أثنائها ألفاظ عامّيّة، وما كان كذلك فقد سمّي بالموشّحات المزنّمة والزنيم هو الابن غير شرعي، أو من ينتسب إلى قوم وهو ليس منهم.

ج . الخرجة الأعجميّة :

يشترط فيها ابن سناء الملك« أن يكون لفظها في العجمي سفسافاً نفطيّاً، ورماديّاً زُطّيّاً»[2]

وتأتي بلغة رومانثيّة فيكون في الموشّحة لفظة أو ألفاظ أعجميّة كخرجة ابن مسلمة:

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٤٠ .

٢ – المصدر نفسه: ٤٣ .

يُنَـــادِي سِيَّـــهْ يَـــا عَـــمِّ احْـــرِزْ ثِيَـابِـــي

فسيّه لفظة أعجميّة من اللغة الرومانثيّة.

وقد تكون أعجميّة في جلّ ألفاظها كخرجة ابن المعلّم :

بِـنْ يـا سَـحّارا أَلْـبَ قِشْـتَ كُـنْ بـال فخـور كَنْـد بِنـا بِـذي مُـورِ

وترجمتها : تعالي سحّارة . الفجر الذي هو جميل كعادته . حين يجيء يتطلب حبيباً.

وهذه خرجة أعجميّة أخرى على لسان فتاة من موشّحة لابن القزّاز:

غَنَّـــتْ وَمَـــا لِلأَمَـــلْ إِلَّا إِلَيْـــهِ مَصْـــرِفُ

مِـوْ سَـيِّدي ابْـراهيم يـانُ مـنْ دُلْـجِ فانْتَ ميْبْ ذي نُخْـتِ

إن شِنُـــون كـــارِشْ يرمعـــي تيـــبْ غرمي أوبْ أَفِـــرْتِ[1]

ومعنى هذه الخرجة:

يا سيّدي إبراهيم ، يا صاحب الاسم العذب أقبل إليّ ، في المساء

فإن لم ترد ، جئت إليك . ولكن أين أجدك ؟!

وأخيراً قد تكون الخرجة مطلعاً أو مذهباً لموشّحة أخرى إذا قام الوشّاح المتأخّر بمعارضة موشّحة الوشّاح المتقدّم كمعارضة لسان الدين ابن الخطيب لموشّحة ابن سهل الإشبيلي يقول ابن الخطيب في البيت الأخير[2]:

هَاكَهَـــا يَـــا سِـــبْطَ أَنْصَـــارِ العُـــلا والـــذي إِنْ عَثَـــرَ الـــدَّهْرُ أَقَـــالْ

غَـــادةً ألبسَـــهَا الحُسْـــنُ مُـــلا تَبْهَـــرُ العـــينَ جَـــلاءً وصِـــقَالْ

عَارَضَـــتْ لفظـــاً وَمعـــنًى وحُـــلا قـــولَ مَـــنْ أَنْطَقَـــهُ الحـــبُّ فَقَـــالْ

---

١ – ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ١٤٩.

٢ – المصدر نفسه: ٤٢٧.

"هَـلْ دَرَى ظَـبْيُ الحِمَـى أَنْ قـدْ حَمَـى قَلْـبَ صَـبٍّ حَلَّـهُ عَـنْ مَكْـنَسِ
فَهْـوَ فِي حَـرٍّ وخَفْـقٍ مِثْلَمَـا لَعِبَـتْ رِيْـحُ الصَّـبَا بِالقَبَـسِ"

وكذلك عارض ابن زمرك موشّحة أخرى لابن سهل الإشبيلي فجعل خرجته مطلع موشّحة ابن سهل ومذهبه فقال في البيت الأخير:

خُـذْهَا عَلَـى دَعْـوَى تُـزْرِي عَلَـى الـرَّوْضِ الوَسِـيْمْ
جَـاءَتْ كَمَـا تَهْـوَى أَرَقَّ مِـنْ لَـدْنِ النَّسِـيْمْ
قَـدْ طَارَحَـتْ شَـكْوَى مَـنْ قَـالَ فِي اللَّيْـلِ البَهِـيْمْ:

"لَيْـلُ الهَـوَى يَقْظَـانْ وَالحُـبُّ تِـرْبُ السَّـهَرِ
وَالصَّـبْرُ لِـيْ خَـوَّانْ وَالنَّـوْمُ مِـنْ عَيْنِـيْ بَـرِي"

ويعلّق الصفدي على شروط ابن سناء الملك في الخرجة ؛ فيقول:«قلت هذه الشروط التي شرطها في الخرجة قلّ من يلتزمها لتعذّرها عليه ، فهو إمّا أن يتركها، وإمّا أن يأتي بها خارجة عن هذه الشروط»[1].

نوعا الموشّح :

١- الموشّح التامّ :

وهو ما ابتدئ فيه بالمراكز ، وهو يتألّف غالباً من مطلع وخمسة أبيات، فيبدأ بمركز (مطلع) وينتهي بمركز (خرجة)، وبين هذه المراكز تقع الأدوار، وكلّ دور مع المركز الذي يليه يسمّى بيتاً، وذكر ابن خلدون أنّه «أكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات»[2] بل قد تزيد كما في موشّحة ابن الخطيب الشهيرة، إذ تصل إلى عشرة أبيات:

جَـادَكَ الغَيْـثُ إِذَا الغَيْـثُ هَمَـى

---

١ – توشيع التوشيح : ٢٩

٢ – مقدّمة ابن خلدون : ١١٣٧

ومثال الموشّح التامّ السداسي المراكز قول الأعمى التطيلي[1]:

ضَاحكٌ عَنْ جُمَانْ سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانْ وَحَوَاهُ صَدْرِي

آهِ مِـــمَّا أَجِـــدْ شَفَّنِـــي مَـــا أَجِـــدُ

قَـــامَ بِي وَقَعَـــدْ بَاطِـــشٌ مُتَّئِـــدُ

كُلَّمَـــا قُلْـــتُ قَـــدْ قَـــالَ لِـــي أَيْـــنَ قَـــدُ

وانْثَـنَى خُـوْطَ ذَا مِهَـزٍّ نَضْـرِ عَابَثَتْـهُ يَـدَانْ لِلصَّبَا وَالقَطْـرِ

لَـيسَ لِي مِنْـكَ بُـدْ خُـذْ فُـؤَادِي عَـنْ يَـدْ

لَـمْ تَـدَعْ لِي جَلَـدْ غَيْـرَ أَنِّي أَجْهَـدْ

مَكْـرَعٌ مِـنْ شُـهُدْ واشْتِيَاقِـيْ يَشْـهَدْ

مَـا لِبِنْـتِ الـدِّنَانْ وَلِـذَاكَ الثَّغْـرِ أَيْنَ مُحَيَّا الزَّمَانْ مِنْ حُمَيَّا الخَمْرِ

بِي هَـــوًى مُضْـــمَرُ لِيـت جَهْـدي وِفْقُـهْ

كلَّمـــا يَظْهَـــرُ فَفُـــؤَادِي أُفْقُـــهْ

ذَلِـــكَ المَنْظَـــرُ لَا يُـــدَاوَى عِشْـــقُهْ

بِـأَبِي كَيْـفَ كَـانْ فَلَكِـيٌّ دُرِّي رَاقَ حَتَّى اسْتَبَانْ عُذْرُهُ وَعُذْرِي

هَـلْ إِلَيْـكَ سَـبِيْلْ أَوْ إِلَى أَنْ أَيْأَسَـا

ذُبْـتُ إِلَّا قَلِيْـلْ عَبْـرَةً أَوْ نَفَسَـا

مَـا عَسَـى أَنْ أَقُـوْلْ سَـاءَ ظَـنِّي بِعَسَـى

وانْقَضَى كُلُّ شَانْ وَأَنَـا أَسْتَشْـرِي خَالِعـاً مِـنْ عِنَـانْ جَزَعِي وصَبْرِي

مَـا عَلَـى مَـنْ يَلُـوْمْ لَـوْ تَنَـاهَى عَـنِّي

هَـلْ سِوَى حُـبِّ رِيْـمْ دِينُـه التَّجَـنِّي

أَنَـا فِيْـهِ أَهِـيْمْ وَهْـوَ بِـي يُغَـنِّي

قَـدْ رَأَيْتُـكْ عِيَـانْ لِسْ عَلِيْكْ سَاتَدْرِي سَا يَطُولُ الزَّمَـانْ وَسَتَنْسَى ذِكْـرِي

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات : ٥٧، جيش التوشيح : ١٦، ديوان الموشّحات الأندلسيّة:١٥٣

٢- الموشّح الأقرع :

هو الموشّح الذي يخلو من المطلع أو من المركز الأوّل ، وهو يتألّف غالباً من خمسة أبيات، والموشّح الأقرع المبسّط يقترب من المخمّسات أو المسمّطات الشعريّة كموشّح أبي عبد الله محمّد الكميت البطليوسي [١].

ونادراً ما يكون من ستّة أبيات، فيبدأ بالبيت الأوّل، من دون المطلع،ويكون المركز الأوّل فيه بعد الدور الأوّل، ومثال الموشّح الأقرع السداسي موشّح شهير منسوب إلى محمّد بن عبادة المعروف بابن القزّاز أو ابن بقيّ :

بِأَبِـــــي ظَـبْيُ حِمَـى تَكْنُفُـــــهُ أُسْـــدُ غِـيْـــلْ
مَذْهَبِـــي رَشْـفُ لَمَـى قَرْقَفُـــــهُ سَـــلْسَـبِيْـــلْ
يَسْتَبِـــي قَلْبِـــي بِـمَا يَعْطِفُـــــهُ إِذْ يَـمِـيْـــــلْ

ذُوْ اعتـــدالْ يُعْـــــزَى إِلَى ذِيْ نِعْمَـةٍ ثَابِـتِ
فِي ظـــلالْ تَحْـــتَ حُلَـــى قَطْـرِ النَّـدَى بَابِـتِ

ذُوْ فتـــورْ ذو غَـــنَجِ ذو مَرْشَـــفِ أَلْـــعَـــسِ
العبـــيْرْ فِي أَرَجِ والحُسْـــنُ فِي مَـــلْـبَـــسِ
كَمْ يُثِيْرْ وَجْـدَ شَـجِ بِالدَّنَـــفِ مُـــكْـتَـــسِ

ذُو اعْـــتِلَالْ لَـــوْ عُلِّـــلَا أَنْطَـقَ عَـنْ سَـاكِتِ
وغـــزالْ لَـــوْ مَقَـــلَا أَلْـحَظَ عَـنْ بَاهِـتِ

نَيِّـــرُ حَـدُّ الهـوى أَنْ يَجِـــدُوا حَـــــدَّهُ
كَـــوْثَرُ سِرُّ الصَّـدَى أَنْ يَـــرِدُوا وِرْدَ هُ
أَنْظِـــرُوا مُحَمَّـــدَا وَاتَّئِـــدُوا عِـــنْـــدَهُ

---

١ – انظر جيش التوشيح : ٦٤، ديوان الموشّحات الأندلسيّة:١٠٦

فِي هِـــــلَالْ لَـــــوْ يُجْتَلَـــــى جَـــلَّ عَـــنِ النَّاعِـــتِ
وَ زُلَالْ لَـــــوْ بُـــــذِلَا بَـــزَّ تُقَـــى القَانِـــتِ

بَـدْرُ تِـمْ شَـــــمْسُ ضُـــــحَى غُصْـنُ نَقَـا مِسْـــكُ شَـــمْ
مَـا أَتَـمْ مَـــــا أَوْضَـــــحَا مَـــا أَوْرَقَـــا مَـــا أَنَـــمْ

لَا جَـــرَمْ مَـــــنْ لَمَـــــحَا قَـــدْ عَشِـــقَا قَـــدْ حُـــرِمْ

فَالوصـــــالْ مَـــا قَـــدْ خَـــلَا مِنْ أَمَـــلِ فَـــايِـــتِ
وَالخيـــــالْ مَـــا قَـــدْ عَـــلَا مِـــنْ نَفَـــسٍ خَافِـــتِ

قَاتِـــلِي أَهِـــــنْ دَمَـــــا مَـنْ قَـدْ غَـدَا مُـلْحَـــــدَا
وَاصِـــلِي كُنْـــــتَ فَمَـــــا عَمَّـــا بَـــدَا قَـــدْ عَـــدَا

سَائِـــلِي مُسْـــــــــتَفْهِمَا جَـيْشُ الـرَّدَى اعْـــتَـــدَى

لَا ســـــؤَالْ عَـــنْ مُبْتَلَـــى يَنْحَـــتُ فِي صَـــامِتِ
لِـيـــــنالْ مَـــــا أَمَّـــــلَا وَالأَمْـــرُ لِلشَّـــامِتِ

كَـمْ يَتِيْـهْ كَـــــمْ وكَـــــمْ يَأْبَى الجَوَى أَنْ يَـحُـــــــوْلْ
أَرتضـــيهْ وإِنْ حَكَـــــــــمْ حُكْـمَ الهَـوَى فِي العُقُـــــــوْلْ
قُلْـتُ فِيْـهْ وَالحِـــــبُّ لَـــــمْ يَـرْضَ سِـوَى مَـــــا أَقُـــــوْلْ

الجمـــــــالْ وَقْـــفٌ عَلَـــى ظَـبْيِ بَـنِي ثَابِـتِ
لَا زَوَالـــــــــْ فِي الحُـــــــبِّ لَا عَنْ عَهْـدِهَا الثَّابِتِ[1]

---

١ – المقتطف من أزاهر الطرف : ٢٥٥ ، جيش التوشيح:٥–٧ ، دار الطراز في عمل الموشّحات : ٨٨–٨٩، ديوان الموشّحات الأندلسيّة:١٧٦

أوزان الموشّحات :

بدأت الموشّحات كما ذكر ابن بسّام على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، ومن ثمّ نظم الوشّاحون موشّحاتهم على عدد من الأوزان الشعرية والبحور السهلة والمركّبة، وبعضهم قام بتشكيل وزنيّ خاصّ به وبعضهم خرج عن الوزن .

القسم الأول : ما جاء على أوزان الشعر العربي المعروفة وهو نوعان:

أ . ما بني على بحر من البحور الشعريّة المعروفة ويعدّها ابن سناء الملك ضعيفة ومشابهة للمخمّسات، فيطالب باختلاف قوافي المركز لتخرج الموشّحات عن نمط المخمّسات كموشّحة ابن زهر التي بناها على بحر المجتث وخالف بين قوافي عروض المركز وضربه :

حَـــيِّ الوُجُـــوْهَ المِلَاحَـــا وحَـــيِّ سُـــوْدَ العُيُـــونِ[1]

وموشّحة أخرى على البحر المديد :

يَـا شَـقِيْقَ الـروحِ مِـنْ جَسَـدِي أَهَـــوًى بِي مِنْـــكَ أَمْ لَمَـــمُ

ب . ما خرج على أوزان البحور الشعرية المعروفة بجملة أو كلمة أو حركة من ذلك[2]

موشّحة عبادة المشهورة:

مَنْ وَلِـيْ فِي أَمَّـةٍ أَمْـراً وَلَـمْ يَعْـدِلِ يُعْـــزَلِ إِلَّا لِحَـاظَ الرَّشَـأِ الأَكْحَـلِ

فلولا السمط الأوّل والثالث لكانت من البحر السريع

وموشّحة ابن بقي:

صَبِرْتُ وَالصَّبْرُ شِيْمَـةُ العَانِي وَلَمْ أَقُـلْ لِلْمُطِيْـلِ هِجْـرَانِي مُعَـذِّبِي كَفَـانِي

فالسمطان الأوّل والثاني من بحر المنسرح والشطر الأخير خارج على وزن المنسرح

ومثال الخروج بالحركة موشّحة ابن بقي أيضاً :

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٦٠ .

٢ – المصدر نفسه: ٤٦ .

يَا وَيْحَ صَبٍّ إِلَى البَـرْقِ لَـهُ نَظَـرُ وَفِي البُكَـاءِ مَعِ الـوُرْقِ لَـهُ وَطَـرُ

فلو قرئ المركز كاملاً لكان على وزن بحر البسيط لكن الوشّاح التزم تكرار القاف جاعلاً إيّاها سمطاً منفرداً عن السمط الثاني (له نظر) ممّا أخرج الموشّح عن وزنه.

القسم الثاني: ما خرج على أوزان العرب المعروفة :

قال ابن بسّام «وأوزان هذه الموشّحات خارجة عن غرض هذا الديوان إذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب»[1] .

وقال ابن سناء الملك « والقسم الثاني هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب، وهذا القسم منها هو الكثير، والجمّ الغفير، والعدد الذي لا ينحصر والشارد الذي لا ينضبط، وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفتراً لحسابها، وميزاناً لأوتادها وأسبابها، فعزّ ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكفّ ، وما لها عروض إلّا التلحين ولا ضرب إلّا الضرب، ولا أوتاد إلّا الملاوي ولا أسباب إلّا الأوتار، فبهذا العروض يعرف الموزون من المكسور والسالم من المزحوف. وأكثرها مبني على تأليف الأرغن، والغناء بها على غير الأرغن مستعار وعلى سواه مجاز »[2].

وقد قام المستشرق الألماني هارتمان بتحديد (١٤٦) وزن موشّحات مشتقّة من بحور الشعر العربي ولكنّها لا تحصر كلّ أوزان الموشّحات فتبقى الأوزان الحقيقيّة للموشّحات هي الموسيقى والتلحين والغناء .

وثمّة قسم تكون الأدوار كأوزان المراكز مثاله موشّحة ابن بقي :

أَدِرْ لَنَا أَكْوَابْ يُنْسَى بِهَا الوَجْدُ وَاسْتَصْحِبِ الجُلَّاسْ كَمَا اقْتَضَى العَهْدُ

فوزن المطلع :

مُتَفْعِلُنْ فَعْلَاتْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعْلَاتْ مُتَفْعِلُنْ فَعْلُنْ

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ١/١/ ٤٧٠. دار الطراز في عمل الموشّحات: ٤٦ .

٢ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٤٦ –٤٧ .

أمّا الدور فهو مثله أيضاً :

دِنْ بِالهَـــوَى شَـــرْعَا مَـــا عِشْـــتَ يَاصَـــاحِ

وَنَـــــزِّهِ السَّـــــمْعَا عَـــنْ مَنْطِـــقِ اللَّاحِـــي

وَالحُكْـــمُ أَنْ يُدْعَـــى إِلَيْـــــكَ بِالـــــرَّاحِ

فوزن الغصن الأوّل منه:

مُسْـــــتَفْعِلُنْ فَعْلُـــــنْ مُسْـــــتَفْعِلُنْ فَعْلُـــــنْ

فهو يقترب من البحر البسيط غير أنّ تقسيمه إلى أجزاء من أسماط في المطلع وأغصان في الدور أخرجه عن ذلك، فضلاً عمّا فيه من زيادة وتسكين فَعْلان أو تسكين فَعْلن .

وقسم آخر تختلف أوزان أدوارها عن مراكزها؛ ومن ذلك ما ذكره ابن سناء الملك:

غَـــزَالٌ فَـــرَّ مِـــنْ جَنَّـــاتِ عَـــدْنِ

وَأَبْـــدَى بَـــدْرَ تِـــمٍّ فَـــوْقَ غُصْـــنِ

وَوَلَّى آخِـــــذاً لِلْعَقْـــــلِ مِنِّـــــي

فَقُـــلْ لِلْبَـــدْرِ بَـــدْرِ الأُفْـــقِ عَـــنِّي

إِنَّ بَـــــدْرِي غَابِـــــبْ فَكُـــنْ لِطَـــرْفِي عَنْـــهُ نَابِـــبْ[1]

فوزن الأغصان كلّها من البحر الوافر :مفاعلتن مفاعلتن فعولن

أمّا وزن المراكز فهو:

فَـــــاعِلَاتُنْ فَعْلُـــــنْ مُـــتَفْعِلُنْ مُسْـــتَفْعِلَاتُنْ

وهي ليست من أوزان العرب المعروفة ولا الأعاريض المهملة، ويخالف وزن مركزها وزن أغصانها، ولكنّها من اختراع الوشّاح نفسه وتشكيل خاصّ يصنعه وينوّعه في كلّ موشّحة من موشّحاته .

---

١ – دار الطراز: ١٥٦، ١٥٧.

الخصائص الفنيّة والأسلوبيّة للموشّحات

بما أنّ الموشّح نشأ لأجل الموسيقا والغناء والمرح، فيجب أن يكون «اللفظ والوزن خفيفاً على القلب، أنيقاً عند السمع مطبوعاً عند النفس، حلواً عند الذوق »[1] وقد اتّسم بسهولة اللفظ ولطافة المعنى ووضوحه ومباشرته، قال ابن خلدون: «وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملةً؛ الخاصّة والكافّة، لسهولة تناوله وقرب طريقه»[2]

ويتميّز كذلك برقّة النظم وعذوبة الإيقاع الموسيقي وتنوّع النغم وجمال الصورة الفنّيّة وانسجامها وصفاء خيالها، وملاءمة الصوغ الفنّي للموضوع المطروق مع تزيينها بأنواع متعدّدة من المحسّنات البديعيّة والبيانيّة.

إلّا أنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الموشّحات تميل أحياناً إلى شيء من التساهل اللغوي ، كما أنّ تقييد قسم من قوافيها إنّما كان تهرّباً من الحدود الإعرابيّة، وتجنح إلى استعمال الألفاظ العاميّة والأعجميّة في الخرجة، وتقرّب نظم بعض الموشّحات غير الشعريّة من النثر المسجّع.

ومن حيث الشكل ؛ فإنّ شكل بل أشكال الموشّح غير النهائيّة تعدّ الخروج الأبرز عن طريقة الشعر العربي المعروف ذي القافية الموحّدة والوزن الواحد والشطرين المتماثلين فإن كان الموشّح قد تخلّص من قيد القافية الواحدة والوزن الواحد والشطرين المحدّدين ، فإنّه قيّد نفسه بقيود كثيرة من القوافي الملوّنة والأوزان الجديدة والأشطر المتعدّدة ، وإن كان للوشّاح حريّة اختيار الشكل والوزن والحجم والعدد في المركز الأوّل والدور الأوّل فإنّ عليه أن يلتزم بكلّ ذلك في سائر المراكز والأدوار في موشّحته .كما يلفت الانتباه إكثارهم من النظم على بحور معيّنة ، كالرمل والخفيف ومخلّع البسيط والمتقارب والهزج .

وقد تحامل د جودة الركابي على الموشّحات تحاملاً شديداً فوصف معانيها بالساذجة والتافهة ولغتها بالضعف والهلهلة والركاكة، وجرّه هذا التحامل إلى الوقوع في مهاوي

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات : ٤٣ .

٢ – مقدّمة ابن خلدون : ١١٣٧

التناقض الفكري في صفحتين متتاليتين إذ يقول : « إنّ الموشّحات لم تهو إلى هذا الدرك من الضعف والبعد عن الأساليب الفصيحة إلّا في عصور الانحطاط »[1]، ويقول في الصفحة التالية عن الموشّح : « إنّ ظهوره في عهد الانحطاط يؤيّد ما قلناه من أنّه ظاهرة من ظواهر هذا الانحطاط »[2].

فكيف يظهر الموشّح في عهد الانحطاط ثمّ لم يهو إلى هذا الدرك السحيق إلّا في عصور الانحطاط ؟!ومن ذا الذي يعدّ القرنين الثالث والرابع في الأندلس من عصور الانحطاط ؟!

وأخيراً نختم بقول ابن سناء الملك صاحب أوّل كتاب ألّف عن الموشّحات وصل إلينا: « فإنّ الموشّحات ممّا ترك الأوّل للآخر، وسبق بها المتأخّر المتقدّم، وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وغادر بها الشعراء من متردّم. ملحة الدهر ، وبابل السحر ، وعنبر الشحر، وعود الهند، وخمر القفص ، وتبر الغرب، ومعيار الأفهام ، وميزان الأذهان، ولباب الألباب، تلهي وتطرب ، وتؤيس وتطمع ، وتخلب وتجلب ، وتفرغ وتشغل ، وتؤنس وتنفر، هزل كلّه جدّ، وجدّ كلّه هزل، ونظم تشهد العين أنّه نثر، ونثر يشهد الذوق أنّه نظم »[3].

هيكل الموشّح البسيط: (الثنائي المركز والمفرد الأغصان):

سمط١ _____ _____سمط٢=المطلع=**المركز١**

البيت١

الدور١

_____غصن١

_____غصن٢

_____غصن٣

سمط١ _____ _____سمط ٢ =**المركز** ٢

---

١ – في الأدب الأندلسي: ٣٠٦.

٢ – المرجع نفسه: ٣٠٧ –٣٠٨.

٣ – دار الطراز في عمل الموشّحات: ٢٩ – ٣٠ .

أغراض الموشّحات

نشأت الموشّحات في الأساس لغرض الغناء لذلك فإنّ من الطبيعي أن يكون الغزل أوّل أغراض الموشّحات لمناسبة معانيه للغناء وقربها إلى الناس أجمعين، ولـمّا كانت الطبيعة الأندلسيّة مسرحاً للعشّاق الأندلسيّين فإنّ غرض وصف الطبيعة الذي امتزج كثيراً بالغزل كان الغرض الثاني، ولمّا كانت مجالس اللهو والأنس في أحضان الطبيعة لا تكاد تخلو من الخمرة فإنّ الغرض الثالث للموشّحات هو وصف الخمرة، بل إنّ هذه الأغراض كثيراً ما ترد جميعاً في موشّحة واحدة .

ومن ثمّ دخلت الموشّحات في أغلب الأغراض المعروفة ولاسيّما المديح الذي جعله الوشّاحون كما في قصائد المدح يبدأ بالغزل ووصف الطبيعة ثمّ ينتقل إلى المديح ، ومن أغراضه أيضاً الرثاء والهجاء والعتاب والحنين والزهد والتصوّف، قال ابن سناء الملك : « والموشّحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد »[1]. وهذه نماذج من أهم هذه الأغراض :

١ . **الغزل** كقول ابن سَهْل الإشبيلي :

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أنْ قدْ حَمَى ... قلبَ صَبٍّ حَلَّهُ عنْ مَكْنَسِ

فَهْوَ فِي حَرٍّ وَخَفْقٍ مِثْلَمَا ... لَعِبَتْ رِيْحُ الصَّبَا بِالقَبَسِ

يا بُدوراً أَطْلَعتْ يومَ النَّوَى ... غُرراً تسلُكُ بِي نهجَ الغَرَرِ

ما لقلبِي في الهوى ذنبٌ سِوَى ... منكمُ الحسنُ ومِنْ عيْني النَّظَرِ

أَجتنِي اللّذاتِ مكلومَ الجَوَى ... والتذاذِي منْ حبيبِي بِالفِكَرِ

كُلَّمَا أشكوهُ وَجْدِي بَسَمَا ... كَالرُّبَا بِالعارِضِ المُنْبَجِسِ

إذْ يُقيمُ القَطْرُ فيهَا مأتَمَا ... وَهْيَ مِنْ بَهْجَتِهَا في عُرُسِ

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات : ٥١.

غَالِـــبٌ لِيْ غَالِـــبٌ بِالتُّـــؤَدَه ... بِـــأبي أَفديـــهِ مِـــنْ جـــافٍ رَقِيـــقْ

مَـــا رأينَـــا مِثْـــلَ ثغـــرٍ نَضَـــدَهْ ... أُقْحُوَانـــاً عُصِـــرْتْ منـــهُ رَحيـــقْ

أخـــذتْ عينـــاهُ منـــهُ العَرْبَـــدَهْ ... وفـــؤادِي سُـــكْرُهُ مَـــا إِنْ يَفيـــقْ

فَـــاحِمُ اللِّمَّـــةِ معســـولُ اللَّمَـــى ... أَكحـــلُ اللحـــظِ شـــهيُّ اللَّعَـــسِ

وجهُـــهُ يتلُـــو الضُّـــحى مبتسمـــا ... وَهْـــوَ فِي إعراضِـــهِ فِي عَبَـــسِ

أيُّهَـــا الســـائلُ عـــنْ ذُلّـــيْ لَدَيْـــهْ ... لِي جـــزاءُ الذنـــبِ وَهْـــوَ المُـــذْنِبُ

أَخَـذَتْ شـمسُ الضُّـحَى مِـنْ وِجْنَتَيْـهْ ... مَشْرِقـــاً للصَّـــبِّ فيـــهِ مَغْـــرِبُ

ذَهَّبَـــتْ أدمـــعُ أَجْفَـــاني عَلَيْـــهْ ... وَلَـــهُ خـــدٌّ بلحـــظِيْ مُذْهَـــبُ

يَنْبُـــتُ الـــوردُ بغَرْسِـــي كلَّمَـــا ... لَاحَظَتْـــهُ مقلتِـــيْ فِي الخُلَـــسِ

ليـــتَ شِـــعْرِيْ أيُّ شـــيءٍ حَرَّمَـــا ... ذلـــكَ الـــوردَ علَـــى المُغْتَـــرِسِ

كلَّمَـــا أَشْـــكُوْ إليـــهِ حُرَقِـــي ... غَادَرَتْنِـــيْ مُقْلَتَـــاهُ دَنِفَـــا

تركـــتْ ألحاظُـــهُ مِـــنْ رَمَقِـــي ... أَثَـــرَ النَّمْـــلِ عَلَـــى صُـــمِّ الصَّفَـــا

وأَنَـــا أَشْـــكُرُهُ فِيْمَـــا بَقِـــي ... لَسْـــتُ أَلْحَـــاهُ عَلَـــى مَـــا أَتْلَفَـــا

فَهْـــوَ عِنْـــدِيْ عَـــادِلٌ إِنْ ظَلَمَـــا ... وعَـــذُولي نُطْقُـــهُ كالخَـــرَسِ

لـــيسَ لِـــيْ فِي الحُـــبِّ حُكْـــمٌ بَعْدَمَـــا ... حَـــلَّ مِـــنْ نَفْسِـــيْ مَحَـــلَّ النَّفَـــسِ

منـــهُ للنـــارِ بأحشـــائِي اضْـــطِرَامْ ... يَلتظـــيْ فِي كُـــلِّ حـــينٍ مَـــا يَشَـــا

وَهْـــيَ فِي خَدَّيْـــهِ بَـــرْدٌ وسَـــلَامْ ... وَهْـــيَ ضُـــرٌّ وحَرِيْـــقٌ فِي الحَشَـــا

أَتَّقِـــيْ منـــهُ علـــى حُكْـــمِ الغَـــرَامْ ... أُسُـــدَ الغَـــابِ وأَهْـــوَاهُ رَشَـــا

قُلْـــتُ لَمَّـــا أَنْ تَبَـــدَّى مُعْلَمَـــا ... وَهْـــوَ مِـــنْ أَلْحَاظِـــهِ فِي حَـــرَسِ

أَيُّهَـــا الآخِـــذُ قلـــبِيْ مَغْنَمَـــا ... اِجْعَـــلِ الوَصْـــلَ مَكَـــانَ الخُمُـــسِ

٢- الخمر كقول ابن زهر:

أَيُّهَـا السَّـاقي إليـكَ الـمُشْتَكَى قَـدْ دَعَوْنَـاكَ وَإِنْ لَـمْ تَسْـمَعِ

ونـديمٍ هِمْـتُ فِي غُرَّتِـهِ

وبشـربِ الـراحِ مِـنْ رَاحَتِـهِ

كلَّمَـا اسـتيقظَ مِـنْ سَكْرَتِـهِ

جـذبَ الـزِقَّ إليـهِ واتَّكَـا وسَـقَانِيْ أَرْبَعـاً فِي أَرْبَـعِ

مَـا لِعيـني عَشِـيَتْ بالنَّظَـرِ

أنكـرتْ بَعـدَكَ ضـوءَ القَمَـرِ

وإذَا مَـا شِـئْتَ فَاسْـمَعْ خَـبَرِي

عَشِـيَتْ عَيْنَـايَ مِـنْ طُـوْلِ البُكَـا وبَكَـا بَعْضِـي عَلَـى بَعْضِـي مَـعِي

غصنُ بـانٍ مَـالَ مِـنْ حَيْـثُ اسْتَوَى

بـاتَ مَـنْ يهـواهُ مِـنْ فَـرْطِ الجَـوَى

خَفِـقَ الأحشـاءِ موهـونَ القِـوَى

كُلَّمَـا فَـكَّرَ بالبيـنِ بَـكَى وَيْـحَهُ يَبْكِـيْ لِـمَا لَـمْ يَقَـعِ

لـيسَ لِيْ صَـبْرٌ ولَا لِـيْ جَـلَدُ

يَـا لِقَـوْمي عَذَلُـوا واجْتَهَـدُوا

أَنْكَـرُوا شَكْـوَايَ مِمَّـا أَجِـدُ

مِثْـلُ حَالِـي حَقُّـهَا أَنْ تُشْـتَكَى كَمَـدُ اليـأسِ وذُلُّ الطَّمَـعِ

كَبِـدِيْ حَـرَّى ودمعـيْ يَكِـفُ

يعـــرفُ الذَّنْـــبَ لَا يَعْتَـــرِفُ

أَيُّهَـا المُعْـرِضُ عَمَّـا أَصِـفُ

قَـدْ نَـمَا حُبُّـكَ عنـدِي وَزَكَـا لَا تَقُـلْ فِي الحُـبِّ إِنِّـيْ مُـدَّعِ[1]

٣- الغزل والخمر في أحضان الطبيعة كقول أبي جعفر بن سعيد :

ذَهَّبَـتْ شـمسُ الأصـيلِ فِضَّـةَ النَّـهْرِ

أيُّ نهـرٍ كالمُدَامَـهْ

صَيَّـر الظـلَّ فِدَامَـهْ

نَسَـجَتْهُ الريـحُ لَامَـهْ

وَثَنَـتْ للغصْـنِ لَامَـهْ

فَهْـوَ كَالعَضْـبِ الصـقيلِ حُـفَّ بالسُّمْـرِ

مُضـحِكاً ثغـرَ الكِمـامِ

مُبكِيـاً جفـنَ الغمـامِ

مُنطِقـاً وُرْق الحمّـامِ

داعِيـاً إلى المُـدامِ

فلِهـذا بالقَبـولِ خُـطَّ كالسّطـرِ

حبّـذا بالحَـوْرِ مَغْـنَى

هـي لفـظٌ وهـو مَعـنَى

---

١ – دار الطراز في عمل الموشّحات : ١٠٠– ١٠١ ، توشيع التوشيح: ١٢٦، ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ٢٩٤.

مُـــذِهبُ الأشجـــانِ عَـــنّى

كـــم درَينـــا كيـــف سِـــرْنا

ثمّ في وقـــــتِ الأصـــــيلِ لم نكُـــــن نـــــدري

قلـــتُ والمـــزجُ استـــدارا

بـــذُرَا الكـــأسِ ســـوارا

سالبـــاً مِنّـــا الوقـــارا

دائـــراً حيـــث دارا

صـــاد أطـــيارَ العقـــولِ شـــبَكُ الخَمْـــرِ

وَعَـــدَ الحِـــبُّ فأخلَـــفْ

واشـــتهَى المَطْـــلَ فَسَـــوَّفْ

ورســـولِـــيْ قَـــدْ تَعَـــرَّفْ

منـــهُ مَـــا أَدْرِيْ فَحَـــرَّفْ

بـــاللهِ قُـــلْ يَـــا رَسُـــوْلِي لِـــشْ يَغِـــبْ بَـــدْرِي[1]

٤. المديح كقول لسان الدين بن الخطيب:

جَـادَكَ الغَيْـثُ إذَا الغَيْـثُ هَمَـى يَـا زَمَـانَ الوَصْـلِ بالأَنْدَلُـسِ

لَـمْ يَكُـنْ وَصْـلُكَ إلَّا حُلُمـا في الكَـرَى أو خُلسـةَ المُخْتَـلِسِ

إذْ يَقُـودُ الدَّهْـرُ أشْـتَاتَ المُنَـى تَنْقُـلُ الخَطْـوَ عَلـى مَـا تُرْسَـمُ

زُمَـراً بَـيْنَ قُـرَادَى وثُنَـا مِثْلَمَـا يَـدْعُو الحجـيجَ المَوْسِـمُ

والحَيَـا قَـدْ جَلَّـلَ الـرَّوضَ سَـنَا فَتُغُـوْرُ الزَّهْـرِ فِيْـهِ تَبْسِـمُ

---

١ – ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ١٩٢.

وَرَوَى النُّعْمَـانُ عَـنْ مـاءِ السَّـمَا ... كَيْـفَ يَـرْوِي مَالِـكٌ عَـنْ أَنَـسِ

فَكَسَـاهُ الحُسْـنُ ثَوْبـاً مُعْلَمَـا ... يَزْدهِـي مِنْـهُ بـأَبْهَى مَلْبَـسِ

فِي لَيَـالٍ كَتَمَـتْ سِـرَّ الهَـوَى ... بالـدُّجَى لَـوْلَا شُـمُوسُ الغُـرَرِ

مَـالَ نَجْـمُ الكَـأسِ فِيهَـا وَهَـوَى ... مُسْـتَقِيْمَ السَّـيْرِ سَـعْدَ الأَثَـرِ

وَطَـرٌ مَـا فيـهِ مِـنْ عَيْـبٍ سِـوَى ... أَنَّـهُ مَـرَّ كَلَمْـحِ البَصَـرِ

حِـيْنَ لَـذَّ النـومُ شـيئاً أو كَمَـا ... هَجَـمَ الصُّـبْحُ هُجُـوْمَ الحَـرَسِ

غَـارَتِ الشُّـهْبُ بِنَـا أَوْ رُبَّمَـا ... أَثَّـرَتْ فِينـا عُيُـونُ النَّرْجِـسِ

أيُّ شَـيْءٍ لامـرىءٍ قـدْ خَلَصَـا ... فَيَكُـوْنُ الـرَّوْضُ قَـدْ مُكِّـنَ فِيْـهْ

تَنْهَـبُ الأَزْهَـارُ فِيْـهِ الفُرَصَـا ... أَمِنَـتْ مِـنْ مَكْـرِهِ مَـا تَتَّقِـيْهْ

فَـإِذَا المَـاءُ تَنَـاجَى والحَصَـا ... وَخَـلا كُـلُّ خَلِيْـلٍ بِأَخِيْـهْ

تُبْصِـرُ الـوَرْدَ غَيُـوْراً بَرِمَـا ... يَكْتَسِـيْ مِـنْ غَيْظِـهِ مَـا يَكْتَسِـي

وَتَـرَى الآسَ لَبِيبـاً فَهِمَـا ... يَسْـرِقُ السَّـمْعَ بـأُذْنَيْ فَـرَسِ

يـا أُهَيْـلَ الحَـيِّ مِـنْ وَادِي الغَضَـا ... وبِقَلْبِـي مَسْـكَنٌ أَنْـتُمْ بِـهِ

ضَاقَ عَنْ وَجْدي بِكُمْ رَحْبُ الفَضَا ... لَا أُبَـالِي شَـرْقَهُ مِـنْ غَرْبِـهِ

فأعِيْـدُوا عَهْـدَ أُنْـسٍ قَـدْ مَضَـى ... تُعْتِقُـوا عبـدَكُمْ مِـنْ كَرْبِـهِ

وَاتَّقُـوا اللهَ وأَحْيُـوا مُغْرَمَـا ... يَتَلَاشَـى نَفَسـاً فِي نَفَـسِ

حُـبِسَ القَلْـبُ عَلَـيْكُمْ كَرَمَـا ... أَفترضَـوْنَ عَفَـاءَ الحُبُـسِ

وَبِقَلبِـي مِـنْكُمُ مُقْتَـرِبُ ... بِأَحادِيـثِ المُنَـى وَهْـوَ بَعِيْـدْ

قَمَـرٌ أَطْلَـعَ مِنْـهُ المَغْـرِبُ ... شـقوةَ المُضْنَـى بِـهِ وَهْـوَ سَعِيْـدْ

قَــدْ تَسَــاوَى مُحْسِــنٌ أَوْ مُــذْنِبُ ... فِي هَــوَاهُ بــينَ وَعْــدٍ وَوَعِيْــدْ

أحــورُ المُقْلَــةِ مَعْسُــولُ اللَّمَــى ... جَــالَ فِي الــنَّفْسِ مَجَــالَ النَّفَــسِ

سَــدَّدَ السَّــهْمَ فأَصْــمَى إِذْ رَمَــى ... بِفُــؤَادِي نُبْلَــهُ المُفْتَــرِسِ

إِنْ يَكُــنْ جَــارَ وَخَــابَ الأَمَــلُ ... ففــؤادُ الصَّــبِّ بالشَّــوْقِ يَــذُوبْ

فَهْــوَ لِلنَّفْــسِ حَبِيْــبٌ أَوَّلُ ... لَــيْسَ فِي الحُــبِّ لِمَحْبُــوبٍ ذُنُــوبْ

أَمْــرُهُ مُعْتَمِــلٌ مُمْتَثِــلُ ... فِي ضُــلُوعٍ قَــدْ بَرَاهَــا وَقُلُــوبْ

حَكَــمَ اللَّحْــظُ بــه فاحْتَكَمَــا ... لَمْ يُرَاقِــبْ فِي ضِــعَافِ الأَنْفُــسِ

مُنصِــفُ المظلُــوم مِمَّــنْ ظَلَمَــا ... ومُجَــازِي البَــرِّ مِنْهــا والمُسِــي

مَــا لِقَلْــبِي كُلَّمــا هَبَّــتْ صَــبَا ... عَــادَهُ عِيْــدٌ مِــنَ الشَّــوْقِ جَدِيْــدْ

جَلَــبَ الهَــمَّ لَــهُ والوَصَــبَا ... فَهْــوَ للأَشْــجَانِ فِي جُهْــدٍ جَهِيْــدْ

كَــانَ فِي اللَّــوحِ لَــهُ مُكْتَتَبَــا ... قَوْلُــهُ : إِنَّ عَــذَابِي لَشَدِيْــدْ

لَاعِــجٌ فِي أَضْــلُعِي قَــدْ أَضْــرِمَا ... فَهْــيَ نَــارٌ فِي هَشِــيْمِ اليَبَــسِ

لَمْ يَــدَعْ فِي مُهجَــتِي إِلّا ذَمَــا ... كَبَقــاءِ الصُّــبْحِ بَعْــدَ الغَلَــسِ

سَــلِّمِي يَــانَفْسُ فِي حُكْــمِ القَضَــا ... واعْمُــرِي الوَقْــتَ بِرُجْعَــى وَمَتَــابْ

ودَعِــيْ ذِكْــرَ زَمَــانٍ قَــدْ مَضَــى ... بَــيْنَ عُتْبَــى قَــدْ تَقَضَّــتْ وَعِتَــابْ

وَاصْــرِفِي القَــوْلَ إِلى المَــوْلَى الرِّضَــا ... مُلْهَــمِ التَّوفِيْــقِ فِي أُمِّ الكِتَــابْ

الكَرِيْــمُ المُنْتَــهَى والمُنْتَــمَى ... أَسَــدُ السَّــرْجِ وَبَــدْرُ المَجْلِــسِ

يَنْــزِلُ النَّصْــرُ عَلَيْــهِ مِثْــلَمَا ... يَنْــزِلُ الــوَحْيُ بِــرُوْحِ القُــدُسِ

مُصْــطَفَى اللهِ ســمِيُّ المُصْطَفَــى ... الغَــنِيُّ بِــاللهِ عَــنْ كُــلِّ أَحَــدْ

مَــنْ إِذَا عَقَــدَ العَهْــدَ وَفَى ... وَإِذا مَــا فَــدَحَ الخَطْــبُ عَقَــدْ

مِـنْ بَـنِي قَـيْسِ بْـنِ سَـعْدٍ وكَـفَى حَيْـثُ بَيْـتُ النَّصْـرِ مَرْفُـوْعُ العَمَـدْ
حَيْـثُ بَيْـتُ النَّصْـرِ مَحْمِـيِّ الحِمَـى وَجَـنَى الفَضْـلِ زَكِـيُّ المَغْـرِسِ
والهَـوَى ظِـلٌّ ظَلِيْـلٌ خَيَّمَـا والنَّـدَى هَـبَّ إلى المُغْتَـرَسِ

هَاكَهَـا يَـا سِـبْطَ أَنْصَـارِ العُـلَا والَّـذِي إنْ عَثَـرَ الـدهرُ أَقَـالْ
غَـادَةً أَلْبَسَـهَا الحُسْـنُ مُـلَا تُبْهِـرُ العَـيْنَ جَـلَاءً وَصِـقَالْ
عَارَضَـتْ لَفْظـاً وَمَعْـنًى وَحُـلَى قَـوْلَ مَـنْ أَنْطَقَـهُ الحُـبُّ فَقَـالْ

"هَـلْ دَرَى ظَـبْيُ الحِمَـى أَنْ قَـدْ حَمَى قَلْـبَ صَـبٍّ حَلَّـهُ عَـنْ مَكْنِـسِ
فَهْـوَ فِي حَـرٍّ وَخفْـقٍ مِثْلَمَـا لَعِبَـتْ رِيْـحُ الصَّـبَا بالقَبَـسِ"[1]

٥. الحنين كقول ابن زهر[2]:

مَـا لِلْمُـوَلَّهْ مِـنْ سُـكرِهِ لا يُفيـقُ يَـا لَـهُ سَـكْرَانْ
مِـنْ غَـيْرِ خَمْـرِ مَا للكئيبِ المَشُوْقُ ينـدُبُ الأَوطـانْ

هـلْ تُسـتعادُ أيّامُنَـا بـالخليجِ ولياليَنَـا
أَوْ يُسْـتَفَادُ مِـنَ النسـيمِ الأريـجِ مِسْـكُ دَارِيْنَـا
أَوْ هَـلْ يَكَـادُ حسـنُ المكـانِ البهـيجِ أَنْ يُحَيِّيْنَـا
نهـرٌ أَظَـلَّهْ دَوحٌ عليـهِ أنيـقُ مُـوَرَّقُ الأفنـانْ
والمـاءُ يجـري وعـائمٌ وغريـقُ مِنْ جَنَى الريحـانْ

---

١ – ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ٤٢٥

٢ – المصدر نفسه : ١٩٢.

أَوْ هَـــلْ أَدِيْـــبُ يُحْـيِي لَنَـا بـالعُرُوْسِ مَـا كـانَ أَحْلَـى
مَعِـــي الحبيـــبُ وَصَـافياتُ الكـؤوسِ فَاسْقِنِـي وامْـلَا
عـــيشٌ يَطيـــبُ ومنـــزَهٌ كـــالعروسِ عنـدمَا تُجلَـى

عـــيشٌ لعلَّـــهْ يعـودُ منـهُ فريـقُ كالـذي قَـدْ كَـانْ
أضـــغاثُ فكـــرٍ تَحـدوْ بِـهِ وتَسُـوْقُ هَـذِهِ الألحـانْ

يَـــا صَـاحِبَيَّـــا إِلى مَـــتى تَعْـــذِلَاني أَقْصِـرَا شَيَّـا
قـــدْ مـــتُّ حَيَّـــا والمُبْتَلَـــى بـــالغَواني مَيِّـــتٌ حَيَّـــا
جَـــنَى عَلَيَّـــا عـذبُ اللَّمَـى والمعـاني عـــاطرٌ رَيَّـــا

هِـــلالُ كِلَّـــهْ غـزالُ أُنْـسٍ يفـوقُ سـائرَ الغِـزلانْ
ياليـــتَ شِـــعْرِي هـلْ لي إليـهِ طريـقُ أَوْ إِلَى سُـــلْوَانْ

٦ . الرثاء كقول ابن حزمون

يـا عَـيْنُ بكِّـي السِّـراجْ الأزهـــرَا النَّيِّـــرَا اللامـــعْ
وكـــانَ نِعْـــمَ الرِّتـــاجْ فَكُسِّـــرَا كَـــيْ تُنْشَـــرَا مَـــدَامِعْ

مِـــنْ آلِ سَـــعْدٍ أَغَـــرُّ مِثْـــلُ الشِّـــهَابِ المُتَّقِـــدْ
بَكَـــى جميـــعُ البَشَـــرْ عليـــهِ لمَّـــا أَنْ فُقِـــدْ
والمَشْـــرَفِيُّ الـــذَّكَرْ والسَّـــمْهَرِيُّ المُطَّـــرِدْ
شَـــقَّ الصـــفوفَ وكَـــرْ عَلَـــى العـــدوِّ مُتَّئِـــدْ

لَـــو أنّـــهُ مُنْعَـــاجْ عَلى الوَرَى مِـــنَ الثَّـــرَى أَوْ رَاجِـــعْ
عـادتْ لنَـا الأفـراجْ بِـلَا افْتِـرَا ولَا امْـــتِرَا تُضَـــاجعْ

نَضـــــا لِبـــــاسَ الـــــزَّرَدْ وخَـــــاضَ مَـــــوْجَ الفَيْلَـــــقِ

ولَـــــمْ يَرُعْـــــهُ عَـــــدَدْ ذاكَ الخَمِيْـــــــــسِ الأزرقِ

والحُـــــوْرُ تلـــــثمُ خَـــــدْ أَدِيْمِـــــــــهِ المُمَـــــــزَّقِ

وكـــــــانَ ذاكَ الأَسَـــــــدْ فِي كُـــــلِّ خَيْـــــلٍ يَلْتَقِـــــي

إِذَا رأَى الأَعْـــــلَاجْ وكـــــــبَّرَا ثمَّ انْبَـــــــرَى يُمَاصِـــــــعْ

رأيـــتهمْ كالـــدَّجَاجْ مُنَقَّـــــــرَا وَسْـــطَ العَـــرَا الوَاسِـــــــعْ

جَالَـــــتْ بتلـــــكَ الفُجُـــــوجْ تحـــــتَ العَجـــــاجِ الأكـــــدرِ

خيولُهُـــــــــمْ فِي بُـــــــرُوجْ مِـــــنَ الحديـــــدِ الأَخْضَـــــرِ

يَـــا قُفْـــلَ تلـــكَ الفُـــرُوجْ ولَيْتَـــــهُ لـــــمْ يُكْسَـــــرِ

جعلـــــــتَ أرضَ العُلُـــــــوجْ مَجْـــــرَى الجيـــــادِ الضُّـــــمَّرِ

سَـــلَكْتَ مِنْهَـــا فِجَـــاجْ فَـــلَا تُـــرَى إِلَّا القُـــــرَى بَلَاقِـــــــعْ

والخيـــلُ تحـــتَ العَجَـــاجْ لَهَـــا انْـــبِرَى وَلِلْبُـــــــرَى قَعَـــــــاقِعْ

عَهـــــديْ بتلـــــكَ الجهـــــاتْ أَبَى الهَـــــوَى أنْ أُحْصِـــــيَهْ

يَـــا حـــاديَ الرَّكْـــبِ هَـــاتْ حَـــــدِّثْ لَنَـــــا بِمُرْسِـــــيَهْ

أَوْدَى أَبُـــــو الحَمَـــــلَاتْ يَـــــا وَيْحَـــــهَا بَلَنْـــــسِيَهْ

فِي طاعـــــــةِ اللهِ مَـــــــاتْ حَاشَـــــا لَـــــهُ أنْ يَعْصِـــــيَهْ

مَضَـــى بـــنَفْسٍ تُهَـــاجْ مُصَـــــبِّرًا مُصْـــــطَبِرا وطَـــائِـــــعْ

وباعَهـــــا فِي الهِيَـــــاجْ لَقَـــدْ دَرَى مَـــاذا اشـــتَرَى ذَا البَائِـــــعْ

مـــــاءُ المـــــدامعِ صـــــابْ عليـــــكَ أَوْلَى أنْ يجـــــودْ

سَـــقَى البَرِيَّـــةَ صَـــابْ رُزْءٌ أَحَلَّـــكَ اللُّحُـــودْ

فكـــلَّ خَلْـــقٍ أَصَـــابْ إِلَّا النَّصـــارَى واليهـــودْ

ناديـــتُ قَلبـــاً مُصَـــابْ يُجْـرِي علـى المَيْـتِ العُهُـودْ

يَـــا قَلْـــبِيَ المُهْتَـــاجْ تَصَـــبَّرَا زانَ الثَّـــرَى مُدَافِـــعْ

ابـــنُ أَبِي الحَجّـــاجْ فَهَـلْ تَـرَى لِـمَـا جَـرَى مُدَافِـــعْ[1]

٧ . التصوّف والمديح النبوي كقول الششتري :

حُـــبُّ رَسُـــوْلِ اللهِ دِيْنِـــي لِـمَ لَا وقَـدْ جَـلَا غَيَاهِـــبَ الشَّـــكِّ بـــاليقينْ

أرْسَـــــلَهُ اللهُ لِلْعِبـــــادِ بَـادِي بِحُكْمِـهْ

لمَّـــا أَبَـــوْا جَـــاءَ بالجِهَـــادِ هَـادِي لأَمْـرِهْ

يَـا صَـاحِبِي قِـفْ بِكُـلِّ نَـادِي نَـادِي باسـمِهْ

تُعْطَى بِـذِي القُـوَّةِ المَتِيْـنِ أَهْـلاً وَمَنْـزِلا فِي حَضْرَةِ القُدْسِ دُونِ هُـوْنِ

مُتَمِّمـــاً جَـــاءَ بالكَمَـــالِ مَا لِيْ شيءٌ سِوَاهْ

حِـبِّي هُـوَ البُـرْءُ مِـنْ خِبَـالي بَالِـي يَرْجُو رِضَاهْ

لأنّـــهُ جنّـــةُ اتكـــالي كَـالِي لمـنْ رَجَـاه

أَفْنَيْـتُ فِي مَدْحِـهِ فُنُـونِي كَـيْ لا أَعْـزُوَ إلى مَـنْ بَـانَ عَـنْ ثُلَّـةِ اليَمِـيْنِ

دَعَـــوْتُ لِلْحـــقِّ الأنـــامْ نَامُوا على الرَّدَى

لمّـــا انْجَلَـــى بالهُـــدَى الظَّـــلَامْ لامُوا مَنِ اهْتَدَى

لـــذاكَ أضـــحوا قـــدِ اسْـــتَقَامُوا قَـامُوا عَلَى العِـدَا

فأذْهَـــبَ اللهُ بـــالأَمِينِ جَهْـلاً لمَّـا عَـلَا وَأَسْـفَرَ الصُـبْحُ لِلعيُـونِ

---

١ – ديوان الموشّحات الأندلسيّة : ٣١٢.

اخْتَصَّـــــــــهُ اللهُ بالمَعَـــــــالِي عَـالِي عَلَى الوَرَى

أَشْـــكُوْكَ يَـــا ســـيِّدِي بِحَـــالِي حَالِي كَمَا تَرَى

وَهَـــا أَنَـــا أَطْلُـــبُ انْتِقَـــالِي قَـالِي لِمَـا جَـرَى

وَقَـــدْ تَقَـــدَّمْتُ بالمَكِيْـــنِ كُنْ لِيْ لَا أبْقَى عَلَى تَـأَخُّرِي مَـعْ ذَوِي المُجُـونِ

مَـــلَأْتَ يَـــا أَحْمَـــدُ الوُجُـــودَا جُـــوْداً وَسُـــوّدَا

جَعَلْـــتُ مـــدْحَكَ المَجِيْـــدَا جِيْـــداً مُقَلَّـــدَا

فَاجْعَـــلْ لَنَـــا وَجْهَـــكَ السَّـــعِيدَا عِيْـــداً يُنْجِـــي

يَـا سَـيِّدَ الخَلْـقِ كُـنْ مُعِيْـنِي إِذْ لَا حَـــوْلَ وَلَا قُـــوَّةَ للْمُـــذْنِبِ المَهِيْـــنِ[1]

---

١ – ديوان الششتري: ٢٥٠–٢٥٢

الزجل

الزجل نمط من الشعر الشعبي بل هو أعلى أنماط الشعر الشعبي درجة، لتعدّد أوزانه، واختلاف أشكاله، وتنوّع قوافيه.

ولد هذا الفنّ وترعرع في الأندلس في حدود القرن الخامس، وربّما كانت جذوره في الأغاني الشعبيّة التي كان يترنّم بها العامّة، وقد شابه أخاه الموشّح في بعض أشكاله وأوزانه، وأعجب به العامّة في الأندلس، واستطرفه بعض الخاصّة ونظموا فيه، وانتقل إلى المشرق وحاز إعجاب العامّة وبعض الخاصّة، فنظموا فيه ونظّروا له، وقعّدوا قواعده وألّفوا فيه الكتب، واستمرّ وجوده إلى الآن.

والزجل من الموضوعات الخلافيّة الشائقة الشائكة التي نالت قسطاً وافراً من اهتمام المستشرقين منذ أن نشروا الديوان الأندلسي الوحيد الذي وصل إلينا، المفرد للزجل في الأدب الأندلسي، وهو ديوان ابن قزمان وطبع أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٦م) ثمّ ترجموه وطبعوه مرّات متعدّدة مترجماً إلى اللغات الأجنبية وغير مترجم، وكتبوا فيه دراسات وبحوثاً كثيرة، وهراقوا فيه مداداً كثيراً.

بيد أنّ الدراسين العرب لم يولوه الاهتمام نفسه في القرن الفائت وصدفوا عنه إلّا قليلاً، ولم تفرد له دراسة شاملة خلا محاضرات الدكتور عبد العزيز الأهواني التي طبعت سنة (١٩٥٧).

تعريفه

لغةً؛ للزجل معانٍ متعدّدة يقترب بعضها من دلالته الاصطلاحيّة، وهو في الأصل: الصوت[١]، أو رفع الصوت عند الطرب[٢] ، أو رفع الصوت الطرب ، والزجل –كذلك – اللعب والجلبة، ورفع الصوت، وخصّ به التطريب[٣].

١– الصحاح: مادة: زجل

٢– فقه اللغة: ٢٢٢

٣– لسان العرب: زجل

واصطلاحاً: هو نمط من الأنماط المحدثة للشعر الشعبي الأندلسي يشابه الموشّح من حيث تنوّع الشكل وتعدّد الأجزاء وتلّون القوافي، ويختلف عنه من حيث اللغة إذ يستخدم اللهجة العامّيّة المحلّيّة واللغة العربيّة المبسّطة الخالية أو شبه الخالية من الإعراب والتشكيل.

وقد اكتشف صفيّ الدين الحلّي بعضاً من العلاقة بين الدلالتين اللفظيّة والاصطلاحيّة للفظة الزجل في استنباطه لسبب تسميته بالزجل بقوله: «وإنّما سمّي هذا الفنّ زجلاً لأنّه لا يلتذّ به، وتفهم مقاطع أوزانه، ولزوم قوافيه حتّى يغنّى ويصوّت»[1].

والسمة الأساسيّة للزجل هي أنّه في –الأصل– فنّ عامّيّ من صنع العامّة وسواد الناس في الأندلس، بل هو في الأصل شعر الأمّيّين الموجّه للجهّال، قال ابن خيرة المواعيني (ت ٥٦٤هـ) وهو معاصر لإمام الزجل ومؤصّله ابن قزمان (ت ٥٥٤هـ): «إنّ الشعر السهل قد ينزل عن حدّه فيصبح غثّاً مثل أشعار كثرت في زماننا من أقوال البطليّين والأمّيّين على طريقة التوسّع الذي يسمّى الأزجال، وهي معانٍ شعريّة بألفاظ عامّيّة لإفهام الجهّال. ولقد أنشد بعض علية الكتّاب شعر زجّال ويعدّ في شعراء الخواصّ»[2].

وهذا النصّ فائق الأهمية – على عدم دقّة نقله– يدلّ على أمور كثيرة، وهي: عدم رضا النقّاد عن هذا الفنّ العامّي بوصفه بالغثّ، ووصف مرسليه "بالبطليّين" والأمّيّين، ونعت مستقبليه بالجهّال، وأنّ الأزجال هي نمط من الأشعار لم تخرجها عامّيّتها عن حظيرة الشعر، وذلك لأنّ معانيها شعريّة، وهدفهم من استعمال العامّيّة هو إفهام الجهّال، وأنّ الأزجال قد كثرت في زمان ابن خيرة المواعيني المتوفّى (٥٦٤هـ)، أي إنّها كانت موجودة قبل زمانه بمدّة أي في القرن الخامس الهجري.

ثمّ يتعجب من إعجاب بعض الأدباء الأندلسيّين المعاصرين له بهذا الفنّ العامّيّ على كونه من علية الكتّاب وخاصّة الشعراء، ولعلّه يقصد أبا بكر بن قزمان.

---

١ – العاطل الحالي والمرخص الغالي: ٦، ونقله ابن حجّة الحموي في بلوغ الأمل في فنّ الزجل: ١٢٨

٢ – ريحان الآداب (نقلاً عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب) : ٥١٨

وهذا أمر مهمّ جداً فعلينا أن نفرّق بين زجل العامّة الأمّيّين، وهو أصل الزجل، وزجل الخاصّة من الأدباء الفصحاء الذين استطرفوا هذا النوع من الشعر ونظموا فيه تملّحاً وتفكّهاً أو لاستسهالهم هذا النمط وتبريزهم فيه.

وقد ذكر غير واحد ممّن أصّل للزجل وكتب فيه أنّ العامّة الأمّيّين الجاهلين بقواعد العربيّة هم من شرع في هذا النمط العامّيّ من الشعر كقول صفيّ الدين الحلّي بعد حديثه عن بعض أنواع الموشّح: «ثمّ تناوله العامّة ومَنْ لا أنس له بالقواعد، ومن عجز عن الإعراب، حتّى صاروا ينظمونه ملحوناً»[1].

ونصّ ابن حجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ) على ذلك صراحة في كتابه"بلوغ الأمل فنّ الزجل" فذكر أن نظم الشعر لا يتأتّى إلّا لمن ملك أدوات النظم فقال: « ولـمّا كان لا ينظم إلّا باللفظ الصحيح المعرب، لم يصل إليه إلّا من تعاطى الآلة في العلوم وتأدّب، ولعمري هذا مضمار لم يحز قصبات السبق فيه غير الفحول، ولم يدرك شأوه إلّا كلّ ضامر مهزول»[2].

إذاً فالشعر الفصيح لا يستطيع أن ينظمه إلّا الفحول العارفون باللغة العربيّة، ثمّ قال: «ولكنّ في الناس من في طبعه ذوق الأدب والنكت الأدبيّة، ولم يعدّ نفسه من فرسان العربيّة، منهم الشيخ برهان الدين المعمار رحمه الله تعالى...واغتفر له أهل عصره اللحن وعدوه له من مطرب التلحين »[3].

فابن حجّة يعترف بأنّ اللحن والخطأ في اللغة هو في الحقيقة ذنب، ولكنّ أهل عصره سامحوا ذلك الزجّال اللحّان، وغفروا ذنبه، وجعلوه من ملح الكلام.فكيف عدّ هذا الخطأ صواباً في هذا الفنّ الجديد، وغدت هذا السيّئة حسنة،بل جعلوه شرطاً لازماً فيه، فعرّفوا الزجل بأنّه فنّ «ملحون ولحن الزجل إعرابه» وجعلوا التشكيل والإعراب «أقبح ما يكون

---

١ – العاطل الحالي: ٨

٢ – بلوغ الأمل: ٥٢

٣ – المصدر نفسه: ٥٢

في الزجل، وأثقل من إقبال الأجل»[1].

وجعله الحلّي من الفنون الأربعة « التي لحنُها إعرابُها، وخطأُ نحوِها صوابُها»[2]. وبلغ الأمر بزجّال اسمه ابن مقاتل (ت٧٦١هـ) إلى أن يقول: «ملحون بألف معرب»[3].

فعلوا كلّ ذلك إمعاناً منهم في الجهالة، وتمادياً في الاستهتار، وتسويغاً لما يقومون به من هزل، وتجميلاً لما يصنعون من قبح، وتغطية لعجز عامّتهم عن الكتابة الفصيحة، وجهلهم بقواعد العربيّة.

قال د. مصطفى الشكعة:« ويبدو أنّه كان في القوم عداوة لكلّ فصيح أو انغلاق كامل عن فهمه؛الأمر الذي جعل الزجّالين يصرّون على كسر كلّ قواعد النحو إصراراً»[4].

فالزجل هو هذا الفنّ الذي لجأ إليه العامّة، ونظموا موشّحاتهم بالعامّيّة لجهلهم بقواعد العربيّة، وتطرّق إليه بعض الخاصّة لتقصيرهم في النظم باللغة العربيّة؛ ومعروف قول الحجاري (ت نحو ٥٥٠هـ) عن معاصره ابن قزمان (ت ٥٥٤هـ): «إنّه كان في أوّل شأنه مشتغلاً بالنظم المعرب، فرأى نفسه يُقصّر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامّة الأندلس»[5].

وكذلك الأمر لدى خليفة ابن قزمان في الزجل، وهو مدغلّيس الذي «كان أديباً معرباً بكلامه مثل ابن قزمان، ولكنّه لمّا رأى نفسه في الزجل أنجب اقتصر عليه»[6].

ويركب حمر العامّيّة العرجاء من لا يستطيع ركوب خيل العربيّة الفصيحة، أو كما قال ابن بسام عمّن قصّر في الشعر: «أعياه الصريح فمذق، ولم يحسن الصهيل فنهق»[7].

---

١ – الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجّالين: ١٢٤

٢ – العاطل الحالي: ١

٣ – الدرر الكامنة: ١٥٩/٤

٤ – الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه: ٤٥١

٥ – المغرب ١٠٠/١

٦ – نفح الطيب ٣٨٥/٣

٧ – الذخيرة ٥٤٩/١

الفرق بين الموشح والزجل:

قد أجمع القدامى والمحدثون على أنّ الفرق الأساسي بين الموشّح والزجل هو اللغة والنحو، فذكر صفيّ الدين الحلّي أنّ سائر البلاد «يسمّون كلّ ما أعرب موشّحاً وكلّ ما خلا من الإعراب زجلاً، وما اشترك فيه الإعراب واللحن مزنّماً»[1]. وأكّد ابن حجّة ذلك فقال: «الفرق بين الزجل والموشّح هذا معرب وهذا ملحون»[2].

وهنا يجدر بنا أن نشير ولو إشارة سريعة إلى أهمّ الفروق بين الموشّح والزجل:

١) من حيث اللغة والنحو:

عرفنا أنّ الموشّح يصاغ بلغة عربيّة فصيحة لفظاً وأسلوباً إلّا في خرجته، أمّا الزجل فيصاغ باللهجة المحلّيّة من دون ظهور أثر الإعراب، أي التشكيل والضبط بالحركات في أغلب أواخر الكلمات.

٢) من حيث الأغراض والمعاني:

يشابه الزجل الموشّح من حيث ركوبه جميع أغراض الموشّح من غزل وخمريّات وهجاء ومديح ومكفّرات وتصوّف، إلّا أنّه أكثر اقتراباً من الأغراض الذاتيّة والحاجات الاجتماعيّة، وأكثر ولوغاً في معاني الفحش والمجون من الموشّح.

٣) من حيث الشكل:

تقتصر أغلب الموشّحات على عدد محدود من الأبيات وهو خمسة أو ستّة أبيات،والأبيات في هذا النمط الشعري المختلف تعني الدور والمركز الذي يليه كما سلف، وقد تزيد على ذلك أحياناً نادرة، أمّا الزجل فإنّه أطول فهو يصل إلى أكثر من (٤٠) بيتاً كما نرى ذلك في ديوان ابن قزمان[3].

---

١ – العاطل الحالي: ٨

٢ – بلوغ الأمل: ٦١

٣ – انظر الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٥٢، ٢٤٢

أمّا هيكل الزجل فهو ثلاثة أنواع:

١) نوع يطابق هيكل الموشّح تماماً في نمطه الثنائي والثلاثي والرباعي المراكز أو الأقفال، ولا يزيد الزجل على أربعة أسماط في المركز .

٢) نوع يشابه الموشّح في بنيته الدورية إلّا أنّه أبسط منه إذ يبدأ بمركز ثنائي ثمّ يتحوّل إلى مركز فردي، أو يبدأ بمركز رباعي ثمّ يختصر إلى نصفه فيصير ثنائياً في سائر المراكز، ويتخفّف من القوافي الداخليّة في الأجزاء الأولى منه.

٣) نوع يشابه هيكل الشعر ويسمّى بالشعر الزجلي وسنفصّل كلّ ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

مكانه وأصله:

أجمع الباحثون القدامى والمحدثون من المغاربة والمشارقة على أنّ الزجل نتاج العامّة في الأندلس، ولعلّ أوّل نصّ أندلسيّ – وصل إلينا–يذكر ذلك هو قول ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) عن الموشّحات والأزجال إنّها «الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة»[١].

وذكر ابن سعيد أنّها «قيلت بالأندلس»[٢]وقال عن الموشّحات والأزجال: «هذان طرازان كان الابتداء بعملهما من المغرب ثمّ ولع بهما أهل المشرق» [٣]. وأقرّ بذلك المشارقة فقال الحلّي عن الزجل: «ومخترعوه أهل المغرب، ثمّ تداوله الناس من بعدهم»[٤].

إذاً فقد ولد هذا الفنّ وترعرع في شوارع الأندلس وأزقّتها وبلغ أشدّه في أسواقها، ثمّ انتقل إلى المشرق، ومشهور قول ابن خلدون في أصل الزجل ومكانه ومنبعه إذ قال في مقدّمته:« ولمّا شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور، لسلاسته وتنميق

---

١ – تلخيص كتاب أرسطو في الشعر: ٥٧

٢ – المقتطف من أزاهر الطرف: ٢٦٣

٣ – المصدر نفسه: ٢٥٥

٤ – العاطل الحالي: ٥

كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامّة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سمّوه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب، واتّسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة»[1].

فهذا النصّ المهمّ يدلّ – زيادة على كون الزجل بضاعة أندلسيّة– على أنّه صنع تقليداً للموشّح شكلاً بلهجة عامّيّة دارجة فيها العربيّة والعامّيّة والأعجميّة، ومعنى ذلك أنّه نشأ تالياً للموشّح مقلّداً له متأخّراً عنه.

وهذه قضيّة اختلف فيها الدارسون المحدثون اختلافاً شديداً وما يزالون يختلفون، فزعم بعض المستشرقين بأنّ الزجل هو تطوّر للأغاني الرومانثيّة الشعبيّة؛ فهو لذلك سابق للموشّح ومتقدّم في الزمن عليه، والمقصود هو نسبة الفضل إلى الغرب في الزجل الذي نشأ على أغانيهم، ولعلّ المستشرق جيمس مونرو من أشدّ المدافعين عن هذا الرأي والمتحمّسين له فكتب بحثاً محاولاً إثبات « الجذور الرومانسية في شعر المقطع الأندلسي»[2]. ويقول: «حقيقة أنّ الزجل يقع جميعه بالعامّيّة بينما تكون العامّيّة في خرجة الموشّح وحسب، وأنّ بنية الزجل الصرف أبسط من بنية الموشّحة تؤدّي بنا إلى القول: إنّ شكل الزجل أسبق الاثنين، وإنّ الموشّحة شكل لاحق في محاكاة تتّسم بمزيد من المعرفة اللغويّة الأدبيّة»[3].

وتتّضح مآرب بعض المستشرقين في نسبة الفضل إليهم في قول مونرو: «يحقّ لنا الظنّ أنّه من الممكن أنّ الزجل الأندلسي قد اقتبس شكلاً عروضيّاً سابقاً من جنس شعري بلغة الرومانس كان شائعاً في غرب رومانيا، عندما فتح العرب شبه الجزيرة الإيبيريّة»[4].

---

١ – مقدّمة ابن خلدون:٨٢٥/١ ونقل أغلبها المقّري في أزهار الرياض:٢١٦/٢ .

٢ – الزجل والموشّح؛ الشعر الأندلسي والتراث الرومانسي:(ضمن كتاب الحضارة العربيّة في الأندلس)٥٨٠/١

٣ – المرجع نفسه: ٥٨٣/١

٤ – المرجع نفسه: ٥٨٥/١

الخصائص الفنية للزجل

لعلّ ابن قزمان (ت٥٥٤هـ) هو أوّل من وضع قواعد للزجل وشروطاً يجب توافرها فيه ليستحقّ اسم الزجل، وقد وضعها وفق الرؤية النقديّة العامّة للشعر كلّه ثمّ ميّزها منه بسمات تخصّ الزجل، واستنبط ذلك من أزجاله ذاتها، وفصّل قواعدها على قدّ أزجاله، وأنحى باللائمة على كلّ من لم يتقيّد بذلك؛ فقال في مقدّمة ديوانه: «لمّا اتسع في طريق الزجل باعي، وانقادت لغريبه طباعي، وصارت الأئمة فيه خَوَلي وأتباعي، وحصّلت منه على مقدار لم يحصّله معي زجّال، وقويت فيه قوة نقلتها الرجال عن الرجال، عندها[1] أثبتُّ أصوله، وبيّنت منه فصوله، وصعّبت على الأغلف الطبع وصوله، وصفّيته عن العقد التي تشينه، وسهّلته حتّى لان ملمسه ورقّ خشينه، [وعرّيته من الإعراب وجرّدته تجريد السيف من القراب[2]]. وجعلته بعيداً قريباً[3] وبلديّاً غريباً، وصعباً هيّناً وغامضاً بيّناً »[4].

إذاً حينما صار ابن قزمان خبيراً بمداخل فنّ الزجل ومخارجه وظواهره وبواطنه وغرائبه وشوائعه، وأوانسه وشوارده، حينها قام بوضع أصول هذا الفنّ عن معرفة وممارسة، ووضّح السمات اللازمة لنجاح الزجل وبقائه، وصفّى هذا الفنّ ممّا اعتلقه من شوائب، وهذه الأصول هي:

١- **السهولة والرقّة والعذوبة في اللفظ العامّيّ** وعدم التعقيد في المعنى وسلاسة التركيب والبعد من التكلّف ممّا يسمّى "السهل الممتنع" «وسهّلته حتّى لان ملمسه، ورقّ خشينه» وجعله «صعباً هيّناً وغامضاً بيّناً». لذلك ذمّ ابن قزمان المتقدّمين من أصحاب الزجل في الأندلس الذين «يأتون بمعان باردة وأغراض شاردة وألفاظ شياطينها غير ماردة»[5].

ونعى على الزجّال ابن راشد جزالة ألفاظه وخشونتها، وجعل الحمّالين أولى بها، قال صفيّ

١- في الأصل المطبوع (الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين): عندما

٢ – في الأصل المطبوع اختلال وتحريف

٣- في الأصل (الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين): قريباً بعيداً، والواضح أنّ ابن قزمان يلتزم السجع فالعكس هو الصواب

٤- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٢٣-١٢٤

٥- المصدر نفسه: ١٢٤

الدين الحلي: «ونظم ينكر عليه قوّة النظم زجلاً مطلعه:

زَجْلَكْ يَا بَنْ راشِدْ قَوِيٍّ متينْ وانْ كَان هُو للقوّهْ فالحَمَّلينْ

يريد: إن كان النظم بالقوّة فالحمّالون أولى به من أهل الأدب»[1].وفي قبالة ذلك فخر بنفسه لسهولة ألفاظه فقال: « وفخرنا بانسياب الطبع وسهولة الألفاظ»[2].

ووضّح ابن حجّة الحموي سبب تميّز الزجل من سائر الفنون الملحونة وهي: المواليا والكان كان والقوما، وهو ألفاظه وأوزانه، قال: «الزجل أعلاها رتبة، وأشرفها محلّاً، لكثرة أوزانه، وعذوبة ألفاظه ورشاقتها»[3].

وذكر الحلّي أنّه «لمّا ظهر ابن قزمان ونظم السهل الرقيق مال الناس إليه»[4].

ونقل ابن حجّة عن الحلّي قوله السابق عن ميل الناس إليه بسبب نظمه «السهل الرقيق الذي انتقى من لطائفه بعض ما أعجبه كقوله:

« وقال ابن قزمان في مطلع:

يَا مَنْ عَليهْ للسَّفَرْ عَلَامَهْ أَلْحَمْدُ لله عَلَى السَّلَامَه»[5]

٢- إهمال الروابط الإعرابيّة والتشكيل

زيادة على اللهجة العامّيّة الدارجة السهلة فإنّ السمة الأساسيّة للزجل هي شبه خلوّه من الإعراب، وقد أكّد ذلك ابن قزمان في مقدّمة ديوانه ثلاث مرّات، قال في خطبة ديوانه « وقد جرّدته من الإعراب كتجريد السيف من القراب»[6].

والمرّة الثانية التي عرض لها ابن قزمان لذمّ الإعراب هي قوله متنقّصاً الزجّالين السابقين له زمناً الذين يأتون بـ«الإعراب، وهو أقبح ما يكون في الزجل، وأثقل من إقبال

---

١ – العاطل الحالي: ١٣، وعنه: الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ٥٧٢

٢– الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٢٧

٣– بلوغ الأمل: ١٠٠

٤– العاطل الحالي: ١٣

٥– بلوغ الأمل: ١٠٣، وانظر الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين:٥٣٦

٦– العاطل الحالي: ١٠ بلوغ الأمل: ٤٥

الأجل»[1]، ومثّل لذلك بقول أحدهم:

طلـــع المـــا حـــتّى لـــرأس الســـرير في فزعـــــي لم أرَ كيـــــفَ أســـــير[2]

وقال ثالثة وفصّل ومثّل لما يريد: «وليس اللحن في الكلام المعرب القصيد أو الموشّح بأقبح من الإعراب في الزجل، ولا ينزّه عن هذا العار الجلل إلّا أخطل – رحمة الله عليه – فإنّه تحرّز بنفسه وما سقط إلّا في أشياء سقط فيها وهو مخطي، وتأخّر عن تقدّمها فهو مبطي، كقوله عفا الله عنه :

فمـــــنْ غـــــرسْ نُعمـــــانتينْ في روضِ تلـــــــكَ الوجنتيـــــــنْ

وكقوله أيضاً:

كســـر اللهْ ســـاقَ كـــلِّ ثقيـــل

وكقوله:

تعجّـــب النـــاسُ مـــنْ قلّـــةِ ســـعدي[3]

وكليمات سوى هذه، وأتى من سواه ممّن أشرنا إليه وطعن لتخلّف قريحته عليه»[4] .

وإذا أمعنا النظر في الأمثلة التي أوردها ابن قزمان لإعراب الأخطل بن نمارة وسواه – الذي سمّي فيما بعد بالتزنيم – فإنّنا واجدون أنّ هذا الإعراب كان في أكثر من لفظة في الفقرة الواحدة من الأغصان أو المراكز للزجل لذلك كان شائناً معيباً عنده، أمّا ورود بعض الكلمات القلائل المفردة فلا ضير في ذلك، وفي ديوان زجله منها الشيء الكثير وهو ضروري من طبيعة اللهجة العامّيّة الخاصّة بكلّ بلد، فالعامّيّة لا تسقط كلّ الروابط الإعرابيّة قاطبة بل تبقي أشياء منها.

١– الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٢٤

٢– المصدر نفسه: ١٢٤

٣– المصدر نفسه: ١٢٦

٤– المصدر نفسه: ١٢٦

٣- الصبغة المحلّيّة البلديّة والمجون:

وكما أخذ الزجل قسماً كبيراً من ألفاظه من بيئته الشعبيّة فإنّه استمدّ معانيه وموضوعاته منها أيضاً؛ من الأسواق والأزقّة والشوارع، ومن التعابير الذائعة المتداولة بين العامّة والأمثال الشعبيّة في عاداتهم وسلوكهم ومباذلهم، لذلك فقد صوّر الزجل لنا جانباً مهمّاً من جوانب النفس خاصّة والمجتمع عامّة؛ لا نجد صورتها واضحة في الشعر الفصيح، ولعلّ هذا ما عناه ابن الخطيب في قوله: «وهذه الطريقة تنفسح لكثير ممّا يضيق سلوكه على الشاعر»[١]، وتتبدّى لفظة الشعبيّة في قول ابن قزمان السابق «وجعلته بعيداً قريباً، بلديّاً غريباً».

ولقد كان بعض العوامّ يمشون في الأسواق بالأزجال وطولب بمنعهم إلّا أن يكون «في وقت ينفر فيه للجهاد، ويمشى فيه إلى الحجاز، فيحرّضون الناس على ذلك بما يوافق المعنى فلا بأس بذلك» كما قال المحتسب ابن عبد الرؤوف[٢] والواضح أنّه طلب منعهم لنوع الزجل وموضوعه الذي يميل إلى الهزل عادة، وإلى الأمور الحياتيّة الخاصّة، وإلى المسّ بالقيم الأخلاقيّة المعروفة، فهذا ابن قزمان يناقض قول عنترة:

وأغضُّ طَرْفِي إذْ بدتْ ليَ جَارتي حتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا[٣]

بقوله:

قُلْتُ سِتِّي نُكونْ غُلَامَكْ قَطْ
هَذَا عُنْقِي خُذ الْحَبَلْ وَارِبَطْ
مَوْلَتِي كَمْ تَزِنْ وَكَمْ تَخْبَطْ
رُوْحِيْ يَزْهَقْ فِي أَمْرِ هَذَا الدَّلَالْ

١- الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢/٤٩٤
٢- ثلاث رسائل في الحسبة: ١١٣
٣- ديوان عنترة: ٣٠٨

قَالَـــتَ اْحْسَـــنْتَ اْكْثَـــرْ نِحِبِّـــكْ أَنَـــا
لَـــسُّ عَـــنْ كُـــلِّ مَـــا ذَكَـــرْتَ غِنَـــا
قُلْـــتُ جِيـــدْ هُـــو فَعَجَّـــلَ امِّـــشِ بِنَـــا

قَالَـــتَ اصْـــبَرْ يَبْقَـــى لَـــكَ أنْ تَحْتَـــالْ

زَوْجِـــيْ خَـــارِجْ بَعْـــدَ العِشَـــا لَلْمَـــزَدْ
جِـــي وَلكِـــنْ أَيَّـــاكْ يَمَيَّـــزْكَ أَحَـــدْ
وَالْبِـــسَ اطْمَـــارْ وَجُـــبَّ وَاشْـــمَا تَجِـــدْ

وَكَلَامَـــكْ غَيَّـــرْ مَـــعَ الأَشْـــكَالْ[1]

زيادة على هذا ذكر ألفاظ العورات وعبارات الشتائم السوقيّة القبيحة والإيغال في المجون، ففي ديوان إمامها ابن قزمان (ت٥٥٤هـ) فحش كثير، وألفاظ نابية، وعبارات جارحة، وغزل بالمذكّر شاذّ. وأغلب الزجّالين الأندلسيّين يميلون إلى المجون والغزل المذكّر الشاذّ، ما عدا المتصوّفين منهم الذين يقعون في الطرف الآخر فيشتطّون في آرائهم الدينيّة كقولهم في وحدة الوجود وما إلى ذلك .

ولا يعني هذا أن نطرح هذا الزجل والشعر الشعبي ونقلعه من جذوره، بل أن نهذّبه ونصفّيه من شوائبه، فالزجل صوت العامّة وضميرهم الجمعي، وأدبهم المميّز لهم الخاصّ بهم الذي له لهجته ومعانيه وأخيلته الخاصّة، وله قيمته ومكانته وأهمّيّته في دراسة المجتمع العامّي وأدبه الذي يصوّر الأمور الحياتيّة الصغيرة والقضايا البسيطة من سقط المتاع كقول ابن قزمان في وصف فقره وحالته البائسة وسؤاله الناس للأشياء الضئيلة[2].

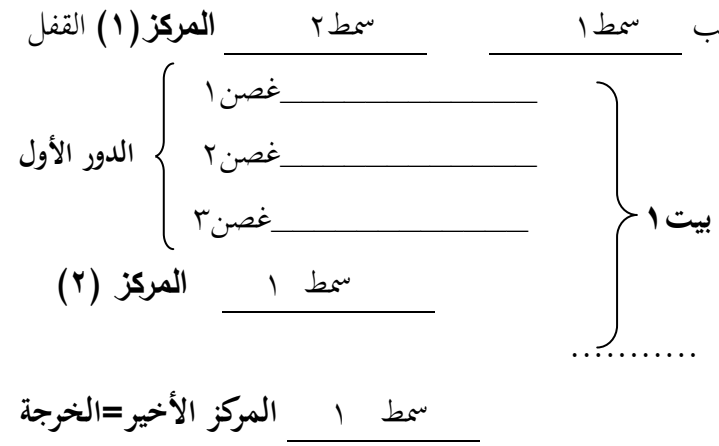
١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ٣٨٤-٣٨٥

٢- المصدر نفسه: ٣٥٩-٣٦٠-٣٦١

أقسام الزجل

بما أنّ الزجل بضاعة العامّة في الأندلس، وبما أنّه شقيق الموشّح، ولكنّه بلهجة عاميّة محلّيّة؛ فعلينا أن نستعمل مصطلحات الموشّح التي ذكرها الأندلسيّون أصحاب هذا الفنّ، والتي استخلصناها من قبل في مبحث أقسام الموشّح، ولا ضير من استعمال بعض المصطلحات المشرقيّة الضروريّة المكمّلة للمصطلحات الأندلسيّة لأنّ الموشّح والزجل انتشرا في المشرق، وأعجب بها العامّة والخاصّة، كما أنّ التنظير والتقعيد لهذين الفنّين كان في المشرق:

ويمكن توضيح ذلك بحسب الرسم التالي[1]:



الوحدة الأولى:

١- المراكز أو المراكيز (الأقفال)

وتطلق على مجموعة الأجزاء التي يبدأ وينتهي بها الزجل، وهي متناظرة في الوزن والعدد والحجم والقافية في الزجل الذي يكون على شكل الموشّح والتي تختصر إلى النصف في الأشكال البدائيّة للموشّح .

أ- يسمّى المركز الأوّل مطلعاً[2] أو مذهباً، ويتكوّن المركز الأوّل من سمطين إلى أربعة أسماط.

١- ثمّة أشكال كثيرة وهذا أبسطها وأوسعها انتشاراً

٢- انظر المقتطف من أزاهر الطرف: ٢٦١

ب- أمّا المراكز التالية فتتكون من سمط أو سمطين.

جـ- ويسمّى المركز الأخير خرجة.

٢- الأسماط: جمع سمط ، وهو اسم لكلّ جزء من الأجزاء المكوّنة للمركز.

الوحدة الثانية :

١- الدور: وهو مجموعة الأشطر بين مركزين اثنين، وتتكرّر الأدوار بالعدد والوزن نفسه من دون القافية.

٢- الأغصان: جمع غصن وهو اسم لكلّ شطر من أشطر الدور، وتكون كالموشّح ثلاثة، وقليلاً ما تكون أربعة.

ويكون الغصن مفرداً أو من جزأين غالباً.

٣- البيت: وهو مجموعة الأغصان مع المركز الذي يليها . وتتألّف قطعة الزجل من (٤-٥-٦) أبيات كالموشّح، أو تزيد لتصل إلى (٤٠) أو أكثر بقليل.

أشكاله

في البداية نذكر ملاحظة عن الزجل وهي أنّه يتميّز بتعدّد مقاطعه، وتجدّد أوزانه، وتلوّن قوافيه، وإنّ هذا الهيكل ذا الأقسام المتعدّدة، والقوافي المتنوّعة للقطعة الزجليّة والموشّح هو الفارق الرئيس بين الشعر والموشّح والزجل.

وقد أشار بعض أئمّة الزجل ومؤسّسي قواعده إلى ذلك كقول إمامهم ابن قزمان عن سلفه ابن نمارة: «يتصرّف بأقسامه وقوافيه تصرّف البازي بخوافيه»[1].فهو يشير إلى أنّ الزجل يتّصف بالأقسام المتعدّدة وبالقوافي، وليس بقسم واحد وقافية واحدة كالشعر العربي الأصيل.

وكذلك عندما عرّفه النقّاد العارفين بالزجل والمؤلّفين فيه فإنّنا نجد هذا التفريق بين هيكل الشعر العمودي وهيكل الزجل واضحاً.فصفي الدين الحلّي في أوّل خطبة كتابه قال

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجّالين: ١٢٥

: «أوزانه متجدّدة، وقوافيه متعدّدة»[1]

ويوضّح ابن حجّة الحموي الفرق بين الشعر والزجل بدقّة في قوله:« وفنّ الزجل لم تزل أوزانه إلى عصرنا هذا متجدّدة، ولكنّها غير جائزة في الشعر لخروجها عن البحور المعهودة، ومخالفة كلّ شطر من البيت الآخر في القصر والطول والقافية، وبناء البيت الواحد على عدّة أوزان وقوافٍ، وتقصير الأقفال إلى غاية من القصر »[2].

١- الشكل المشابه لشكل الموشّح البدائي

وهما شكلان **والشكل الأوّل** المميز للزجل مستمدّ من أبسط شكل وصل إلينا من الموشّح، فإذا كان الموشّح في أبسط أشكاله كما يوضّح في الرسم:

مركز ١ سمط١ سمط٢

غصن١

غصن٢ **بيت**

غصن٣

مركز ٢ سمط١ سمط٢

كموشّح أبي بكر الأبيض[3]:

روضـــةٌ وَسْـــمِيَّةُ الأقحـــوانِ تُجْتَنَـــــى بالأَمَـــــاني

لســتُ أنســى ذكــرَ طيــبِ الصَّــبُوحِ
إنْ مزجــتَ الخمــرَ راحــاً بِــرُوحِ
وتغــنَّى فــوقَ غصــنٍ مَــرُوحِ

أعجمــيُّ الصَّــوْتِ لكــنْ شــجاني عــــــربيُّ اللســــــانِ

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٢٥

٢- بلوغ الأمل: ٩٨

٣- ديوان الموشّحات الأندلسيّة: ١٧٠

فإنّ الزجل في أهم أشكاله هو:

مركز ١ سمط١ سمط٢

بيت ١
- غصن١
- غصن٢
- غصن٣
- **مركز ٢** سمط١

كقول ابن قزمان:

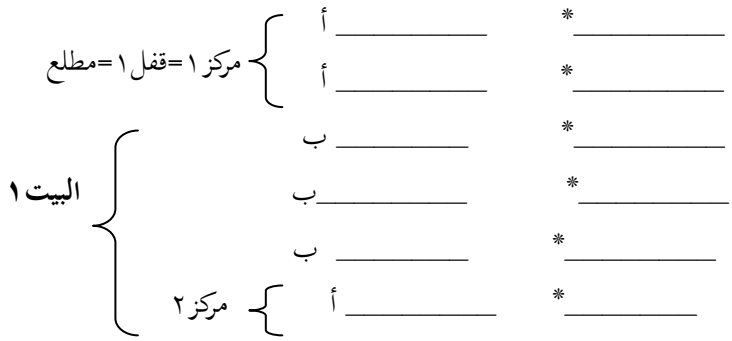
صِرْتُ عَـازِبْ وَكَـانْ لِعَمْـرِي صَـوَابْ لَـسْ نَـزَّوَّجْ حَتَّـى بِشِـيب الْغُـرَابْ

أَنَـا تَابِـبْ يَـا لَـسْ نُقُـولْ بِـزَوَاجْ
وَلَا جَلْـوَهْ وَلَا عَرُوْسَـهْ بِتَـاجْ
لَا رِيَاسَـهْ غَيْـر اللَّعِـبْ بَالزُّجَـاجْ
وَالمَبِيْـتْ بَـرَّهْ وَالطَّعَـامْ وَالشَّـرَابْ[1]

ويشترط في ذلك كون المركز الأول أو المطلع مكوّناً من سمطين على قافية واحدة، فتكون المراكز التالية مكوّنة من سمط واحد غالباً، كما هو واضح، فالمطلع أو المركز الأوّل مكوّن من سمطين على قافية الباء، ثمّ يأتي الدور الأوّل من ثلاثة أغصان على قافية الجيم ثمّ يأتي المركز الثاني والثالث والرابع... من سمط واحد فقط على قافية الباء، أي نصف المركز الأوّل، وهذا ما لا وجود له فيما وصل إلينا من موشّحات، وهو شكل كثير أثير لدى الزجّالين، ولاسيّما ابن قزمان إذ يشكّل نسبة تزيد على النصف من أشكال أزجاله.

والشكل الثاني الشائع والمختلف عن شكل الموشّحة هو ما جاء في ضعف الشكل السابق أي ما يأتي مزدوجاً في جزئين والجزء الأوّل منهما غير مقفّى في المراكز والأغصان كلّها على الشكل التالي:

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٩٨



كقول ابن قزمان[١]:

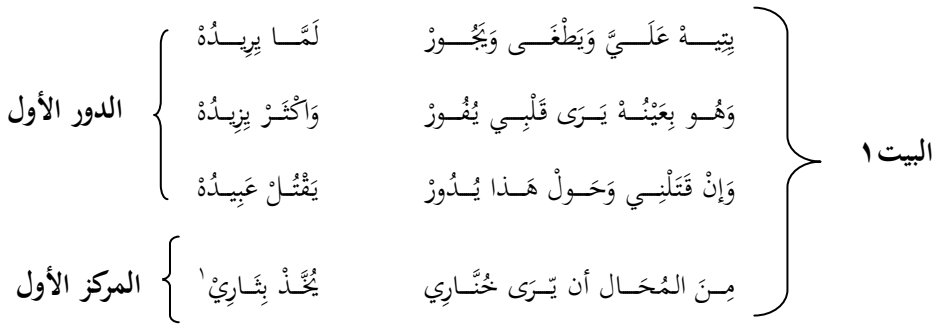
ظَهَـــــرَتْ سُـــــنَّةْ مُحَمَّـــــدْ وَانْصَـــــقَلْ مِـــــرَا الإِسْـــــلَامْ
رَجَـــعَ ابْـــنَ الحَـــاجِّ قَاضِـــي فَـــــأَدَام اللهْ ذَا الأَيَّـــــامْ
وَصَـــلَ المَظْلُـــومْ لِحَقُّـــهْ وَانْتَصَـــفْ غَنِـــي وَمِسْكِيْـــنْ
يَحْضُـــرَ الإِنْكَـــارْ وَالإِقْـــرَارْ وَيِقَـــعْ الفَصْـــلِ فِيَ الحِيْـــنْ
أَجْتَمَـــعْ فيـــه الثَّلَاثَـــةْ أَلْـــوَرَعْ وَالعِلْـــمِ وَالدِّيْـــنْ
فَيُـــزُول الْحَـــقِّ إِذَا زَالْ وَيُـــدُوم الْحَـــقَّ إِذَا دَامْ

وكما هو جليّ فإنّ المركز الثاني هو نصف المركز الأوّل (المطلع)، وإنّ الأجزاء الأولى من الزجل كلّه خالية من التقفية، ولا يلتزم به لا في أسماط المراكز ولا في أغصان الأبيات. فهذان هما النوعان اللذان يتميّز بهما الزجل من الموشّح الذي وصل إلينا، كما أنّ التخفّف من القافية في الأغصان المركّبة أكثر من الأسماط المركّبة.

٢- الشكل المطابق لشكل الموشّح:

تطابق أنماط من هياكل الزجل هياكل الموشّحات الرئيسيّة وأوزانها، وإن كان الزجل لايتفرّع بكثرة كما تتفرّع مراكز الموشّحات وأغصانها، وهو كالموشّح غالباً ما يبدأ بالمطلع أو المذهب وهو المركز أو القفل الأوّل فيسمى بالزجل التامّ كأغلب الشواهد السابقة، وقلّما يخلو منه فيسمّى بالزجل الأقرع كزجل ابن قزمان:

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ٤٢٧



أ- على نمط الموشّح الثنائي المراكز أو الأقفال البسيط:

سمط١ _____ _____سمط٢=المطلع=**المركز ١**

البيت ١
الدور ١
_____غصن١
_____غصن٢
_____غصن٣
سمط١ _____ _____سمط ٢ =**المركز** ٢

ومثاله من زجل لسان الدين ابن الخطيب:

أنـــا لِـــسْ نضْـــمنْ أبـــداً لِمـــدكَّا ولا يلْطُـــــمُ ظَهْـــــري بمحكَّـــــا

كُـــنْ مَعـــي مَعْشُـــوقْ إنْ ملـــيح ومْهـــاودْ
قلـــــتُ زرنِ أخـــــذْتُ صـــــدّك بزايـــــدْ
إشْ عْمـــــلْ قـــــل ذا الملـــــيح العَوايـــــدْ

دكَّ طـــوْري لَمّـــا تجلَّـــى لي دكَّـــا وشَـــبَكْ في خنـــاق فـــردام شـــبْكا[2]

ب- على نمط الموشّح الثلاثي المراكز :

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ٣٤٥

٢- نفاضة الجراب: ٢٤٠

هَجْرِ مَن نِحِبُّ قَدَ انْكَانِي وَاشْ بِفِيْدُ يَا قَوْمِي هِجْرَانِي وَطُـــول اْسْـــرِي

بَالَّـــذِي بُلِيـــتْ غَـــيْرِيْ لَمْ يُبْلَـــى
قِيـــل لِّيْ أَسْـــلَ عَـــنُّ وَكِـــفْ نَسْـــلَى
مُـــذْ هَجَرْنِـــي حِبِّـــيْ وَقَـــدْ وَلَّى

وَبَـنَى عَلَى قَتْلِي وَاْبْلَانِي وَلَّى صَـبْرِي عَـنِّيْ وَسُـلْوَانِي وَبَـــاحْ سِـــرِّي[1]

وثمّة نمط منه لكن لا يقفّي الزجّال السمط الثاني منه كقول ابن الخطيب[2]:

دُرْ بْحـــالْ الرُّحَـــيْ حـتَّى لِـسْ يَبْـقَ عِنْـدكْ يـا بْـنِ فِي الحـيِّ حـيْ

قُطْـبُ مِـنْ ذاتِـكْ اعْمَـلْ وعْليـــهْ المـــدارْ
لا يهلَـــكْ الـــرَّوِي أبَّـــكْ لَا يهْلَـــكْ الغبـــارْ
فـــإذا رأيْـــتَ دقيقـــك قـــدْ طلَـعْ ثمَّ فـارْ

احـــتفِظْ يـــا أُخَـــيْ بِرُسَـــيْمَلَكْ واحْـــذَرْ أنْ تكـونْ بِـه سُـخَيْ

جـ- على نمط الموشّح الرباعي المراكز كقول ابن قزمان:

أَيَّـــــاكْ تَشَـوقْنِـــي لِخَـــدَّكَ الأَزْهَـــرْ
يَـــا فَرْحِـــيْ يَـــا أنْسِـــي يَاعِيْـــدِي الأَكْبَـــرْ

لَـــسْ كَنُّكُـــونْ حِبَّـــكْ مِـنْ قَـيْسْ مَـا أَتْ حِبِّـي

فَلَـــــوْ دَرَى قَلْبَـــــكْ مَـــا فِي ضَـــمِيْرْ قَلْـــبِي
وَاللهْ لَقَـــــدْ حُبَّـــــكْ عَزِيـــزْ عَلَـــى حُبَّـــي

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ٤٨٠

٢- نفاضة الجراب: ٢٤٢

لَـــسْ عِنْـــدِيْ فِي ظَنِّـــي وَالحَـــقِّ لَا يُنْكَـــرْ
أَعَـــزِّ مِـــن نَّفَسِـــي وَحُبَّـــكَ أَتْ أَكْثَـــرْ[1]

وتتلوّن القوافي وتتعدّد طرائق صوغها.

ولا تزيد المراكز في الأزجال على أربعة أسماط إلّا نادراً، ولا تصل كما في الموشّحات الأندلسيّة إلى ثمانية أو عشرة أسماط كما في الموشّحات المشرقيّة المتكلّفة، وكذلك فإنّ الأغصان في الزجل لا تتفرّع كما تتفرّع أغصان الموشّحات، فهي إمّا بسيطة مفردة من جزء واحد فقط، أو مركّبة من جزئين فقط مقفّيين كالموشّح أو كالنمط البدائي غير المقفّى منه كما سلف.

٣- الشعر الزجلي :

وهو ذلك الشعر العامّي المصبوب في قوالب القصيدة العربيّة وعلى أوزانها وقوافيها، فهو ضرب آخر من الزجل، وإن كان يفقده عنصراً مهمّاً من عناصره وهو النغم الناجم من تعدّد الأشكال والأوزان.

وعندما أثبت ابن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ) شيئاً من آثار مدغلّيس فإنّه أورد له زجلين على شكل الموشّحات، وقطعة شعريّة عامّيّة على شكل القصائد، وقدّم لها بقوله: «وله شعر ملحون على طريقة العامّة منه:

صَـــحْبَةِ العُنْـــقِ المليـــح المُخَلْخَـــلْ حُبِّـــي فِـــكْ ثَابِـــتْ وِدِيْـــني مْخَلْخَـــلْ
وعـــــلامَ بِعْـــــتْ دِيـــــني بِحُبِّـــــكْ لـــو عَطِيْـــتْ مَرْغُـــوبي فِـــكْ لَـــسْ تِسْـــأَلْ
فَلَقَـــدْ عِنـــدك حَـــلَاوَى لِي مِنـــوَّعْ وجمـــــالاً طَـــــوْعْ إِلامْ يَخْـــــذَلْ[2]

فابن سعيد يفرّق بين الزجل والشعر العامّي من حيث الشكل، وهذا أمر دقيق صحيح، ولكنّه يثبت — في الوقت نفسه- أنَّ الشعر العامي موجود، ومدغلّيس ينسج

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ٤٨٩

٢- المغرب: ٢/٢٢٢

على منواله.

وأكّد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة انتشار هذا النمط من الزجل في أوساط العامّة في القرن الثامن الهجري في الأندلس بل هو فنّ العامّة الذين طوّعوه للنظم بلهجتهم العامّيّة في جميع البحور الخليليّة، واتخذوا له اسم الشعر الزجلي؛ قال «وهذه الطريقة الزجليّة لهذا العهد هي فنّ العامّة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم؛ حتّى إنّهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامّيّة، ويسمّونه "الشعر الزجلي" مثل قول شاعرهم:

دهر لي نعشق جفونك وسنين ... وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
حتّى ترى قلبي من أجلك كيف رجع ... صنعة السكّة بين الحدّادين
الدموع ترشرش والنار تلتهب ... والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغزو ... وأنت تغزو قلوب العاشقين »[1]

أمّا صفي الدين الحلّي (ت٧٥٠هـ) فيقول: «وأوّل ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصّدة، وأبياتاً مجردة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لا يغايره بغير اللحن واللفظ العامّي، وسمّوها القصائد الزجلية»[2].

ولكنّه استشهد بقصائد زجليّة كثيرة كلّها لمدغلّيس، وهو زجّال متأخّر (في النصف الثاني من القرن السادس الهجري) لا بأوائل الزجّالين ممّا لا يجعل ذلك حجّة له، ثمّ قال: «وهذه القصائد لمّا كثرت واختلفت عدلوا عن الوزن الواحد العربي إلى تفريع الأوزان المتنوّعة، وتضعيف لزومات القوافي، ليكون ذلك فنّاً لهم بمفردهم»[3].

والذي نراه أنّ هذا الشعر العامّي هو نوع أدنى من أنواع الزجل، وأنّ ابن خلدون كان دقيقاً في تسميته بالشعر الزجلي ليميّز بينه وبين الزجل، لفقدانه خصوصية الزجل في اختلاط الأصوات وتنوّع القوافي وقوّة النغم.

١- مقدّمة ابن خلدون: ٨٢٩/١

٢- العاطل الحالي: ١٤، ونقل عنه في بلوغ الأمل: ١٠٠

٣- العاطل الحالي: ٢٢، ونقل عنه في بلوغ الأمل: ١٠١

أغراض الزجل

عالج الزجل أغلب الأغراض الشعريّة وليس الغزل والهزل فحسب، وكان مسخّراً للمديح والتكسّب منذ ظهوره لدى أوائل الزجّالين الذين وصل إلينا خبرهم كأخطل بن نمارة الذي وصفه ابن قزمان بحسن التخلّص «من التغزّل إلى المديح بغرض سهل وكلام مليح»[1].

كما أنّ في ديوان ابن قزمان وهو من أوائل الزجّالين أيضاً كثيراً من المديح والغزل والوصف وبعض الرثاء والهجاء والفخر، وفي ديوان الششتري كثير من الأزجال في التصوّف وما يمتّ إليه، ممّا يؤكّد شمول الزجل لأغلب الأغراض الشعريّة المعروفة في ذلك الوقت .

وهذه نماذج من أغراض الزجل:

١– الغزل: قول ابن راشد[2]

كلّ من يعيب حِبّي أيش يفيدو ذا همُّ ليش يلوم كذاك نريدو

كل من يعيب حِبّي لس نسمع لو
ونداري من نهوى ونخضع لو
العزّ فيه يجعلني تراب لنعلو
بدّ للغلام ميمون يخضع لسيدو

إن تِعبْه في عيني أيش لك في صدري
هو طلع لي بالقُرعة وأنا وسعدي
سمج هو تزعم اَتْ مليح هو عندي
القمر هو في عيني والناس عبيدو

عيشي بعد محبوبي عيش منكّدْ
إن رقدت تنبّهني بواغت الصد
مثل ما قطع قلب وقدّدْ
في لظاظة الهجران شوى قديدو

١– الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجالين: ١٢٥

٢– الزجل في الأندلس: ٥٦

كـــل أحـــد في ذا العيـــد حصـــل لـــو فايـــدْ
المـــلاح مـــع العشّـــاق يمشـــوا لواحـــد
يعملـــوا ســـلام للعيـــد وابـــن راشـــد
وحـــدو يشـــكي الغربـــة في عيـــدو

كـــلّ حـــد في ذا العيـــد شـــرّح وملّـــحْ
وعمـــل علـــى حَبْلُـــو مبـــزور مملّـــح
وأنـــا فلـــيس عنـــدي كـــبش فيـــنطحْ
ولا مـــا نجـــوّل الســـكين علـــى وريـــدو

٢– الطبيعة: قول مدغلّيس[١]

ثَـــلاثَ اشْـــيا فِالْبَســـاتِينْ لِـــسْ تُجَـــدْ في كُـــلِّ مَوْضِـــعْ
النَّســـيمْ وَالخَضْـــرَ وَالطَّيْـــرْ شِـــمْ وَاتْنَـــزَّهْ وإِسْـــمَعْ
قُـــمْ تَـــرَى النَّسِـــيمْ يُوَلْـــوِلْ وَالطُّيُـــورْ عَلِـــهْ تِغَـــرِّدْ
وَالثِّمَـــارْ تُنْثُـــرْ جَـــوَاهِرْ في بِســـاطْ مِـــن الزُّمُـــرُّدْ
وبِوَسْـــطِ المـــرجِ الاخْضَـــرْ ســـقْيٍ كالسِّـــيفِ المُجَـــرَّدْ
شـــبِّهتْ بالســـيفِ لمـــا شُـــفِتْ الغـــدِير مـــدرَّعْ
ورَذاذاً دقِّ بِنْـــزِلْ وشُـــعاعِ الشـــمسِ بِضْـــرَبْ
فتَـــرَى الواحِـــدْ بِفَضَّـــضْ وتَـــرَى الآخـــرْ بِـــذَهَّبْ
والنَّبـــاتْ بِشْـــرَبْ وبِسْـــكَرْ والغُصُـــونْ تُـــرْقُصْ وِتِطْـــرَبْ
وتِرِيـــد تِجِـــي إِلِينَـــا ثُمَّ تِسْـــتِحِي وتِرْجَـــعْ

١– المغرب : ٢/٢٢٠

وجـــوارْ بِحَـــلْ حُـــور العِـــين ... في رِيَـــاضْ تُشْـــبِهْ لِجَنَّـــا

وعشـــــــيَّةً قصـــــــيرا ... تنظـــــرَ الخُلْـــــعَ تُجَنَّـــــا

لِـــــشْ تريـــــدْ نفَارْقُوهـــــا ... وهـــيَّ تحْمِـــلْ طَاقَـــا عَنَّـــا

وكَـــــأَنَّ الشَّـــــمْسَ فيهـــــا ... وَجْـــــهِ عاشـــــقْ إذ يِـــــوَدَّعْ

إِسْـــــتَمِعْ أُمّ الحُسُـــــنْ كِـــــفْ ... تِلْهِمَـــــــكْ إلى الخَلاعَـــــــا

بـــــنَغَمْ تِـــــرُدِّ الأَشْـــــياخ ... للمجـــــــونِ وللرَّقَاعَـــــــا

غَـــرَّدَتْ مِـــنْ غُـــدْوَ للِّيـــل ... ومَـــــا كَـــــرَّرِتْ صِـــــنَاعا

يسْـــــمَعِ الخُليـــــعْ غِنَاهَـــــا ... ويحُـــــسْ قَلْـــــبُ يِخَلَّـــــعْ

٣- غزل وخمر وطبيعة: قول الدبّاغ

لا ملـــــــيحْ إلّا مهـــــــاوِدْ ... لا شـــــــرابْ إلّا مـــــــروَّقْ[1]

اتّكـــــي واربَـــــح زمانَـــــكْ ... بالخلاعَـــــا والمُعَيْشَـــــقْ

لا شـــــراب إلَّا في بســـــتانْ ... والربيـــــعْ قـــــد فـــــاح نـــــوارْ

يبكـــــي الغمـــــامْ ويضـــــحك ... أَقحـــــوانْ مـــــعْ بهـــــارْ

والميـــــاه مثـــــل الثعـــــابين ... فِـــــذاك السَّـــــوَّاق دارْ

والنســـــيمْ عـــــذريُّ الانفـــــاسْ ... قـــــد نحـــــل جســـــمو وقـــــدْ رَقّْ

وعشـــــيةً مليحَـــــا فِـــــتْنَ ... عَنْهـــــا المســـــك يَنْشَـــــاقا

الطيـــــورْ تحكـــــي المثـــــاني ... وتَسُـــــقْها أحســـــن سِـــــياقا

في ثمـــــــاراً يلهمـــــــونَ ... لزمـــــان العشـــــق طاقـــــا

فغصُـــــن لاخَـــــرْ يُقَبِّـــــلْ ... وقضـــــيب لاخَـــــرْ يعنَّـــــقْ

١- المغرب ٤٣٨/١

وشـــعاع الشـــمس قـــد غـــابْ وبقـــــا فِالجـــــو نـــــورْ
والشـــــفق فـــــالغرب ممـــــدودْ قـــــد كتـــــب بِزَنْجَفُـــــورْ
أَحرفـــــاً تُقْـــــرَى وتُفْهَـــــمْ فـــــتراهمْ في ســـــطورْ
السِّـــــماكْ ميمـــــاً مـــــدوَّرْ والهـــــلالْ نونـــــاً مُعَـــــرَّقْ
ونَحـــــن في طيـــــبَ مـــــدامْ قـــوم جلـــوسْ واخـــرْ يميـــلْ
ونـــــديم يســـــتقى نـــــديمْ وخليـــــل يهـــــوي خليـــــلْ
وعـــــذار الليـــــل قـــــد شـــــابْ لمّـــــا أَن دنـــــا رحيـــــلْ
ودليـــــل الصـــــبحْ قـــــدّامْ قـــــد ركـــــب جـــــواداً أبلـــــقْ

٤– الهجاء: قول الدبّاغ في هجو حكيم [١]

إن رِيـــتْ مـــن عَـــدَّاك يشـــتكي مـــن تلطـــيخْ
وتريـــــد انْ يُقـــــبر احـــــمِلُ للمـــــرّيخْ

قـــد حلـــفْ ملـــك المـــوت بجميـــع أيمـــانُ
أَلا يـــبرح ســـاعهْ مـــن جـــوارْ دكَّـــانُ
ويـــــريح روحُ ويعظَّـــــم شـــــانُ
وفســـــاد النِّيَّـــــا تحـــــت ذاك التـــــوبيخْ

بقيـــاسُ الفاســـدْ وبـــدينُ الحمـــروجْ
يَخُـــذِ الصـــفراوي ويـــردُّ مفلـــوجْ
للصـــحيح لـــنْ يســـمح بمريقـــة فـــرُّوجْ
ويحيـــل المحمـــومْ علـــى أَكـــل البطّـــيخْ

١– المغرب ٤٣٩/١

وغَـــــنِي إن طَـــــبّ فـــــيردُّ يسْـــــعى
والمـــــنيّ يطلـــــق في مُـــــرُوجُ تُرْعَـــــى
يســـقى مـــا يســـقيه يحتبـــسْ في الأمعـــا
احتبـــــاس أَيـــــدي العـــــارْ بحبـــــال التـــــوبيخ

قُـــــوَّةُ تتنفَّـــــى مـــــن عطـــــاهْ تَنْقِيّـــــا
ويـــــرى أكبـــــادُه في الطُّسَـــــيْسْ مرميَّـــــا
تنـــــبري أَنيـــــاطُ وتقـــــعْ ملويَّـــــا
مثـــــل شـــــعر العانـــــا إن حُلِـــــقْ بـــــالزرنيخْ

وشـــرابُ الممـــدوح مثـــل سُـــكَّر ذبَّـــاحْ
فالزجـــــاج يَتْقَلْـــــيَطْ لخـــــروج الأرواحْ
نُقَـــط او مَـــا جُـــني علـــى صُـــلْب التمســـاحْ
وبـــــــدا يتنـــــــاثرْ بالعَفَـــــــنْ والتـــــــزنيخْ

الـــوزير أَبُـــجَعْفَر قـــد كَثَّـــر تبجيلـــك
واشْ يقـــولُ البربـــر حِـــنْ يـــرَوْا تعجيلـــك
سُـــو الأَدب علَّمْنـــا ذا الـــدوا أدّيلـــك
الطِّفَـــــلْ يتقـــــدمْ لَلْقَبَـــــرْ قبـــــل الشـــــيخْ

٥- التصوّف: قول الششتري[١]

شَـــــيْخُ مِـــــنْ أَرْضِ مِكْنَـــــاسْ وَسْـــــطَ الاسْـــــوَاقِ يْغَـــــنِّي
أَشْ عَلَـــــيّا مِـــــنَ النَّـــــاسْ وَاشْ عَلَـــــى النَّـــــاسِ مِـــــنِّي

أشْ عَلَـــــيَّا يَ صَـــــاحِبْ مِـــــنْ جَمِيـــــعِ الْخَلايِـــــقْ
إفْعَـــــلِ الْخَيْـــــرَ تَنْـــــجُو وَاتْبـــــع اهْـــــلَ الْحَقَـــــايِقْ
لا تَقُـــــلْ يَـــــا بْـــــنِ كِلْمَـــــهْ إلّا إنْ كُنْـــــتَ صَـــــادِقْ

خُـــــذْ كَلامِـــــي فِ قُرْطَـــــاسْ وَاكْتَبُـــــوا حِـــــرْزَ عَـــــنِّي
أَشْ عَلَـــــيّا مِـــــنَ النَّـــــاسْ وَاشْ عَلَـــــى النَّـــــاسِ مِـــــنِّي

ثَمَّ قَـــــوْلٌ مُبِـــــينٌ وَلا يَحْتَـــــاجْ عِبَـــــارَهْ
أشْ عَلَـــى حَـــدِّ مِـــنْ حَـــدْ إفْهَمُـــوا ذِي الإشَـــارَهْ
وَانْظُـــرُوا كِبْـــرَ سِـــنِّي وَالعَصَـــا وَالغَـــرَارَهْ

هَكَـــذَا عِشْـــتُ فِي فَـــاسْ وَكَـــذَاكْ هُـــوْنِ هُـــونِي
أَشْ عَلَـــيّا مِـــنَ النَّـــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

١- ديوان الششتري: ٢٧٢- ٢٧٥ .

وَمَـــا أحْسَـــنْ كَلامُـــو إذْ يَخْطُـــرْ فِي الاسْـــوَاقْ
وَتَـــرَى أهْـــلَ الْحَوَانِيـــتْ تَلْتَفِـــتْ لُـــو بِالاعْنَـــاقْ
بِغَـــرَارَةْ فِ عُنْقُـــو وَعُكَيْكِـــزْ وَأقْـــرَاقْ

شَـــيْخُ مَبْـــنِي عَلَـــى اسَـــاسْ كَمَـــا أنْشَـــا اللهُ مَبْـــنِي
أَشْ عَلَـــيّا مِـــنَ النَّـــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

لَـــوْ تَـــرَى ذَا الشُّـــوَيِّخْ مَـــا أرَقُّـــوا بِمَعْـــنَى
الْتَفَـــتْ لِي وَقَـــالْ لِي أشْ نَـــرَاكْ تَتَّبِعْنَـــا
أنَـــا نَنْصِـــبْ لِي زَنْبِيـــل يَرْحَمُـــوا مَـــنْ رَحِمْنَـــا

وَأقَـــامُوا بَـــيْنَ اجْنَـــاسْ وَيَقُـــولْ دَعْـــنِ دَعْـــنِي
أَشْ عَلَـــيّا مِـــنَ النَّـــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

مَـــنْ عَمِـــلْ يَـــا بْـــنِي طَيِّـــبْ مَـــا يُصِـــيبْ إلَّا طَيِّـــبْ
لعُيُوبُـــو سَـــيَنْظُرْ وَفِعَـــالُو يُعَيِّـــبْ
وَالْمُقَـــارِبْ بِحَـــالِي يَبْـــقَ بَـــرَّا مُسَـــيّبْ

مَـــنْ مَعُـــو طِيبَـــةَ انْفَـــاسْ يَـــدْرِ عُـــذْرَ الْمُغَـــنِّي
أَشْ عَلَـــيّا مِـــنَ النَّـــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

وَكَـــــــذَاكْ إِشْـــــــتَغَالُو بِالصَّـــــلاة علَـــى مُحَمَّـــدْ
وَالرِّضَـــــا عَـــــنْ وَزِيـــرُو أبِ بَكْـــــــرِ الْمُمَجَّـــــدْ
وَعُمَـــــرْ قَائِـــلَ الْحَـــقّ وَشَـــهِيدْ كُـــلِّ مَشْـــهَدْ

وَعَلِـــــي مُفْـــــنِي الارْجَـــاسْ إِذَا يَضْـــــرِبَ مَـــــا يَثْـــنِي
أَشْ عَلَـــــيّا مِـــــنَ النَّـــــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

يَـــــا إِلهِـــي رَجَوْتُـــكْ جُـــدْ عَلَيَّـــا بِتَوْبَـــهْ
بِـــالنَّبِي قَـــدْ سَـــأَلْتُكْ وَالكِـــرَامِ الأَحِبَّـــهْ
الرَّحِيـــمْ قَـــدْ شَـــغَلْنِي وَانَـــا مَعُـــو فِي نُشْـــبَهْ

قَـــدْ مَـــلَا قَلْـــبِي وَسْـــوَاسْ مِمَّـــا هُـــوْ يَبْغِـــي مِـــنِّي
أَشْ عَلَـــــيّا مِـــــنَ النَّـــــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

تَمَّ وَصْـــفُ الشُّـــوَيِّخْ فِي مَعَـــانِي نِظَـــامِي
وَانِّي خَـــوَّاصْ وَنُقْـــرِي لاهْـــلِ فَـــنِّي سَـــلامِي
وَإِذَا جَـــــــــوَّزُونِي نَقُـــــلْ اوَّلْ كَلامِـــــي

شَـــيْخُ مِـــنْ أَرْضِ مِكْنَـــاسْ وَسْـــطَ الاسْـــوَاقْ يُغَـــنِّي
أَشْ عَلَـــــيّا مِـــــنَ النَّـــــاسْ وَاشْ عَلَـــى النَّـــاسِ مِـــنِّي

٦- المديح: قول لسان الدين بن الخطيب

وقلت من الهزل بطريق الرجوع[١]:

افْرَحُـــوا وطيبُـــوا قــدْ مَضَــى عــدُوُّ اللهْ وانْجَبَـــرْ حَبِيْبُـــو

كانـــتِ الـــبلادْ وأهْلـــهْ نعـــمْ فيـــهْ رغيبَـــا

لـــمْ تـــرَ نْهَـــارْ فيـــه ضـــوْ ولا بعْـــــدُ طيبـــــا

كيـــفْ لَ وقـــدْ صـــارتْ أرْمُـــــلاً غريبـــــا

يـــا للهْ وَيْ نصـــيبُ قَـدْ رَفَعْـتُ مِـنْ شَـوْقي لمَّ غـــابْ نَصِـــيْبُو

والأمـــمُ مِـــنَ الحسْـــرا دونْ شـــراب سُـــكَارى

والعيُـــونْ عيـــونْ تجـــري والقُلـــوبْ حَيَـــارى

والـــذي ظفَـــرَ مـــنْهمْ بحـــرْفٍ أو دبـــارا

يجْعلـــو فيجِيبُـــو عســى يَنْطَفـا وَجْـدو ويَسْـــكُنْ وجِيبُـــو

وعثْـــرَ كَـــنْ هـــذا الحـــادثْ في الفللَـــكِ وغلْطـــا

سَـــقَطَتْ بـــه الـــدنيا فـــردام ســـقطا

يسْـــتَغيثُ ذاكَ المَـــوْلى مِـــنْ سُـــهَيْلِ لبَسْـــطا

ولَا مَـــنْ يَجِيبُـــو اسْـــتوى الـــوطن كلُّـــه خلْـــفُ مـــع نَجيبُـــو

١- نفاضة الجراب: ٢٤٤-٢٤٥

ومـــرَضْ ديـــنٌ الإسْـــلامْ حـــتَّى كـــادَ يغَمَّـــضْ
ولا مـــنْ يـــدوقْ النَّـــوم ولا مَـــنْ يَغْمَـــضْ
كـــلَّ أحـــدٍ ســـلَّمَ فيـــهِ للْقضـــا وفـــوَّضْ

حـــتَّى جَـــا طبيبُـــو فـــزال الألَمَ والبُـــوسْ الِّ كـــنْ يَصـــيبُو

بمحمَّـــد المـــوْلى عـــزَّ ديـــنْ محمَّـــدْ
ورَجَـــعْ بـــهِ الإسْـــلامْ كمـــا كـــانْ مُمَهّـــدْ
ورأتْ بـــهِ الدنْيـــا مثْلَمـــا تَعَـــوَّدْ

وصْـــلِ غـــابْ رقيبُـــو ســـعادة انْ تبْقَـــى في عَقَـــب عَقِيبُـــو

يَنْـــزِلْ الفـــرج لمَّـــا تنْتَهـــي الشَّـــدايدْ
ولله فِهَـــوْلِ النـــاسْ بالجَميـــلْ عَوايـــدْ
أيْ وَطَـــن رأى قَصْـــدُ ومنَـــاهُ بزايـــدْ

انْجَبَـــرْ غريـــبُ والتَحـــفْ بسِـــتْر الله بَرِيـــهْ مـــع مُرِيبـــو

لـــوْلا شـــفَقَة الســـلطانْ الإلـــهْ يعـــينُ
مـــا اجْتَمَـــعْ شْـــمَلْ إنســـانْ فيهـــا مَـــعَ يميـــنُ
ومـــنْ يَعْجَبَـــكْ دُنيـــاهْ أوْ يعْجَبْـــكَ ديـــنُ

فَقِيـــهْ مـــع خطيـــبُ قـــالْ لَلْفُـــنْشُ نُومَتَـــارْ يـــا شِـــنْيورْ قَطِيبـــو

قَـــلْ للانْـــدَلسْ عـــنِّي كـــنْ نزيـــدْ بِعَـــدَدْ
ومِـــنْ بَعْـــدِ ذا نرْجـــعِ للْوَصْـــلِ نَجـــدَّدْ
كيـــفْ نَسَـــيتَنِي بـــالحقِّ وقـــدَرْتَ ترْفَـــدْ

الالَـــه حَسِـــيبُوا كُـــلِّ مـــنْ يَخُـــونْ إلْـــفُ أوْ يَهْجُـــرُ حَبيبُـــو

مـــنْ لا يعـــرفْ النِّعْمـــا فزَوْلّهـــا يرْقُـــبْ
وفلالِـــسْ الكشْـــفا بـــيضْ ولْـــد تثقُـــبْ
وينـــدَمْ لأمْـــر انْ فـــاتْ وَهُ رَدُّ يصْـــعُبْ

ويَريـــبْ حَليبُـــو ويـــري مـــا بيْ ولْـــدُ ومـــا بَيْ رَبِيبُـــو

قـــدْ رَجَـــعْ لفضْـــلِ الله المغصـــوبِ لمـــوْلاهْ
اللهُ يُلْهِمـــو شُـــكُورْ في الـــذي قـــدْ ولَّاهُ
أيْ هنِـــيَّ أيْ فرْحـــا يـــا حبايـــب اللهْ

افْرحُـــو وَطِيبُـــو قـــدْ مَضَـــى عـــدوُّ اللهْ وانْجَبَـــرْ جبيبُـــو

٧– الرثاء: قول ابن قزمان

البكـــا واجـــبْ وصـــبرنا أنفـــعْ
إنَّ مـــن قـــد مـــات لم يمـــدِ ليرجـــعْ

–١–

إنَّمـــا ادخـــل: معـــذورْ وزايـــدْ
كُـــلَّ احـــدْ بـــالله يفـــزعْ للشـــدايدْ
لـــسْ تجـــي العينـــين اذْ تبكـــي بفايـــدْ
إنَّمـا راحـهْ تِجـدْ كمـا تـدمعْ

–٢–

قيـــل لِّي في اشـــبيليهْ ولـــسْ كِنَّصـــدَّقْ
حـــتّى جـــاتْ رُفقـــهْ وقالـــت لي الحـــقْ
ومشـــى خـــبركْ وغـــرَّبْ وشـــرَّقْ
وقطـــعْ آمـــالْ وكسَّـــلْ وروَّعْ

–٣–

وفتـــلْ أكبـــادْ ومـــرَّضْ وحيَّـــرْ
وقلوبنـــا راعْ وبـــدَّلْ وغيَّـــرْ
لـــسُّ الإنســـانْ في عيشُـــهْ مُخيَّـــرْ
إنَّمـا يُنقـلْ مـن موضـعْ لموضـعْ

–٤–

ألزَّمـــانْ دابُـــهْ عبـــوسْ مظلـــم اغـــبرْ
لا خُلُـــقْ ماعـــهْ ولا حُسْـــنِ منظـــرْ
شُـدَّ لُـهْ عينيـكْ فلـسْ فيـه مـا ينظـرْ
وانس فيه أُذنيك فلسْ فيه ما يُسمعْ

-٥-

وبـــع العـــالم وابـــدلهم بـــأنفسْ
وكـــل الصَّـــارَّهْ واســـتغنى عـــن النَّـــاسْ
وإنْ قـال أحـدْ كـف اثْ؟ قُـل لُّ لا بـاسْ
وابس اشما كـان بـلا ذِلَّ واقنعْ

-٦-

بعـد ابـن حمـدين لاَّ حُرمـهْ ولا جـاه
الكـــرم عاصـــي إذْ فـــارقْ لمـــولاهْ
قـــــد بقـــــا وفاتنـــــا معنـــــاهْ
فالنَّعم محفوظ والصدق مُضيِّعْ

-٧-

إنَّمـــا نســـمعْ أنـــا ولعمـــري
أنـا مِـنْ شـاني أنـا هـو مـن أمـري
فعـــل الله بيـــه وبـــارك في عمـــري
أنـا نـتهمَّم ونفعـل ونصـنعْ

-٨-

فكمـــا ترجـــعْ لوعـــده عشـــيَّهْ
ثمَّ هـــو قـــالْ نمـــضَ أنـــا للقريّـــهْ
بالـــلَّ لـــو أن يحفـــظ البربليَّـــهْ
لـسْ مشـى إلَّا بـبرنسْ مقنَّـعْ

-٩-

يـا زمـان افتـك واعمـلْ مـا بـدا لـكْ
مـات أبـو القاسـم شمسـك وهلالـكْ
تقطـــع أيَّامـــكْ بعقـــر رجالـــكْ
هذي هي أخلاق وهذا هو مقطعْ

-١٠-

يَـــا صَـــبَاح العِيـــدْ أتْغَيَّـــرْ شَـــبَابَكْ
لَـــسْ يُلجُّ(اوجِّـــكْ)لَسْ تَصْـــقُلْ ثيَابَـــكْ
لَـسْ يُفُـوحْ طِيبَـكْ لَـسْ تَصْـهَلْ دَوَابَـكْ
لَسْ يُرَى أوجِّكْ بِحَالْ مِرَا يَلْمَـعْ

-١١-

أيْـــنْ ذِيْـــكِ الأيَّـــامْ وَذِيـــك اللَّيـــالي
كَـــانُنْ بَاشَـــا فَـــاجِ إبَـــادُو مَـــالي
إنَّمَـــا القاضِـــي رَجُـــلْ مِـــن رِّجَـــالي
عَـــاليَ الهِمَّـــهْ يُضُـــرَّ وَيَنْفَـــعْ

-١٢-

ضَـــاعَت السُّـــنَّهْ فَأَصْـــبَحْ الإســـلَامْ
كُـــلُّ رُنْبِـــيْطُ لَا طَـــوقْ وَلَا أكْمَـــامْ
مَنْقُـوضَ البُنْيَـاتْ لَسُّـهْ فِيـهْ وَصْـلا تَـامْ
وَارِيْ أوْ مُقَـدَمْ لِـسْ فِيـهْ مَـا يُرَفَّـعْ

-١٣-

مُــتَّ يَــا قَاضِــيْ وَبَــاي قَاضِــيْ بُجْبَــرْ
وَايْ صَــبَرْ يَبْقَــى وَالنَّــازِلَ أَكْبَــرْ؟
لَــسْ يُــوَدَّعْ فِيــكَ العِلْــم وَلَا أَكْثَــرْ
العُــلَا وَالــدِّيــنْ والمَجْـد مُــرَفَّعْ

-١٤-

جَاتْنَــا فِي فَقْــدَكْ رَزِيَّــهْ كَبِيــرَهْ
سِــيرَةَ الإِحْسَــان يَــا لَسَّــنْهَا سِيــرَهْ
وَانْكَشَــفْ بَعْــدَكْ أَقْوامــاً كَثِيــرَهْ
كَشْــفَةَ البُــرْغُوثْ فِي جَبْهَة الآصْلَـعْ

-١٥-

نُحُــنْ فِي حَــيرَهْ وَقَاضِــينَا قَــدْ مَــاتْ
وَالزَّمَــان لَّعَّــابْ يُوقِفْنَــا بِشَــهْمَاتْ
وَالنَّبِيــلْ يَشْــقَى والجَاهِــلْ فِي لَــذَّاتْ
يَا فَهِيــمْ اهْبَطْ وَيَا أَبْلَــهَ اطْلَــعْ[1]

-١٦-

يَمْلِــك الإِنْسَــانْ مِــن مُــرَّ وَحَــامِضْ
وَيِرِيــدْ يَحْــبَسْ وَلَــسْ ثَمّ مَّقَــابِضْ
مِنْــهُ تَنْقِــيرَهْ وَمِــنْ ذَا المَغَــايِضْ
يَرْجَـعَ الكَسْـبُورْ مِـن لَّيَّـاه مُـزَرَّعْ

١- الكامل في ترجمة ابن قزمان، إمام الزجّالين: ٣٦٤-٣٦٩

٨- قصيدة زجل في الغزل والمديح :قول مدغليس

"وله قصيدة – في بحر الرمل- أحد وثلاثون بيتاً:

الهـــوى حمَّلْـــني مـــا لَا يُحْتَمَـــلْ ... تُـرِدِ الحـقَّ لَـسْ لِمَـنْ يهْـوَى عَقَـلْ

لـسْ نقـعْ فِي مِثْلهـا مـا دُمْـت حـيْ ... إن حمـــانِي مِـــنْ ذَا تـــأْخِير الأَجَـــلْ

خُـذْ نقُـلْ لـكْ أَيْـش جرى لي يـا فُـلانْ ... وتـــرى أَنِّي صـــبُور نِعْمَـــهْ جَـــزَلْ

اشْـــتغلْ قلْـــبي بـــذا العشـــقْ زمـــانْ ... فســـقط لِي نُقْطـــة الغـــين واشْـــتعلْ

ونحيَّـــرْ فِي الـــذِي لَـــسْ ينطفِـــي ... ونـــرى عيْـــني تَبْكِـــيْ بالقُلَـــلْ

لقـــد أخْـــذلني جَمَـــالْ هـــذا الملِـــيحْ ... ولكِـــنْ معْـــذورْ أَنـــا هُـــوْ ينخـــذِلْ

الحـــــلَاوه والعَقـــــلْ والإِنْسِـــــباكْ ... والبراعـــــهْ والنَّـــــداره والشَّـــــكِلْ

ومنها:

لا ملِـــيحْ إِلَّا الَّـــذِي نعْشـــقْ أَنـــا ... ولا قايِـــد إِلَّا ذا المـــولَى الأَجَـــلّْ

أبَ عبْـدِ اللهْ الـذِي أَسَّـسْ لُـوْ جـاهْ ... بِـــنْ صـــناديد تَبنَّـــى واحْتفـــلْ

ولُـوْ هِمَّـهْ قـد علـتْ فـوْق الهِمَـمْ ... فهْـو لا يرْضـى الثُّرَيَّـا عـنْ نعَـلْ

الرفيـــعْ الماجـــدْ الحُـــرّ الشَّـــرِيْف ... الشـــجاعْ الفـــارسْ الثَّبْـــتْ البطـــلْ

وجهُـــهُ البـــدْرْ وأَيّـــامْ السُّـــرُورْ ... وإِدِيْـــهْ الـــرِّزْقْ والسَّـــيْف الأَجَـــلْ

لِـــثلاثْ أَشْـــيا هُـــو كفُّـــوْ اليمِـــينْ ... للعطايـــــا والمنايـــــا والقُبَـــــلْ[1]

١- العاطل الحالي: ١٦، وفي بلوغ الأمل: ١٠٠، (٣ أبيات: ١-٢-٤)

الفصل الرابع

أعلام
الشعر الأندلسي

تراجم مختصرة
وتراجم متوسّطة

أعلام أدباء الأندلس

الأندلس غصن كبير زاهر نضير من شجرة البيان العربيّ السامقة الباسقة المتسامية أبداً، أو هو نبت عربيّ من روضة البيان الأصيل، غرست بذرته في بيئة طبيعيّة غنيّة متميّزة وتنفّس في بيئة اجتماعيّة متنوّعة، فنبت نباتاً طيّباً حسناً، واستوى على سوقه؛ فأورق شعراً رائقاً، وأزهر نثراً لائقاً، وأثمر بياناً فائقاً، وأدباء كثيرين، وشعراء مبدعين، حملوا راية البيان باليمين.

وسنحاول أن نتعرّف وإياكم عدداً من فرسان الشعر في الأندلس، بحسب المفردات المقرّرة في قسم اللغة العربيّة[1]، فنبدأ بيحيى بن حكم الغزال، فابن هذيل، فيوسف بن هارون الرمادي، فابن درّاج القسطلّي، فابن شهيد الأشجعي، فابن حزم، فابن زيدون، فالمعتمد ابن عبّاد، فأبي الحسن الحصري، ونختم بلسان الدين ابن الخطيب، تعريفاً مختصراً وجيزاً وتعريفاً متوسّطاً نجعله في قسمين؛ الأوّل نذكر فيه اسمه ونسبه ونشأته وترعرعه وتحصيله العلمي، وأساتذته وشيوخه، ثمّ نعرّج على حياته العامّة والخاصّة، واتّصاله بحكّام عصره، وعلاقته بمعاصريه،

والثاني: نخصّصه لأدبه وشعره خاصة، فنورد بعض ما حازه من ثناء، ونذكر آثاره، ونورد نماذج مطوّلة من أغراض شعره لنستخلص منها خصائصه الفنّيّة التي قد نذكرها في متن البحث أو نستنتجها مع طلّابنا بعد قراءة شعره في أثناء الدرس، لتتّضح الصورة وتكتمل أجزاؤها.

ثمّ نفرد ابن خفاجة الأندلسي بتعريف موسّع في فصل كامل خاص به؛ بوصفه أحد أهمّ مبدعي الشعر في الأندلس في جميع عصورها الأدبيّة ولكونه شاعر الطبيعة الأعظم في الشعر الأندلسي .

---

١ – وإن كان ثمة نقص في تراجم عصري المرابطين والموحدين.

يحيى بن حكم الغزال

اسمه ونسبه

هو أبو زكريّا يحيى بن حَكَم أو الحَكَم البَكْرِيّ الجَيَّانِيّ المعروف بالغَزَال

وقد يذكر في بعض المصادر الأندلسيّة بيحيى الغزال.

أو يذكر اختصاراً بالغزال فقط، سواء أوردت صيغة موسّعة لاسمه من قبل أم لم ترد، لكونها علماً عليه في عصره ومصره.

وأمّا البَكْرِي[1] فهي نسبة إلى بكر بن وائل القبيلة العربيّة الشهيرة، قال ابن حيّان: "وقرأت بخطّ أبي بكر عُبَادة الشاعر قال: هو أبو زكريّا يحيى بن حكم البكري، ينتمي إلى بكر بن وائل"[2].

وأمّا الجَيَّاني[3] فهي نسبة إلى مدينة جَيَّان؛ الكُوْرَة الأندلسيّة الشهيرة، تفرّد ابن حيّان بنسبته إليها إذ قال: "وأصله من جيّان، وقريته بها معروفة"[4].

أمّا لقبه الغزال؛ بتخفيف الزاي كما نصّ الحميدي[5] فقد ذكره له جميع من أورد اسمه، ونقل ابن حيّان من كتاب عبادة بن ماء السماء الوشّاح قوله: "ولقّب بالغزال لجمال كان فيه، وقيل بل بنصاعة ظَرْف وحسن شكل وملاحة وحركة كنّ فيه"[6].

وظلّ هذا الجمال فيه إلى كهولته وبعدها حتّى إنّ الأمير عبد الرحمن الأوسط نظم شطراً من الشعر في الغزال وهو في أواخر الستّين من عمره، وذكره بلقبه الغزال، قال ابن

---

١ – وردت هذه النسبة في: المقتبس: ٢/١/٢٤٤، نفح الطيب: ٢/٢٥٤، هديّة العارفين: ٦/٥١٦، الحلل السندسيّة: ٣٣٩.

٢ – المقتبس: ٢/١/٢٤٤، وانظر الحلل السندسيّة: ٣٣٩.

٣ – ذكرت هذه النسبة في: نفح الطيب ٢/٢٥٤، هديّة العارفين: ٦/٥١٦.

٤ – المقتبس: ٢/١/٢٤٥.

٥ – جذوة المقتبس: ٣٦٢، وقد وهم محقّقو "العقد" فقالوا الغزّال بالتشديد

٦ – المقتبس ٢/١/٢٤٥.

عذاري "ودخل عليه الغزال الشاعر يوماً؛ فقال الأمير:"جاء الغزال بحسنه وجماله" فقال له الوزير: أجز ما بدأ به الأمير، فقال الغزال:

قـــالَ الأمـــيرُ مُـــدَاعِباً بِمَقَالِـــهِ جَـــاءَ الغَـــزَالُ بحُسْـــنِهِ وجَمَالِـــهِ

أيْـنَ الجَمـالُ مِـنِ امْـرِئٍ أرْبَى عَلَـى مُتَعَـــدِّدِ السَّـــبْعِينَ مِـــنْ أحْوالِـــهِ

وهـلِ الجَمـالُ- لَـهُ الجَمـالُ- مِـن امْـرِئٍ ألقـــاهُ رَيْـــبُ الدَّهْـــرِ في أغْلالِـــهِ

وأعـــادَهُ مـــن بَعْـــدِ جِدَّتِـــهِ بلـــى وأحـــالَ رَوْنَـــقَ وَجْهِـــهِ عـــن حالِـــهِ"[1]

مولده:

ولد الغزال في إحدى قرى جيّان كما أشار ابن حيّان[2]، وحدّد الحميدي سنة ولادته نقلاً عن شيخه أبي محمّد بن حزم فقال: " وقال: إنّ مولده سنة ستّ وخمسين ومئة، في إمارة عبد الرحمن بن معاوية، وعاش باقي إمارته، وإمارة هشام وإمارة الحَكَم وإمارة عبد الرحمن، ومات في إمارة الأمير محمّد سنة خمسين ومائتين، وهو ابن أربع وتسعين سنة"[3].

وزاد ابن حيّان فقال: " ومدح منهم ثلاثةً، أوّلهم الحكم بن هشام. وقد ذكر ذلك بقوله:

أَدْرَكْـــــتُ بِالمِصْـــــرِ مُلُوْكـــــاً أَرْبَعَـــــهْ

وَخَامِســـاً هَـــذَا الـــذِي نَحْـــنُ مَعَـــهْ[4]

ولا نكاد نعرف أيّ شيء عنه في عهد الأميرين؛ عبد الرحمن الداخل وابنه وهشام إذ كان الغزال لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره.

---

١ – البيان المغرب: ٩٣/٢ وأصل الخبر في المقتبس ٣٥٥/١/٢.

٢ – المقتبس: ٢٤٥/١/٢.

٣ – جذوة المقتبس: ٣٦٤.

٤ – ونقل ابن حيّان الخبر نفسه تقريباً عن معاوية بن هشام الشبينسي وفيه ذكر أنّ الغزال "استكمل عمره أربعاً وتسعين سنة هلالية" المقتبس: ٣٧١/١/٢.

حياته في عهد الأمير الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦ هـ)

أوّل ما ترجم ابن حيّان للغزال كان في المقتبس كان في عهد الأمير الحكم الربضي مشيراً إلى أنّ نجمه بدأ بالظهور في إبّانه قال: "**ذكر الغزال الجيّاني**: وكان ممَّن نَجَمَ في دولة الأمير الحكم من الحكماء، الشعراء الدهاة، العلماء يحيى الغزال حكيم الأندلس، وشاعرها وعرّافها. شُهِر بالشعر في أيّام الحكم، وامتدحه بأماديح كثيرة مستحسنة، وله فيه بيته المشهور عند رواته وهو:

أَيَــا حَكَمــاً لِلْمُعْضِــلاتِ الفَــواقِرِ وَيا حَكَماً تحتَ القَنَا المُتَشَاجِرِ"[١]

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن علاقة الغزال بالأمير الحكم الربضي في عهده واقتصر ابن حيّان على إيراد قصيدة ثانية للغزال أورد منها عشرين بيتاً ووصفها بالطول والجودة[٢].

ومن أخبار الغزال في حداثته ما ذكر أنّ الطلاب كانوا يقرؤون على عبّاس بن ناصح الجزيري "كتب اللغة ويستكتبون منه أشعاره، فمرّت عليهم قصيدته الميميّة التي أوّلها:

لَعَمْــرُك مــا البَلْــوَى بعــارٍ ولا العَــدَمْ إذا المــرءُ لم يَعْــدَمْ تُقًــى اللهِ والكَــرَمْ

حتّى انتهى القارئ إلى قوله:

تجــافَ عــنِ الــدنيا فمَــا لِمُعَجِّــزٍ ولا حــازمٍ إلَّا الــذي خُــطَّ بــالقَلَمْ

فقال له يحيى بن حكم الغزال وكان في الحلقة، وهو إذ ذاك حدث نظّار متأدّب ذكيّ القريحة: أيّها الشيخ، وما الذي يصنع مُفَعَّل مع فاعل؟ فقال له: وكيف كنت تقول أنت يا بُنَيّ؟ قال: كنت أقول:

تجــافَ عــنِ الــدنيا فلــيسَ لعــاجزٍ ولا حــازمٍ إلَّا الــذي خُــطَّ بــالقَلَمْ

فقال عبّاس: والله يا بنيّ لقد طلبها عمّك ليالي فما وجدها"[٣].

---

١ – المقتبس ٢/١/٢٤٣.

٢ – المقتبس ٢/١/٢٥٤

٣ – المقتبس ٢/١/٢٣٥-٢٣٦.

حياته في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ)

ذكر ابن حيّان أنّ الغزال عاصر خمسة من الأمراء آخرهم الأمير محمّد بن عبد الرحمن ثمّ قال: " إلّا أنّ براعة الغزال في الشعر، وافتنانه في أساليبه، إنّما كان في أيّام الأمير عبد الرحمن أبيه، وفيه مختار شعره وأخباره كثيرة ممتعة"[١].

وفي القسم الخاص بعهد الأمير عبد الرحمن الأوسط من المقتبس ذكر ابن حيّان أخبار الغزال في فصل "**أخبار الشعراء مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم**" وقدّمه على جميع شعراء عصره، وخصّص أغلب الأخبار التي أوردها لتفصيل "**خبر يحيى بن حكم الغزال في إرساله إلى ملك الروم**" وذكر له في آخر الفصل قصيدة مطوّلة في مدح الأمير عبد الرحمن الأوسط؛ تفرّد ابن حيّان بإيرادها قال: " ومن جيّد مديح الغزال للأمير عبد الرحمن قوله في قصيدة طويلة فيها:...

قَـرْمٌ إذا رُفِعَـتْ عنـهُ السـتورُ لنـا ... لاحـتْ لـهُ سُـنَّةٌ يُغشـى تلاليهـا

كَالشـمسِ تَرجـعُ عنهـا العـينُ حاسـرةً ... يكـادُ مـا جشّـمتْ مـنْ ذاكَ يُغشـيها

ومـا تكلّـفَ منـهُ الفكـرُ منزلـةً ... إلّا تحيَّـرَ في أَدنى الـذي فيهـا

هُـوَ الهمـامُ الـذي مـا مثلُـهُ بشـرٌ ... مـنْ نسـلِ آدَمَ ماضـيها وباقيهـا

يَا خيرَ مَنْ حملتْهُ الأرضُ مُذْ سُطِحَتْ ... حاشـى الـذينَ أحاشـي مِـنْ نَبِيِّيْهـا

هـذي منـابرُ أرضِ الشـرقِ قـد جَنَحَـتْ ... شـوقاً إليـكَ وهزّتْهـا خوافيهـا

شـزرُ العيـونِ إلى ركّابِهَـا أُنُـفٌ ... لحـظُ الفـوارِكِ مَـا تُخفـي تَقَّاليهـا"[٢]

وهذا الفصل على قدر كبير جدّاً من الأهمّيّة، فقد دار حول سفارة يحيى الغزال جدل كبير خالطه كثير من الأوهام والأخطاء لدى الدارسين المحدثين الذين تعرّضوا لهذا الموضوع.

---

١ – المقتبس: ٢/١/٢٤٤.

٢ – المقتبس: ٢/١/٣٧٠.

إنّها رحلة واحدة إلى القسطنطينيّة، وهي ردّ على سفارة ومراسلة من ملك الروم توفلش – الذي هزمه المعتصم بالله العبّاسي – إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط. وأنّ نتيجة السفارة هي عقد الصداقة بينهما، قال ابن حيّان "قال الحسن بن محمّد: ورد على الأمير عبد الرحمن كتاب توفلش – ملك الروم الأعظم بالقسطنطينيّة، الذي ذكره حبيب بن أوس الطائي في شعره في فتح عموريّة – مبتدئاً بخطب وصلته وفضل ما سلف منها بين أسلافهما بالمشرق، ويذكر له حقّه في الخلافة المغتصبة من أهل بيته هناك، ويحرّكه لمطالبة واتريهم من ولد العبّاس، ويحضّه على استرجاع حقّه لديهم.

فكرّم عبد الرحمن رسوله واهتشّ لكتابه وتقبّل صلاته وألطف مراجعته، وأرسل إليه بجوابه حكيمين من حكماء رجال قرطبة: يحيى الغزال الشاعر ويحيى المنيقلة، وصلا إليه فجرت لهما عنده أخبار كثيرة، وصدرا عنه مغبوطين، قد عقدا بينه وبين مرسلهما الأمير عبد الرحمن عقد الصداقة"[1].

وهناك جمهور من الدارسين من المستشرقين والعرب توهّموا أن للغزال أكثر من سفارة أو رحلة يصعب حصرهم، لذلك لا بد من إيراد خبر "خبر يحيى بن حكم الغزال في إرساله إلى ملك الروم".

فقد وقع اختيار الأمير عبد الرحمن الأوسط على الغزال وصاحبه لأنّه شاعر حكيم وسيم، فهو شاعر يعرف كيف يصرّف الكلام، وحكيم يحكم تصرّفه، ووسيم لا تقحمه العين، ومنجّم كصاحبه الذي رافقه في رحلته.

أمّا المكان فهو القسطنطينيّة، والزمان سنة (٢٢٥هـ) أي إنّ الغزال يقارب السبعين من عمره لذلك لم يكن فرحاً بذلك، بل إنّه استعفى من الذهاب فلم يعفه الأمير، ويلحّ الغزال مراراً في الاستعفاء شعراً؛ خالطاً الجدّ بالهزل في تائيّته، واعتذر الغزال بحجج كثيرة ولكنه لم يفلح.

---

١ – المقتبس: ٢/١/٤٣٠–٤٣٢.

ثمّ بدأ الرازي بوصف خطّ طريق الرحلة حيث نزلوا في كورة تدمير في الشرق من قرطبة وقاعدتها مرسية، ثمّ شرع بوصف الرحلة البحريّة وما صادفوه فيها من أخطار وأهوال.

ووصل الغزال إلى القسطنطينيّة بعد رحلة شاقّة، وأدّى مهمّته على خير وجه، وأعجب به الملك توفيل، وأراد أن ينادمه ويشرب معه فأبى "قال: ولمّا وصل الغزال إلى قسطنطينيّة، فلقي الطاغية توفيل وكلّمه سَرَّه وأخذ بقلبه وأنس به، فبسطه وكَبُرَ عنده، وحاول أن ينادمه، فامتنع عليه الغزال، فأمسك عنه، وجعل يرسل إليه بالشراب فيأمرُ الغزالُ بإهراقِه. وجرت للغزال مع ملك الروم أخبار طويلة"[1].

منها: " أنّ الغزال لمّا دخل إلى ملك الروم أوّل دخوله، وانتهى إلى آخر أبوابه للمضيّ إلى مجلس قعوده، فإذا به قصير لا يدخل الداخل إليه إلّا جاثياً، قد احتال الملك به عليه كما يدخل الذي من دخل إليه من وفود الأمم كالمنكر له[2]، وقد كان بعض أصحاب الملك ألقى إلى الغزال قبل دخوله إليه بأيام أنّ من رَسْمِ الملك أن يخشع له كلّ داخل عليه من الوفود. فقال له الغزال: هذا لا يسوغ في شريعتنا، إذ لا يكون الخشوع إلّا لله وحده. فأعْلِمَ الملكُ بما قال له الغزال. فاحتال له بتقصير ذلك الباب.

فلما أفضى الغزال إليه علم أنّ الملك قد كاده به ليخشع له قسراً. فاستدبر الباب وولّى الملكَ ظهرَهُ، واقتحم الباب منحنياً إلى أن تجاوزه، فاستوى قائماً منتصب القامة، واستقبل الملك بوجهه.

فابتسم الملك من حسن تخلّصه من الحيلة عليه وذكاءِ حسِّه وأَنَفَةِ نفسهِ، وقال لأهل مملكته: بحقٍّ قالت الحكماء "الرسولُ من المُرْسِل"، وهذا الأندلسيّ من حكماء الناس ودهاتهم "[3].

---

١ – المقتبس: ٣٦١/١/٢، وانظر الحلل السندسيّة: ٣٣٩.

٢ – في النص نقص واختلال يسير.

٣ – المقتبس: ٣٦٤/١/٢–٣٦٥.

وكما أعجب الغزال الملك فقد كانت الملكة أشدّ إعجاباً من زوجها به، ولا سيّما بعد أن سحرها بجماله وسحر كلامه، ودغدغ أحاسيسها وحرّك مشاعرها بإطرائه لها وتغزّله بجمالها، "قال: فذكر أنّ ملك الروم أحضر الغزال يوماً إلى مجلس له خاصّ، قد أجلس فيه الملكة زوجته إلى جانبه في حَلْيِها وزينتها، وهي كشمس طالعة، فجعل الملك يحدّث الغزال ويسأله، وترجمانُه يُفَسِّرُ ما يقول، والغزال لاهٍ عنه غيرُ مقبلٍ عليه، وهو قد اشتغل [بالنظر] إلى زوجته الملكة لا يرد طرفه عنها. فلما استبان للملك ذلك منه أنكره وأمر الترجمان يسأله عنه، فقال: إنّه بهرني من حسن هذه الملكة وبديع خلقها، ما اقتطعني عمَّا دُعِيتْ له، وحقّ ذلك، فإنّي لم أر قطّ صورة أحسن منها، ولا منظراً آنق! وكيف لا أذهل عمّا يقول الملك لي وأنا أنظر منه إلى وجه يبهر الشمس بضيائه، ويكسفها ببهائه، ويُذَكِّر الغافلَ بقدرة الله على إبداع الخلقِ، ويُشَوِّقُهم إلى الحور العين؟

فلما فسّر الترجمان للملك قوله أعجبه جدّاً، وعرّف به الملكة، فبجَّح إليها نفسها، وتزيّدت حظوته عند الملك، وتشكّرت للغزال ما كان منه، فاعتنت بشأنه، وتنجّزت من الملك ما التوى من حاجاته "[1].

وختم الرازي بقوله" وأخبار الغزال في سفرته هذه كثيرة ممتعة. "[2].

وعاد الغزال وصديقه إلى الأندلس معزّزين مكرّمين، وقد أنجزا عهد الصداقة مع ملك الروم. قال ابن حيّان: " وكان انصرافهما من هناك في سنة خمس وعشرين ومائتين "[3].

وارتفعت مكانة الغزال عند الأمير عبد الرحمن، وحسده الوزير عبد العزيز بن هاشم وبينهما قرابة وصهر وأواصر، ولكن يبدو أنّها فسدت لأمور مادّية، و" لمّا انصرف الغزال من بلد الروم بتلك الرغائب التي استفادها هناك حُسِد عليها، فطالبه الوزير عبد العزيز بن

---

١ – المقتبس: ٢/١/٣٦١–٣٦٢، وانظر الحلل السندسيّة: ٣٣٩.

٢ – المقتبس: ٢/١/٣٦٥.

٣ – المقتبس: ٢/١/ ٣٦٥

هاشم بحلية من هنالك، رفيعة القدر مرصّعة بالجوهر، فمنعه منها، وقال له: إنّها انكسرت وقسّم جوهرها على بناته، فلم يصدّقه وغضب عليه وتجرّد في طلبه عند الأمير عبد الرحمن، وأتاه من باب الربح الذي أحرزه الغزال في تقلّده أهراء طعام السلطان قبل خروجه إلى القسطنطينيّة لمّا استهداه منه على جملة غليظة إن شاء إنفاقها فلاقى في سوقها نفاقاً، فباع أكثرها بمال جسيم. ثمّ ردفت سنة خصب زاد فيها عدد الطعام الذي باعه، فاستخلفه بالرخص، وأحرز من فضل بيعه مالاً كثيراً، فيه عند الأمير، فأخذه بأدائه، وحبسه. وكتب إليه[1] يحيي بأشعار كثيرة جدّيّة وهزليّة، منها قصيدة له طويلة أوّلها:

بَعْضَ تصابيكَ إلى زينبِ ... لَا خَيْرَ في الصَّبوةِ للأشْيَبِ[2]

أَبَعْدَ سِتِّينَ تملّيتَها ... كاملةً تصبو إلى الرْبَرَبِ

ويمزج فيها الجدّ بالهزل ويقول في نهايتها:

واستضحكَ القومُ فأنبأتُهمْ ... أنَّ الذي يحبسُنِي غَرَّ بي

إنْ تُرِدِ المالَ فإنّي امرؤٌ ... لمْ أجمع المالَ ولمْ أَكْسِبِ

ودس الغزال إلى بعض المغنّين، فغنّى الأمير بأبيات منها:

قدْ أحسنَ اللهُ بنا عندما ... كانَ الذي اسْتَوْدَعْتَ لم يذهبِ

إذا أخذتَ الحقَّ منّي فلا ... تلتمسِ الرِّبْحَ ولا ترغبِ

استملحها وقال فيها: لمن هذه؟

فقيل له: للغزال، وهو مسجون في سجن وزيرك [عبد العزيز] بن هاشم في رسم ربح الطعام الذي تُعُقِّب عليه.

فأمر إطلاقه وإدخاله عليه...واعتذر إليه وأسقط عنه ما كان يُطْلَب منه، وزاده جائزة من عنده[3].

---

١ – المقصود الأمير عبد الرحمن الأوسط.

٢ – المقتبس: ٣٦٦/١/٢–٣٦٧.

٣ – المقتبس: ٣٦٩/١/٢.

علاقته بمعاصريه من الفقهاء ورجال الدولة

ذكر ابن حيّان نقلاً عن عبادة بن ماء السماء الوشّاح في كتابه " أخبار شعراء الأندلس" الذي لم يصل إلينا، أنّ يحيى بن حكم الغزال كثير التعرّض لرجال الدين والدولة والتعريض بهم حتّى ناصبوه العداء، وكادوا له، وكادوا يصيبون منه مقتلاً، وكان قد أُغْرِي بزعيميهم يحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب[1]. وعرّض الغزال بالفقهاء وسخر منهم وتندّر بهم:

لستَ تَلْقى الفقيهَ إلّا غنيّاً ... لَيْتَ شِعْرِي من أَيْنَ يستغنونا

نقطعُ البرَّ والبحارَ طِلابَ الرِّ ... زْقِ والقومُ هَا هُنَا قاعدونا

لا يريمونَ مَوْطِناً لا ولا تُبْ ... صِرُهُمْ عَيْنُ ناظرٍ يَعْجَزُونا

إنَّ للقومِ مَضْرِباً غابَ عنَّا ... لم يُصِبْ قَصْدَ وجههِ الراكبونا"[2]

وتعرّض الغزال للقاضي يخامر بن عثمان الشعباني:

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً ... مِنْ آبِدَاتِ يُخَامِرْ

قَرَا عَلَيْهِ غُلاَمٌ ... طَهَ وسُورَةَ غَافِرْ

فقالَ: مَنْ قَالَ هذَا؟ ... هذَا لَعَمْرِيَ شاعِرْ

أَرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ ... فَخِفْتُ صَوْلَةَ جائِرْ

أُتِيتُ يَوْماً بِتَيْسٍ ... مُسْتَعْبِراً مُتَحَاسِرْ

فَقُلْتُ: قُومُوا اذْبَحُوهُ ... فقالَ: إِنِّي يُخَامِرْ[3]

وتعرّض لرجال الدولة الذين لم يقضوا حوائجه ولم ينجزوا مطالبه كنصر الخصيّ، الذي هجاه وأقذع فيه.

---

١ – المقتبس: ٢٥١/١/٢.

٢ – المقتبس: ٢٥١/١/٢–٢٥٢.

٣ – المقتبس: ٦٥/٢/٢.

حياته في عهد الأمير محمّد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)

وامتدّ العمر بالغزال ولحق بالأمير الخامس محمّد بن عبد الرحمن وكان عمره نحو (٨٢) عاماً، وحضر بيعته وأنشد فيها شعراً، قال ابن حيّان: "قال: وقد لحق يحيى الغزال الشاعر البعيد كبير الشعراء بيعة الأمير محمّد، وله فيها شعر معروف، أصبت منه بعد مدّة بخطّ عبادة الشاعر بيتين استشهد بهما على تاريخ لحاق الغزال إلى البيعة، وهما:

إنَّ سَمِيَّ النَّبِيِّ فَضَّلَهُ اللـ ... ـهُ على كُلِّ مَنْ مَضَى وبَقِي

مَدَّ لهُ المُلْكُ ساعِدَيْهِ لَدُنْ ... أَقْبَلَ لِلْحُبِّ مَدَّ مُعْتَنَقِ[1]

وعاش في عهده نحو (١٢) عاماً، وأحس الغزال بوطأة امتداد العمر، قال ابن حيّان: " ومن آخر ما قاله في وقت هَرَمه أبياته التي منها:

يا مُسْتَرِيْبَ حياتِي هَلْ تَظُنُّكَ إنْ ... غَالَتْنِيَ الغُوْلُ يَوْماً خَالِداً بَعْدِي"[2]

ولعلّها من داليّته التي أوردها له ابن عبد ربّه التي يشعر فيها بدنوّ أجله :

أَصبَحتُ وَاللَّهِ مَحْسوداً عَلى أَمَدٍ ... مِنَ الحَياةِ قَصيرٍ غَيرِ مُمتَدِّ

حَتّى بَقيتُ بِحَمدِ اللَّهِ في خَلَفٍ ... كَأَنَّني بَيْنَهُم مِن وَحْشَةٍ وَحْدي

وَما أُفارِقُ يَوماً مَنْ أُفارِقُهُ ... إِلّا حَسِبتُ فِراقي آخِرَ العَهْدِ

انظُرْ إِلَيَّ إِذا أُدرِجتُ في كَفَني ... وَانْظُرْ إِلَيَّ إِذا أُدْرِجتُ في اللَّحْدِ

وَاقْعُدْ قَليلاً وَعايِنْ مَنْ يُقيمُ مَعي ... مِمَّن يُشَيِّعُ نَعْشي مِن ذَوِي وُدِّي

هَيهاتَ كُلُّهُمْ في شَأْنِهِ لَعِبٌ ... يَرْمي التُرابَ وَيَحْثُوهُ عَلى خَدِّي"[3]

ومات الغزال رحمه الله تعالى سنة (٢٥٠هـ).

---

١ – المقتبس: ١٣٤/٢/٢.

٢ – المقتبس: ٢٤٤/١/٢.

٣ – العقد: ٥٨/٣، ١٩٠/٣،

ظرفه وملحه:

قال ابن حيّان إنّ الغزال "أخباره كثيرة ممتعة"[١] وإنّه "ظريف الخبر"[٢] وقال ابن حيّان كذلك إنّه سمّي بالغزال "بنصاعة ظرفه"[٣]، وقال فيه أيضاً "وأكثر شعره محمول على الدعابة والهزل، فلذلك خرج بعضه بألفاظ عامّيّة مبتذلة"[٤].

ووصفه الحميدي بالاقتدار في الشعر بجدّه وهزله فقال: "مطبوع النظم في الحكم والجدّ والهزل"[٥].

ومن هذه الأخبار والقصص ما ذكره صاحب المطرب الذي كان حريصاً على أن يطرب وأن يأتي بما يغرب ويعجب قال عن الملك: "واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته، فاشترط الغزال عليه ألّا يسجد له، ولا يخرجهما عن شيء من سنّتهما، فأجابهما إلى ذلك. فلمّا مشيا إليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه، فضيق حتّى لا يدخل عليه أحد إلّا راكعاً، فلمّا وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفاً...، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم، وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول، وقال: أردنا أن نذلّه، فقابل وجوهنا بنعليه! ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه."[٦]

ومن دعابته مع الملكة ومجالسه التي أوردها ابن دحية معها: "سألته يوماً زوجة الملك – واسمها نود[٧] – عن سنّه، فقال مداعباً لها: عشرون سنة. فقالت للترجمان: ومن هو من عشرين سنة يكون بها هذا الشيب؟ فقال للترجمان: وما تنكر من هذا؟ ألم تر قطّ

---

١ - المقتبس: ٢٤٤/١/٢.

٢ - المقتبس: ٢٤٥/١/٢.

٣ – المقتبس: ٢٤٥/١/٢.

٤ – المقتبس: ٢٤٥/١/٢.

٥ – جذوة المقتبس: ٣٦٢.

٦ – المطرب في أشعار أهل المغرب: ١٤٢.

٧ – في نفح الطيب: تود وهو اختصار تيودورا.

مهراً ينتج وهو أشهب؟ فضحكت نود، وأعجبت بقوله.

فقال في ذلك الغزال بديهاً:...

قَالَـــتْ أَرَى فَوْدَيْـــهِ قَـــدْ نَـــوَّرَا دُعَابَـــةٌ تُوحِـــبُ أَنْ أَدْعَبَـــا

قُلْـــتُ لَهَـــا مَـــا يـــا بـــأبي إِنَّـــهُ قَـــدْ يُنْـــتَجُ المُهْـــرُ كَـــذَا أَشْـــهَبَا

فَاسْتَضَـــحَكَتْ عُجْبـــاً بِقَـــوْلِي لَهَـــا وَإِنَّمَـــا قُلْـــتُ لِكَـــيْ تَعْجَبَـــا"[1]

ثمّ " فإنّه لمّا أنشد "نود" الشعر وفسّره الترجمان لها، ضحكت منه وأمرته بالخضاب، ففعل ذلك الغزال، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب؛ فمدحت خضابه وحسّنته عنده، ففي ذلك يقول الغزال:

بَكَـــرَتْ تُحَسِّـــنُ لِيْ سَـــوَادَ خِضَـــابِي فَكَـــأَنَّ ذَاكَ أَعَـــادَنِي لِشَـــبَابِي

مَـا الشَّـيْبُ عِنْـدِيْ وَالخِضَـابُ لِواصِـفٍ إِلَّا كَشَـــمْسٍ جُلِّلَـــتْ بِضَـــبَابِ

تَخْفَـــى قَلِـــيْلاً ثُمَّ يَقْشَـــعُهَا الصَّـــبَا فَيَصِـــيْرُ مَـــا سُـــتِرَتْ بِـــهِ لِـــذَهَابِ

لَا تُنْكِـــرِيْ وَضَـــحَ المَشِيْـــبِ فَإِنَّمَـــا هُـــوَ زَهْـــرَةُ الأَفْهَـــامِ وَالأَلْبَـــابِ

فَلَـدَيَّ مَـا تَهْـوِيْنَ مِـنْ شَـأْنِ الصِّـبَا وَطَـــلَاوَةُ الأَخْـــلَاقِ وَالآدَابِ"[2]

ومن مجالس الغزال التي أوردها ابن دحية مع الملكة: " ولمّا سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجّهت فيه لتراه، فلّما دخل عليها سلّم، ثمّ شخص فيها طويلاً ينظرها نظر المتعجب.

فقالت لترجمانها: سله عن إدمان نظره لماذا هو؟ ألفرط استحسان أم لضدّ ذلك؟

فقال: ما هو أنّي لم أتوهّم أنّ في العالم منظراً مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا.

---

١ – المطرب في أشعار أهل المغرب: ١٤٢–١٤٤.

٢ – المطرب في أشعار أهل المغرب: ١٤٦ وانظر الحلل السندسيّة: ٣٤٠.

فقالت لترجمانها: سله أمجدّ هو أم هازل؟

فقال: لا، بل مجدّ.

فقالت له: فليس في بلدهم إذا جمال!

فقال الغزال: فاعرضوا عليّ من نسائكم حتّى أقيسها بها.

فوجّهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصعّد فيهنّ وصوّب ثمّ قال: فيهن جمال وليس كجمال الملكة، لأنّ الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميّزه كلّ أحد، وإنما يعنى به الشعراء، وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها في شعر يروي في جميع بلادنا فعلت ذلك.

فسرّت بذلك سروراً عظيماً وزهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع من أخذها الغزال، وقال: لا أفعل.

فقالت للترجمان: سله، لم لا يقبل صلتي؟ ألأنّه حقرها أم لأنّه حقرني؟

فسأله، فقال الغزال: إنّ صلتها لجزيلة، وإنّ الأخذ منها لتشرّف لأنّها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها علي، فحسبي ذلك صلة. وإنّما أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً.

فلمّا فسّر لها الترجمان كلامه زادت منه سروراً وعجباً، وقالت: تحمل صلته إليه، ومتى أحبّ أن يأتيني زائراً فلا يحجب، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة.

فشكرها الغزال، ودعا لها وانصرف.

قال تمّام بن علقمة: سمعت الغزال يحدّث بهذا الحديث، فقلت له: وكان لها من الجمال في نفسها بعض هذه المنزلة التي صوّرت؟

فقال: وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة، ولكنّي اجتلبت بهذا القول محبّتها، ونلت منها فوق ما أردت".[1]

---

١ – المطرب في أشعار أهل المغرب: ١٤٢–١٤٤.

الثناء على شعره

أثنى ابن حيّان (ت ٤٦٣هـ) على الغزال ثناء وافراً مراراً، وكان معجباً به وبأخباره وأشعاره، وجعله شاعر الأندلس في وقته، فأخبر عنه بأنّه " حكيم الأندلس، وشاعرها وعرّافها. شُهِر بالشعر في أيّام الحكم، وامتدحه بأماديح كثيرة مستحسنة "[١].

وكان ابن حيّان أوّل من نثر إشارات نقديّة عن شعر الغزال إذ تحدّث عن كنه شعره وطبيعته وتصرّفه بين الجدّ والهزل وترجّحه بين البديهة والرويّة مشيراً إلى تفوّقه وخلوده على تقدّم عصره، قال: " وكان مقتدراً على الشعر، سلس الطبع فيه، يُصَرِّفه في ضروب الشعر، بحلاوة لفظ، وملاحة معنى، وغُزْر مادة. وأكثر شعره محمول على الدعابة والهزل، فلذلك خرج بعضه بألفاظ عامّيّة مبتذلة. وهو فيما روَّى ونقَّح محسن مُجَوّد. وكان على نصاعة أدبه، عالماً مُفْتَنّاً جزلاً، متكلّماً عِرِّيضاً مُنَدِّراً، كبير الغور ظريف الخبر، خالد الذكر في الأعصر البائدة "[٢].

وكان ابن حيّان يسميه بـ"شاعر قرطبة في ذلك الزمان"[٣]. ويصفه بأنّه "الشاعر البعيد كبير الشعراء"[٤].

وأظهر إعجابه بشعره غير مرّة فذكر"براعة الغزال في الشعر، وافتنانه في أساليبه"[٥] ونقل ابن حيّان من خطّ عبادة بن ماء السماء قوله فيه: " كان يحيى الغزال، شاعراً مجوّداً، عالماً مبرِّزاً، فيلسوفاً منجّماً، فلكيّاً معدِّلاً، جدليّاً متكلّماً. تفنّن في أنواع العلم "[٦].

وقال عنه ابن ماكولا الأمير المشرقي بأنّه "شاعر أندلسي مشهور"[٧]

---

١ – المقتبس: ٢٤٣/١/٢.
٢ – المقتبس: ٢٤٥/١/٢.
٣ – المقتبس: ٦٤/٢/٢.
٤ – المقتبس: ١٣٤/٢/٢.
٥ – المقتبس: ٢٤٤/١/٢.
٦ – المقتبس: ٢٥٠/١/٢.
٧ – الإكمال: ٢٢/٧.

وقدّم الحافظ الحميدي (ت٤٨٨هـ) لترجمته ليحيى الغزال بقوله: " رئيس كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجدّ والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده "[١].

وسمّاه القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) "بليغ الأندلس في زمنه"[٢].

وبالغ ابن دحية الكلبي في الثناء عليه، ووجد فيه ضالّته للتدليل على إبداع أهل الأندلس في الأعصر الأولى من تاريخهم فافتتح ترجمته له بقوله:" القاعد على كيوان، شاعر ذلك الأوان وقد أثبتّ له من قوله ما يشهد بإبداعه، وحسن تصرّفه في المعاني واختراعه، وطول يده في الأدب وامتداد باعه"[٣].

وهنا نشير إلى قضيّة مهمّة وهي سرعة الغزال وبديهته في قول الشعر، وما لذلك من أثر في سمات شعره، كما أنّ للغزال رؤية نقديّة في الشعر إذ يتكئ على نفسه ولا يعتمد أشعار الأقدمين حتّى صار متفرداً بين أقرانه كقوله:

إنَّ القصائدَ لم يجزئكَ مُجْرِيها ... إلّا وقدْ عُقِدَتْ منها نَوَاصيها

وسَرَّحوهنَّ ممدوداً أعِنَّتُهَا ... تبارزُ الريحَ كلُّ القومِ يرجوها

بَكْرِيَّةَ النَّجْرِ لَا ممَّا يلفِّقُه الـ ... ـملفّقونَ طريفاتٍ مَعَانيها

فيها نتائجُ لَمْ آخذْ برائِعِها ... مِنْ شِعْرِ آخرَ قبلي قَدْ كفانيها

لم أُجْرِ فيها من الأعرابِ وصفهَمُ ... تِلكَ المهامِهَ مُغْبَرّاً فيافيها

ولا بكيتُ على أطْلالِ مَنزِلةٍ ... قَفْرٍ تُوارِدُ فيها العينُ صَبِّيها

ولا رميتُ بطَرْفِي إثرَها جَزَعاً ... قدْ شَفَّ نفسِيَ في زَعْمِيْ تَصَابيها[٤]

---

١ – جذوة المقتبس: ٣٦٢–٣٦٣.

٢ – ترتيب المدارك: ٣٨٨/١.

٣ – المطرب: ١٣٣.

٤ – المقتبس: ٣٧٠/١/٢.

كثرة شعره

كان الغزال "كثير القول"[١]، وكان "له ديوان شعر"[٢]

قال الحميدي:"شعره كثير مجموع، جمعه حبيب بن أحمد"[٣]. ورتّبه على الحروف"[٤] ولكنّه ضائع.

وللغزال أيضاً أرجوزة مطوّلة قال فيها ابن حيّان "جامعة الحكم المشهورة التي صاغها في أبواب العلوم وصنّفها على ضروب من المعاني، فلا نظير لها"[٥] وذكر منها بيتين فحسب.

ونقل شهاب الدين المقّري عن ابن حيّان في جزء لم يصل إلينا قوله: "وليحيى ابن حكم الشاعر المعروف بالغزال في فتح الأندلس، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظماً، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم، فأجاد وتقصّى، وهي بأيدي الناس موجودة، انتهى."[٦].

وكرّر ذلك ثانية فقال "وليحيى بن حكم الغزال تاريخ ألّفه كلّه منظوماً "[٧].

وللغزال كذلك رسائل نثرية[٨] لم يشر إليها أحد من الدارسين المحدثين من قبل، أورد ابن حيّان جزءاً من واحدة منها تدلّ على نمط نثره، وعلى مشاركته في الفنّين الشعر والنثر معاً.

وضاع قسم كبير من شعر الغزال، بسبب الحروب والفتن في الأندلس.

---

١ – جذوة المقتبس: ٣٦٣.

٢ – الإكمال: ٢٢/٧.

٣ – جذوة المقتبس: ٣٦٤.

٤ – جذوة المقتبس: ١٩٥، وذكر ذلك صاحب الصلة: ١٥٤، وتاريخ الإسلام ٥٤٦/١٨، وكشف الظنون: ٨٠٤/١، وهديّة العارفين: ٥١٦/٦.

٥ – المقتبس:٢٥١/١/٢.

٦ – نفح الطيب: ٢٨٢/١.

٧ – المصدر نفسه: ١٨٢/٣.

٨ – المقتبس: ٣٦٠/١/٢.

أغراض شعره

- **النسيب**

وسُـــلَيْمَى ذاتُ زُهْـــدٍ ... فِي زَهيـــدٍ مِـــنْ وِصَـــالِ
كلَّمـــا قُلـــتُ صِـــليني ... حَاسَبَتْنِـــي بالخَيَـــالِ
والكَـــرَى قَـــدْ مُنِعَتْـــهُ ... مُقْلَتِـــي أُخْـــرِى اللَّيَـــالي
وَهْـــيَ أدرى فَلِمَـــاذا ... دَافَعَتْـــنِي بِمُحَـــالِ
أَتُـــرَانِي أَقْتَضِـــيْهَا ... بَعْـــدُ شـــيئاً مِـــنْ نَـــوَالِ[1]

- **الخمريات**

تَـــدَارَكْتُ فِي شُـــرْبِ النَّبِيْـــذِ خَطَـــائِي ... وَفارَقْـــتُ فِيْـــهِ شِـــيْمَتِي وَحَيَـــائِي

...

وَلمَّـــا رَأَيْـــتُ الشَّـــرْبَ أَكْـــدَت سَمـــاؤُهُمْ ... تَأَبَّطْـــتُ زِقِّـــي وَاحْتَسَـــبْتُ عَنَـــائِي
فَلَمَّـــا أَتَيْـــتُ الحَـــانَ نَادَيْـــتُ رَبَّـــهُ ... فَهَـــبَّ خَفِيْـــفَ الـــرُّوْحِ نَحْـــوَ نِـــدَائِي
قَلِيْـــلَ هُجُـــوعِ العَـــيْنِ إِلَّا تَعِلَّـــةً ... عَلَـــى وَجَـــلٍ مِنِّـــي وَمِـــنْ نُظَرَائِـــي
فَقُلْـــتُ أَذِقْنِيْهَـــا فَلَمَّـــا أَذَاقَـــنِي ... طَرَحْـــتُ إِلَيْـــهِ رَيْطَـــتِي وَرِدَائِـــي
وَقُلْـــتُ أَعِـــرْنِي بَذْلَـــةً أَسْـــتَتِرْ بِهَـــا ... بَـــذَلْتُ لَـــهُ فِيْهَـــا طَـــلَاقَ نِسَـــائِي
فَوَاللَّـــهِ مَـــا بَـــرَّتْ يَمِيْنِـــي وَلَا وَفَـــتْ ... لَـــهُ غَيْـــرَ أَنِّيْ ضَـــامِنٌ بِوَفَـــائِي[2]
وأُبْـــتُ إِلَى صَـــحْبِي وَلَمْ أَكُ آئبـــاً ... فَكُـــلٌّ يُفَـــدِّيْنِي وَحُـــقَّ فِـــدَائِي

- **المديح**

فَـــوَاللهِ مـــا أدرِي وإنّي لَشَـــاعِرٌ ... إلى أَيِّ وَجْـــهٍ مِـــنْ مَـــدِيْحِكَ أَقْصِـــدُ
كـــأنَّ الملـــوكَ العُلْـــبَ عنـــدَكَ خُضَّـــعاً ... خَواضِـــعُ طـــيرٍ تتَّقـــي الصَّـــقْرَ لُبَّـــدُ

---

١ – شعره: ٧١–٧٢.

٢ – شعره: ٢٩– ٣٠.

تُقَلِّبُ فيهم مُقْلةً حَكَمِيَّةً ... فتخفِضُ أقواماً وقَوْماً تُسَوِّدُ
لأُعطيتَ سُلْطاناً على السُّخْطِ والرِّضا ... عليها فذلَّتْ حينَ تَغْوِي وتَحْرَدُ
ونَزَّهْتَ نفساً أنْ تُقارِب رِيْبَةً ... وقدْ يَلْزَمُ الإنسانُ مَا يَتَعَوَّدُ
وَقُوفاً عنِ الأمرِ الذي فيهِ شُبْهَةٌ ... مَلُوكاً لَهَا إنْ نازَعَتْ تَتَأَبَّدُ
وإنّكَ تُعْطِي ما قَدَ أَعْيَا حسابُه الـ ... ـعقولَ فَمَا تُهْدَى لهُ كيفَ يُعْقَدُ
سِوَى أنَّ آلافاً تُؤَلَّفُ هَكَذا ... بِلَا فَهَمٍ مِنْ حَاسِبِيْهَا يُرَدَّدُ
وتُعطيْ وتُعطيْ ثمَّ تُعْطِيْ كأنَّما ... تُريدُ نَفادَ المالِ لَوْ كانَ يَنْفَدُ
مَضى مَا مَضى مِنْ ذِكرِ كَعْبٍ وحَاتِمٍ ... فقِيلَ هُمَا مِنْ سَائرِ الناسِ أَجْوَدُ
وبعضُ الذي تُعْطِي كَأَثْمَانِ طَيِّئٍ ... وعَشْرَةِ كَعْبٍ حَيْثُ غَاروا وأَنْجَدُوا
وما ذاكَ إنْ أعْطَيْتَهُ اليومَ مَانِعاً ... غداً مِنْكَ أنْ يأتي بأمثالِهِ الغَدُ
فَهَبْنِي كَبعضِ المادحينَ أَجَزْتَهُمْ ... ببعضِ عطاياكَ التي لا تُصَرَّد
وَجَدْتُ التقى والبأسَ والعدلَ والنَّدى ... إليكَ إذا مَا استُقْصِيَ الوَصْفُ تُسْنَدُ
فَمَنْ تؤمنوهُ فَهْوَ للدهرِ آمِنٌ ... وَمَنْ لا يَعِشْ مَا عاشَ وَهْوَ مُطَرَّدُ
ويَحْسَبُ أَرْضَ اللهِ في كُلِّ وِجْهَةٍ ... حَبَائلَ ألقاهَا لهُ المُتَصَيِّدُ[1]

- **الهجاء**

سَأَلْتُ في النّوْمِ أبي آدَماً ... فَقُلْتُ- والقلبُ بِهِ واثِقُ
اِبْنُكَ باللهِ أبو حَازِمٍ ... صَلّى عليكَ المالِكُ الخالِقُ
فقالَ لِيْ إنْ كانَ مِنِّي ومِنْ ... نَسْلِي فَحَوَّاءُ إذَنْ طالِقُ[2]

وقال الغزال:

قَصَدْتُ بِمَدْحِي جَاهِداً نَحْوَ خَالِدٍ ... أُؤَمَّلُ مِنْ جَدْوَاهُ فَوْقَ مُنَائي
فَلَمْ يُعْطِنِيْ مِنْ مَالِهِ غَيْرَ دِرْهَمٍ ... تَكَلَّفَهُ بَعْدَ اِنْقِطَاعِ رَجَائي

---

١ – المقتبس: ٢/١/٣٦٠.

٢ – المقتبس: ٢/١/٢٥٦ – الديوان: ٦٤.

كَمَا اِقْتَلَعَ الحَجَّامُ ضِرْساً صَحِيْحَةً إِذَا اسْتُخْرِجَتْ مِنْ شِدَّةٍ بِبُكَاءِ[1]

- **الشعر الاجتماعي**

وَمُرَاءٍ أَخَذَ النَّا سَ بِسَمْتٍ وَقُطُوبِ
وَخُشُوعٍ يُشْبِهُ السُقْـ ـمَ وَضَعْفٍ فِي الدَّبِيْبِ
قُلْتُ هَلْ تَأْلَمُ شَيْئاً قَالَ أَثْقَالَ الذُّنُوبِ
قُلْتُ لَا تُعْنَ بِشَيْءٍ أَنْتَ فِي قَالَبِ ذِيْبِ
إِنَّمَا تُنْبِيْ عَلَى الوَثْـ ـبَةِ فِي حِالِ الوُثُوبِ
لَيْسَ مَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكَ هَذَا بِلَبِيْبِ[2]

وقال:

وقال:

وَخَيَّرَهَا أبوهَا بَيْنَ شَيْخٍ كَثِيرِ المَالِ أَو حَدَثٍ فَقِيْرِ
فَقَالَتْ خُطَّتَا خَسْفٍ وَمَا إِنْ أَرَى مِنْ حُظْوَةٍ لِلْمُسْتَخِيْرِ
وَلَكِنْ إِنْ عَزَمتَ فَكُلُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ وَجْهِ الكَبِيْرِ
لِأَنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفَقْرِ يُثْرِي وَهَذَا لَا يَعُوْدُ إِلى صَغِيْرِ[3]

وقال:

قالتْ أُحِبُّكَ قُلْتُ كاذبةٌ غُرِّي بِذَا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هَذَا كَلَامٌ لَسْتُ أَقْبَلُهُ الشَّيْخُ ليسَ يُحِبُّهُ أَحَدُ
سِيَّانِ قَولُكِ ذَا وقَوْلُكِ إِنَّ - الرِّيْحَ نَعْقِدُهَا فتَنْعَقِدُ[4]
أَوْ أَنْ تَقُولِي: النَّارُ بَارِدَةٌ أَوْ أنْ تَقُولِي: المَاءُ يتَّقِدُ

---

١ – شعره:٣٥.
٢ – شعره:٦١.
٣ – شعره:٦٢.
٤ – شعره:٤٥.

ابن هُذيل القرطبي

اسمه ونسبه

يحيى بن هذيل[١] بن عبد الملك بن هذيل بن إسماعيل بن نويرة بن إسماعيل بن نويرة ابن مالك التميمي الشاعر، من أهل قرطبة، يكنّى أبا بكر[٢].

ذكر هذه السلسلة عن صاحبها ابن هذيل نفسه تلميذه ومعاصره ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) وقال:«أملى عليّ نسبه»[٣].

ونسبته القبليّة هي التميميّ[٤] ونسبته المكانيّة هي القرطبي[٥] ولقبه الذي لقّب به في أواخر حياته هو الأعمى أو الكفيف أو المكفوف[٦].

ولادته

تفرّد ابن الفرضي بذكر سنة ولادة ابن هذيل وتحديدها في ترجمته له نقلاً عن صاحب الترجمة نفسه: «وأخبرني أنّه ولد سنة خمس وثلاثمئة»[٧].

أمّا مكان ولادته فلم تنصَّ المصادر عليه، ولكنّها أشارت في سلسلة نسبه أنّه قرطبي أو من أهل قرطبة ممّا يرجح أنّه ولد في قرطبة عاصمة الدولة الأمويّة في الأندلس.

---

(١) تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢، التشبيهات: ٢٨.٥٥.٩٩. ١٨٣.١٩١.٢٠٠، البديع في فصل الربيع: ١٣٦، شرح المختار من شعر بشّار: ٨٤.٨٥، المقتبس: ٢٠٥، جذوة المقتبس: ٣٥٨، الذخيرة، ٣٤٦/٥، ترتيب المدارك ٢٩٣/٦، فهرسة ابن خير: ٤٠٨، بغية الملتمس: ٥٠٩، الحماسة المغربيّة: ١١٧٦، سرور النفس: ١٠٠، الإحاطة ١٠٧.١٠٦/٢، السحر والشعر: ١٤٧، نفح الطيب ٣٦/٤.١٥٢/٣، مصارع العشّاق: ١٦٤/١، معجم الأدباء ٣٩/٢٠، ٥١٨.

(٢) تاريخ العلماء بالأندلس: ١٩٣/٢، وانظر كذلك تاريخ الإسلام: ١٩١.

(٣) تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢.

(٤) تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢، ترتيب المدارك ٢٩٢/٦، فهرسة ابن خير: ٤٠٨، معجم الأدباء: ٣٩/٢٠، وفيات الأعيان: ٣٦٩/٤، تاريخ الإسلام: ١٩١، نكت الهميان: ٣٠٧، مرآة الجنان: ٢٩٣/٢، تحفة الأبيه: ١٠٩، طبقات النحاة واللغويين [ق: ٤٩و]، شذرات الذهب: ٣٦٣/٤، هديّة العارفين: ٥١٨/٢.

(٥) الذخيرة ٥١٤/٣، السحر والشعر: ١٤٧، معجم الأدباء: ٣٩/٢٠، تاريخ الإسلام: ١٩١، نكت الهميان: ٣٠٧، حلبة الكميت: ١٨٩.

(٦) عنوان المرقصات والمطربات: ٧٥، السحر والشعر: ٦٤، مسالك الأبصار: ٣. معجم الأدباء: ٣٩/٢٠، وفيات الأعيان: ٢٢٩/٧، نكت الهميان: ٣٠٧، الإحاطة: ١٠٧/٢.

(٧) تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢.

نشأته العلمية

من المعروف أنّ بيئة قرطبة الثقافيّة في القرن الرابع الهجري بيئة خصبة مثمرة، وفي أجوائها المفعمة بطيب العلم وسحره نشأ يحيى بن هذيل نشأة علميّة خالصة، فأرسل إلى الكتاتيب ليأخذ قسطاً وافراً من العلوم الدينيّة واللغويّة والأدبيّة.

ولقد تفتّحت مواهب يحيى بن هذيل الأدبيّة منذ نعومة أظافره؛ ممّا لفت انتباه معلّمه في الكتّاب وشدّ إعجابه به وتعجّبه منه؛ لألمعيّته ونباهته وإجابته وإجازته، ساق هذا الخبر الفريد الطريف القاضي عياض: «وكان قال الشعر في المكتب فكان معلّمه يعجب منه إلى أن دخل عليه يوماً رجل من حكماء وقته فأخبره بخبره، فقال له: أرنيه، فقال: لا، ولكن تفرّسْه في صبياني، فقال: إن كان، فهو ذلك، فقال له المعلّم: صدقت، فمن أين تفرّستَه؟ فقال: أما تراه ضئيلاً أسمر معرّقاً[1]، أقنى، على خلقة العرب.

ثمّ قال له: أجز:

لَسْـــتَ مِـــنَ الشِّـــعْرِ ولَا صَـــوْغِهِ

فقال ابن هذيل سريعاً:

فَـــدَعْ مَقَـــالَ الشِّـــعْرِ لَا تَبْغِـــهِ

فصفّق الرجل بيديه وحَوْقَل، وقال: أحسنتَ ما شئتَ ، على البديهة وصعوبة القافية»[2].

إذاً فابن هذيل الطفل الصغير تربة خصبة لنمّو بذور العلم والأدب تحتاج إلى جَنَّان يتعهّدها بالرعاية حتّى تؤتي أكلها، وقيَّض الله لابن هذيل أخاه الكبير عبد الملك الذي حباه بالرعاية اللازمة لاستوائه ونضجه، فصحبه معه إلى مجالس العلم الشهيرة في قرطبة فدرس مع أخيه على أهمّ علماء عصره في الأندلس و«سمع مع أخيه من أحمد بن خالد ومحمّد بن عبد الملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ»[3].

---

(١) المعرّق العظام: قليل اللحم. الأقنى: ارتفاع في أعلى الأنف

(٢) ترتيب المدارك ٦/٢٩٤.

(٣) تاريخ العلماء بالأندلس ٢/١٩٣، وتاريخ الإسلام (وفيات ٣٨١-٤٠٠): ١٩١. وجذوة المقتبس: ٣٥٨.

أساتذته

١. أحمد بن خالد بن يزيد[١] أبو عمر المعروف بابن الجبّاب (٢٤٦ -٣٢٢هـ)

٢. محمّد بن عبد الملك بن أيمن[٢] أبو عبد الله (٢٥٢-٣٣٠هـ)

٣. قاسم بن أصبغ[٣] بن محمد أبو محمّد البيّاني (نحو ٢٤٨-٣٤٠هـ)

٤. أسلم بن عبد العزيز بن هاشم[٤]، أبو الجعد (٢٣١-٣١٩هـ)

٥. محمّد بن عمر بن لبابة[٥] أبو عبد الله القرطبي (٢٢٥-٣١٤هـ)

٦. محمّد بن عمر بن عبد العزيز[٦]، أبو بكر ابن القوطيّة (ت٣٦٧هـ)

وهو أحد أشهر علماء الأندلس في اللغة والنحو، والوحيد من شيوخه الذين حفظت بعض هذه المصادر خبراً له مع ابن هذيل، وأوّل من رواه هو أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) في ترجمة ابن القوطيّة قال: «أخبرني أبو سعيد بن دوست قال أخبرني الوليد ابن بكرٍ الفقيه أنّ يحيى بن هذيل الشاعر زار يوماً ابن القوطيّة في ضيعة له فألفاه خارجاً منها، فاستبشر بلقائه وابتدأه ببيت حضره على البديهة فقال:

مَنْ أينَ أقبلتَ يا مَنْ لا شبيهَ لهُ ... ومَنْ هوَ الشمسُ والدنيا لهُ فلكُ

فأجابه مسرعاً:

من منزلٍ يعجبُ النسّاكَ خلوتُهُ ... وفيهِ سترٌ على الفتّاكِ إنْ فتكوا

قال ابن هذيل: «فما تَمالكت أن قبّلت يده إذ كان شيخي وأستاذي»[٧].

---

(١) ذكر تتلمذُ ابنِ هذيلٍ له: في تاريخ العلماء بالأندلس: ١٩٣/٢. وجذوة المقتبس: ٣٥٨،

(٢) ذكر تتلمذ ابن هذيل له في: تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢. وتاريخ الإسلام (وفيات ٣٨١-٤٠٠): ١٩١.

(٣) ذُكر تتلمذ ابن هذيل له في: تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢. وترتيب المدارك: ٢٩٢/٦.

(٤) تفرّد القاضي عياض في ذكر تتلمذ ابن هذيل له؛ ترتيب المدارك: ٢٩٣/٦.

(٥) تفرّد القاضي عياض في ذكر تتلمذ ابن هذيل له؛ ترتيب المدارك: ٢٩٣/٦.

(٦) نصّ ابن هذيل نفسه على تتلمذه له وذكره القاضي عياض ، ترتيب المدارك: ٢٩٣/٦.

(٧) يتيمة الدهر ٧٣/٢. وانظر: وفيات الأعيان ٣٦٩/٤، الوافي بالوفيات ٢٤٢/٤، مرآة الجنان: ٢٩٣/٢، تحفة الأبيه: ١٠٩، بغية الوعاة: ١٩٨/١، نفح الطيب ٧٤.٧٣/٣، شذرات الذهب ٣٦٤.٣٦٣/٤

حياته في عهد عبد الرحمن الناصر (حكم ٣٠٠-٣٥٠هـ)

حضر ابن هذيل جنازة الشاعر الشهير ابن عبد ربّه (ت٣٢٨هـ) وكان في الثالثة والعشرين من عمره أو هو كما يقول ابن هذيل: «وأنا يومئذ في أوان الشبيبة، قال: فرأيت فيها من الجمع العظيم وتكاثر الناس شيئاً راعني، فقلت لمن هذه الجنازة، فقيل لي: لشاعر البلد، فوقع في نفسي الرغبة في الشعر واشتغل فكري بذلك»[١].

ولقد كان الشعر هو السلّم الذي صَعِد عليه ابن هذيل وارتقاه للوصول إلى مجالس الكبراء، ولا نعرف متى ولا كيف وصل إلى بلاط الخليفة الأندلسي الأوّل الذي تقلّد الخلافة سنة (٣١٦هـ)، ولكنّنا نرى أنّ ذلك كان بعد وفاة ابن عبد ربّه (٣٢٨هـ) فهو الذي حداه إلى تجويد الشعر والاحتفاء به.

وقد أشار القاضي عياض إلى مهرجان مهمّ أقامه الخليفة الناصر وأخطر الشعراء للاستعداد لذلك والتأهّب له قال : «ومن أخباره أنّ الناصر كان أنذر الخطباء والشعراء لحضور خيل الحلبة في المهرجان، قال ابن هذيل: فجاءني الأمر بذلك عشيّ نهارها فخلوت بقيّة يومي وهزيعاً من ليلتي، فلم أنظم كلمة فأويت إلى فراشي آسياً فأخذتني عيني فكنت أرى شخصاً في المنام يقول لي: ترقد يا أبا بكر ولم يفتح عليك؟ ثمّ يقول:

مشـــــاهدٌ يلزمنـــــا حضـــــورُها
للخيـــلِ حـــتّى تنقضـــي أمورُهَـــا

فهببت سريعاً وقد توقّد خاطري، وافتتحت بهذا الابتداء، وانثالت عليّ القوافي فجئته بأرجوزة حسنة غدوت بها أوّل منشد»[٢].

غير أنّ علاقة ابن هذيل بالخليفة الناصر وبالخلفاء والحكّام من بعده لم تكن تجاوز هذا القدر فلم تشر الأخبار إلى تولّيه منصباً سياسيّاً ولا إلى مشاركته في الأحداث السياسية وتوجيهها.

---

(١) جذوة المقتبس: ٣٥٨.

(٢) ترتيب المدارك ٦/٢٩٤.٢٩٥.

حياته في عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠- ٣٦٦هـ)

من سعد طالع ابن هذيل أنّ القطعة الصغيرة من كتاب المقتبس لابن حيّان الخاصّة بحياة الحكم المستنصر من السنوات(٣٦٠-٣٦٤هـ) حفظت خبراً وشعراً على درجة عالية من الأهميّة ففي فصل بعنوان: «ذكر اعتلال الخليفة الحكم» حدّد ابن حيّان زمن هذا الحادث الجلل بدقّة وهو «يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل» سنة (٣٦٤هـ) ثمّ شفاه الله سبحانه فظهر لخاصّته يوم «الجمعة لليلة بقيت من ربيع الأولّ» فاستبشر الناس وفرحوا وتهانوا بينهم، وسجّلت الشعراء هذا الطائف وانجلاءه عن الحكم فأكثرت فمن ذلك صاحب الشرطة الوسطى يعلى بن أحمد بن يعلى وقال ابن حيّان بعد سرد قصيدته: «وليحيى بن هذيل في ذلك:

يـــا فرجـــةً للحـــادثِ المتكشّـــفِ ... ويـداً يُفيـقُ بهـا الزمـانُ ويشـتفي[1]

عـــمَّ الســـرورُ فكـــلُّ نفـــسٍ حالُهـــا ... في حـــالِ يعقـــوبٍ بـــبردةِ يوســـفِ

لـــو كـــانَ شخصـــاً لمْ يعـــادِلْ حســـنُهُ ... حســـنَ الربيـــعِ بزهـــرِهِ المتـــألِّفِ

ولـــوِ الليـــالي صَـــوَّرتْ أيّامَهـــا ... مِنْهَـا لَمَـا اتَّصَـلَتْ بـداجٍ مُسْـدِفِ

فـــرحٌ فَمَـــا في العـــالمينَ مولَّـــهٌ ... مِـنْ حُسْـنِ مَوْقِعِـهِ اللطيـفِ الملْطَـفِ

وفي أواخر هذه القصيدة يشير إلى وليّ العهد هشام المؤيّد الذي كان صغيراً فغلب على دولته الحاجب المنصور كما هو معروف:

ضـــحكتْ إلى تلـــكَ الســـلامةِ دولـــةٌ ... تركـــتْ لعضـــدِ هشـــامِها المتخلّـــفِ

قـــدْ كـــانَ يشـــمتُ بالمهنّـــدِ في الـــوَغَى ... ســـردُ المغـــافرِ فـــوقَ كـــلِّ مجفَّـــفِ

يـــابنَ الخلائـــفِ مـــنْ لُبَـــابِ أميّـــةٍ ... والمســـتقلَّ بعـــزِّهِ والمُكْتَفِـــي

عُوفيْـتَ مِـنْ كُـلِّ الأذى ونعمـتَ مِـنْ ... حُسْـنٍ وصِـرفُكَ وادعٌ لمْ يعنـفِ[2]

---

(١) المقتبس (حجي): ٢٠٥.

(٢) المقتبس: ٢٠٦.

حياته في عهد المنصور محمد بن أبي عامر (٣٦٧ .٣٩٢ هـ)

لم تشر المصادر المتبقية إلى علاقة ابن هذيل بالحاجب المنصور على أعدائه ومناوئيه الذي كان له الحكم والأمر والنهي والفتح خلا لمحة سريعة في إحدى فتوح الحاجب في صائفة سنة ٣٧٥هـ إذ وجدنا اسم يحيى بن هذيل بين أسماء عدد كبير من الشعراء والأدباء النابهين في عصره المسجّلين بديوانه، فقد استعدّ الحاجب لهذه الحملة استعداداً كبيراً واستوفى أتمّ الأبّهة وأكمل العدّة ودخل بجيشه إلبيرة وعدد ممّن كان معه فقد «كان يصحب المنصور في هذه الغزوة من الشعراء المرتزقين بديوانه مَنْ يذكر» وسرد لسان الدين ابن الخطيب بعض هؤلاء الشعراء ومن بينهم «يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل المكفوف»[1]، غير أنّ أشعاره الباقية تدلّ دلالة أكيدة على علاقة متينة بالحاجب المنصور ونرى أنّه مدحه ووصف فتوحاته وخلّد انتصاراته بقصائد كثيرة مطوّلة محوكة، ولكنّ المصدر الأساسي الذي احتفظ بها هو كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتّاني الطبيب (ت نحو ٤٢٠هـ) فاجتزأ من هذه القصائد ما يناسب موضوع كتابه التشبيهات فاختار الكثير من أوصافه في موضوعات شتّى، ويثبت هذا وجود عدّة مقطوعات في وصف مدينة الزاهرة التي بناها المنصور وانتقل إليها سنة ٣٧٠ ويفصّل ابن هذيل في وصف مبانيها ومنشآتها وبساتينها وفي إحداها ينادي المنصور الذي ترك لقب الحجابة لولده من دون تكلّف «يا منصور» ممّا يؤكّد أنّ العلاقة بينهما وطيدة ولاسيّما أنّهما ينتميان إلى قبيلة تميم إذ ينتسب المنصور من جهة أمّه إلى هذه القبيلة الكبيرة:

فلمّا نَشَا النوّارُ فيها ظننتُهَا ... قبابَكَ يا منصورُ حينَ تُرفَّعُ[2]

وفي الثانية يذكر لقب المنصور أبي عامر ويخاطبه بضمير الخطاب ويمدحه:

وكأنَ صفَّ وصائفٍ برَزَتْ إلى الـ ... ـمنصورِ عَنْ كِلَلٍ منَ الصَّفْصَافِ

قامتْ إليكَ كأنّما أعناقُهَا ... أعناقُ نافرةٍ منَ الأَخشافِ

...

(١) الإحاطة: ٢/١٠٦.١٠٧.

(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس:٧٧-٧٨.

عرَضَـــتْ عليـــكَ زُمـــرّداً وتحوَّلَـــتْ فأرتْـــكَ لَونـــاً كـــاللُّجَيْنِ الصَّـــافِي
وكأنَّمـــا قـــدْ أسْـــبَلَتْ مـــنْ نفسِـــها سِـــتراً علـــى ذِي رِيبـــةٍ وَخِـــلافِ
وأظنُّـــهُ النهـــرَ الَّـــذي لَـــمْ يســـتطعْ يحكيـــكَ في إرهامِـــكَ الوَكَّـــافِ[1]

وفي الثالثة يصف ناعورتين أنشأهما المنصور على نهر قرطبة في الزاهرة مازجاً الوصف بالمديح مما يؤكّد أنّها جزء من قصيدة في مدح المنصور[2]:

وأنـــتَ ابتـــدعْتَ لنـــاعورتينِ بـــدائعَ أعيـــتْ فمـــا تُوْصَـــفُ
هُمَـــا ضَـــرّتانِ كمثـــلِ يـــديكَ إذا جادتَـــا والحيـــا مُغْـــدِفُ

وثمّة قطعة صغيرة في وصف جواد أصيل لمن اسمه محمّد ولعلّه محمّد بن أبي عامر الحاجب المنصور نفسه:

محمّـــدُ هـــلْ جـــوادُك في الجيـــادِ إذا حصّـــلتَ إلّا كـــالفؤادِ
كـــأنَّ ضـــلوعَهُ ممَّـــا تعـــرّتْ قِسِـــيٌّ وُتِّـــرَتْ يـــومَ الجِـــلَادِ[3]

وثمّة مقطعة نقلها السرّاج القارئ عن الحميدي بدمشق تدلّ على كون ابن هذيل أحد الخاصّة الذين يحضرون مجالس الحكام وينبرون للردّ والدفاع عن الأندلس من دون أن يطلب منهم ذلك: قال السرّاج: «أخبرني أبو عبد الله بن أبي نصر الأندلسي بدمشق، قال: أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق وهي:

ومَـــاذَا عَلَـــيْهِمْ لـــوْ أثَـــابُوا فَسَـــلَّمُوا وقَـــدْ عَلِمُـــوا أنّي المَشُـــوقُ المُتَيَّـــمُ
سَـــرَوْا ونجُـــومُ الليْـــلِ زُهْـــرٌ طَوَالـــعٌ عَلـــى أنّهُـــمْ باللّيْـــلِ للنَّـــاسِ أنجُـــمُ
وأخفَـوْا علـى تِلْـكَ المَطَـايا مَسِـيْرَهُمْ فَـــنَمَّ عَلَـــيهِمْ في الظـــلامِ التَبَسُّـــمُ

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها، وقال: هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله، وبالحضرة أبو بكر يحيى بن هذيل، فقال بديهاً[1]:

---

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس:٦٩-٧٠.
(٢) المصدر نفسه ٨٢-٨٣.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧٢.
(١) مصارع العشّاق ١/١٣٢-١٣٣، تاريخ الإسلام: ١٩٢.١٩١، نفح الطيب: ٣/١٥٣.١٥٢

عَرَفــتُ بِعَــرْفِ الــرّيحِ أيــنَ تَيَمّمُــوا وأيــنَ اســتقلَّ الظــاعِنونَ وخَيّمُــوا
خَليلَــيَّ ردّانِي إلى جانِــبِ الحِمَــى فَلَســتُ إلى غَــيرِ الحِمــى أتَــيَمَّمُ
أبِيــتُ سَمــيرَ الفَرْقَــدَيْنِ كَأنَّمَــا وِســادِي قَتَــادٌ أو ضَجيعــيَ أَرْقَــمُ
وأحْــوَرَ وَسْــنَانِ الجفــونِ كأنَّــهُ قضــيبٌ مــنَ الرَّيحــانِ لَــدْنٌ مُــنَعَّمُ
نَظَــرْتُ إلى أجْفَانِــهِ أوّلَ الهَــوَى فَأيْقَنَــتُ أنّي لسَــتُ مِــنهُنَّ أَسْــلَمُ
كمــا أنَّ إبْــرَاهِيمَ أوّلَ مَــرّةٍ رأى في الــدّراري أنَّــهُ ســوفَ يَسْــقَمُ

ولكنّ الحميدي لم يذكر لنا من الذي أنشد هذه القطعة ولا الملك الذي أنشدت في حضرته ولكنّنا نعلم أنّ الشاعر عاش في زمن ثلاثة حكّام هم الخليفة الناصر والخليفة المستنصر والحاجب المنصور، ويرجح الظنّ أنّها جرت في عهد هذا الأخير لأنّها تدلّ على نضج فنّيّ واقتدار كبير على قول الشعر بداهة بمستوى جيّد، ولأنّ مجالس الحاجب المنصور حفلت بمثل هذه المواقف[1].

وأخيراً فإن الحياء هو السمة التي تصف سلوك ابن هذيل مع ممدوحيه في طلبه، فيذكر أنّه لا يثقل على ممدوحه كما يفعل غيره من الشعراء المتملّقين الطفيليّين مشيراً إلى كثرتهم يقول:

ولــيسَ انبســاطِي في عُــلاكَ مُــثقّلاً كَغــيرِي ولكــنْ فيــكَ جــوهرُ منطقِــي
فمــا أســألُ الحاجــاتِ إلّا كأنّمــا حيائِيْ على وجهِيْ حُسَامٌ بِمِفْرَقِي[2]

تلامذته

تحدّث غير واحد ممّن ترجم له أنّ ابن هذيل حينما تقدّمت به السنّ تفرّغ للقراءة والتدريس، قال ابن الفرضي: «وطال عمره فسمع منه بعض الناس»[1].

---

(١) انظر موقفاً مشابهاً لأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري مع صاعد البغدادي في كتاب شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي: ٣٩- ٤٠.

(٢) التشبيهات: ٢٧٢.

(١) تاريخ العلماء بالأندلس: ١٩٣/٢.

أمّا العلوم التي سُمعت منه وقرئت عليه فهي الحديث والأدب والشعر ولا سيّما ديوان شعره يكمل ابن الفرضي «وقرئ عليه على سبيل الرواية».

أمّا من عرفنا من تلامذته:

١. عبد الله بن محمد بن يوسف، أبو الوليد الفرضي (٣٥١_٤٠٣هـ)

وهو إمام حافظ فقيه عالم بفنون كثيرة واسع في الرواية والحفظ ومعرفة الرجال والافتنان في الأدب وله ديوان شعر.

وابن الفرضي أهمَّ تلامذة ابن هذيل لأنّه أوّل من ترجم له، وهو ينصّ في ترجمته له على أخذه منه وكتابته عنه وإجازته له، قال: «وقد كتبت عنه من حديثه وشعره وأجاز لي روايته وديوان شعره»[١].

٢. خلف بن عثمان المعروف بابن اللجّام[٢]

٣. يونس بن هارون الرمادي (٣١٤_٤٠٣هـ)

أحد كبار الشعراء الأندلسيّين في القرن الرابع الهجري، وهو من المجدّدين في الشعر الأندلسي والمطوّرين للموشّحات، وإن لم يصل إلينا شيء من موشّحاته. وله ديوان شعر مطبوع. وكان شيوخ الأدب في وقته يقولون: «فتح الشعر بكندة وختم بكندة؛ يعنون امرأ القيس والرمادي»[٣].

ولقد ذكر ياقوت في ترجمته لابن هذيل أنّه «أخذ عنه الرمادي الشاعر وغيره»[٤].

ونقل كلّ من ابن خلّكان وابن فضل الله العمري والمقّري في ترجمة الرمادي عن ابن سعيد في المغرب ما يؤكّد ذلك [١].

---

(١) تاريخ العلماء بالأندلس: ١٩٣/٢.

(٢) جذوة المقتبس ١٩٥، وانظر بغية الملتمس: ٢٨٥، وذكر في الصلة: ١٩٥ وحذف سماعه من ابن هذيل.

(٣) انظر ترجمته مفصّلة ومصادرها في مقدّمة مجموع شعره وجمع وتحقيق ماهر زهير جرّار.

(٤) معجم الأدباء: ٣٩/٢٠.

(١) وفيات الأعيان ٢٢٩/٧ وانظر: مسالك الأبصار: ٥، نفح الطيب ٣٦/٤.

وثمّة خبر وحيد يترجم علاقة الرمادي بابن هذيل يحكيه ابن بسّام الشنتريني عن الرمادي نفسه «وأنا أسوق الحكاية بنصّ ما حكاه الرمادي عن نفسه. قال: بكّرتُ إلى أبي المطّرف ابن مثنّى فألفيتُ قد بكّر قبلي يحيى بن هذيل فقال لي ما عندك؟ فقلت: ليس عندي كبير معنى ولكن ما عندك أنت؟ فأخرج من كمّه قصيدته التي يقول فيها في صفة الحمامة:

وَمُرِنّـــةٍ والدَّجْـــنُ ينســـجُ فوقَهـــا ... بُـــرْدَيْنِ مـــنْ طـــلٍّ ونَـــوْءٍ بَـــاكِ
مالـــتْ علـــى طـــيِّ الجنـــاحِ وإنّمـــا ... جعلـــتْ أريكتَهَـــا قضـــيبَ أراكِ
وترنّمَـــتْ لَحَنَـــيْنِ قَـــدْ حَلَّتْهُمَـــا ... بغنـــاءِ مُسْـــمِعَةٍ وأنّـــةِ شَـــاكِ
ففقـدتُ مـن نفسـي لفـرطِ تلهُّفِـي ... نَفَـسَ الحيـاةِ وقلـتُ مَـنْ أبكـاكِ

فأنشدنيها، وأنا أعدّ محاسنه فيها، فلمّا أكملها قال لي: انصرف إلى المكتب وتأدّبْ حتّى تحكم مثل هذا، فكأنّه [حرّكني؛ واتّفق أنّه] لم يخرج إلينا أبو المطرّف ذلك اليوم فبكّرت من الغد إليه وأنشدته قصيدتي التي أقول فيها في وصف الحمامة:

أحمامـــةٌ فـــوقَ الأراكـــةِ تنثنِـــي ... بحيـــاةِ مَـــنْ أبكـــاكِ مَـــا أبكـــاكِ
أمّـا أنـا فبكيـتُ مِـنْ حُـرَقِ الهـوى ... وفِـرَاقِ مَـنْ أهـوى أَأَنْـتِ كَـذَاكِ

قال: فلمّا سمعها ابن هذيل قال: عارضتَني! قلت: لا والله إلّا ناقضتُك، فقال: اذهب فقد أخرجتُك من المكتب»[1].

أواخر حياته

عاش ابن هذيل حياة مديدة بلغت على أرجح الأقوال خمساً وثمانين سنة كما أشار تلميذه ابن الفرضي[1]، أو امتدّت ستّاً وثمانين سنة كما نصّ الحميديّ نقلاً عن شيخه ابن حزم؛ بأنّ ابن هذيل مات «وهو ابن ستّ وثمانين»[2]. وأصيب أواخر عمره

(١) الذخيرة ٥/٣٤٦.٣٤٧.

وانظر مناقشة الخبر في كتابي: **شعر ابن هذيل القرطبي الأندلسي، شراع للدراسات، دمشق، ٢٠٠٥.**

(١) تاريخ العلماء بالأندلس ٥/١٩٣.

(٢) جذوة المقتبس: ٣٥٨.

بالعمى، قال الذهبي «كفّ بصره قبل موته بأعوام»[1]؛ فما كان منه إلّا أن زاده إيماناً وتسليماً لقضاء الله تعالى فاحتسبه عند الله تبارك وأبى أن «يقدح عينيه» ويخرج منهما الماء الفاسد وجعل بقيّة عمره لله عزّ وجلّ في تلاوة كتابه وإسماع حديث نبيّه صلّى الله عليه وسلم، قال عياض: «وعمي آخر عمره فدعي إلى أن يقدح عينيه فأبى من ذلك وقال: أَبَعْدَ ما أوجب الله لي الجنّة أدعها وأستأنف العمل؟ والله لا أفعل، ولأجعلنّ بقيّة عمري شكراً لله. وكان يكثر تلاوة القرآن بالنهار والتهجّد بالليل»[2].

ومن شدّة تأثره بالقرآن الكريم ما رواه القاضي عياض عنه: «وقرأ عليه قارئ محسن سورة فبكى وانتحب ثمّ شهق وغشي عليه حتّى ظنّ أنّه مات ثمّ أفاق وبقي مهيضاً أيّاماً»[3].

زيادة على ذلك فقد تصدّى للإسماع والإقراء لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن محدّثاً فلقد «قرئ عليه على سبيل الرواية»[4] وكان ممّن كتب عنه حديثه وأجازه بروايته ابن الفرضي كما أسلفنا.

وتأقلم ابن هذيل مع ظروف العمى الصعبة راضياً بقضاء الله وقدره، محافظاً على تورّعه في جميع سلوكه قال القاضي عياض: «وكان وضع على باب مستراحه مسماراً يمسّه بيده ويضع فيه خاتمه عند دخوله حتّى لا يناله شيء،إذ كان فيه منقوش «يحيا بفضل الله يحيى»[5].

وقد يسّر الله تعالى له قبولاً عند الناس واحتراماً لدى كبرائهم وتقديماً له وبرّاً به، قال القاضي عياض «وكان الرؤساء يقدّمونه ويبرّونه»[1] كما في علاقته مع الزاهد ابن أبي زَمَنِين والقاضي ابن زَرْب الذي كان يفضّله ويزكّيه..

---

(١) تاريخ الإسلام (وفيات ٣٨١-٤٠٠): ١٩١.

(٢) ترتيب المدارك ٢٩٣/٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٩٣/٦.

(٤) تاريخ العلماء بالأندلس ١٩٣/٢.

(٥) ترتيب المدارك ٢٩٣/٦.

(١) المصدر نفسه: ٢٩٣/٦.

وفاته

ثمّة عدة روايات لوفاته في المصادر الأندلسيّة أهمّها وأوثقها الرواية الأولى التي ذكرها تلميذه ومعاصره ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) فقد حدّد بدقّة زمن وفاته ومكان دفنه: «وتوفّي – رحمه الله – ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي العقدة سنة تسع وثمانين وثلاثمئة ودفن يوم الأربعاء بعد صلاة العصر في مقبرة مَتْعَة»[١]، وتبعه في ذلك أغلب مَنْ ترجم له من المشارقة[٢].

والرواية الثانية: ذكرها الحميدي نقلاً عن ابن حزم «قال لي أبو محمّد: مات أبو بكر بن هذيل سنة خمس أو ست وثمانين وثلاثمئة»[٣].

والرواية الثالثة: نقلها القاضي عياض عن ابن عفيف صاحب كتاب الاحتفال: «وتوفّي . رحمه الله . سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة عن عمر فيما قاله ابن عفيف »[٤].

ونرجح القول بأنّ وفاته كانت سنة ٣٨٩هـ لأنّها صادرة عن تلميذه ومعاصره وعن علم من أعلام تراجم الرجال هو ابن الفرضي، وأنّ أكثر منْ ذكر وفاته على هذا الرأي من القدامى والمحدثين.

صفاته

في خبر طريف أورده القاضي عياض دليلاً على موهبة ابن هذيل الشعريّة منذ نعومة أظفاره تتبدّى مخايل الذكاء وتشعّ دلائل الألمعيّة حتّى تعرّف صاحبها وتميزّه من أقرانه، فقد عرفه المتفرّس من دون سابق معرفة لأنّه رآه «ضئيلاً أسمر معرقاً أقنى على خلقة العرب»[١] وهي صفات تشي بما تشي من جمال وأصالة منذ الصغر.

ونقل القاضي عياض عن ابن مفرّج عدداً من صفات ابن هذيل الخَلْقيّة والخُلُقيّة: «قال

---

(١) تاريخ العلماء بالأندلس: ١٩٣/٢.

(٢) انظر: معجم الأدباء ٣٩/٢٠، تاريخ الإسلام (وفيات ٣٨١-٤٠٠): ١٩١، نكت الهميان: ٣٠٨، هدّية العارفين ٥١٨/٢.

(٣) جذوة المقتبس: ٣٥٨.

(٤) ترتيب المدارك ٢٩٥/٦.

(١)المصدر نفسه ٢٩٤/٦.

ابن مفرّج: وكان عالماً ديّناً نزيهاً فصيحاً راوية للحديث والخبر، ظاهر الشارة من ملبس ومركب، حسن الحديث، ذا عفّة وتقى، كثير التلاوة للقرآن»[1].

وقال الذهبي: وكان «ديّناً عاقلاً نزهاً فصيحاً مفوّهاً»[2].

ومن هذين المقبوسين نستمدّ صفات ابن هذيل الماديّة والمعنويّة، فمن الأولى أنّه ظاهر الشارة يهتمّ بجمال ملبسه ومركبه، وهو فصيح مفوّه حسن الحديث كأنّه قطع الروض إذا ما همى عليه الغمام[3].

ومن الثانية ما يتعلّق بأمور الدين والأخلاق فهو ديّن نزيه عفيف تقيّ كثير التلاوة للقرآن الكريم، راوية للحديث النبويّ الشريف حافظ للفقه المالكي.

ويذكر الذهبي أيضاً أنّه عاقل ويفسرها القاضي عياض بخبر واقعي وهو أنّ القاضي ابن زرب كان يردّ عليه المتخاصمين من جيرانه ليصلح بينهم.

فضلا عن مدى حيائه من ممدوحه حتّى كأنّ حياءه سيف بمفرقه[4]، وعرفنا مدى تواضعه ولين عريكته في ردّه على ابن أبي زمنين في مقصورته[5].

ثناء المترجمين على شعره

جمع ابن هذيل العلوم الدينيّة والأدبيّة إلى الإبداع الشعري إلّا أنّ الأخير رجح وشال ما سواه، لذلك فقد كان الوصف الأوّل الذي وصفه به أغلب من ترجم له هو الشاعر؛ نبدأ من تلميذه ابن الفرضي الذي نعته بالشاعر ثمّ أشار إلى تلك النقلة الكبيرة في حياته وأردف بالثناء عليه فقال: «وغلبت صناعة الشعر عليه فكان شاعر وقته غير مدافع»[1].

---

(١)ترتيب المدارك :٦/٢٩٣.

(٢) تاريخ الإسلام (وفيات ٣٥١-٣٨٠): ٥١٣.

(٣) انظر التشبيهات: ١٤١-١٤٢.

(٤) التشبيهات: ٢٧٢.

(٥) ترتيب المدارك ٦/٢٩٤.

(١) تاريخ العلماء بالأندلس ٢/١٩٣.

وكذلك الحميدي الذي نعته في مقدّمة ترجمته له بأنّه من أهل العلم والأدب والشعر فهو يضيف بأنّه «غلب عليه الشعر فصار من المشهورين به» وفي نهاية ترجمته يقول نقلاً عن شيخه ابن حزم إنّ ابن هذيل توفّي «وهو ابن ستّ وثمانين وكان قد بلغ من الأدب والشعر مبلغاً مشهوراً»[١].

ويثني شمس الدين الذهبي على شاعرية ابن هذيل ثناء سابغاً في ترجماته الثلاث فيقرّظه في كتابه الإعلام بـ«شاعر الأندلس»[٢] وفي الترجمة الأولى له في تاريخ الإسلام يصفه بـ: «الأديب شاعر عصره بالأندلس»[٣] وفي الترجمة الثانية يقول: «قلتُ هذا كان حامل لواء الشعراء في الأندلس»[٤].

أمّا صاحب مسالك الأبصار فيدبّج له ثناء خاصاً به مسجعاً له: «رجل ردّ نور بصره إلى بصيرته، وعاد ضياء ظاهره إلى سريرته، بعد الغياب إلى ربوعه، ونفث البيان في روعه، فتوقّد نوراً أغناه أن يتلمس، وأخذ بيده فلم يحتج أن يحمل عصا ولا يتحسّس، سقاه الأدب مورداً نميراً، وألقى عليه ثوبه فارتدّ بصيراً»[٥].

ويصفه ياقوت بأنّه «كان أديباً شاعراً»[٦]، ويصفه الصفدي بالشاعر[٧]، وكذلك اليافعي بالأديب الشاعر[٨].

ومن الثابت لدينا أنّ شعر ابن هذيل قد وصل إلى المشرق في حياته وبعدها، فقد ذكر ياقوت أنّ ابن هذيل «قدم إلى المشرق أواسط المئة الرابعة»[١] ولعلّه حمل شيئاً من شعره.

---

(١) جذوة المقتبس: ٣٥٨.

(٢) الإعلام بوفيات الأعلام: ٢٥٤/١.

(٣) تاريخ الإسلام (وفيات ٣٥١-٣٨٠): ٥١٣.

(٤) المصدر نفسه (وفيات ٣٨١-٤٠٠): ١٩١.

(٥) مسالك الأبصار: ٣.

(٦) معجم الأدباء: ٣٩/٢٠.

(٧) نكت الهميان: ٣٠٧.

(٨) مرآة الجنان ٢٩٣/٢.

(١) معجم الأدباء ٣٩/٢٠.

كما أنّ أبا منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) المؤلّف المشرقي الشهير يورد في يتيمته[١] مقطوعات من شعر ابن هذيل ويترحّم عليه وكأنّه يعرفه.

وكذلك أنشد الحافظ الحميديُّ السرّاجَ الورّاق[٢] مقطوعتين من شعر ابن هذيل في دمشق، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على وصول شعر ابن هذيل إلى المشرق منذ هذا الوقت المبكر.

وهذا دليل آخر ينسب إلى معاصره كبير شعراء المشرق أبي الطيّب المتنبي (ت٣٥٤هـ) في تفضيل ابن هذيل على شعراء مصره، وقد أورده ابن بسّام الشنتريني مرّتين في التعليق على بيتي ابن هذيل المشهورين:

لمـّا وضعتُ على قَلبِي يَدِي بِيَدِي ... وَصِحتُ في الليلّةِ الظَّلماءِ وَاكبِدِي

ضَجَّتْ كَوَاكِبُ لَيْلي في مَطَالعِها ... وذَابَتِ الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ مِنْ جلدِي

قال ابن بسّام: «وذكر أنّ المتنبّي أنشد من شعر أهل الأندلس حتّى أنشد هذين البيتين فقال: هذا أشعر القوم»[٣].

والمرّة الثانية: «وحكي أنّ أبا الطيّب المتنبيّ، على قلّة رضاه عن شعر أحد، فإنّه على ما ذكر عنه أنشد لجملة من شعراء الأندلس حتى أنشد قول ابن هذيل... فقال أبو الطيب: هذا أشعر أهل المغرب»[٤].

ونقل ابن فضل الله العمري هذا الخبر عن ابن بسّام وفي روايته زيادة في كلام المتنبي: «هذا أشعر القوم عدنا إليه»[١].

ولعلّ هذا التعليق- إن صحّ - أجمل وسام يعلّق على صدر شعر ابن هذيل، لأنّه

---

(١) يتيمة الدهر ١٤/٢. وقد ذكر مؤلفه أبو منصور الثعالبي في خطبة كتابه أنّه بدأ بتأليفه سنة (٣٨٤هـ) أي قبل وفاة ابن هذيل بخمسة أعوام.

(٢) مصارع العشاق ١٣٢/١.١٣٣.١٦٤/١.

(٣) الذخيرة ٥١٤/٣.٥١٥.

(٤) الذخيرة ٣٤٧/٥.

(١) مسالك الأبصار: ٣.

«إذا كان أهل الأندلس قد قالوا ذلك عن علمائهم ؛ فإنّ أهل المشرق – أيضاً – قد تحدّثوا عن أهل الأندلس»[1] وأثنوا عليهم وقدروهم حقّ قدرهم.

ولعلّه أيضاً أهمّ من جميع التعليقات على شعره حتى تعليق الشاعر نفسه الذي وصف أرجوزته بأنّها «حسنة»[2]. وأهمّ من تعليق الحكيم على إجازته عجز بيت وهو طفل صغير «فصفّق الرجل بيديه وحوقل وقال له: أحسن ما سمعت مع البديهة وصعوبة القافية»[3].

وينتقي الحميدي لابن هذيل أربع مقطوعات ويقدّم لها بقوله: «ومن مستحسن شعره»[4] ويصف عياض الأشعار المتبادلة بين ابن هذيل وابن أبي زمنين بأنّها «حسنة»[5].

وينتقي ابن سعيد مقطوعة ابن هذيل الدالية الشهيرة[6] ويصنّفها في قسم المرقص وهو أعلى طبقات اختياره.

نماذج من أغراضه

١ – الغزل

لمّا وضعتُ على قَلبِي يَدِي بِيَدَي ... وَصِحْتُ في اللَّيلةِ الظَّلْمَاءِ وَاكَبِدِي
ضَجَّتْ كَوَاكِبُ لَيْلي في مَطَالعِها ... وَذَابَتِ الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ مِنْ كَمَدِي
وَلَيْسَ لِي جَلَدٌ في الحُبِّ يَنْصُرُنِي ... فَكَيْفَ أَبْقَى بِلا صَبْرٍ ولا جَلَدِ
وكيفَ أشرحُ مَا ذابَ الجمادُ لهُ ... لِمَنْ غَدَا خائفاً إشارِتِي بيدِي
لَمَّا رآني مشيراً للسلامِ بها ... ألقَى على خدِّهِ مضاعفَ الزَّرَدِ[1]

---

(١) الانتماء في الأدب الأندلسي: ٣٧.
(٢) ترتيب المدارك ٢٩٥/٦.
(٣) المصدر نفسه ٢٩٤/٦.
(٤) جذوة المقتبس: ٣٥٨.
(٥) المصدر نفسه: ٢٩٤/٦.
(٦) عنوان المرقصات والمطربات: ٧٥.
(١) الديوان: ١٤٤ – ١٤٥.

وقال أيضاً في الفراق يومَ الطلّ:

لم يَرْحلُـــوا إلَّا وفَـــوْقَ رِحـــالِهِمْ ... غَـيْمٌ حَكَـى غَـبَشَ الصَّـباحِ المُعْتَـلي

وعَلَـى هَـوَادِجِهِمْ مُجاجَـاتُ النَّـدَى ... فكأنّهـــا مُطِـــرَتْ بِـــدُرٍّ مُرْسَـــلِ

لمَّـــا تَحَـــرَّكَتِ الركـــابُ تَنْـــاثرَتْ ... مِـنْ فَـوْقِهِمْ في الأَرْضِ بَـيْنَ الأَرْحُـلِ

فبكيـتُ لـو عَرَفُـوا دمـوعيَ بينَهَـا ... لكنَّهَـا اخْتَلَطَـتْ بشـكْلٍ مُشْـكِلِ[1]

وقال:

لا تَلُمْـــني علـــى البُكـــاءِ بِـــدارٍ ... أهلُهـــا صَـــيَّرُوا السَّـــقامَ ضَـــجيعِي

جَعَلُـــوا ليْ إلَى الوِصَـــالِ سَـــبيلاً ... ثُمَّ سَـــدُّوا علـــيَّ بـــابَ الرُّجُـــوعِ[2]

وقال ابن هذيل [في الغزل ووصف البرق]:

لا تلـمْ هائمـاً قـدِ اسْتحسـنَ الوجـ ... ـــدَ وكِـــلْ أمـــرَهُ إلى استحســـانِهْ

فأنَـا الطـائعُ المشـوقُ لمـنْ صَـا ... رَ يرينِـــي الهـــوانَ في عِصْـــيَانِهْ

مـرَّ بيْ خـاطراً يكـادُ مـنَ العُجْـ ... ـــبِ بـــهِ أنْ يُـــراعَ في ريعانِـــهْ

في مُـــلاءٍ كأنَّـــهُ وَهْـــوَ فيهَـــا ... وردُ خدّيـــهِ في جنَـــى سَوْسَـــانِهْ

يشـتكيْ بـالفتورِ مـنْ كسـلِ المشـ ... ـــيِ ولْا يشـــتكيهِ مِـــنْ أَجْفَانِـــهْ

ولقـــدْ شَـفَّنـــي وأســـهرَ طَرْفـــي ... لَمْـــعُ بَـــرْقٍ يـــرفُّ في لَمَعَانِـــهْ

شِـــمْتُهُ والظـــلامُ يفـــترُّ عنْـــهُ ... كـــافترارِ الزنجـــيِّ عـــن أســـنانِهْ[3]

وقال أيضاً [في الحمام]:

قـلْ لهـذا الحَمَـامِ إنْ جَهِـلَ الحُبْـ ... ـــبَ أنـــا واقـــفٌ علـــى عِرْفَانِـــهْ

لمْ تُصِـبْهُ النَّـوَى بفقـدانِ خِـلٍّ ... فَيُـــرَى باكيـــاً علـــى فِقْدَانِـــهْ

فشـــدا في قضـــيبِ أَيْـــكٍ يُعَلّيـــ ... ـــهِ ويُدْنِيْـــهِ أَرْضَـــهُ مِـــنْ لِيَـــانِهْ

---

(١) الديوان:٢٣٣

(٢) الديوان: ١٨٨

(٣) الديوان: ٢٦٥-٢٦٦

وكـــأنَّ الـــرذاذَ فـــوقَ جناحَيْـــ ـــهِ جمـــانٌ يـــروقُ عنـــدَ اقْتِرَانِـــهْ[1]

وقال يحيى بن هذيل [في الرايات]:

وكـــأنَّ الرايـــاتِ وَهْـــيَ مَـــعَ الريـــ ـــحِ فـــؤادُ المَقْصُـــودِ في خَفَقَانِـــهْ[2]

وكـــأنَّ التِّجْفَـــافَ أَوْجُـــهُ أهـــلِ الـــ ـــكفرِ والبـــأسُ في لَظَـــى نِيْرَانِـــهْ

٢- الوصف وقال [في الشمعة]:

وقائمـــةٍ تَسْـــبي العقـــولَ بحســـنِهَا حَكَـــى قَـــدُّها فِي شَـــكْلِهِ قَـــدَّ كَاعِـــبِ

بكـــتْ بـــدموعٍ كالجمـــانِ فأصـــبحتْ تـــديرُ النـــدامى عـــنْ صِـــباحِ الكواعـــبِ

لهـــا جَسَـــدٌ مـــنْ خَـــالِصِ التِّـــبْرِ جامـــدٌ يُنـــاطُ إلى رأسٍ مـــنَ التِّـــبْرِ ذائـــبِ

تـــألّفَ منهـــا الضـــدُّ بالضـــدِّ فاغتـــدتْ لناظرِهـــا مـــنْ مُشـــكلاتِ العَجَائـــبِ[3]

وقال أيضاً [في وصف السيف]:

ومَـــــواتٍ حَتَّـــــى إذا حَرَّكَتْـــــهُ مِـــنْ جَنـــانِي إشـــارةٌ فَهـــوَ نَـــازِ

فيـــهِ مِـــنْ [صَـــفْحَتَيْهِ] مـــاءٌ ونـــارٌ خُلِطـــا فِيْهِمَـــا بِغَـــيْرِ انْحِيَـــازِ

كَيْـــفَ لا يَفْتِكـــانِ هـــذا بِهَـــذا مِثْـــلُ هـــذا بغايـــةِ الإعجـــازِ

وَيُصَـــلِّي عَلـــى الـــرُّؤُوسِ وَلكِـــنْ أَجْـــرُهُ قَطْعُهـــا مَـــعَ الأَحْـــوَازِ

مُشْـــرَئِبٌّ وَقَـــدْ أبَـــانَ ولكِـــنْ لَمْ تَنَلْـــهُ دِمـــاً مَـــعَ الإنجـــازِ[4]

وقال في وصف النهر[1]:

ومـــاءٍ كمثـــلِ الـــراحِ جـــارٍ يزيـــدُني نشـاطاً فيُجْرِي كـلَّ معنًى على ذهنِـي

يمـــرُّ علـــى حَصْـــبَائِهِ فكأنَّـــهُ صَفَا الدمعِ في عِقْدِ الفتاةِ التي أعنِي

---

(١) الديوان: ٢٦٧

(٢) الديوان: ٢٦٨

(٣) الديوان: ١٢٧

(٤) الديوان: ١٧٨

(١) الديوان: ٢٦٠

٣- الهجاء

وقال ابن هذيل في ابن قُزْمان:

فَـتىً بـاردُ الأشـعارِ يفظـعُ لفظُـهُ ... بِهَـا وهـوَ منحـوسُ الجبـينِ شـتيمُ

يقـرِّبُ وجهـاً منـكَ في خَلْـقِ قِرْبَـةٍ ... كـأنَّ انهـدالَ الأَنْـفِ مِنْـهُ قَـدُوْمُ

٤- المديح

وقال أيضاً ابن هذيل يمدح ويصف الناعورتَيْن بالزاهرة:

وأنـتَ ابتـدعتَ لنـاعورتينِ ... بـدائعَ أعيـتْ فمـا تُوصـفُ

هُمَـا ضَرّتـانِ كمثـلِ يـديكَ ... إذا جادَتَـا والحَيَـا مُغْـدِفُ

كأنّهمَـا طلعتَـا مُـزْنتينِ ... تَكُـدُّهما شَمْـأَلٌ حَرْجَـفُ

كأنّهمَـا مَنْكِبَـا يَـذْبُلٍ ... ولكـنَّ يَـذبلَ لا يَـدْلِفُ

كأنّهمَـا هيبـةٌ في العُيُـو ... نِ منـكَ فتغضـيْ ولا تَطْـرِفُ

كأنّهمَـا صـاحبا غِلْظَـةٍ ... وبينهمَـا عَاشِـقٌ مُلْطِـفُ

فمـنْ هـذهِ صـولةٌ تسـترابُ ... ومـنْ هـذهِ يحلُـمُ الأَحْنَـفُ

كـأنَّ الشـفانينَ والمُـفْصِحَاتِ ... مِـنَ الطـيرِ فوقَهُمَـا تهتِـفُ

وخافـتْ علـى محـدثاتِ الثمـارِ ... إذِ النهـرُ عـنْ سَـقْيِها يَضْـعُفُ

فمـدّتْ إلى أرضِـها ثَـدْيَها ... مـعَ السـدِّ فَهْـوَ الـذي يَرْشُـفُ

وبينهمَـا مَجْلِـسٌ للملـوكِ ... بِـهِ مِـنْ عزازتـهِ يُخْلَـفُ

عَلَـى قَاعِـهِ لُجَّـةٌ مِـنْ رُخَـامٍ ... يُغَـرَّقُ فيهـا ولا يُتْلَـفُ

يَلَـذُّوْنَ مِـنْ طَلِّهـا برشـاشٍ ... يُفيـقُ بِـهِ الهـائمُ المُـدْنِفُ

ويبطـئُ عَـنْ بَعْضِـهِ بَعْضُـهُ ... ولكـنْ مَـعَ الرَّيْـثِ لا يُخْلِـفُ

يرفـرفُ كالطـائرِ المسـتديرِ ... علـيهمْ ولكنّـهُ يَكْنُـفُ

فلـيسَ يشـكّونَ مِـنْ لِيْنِـهِ ... بـأنَّ نَثَـائِرَهُ تُنْـدَفُ[1]

---

(١) الديوان: ١٩٤ -١٩٥

الرمادي

أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي.

من كبار الشعراء الأندلسيّين المجدّدين في القرن الرابع الهجري

ذكر الحميدي أنّ الرماديّ نسبة إلى موضع بالمغرب[١]، وذكر ابن سعيد أنّ الرمادة من قرى شلب في الأندلس[٢]، وذكر ابن حيّان أنّه كان يعرف بأبي جنيش وهي بالإسبانيّة الرماد[٣]. وقال الحافظ الذهبي:«ومنهم من يلقّبه بأبي رماد»[٤].

عاش الرمادي في قرطبة ودرس في مساجدها كسائر أولاد قرطبة، «واكتسب صناعة الأدب»[٥] من الأديب الشاعر يحيى بن هذيل.

ولمّا جاء أبو عليّ القالي إلى قرطبة في أواخر شعبان سنة (٣٣٠هـ)[٦] واستقبل استقبال الفاتحين، مدحه الرمادي بقصيدة لاميّة مطوّلة مطلعها:

مَنْ حاكمٌ بيني وبينَ عذولي الشَجْوُ شَجْوي والعويلُ عويلي[٧]

وصار القالي أهمّ أساتذته، وقرأ عليه كتاب الأمالي، ثمّ رواه[٨].

وفي حياة الرمادي قصّة حبّ قصيرة عجيبة لفتاة اسمها خلوة، قال ابن حزم: «يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي كان مجتازاً عند باب العطّارين بقرطبة، وهذا الموضع كان مجتمع النساء، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه وتخلّل حبّها جميع أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازتها إلى الموضع

---

(١) جذوة المقتبس: ٣٥٨، ويقصد الأندلسيّون بالمغرب: الأندلس والمغرب معاً.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ١٩٥/١.

(٣) المقتبس (تح حجّي): ٧٤، وكذلك قال ابن بشكوال، الصلة: ٦٣٧.

(٤) تاريخ الإسلام: ٩٣/٢٨.

(٥) مسالك الأبصار: ٥.

(٦) المقتبس (ج٥): ٤٧٩.

(٧) شعر الرمادي: ١١١-١١٧.

(٨) الصلة: ٦٧٤.

المعروف بالربض. فلمّا صارت بين رياض بني مروان رحمهم الله المبنية على قبورهم في مقبرة الربض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن الناس لا همّة له غيرها فانصرفت إليه فقالت له: مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليته بها.

فقالت له: دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في النية ولا إلى ما ترغبه سبيل.

فقال: إنّي أقنع بالنظر. فقالت: ذلك مباح لك.

فقال لها: يا سيّدتي: أحرّة أم مملوكة؟ قالت: مملوكة. فقال لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة. قال: ولمن أنت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك ممّا سألت عنه، فدع المحال. فقال لها: يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كلّ جمعة. فقالت له: إمّا أن تنهض أنت وإمّا أن أنهض أنا فقال لها: انهضي في حفظ الله. فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنّها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلمّا تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

قال أبو عمرو، وهو يوسف بن هارون: فوالله لقد لازمت باب العطّارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعت لها على خبر ولا أدري أسماءٌ لحستها أم أرض بلعتها، وإنّ في قلبي منها لأحرّ من الجمر".

وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره،ثمّ وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سرقسطة في قصّة طويلة» [1].

ويكمل الحميدي القصّة على لسان صاحبها: « ورحلت إلى عبد الرحمن بن محمّد التجيبي صاحب سرقسطة ومدحته بالقصيدة الميميّة المشهورة فيه، وذكرت في تشبيبها خلوة، وحدّثته مع ذلك بحديثي، فوصلني بثلاث مائة دينار ذهباً ثمنها، سوى ما زوّدني عن نفقة الطريق مقبلاً وراجعاً، وعدت إلى قرطبة فلزمت الرياض جمعاً لا أرى لها أثراً، وقد

(١) طوق الحمامة: ١/١٢٠-١٢٢.

انطبقت سمائي على أرضي، وضاق صدري إلى أن دعاني يوماً رجل من إخواني فدخلت إلى داره، وأجلسني في صدر مجلسه ثمّ قام لبعض شأنه، فلم أشعر إلّا بالستارة المقابلة لي قد رفعت وإذا بها، فقلت خلوة؟ فقالت: نعم. قلت لأبي فلان أنت مملوكة؟ قالت: لا والله، ولكنّي أخته، قال: فكأنّ الله تعالى محا حبّها من قلبي، وقمت من فوري اعتذرت إلى صاحب المنزل بعارض طرقني وانصرفت!!»[1].

وعاش الرمادي حياة دعة ولهو، ومدح بعض كبار الدولة والولاة والأمراء[2]، ولكنّنا لا نعرف هل اتّصل بالخليفة عبد الرحمن الناصر الذي عاصره مدّة طويلة أم لا.

وقد ذكر الحميدي أنّ الرمادي مدح «الحكم المستنصر»[3] ولم يورد شيئاً من مدحه هذا، ولـمّا منع الحكم المستنصر الخمور في الأندلس قال قصيدته الشهيرة في رثاء الخمر متحدّياً الخليفة:

بِخَطْبِ الشَّارِبِيْنَ يَضِيقُ صَدْرِي وَتُرْمِضُنِي بَلِيَّتُهُمْ لَعَمْرِي[4]

وفي جمادى الآخرة من سنة (٣٦١هـ) أوقع صاحب مدينة الزهراء «بالعصبة البطرة من أهل قرطبة المستخفّين بالطاعة، الصائلين بذرب الألسنة.. رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والرتوع في أعراض الناس، ونشر مثالبهم في أشعار يجتمعون على صوغها ويتبارون فيها»[5].

ومن هؤلاء الرمادي وفي شعره ما يثبت بعض هذه التهم عليه كاستخفافه بالدين وفي شربه الخمر:

اشْرَبِ الكَأسَ يا نصيرُ وهَاتِ إنَّ هذا النهارَ مِنْ حَسَنَاتِي
بِأبي غُرَّةٌ تَرى الشَّخْصَ فيها في صَفَاءٍ أصْفَى مِنَ المِرْآةِ
تُسْرِعُ النَاسُ نحوَهَا بازدحامٍ كازْدِحَامِ الحَجِيْجِ في عَرَفَاتِ

(١) جذوة المقتبس: ٣٥٨-٣٥٩.
(٢) انظر شعر الرمادي: ٥٨، ٨٥-١٠٠، ١٢٢.
(٣) جذوة المقتبس: ٣٥٨.
(٤) شعره: ٧٢.
(٥) المقتبس (تح حجّي): ٧٣-٧٤.

هاتِـــهَا يـــا نُصَـــيْرُ إنَّـــا اجْتَمَعْنَـــا بِقُلُـــوْبٍ في الدِّيْـــنِ مُخْتَلِفـــاتِ[1]

ونسب إليه شعر في هجاء الحكم المستنصر يقول فيه:

يُـــوَلِّيْ ويعـــزلُ مـــنْ يومِـــهِ فـــلا ذا يَـــتِمُّ ولا ذا يَـــتِمْ[2]

ولوحق الرمادي فهرب ثمّ رأى أن لا وزر له فسلّم نفسه لصاحب المدينة، وسجن مدّة، قال ابن خاقان: « وشاعت عنه أشعار في دولة الخلافة وأهلها سدّد إليهم صائبات نبلها، وسقاهم كؤوس نهلها، أوغرت عليه الصدور ونفرت عليه المنايا، ولكن لم يساعدها المقدور فسجنه الخليفة دهراً وأسلكه من النكبة وعراً، فاستعطفه أثناء ذلك واستلطفه وأجناه كلّ زهر من الإحسان وأقطفه فما أصغى إليه، ولا ألغى موجدته عليه، وله في السجن أشعار صرّح فيها ببثّه، وأفصح فيها عن جلّ الخطب لفقد صبره ونكثه،... وقال في السجن:

نســـائلُهَا هـــلَّا كفـــاكَ نحولُـــهُ ونَصْـــبَتُهُ أو دمعُـــهُ وهمولُـــهُ

ومنها:

وأقـــبلنَ مـــنْ نحـــوِ الحبيـــبِ كأنَّمـــا تحاشـــدَ نحـــوِي جفنُـــهُ ونُصُـــوْلُهُ
دعـــونِي أشـــمْ بالبـــابِ بـــرقَ أحبّـــتِي قوامـــاً فلـــمْ يســـمعْ بـــذاكَ وكيلُـــهُ
يعـــمُّ فـــلا يـــألوا حصـــاراً لعلَّـــهُ ســـيودِي فيـــودِي بثُّـــهُ وأَلِيْلُـــهُ
فلـــوْ كـــانَ في هَـــذا الحصـــارِ سَـــمِيُّهُ لأنســـاهُ طـــولَ الســـبعِ في اليـــومِ طولُـــهُ
لَقَـــدْ راعَـــني ســـجْنِي فشـــطَّ ولـــو دَنَـــا مـــن الســـجنِ لم يســـهلْ علـــيَّ دخولُـــهُ
يعـــزُّ علـــى الـــوَرْدِ النضـــيرِ حلولُـــهُ وَلَـــمْ يَـــكُ عنـــدَ المســـتهامِ نزولُـــهُ[1]

وقد كان يهزل حتّى هو في سجنه، ولكنه بعد أن طال سجنه أحسّ بوطأة السجن وصعوبة الفراق وقسوة الوحدة، فصار يمدح الحكم المستنصر ويتشفّع بوليّ عهده في

(١) شعره: ٥٦-٥٧.
(٢) شعره: ١١٨.
(١) مطمح الأنفس: ٣١٧-٣١٩.

قصائد كثيرة يبدؤها بوصف بعض الطيور المعروفة حتّى تكوّن منها قدر كبير وضعه في كتاب، قال الحميدي «وعمل في السجن كتاباً سماه كتاب الطير في أجزاء، وكلّه من شعره، وصف فيه كلّ طائر معروف، وذكر خواصّه وذيل كلّ قطعة يمدح وليّ العهد هشام ابن الحكم، مستشفعاً به إلى أبيه في إطلاقه، وهو كتاب مليح سبق إليه، وقد رأيت النسخة المرفوعة بخطّه ونسخت منها »[1] وقد ضاع هذا الكتاب بقضّه وقضيضه، ومن أهمّ شعره في السجن قوله:

هَبُوا أنَّ سجني مانعٌ لوصالِهِ ... فما الخطبُ أيضاً في امْتِنَاعِ خيالِهِ

نعمْ لم تنمْ عيني فيطرقَ طيفُهُ ... زوالُ منامِي علّةٌ لزوالِهِ

ومنه:

ويا سيّدي عبدٌ دعاكَ مُعوِّلاً ... عليكَ ولم يخطرْ سواكَ ببالِهِ

وهلْ يستعينُ المرءُ منْ قعرِ هُوَّةٍ ... لإخراجِهِ إلَّا بأقوَى حبالِهِ

وأنتمْ أناسٌ فضلهمْ غامرُ الورَى ... فما بالُ مِثْلِي داثِراً في انخمالِهِ

أأبصرتموهُ شافِعاً بسواكُمُ ... وأنتمْ بعيدٌ وهْوَ في ضِيْقِ حالِهِ

وإذْ صارَ سعدٌ وابنُهُ مَعْقِلاً لَهُ ... فما العذرُ من إطلاقِهِ منْ عِقَالِهِ[2]

ثمّ خرج الرمادي من السجن في عهد الحكم المستنصر، وانضوى تحت رعاية الحاجب المصحفي واختص به[3]، وتوفّي الحكم سنة (٣٦٦هـ)، ومدح الرمادي «الملوك والرؤساء بعده»[1].

وذكر ابن سعيد عن الرمادي أنّه «هو من مدّاح المنصور بن أبي عامر»[2] وإن كنّا لا نجد شيئاً من مديحه له، وثمّة خبر يسير له مع المنصور تفرّد شهاب الدين المقّري بإيراده:

---

(١) جذوة المقتبس: ٣٦٠.

(٢) شعره: ١٠٨، ١١٠، وانظر: ٩٢، ٩٣.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١٧.

(١) جذوة المقتبس: ٣٦١.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ٣٩٤/١.

«وقال المنصور بن أبي عامر للشاعر المشهور أبي عمر يوسف الرمادي: كيف ترى حالك معي فقال: فوق قدري ودون قدرك.

فأطرق المنصور كالغضبان، فانسلّ الرمادي وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل يقول: أخطأت، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحقّ، ما كان ضرّني لو قلت له: إنّي بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء، وأنشدته:

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلفِ حاجةً لنفسي إلّا قدْ قضيتُ قضاءَها[1]

...

لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ولـمّا خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد فرصة فقال:... ثمّ أمر أن يردّ الرمادي وقال له: أعد عليّ كلامك.

فارتاع، فقال: الأمر على خلاف ما قدّرت، الثواب أولى بكلامك من العقاب،فسكن لتأنيسه، وأعاد ما تكلّم به.

فقال المنصور: بلغنا أنّ النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدرّ لكلام استحسنه منه، وقد أمرنا لك بما لا يقصّر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة؛ وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيّش منه»[2].

وامتدّ العمر بالرمادي حتّى شهد بداية عصر الفتنة وقاسى ويلاتها، واشتدّ افتقاره، «ومات في بعض تلك الشدائد»[1]

وحدّد ابن حيّان فقال «وتوفّي سنة ثلاث وأربعمئة يوم العنصرة فقيراً معدماً، ودفن بمقبرة كلع»[2].

---

(١) البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه: ٤٩.

(٢) نفح الطيب: ٣/٣٦٤-٣٦٥.

(١) جذوة المقتبس: ٣٦١.

(٢) الصلة: ٦٧٤، وفي هذه السنة دخل البربر قرطبة واستباحوها وأهلها. وانظر وفيات الأعيان ٧/٢٢٧، ونفح الطيب: ٤/٣٦.

شعره:

اشتهر قول الحافظ الحميدي في الشاعر الرمادي إنّه « شاعر قرطبي، كثير الشعر، سريع القول، مشهور عند العامّة والخاصّة هنالك، لسلوكه في فنون من المنظوم، ونفق عند الكلّ حتّى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة، وختم بكندة، يعنون امرأ القيس، والمتنبّي، ويوسف بن هارون، وكانا متعاصرين»[(١)].

فالرمادي كان ينهج نهج الشعر المحافظ الجديد في المديح مع سهولة ووضوح وينهج نهج المُحْدَثين في سائر شعره، بل يصل إلى ما يشابه النمط الشعبي، لذلك أعجب به الخاصّة والعامّة بل إنّه كان من أهمّ مطوّري الموشّح ذلك الفنّ الشعبي ؛ كما ذكر ابن بسّام[(٢)].

واستفاد ابن خاقان من قول الحافظ الحميدي السابق وصاغه بعباراته المسجّعة فقال «شاعر مفلق، انفرج له من الصناعة المغلق، وومض له برقها المؤتلق، وسال به طبعه كالماء المندفق، فأجمع على تفضيله المختلف والمتّفق، فتارة يحزن وأخرى يسهل، وفي كلتيهما بالبديع يعلّ وينهل، فاشتهر عند العامّة والخاصّة بانطباعه في الفريقين، وإبداعه في الطريقين، وكان هو وأبو الطيّب متعاصرين، وعلى الصناعة متغايرين، وكلاهما من كندة، وما منهما إلّا من اقتدح في الإحسان زنده، وما قصّر عنه إحسان، ولا جاز بينهما تفضيل إنسان»[(٣)].

والحقّ أنّ هذا من مبالغات الأندلسيّين، ومن تعصبهم لأدبائهم وشعرائهم خاصة، وقد ردّ على ذلك الحافظ أبو طاهر السلفي (ت ٥٧٦هـ) ردّاً قاسياً غير معلّل فقال: «والأندلسيّون يقولون هذا القول لكن يقيمون يوسف بن هارون الرمادي مقام المتنبّي، ويوسف أندلسي ما هو حسن النظم»[(١)].

---

(١) جذوة المقتبس: ٣٥٨.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٤٦٩/١/١.

(٣) مطمح الأنفس: ٣١١-٣١٢.

(١) معجم السفر: ٤٣٤.

والحق أنّنا لا نستطيع الموازنة بينه وبين المتنبّي إذ ضاعت أغلب قصائده، ولم يبق سوى عدد نزر منها، وأغلب ما بقي من شعره الذي يقارب (٦٠٠) بيت هو التف والمقطّعات، وفيها يتفّوق على ما بقي من قصائده بمعانيه الجديدة وصوره المبتكرة المؤثّرة، مع رقّة وعذوبة في الألفاظ.

وتتبدّى في شعره الحضاريّة والبيئة الأندلسيّة الطبيعيّة والاجتماعيّة الجديدة ممّا حقّق له هذا القبول من الناس حتّى قال فيه ابن بشكوال «كان شاعر أهل الأندلس المشهور والمقدّم على الشعراء»[١]. وحدّد الذهبي ودقّق فقال «شاعر الأندلس في عصره»[٢].

أغراض شعره

١- المديح

مَنْ حاكمٌ بَيْني وبينَ عذولِي ... الشَّجْوُ شَجْوي والعَويلُ عويلي[٣]

في أيِّ جارحةٍ أصونُ مُعَذِّبِي ... سَلِمَتْ مِنَ التَّعذيبِ والتَّنكيلِ

إنْ قلتُ في بَصَرِي فَثمَّ مَدَامعِي ... أو قلتُ فيْ كَبِدِيْ فثمَّ غليلِي

وثلاثُ شَيْبَاتٍ نَزَلنَ بمفرقِي ... فعلمتُ أنَّ نزولهنَّ رحيلِي

طلعتْ ثلاثٌ في نزولِ ثلاثةٍ ... واشٍ ووجهِ مراقبٍ وثقيلِ

فعزَلْنَنِي عنْ صبوتِي مُتذلّلاً ... ولقدْ سمعتُ بذلّةِ المعزولِ

إنْ كنتُ ودعت الصبابة عن قلى ... وبدتْ برأسيْ حجّةٌ لعذولِ

قدْ أغتديْ والصُّبحُ في توريسِهِ ... تقضِي العيونُ لهُ بوجهِ عليلِ

بأقبَّ لونِ الآبنوسِ مفضَّضٍ ... في غرّةٍ منهُ وفيْ تحجيلِ

يزهَى بتجليةِ اللِّجامِ كَمَا زَهَا ... مَلِكٌ محلَّى الرَّأْسِ بالإكليلِ

---

(١) الصلة: ٦٧٤.

(٢) تاريخ الإسلام: ٩٣/٢٨.

(٣) شعر الرمادي: ١١١-١١٧، يتيمة الدهر: ١ / ١٨٦.

مستغرِقٌ لصفاتِ زيدِ الخيلِ والـ ... غَنَويِّ والمُزَنِيِّ والضِّلِّيلِ

ومنها:

حتّى إذا صدنا الوحوشَ فلمْ ندعْ ... منهنَّ غيرَ معالمٍ وطلولِ
ونهتْ محافظةُ الحِسانِ فلمْ تصلْ ... كفِّي إلى ظَبيٍ أَغنَّ كَحيلِ
ومكبَّلٍ لم يجترمْ جُرْماً ولا ... دامَتْ صحابتُهُ بغيرِ كبولِ
متلفّتٌ كتلفّتِ المرتاعِ يَقْـ ... ـسمُ لحظَهُ في الحولِ بعدَ الحَولِ
حتّى إذا ما السربُ عنَّ للحظهِ ... أومَى بقادمتِيهِ خلِّ سبيلي
ولَّتْ جماعتُها وشدَّ وراءَهَا ... وكأنَّهُ بطلٌ وراءَ رعيلِ
عجلتْ وأدركَها ردى في إثرِها ... إنَّ الردى قيدٌ لكلِّ عجولِ
ولقدْ غدوتُ بأهرتٍ متضائلٍ ... سرَّ النفوسَ إليهِ غيرِ ضئيلِ
ولربَّما اشتمَّ الصعيدَ بأنفِهِ ... حيناً فقامَ لهُ مقامَ دليلِ
متتبّعٌ لظلالِهِ فكأنَّهُ ... في القيظِ يطلبُ ظلَّهُ لمقيلِ
فنزلتُ في فرشِ الرياضِ ولمْ يكنْ ... ليحوزَهَا مثلِي بغيرِ نزولِي
روضٌ تعاهدَهُ السحابُ كأنَّهُ ... متعاهَدٌ منْ عِلْمِ إسماعيلِ
قِسْهُ إلى الأَعْرَابِ تعلمْ أنَّهُ ... أوْلى مِنَ الأَعْرَابِ بالتفضيلِ
حازتْ قبائلُهمْ لغاتٍ جمُّعتْ ... فيهمْ وَحَازَ لغاتِ كلِّ قبيلِ
فالشرقُ خالٍ بعدَهُ فكأنَّما ... نزلَ الخَرابُ بربعِهِ المأهولِ
جمعُوا بغيبتِهِ وموتِ شيوخِهِ ... عنهمْ ولمَّا يظفرُوا ببديلِ
مُذْ جاءَهمْ وهمْ بليلِ همومِهِمْ ... منهُ فصاروا في دجىً موصولِ
فكأنَّهُ شمسٌ بدَتْ في غربِنا ... وتغرَّبَتْ في شرقِهِمْ بأُفولِ
يَا سيِّدِي هَذَا ثنائِي لمْ أقلْ ... زوراً ولا عَرَّضْتُ بالتنويلِ
مَنْ كَانَ يَأْمُلُ نَائِلاً فَأَنَا امْرُؤٌ ... لَمْ أَرْجُ غيرَ القُرْبِ في تَأْمِيْلِي

٢- الغزل

وإنِّي لأغضي الطَّرْفَ عنكِ جَلَالَةً ... وخَوْفاً عَلَى خَدَّيْكِ مِنْ لَحَظَاتِي

ولَوْ أَنَّنِي أَهْمَلْتُ عيني بِأَنْ تَرَى ... سناكِ لحالتْ دُوْنَهَا عَبَرَاتِي

رأيتُ وشاةَ الكاشحينَ أباعداً ... ولكنَّ دمعيْ مِنْ عديدِ وُشَاتِي

زعمتِ بأنِّي حِلْتُ عنكِ ولم أكنْ ... أُعَنِّيْكِ في بثِّيْ وفي حَسَرَاتِي

وهلْ أَنَا إلَّا طَالِبٌ لِمَنِيَّتِي ... إذا حلتُ عَمَّنْ فِي يَدَيْهِ وَفَاتِي [1]

وقال:

خليليَّ عيني في الدموعِ فَعَايِنَا ... إلَى أَيْنَ يَقْتَادُ الفِرَاقُ الظَّعَائِنَا

ولَمْ أَرَ أَحْلَى مِنْ تَبَسُّمِ أعينٍ ... غداةَ النَّوَى عَنْ لؤلؤٍ كَانَ كَامِنَا [2]

٣- الخمر

بِخَطْبِ الشَّارِبِيْنَ يَضِيْقُ صَدْرِي ... وَتَرْمُضُنِي بَلِيَّتُهُمْ لَعَمْرِي

وهلْ همْ غَيْرُ عشّاقٍ أُصِيْبُوا ... بِفَقْدِ حبائبٍ ومُنُوا بِهَجْرِ

أعشَّاقَ المدامةِ إنْ جزعتُمْ ... لفرقتِهَا فَلَيْس مكانَ صَبْرِ

سَعَى طلَّابُكُمْ حتَّى أُرِيْقَتْ ... دماءٌ فوقَ وجهِ الأرضِ تَجْرِي

تضوَّعَ عرفُهَا شرْقاً وغرْباً ... وطبَّقَ أُفْقَ قرطبةٍ بِعِطْرِ

فقلْ للمسفحينَ لَهَا بِسَفْحٍ ... ومَا سكنتْهُ مِنْ ظَرْفٍ بِكَسْرِ

وللأبوابِ إحراقاً إلَى أَنْ ... تَركتمْ أَهْلهَا سكَّانَ قَفْرِ

تحرَّيْتُمْ بذاكَ العدْلِ فِيْهَا ... بزعمكمُ فإنْ يَكُ عَنْ تَحَرٍّ

فإنَّ أبَا حنيفةَ وَهْوَ عَدْلٌ ... وفَرَّ عنِ القضاءِ مسيرَ شَهْرِ

فقيهٌ لا يُدانيهِ فقيهٌ ... إذَا جاءَ القياسُ أتَى بِدُرِّ

---

(١) شعره: ٥٦.

(٢) شعره: ٥١.

وكـــانَ مـــنَ الصـــلاةِ طويـــلَ ليـــلٍ ... يُقَطِّعُـــهُ بِـــلَا تغمـــيضِ شَفْـــرِ
وكـــانَ لـــهُ مـــنَ الشُـــرَّابِ جَـــارٌ ... يواصـــلُ مَغْرِبـــاً فيهَـــا بِفَجْـــرِ
وكـــانَ إذَا انْتَشَـــى غَـــنَّى بصـــوتِ الـــ ... ـــمُضَاعِ بســـجنِهِ مِـــنْ آلِ عَمْـــرِو
أَضَـــاعُونِي وأَيَّ فـــتًى أَضَـــاعُوا ... ليـــومِ كريهـــةٍ وسَـــدَادِ ثَغْـــرِ
فغيَّـــبَ صـــوتَ ذاكَ الجـــارِ ســـجنٌ ... ولَمْ يكـــنِ الفقيـــهُ بـــذاكَ يَـــدْرِي
فقـــالَ وقـــدْ مضَـــى ليـــلٌ وثـــانٍ ... ولَمْ يَسْـــمَعْهُ غَـــنَّى لَيْـــتَ شِعْـــرِي
أجـــاري المؤْنِسِـــي لـــيلاً غنـــاءً ... لخـــيرٍ قَطْـــعُ ذلـــكَ أَمْ لِشَـــرِّ
فقـــالوا إنَّـــهُ في ســـجنِ عِيْسَـــى ... أتـــاهُ بـــهِ المحـــارسُ وَهْـــوَ يَسْـــرِي
فنـــادَى بالطويلـــةِ وهـــيَ ممَّـــا ... يكـــونُ برأسِـــهِ لجليْـــلِ أَمْـــرِ
ويَـــمَّمَ جَـــارَهُ عِيْسَـــى بـــنَ مُوْسَـــى ... فلاقـــاهُ بـــإكرامٍ وبِـــرِّ
وقـــالَ أحاجـــةٌ عرضـــتْ فـــإنِّيْ ... لَقَاضِـــيْهَا ومُتْبِعُهَـــا بِشُـــكْرِ
فقـــالَ ســـجنتَ ليْ جَـــاراً يُسَـــمَّى ... بِعَمْـــرٍو قَـــالَ: يُطْلَـــقُ كـــلُّ عَمْـــرِو
بســـجني حـــينَ وافقـــهُ اســـمُ جـــارِ الـــ ... ـــفقيهِ ولـــوْ ســـجنتهمُ بِوِتْـــرِ
فـــأطلقهمْ لـــهُ عيسَـــى جميعـــاً ... لجـــارٍ لايبيـــتُ بغـــيرِ سُـــكْرِ
فـــإنْ أحببـــتَ قـــلْ لجـــوارِ جـــارٍ ... وإنْ أحببـــتَ قـــلْ لطـــلابِ أَجْـــرِ
فـــإنَّ أَبَـــا حنيفـــةَ لَمْ يَـــؤُبْ مِـــنْ ... تَطَلُّبِـــهِ تَخَلَّصَـــهُ بِـــوِزْرِ
نواقِعُهَـــا مِـــنَ اجْـــلِ النَهْـــيِ سِـــرّاً ... وَكَـــمْ نَهْـــيٍ نُوَاقِعُـــهُ بِجَهْـــرِ [1]

وقال:

قَـدْ صَـحَونا عَلـى الشَـرابِ عَلـى فَـرْ ... طِ اِشـتياقٍ إِلَيْـهِ إِذْ أَنْـتَ صَـاحِ [2]
غَـيرَ أَنِّي عُوِّضـتُ مِـنْ شُـرْبِ كَـاسٍ ... قَهْـوَةَ الرِّيْـقِ في كـؤوسِ الأَقَـاحِي
مَـا فُجَعْنَـا بِـالرَّاحِ كَأْسـاً بِكَـأْسٍ ... مِـنْ ثُغُـوْرٍ فِـيْهِنَّ رَاحٌ كَـرَاحِ

---

(١) شعره:٧٣ – ٧٥.

(٢) شعره: ١٠١.

٤- الرثاء

تَأَمَّلْتُ مِنْ بَيْنِ الدُّمُوعِ كَأَنَّمَا ... تَأَمَّلْتُ مِنْ بَيْنِ السَّحَابِ المَوَاطِرِ
مَحَلَّ أَبِي العَبَّاسِ حَيْثُ عَهِدْتُهُ ... لَعَلَّ أَبَا العَبَّاسِ يَبْدُوْ لِنَاظِرِي
فَلَمَّا انْثَنَتْ عَيْنِي وَلَمْ تَرَ شَخْصَهُ ... رَجَعْتُ إِلَى تِمْثَالِهِ فِي خَوَاطِرِي
كَأَنَّا تَمَتَّعْنَا لِقِلَّةِ عُمْرِهِ ... بِلَمْحَةِ بَرْقٍ أَوْ بِلَمْحَةِ طَائِرِ
فَإِنْ يَتَّخِذْ بَيْنَ المَقَابِرِ مَوْطِناً ... فَأَوْطَانُنَا مِنْ بَعْدِهِ كَالمَقَابِرِ[1]

٥- الهجاء

فَلَيْسَ كَمَنْ إِنْ تَسَلْهُمْ عَطَاءً ... يَمُدُّوا أَكُفَّهُمْ لِلْعَطَاءِ
إِذَا جِئْتَهُمْ بِالمَدِيْحِ انْزَوَوا ... كَأَنَّكَ تَأْتِيْهِمْ بِالهِجَاءِ[2]

وقال:

أَبا حاتم ما أَنتَ حاتمُ طَيِّءٍ ... وَما أَنتَ إِلا حاتمُ الحَدَثَانِ
خطبتَ فَفَرَّقتَ الجَميع بلكنَةٍ ... فَما الظَنُّ لَو تُعطى بَيانَ لِسانِ
كَأَنَّهُمُ مِن سُرعَةِ البَينِ أودِعُوا ... جَناحيك وَاستُحثِثْتَ للطيرانِ[3]

٦- الوصف

وقال يفضل الورد على سائر الأنوار:

لِلآسِ والسوسَنِ وَالياسمي ... ـن الغَضِّ وَالخَيْرِيِّ فَضْلٌ شَدِيْدْ
سادَت بِهِ الرَّوضُ وَمِن بَينِها ... وَبَينَ فَضلِ الوَردِ بَونٌ بَعيدْ
هَل لَكَ في الآسِ سِوى شَمَّةٍ ... تَطرحُه مِن بَعدِها في الوقُودْ
وَالوَردُ إِن يُذبل فَفي مائِهِ ... نسيمُ ضَمِّ الإِلفِ بَعدَ الصُّدودْ

---

(١) شعره:٧٦.
(٢) شعره:٥١.
(٣) شعره: ١٢٨.

وَالسَّـــوءُ في السَّوســـنِ عـــامٌ وَفي ... ســـاعةِ ســـوءٍ قَـــدْ تُـــزارُ اللحـــودْ
وَاليـــاسمينُ اليـــاسُ في بدئِـــهِ ... فَهـــوَ لِمَـــن يَطمَـــعُ هـــمٌّ عَتيـــدْ
أَخـــلَّ بِـــالخَيري خُلـــقٌ كَخُلـــ ... ـــقِ اللـــصِّ يَسْـــتَيْقِظُ بَعْـــدَ الهجـــودْ
فَـــالوَردُ مَـــولى الـــرَّوض لَكنَّـــهُ ... في قَـــدرِهِ عَبْـــدٌ لِـــوردِ الخُـــدودْ [1]

وقال في الحسّون أم الحسن:

وَخَرســـاءَ إِلّا في الرَّبيـــع فَإِنَّهـــا ... نَظـــيرَةُ قُـــسٍّ في العُصـــور الـــذَّواهِبِ
أَتَـــتْ تَمـــدحُ النـــوارَ فَـــوقَ غُصـــونِها ... كَمـــا يَمـــدَحُ العُشـــاقُ حُسْـــنَ الحَبائِـــبِ
تُبـــدِّلُ أَلحانـــاً إِذا قيـــلَ بـــدِّلي ... كَمـــا بَـــدَّلَت ضَـــرباً أَكـــفُّ الضـــوارِبِ
تُغَـــنّي عَلَينـــا في عروضـــين شـــعرَها ... وَلَكـــنَّ شـــعراً في قَـــوافٍ غَرائِـــبِ
إِذا اِبتـــدأت تنشـــدكَ رجـــزاً وَإِن تَقـــلْ ... لَهـــا بَـــدِّلي تُنشِـــدْكَ في المتقـــارِبِ
وَلَـــيسَ لَهـــا تيـــه الطُّـــراءِ بِصَـــوتِها ... وَلَكـــنْ تُغَـــنِّي كُـــلَّ صـــاحٍ وَشـــارِبِ [2]

وقال في وصف مجلس أصابه طلّ:

نَـــوْرٌ وغَيْـــثٌ مُسْـــبِلُ ... وقهـــــوةٌ تُسَلْسَـــــلُ
تـــــدورُ بـــــينَ فتيـــــةٍ ... بخَلْقِهِـــــمْ تُمَثَّـــــلُ
فالغيـــثُ مـــنْ ســـحابِهِ ... طَـــلٌّ ضـــعيفٌ يَنْـــزِلُ
كأَنَّـــــهُ بُـــــرَادَةٌ ... مِـــنْ فِضَّـــةٍ تُغَرْبَـــلُ [1]

وقال أيضاً:

وَتَنَعَّمـــتُ في خُـــدودٍ صِـــباحٍ ... زائِـــداتٍ عَلـــى بَيـــاضِ الصَّـــباحِ [2]
صـــارَ فيهـــا الخـــيلانُ في الـــوَردِ شـــبهاً ... لِلغَـــوالي في أَحمَـــرِ التُّفـــاحِ

---

(١) شعره: ٦٢– ٦٣.
(٢) شعره: ٥٤ –٥٥.
(١) شعره: ١٠١.
(٢) شعره: ٦١.

ابن درّاج القسطلّي

لعلّ أطول سلسلة نسب لابن درّاج نجدها لدى ابن خلّكان، إذ يقول هو: أحمد بن محمّد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن درّاج؛ أبو عمر القسطلّي[1]

كان من أسرة سريّة ثريّة حتّى إنّ مدينته قسطلّة كانت تعرف عند الأندلسيّين باسم قسطلّة درّاج، لأنّ درّاجاً الجدّ الأعلى للشاعر وبنيه تداولوا على رياستها؛ كما يقول ابن سعيد [2].

وهم من أصول بربريّة عريقة؛ إذ ينتمون إلى قبيلة صنهاجة، وقد دخلوا إلى الأندلس في وقت مبكّر من فتح الأندلس[3] وامتزجوا بأهلها حتّى إنّنا لا نكاد نجد أثراً لأصل ابن درّاج البربري في شعره، بل هو يهجو بعض زعماء البربر الذين يعادون المنصور؛ فقد هجا زيري بن عطية المغراوي:

إذَا نَفَثَتْ في زَوْرِ زِيرِي حُماتُها فَوَيْلٌ لهُ من نَكْزِها وأَلِيلُ[4]

أمّا القسطلّي فهي نسبة إلى بلدة قسْطَلّة، وهي من أعمال جيّان، وجعلها ابن سعيد في الكتاب الثاني من الكتب التي يشتمل عليها كتاب المملكة الجيّانيّة وهو كتاب: "السراج في حلى قسطلّة درّاج" [1].

ولد أبو عمر ابن درّاج في شهر محرّم سنة ٣٤٧ هـ [2]، أي في أواخر عهد الخليفة الأوّل والأقوى عبد الرحمن الناصر لدين الله، وهو أزهى عهود الدولة الأمويّة في الأندلس.

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ١/ ١٣٥، وانظر كذلك: النجوم الزاهرة: ٤ / ٢٧٤.

٢- المغرب في حلى المغرب: ٢ / ٦٠.

٣- جمهرة أنساب العرب: ٥٠١

٤- ديوان ابن درّاج القسطلّي: ٥.

١- المغرب في حلى المغرب: ٢ / ٦٠.

٢- الصلة: ٤٠.

ولا نكاد نعرف شيئاً عن نشأته وترعرعه وتعلّمه، ولا نعلم أحداً من أساتذته إلّا أنّ ثقافة ابن درّاج التي تظهر في شعره بشكل لافت وتصدّره لتدريس اللغة والأدب والنسب يدلّان على تضلّعه من العلوم المعروفة في عصره.

وذكر لسان الدين ابن الخطيب اسم ابن درّاج بين الشعراء الذين كانوا مع الحاجب المنصور في غزوته إلى برشلونة سنة (٣٧٤ هـ) [١].

بيد أنّ الحميدي أشار إلى أن أوّل اتّصال لابن درّاج مع المنصور كان في حدود سنة (٣٨٢ هـ) حين أنشده قصيدته الهائيّة التي عارض بها قصيدة أبي العلاء صاعد بن الحسن نديم المنصور، والأصح قبل ذلك، قال الحميدي: «وأوّل من مدح من الملوك فالمنصور أبو عامر محمّد ابن أبي عامر مدبّر دولة هشام المؤيّد، وأوّل شعر مدحه فقوله يعارض أبا العلاء صاعد بن الحسن اللغوي بقصيدة أوّلها:

أَضَاءَ لها فجْرُ النُّهَى فَنَهاها ... عنِ الدَّنِفِ المُضْنَى بِحَرِّ هواها

وضَلَّلَها صُبْحٌ جَلَا ليلةَ الدُّجَى ... وقدْ كانَ يَهْدِيها إليَّ دُجاها

وهي طويلة مستحسنة، فساء الظنّ بجودة ما أتى به من الشعر، واتّهم فيه، وكان للشعراء في أيّام المنصور أبي عامر ديوان يرزقون منه على مراتبهم ولا يخلّون بالخدمة بالشعر في مظانّها، فسُعِيَ إلى المنصور، وأنّه منتحل سارق لا يستحقّ أن يثبت في ديوان العطاء، فاستحضره المنصور عشيَّ يوم الخميس لثلاث خلون من شوّال سنة اثنتين وثمانين وثلاثمئة، واختبره واقترح عليه، فبرّز وسبق، وزالت التهمة عنه، فوصله بمئة دينار، وأجرى عليه الرزق وأثبته في جملة الشعراء، ثمّ لم يزل يسهر ويجوّد شعره فيما بعد؛ وفي ذلك المجلس بين يدي المنصور أبي عامر محمّد بن أبي عامر قال القصيدة المشهورة التي أوّلها[١]:

حَسْبِي رِضاكَ من الدَّهْرِ الَّذي عَتَبَا ... وعَطْفُ نعماكَ للحَظِّ الَّذي انْقَلَبَا

١- الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢ / ١٠٧.

١- في الديوان: وجود كفّيك.

وهي طويلة حسنة كرّر فيها المعنى الذي استحضر من أجله، وتكذيب الدعوى التي قذف بها» [1].

وصار من أهمّ كتّاب الرسائل في ديوان المنصور، وأحد أعظم الشعراء الذين يرافقونه في حلّه وترحاله وفي سلمه وحربه، ويسجّلون انتصاراته ومآثره وأحداث عصره، وجهاده في الثغور الشماليّة كقوله عند وفود ملك البشكنس (إمارة نبارة) شانجة بن غرسية على قرطبة مذعناً للمنصور، وملقياً له ذمام الطاعة بعد نكوثه مراراً، فاستقبله المنصور استقبالاً رائعاً في الثالث من رجب سنة (٣٨٢ هـ):

ألاَ هَكَـذَا فَلْيَسْـمُ للمجـدِ مَـنْ سَـمَا ... ويَحْـمِ ذِمـارَ الملـكِ والـدينِ مَـنْ حَمَـى

...

ولله يـــا منصـــورُ آراؤُكَ الـــتي ... بنيـتَ بهـا نحـوَ الكواكـبِ سُـلَّما
وهـذا عظيمُ الشِّرْكِ قـدْ جـاءَ خاضِعاً ... وألقَـــى بكفَّيْـــهِ إليـــكَ مُحَكِّمـــا
سـليلُ ملـوكِ الكفـرِ في ذِرْوَةِ السَّـنَا ... ووارِثُ مُلـكِ الـرُّومِ أقْـدَمَ أَقْـدَما
توسَّـطَ أنسـابَ القياصِـرِ فـانتمى ... مـن الصِّـيدِ والأَمـلاكِ أَقْـرَبَ مُنْتَمـى [2]

وقد بقي لنا من شعر ابن درّاج في المنصور (٣٢) قصيدة ومقطّعة هنّأه بالأعياد والمناسبات في بعضها وسجّل فتوحاته وغزواته في بعضها الآخر، ولا تقتصر مهمّة ابن درّاج على تهنئة المنصور بالفتوح شعراً بل إنّه – بوصفه كاتباً مترسّلاً – يقوم بإنشاء كتب البشرى بالفتح التي ترسل إلى قرطبة وسائر الأمصار، ومن ذلك ما ذكره الحميدي[1] أنّ المنصور استدعى الأديبين عبد الملك الجزيري وابن درّاج بعد غزوة شنتياقب في منطقة جلّيقيّة وكلّفهما بإنشاء كتاب الفتح على لسان المنصور إلى الخليفة هشام بن الحكم في حضرة قرطبة وإلى سائر الأعمال.

١– جذوة المقتبس: ١١٣ – ١١٤.

٢– الديوان: ٣٣٥، ٣٣٦، وانظر أعمال الأعلام: ٧٣ – ٧٤.

١– جذوة المقتبس: ١١٤.

عاش ابن درّاج في عهد المنصور حياة هانئة مستقرّة حتّى توّفي المنصور سنة (٣٩٢ هـ) فولي بعده ابنه الحاجب المظفّر عبد الملك حتّى سنة (٣٩٩ هـ)، وكان عهده – أيضاً – عهد رخاء وازدهار واستقرار بفضل أبيه المنصور، ولكنّ المظفّر لم يكن كأبيه قوّة وهيبة، ولا محبّة بالأدب وشغفاً بالشعر، لأنّه لم يكن ذا ثقافة وبصر بالأدب، وكان أقلّ إنفاقاً وبذلاً من أبيه، ولكنّه أبقى على ما كان عند أبيه من الأدباء والعلماء وبقي ابن درّاج أحد أهمّ أدباء البلاط وأكبر شعرائه وكتّاب إنشائه، واستمرّ في تسجيل فتوحه وغزواته وتهنئته بانتصاره الدائم كما في غزوة المظفر سنة (٣٩٥هـ) في أرض مملكة ليون، قال ابن درّاج:

لَـئِنْ سـرَّتِ الـدنيا فأَنـتَ سُـرُوُرُها وإنْ سَـطَعَتْ نُـوراً فوجهُـكَ نورُهـا[1]

ولعلّ عدم اهتمام المظفر بالشعراء كأبيه ألجأ ابن درّاج إلى مدح بعض وزراء المظفّر كالوزير عيسى بن سعيد المعروف بابن القطّاع، وفي أثناء مدحه له تتبدّى شكوى صريحة من الحرمان وقلّة العطاء، يقول ابن درّاج:

أَفِي مثلِهـا تنبـو أيَادِيـكَ عـنْ مثلِـي وهـذِي الأَمـاني فيـكَ جامِعـةُ الشَّـمْلِ

...

تَـذَكَّرَنِي في سـاعةِ العلـمِ والنُّهـى وأُنْسِـيَنِي في سـاعةِ الجـودِ والبَـذْلِ

وَبَـوَّأَنِي في قَصْـرِهِ أَعْـلَ مَنْـزِلٍ وَحَظِّـيَ مُلقًـى يَسْـتَغِيثُ مـنَ السُّـفْلِ

فَأَكْسُـوْ لَـهُ الأَيَّـامَ مِـنْ حُـرِّ مَـا أَشِـي وأَمْـلأُ سَمْعَ الـدهرِ مـنْ سِـحْرِ مـا أُمْلِي

أُواصِـلُ آنـاءَ الأَصَـائِلِ بالضُّـحى وزادِيَ مـن جُهْـدِي وراحِلَتِـي رِجْلِي[1]

وتوفّي المظفّر في شهر صفر سنة (٣٩٩ هـ)، فتولّى بعده أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول، فقام ابن درّاج بتعزيته بوفاة أخيه وتهنئته بتوّليه الحجابة والحكم بقصيدته:

١– الديوان: ١٨، ١٩.

١– الديوان: ٣٧، ٣٩، ٤٠.

مـــا أَطْبَـــقَ الهَـــمُّ إِلّا ريثَمَـــا انْفَرَجَـــا ولا دَجَا الخطبُ إلّا وَشْكَ ما انْبَلَجَا[1]

وشرعت الفتنة تذرّ بقرنيها، وبدأت تعصف بالأندلس، فلم يستقرَّ شنجول في الحكم إلّا قليلاً، إذ خرج على رأس غزوة في الشمال – تقليداً لأسلافه – قبل أن يوطّد أركان حكمه، فاغتنم محمّد بن هشام بن عبد الجبّار ذلك، فخلع شنجول ونادى بنفسه خليفة بقرطبة، وتلقّب بالمهديّ في جمادى الآخرة سنة (٣٩٩ هـ)، ولا نلبث أن نرى ابن درّاج يمدح المهديّ بقصيدة كافيّة:

قُـــلْ للخِلَافَـــةِ قـــدْ بَلَغْـــتِ مُنَـــاكِ ورَأَيْـــتِ مـــا قَـــرَّتْ بِـــهِ عَيْنَـــاكِ[2]

ولم يستقرّ المهدي سوى عدّة شهور في قرطبة حتّى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقّب بالمستعين، ثمّ يحتدم الصراع بينهما ويقتل المهديّ سنة (٤٠٠ هـ) ثمّ يتولّى الخليفة المؤيّد ويدحر المستعين ويستمرّ الصراع حتّى يُقتل المؤيّد ويتغلّب المستعين على قرطبة في شوال (٤٠٣ هـ) فيمدحه ابن درّاج بثلاث قصائد من عيون شعره منها[3]:

هَنِيئـــاً لهـــذا الـــدَّهرِ رَوْحٌ وَرَيْحَـــانُ وللـــدِّينِ والـــدنْيَا أَمَـــانٌ وإِيمَـــانُ

ولكنّ المستعين لم يعنه، ولم يبلّ صداه، ولا سدّ خلّته لاشتغاله بشأنه، واشتداد حاجة سلطانه، كما ذكر ابن حيّان[1].

ويغادر ابن درّاج قرطبة بل الأندلس مضطرّاً، عندما اضطربت به الأحوال وقلّ المال، فيقصد عليّ بن حمّود بسبتة ويمدحه بقصيدة لاميّة شهيرة:

لَعَلَّـــكِ يـــا شمـــسُ عِنْـــدَ الأَصِـــيلِ شَـــجِيتِ لِشَـــجْوِ الغَرِيـــبِ الـــذَّلِيلِ

فكُـــونِي شَـــفِيعِي إلى ابـــنِ الشَّـــفِيعِ وَكُـــونِي رَسُـــولِي إلى ابـــنِ الرَّسُـــولِ[2]

١– الديوان: ٣٨٦–٣٨٨.

٢– الديوان: ٤٣، ٤٤.

٣– الديوان: ٤٧.

١– انظر أعمال الأعلام: ١٢٢.

٢– الديوان: ٦٤.

ولكنّه لم يجد لديه قبولاً فعاد إلى الأندلس باحثاً عن كنف يؤويه، وتجوّل بين مدائن الأندلس من (٤٠٤ – ٤٠٨ هـ) بين المريّة وبلنسية وشاطبة وطرطوشة، ومدح الأمراء والحكام الذين استقلّوا بمدينة أو منطقة معينة، ومدح الفتى خيران العامري والفتيين مباركاً ومظفّراً، ثمّ يمّم شطر طرطوشة ليمدح صاحبها لبيباً العامري، ثمّ توجّه نحو شاطبة ليمدح حاكمها ابن أملح.

وأخيراً عرّج على سرقسطة ليستقرّ عند منذر بن يحيى التجيبي سنة (٤٠٨ هـ). نقل ابن بسّام عن ابن حيّان قوله عن ابن درّاج، «وكان ممّن طوّحت به تلك الفتنة الشنعاء، واضطرّته إلى النجعة، فاستقرى ملوكها أجمعين، ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى، يهزّ كُلّاً بمديحه، ويستعينهم على نكبته، وليس منهم من يصغي له، ولا يحفظ ما أُضيع من حقّه، وأرخص من علقه، وهو يخبطهم خبط العِضاه بمقوله، فيصمّون عنه، إلى أن مرّ بعَقْوة منذر بن يحيى أمير سرقسطة، فألقى عصا سيره عند من بوّاه، ورحّب به وأوسع قراه»[1].

فمدحه ابن درّاج بقصيدة رائيّة مشهورة[2]:

بُشْـرَاكَ مِـنْ طُـولِ التَّرحُّـلِ والسُّـرى ... صـبحٌ بِـرَوْحِ السَّـفْرِ لَاحَ فَأَسْـفَرَا

مِنْ حاجِبِ الشَّمْسِ الَّذِي حَجَبَ الدُّجى ... فَجْـراً بأَنهـارِ النَّـدى متْفَجِّـرَا

نـادى بحـيَّ عَلـى النَّـدى ثُمَّ اعْتَلَـى ... سُـبُلَ العُفـاةِ مُهَلِّـلاً ومُكَبِّـرَا

لبَّيْـكَ أَسْمَعَنـا نِـدَاكَ ودُونَنـا ... نَـوْءُ الكواكِـبِ مُخْوِيـاً أو مُمْطِـرَا

مِـنْ كُـلِّ طـارِقِ لَيْـلٍ همِّـي يَنْتَحِـي ... وَجْهِـي بوجـهٍ مـن لقائِـكَ أَزْهَـرَا

واستقرّ ابن درّاج لدى منذر بن يحيى بعد أن لاقى قبولاً طيّباً منه، وعاد له الوفر والغنى، فاقتنى بعض الضياع والجنان، وعاش عيشاً رغداً، وأمضى ابن درّاج في بلاط المنذر

١– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١ / ١ / ٦٠ – ٦١.

٢– الديوان: ١٠٢، ١٠٣.

وابنه يحيى نحو عشر سنوات لقي فيها بعض ما يتمنّاه، وأعاد فيها بعض حياته مع المنصور ابن أبي عامر؛ من تسجيل غزواته للإسبان المتاخمين له، وتخليد فتوحاته فيهم كقوله:

أَهَـلَّ بـالبَيْنِ فانْهَلَّـتْ مَدَامِعُـهُ وَآنَـسَ النَّفْـرَ فاسْـتَكَّتْ مسَـامِعُهُ

.....

حَـتّى بَـدَا الصُّـبْحُ مُشْـمَطّاً ذَوَائِبُـهُ يُطـارِدُ اللَّيْـلَ مَوْشِـيّاً أَكارِعُـهُ

كـأَنَّ جَمْـعَ ضَـلَالٍ حـانَ مَصْـرعُهُ وأَنْـتَ بالسَّـيْفِ يـا مَنْصُـورُ صـارِعُهُ

أوْ كاشْـتِجارِ رِمـاحٍ أنْـتَ مُشْـرِعُها في بـابِ فَـتْحٍ مُبِـينٍ أنْـتَ شـارِعُهُ

جَـيْشٌ يَجِـيشُ بِرَعْـدِ المَـوْتِ يَقْدُمُـهُ إلى عِـدَاكِ قضـاءٌ حُـمَّ وَاقِعُـهُ

صـباحُ بارِقَـةٍ لـولا عَجاجَتُـهُ وَلَيْـلُ هابِيَـةٍ لـولا لَوَامِعُـهُ[1]

وتوفّي منذر بن يحيى التجيبي سنة (٤١٢ هـ) وخلف ابنه يحيى، وظلّت مكانته عالية كما كانت في عهد أبيه، وظلّ يمدحه ويسجّل مآثره ويرصد أحداث عصره، ومن شعره فيه[2]:

يُبَشِّـرُنا بسـناهُ الصـباحُ وتخبرُنـا عـن نـداهُ الغيـوْمُ

ففـي كـلَّ بحـرٍ لنـا مِنْـكَ شِـبْهٌ وفي كـلِّ فجـرٍ لنـا فيـكَ خِـيْمُ

ومرعـاكَ في كـلِّ أرضٍ نـرودُ وسـقياكَ في كـلِّ بـرقٍ نَشِـيْمُ

وفي كـلِّ نـادٍ مُنـادٍ إليـكَ هَلُـمَّ إلى حيـثُ يُغْـنى العَـدِيْمُ

هلُـمَّ إلى حيـثُ تُنْسـى الرَّزايـا هلُـمَّ إلى حيـثُ تُؤْسـى الكُلُـوْمُ

وانفسح لابن درّاج المجال ليتصدّر تدريس العلوم «وأقام يعلّم اللغة والنسب، ويعيد ندى أندية العرب»[1] كما يقول ابن فضل الله العمري، وقد درس عليه محمّد بن ميمون

١- الديوان: ١١٣، ١١٦.

٢- الديوان: ٢٢٧، ٢٢٩.

١- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ٢٧.

القرشي ومظفّر الكاتب السرقسطي.

بيد أنّ سماء علاقته بيحيى لم تبق صافية بل تلبّدت بأقوال الوشاة، وليس هذا بعجيب في زمن الفتن والاضطرابات، فأنقص يحيى عطاءه وأقلّ لقاءه، أشار ابن درّاج إلى بعض ذلك في قوله:

فيـــا أرأس الرؤســـاء الجـــدير بحكـــم الســـداد لقـــول الســـداد
أيغـــرب عنـــدك نجـــم اغـــترابي ومطلعـــه لـــك في الأرض بـــاد
وأســقي الــورى عنــك مــاء الحيــاة وأرشـــف منـــك حمـــيء الثمـــاد
وزرعـــي فيـــك حصـــيد الخلـــود وحظـــي منـــك لقـــيط الحصـــاد[1]

فارتحل ابن درّاج نحو سنة (٤١٩ هـ) إلى مدينة دانية، ومدح أميرها مجاهداً العامري بقصيدة فاخرة :

إلى أيّ ذكـــر غـــير ذكـــرك أرتـــاح ومـــن أيّ بحـــر بعـــد بحـــرك أمتـــاح
إذا مـدّ إظـلام الأسـى ظلـم الـدجى تمثّـل لي مـن نـور وجهـك مصـباح
وإن أبهمـــت أقفالهـــا عـــني الفـــلا تخيّـــل لي مـــن بشـــر بـــرّك مفتـــاح
فمـا صـدّني عـن ملتقـى الغيـل ضيغم ولا راعـــني في مـــورد المـــاء تمســـاح
ولا بـــرحتني – يـــا موفّـــق – نشـــوة ســـجاياك لي فيهـــا كـــؤوس وأقـــداح
فكـــلّ فـــؤاد مخلـــص فيـــك مخلـــص وكـــلّ لســـان صـــادق لـــك مـــدّاح[1]

وتوفّي ابن درّاج في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة[2] سنة (٤٢١ هـ)، وانطوت بذلك صفحة أعظم الشعراء الأندلسيّين في عصر الدولة الأمويّة في الأندلس.

١–الديوان: ٢٤٤.

١–الديوان: ٤٠٤، ٤٠٧.

٢– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ١/ ١٣٨.

الثناء على شعره

حظي ابن درّاج بثناء عظيم لم يحظه أحد من الشعراء الأندلسيّين حتّى نهاية عصره، حازه من معاصريه، وممّن جاؤوا بعده في الأندلس والمشرق، ففي الأندلس أثنى عليه ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) غير مرّة حتّى إنّه قدّمه على جميع شعراء الأندلس منذ أن نبت الشعر العربي على تراب هذه الجزيرة حتّى عصره فقال: «لو قلت إنّه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد»[1].

وفي رسالته في فضل الأندلس وذكر رجالها قارنه ابن حزم بأعظم الشعراء في المشرق قاطبة وحكم بعدم تقصيره عن مداهم؛ فقال: «ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلاّ أحمد بن درّاج القسطلّي لما تأخّر عن شأو بشّار بن برد وحبيب والمتنبّي»[2].

وقال فيه ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ): «وأمّا القسطلّي فشاعر ماهر عالم بما يقول، تشهد له العقول بأنّه المؤخّر بالعصر، المتقدّم في الشعر، حاذق بوضع الكلام في موضعه لاسيّما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة، وشكا ما دهاه في أيّام المحنة، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه، في أبعد الزمان وأقربه»[1].

وأثنى عليه ابن حيّان (ت ٤٦٩ هـ) ثناء وافراً، نقله ابن بسّام الشنتريني في ذخيرته: «وذكره ابن حيّان معجّباً من أخباره، معرباً عن جلالة مقداره، فقال «وأبو عمر القسطلّي: سبّاق حلبة الشعراء العامريّين، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين»[2].

وقال عنه الحافظ الحميدي: «وهو معدود في جملة العلماء، والمقدّمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء»[3].

وأوفى ثناء حبّر لابن درّاج القسطلّي كان في الذخيرة لابن بسّام الشنتريني (ت

١- الصلة: ٤٠.

٢- رسائل ابن حزم: ٢ / ١٨٧.

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٤ / ١ / ٢١١.

٢- المصدر نفسه: ١ / ١ / ٦٠.

٣- جذوة المقتبس: ١١٣، ونُقل ذلك في المطرب: ١٥٦ وجعله "الوزير الكاتب".

٥٤٢ هـ) الذي أثنى عليه منذ عنوان ترجمته له فقال: «فصل في ذكر الأديب أبي عمر أحمد بن درّاج القسطلّي، وإثبات جملة من نظمه الفائق الدرر، ونثره المعجز الورد والصَّدَر» [١]

ثمّ أخبر عنه فقال: «كان أبو عمر القسطلّي وقتَه لسان الجزيرة شاعراً وأوّلاً حين عدّ معاصريه من شعرائها المشهورة، وآخر حاملي لوائها، وبهجة أرضها وسمائها، وأسوة كتّابها وشعرائها، له عُقِد فخرها المحمول وسُهِم، وبه بُدئ ذكرها الجميل وختم، حلّ اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس، وأحد مَنْ تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره، وكانت الشام والعراق أدنى خطا ذكره»[٢].

ثمّ يسرد أقوال بعض من أثنى عليه ثمّ يعلّق فيقول: «وأنا أقول: إنّ من ذكره لم يوفه حقّه ولا أعطاه وفقه، ولا استوفى تقدّمه وسبقه، ولو أوفى الأيام واستنفد القراطيس والأقلام. وقد أتيت أنا من شعره بما يبهر نيّرات الألباب، ويظهر خفيّات الأسباب، ومن نثره ما يبهر العقول، ويباهي الغرر والحجول، ويسامي التيجان والأكاليل، ويُسهل التقليد والتأويل»[١].

ووصفه عبد الواحد المراكشي بأنّه «من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم»[٢]. وأخيراً سمّاه ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ) «متنبّي الأندلس»[٣].

وفي المشرق نجد معاصره أبا منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) يشيد به ويشبّهه بالمتنبّي فيقول «كان بصقع الأندلس كالمتنبّي بصقع الشام، وهو أحد الفحول وكان يجيد ما ينظم ويقول»[٤].

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١ / ١ / ٥٩.
٢- المصدر نفسه: ١ / ١ / ٥٩- ٦٠.
١- المصدر نفسه: ١ / ١ / ٦١- ٦٢.
٢- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٣٩.
٣- المغرب في حلى المغرب: ٢ / ٦٠.
٤- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: ٢ / ١٠٣.

أغراض شعره

١- المديح

وهو الغرض الرئيس في شعره بل هو أكثر شعره لكونه شاعراً رسميّاً محترفاً في البلاط منذ بداية حياته الشعريّة إلى نهايتها، ولعلّ شعره في ممدوحه الأوّل المنصور ابن أبي عامر يشبه من بعض الوجوه شعر المتنبّي في ممدوحه الأشهر سيف الدولة الحمداني. وقد ذكر المؤرّخون أنّ غزوات المنصور بلغت (٥٢) غزوة وقد رافق ابنُ درّاج المنصورَ في كثير منها، وشهدها بأمّ عينه، فوصفها وقيّد خبرها كقوله[١] في غزوة في سنة (٣٨٤ هـ):

أنضيت خيلي في الهوى وركابي ... وعمرتُ كأس هوى بكأس نصاب

كما أنّه لم يترك أميراً ولا قائداً إلّا مدحه بعده، وهذا نموذج من أجود مدحه:

دَعِي عَزَماتِ المُستضامِ تسيرُ ... فَتُنْجِدُ فِي عُرْضِ الفَلا وتَغُورُ
لعلَّ بما أَشجاكِ من لوعةِ النَّوى ... يُعَزُّ ذليلٌ أَوْ يُفَكُّ أَسيرُ
أَلَمْ تعلَمِي أَنّ الثَّوَاءَ هو التَّوَى ... وأَنَّ بيوتَ العاجِزينَ قُبورُ
ولم تزجُرِي طَيْرَ السُّرى بِحروفِها ... فَتُنْبِئُكِ إِنْ يَمَّنَّ فَهْيَ سُرورُ
تُخَوِّفُنِي طولَ السِّفارِ وإِنَّهُ ... لتقبيلِ كفِّ العامِرِيِّ سَفِيرُ
دَعِيني أَرِدْ ماءَ المفاوِزِ آجِناً ... إِلَى حَيْثُ ماءُ المكرُمَاتِ نَمِيرُ
وأَخْتَلِسِ الأَيَّامَ خُلْسَةَ فاتِكٍ ... إِلَى حَيْثُ لي مِنْ غَدْرِهِنَّ خَفِيرُ
فإِنَّ خطيراتِ المهالِكِ ضُمَّنٌ ... لراكِبِها أَنَّ الجزاءَ خطيرُ
ولَمَّا تدانَتْ للوداعِ وَقَدْ هَفا ... بصَبْرِيَ منها أَنَّةٌ وزَفيرُ
تناشِدُني عَهْدَ المَوَدَّةِ والهَوى ... وَفِي المَهْدِ مبغومُ النِّداءِ صَغيرُ
عَيِيٌّ بمرجوعِ الخطابِ ولَفْظُهُ ... بمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النفوسِ خَبيرُ
تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّدَتْ ... لَهُ أَذرُعٌ محفوفَةٌ ونُحُورُ

١- الديوان: ١٣- ١٥.

فكـــلُّ مُفَـــدَّاةِ الترائِـــبِ مُرْضِـــعٌ ... وكـــلُّ مُحَيَّـــاةِ المحاسِـــنِ ظِـــيرُ
عَصَـيْتُ شـفيعَ الـنفسِ فِيـهِ وقـادَنِي ... رَوَاحٌ لِتَـــدْآبِ السُّـــرى وبُكُـــورُ
وطـارَ جَنـاحُ الشَّـوْقِ بِي وَهَفَـتْ بِهَـا ... جـــوانِحُ مـــن ذُعْـــرِ الفِـــراقِ تطـــيرُ
لـــئِنْ وَدَّعَـــتْ مـــني غَيـــوراً فـــإِنَّنِي ... عَلَـــى عَـــزْمَتِي مـــن شَـــجْوِها لَغَيُـــورُ
ولـــو شـــاهَدَتْنِي والصَّـــواحِدُ تَلْتَظِـــي ... عَلَـــيَّ ورقـــراقُ الســـرابِ يَمُـــورُ
أُسَـــلِّطُ حَـــرَّ الهـــاجِراتِ إِذَا سَـــطَا ... عَلَـى حُـرِّ وَجْهِـي والأَصـيلُ هَجِـيرُ
وأَسْتَنْشِـــقُ النَّكْبـــاءَ وَهْـــيَ بَـــوارِحٌ ... وأَسْـــتَوْطِئُ الرَّمْضـــاءَ وَهْـــيَ تَفُـــورُ
ولِلْمَـــوْتِ فِي عـــيشِ الجبـــانِ تلـــوُّنٌ ... ولِلـــذُّعْرِ فِي سَـــمْعِ الجـــريءِ صَـــفيرُ
لَبـــانَ لَهَـــا أَنِّي مِـــنَ الضَّـــيْمِ جـــازِعٌ ... وأَنِّي عَلَـــى مَـــضِّ الخُطُـــوبِ صَـــبُورُ
أَمِـيرٌ عَلَـى غَـوْلِ التَّنـائِفِ مَـا لَـهُ ... إِذَا رِيـــعَ إِلّا المَشْـــرِفِيَّ وَزِيـــرُ
ولـو بَصُـرَتْ بِي والسُّـرى جُـلُّ عَـزْمَتِي ... وجَرْسِـــي لِجِنَّـــانِ الفَـــلاةِ سَمِـــيرُ
وأَعْتَسِـفُ الـمَوْمَاةَ فِي غَسَـقِ الـدُّجى ... وللأُسْـــدِ فِي غِيـــلِ الغِيـــاضِ زَئِـــيرُ
وَقَـــدْ حَوَّمَـــتْ زُهْـــرُ النُّجـــومِ كَأَنَّهَـــا ... كواعِـــبُ فِي خُضْـــرِ الحَـــدائِقِ حُـــورُ
ودارَتْ نجـــومُ القُطْـــبِ حَـــتَّى كَأَنَّهَـــا ... كُـــؤُوسُ مَهـــاً والى بِهِـــنَّ مُـــدِيرُ
وَقَـــدْ خَيَّلَـــتْ طُـــرْقُ الـــمَجَرَّةِ أَنَّهَـــا ... عَلَـــى مَفْـــرِقِ الليـــلِ البهـــيمِ قتـــيرُ
وثاقِـــبَ عَزْمِـــي والظَّـــلامُ مُـــرَوِّعٌ ... وَقَـــدْ غَـــضَّ أَجفـــانَ النجـــومِ فُتُـــورُ
لَقَـــدْ أَيْقَنَـــتْ أَنَّ المـنى طَـــوْعُ هِمَّتِـــي ... وأَنِّي بعطْـــفِ العـــامِرِيِّ جـــديرُ
وأَنِّي بـــــذكراهُ لِهَمِّـــــيَ زاجِـــــرٌ ... وأَنِّيَ منـــــهُ للخطـــــوبِ نـــــذِيرُ
وأَيُّ فـــتىً للـــدينِ والملـــكِ والنَّـــدى ... وتَصْـــدِيقُ ظَـــنِّ الـــراغِبِينَ نَـــزُورُ
مُجِـيرُ الهُـدى والـدينِ مـن كُـلِّ مُلْحِـدٍ ... وَلَـــيْسَ عَلَيْـــهِ لِلضَّـــلَالِ مُجِـــيرُ
تلاقَـــتْ عَلَيْـــهِ مـــن تَمِـــيمٍ ويَعْـــرُبٍ ... شُمُـــوسٌ تَـــلَالا فِي العُـــلَا وبُـــدُورُ
مـــنَ الحِمْيَـــرِيِّينَ الَّـــذِينَ أَكُفُّهُـــمْ ... ســـحائِبُ تَهْمِـــي بالنَّـــدى وبُحُـــورُ
ذَوُو دُوَلِ المُـــلْكِ الَّـــذِي سَـــلَفَتْ بِهَـــا ... لَهُـــمْ أَعصُـــرٌ مَوْصُـــولَةٌ ودُهُـــورُ

لَهُـــمْ بَـــذَلَ الـــدهرُ الأَبِيُّ قِيـــادَهُ ... وهُـــمْ سَـــكَّنُوا الأَيَّـــامَ وَهْـــيَ نَفُـــورُ

وهُـــمْ ضَـــرَبُوا الآفـــاقَ شـــرقاً ومغرِبـــاً ... بِجَمْـــعٍ يَسـيرُ النَّصْـرُ حَيْـثُ يَسـيرُ

وهُـــمْ يَســـتَقِلُّونَ الحيـــاةَ لِرَاغِـــبٍ ... ويَسْتَصْـغِرُونَ الخطْـبَ وَهْـوَ كبـيرُ

وهُـــمْ نَصَـرُوا حِـزْبَ النُّبُـوَّةِ والهُـدى ... وَلَـــيْسَ لَهَـــا فِي العـــالَمِينَ نَصِـــيرُ

وهُـــمْ صَـــدَّقُوا بـــالوَحْيِ لَمّـــا أَتـــاهُمُ ... وَمَـــا النَّـــاسُ إِلّا عانِـــدٌ وكَفُـــورُ

مناقِـبُ يَعْيـا الوَصْـفُ عَـنْ كُنْـهِ قَـدْرِها ... ويَرْجِـعُ عَنْهـا الـوَهْمُ وَهْـوَ حَسِـيرُ

ألا كُـلُّ مَـدْحٍ عَـنْ مَـدَاكَ مُقَصِّـرٌ ... وكـــلُّ رجـــاءٍ فِي سِـــواكَ غُـــرُورُ

تَمَلَّيْـتَ هَـذَا العيـدَ عِـدَّةَ أَعْصُـرٍ ... تُوَالِيـــكَ منهـــا أَنعُـــمٌ وحُبُـــورُ

ولا فَقَـدَتْ أَيَّامَـكَ الغُـرَّ أَنفُـسٌ ... حياتُـــكَ أَعيـــادٌ لهـــم وسُـــرورُ

ولمـــا تَوافَـــوْا للسَّـــلامِ ورُفِّعَـــتْ ... عـن الشـمسِ فِي أُفْـقِ الشُّـروقِ سُـتورُ

وَقَـدْ قـامَ مـن زُرقِ الأَسِـنَّةِ دُونَهَـا ... صـفوفٌ ومـن بِـيضِ السُّـيوفِ سُـطُورُ

رأَوْا طاعَـةَ الـرَّحمنِ كَيْـفَ اعتِزازُهـا ... وآيـــاتِ صُـــنْعِ اللهِ كَيْـــفَ تُنـــيرُ

وكَيْـفَ اسْـتَوى بـالبَحْرِ والبَـدْرِ مَجْلِـسٌ ... وقـــامَ بِعِـــبْءِ الرَّاسِـــياتِ سَـــريرُ

فَسـارُوا عِجـالاً والقُلـوبُ خَوَافِـقٌ ... وأُذْنُـــوا بِطـــاءً والنَّـــوَاظِرُ صُـــورُ

يَقُولـونَ والإِجـلالُ يُخْـرِسُ أَلسُـناً ... وحـــازَتْ عُيُـــونٌ مِلأَهـــا وصُـــدُورُ

لقَـدْ حـاطَ أَعـلامَ الهُـدى بِـكَ حـائِطٌ ... وقَـــدَّرَ فيـــكَ المَكْرمـــاتِ قَـــدِيرُ

مُقِـيمٌ عَلَـى بَـذْلِ الرَّغائِـبِ واللُّهـى ... وفِكْـــرُكَ فِي أَقْصـــى الـــبِلادِ يَسـيرُ

وأَيْـنَ انْتَـوى فَـلُّ الضَّـلالَةِ فَـانْتَهى ... وأَيْـــنَ جُيُـــوشُ المســـلِمينَ تُغِـــيرُ

وحَسْـبُكَ مـن خَفْـضِ النَّعِـيمِ مُعَيِّـداً ... جِهـــازٌ إِلَى أَرضِ العِـــدى ونَفِـــيرُ

فَقُـدْها إِلَى الأَعـداءِ شُـعْثاً كَأَنَّهـا ... أَرَاقِـــمُ فِي شُـــمِّ الرُّبـــا وصُـــقُورُ

فَعَزْمُـكَ بالنَّصْـرِ العَزِيـزِ مُخَبِّـرٌ ... وسَـعْدُكَ بـالفَتْحِ الـمُبِينِ بَشِـيرُ

ونـادَاكَ يَـابْنَ الـمُنْعِمِينَ ابْـنُ عَشـرَةٍ ... وعَبْـدٌ لِنُعْمـاكَ الجِسـامِ شَـكُورُ

غَـنِيٌّ بِجَـدْوى راحَتَيْـكَ وإِنَّـهُ ... إلى سَـبَبٍ يُـدْنِي رِضـاكَ فَقِـيرُ

وِمِـــنْ دُونِ سِـــتْرَيْ عِفَّـــتِي وتَجَمُّلِـــي لَرَيْـــبٌ وصَـــرْفٌ للزَّمـــانِ يَجُـــورُ
وضـــاءَلَ قَـــدْرِي فِي ذَرَاكَ عوائِـــقٌ جَـــرَتْ لِيَ بَرْحـــاً والقضـــاءُ عَسِـــيرُ
وَمَـا شَـكَرَ النَّخْعِـيُّ شُـكْرِي ولا وَفى وفـــائيَ إِذْ عَـــزَّ الوَفـــاءُ قَصِـــيرُ
فَقُدْنِي لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعضِلٌ وكِلْـنِي لِلَيْـثِ الغـابِ وَهْـوَ هَصُـورُ
فَقَـدْ تَخْفِـضُ الأَسمـاءُ وَهْـيَ سَـوَاكِنٌ ويَعْمَـلُ فِي الفِعْـلِ الصَّـحيحِ ضَـمِيرُ
وتَنْبُـــو الرُّدَيْنِيَّـــاتُ والطُّـــولُ وافِـــرٌ ويَنْفُـــذُ وَقْـــعُ السَّـــهْمِ وَهْـــوَ قَصِـــيرُ
حنانَيْـــكَ فِي غُفْـــرانِ زَلَّـــةِ تائِـــبٍ وإِنَّ الَّـــذِي يَجْـــزِي بِـــهِ لغَفـــورُ[1]

وتتّصف قصائد المديح لديه بالطول وتشتمل على أغلب أغراضه المتبقّية كالنسيب والفخر والشكوى.

٢- النسيب والغزل:

يقدّم ابن درّاج لقسم من قصائده في المديح بالنسيب على عادة سابقيه من المشارقة، ولا نجد في ديوانه من الغزل إلّا مقطوعتين تتفاوت أبياتهما في الجودة، هما من شعره في الصبا، وأحسن ما في القطعة الأولى أوائلها:

ســـأَمْنَعُ قَلْـــبِي أنْ يَحِـــنَّ إِلَيْـــكِ وأَنْهـــى دمـــوعِي أنْ تَفـــيضَ عَلَيْـــكِ
أَغَـــدْراً ولم أغَـــدِرْ وخَوْنـــاً ولم أَخُـــنْ لقـــدْ ضـــاعَ لي صِـــدْقُ الوفـــاءِ لَـــدَيْكِ[1]

وأحسن ما في القطعة الثانية أواخرها:

وكـــمْ بَـــذَلْتُ لهـــا في الشَّـــوْقِ مُكتئِبـــاً غُـــروبَ جفنَـــيْنِ مـــا تشـكُو مـنَ الأَيْـنِ
بـــدمعِ عـــينٍ أبى مَـــا في الضـــميرِ لَـــهُ حـــتّى يُصَـــيِّرُهُ دمعـــاً بـــلا عَـــيْنِ[2]

وسوى هاتين المقطوعتين فإنّه يدخل في باب النسيب، ويدلّ على إحكام في

١- الديوان: ٢٤٩- ٢٥٥.

١- الديوان: ٢٩٤.

٢- الديوان: ٢٩٥.

الصنعة الفنّيّة، ولكنّه لا يدلّ – في أغلبه – على عمق في الناحية العاطفيّة، ومن ذلك قوله من قصيدة مشابهة لمعاصره الشريف الرضيّ(ت٤٠٦هـ) احتفظ الثعالبي ببعضها[1]:

وَحْشِيَّةَ اللَّفْظِ هلْ يودِي قتيلُكُمُ ... دمِي مُضَاعٌ وجانِي ذاكَ عيناكِ

إنّي أَراكِ بقتلِ النَّفْسِ حاذِقَةً ... قُولِي فَدَيْتُكِ مَنْ بالقَتْلِ أوصاكِ

مالِي وللبَرْقِ أَستسقيهِ من ظَمَأٍ ... هيهاتَ لا رِيَّ إلّا مِنْ ثَنَاياكِ

لولاَ الضُّلُوعُ لَظَلَّ القلبُ نَحْوَكُمُ ... ضَعِي بِعَيْشِكِ فوقَ القلبِ يُمْنَاكِ

أصليتنِي لوعةَ الهجرانِ ظالمةً ... رحماكِ مِنْ لوعةِ الهجرانِ رحماكِ

أَظَنَّ عَزْمُكِ أَنْ أَخْفَى لأسلوَكُمْ ... حلِّيْ عَزِيْمِيَ إنِّي لستُ أَسْلَاكِ

٣– الشكوى:

للشكوى حيّز واضح في شعر ابن درّاج اتّسع نطاقه بعد وفاة المنصور وبداية عصر الفتنة، وتبدّل حالة الوفر والرخاء إلى العوز والحاجة إلى الناس لإعالة أسرته الكثيرة العدد فيصف مشقّة فراقه لأحبّته ومدى الصعاب في رحلته إلى الممدوح برّاً أو بحراً كقوله [1]:

وفي طَيِّ أَسْمَالِ الغَرِيبِ غَرائِبٌ ... سَكَنَّ شَغافَ القَلْبِ شِيبٌ وَوِلدانُ

يُرَدِّدْنَ في الأَحْشاءِ حَزَّ مَصائِبٍ ... تزيدُ ظَلاماً لَيْلَها وهْيَ نِيرانُ

إذا غِيضَ ماءُ البَحْرِ منْها مَدَدْنَهُ ... بِدَمْعٍ عيونٍ يَمْتَرِيهِنَّ أَشْجانُ

وإنْ سَكَنَتْ عَنَّا الرياحُ جَرَى بِنا ... زَفِيرٌ إلى ذِكْرِ الأحبَّةِ حَنَّانُ

يُقَلْنَ ومَوْجُ البَحْرِ والهَمِّ والدُّجى ... تموجُ بنَا فيهَا عُيُونٌ وآذانُ

أَلَا هَلْ إلى الدُّنيا مَعادٌ وهَلْ لَنَا ... سِوى البَحْرِ قَبْرٌ أو سِوى الماءِ أَكْفانُ

وهَبْنا رأيْنَا مَعْلَمَ الأَرْضِ هَلْ لَنا ... منَ الأَرْضِ مَأْوَى أَوْ منَ الإِنْسِ عِرْفانُ

١– الديوان: ٤٥٨.

١– الديوان: ٧٤– ٧٥.

وصَـرْفُ الـرَّدى مِـنْ دونِ أَدْنى مَنـازِلِ تَبـــاهَى إِلَيْنـــا بالسُّـــرُورِ وتَـــزْدانُ

.....

فـإِنْ غَرَّبَـتْ أرضُ المغـارِبِ مَـوْئِلِي وأَنْكَـــرَنِي فيهـــا خَلِـــيْطٌ وخِـــلَّانُ
فكَـمْ رَحَّبَـتْ أَرْضُ العِـرَاقِ بِمقْـدَمِي وأَجْزَلَـتِ البُشْـرى عَلَـيَّ خُرَاسـانُ
وإِنَّ بِـــلاداً أَخْـــرجَتْنِي لَعُطَّـــلٌ وإِنَّ زمانـــاً خـــانَ عَهْـــدِي لَخَـــوَّانُ
سَـلَامٌ علـى الإِخْـوَانِ تَسْـليمَ آيِـسٍ وسَـقْياً لِـدَهرٍ كـانَ لي فِيـهِ إِخْـوَانُ
ولا عَرَّفَـــتْ بي خَلَّـــةً دارُ خُلَّـــةٍ عَفـا رَسْـمَها منهـا جفـاءٌ ونِسـيانُ
وَغَـرَّتْ ببَـرْقِ المُـزْنِ مـن ذِكْـرِ صَـفقِهِ ومـنْ ذِكْـر رَبٍّ كُـلَّ يَـومٍ لَـهُ شـانُ

٤ – الفخر:

ينصبّ فخر ابن درّاج على شعره وشاعريته في الغالب منذ دفاعه عن نفسه وشاعريّته بقصيدة حماسيّة اتّسع فيها فخره بنفسه وشعره اتّساعاً كبيراً [1]:

حـتّى هُـزِزْتُ فَـلَا زَنْـدُ القـريضِ كَبَـا فيمـا لَـدَيَّ ولا سـيفُ البَدِيْـهِ نَبَـا
وأَشـرقتْ شـاهِداتُ الحَـقِّ تَنْشُـرُ لي نُـوراً غَـدَتْ فيـهِ أَقـوالُ الوُشَـاةِ هَبَـا
هيهـاتَ أَعْجَـزَ أَهْـلَ الأَرضِ أنْ يَجِـدوا لِلـدُّرِّ غَيْـرَ عُبَـابِ البحـرِ مُنْتَسَـبَا
وحـاشَ لِلـوردِ أَنْ يُعـزَى إلى رَمَـضٍ وأَنْ يكـونَ لَـهُ غـيرُ الربيـعِ أَبَـا
لِمَـنْ سَنَا الشَّـمْسِ إن أَضْـحَتْ مُشَـكَّلَةً فيـهِ لِمَـنْ نَفَحَـاتُ المِسْـكِ إنْ كُـذِبَا
ومَـــنْ يُكَـــذِّبُ في آثَـــارِ مَوْقِعِـــهِ مُهَنَّـــداً خَـــذِماً أو عـــاملاً ذَرِبَـــا

...

ولسـتُ أَوَّلَ مـنْ أَعْيَـتْ بدائِعُـهُ فاسْـتَدْعَتِ القَـوْلَ مِمَّـنْ ظَـنَّ أَو حَسِـبَا

---

١ – الديوان: ٣٠٩– ٣١٠.

إنَّ امْـرأَ القَـيْسِ في بَعْـضٍ لَمُـتَّهمٌ ... وفي يَدَيْـهِ لِـوَاءُ الشِّـعْرِ إنْ رَكِبَـا

والشِّـعْرُ قـدْ أَسَـرَ الأَعْشـى وقَيَّـدَهُ ... خُـبْراً وقَـدْ قِيـلَ والأَعْشـى إذا شَـرِبَا

وكيـفَ أَظْمـا وبحـرِيْ زاخِـرٌ فِطَنـاً ... إلى خيـالٍ مـنَ الضَّحْضَـاحِ قـدْ نَضَـبَا

فَـإنْ نـأَى الشَّـكُّ عـنِّي أَوْ فَهَـا أَنَـا ذَا ... مُهَيَّـأً لِجَلِـيِّ الخُـبْرِ مُرْتَقِبَـا

عَبْـدٌ لِنُعْمَـاكَ في كَفَّيْـهِ نَجْـمُ هُـدًى ... سـارٍ بِمَـدْحِكَ يَجْلُـو الشَّـكَّ والرِّيَبَـا

إنْ شـئتَ أَمْلَـى بَـدِيعَ الشِّـعْرِ أو كَتَبَـا ... أَو شـئتَ خاطَـبَ بـالمنثورِ أوْ خَطَبَـا

كَرَوْضَـةِ الحَـزْنِ أَهْـدَى الوَشْـيَ مَنْظَرُهـا ... والمـاءَ والزَّهْـرَ والأَنـوارَ والعُشُـبَا

أو سـابَقَ الخيـلَ أَعْطـى الحُضْـرَ مُتَّئِـداً ... والشَّـدَّ والكَـرَّ والتَّقْرِيـبَ والخَبَبَـا

٥- الوصف

وأغلبه في قصائد المديح ومسخّر له، وهو أنواع:

- وصف الجيش والأسلحة المتنوّعة بمختلف أنواعها، والمعارك التي يقوم بها الممدوح.
- وصف مظاهر الحضارة كوصف الحمّام والشراع والقلم والقصور كقوله في وصف شراع:

أَيُّ شِـرَاعٍ لأَيِّ بَحْـرِ ... وأَيُّ كِسْـفٍ لأيِّ بَـدْرِ[1]

...

كأَنَّمـا ظَلَّلَـتْ عليـهِ ... سـحابَةٌ مَـدَّها بقَطْـرِ

أو روضَـةٌ في الهـواءِ حُفَّـتْ ... مـن طِيْـبِ أَخلاقِـهِ بزَهْـرِ

كأَنَّمـا الـريحُ في ذُرَاهـا ... راحٌ تُريـهِ انثنـاءَ سُـكْرِ

أو كيـفَ يَهْتَـزُّ إنْ دَعـاهُ ... صوتٌ وغًى أو لسانُ شكر

- وصف الطبيعة والأزهار والفاكهة واستغلالها للمديح، وتسخيرها له كقوله في

١- الديوان: ٢١٢- ٢١٣.

النارنج[1]:

ضَحِكَ الزمانُ لنَا فهاكَ وهاتِهِ ... أَوَ مَا رأَيْتَ الوردَ في شجراتِهِ
قَدْ جاءَ بالنَّارَنْجِ مِنْ أَغصانِهِ ... وبخَجْلَةِ المعشوقِ مِنْ وَجَنَاتِهِ
وكساهُ مولانَا غلائِلَ سَيْفِهِ ... يوماً يُسَرْبِلُهُ دِماءَ عُدَاتِهِ
مِنْ بَعْدِ ما نَفَحَ الحيا مِنْ رُوحِهِ ... فيهِ وعَرْفُ المِسْكِ مِنْ نَفَحَاتِهِ
إِنْ كانَ أبدعَ واصفٌ في وصفِهِ ... فلقدْ تقاصَرَ عنْ بديعِ صِفَاتِهِ

٦– الرثاء:

وهو الغرض الوحيد من أغراض شعر ابن درّاج الذي نجد له قصائد منفصلة عن قصائد المديح، وإن كان رثاؤه مرتبطاً به لارتباطه ببلاط الحاكم وكبار رجال الدولة، وهو أنواع فمنه الرثاء والعزاء، ومنه العزاء فحسب، ومنه الرثاء والتهنئة معاً !.

فمن واجبات شاعر البلاط أن يقوم بتحبير الرثاء وتقديم العزاء للممدوحين بمن فقدوا ولعلّ العزاء أهمّ من الرثاء لدى الشاعر، فالرثاء للميت الذي ما عاد يرجى نواله، والعزاء للممدوح الحيّ الذي يعلّق عليه آمالاً كباراً، ولمّا مات عبد الملك المظفّر وتولّى أخوه عبد الرحمن شنجول سيف الدولة المنصور استحالت مرثيّة المظفّر تهنئة لشنجول بتسلّمه مقاليد الحجابة والحكم، ومدحاً له[1]:

ما أَطْبَقَ الهَمُّ إلّا ريثَمَا انْفَرَجَا ... ولا دَجَا الخطبُ إلّا وَشْكَ ما انْبَلَجَا
ما كادَ يبدو الضُّحَى بالحزنِ مُكْتئباً ... حتَّى رأَيْنَا الدُّجَى بالنورِ مُنْبَلِجَا
فاليومَ قَدْ لَبِسَ الإظلامُ ثَوبَ سَناً ... في عُقْبِ ما لَبِسَ الإصباحُ ثوبَ دُجَى
وأَورقَتْ شَجَرُ الدنيا لَدُنْ عَرِيَتْ ... وعادَ يَشدو حمامُ المُلْكِ إذْ نَشَجَا
بَشَّرَ بالشمسِ إشْراقُ الضُّحَى فَشَفَى ... في إثرِ ناعٍ نَعَى نجمَ الهُدَى فَشَجَا
رُزْءٌ حَكَى كَظَمَ الأَرواحِ أَعْقَبَهُ ... صُنْعٌ أَعادَ إلى أَوطانِها المُهَجَا

١– الديوان: ٣٥.

١– الديوان: ٣٨٦ – ٣٨٧. وانظر كذلك رثاءه لمنذر بن يحيى وتهنئة ابنه يحيى: ١٩٩.

فأَصــبَحَ المُلْــكُ لا رَيثــاً ولا خَلَــلاً وأَصْــبَحَ الــدِّينُ لا أَمْتــاً ولا عِوَجَــا
فَلْتَهْنِنَــا نِعَــمُ الــرحمنِ حــينَ هَــدَى بِعَبْــدِهِ سُــبُلَ الحــقِّ الــذي نَهَجَــا
بِنَاصِــرِ الــدِّينِ والإِســلامِ مُفْتَتِحــاً بيُمْنِــهِ كُــلَّ بــابٍ للمُــنَى ارْتتجَــا
يــا ابْــنَ الَّــذِي قــادَ مــن أَذْواءِ ذي يَمَــنٍ عُرْفــاً بعُــرْفِ المعــالِي والهــدى وُشِــجا
مــن ذا يُنازِعُــكَ الملــكَ الَّــذِي عَمَــرَتْ بِــهِ أَوائِلُــكَ الأَحقــابَ والحِجَجَــا

خصائص شعره

وصل إلينا من شعر ابن درّاج جمهرة كبيرة، في مخطوط غير كامل، هو أوّل مخطوط ديوان لشاعر أندلسي حفظته لنا الأيّام، ويعدّ هذا الديوان في الدواوين الشعريّة الأندلسيّة الكبيرة، فهو يحوي ما يزيد على (٦٠٠٠) بيت شعر، مع أنّه لا يستوعب جميع شعر ابن درّاج، على محاولة محقّق الديوان [1] الأستاذ الدكتور محمود علي مكّي أن يستدرك ما فات هذا المخطوط، ومع ذلك فظهور هذا الديوان كان حدثاً مهماً في الدراسات الأندلسيّة، جعلت الأستاذ الدكتور إحسان عبّاس يقول في مقدمة الطبعة الثانية «جعلني أعيد القسم الأعظم من الفصل الذي كنت قد كتبته عن ابن درّاج»[1].

ولقد كان شعر ابن درّاج القسطلي مدار إعجاب القدامى والمحدثين، إلّا أنّ أوّل من نظر إليه نظرة نقديّة فاحصة هو معاصره الأديب الناقد ابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) فقال: « والفرق بين أبي عمر وغيره؛ أنّ أبا عمر مطبوع النظام، شديد أسر الكلام، ثمّ زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب، وما تراه من حوكه للكلام، وملكه لأحرار الألفاظ، وسعة صدره، وجيشة بحره، وصحّة قدرته على البديع، وطول طلقه في الوصف، وبغيته للمعنى وترديده، وتلاعبه به وتكريره، وراحته بما يتعب الناس، وسعة نفسه فيما يضيّق الأنفاس».

فقد أخبر ابن شهيد عن شعر ابن درّاج بالطبع في النظم ولم يقل في الشعر؛ ليبيّن

١– طبع ديوان ابن درّاج مرتين الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢هـ، والثانية سنة ١٣٨٩هـ، في المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

١– تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر سيادة قرطبة: ٦.

أنّ ابن درّاج شاعر مقتدر على النظم إلى درجة الطبع، ولا يعني الطبع سرعة البديهة والقول في الشعر، بل هو شعر متأنٍّ محكّك مصنوع بإحكام واقتدار، ووصفه ابن شهيد كذلك بشدّة أسر الكلام، أي بتأثيره النافذ وحيازته الإعجاب وتحقيقه إحدى أهمّ وظائف الشعر وهي الوظيفة التأثيريّة، ثمّ بيّن مدى استفادته من ثقافته التراثيّة الواسعة، وعلمه بأخبار العرب وأنسابها ولغاتها وتوظيف ذلك في شعره، ثم عرّج على ذكر قدرته في صوغ الكلام ومتانة سبكه، وامتلاكه لزمام اللغة، وسعة معجمه الشعري وكثرة مفرداته اللغويّة، ثمّ أشار إلى فيض قريحته وتدفّقها، وامتلاكه زمام البديع وتصرّفه بأنواعه من أدوات تزيينيّة وتصويريّة، ونبّه على اتّساعه في مجال الوصف واستقصائه للّوحة الشعريّة وشدّد على اهتمامه بالمعاني وتتبّعها واستنفادها، وتكرارها وترديدها والتلاعب بها وصنعه كلّ ذلك براحة وسهولة على شدّة صعوبته على غيره من الشعراء.

وشعر ابن درّاج يتميّز بأمور كثيرة أهمها:

من حيث الشكل: إنّ أغلب شعر ابن درّاج القسطلّي قصائد مطوّلات تدلّ على شاعريّة فيّاضة وطول نَفَسه الشعري، وإن اضطرّ – أحياناً — إلى استعمال العويص من القوافي ومهجورها.

من حيث اللفظ: يتميّز ابن درّاج بفصاحة اللفظ وجزالته وضخامة معجمه اللفظي وحسن انتقائه منه، وميله إلى الغريب أحياناً ويتّسم بما يسمّيه د. أحمد هيكل باللون المحلّي الذي يتجلّى في كثرة إيراد أسماء البلاد الأندلسيّة والممالك الإسبانيّة، وأسماء ملوكهم، وبعض الكلمات المحليّة ذات الأصول اللاتينيّة كقوله:

وانصِبْ مجانيقاً من النِّيَمِ التي أَحجارُهُنَّ من الرَّواطِمِ والنّخَبْ[1]

فالنيم «جمع نيمة وهي القنّينة أو الزجاجة في استعمال الأندلسيّين خاصّة»، والرواطم جمع رطومة وهي كذلك القنّينة، تسرّبت إلى لغة الأندلسيّين من الرومانثيّة[2].

١– الديوان: ٣٠.

٢– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ٣٢٤.

من حيث المعنى: يكلف ابن درّاج بتوليد المعاني ويعنى بتحليلها النفسي وتكريرها وإطالتها وبسطها والنظر فيها من كلّ جانب، كما كان يفعل ابن الرومي ولكنّ هذه الإطالة قد تؤدّي إلى الإملال والتكلّف.

ويستفيد ابن درّاج من غزارة مخزونه الثقافي الواسع، الشعريّ منه والإخباريّ والتاريخيّ في استمداد المعاني، ويتجلّى هذا النضج الثقافي في كثرة المعلومات التي نراها في شعره من أسماء الأعلام والقبائل والأماكن والمواقع الجغرافيّة والإشارات التاريخيّة، والاقتباسات القرآنيّة، والأمثال وبعض العبارات التراثيّة المعروفة ومن ذلك قوله:

وما شَكَرَ النَّخْعِيُّ شُكْرِي وَلَا وَفَى ... وفائِيَ – إذْ عَزَّ الوَفاءُ – قَصِيرُ[1]

من حيث الصورة الفنية:

يمثّل ابن درّاج الاتّجاه المعتدل في إيراد الصورة الفنّيّة، بإقلاله منها حيناً، وإكثاره منها حيناً آخر، ومزجه بين الصور التقليديّة القديمة والصور المبتدعة الجديدة، مع اهتمامه باقتناص الصور وتوسيع جوانبها وإطالة أمدها، كصورة الصبح والليل وما فيه من نجوم في غرض النسيب:

وَطُرَّةُ صُبْحٍ أَم جبينُكَ سافِراً ... أَعَرْتَ الصَّباحَ نورَهُ أَمْ أعَارَكِ
وَأَنْتِ أَجَرْتِ الليلَ إذ هَزَمَ الضُّحى ... كتائِبَهُ والصُّبْحَ لمَّا اسْتَجارَكِ
فلِلصُّبحِ فيما بَيْنَ قُرْطَيْكِ مَطلعٌ ... وقدْ سَكَنَ الليلُ البهيمُ خِمارَكِ
فيا لِنهارٍ لا يغيضُ ظلامُهُ ... ويا لِظلامٍ لا يُغِيضُ نَهارَكِ
وَنَجْمُ الثُّرَيَّا أَم لآلٍ تقسَّمَتْ ... يمينَكِ إذ ضَمَّخْتِها أَم يَسارَكِ[1]

إلّا أنّ كلف ابن درّاج بتوليد المعنى وولعه بالفنون البلاغيّة والبديعيّة كالتشبيه والاستعارة والجناس والطباق، والمقابلة والتقسيم والترصيع أدّى إلى شيء من الغموض في شعره.

١– الديوان: ٢٥٤.

١– الديوان: ٨٤ – ٨٥.

ويلفت الانتباه الإكثار من الصور البحريّة والصور الحربيّة، كقوله في مقدّمة غزليّة لقصيدة مدحيّة:

أَوْجَفْتُ خَيْلِي فِي الهَوى ورِكابِي ... وقَذَفْتُ نَبْلِي بالصِّبَا وحِرَابِي
وسَلَلْتُ فِي سُبُلِ الغِوايَةِ صَارِماً ... عَضْباً تَرَقْرَقَ فِيهِ مَاءُ شَبابِي
ورَفَعْتُ لِلشَّوْقِ المُبَرِّحِ رايَةً ... خَفَّاقَةً بِهَوَائِجِ الأَطْرَابِ
ولَبِسْتُ لِلُّوَّامِ لأْمَةَ خالِعٍ ... مَسْرُودَةً بِصَبابَةٍ وتَصَابِ
وبَرَزْتُ لِلشَّكْوَى بِشِكَّةِ مُعْلَمٍ ... نَكَصَ المَلامُ بِهَا عَلَى الأَعْقَابِ[1]

من حيث الأوزان الشعريّة:

نظم ابن درّاج (٦٢%) من شعره على بحرَي الطويل فالكامل

ونظم نحو (٣٥%) من شعره على بحور البسيط فالمتقارب فالوافر ونظم المتبقّي من شعره على بحور: الخفيف فالرمل فالمديد فالمجتثّ فالمنسرح فالسريع فالرجز[1]. وهذا يدلّ على أنّه استخدم الأوزان الطويلة التامّة، وأنّه لم يستخدم الأوزان المجزوءة والقصيرة إلّا نادراً. كما أنّ ابن درّاج ينتقي الحروف الشائعة التي يكثر مجيؤها في الروي، فأكثر من ٨٠ % من شعره على حروف: الميم فالدال فالراء فاللام فالباء فالنون فالهمزة فالعين [2].

من حيث الطريقة الشعريّة:

تتكوّن طريقة ابن درّاج الشعريّة من طريقتي العرب القدامى وطريقة المحدثين لتشكّل ما يُسمّى بـ «مذهب الشعر (المحافظ الجديد)، وهو أكثر حداثة وأوفر مناسبة لأجواء المديح وما شابهه، تكوّن هذا المذهب من عناصر قديمة نهجاً ولغة وموسيقا، وعناصر محدثة معنى وصوراً وزركشة وتزييناً جمعها كبار الشعراء المشرقيّين كأبي تمّام والبحتري وابن الرومي والمتنبّي، وكان لديواني أبي تمّام والمتنبّي أثر كبير جدّاً» في الشعر

١– الديوان: ١٥٠

١– انظر الصورة الفنّيّة في شعر ابن درّاج القسطلّي الأندلسي: ١٩٦.

٢– الصورة الفنّيّة في شعر ابن درّاج القسطلّي الأندلسي: ٢٠٠ – ٢٠١.

الأندلسي وفي شعر ابن درّاج خاصّة.

ويرى د. أحمد هيكل أنّ ابن درّاج «يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد وتتّضح فيه معالم هذا الاتّجاه بأكمل ما يكون الاتضاح» [1].

ويعبّر د. إحسان عبّاس عن ذلك بصورة أخرى فيقول:« إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيّون وارتضوها بعد الغزال، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقّدها والتوائها، لأنّه جمع بين أبي تمّام والمتنبّي، وحاول أن يبذّ كلّ من تقدمه في المعاني والصياغة، مازجاً كلّ ذلك بجلبة ابن هانئ، مطيلاً إطالة ابن الرومي، معتمداً في أكثر شعره على الكدّ والمصابرة والنحت».

وعلى وجود شيء يسير من التساهل اللغوي في شعر ابن درّاج فإنّ شعره يتميّز في مختلف مراحل حياته بمستوى عال متقارب الخصائص من روعة الأسلوب، وقوة الصوغ وجزالة اللفظ، وتوليد المعنى واختراع الصور والاهتمام بالبديع، ويقول د. إحسان عبّاس: « على أنّنا يجب ألّا ننكر أنّ ابن درّاج أوّل شاعر أندلسي لا ينزل شعره عن مستوى الجزالة، وأنّ صياغته بالغة درجة عجيبة من القوّة، حتّى ليمكننا أن نقول إنّ إغرابه في طلب الصورة ثمّ محافظته على هذا اللون من الصياغة القويّة كان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين، وتجيء قصيدته على مسرد واحد لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، لا أعني بالانخفاض الرداءة وبالارتفاع الجودة، وإنّما أعني المراوحة بين المستويات العالية والذرا، فليس في قصائد ابن درّاج ذروة أو ذرا ينتقل بها القارئ من المستوى العامّ إلى ثبج الموجة العالي، كما يفعل المتنبّي حين ينتقل مثلاً من المدح إلى الحكمة، وإنّما هي موجة هادرة من أوّل القصيدة إلى آخرها»[1].

١– الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ٣٢١.

١– تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر سيادة قرطبة: ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧.

ابن شهيد الأندلسي

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعيّ [١].

والأشجعيّ نسبة إلى أشجع بن ريث بن غطفان، وهي قبيلة كبيرة"[٢].

وهو واسطة عقد بني شهيد وآخرهم، إذ انقطعت سلالة الأسرة بموته، وهو كما قال ابن سعيد "أعظم هذا البيت شهرة في البلاغة"[٣].

وهو أحد كبار الأدباء والنقّاد الأندلسيّين، وأحد فرسان الفنّيْن؛ الشعر والنثر، وأحد العلماء بالأدب وفنونه.

ولد أبو عامر ابن شهيد سنة (٣٨٢هـ) كما ذكر الحميدي[١]، وعاش طفولة مترفة في منزله "في منية المغيرة" بقرطبة " بدار ابن النعمان"[٢] وفي كنف المنصور كما يقول ابن شهيد الذي سجّل بعض أحداث طفولته في بعض رسائله.

ولعلّ تزهد الأب جعله يلتفت إلى العناية بتعليم ابنه كسائر أبناء الطبقة الراقية في قرطبة، وفي نصّ فريد تحدّث فيه ابن شهيد عن أحد أصدقائه فقال: كنّا "نتدارس ضروب العلم من أدب وخبر وفقه وطبّ وصنعة وحكمة"[٣].

وإن كنا لا نجد تفصيلاً لذلك، فلم يذكر المترجمون له أحداً من أساتذته وشيوخه في تلك الفنون التي ذكرها ابن شهيد؛ بل أشاروا إلى "عدم اقتنائه للكتب، وعدم اعتنائه بالطلب"[٤].

---

١ – انظر يتيمة الدهر: ٣٥/٢، رسائل ابن حزم ١٨٨/٢، ٣٥١/٤.
مطمح الأنفس: ١٨٩، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٩١/١/١، خريدة القصر: ٥٥٥/٣، لطائف الذخيرة: ٥٨، إعتاب الكتّاب: ٢٠٣، القاموس المحيط: ش هـ د.

٢ – وفيات الأعيان: ١١٨/١.

٣ – المغرب في حلى المغرب: ٧٨/١.

١ – جذوة المقتبس: ١٣٧المطرب في أشعار أهل المغرب: ١٦٠، وفيات الأعيان ١١٨/١.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٩٦/١/١.

٣ – المصدر نفسه: ٢٢٠/١/١.

٤ – المصدر نفسه: ١٩٢/١/١.

و"كان له من علم الطب نصيب وافر"[1]، وكذلك في الكيمياء والصنعة حتّى ألف في ذلك كتاباً [2]. وكلّ ذلك لا يكون بغير طلب وكدّ وجهد.

وتوفّي المنصور سنة (٣٩٢هـ) وابن شهيد في العاشرة من عمره، وتولّى بعده ابنه الحاجب المظفّر عبد الملك، وحكم من (٣٩٢-٣٩٩هـ) ولا نعلم شيئاً ذا بال عن حياة ابن شهيد في عهد المظفّر سوى أنّ أباه مات أواخر سنة (٣٩٣هـ) الرابع من ذي القعدة في بداية مراهقته وشبابه، ففقد ذلك الرقيب الحسيب والمعلّم والموجّه في مرحلة مهمّة في حياته.

ولم يتّصل ابن شهيد بعبد الرحمن شنجول[1] الذي تولّى الحجابة في (١٧ صفر سنة ٣٩٩هـ) ولم يمدحه أو يهنئه بالحكم كما فعل شعراء الوقت، ولم يكن الناصر شنجول ابن المنصور كسابقيه ذكاء وهيبة وقوّة بل أراد أن يكون وليّ العهد بعد الخليفة الضعيف هشام المؤيّد ابن الحكم المستنصر، ممّا أغضب الأمويّين فبايعوا المهدي محمّد بن هشام بن عبد الجبّار ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ الذي استغلّ خروج شنجول عن قرطبة فأعلن نفسه خليفة في(١٧ جمادى الآخرة عام ٣٩٩هـ)، ثمّ قبض على شنجول وقتله في (٣رجب ٣٩٩هـ).

ولم يتّصل ابن شهيد كذلك بالمهدي لأسباب ثلاثة أوّلها أنّه كان ما يزال شابّاً في حدود السابعة عشرة من عمره، وثانيها أنّ المهدي قتل الحاجب شنجول العامري، وهو صنيعة العامريّين ومحبّهم، وثالثها أنّ المهدي لم يحكم قرطبة إلّا نحو عشرة أشهر فقط؛ إذ وثب على الحكم أحد أقربائه وهو سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الخليفة الناصر، وتلقّب بالمستعين في (١٧ ربيع الأول عام ٤٠٠هـ) لاستعانته بالبربر والإفرنج، ثمّ عاد المهدي إلى قرطبة بمساعدة الإفرنج كذلك!! في (١٦ شوال سنة ٤٠٠هـ) ولكنّه سرعان

---

١ – جذوة المقتبس: ١٣٧.

٢ – انظر مؤلّفاته: ٣٦٨.

١ – انظر تفصيل ذلك في كتابي صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي: ١٣٩ وما بعدها.

ما قتله بعض فتيانه الصقالبة في (٨ ذي الحجّة سنة ٤٠٠هـ)، وأعادوا الخليفة هشام بن الحكم المستنصر فحكم حتّى (٢٦ شوال ٤٠٣هـ).

ولا نعلم شيئاً البتّة عن علاقة ابن شهيد بأغلب حكّام قرطبة السالفين إن وجدت، ولا نعرف عن ابن شهيد شيئاً يذكر إلّا أنّ المظنون أنّه كان لاهياً بطّالاً ينفق ممّا ترك له أبوه الوزير من ثروة طائلة[1].

ثمّ قام البربر بقيادة المستعين بحصار قرطبة من (٢٣ ربيع الأوّل سنة ٤٠١) إلى (٢٦ شوّال سنة ٤٠٣هـ)حتّى سقطت قرطبة في براثنهم، واستباحها البربر وقتّلوا أهلها وشرّدوهم، فبكاها ابن شهيد بكاء حارّاً ونسب إليه ابن الخطيب قصيدة رائيّة رائعة في رثائها تعدّ في أوّل ما وصل إلينا من شعر في رثاء مدائن الأندلس، ومطلعها[1]:

مـا في الطُّلُـولِ مِـنَ الأَحِبَّـةِ مُخْـبِرُ فَمَـن الَّـذِي عـن حالِهـا نَسْـتَخْبِرُ

واستولى المستعين على قرطبة مرّة ثانية وحكمها ما يزيد على سنتين من (٢٧ شوال ٤٠٣هـ) إلى (٢٠ محرم ٤٠٧هـ)، وهو أوّل حاكم لقرطبة اتّصل به ابن شهيد بعد أن تجاوز العشرين ببعض السنوات، ونضجت أدواته الفنّيّة ومدحه بقصيدة قافّية، بقي لنا منها بضعة أبيات، بيت انتقل فيه للمديح وبيت واحد في المديح قال:

كـأَنَّ عَلَيْهَـا نَفْحَـةً عَبْشَـمِيَّةً أَتَـتْ مِـن جنـابِ المُسْـتَعِينِ الـمُوَفَّقِ

ومنها:

فنِلْـتَ الَّـذِي قـد نِلْـتَ إِذ لَـيْسَ للعُـلا سـواكَ كـأَنَّ الـدَّهْرَ للنَّـاسِ منْتَـقِ[2]

ولم يدم صفاء علاقته بالمستعين طويلاً إذ عكّرها الوشاة الحاقدون فقد أصاخ المستعين لكلامهم فأعرض عن ابن شهيد وأهمله، فغضب ابن شهيد وتركه إلى أحد الفتيان العامريّين ومواليهم، فقد استطاع صديقه القديم الفتى أبو الجيش مجاهد العامري

---

١ – انظر الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٩٨/١/١.

١ – أعمال الأعلام: ١٠٥.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣٢٠/١/١.

(ت٤٣٦هـ) في مطلع القرن الخامس الهجري، أن يستولي على مدينة دانية وجزيرة ميورقة ويستقلّ بهما وتلقّب بالموفّق بالله وحكم نحو (٣٦ سنة).

وتزاحم على بلاطه كثير من الأدباء والعلماء الذين طرّحت بهم الفتنة كلّ مطرّح، لذلك لم يكن يسيراً لابن شهيد أن يجد لديه المكان المرموق الذي يطمح إليه، وثمّة غير رسالة وجّهها إلى أبي الجيش مجاهد الموفّق بالله حاول فيها أن يذكّره بما كان بينهما من صداقة في زمن الطفولة والشباب، وأن يُدِلّ بذلك عليه ويمتّ إليه[1]، وزاره فلم يلتفت إليه.

ثمّ تأتي مرحلة حكم البربر لقرطبة وصراعهم عليها إذ قتل عليّ بن حمّود الخليفة سليمان المستعين في (٢٠ محرم ٤٠٧هـ) واستولى على قرطبة، وتسمّى بالناصر وحكمها (٤٠٧-٤٠٨هـ).

ثمّ قتل فتولّى أخوه القاسم بن حمّود؛ المرّة الأولى من (٤٠٨-٤١٢هـ) وتسمّى بالمأمون، ولا نجد لابن شهيد أيّة أخبار أو أشعار في عهديهما[1]، ثمّ ثار على القاسم بن حمود ابن أخيه يحيى المعتلي وطرده من قرطبة، وحكم المرّة الأولى (مستهلّ جمادى الأولى سنة ٤١٢ إلى منتصف ذي القعدة ٤١٣هـ) [2].

وهو الوحيد الذي ذكرت لنا المصادر أنّه اتّصل به من الحمّوديّين ومدحه بقصائد متعدّدة منها رائيّة لم يبق من مدحها إلّا بيت يشير فيه إلى المعتلي ويجعله جسراً بين المقدّمة الغزليّة والرحلة والمديح قال:

وسِرْنَا نَجُوزُ النَّهْجَ حتَّى بَدا لنا بغُرّةِ يَحْيى ساطِعُ اللَّوْنِ أَزْهَرُ[3]

ولكن ابن شهيد سجن في عهد المعتلي القصير، قال ابن خاقان: "ودبّت إليه أيّام

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٢٨/١/١.

١ – البيان المغرب ١١٩/٣ –١٢٤

٢ – المصدر نفسه: ١٣١/٣، وثمّة بعض الاختلاف في المصادر في ذلك.

٣ – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: ٣٦/٢.

العلويّين عقارب، برئت بها من أباعد وأقارب، واجهه بها صرف قطوب، وانبرت إليه منها خطوب، نبا لها جنبه عن المضجع، وبقي بها يأرق ولا يهجع، إلى أن علقته من الاعتقال، حباله وعقلته في عقال أذهب ماله فأقام مرتهناً، ولقي وهناً، وقال:

قَرِيـــبٌ بِمُحْتَـــلِّ الهَـــوانِ بَعِيـــدُ ... يَجُـــودُ ويَشْـــكُو حُزْنَـــهُ فيُجِيـــدُ[1]

أمّا سبب سجنه فهو كثرة مزاحه ولهوه وهزله ممّا سهّل لحاسديه المقال فيه، والافتراء عليه، كما يقول ابن شهيد:

نَعَـــى ضـــرَّه عِنْـــد الإمـــامِ فيـــا لـــهُ ... عـــــدُوٌّ لأَبْنَـــــاءِ الكِـــرَامِ حسُـــودُ

ومـــــا ضَـــــرَّهُ إلّا مُـــــزَاحٌ ورِقَّـــــةٌ ... ثَنَتْـــهُ ســـفِيه الـــذِّكْرِ وهْـــو رشِـــيدُ

جَـنَى مـا جَـنَى في قُبَّـة المُـلْكِ غَيْـرُهُ ... وطُـــوِّقَ منـــهُ بالعَظيمـــةِ جِيْـــدُ

ومـــا فِيَّ إلَّا الشِّـــعْر أَثْبَتَـــهُ الهَـــوى ... فســـارَ بـــهِ في العـــالَمِين فَرِيـــدُ

أَفُـــوهُ بمـــا لم آتِـــهِ مُتَعَرِّضـــاً ... لحُسْـــنِ المعـــانِي تَـــارةً فأَزِيـــدُ

فـإِنْ طـال ذِكْـرِي بالمُجُـونِ فـإِنَّنِي ... شَـــقِيٌّ بِمَنظـــومِ الكَـــلامِ ســـعيدُ

وهَـلْ كُنْـتُ في العُشَّـاقِ أَوَّل عاشِـقٍ ... هَـــوتْ بجِحـــاهُ أَعْـــيُنٌ وخُـــدُودُ

وإِنْ طَـال ذِكْـرِي بالمُجُـونِ فإِنَّهَـا ... عَظـــائِمُ لم يَصْـــبِرْ لهُـــنَّ جَلِيـــدُ[1]

ثمّ عفا عنه المعتلي، وأطلقه من معتقله، قال ابن الأبّار "فصفح عنه وخلّى سبيله، فقال ابن شهيد من قصيدة يشكره ويهنّئه بفتح، أوّلها:

فَرِيـقُ العِـدا مِـن حَـدِّ عَزْمِـكَ يفـرقُ ... وبالـدَّهْرِ مِمّـا خـافَ بَطْشَـكَ أَوْلَـقُ[2]

وفيها يشير إلى عفوه عنه ويشكره على ذلك[3].

---

١ – مطمح الأنفس: ١٩٨، الديوان: ٩٩، وفيه: بعيد.

١ – المصدر نفسه: ١٩٨ –١٩٩.

٢ – إعتاب الكتّاب: ٢٠٤–٢٠٥. الديوان: ١٣٠.

٣ – انظر الديوان: ١٣٠.

وعاد القاسم بن حمّود المأمون، وطرد ابن أخيه المعتلي من قرطبة وحكمها مدّة قصيرة (من ذي القعدة ٤١٣- إلى جمادى الآخرة ٤١٤هـ) ولم يستطع أن يوطّد حكمه، فخرج من قرطبة وتصارع مع ابن أخيه، ولكنّه هزم على أسوار إشبيليّة مع جنده من الزنج[١].

ثمّ يلوح نجم العرب مرّة ثانية في عهد الفتنة إذا يخلع أهل قرطبة المأمون ابن حمّود البربري، ويبايعون عبد الرحمن بن هشام في (٤ رمضان سنة (٤١٤هـ)، وتلقّب بالمستظهر، وحكم (٤٧) يوماً فقط، " وكان رفع مقادير مشيخة الوزراء من بقايا مواليه بني مروان، منهم أحمد بن برد وجماعة من الأغمار، كانوا عصابةً يحلّ بها الفتاء، ويذهب بها العُجْب، قدّمهم على سائر رجاله، فأحقد بهم أهل السياسة، فانقضت دولته سريعاً، منهم أبو عامر بن شهيد فتى الطوائف، كان بقرطبة في رقّته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته، وأعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله "[١].

فضحك الزمان لابن شهيد وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، ولكنه سرعان ما عبس ثانية له، إذ ثار الناس على المستظهر بعد ما يزيد بقليل على شهر ونصف من حكمه، وولّوا محمّد بن عبد الرحمن بن عبد الله الناصر وتلقب بالمستكفي (وهو والد ولّادة) وحكم (٤١٤-٤١٦هـ) فقبض على المستظهر وقتله، ونكل برجال دولته، فهرب ابن شهيد إلى المعتلي في مالقة، ومدحه:

أَرى أَعْيُنـــاً ترنُـــو إليّ كأَنَّمـــا ... تُســـاوِرُ منهـــا جـــانِبيَّ أَراقِـــمُ[٢]

أَدورُ فـــلا أَعْتـــامُ غـــيْرَ مُحـــارِبٍ ... وأَسْـعى فـلا أَلْقَـى امْـرأً لِي يُسـالِمُ

ويُجْلِـبُ لِي فَهْمِـي ضُـرُوباً مِـن الأَذَى ... وأَشـقَى امْـرِئٍ في قَرْيَـةِ الجهْـلِ عـالِمُ

وأَوْجـعُ مَظْلُـومٍ لقَلْـبٍ وذِي حِجـىً ... فَـــتىً عَـــربيٌّ تزدريـــهِ أَعـــاجِمُ

---

١ – انظر الديوان: ١٣١.

١ – المصدر نفسه: ٥٠/١/١.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣٢١/١/١ – ٣٢٢.

ثمّ عاد المعتلي إلى قرطبة، ففرّ المستكفي ثمّ قتل، وبقي المعتلي مدّة قصيرة فيها (من رمضان ٤١٦ إلى محرّم ٤١٧هـ) ثمّ غادرها [١]،ثمّ قتل.

وتولى هشام بن محمّد الملقب بالمعتدّ بالله، وهو أخو المرتضى، وآخر الخلفاء الأمويّين الأندلسيّين (٤١٧-٤٢٢هـ)، وجعل ابن شهيد أحد وزرائه، ونصّب أحد الحائكين النسّاجين وهو الحكم ابن سعيد حاجباً له! "[٢].

وقد سئل ابن الحنّاط صديق ابن شهيد وغريمه ومناوئه: "كيف كان هشام المعتدّ فقال يكفي من الدلالة على اختياره أنّه استكتبني، واتّخذ ابن شهيد جليساً، وكان ابن الحنّاط أعمى، وابن شهيد أصمّ"[١].

وثمّة قطعة ذكر فيها المعتدّ ووصفه بأنّه آخر من بقي من زمرة المعالي[٢]ومن ثمّ تفاقمت الأمور واندلعت ثورة عارمة انتهت بنفي هشام المعتدّ، وقتل حاجبه ووزيره، وإلغاء الخلافة الأمويّة في قرطبة.

ولا نعرف عن ابن شهيد شيئاً ذا بال في السنوات الأولى للدويلة القرطبيّة التي نشأت في عهد ملوك الطوائف، ولا ندري هل بقي في قرطبة أم غادرها ثمّ عاد إليها، فإنّنا نجده في قرطبة في خبر مؤرخ بشهر شعبان سنة (٤٢٥هـ) حينما سيطر الفتى زهير الصقلبي على قرطبة وحكمها ما يزيد على سنة إذ نجد وزيره أبا جعفر أحمد بن عبّاس ينفث حقده القديم على كبراء قرطبة، ومنتماه منهم فقال: "ما رأيت بقرطبة إلّا سائلاً أو جاهلاً" و"تنقّص أديبهم أبا عامر بن شهيد"[٣]

ونجده في خبر آخر يستدعيه إلى مجلس أدبي عقده بقرطبة وأراد أن يجيز له قسيم بيت من الشعر.

---

١ – البيان المغرب: ١٤٣/٣.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥١٩/١/٣-٥٢٠.

١ – المغرب في حلى المغرب: ١٢٣/١.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/ ٢٢٣.

٣ – المصدر نفسه: ٦٦٦/٢/١.

مرضه ووفاته:

أصيب ابن شهيد قبيل وفاته بنحو سبعة أشهر بفالج نصفيّ في مستهلّ ذي القعدة سنة (٤٢٥هـ)، وكان قادراً على التنقّل، مستعيناً بعصا أو متّكئاً على أحد، نقل ابن بسّام عن ابن المصحفي صديق ابن شهيد: "قال: ولمّا طال بأبي عامر ألمه، وتزايد سقمه، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهلّ ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعدمه حركةً ولا تقلّباً، وكان يمشي إلى حاجته على عصا مرةً، واعتماداً على إنسان مرّة "[1].

وكان هذا القعود القسري فرصة لابن شهيد لمحاسبة نفسه، والتفكّر في سابق فعله، ويتراءى له اقتراب شبح الموت منه، فيتصوّر حزن أصدقائه وبكاءهم عليه، ويفنّدهم على ذلك، إذ يرى أنّه لا عجب من قدوم الموت بل العجب هو اتّقاد جذوة الهوى والإبداع لديه، وهو بين براثن الموت:

تَأَمَّلتُ ما أَفنيتُ مِنْ طُول مُدَّتي ... فلمْ أَرَهُ إلّا كلمحةِ ناظِرِ

وحَصَّلْتُ ما أَدرَكْتُ مِنْ طُولِ لَذَّتي ... فلمْ أُلْفِهِ إلَّا كصَفْقةِ خاسِرِ

وَما أَنا إلّا رَهْنُ مَا قَدَّمَتْ يَدي ... إذا غادَرُوني بَيْنَ أَهْلِ المَقابِرِ

سَقَى اللَّهُ فتْياناً كأَنّ وُجُوهَهُمْ ... وُجُوهُ مَصَابِيحِ النُّجُومِ الزَّواهِرِ

إذا ذَكَرُوني والثَّرَى فَوْقَ أَعْظُمِي ... بكَوا بعُيُونٍ كالسَّحابِ المواطِرِ

يَقُولُونَ قد أَوْدَى أَبُو عامِرٍ العُلا ... أَقِلُّوا فقِدْماً ماتَ آباءُ عامِرِ[1]

ولَيْسَ عَجِيباً أَنْ تدانَتْ منيّتي ... يُصَدّقُ فيها أَوّلي أَمْرَ آخِري

وَلَكِنْ عَجِيباً أَنّ بَيْنَ جَوانِحِي ... هَوى كَشَرَارِ الجمْرةِ المتطايِرِ

يحرِّكُني والمَوْتُ يَحْفُرُ مُهجتي ... ويهتاجُني والنَّفْسُ عِنْدَ حناجِري

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣٢٨/١/١.

١ – المصدر نفسه: ١/١/ ٣٣٢.

ويشبه هذا ما قاله ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع على لسان تابع أبي الطيّب المتنبّي، حارثة بن المغلّس، إذ تنبّأ لنفسه بالموت المبكّر قال: "إن امتدّ به طلق العمر، فلابدّ أن ينفث بدرر، وما أراه إلّا سيختصر، بين قريحة كالجمر، وهمة تضع أخمصه على مفرق البدر" [1].

وهذه القريحة المتوقّدة أبدعت عدداً من القصائد والمقطّعات الرائعة، وهو في هذه الحالة الصعبة، التي أوصلته إلى الرغبة بالانتحار وقتل النفس عندما تفاقم المرض على ابن شهيد، وكثر الألم " قبل وفاته بعشرين يوماً، فإنّه صار حجراً لا يبرح ولا يتقلّب، ولا يحتمل أن يحرّك لعظيم الأوجاع، مع شدّة ضغط الأنفاس وعدم الصبر، حتّى همّ بقتل نفسه غير مرّة.

وأوصى أن يدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجّالي، ويكتب على قبره في لوح رخام هذا النثر والنظم:

"بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾،

هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ الجنّة حقّ، وأنّ النار حقّ، وأنّ البعث حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور. مات في شهر كذا من عام كذا، ويكتب تحت هذا النثر هذا النظم

يـــا صـــاحِبِي قُـــمْ فَقَـــدْ أَطَلْنَـــا ... أَنَحْـــنُ طُـــولَ المَـــدَى هُجُـــودُ[1]

فقـــالَ ليْ لـــنْ نَقُـــومَ منهـــا ... مـــا دامَ مِـــنْ فَوْقِنـــا الصَّـــعِيدُ

تـــذَكُرُ كَـــمْ لَيْلَـــةٍ لَهَوْنـــا ... في ظِلِّهَـــا والزَّمَـــانُ عِيـــدُ

وكَـــمْ سُـــرُورٍ هَمَـــى عَلَيْنَـــا ... ســـحابةً ثـــرّةً تجُـــودُ

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٦٧/١/١.

١ – المصدر نفسه: ٣٣٣/١/١–٣٣٤.

كُـــلٌّ كـــأَنْ لمْ يكُـــنْ تَقَضَّـــى وشُـــــؤمُهُ حاضِـــــرٌ عَتِيـــــدُ

حصَّـــــلَه كاتِـــــبٌ حَفِـــــيظٌ وضـــــمَّهُ صـــــادِقٌ شَـــــهِيدُ

يـــــا وَيْلَنَـــــا إِنْ تَنَكَّبْتَنَـــــا رَحْمَـــــةُ مَـــــنْ بَطْشُـــــهُ شَـــــدِيدُ

يـــــا ربِّ عفْـــــواً فأَنْـــــتَ مـــــوْلىً قَصَّـــــرَ في أَمْـــــرِكَ العبيـــــدُ

وقال الحميدي عن ابن حزم: "قال لنا أبو محمّد عليّ بن أحمد: توفّي أبو عامر بن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى، سنة ستّ وعشرين وأربع مائة بقرطبة، ودفن يوم السبت ثاني يوم وفاته في مقبرة أمّ سلمة، وصلّى عليه جهور بن محمّد ابن جهور أبو الحزم، مولده سنة اثنتين وثمانين وثلاث مائة، ولم يعقب وانقرض عقب الوزير أبيه بموته... وكانت علّة أبي عامر ضيق النفس، والنفخ، ومات في ذهنه وهو يدعو الله عزّ وجلّ، ويشهد شهادة التوحيد والإسلام، وكان أوصى أن يصلّي عليه أبو عمر الحصّار الرجل الصالح، فتغيّب إذ دعي، وأوصى أن يسنّ عليه التراب دون لبن ولا خشب، فأغفل ذلك"[1].

قال ابن بسّام: "قالوا: وكان أبو عامر كثيراً ما كان يخشى صعوبة الموت، وشدّة السوق، فيسّر الله عليه، وما زال يتكلّم ويرغب إلى الله أن يرفق به، ويكثر من ذكره، وقد أيقن بفراق الدنيا، إلى أن ذهبت نفسه رحمه الله" [2]

ومات ابن شهيد أديب قرطبة وفتاها الذي أحبّ قرطبة وأهلها، فبكاه أهلها بكاءً حاراً، وأكثروا من التأسّف عليه، والحزن لفقده، ونظم بعضهم دموعه قصائد ومقطّعات في رثائه، قال ابن بسّام " لم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل، وأنشد على قبره من المراثي جملة موفورة لطوائف كثيرة "[3] ممن عاصره وعرفه ، وممّن سمع به ولم يعاصره.

---

١ – جذوة المقتبس: ١٣٦–١٣٧، وأجمع على هذه السنة كلّ من ذكر له ذلك.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/٣٣٤–٣٣٥.

٣ – المصدر نفسه: ١/١/٣٣٥.

أدبه

مؤلّفاته:

عرف ابن شهيد أديباً ناثراً كاتباً ناقداً ومؤلّفاً، وقد ترك لنا من إبداعه وتصنيفه بعضاً من الكتب المهمّة، وقد ذكر الحميدي عن ابن شهيد أنّ "سائر رسائله وكتبه نافعة الجدّ كثيرة الهزل"[1]. وقال الذهبي: "له تواليف أنيقة الجدّ مطبوعة الهزل"[2].

ولم يصل إلينا – إلى الآن – أيّ كتاب كامل من كتبه.

١– رسالة التوابع والزوابع:

وهي العمل الإبداعي الأوّل في الأندلس، وصل إلينا أجزاء منها.

٢– كتاب في البلاغة:

ذكر ابن حزم أنّ ابن شهيد " ألّف في ذلك كتاباً حسناً، وهو من المتمكّنين من علم البلاغة، الأقوياء فيه جدّاً، وقد كتب يخبرنا بذلك إلّا أنّنا لم نر الكتاب بعد "[1].

٣– حانوت عطّار:

الكتاب في الأدب والنقد وفي الأخبار والتراجم الأدبيّة والمختارات الشعريّة والنثريّة، أو هو في "الأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة "[2].

٤– كشف الدكّ وإيضاح الشكّ:

علم كشف الدكّ من فروع السحر والحيل [3]، وقال صاحب كشف الظنون: "كشف الدكّ... كتاب مشهور في علم الحيل والشعبذة"[4].

---

١ – جذوة المقتبس: ١٣٤.

٢ – سير أعلام النبلاء: ٥٠١/١٧.

١ – رسائل ابن حزم: ٣٥١/٤.

٢ – جذوة المقتبس: ١٣٤.

٣ – مفتاح السعادة: ٣٤٥/١.

٤ – كشف الظنون: ١٤٩٠/٢.

شعره:

أولاً: الثناء على شعره:

وصف الثعالبي المشرقي (ت ٤٢٩هـ) شعر ابن شهيد بأنّه "في غاية الفصاحة"[١].

وكتب عبد الرحمن بن فتّوح مقامة (سنة ٤٣٠هـ) أي بعد وفاة ابن شهيد بأربع سنوات وذكر رأيه في بعض شعراء عصره في محاورة له، قال:" من أقواهم استعارات وأصحّهم تشبيهات: قلت: البحر العجّاج، والسراج الوهّاج؛ أبو عامر بن شهيد"[٢].

وأشار ابن حيّان (ت٤٦٩هـ) إلى حضور "قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويّته، فيقود الكلام كما يريد"[١].

وقال في شعره "وشعره حسن عند أهل النقد؛ تصرّف فيه تصرّف المطبوعين، فلم يقصّر عن غايتهم"[٢].

وأخبر الحميدي (ت٤٨٨هـ) عن ابن شهيد بأنّه "كان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة"[٣].

وأسبغ ابن بسّام ثوب الثناء على ابن شهيد إسباغاً، فقال: " وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، وينبوع آياتها، ومادّة حياتها، وحقيقة ذاتها، وابن ساستها وأساتها، ومعنى أسمائها ومسمّياتها، نادرة الفلك الدوّار، وأعجوبة الليل والنهار؛ إن هزل فسجع الحمام، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام؛ نظم كما اتّسق الدرّ على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود، تشقّ القلوب قبل الجلود وجواب يجري مجرى النفس، ويسبق رجع الطرف

---

١ – يتيمة الدهر: ٤٩/٢.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٧٨٧/٢/١.

١ – المصدر نفسه: ١٩٢/١/١.

٢ – المصدر نفسه: ١٩٢/١/١.

٣ – جذوة المقتبس: ١٣٧.

المختلس."[1].

ووصفه العماد الأصبهاني بقوله: "كان ذا فكر لأنوف أبيات المعاني خازم، ولشنوف أبيات المعالي خازن"[2].

واختار ابن خلّكان (ت٦٨١هـ) من شعر ابن شهيد فقال: "ومن رقيق شعره وظريفه" ثمّ قال: "ومعظم شعره فائق"[3].

وعلّق ابن سعيد (ت٦٨٥هـ) في الرايات على معنى ذكره ابن شهيد فقال: "أحسن في تناوله غاية الإحسان"[1].

وكذلك قال الوطواط (ت٧١٨هـ): "أحسن ابن شهيد كلّ الإحسان"[2].

وعلّق ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) على بعض أبياته في داليّته الشهيرة "هذا وله الذي لا يقدر عليه[إلّا] كلّ مجيد، ولا يصل إليه إلّا كلّ فريد، ولا يقدر أحد على مقاربته إلّا من بعيد، بمثل هذا فليأت البلغاء إن قدروا، وليصنع الشعراء إن وجدوا، وإلّا فليمت بكمده كلّ مناظر، وليقل أنا وزّان وما أنا شاعر"[3].

وأخبر عنه الحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ) بأنّه "حامل لواء النظم والشعر"[4]. ونقل عن الحافظ الحميدي ثناءه الوافر على ابن شهيد وأضاف بأنّه "حامل لواء الشعر والبلاغة"[5].

ووصفه صاحب تبصير المشتبه (ت٨٥٢هـ) بأنّه "مشهور"[6].

---

١ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/١٩١–١٩٢.

٢ – خريدة القصر: ٣/٥٥٥.

٣ – وفيات الأعيان: ١/١١٨.

١ – رايات المبرّزين: ١٢٤.

٢ – غرر الخصائص الواضحة: ٢٩٤.

٣ – مسالك الأبصار: ٣٦.

٤ – تاريخ الإسلام: ٢٩/١٧١.

٥ – العبر في خبر من غبر: ٣/١٦١.

٦ – تبصير المشتبه: ٢/٧٩٣.

ثانياً: أغراض شعره:

١- المديح:

مثال من مديحه:

أَصُبَيْحٌ شِيمَ أَمْ بَرْقٌ بَدَا ... أَمْ سَنَا المَحبوبِ أَوْرَى أَزْنُدَا

هَبَّ مِن مرْقدِهِ مُنْكَسِراً ... مُسْبِلاً لِلْكُمِّ مُرْخٍ للرِّدا

يمْسحُ النَّعْسةَ مِنْ عيْنَيْ رشا ... صائِدٍ فِي كُلِّ يوْمٍ أَسدا

أَوْرَدتهُ لُطْفا آيتُهُ ... صفْوةَ العيْشِ وأَرْعتْهُ ددا

فَهْوَ مِن دلٍّ عراهُ زُبْدةٌ ... مِن صريحٍ لم يُخَالِطْ زَبدا

قُلْتُ هَبْ لي يا حبِيبِي قُبْلَةً ... تَشْفِ مِن غَمّك تَبريح الصَّدى

فانثَنَى يَهْتَزُّ مِن مَنكِبِه ... قائِلاً لا ثُمَّ أَعْطَانِي اليدا

كُلَّما كَلَّمنِي قَبَّلْتُهُ ... فَهْو إِمّا قال قَوْلاً ردَّدا

كاد أَنْ يرْجِع مِن لَثْمِي له ... وارْتِشَافِي الثَّغْرُ منه أَدْرَدَا

قال لي يلْعبُ صِدْ لي طائِراً ... فترانِي الدَّهْرَ أَجْرِي بالكُدَى

وإِذا اسْتَنْجَزْتُ يَوْماً وَعْدَه ... قالَ لي يَمْطُلُ ذَكِّرْنِي غَدا

شَرِبَتْ أَعْطَافُهُ خَمْرَ الصِّبا ... وسَقَاه الحُسْنُ حَتَّى عَرْبَدَا

وإِذا بِتُّ به في رَوْضة ... أَغْيَداً يَعْرُو نَباتاً أَغْيَدَا

قامَ في اللَّيْلِ بجيدٍ أَتْلَعٍ ... يَنْفُضُ اللمّةَ مِن دَمْعِ النَّدَى

رَشَأٌ بَلْ غادةٌ مَمْكُورةٌ ... عُمِّمَتْ صُبْحاً بلَيْلٍ أَسْوَدَا

...

فَأَنَا المجْرُوحُ مِن عَضَّتِهَا ... لا شَفانِي اللَّهُ منها أَبَدَا

ومَكـــانٍ عـــازِبٍ مِـــن جِـــيرَةٍ أَصْـــدِقَاءٍ وهُـــم عَـــيْنُ العِـــدَا

ذِي نبـــاتٍ طَيِّـــبٍ أَعْرَافُـــهُ كَعِـــذَارِ الشَّـــعْرِ في الخَـــدِّ بَـــدَا

تَحْسَـــبُ الهَضْـــبَةَ منـــه جَـــبَلاً وحُـــدُورَ المـــاءِ منـــه أَبْـــردَا

قُلْـــتُ إذ خَيَّمْـــتُ فيـــه قاطِنـــاً وتَلاقَتْـــنِي الأَمَـــانِي سُـــجَّدَا

وَرَأَيْـــتُ الـــدَّهْرَ خَـــوْفِي ســـاكِناً وبَـــنِي الأَحْـــرَارِ حَـــوْلِي أَعْبُـــدَا

جـــادَ مَـــن أَصْـــبَحْتُ في أَيَّامِـــه والـــرَّدى يَحْـــذَرُ مِـــن خَـــوْفِي الـــردَى

مَلِـــكٌ يُحْسَـــبُ عَـــدْلاً مَلَكـــاً وإِمـــامٌ أَمَّ فينـــا فَهَـــدَى

خِلْتُـــهُ والـــرُّمْحُ في راحَتِـــهِ قَمَـــراً يَحْمِـــلُ منـــه فَرْقَـــدَا

نِعـــمَ مـــا اخْتَـــرْتُ لنَفْسِـــي فـــاعْلَمُوا إِنْ زَمَـــانٌ جـــارَ أَوْ صَـــرْفٌ عَـــدَا

لَـــيْسَ مـــن يَعْشُـــو إلى نـــار القِـــرى مِثْـــلَ مَـــن يَعْشُـــو إلى نـــارِ الهُـــدَى[1]

٢–الهجاء:

لم يكن ابن شهيد من الهجّائين المجوّدين في هذا الغرض، ولم تؤثر عنه قصيدة واحدة له تزيد على عشرة أبيات[2]. وكان هجاؤه لأسباب أدبيّة وسياسيّة، أي من يتعرّض لأدبه بالنقد والانتقاص، ومن يتعرض له نفسه عند الحكّام ويبعده منهم.

ولَـيْسَ كمَنْحُـوسٍ مِـن القَـوْمِ مُـنْحِسٍ تَعـــاظَمَ حـــتّى قِيـــلَ لَـــيْسَ يُنـــالُ

أَعانَتْـــهُ أَمْـــوالٌ تَخـــوَّنَ عَيْنَهـــا وأَعْلَتْـــهُ غُثْـــرٌ سُـــوقةٌ وسِـــفالُ

لـهُ كَعْـبُ نَحْسٍ لم يُصاحِبْ بـه امْـرءاً علـــى الـــدَّهْرِ إِلّا رُدَّ وَهْـــوَ خَيـــالُ

فَفـي كُـلِّ عَصْـر مِـن عُصُـور حَياتِـهِ تُثَـــلُّ عُـــرُوشٌ أَوْ تُـــدَكُّ جِبـــالُ

هُـوَ الـدَّاءُ فاسْتأَصِـلْه تَلْـبَسْ جَمالَهـا وَداءُ كُعُـــوبِ المُنْحِسِيـــنَ عُضـــالُ

---

١ – الديوان: ١٠٢–١٠٥ .

٢ – الديوان: ١٣٨ .

٣- الفخر:

قال فيها:

وفُتُــوٍّ سَــرَوْا وقــد عَكَــفَ اللَّيْــ ـــلُ وأَرْخَــى مُغْــدَوْدِنَ الأَطْنَــابِ
وكــأَنَّ النُّجُــومَ لمّــا هَــدَتْهُمْ أَشــرقَتْ للعُيُــونِ مِــنْ آدابِي
وكــأَنَّ البُــرُوقَ إِذْ طــالَعَتْهُم أُوقِــدَتْ في سَمائِهَــا مِــنْ شِــهابِي
يَتَقَــرَّوْنَ جَــوْزَ كُــلِّ فَــلاةٍ جُــنْحَ لَيْــلٍ جَــوْزَاؤُه مِــنْ رِكَــابِي
عَــنَّ ذِكْــرِي لمُدْلجِيهِــمْ فتــاهُوا مِــنْ حَــدِيثِي في عُــرْضِ أَمْــرٍ عُجَــابِ
هِمَّــةٌ في السَّــمَاءِ تَسْــحَبُ ذَيْــلاً مِــن ذُيُــولِ العُــلا وجَــدٌّ كَــابِ
وفَــتىً أَرْهَفَــتْ ظُبَــاهُ المعَــالِي فَتَنَتْــهُ بالبــاتِرِ القِرْضَــابِ
نَيَّبَتْــهُ أَيَّامُــهُ ولَيالِيــ ـــهِ بظُفْــرٍ مِــنَ الخُطُــوبِ ونــابِ
حُــوَّلٌ لَــوْ رآهُ صَــرْفُ اللَّيَــالي لَتَــوَارى مِــنْ خَوْفِــهِ في حِجــابِ
ذاقَ أَيّامَــهُ فكــانَ سَــواءً عِنْــدَهُ طَعْــمُ شُــهْدِها والصّــابِ
ولَــو انَّ الــدُّنْيَا كَرِيمَــةُ نَجْــرٍ لم تَكُــنْ طُعْمَــةً لفَــرْسِ الكِــلابِ
وإِذا مَــا نَظَــرْتُ مَــا حــازَ غَــيْرِي قــلَّ عمَّــا حَمَلْتُــهُ في ثِيــابِي
جِيفَــةٌ أَنْتَنَــتْ فطــارَ إِلَيْهَــا مِــنْ بَــنِي دَهْرِهَــا فِــرَاخُ الــذِّئَابِ

ومنها:

مِــنْ شُــهَيْدٍ في سِــرِّهَا ثُمَّ مِــنْ أَشْــ ـــجَعَ في السِّــرِ مِــنْ لُبَــابِ اللُّبَــابِ
خُطَبَــاءُ الأَنَــامِ إِنْ عَــنَّ خَطْــبٌ وأَعارِيــبُ في مُتُــونِ عِــرابِ[1]

---

١ – الديوان: ٨٦ –٨٧.

٤–الوصف:

أَبَــرْقٌ بَــدا أَمْ لَمْــعُ أَبْــيَضَ قاصِــلِ ... ورَجْــعُ صَــدى أَمْ رَجْــعُ أَشْــقَرَ صَــاهِلِ

أَلا إِنَّهَــا حَــرْبٌ جَنَيْــتُ بِلَحظَــةٍ ... إِلى عُــرُبٍ يَــوْم الكَثِيــبِ عَقَائِــلِ

هَــوى تَغْلِــبِيٌّ غالَــبَ القَلْــبَ فــانْطَوَى ... علــى كَمَــدٍ مِــن لَوْعــةِ القَلْــبِ داخِــلِ

رِدي تَعْلَمِــي بالخَيْــلِ مَــا قَــرَّبَ النَّــوى ... جِيَــادَكِ بالثَّرْثَــارِ يــا ابْنَــةَ وائِــلِ

جَزَيْنَــا بِيَــوْمِ المَــرْجِ آخَــرَ مِثْلَــهُ ... وغُصْــناً سَــقَيْنا نَــابَ أَسْمَــرَ عاسِــلِ

حتّى انتهيت فيها إلى قولي:

تَــرَدَّدَ فيهــا البَــرْقُ حــتَّى حَسِــبْتُهُ ... يُشِــيرُ إِلى نَجْــمِ الرُّبَــا بالأَنامِــلِ

رُبــاً نَسَــجَتْ أَيْــدي الغَمــامِ لِلِبسِــها ... غَلائِــلَ صُــفْراً فَــوْقَ بِــيضٍ غلائِــلِ

سَــهِرْتُ بهــا أَرْعَــى النُّجُــومَ وأَنجمــاً ... طَوالــعَ للــرّاعِينَ غَيْــرَ أَوافِــلِ

وقــد فَغَــرَتْ فاهــاً بهــا كُــلُّ زَهْــرة ... إِلى كُــلِّ ضَــرْعٍ للغَمَامــةِ حافِــلِ

وَمَــرَّتْ جُيــوشُ المــزْنِ رَهْــواً كأَنَّهــا ... عَسَــاكِرُ زَنْــجٍ مُــذْهَبَاتُ المناصِــلِ

وحَلَّقَــتِ الخَضْــراءُ في غُــرِّ شُــهْبِها ... كَلُجَّــةِ بَحْــرٍ كُلِّلَــتْ باليَعالِــلِ

تخــالُ بهــا زُهْــرَ الكَوَاكِــبِ نَرْجِســاً ... علــى شَــطِّ وادٍ للمَجَــرّةِ ســائِلِ

وتلْمَــحُ مِــن جَوزائِهــا في غُرُوبِهــا ... تَســاقُطَ عَــرْشٍ واهِــنِ الــدَّعْمِ مائِــلِ

وتَحْسَــبُ صَــقْراً واقِعــاً دَبَرانَهَــا ... بعُــشِّ الثُّرَيّــا فَــوْقَ خُمْــرِ الحَوَاصِــلِ

وبَــدْرَ الــدُّجَى فيهــا غَــدِيراً وحَوْلَــهُ ... نُجُــومٌ كطَلْعَــاتِ الحَمَــامِ النَّواهِــلِ[1]

كــأَنَّ الــدُّجَى هَمّــي ودَمْعِــي نُجُومُــهُ ... تَحَــدَّرَ إِشْــفَاقاً لدَهْــرِ الأَراذِلِ

---

١ – الديوان: ١٤٢ – ١٤٣ .

٥- العتاب والشكوى:

لعلّ أجمل قصيدة لدى ابن شهيد في العتاب هي تكملة لاميّته السابقة:

كـأَنَّ الـدُّجَى هَمِّـي ودَمْعِـيْ نُجُومُـهُ ... تَحَـــدَّرَ إِشْـــفَاقاً لـــدَهْرِ الأَراذِلِ

هَـــوَتْ أَنْجُـــمُ العَلْيَـــاءِ إِلَّا أَقلّهَـــا ... وغِـبْنَ بمـا يَحْظَـى بـهِ كُـلُّ عاقِـلِ

وأَصْبَحْتُ في خَلْـفٍ إذا مَـا لَمَحْـتَهُمْ ... تَبَيَّنْـتَ أَنَّ الجَهْـلَ إِحْـدَى الفَضَـائِلِ

ومـا طـابَ في هَـذِي البَرِيَّـةِ آخـرٌ ... إذا هُـوَ لَمْ يُنْجَـدْ بطِيـبِ الأَوائِـلِ

أَرَى حُمُـراً فَـوْقَ الصَّـواهِلِ جَمّـةً ... فـأَبْكي بعَيْـنِي ذُلَّ تِلْـكَ الصَّـواهِلِ

ورُبَّـــتَ كُتَّـــابٍ إذا قِيـــل زَوِّرُوا ... بَكَـتْ مِـنْ تَـأَنِّيهِمْ صُـدُورُ الرَّسـائِلِ

ونَاقِـلِ فِقْـهٍ لَمْ يَـرَ اللَّـهَ قَلْبُـهُ ... يظُـنُّ بـأَنَّ الـدِّين حِفْـظُ المسـائِلِ

وحامِـلِ رُمْـحٍ راحَ فَـوْقَ مضَـائِهِ ... بِـهِ كاعِبـاً في الحـيِّ ذاتِ مغَـازِلِ

حُبُـوا بالمُنَـى دُونِي وغُـودِرْتُ دُونَهُـمْ ... أَرُودُ الأَمـانِي في رِيـاضِ الأَباطِـلِ

ومـا هِـيَ إِلَّا هِمَّـةٌ أَشـجعِيَّةٌ ... ونَفْـسٌ أَبـتْ لِيْ مِـنْ طـلابِ الرَّذائِـلِ

وفَهْـمٍ لَـوِ البِرْجِـيسُ جِئْـتُ بجِـدِّهِ ... إِذاً لَتَلَقَّـانِي بـنَحْسِ المقَاتِـلِ

وكَيْـف ارْتِضَـائِي دارةَ الجهْـلِ منْـزِلاً ... إِذا كانَـت الجـوْزاءُ بعْـضَ منَـازِلِي

وصبْرِي على مَحْضِ الأَذَى مِنْ أَسافِلٍ ... ومجْـدِي حُسـامِي والسّـيادةُ ذابِلـي

ولمَّـا طَمَـا بَحْـرُ البيـانِ بفِكْـرتِي ... وأَغْـرقَ قَـرْنَ الشَّـمْسِ بعْـضُ جـداوِلِي

زَفَفْـتُ إِلى خَـيْرِ الـورى كُـلَّ حُـرّةٍ ... مِـنَ المـدْحِ لَمْ تَحْمُـلْ بِرَعْـيِ الخَمائِـلِ

ومـا رِمْتُهَـا حـتَّى حطَطْـتُ رِحالَهَـا ... علـى ملـكٍ مـنهمْ أَغَـرَّ حُلاحِـلِ[1]

وكِـدْتُ لفَضْـلِ القَـوْلِ أَبْلُـغُ سـاكِتاً ... وإِن سـاءَ حُسّـادِي مـدَى كُـلِّ قائِـلِ

---

١ – الديوان: ١٤٣– ١٤٥.

٦- الغزل:

مَـــرَّ بي في فَلَـــكٍ مـــنْ رَبْـــرَبِ ... قَمَـــرٌ مُبْتَســـمٌ عـــنْ شَـــنَبِ

زَيَّنُـــوا أَعْـــلاهُ بالـــدُّرِّ كمـــا ... ثقَّلُـــوا أَسْـــفَلَهُ بِالكُثُـــبِ

فـــازْدَهَتْني أَرْيَحِيّـــاتُ الصِّـــبا ... واسْـــتَخَفَّتْنِي دواعِـــي طَـــرَبِي

فَتَعَرَّضْـــتُ لتَسْـــلِيمٍ لـــهُ ... فـــإِذا التَيَّـــاهُ لا يَعْبَـــأُ بي

قـــالَ هـــذا العَبْـــدُ مَـــنْ دَلَّلَـــهُ ... مَـــا الَّـــذِي أَمَّنَـــهُ مِـــنْ غَضَـــبي

يـــا ظُبَـــا لَحْظِـــي خُـــذِي لي رأْسَـــهُ ... فَهْـــوَ لا شَـــكَّ مِـــنْ أهـــلِ الرِّيـــبِ

فـــانْبَرَتْ أَلْحاظُـــهُ تَطْلُبُـــني ... وأَنـــا قُـــدَّامَها في الهَـــرَبِ

لَـــوْ تَـــراني وأَنـــا أُلْطِفُـــهُ ... وأُدارِيـــهِ مُـــدَارَاةَ الصَّـــبي

خِلْتَـــهُ جَبَّـــارَ قَـــوْمٍ مَـــرَدُوا ... وأَنـــا في لُطْـــفِ الـــوَعْظِ نَـــبي[1]

وقال:

ولمَّـــا تَمَـــلَّأَ مِـــنْ سُـــكْرِهِ ... فنـــامَ ونامَـــتْ عُيـــونُ العَسَـــسْ

دَنَـــوْتُ إِلَيـــهِ علـــى بُعْـــدِهِ ... دُنُـــوَّ رَفِيـــقٍ دَرَى مَـــا الْتَمَـــسْ

أَدِبُّ إِلَيْـــهِ دَبِيـــبَ الكَـــرَى ... وأَسْمُـــو إِلَيْـــهِ سُمُـــوَّ النَّفَـــسْ

أُقَبِّـــلُ منـــهُ بَيـــاضَ الطُّلَـــى ... وأَرْشُـــفُ منـــهُ سَـــوادَ اللَّعَـــسْ

وبِـــتُّ بـــهِ لَيْلـــتي ناعِمـــاً ... إِلى أَنْ تَبَسَّـــمَ ثَغْـــرُ الغَلَـــسْ[2]

٧-الرثاء:

أَنُـــوحُ علـــى نَفْسِـــي وأَنـــدُبُ نُبْلَهَـــا ... إِذا أَنـــا في الضَّـــرَّاءِ أَزمعْـــتُ قتلَهَـــا

---

١ - الديوان: ٩١ - ٩٢ .

٢ - الديوان: ١٢٠ .

رضـــيتُ قضـــاءَ اللَّـــهِ في كُـــلِّ حالـــة ... علـــيَّ وأَحكامـــاً تيقَّنْـــتُ عدلَهَـــا

أَظـــلُّ قَعيـــدَ الـــدّارِ تجنُبُـــني العصـــا ... على ضَعْفِ ساقٍ أَوْهَن السُّقْمُ رِجلَهَا

وأَنْعـــى خسيســـاتِ ابْـــنِ آدمَ عـــاملاً ... براحَـــةِ طِفْـــل أَحكـــم الضُّـــرُّ نَصْلَهَـــا

أَلا رُبَّ خَصـــمٍ قـــدْ كفيـــتُ وكُرْبـــةٍ ... كشفْتُ ودارٍ كُنْـتُ في المَحْـلِ وَبْلَهَـا

ورُبَّ قَـــريضٍ كـــالجريضِ بعثْتُـــهُ ... إلى خُطْبـــةٍ لا يُنْكِـــرُ الجمْـــعُ فَضْلَهَـــا

فمـــنْ مُبْلِـــغُ الفِتْيـــانَ أَنَّ أَخـــاهُمُ ... أَخُـوْ فَتكـةٍ شَـنْعَاءَ مَـا كـانَ شكْلَهَـا

عَلَـيْكُمْ سـلامٌ مِـنْ فَـتىً عضَّـهُ الـرَّدى ... ولمْ يَنْـسَ عينـاً أَثْبتَـتْ فيـهِ نَبْلَهَـا

يُبِـــينُ وكَـــفُّ المـــوْتِ يَخْلَـــعُ نَفْسَـــهُ ... وداخلُهَـــا حُـــبٌّ يهـــوِّنُ ثُكْلَهَـــا[1]

٨–الخمريّات:

ولَـــرُبَّ حـــانٍ قـــدْ أدَرْتُ بـــدَيْرِهِ ... خَمْـــرَ الصِّـــبا مُزِجَـــتْ بِصَـــفْوِ خُمُـــورِهِ

في فِتْيـــةٍ جَعَلُـــوا الزِّقـــاقَ تِكـــاءَهُمْ ... مُتَصَـــــاغِرِينَ تخشُّـــــعاً لكَبِـــــيرِهِ

يُهْـــدِي إِلَيْنـــا الـــرّاحَ كُـــلُّ مُعَصْـــفَرٍ ... كالخِشْـــفِ خَفَّـــرَهُ التِمـــاحُ خَفِـــيرِهِ

وَالى علَـــــيَّ بطَرْفِـــــهِ وبكَفِّـــــهِ ... فأَمـــالَ مِـــنْ رَأسِـــي لِعَـــبٍّ كَبِـــيرِهِ

والقَـــسُّ مِمَّـــا شـــاءَ طُـــولَ مُقامِنَـــا ... يـــدعو يُعَـــوِّذُ حَوْلَنَـــا بِزَبُـــورِهِ

وَتَـــرنَّمَ النَّـــاقُوسُ عِنْـــدَ صَـــلاتِهِمْ ... ففَتَحْـــتُ مِـــنْ عَيْـــني لرَجْـــعِ هَـــدِيرِهِ[2]

يَتَنـــاوَلُ الظُّرَفـــاءُ فيـــهِ وشُـــرْبُهُمْ ... لســـلافِهِ والأَكْـــلُ مِـــنْ خِنْزِيـــرِهِ

---

١ – الديوان: ١٤٥ .

٢ – الديوان: ١١٥ – ١١٦.

ابن حزم

أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي.

أحد كبار أعلام الأندلس وأئمّة الإسلام، عالم أديب شهير

ولد في ليلة الفطر سنة (٣٨٤هـ) بقرطبة[١]، وكان أبوه من وزراء ابن أبي عامر، ومن أهل العلم والأدب، فاعتنى بتربية ابنه، وأوكل نساء قصره بتعليمه، قال ابن حزم: «نشأت بين أيديهنّ، ولم أعرف غيرهنّ، ولا جالست الرجال؛ إلّا وأنا في حدّ الشباب، وحين تبقّل وجهي، وهنّ علّمنني القرآن، وروّينني كثيراً من الأشعار ودرّبنني في الخطّ»[١].

ومع أنّه نشأ في حجور النساء إلا أنّه كان محاطاً بالرعاية والصون والحفظ والتديّن، ومن أوائل مجالسته للرجال كان في عيد الفطر سنة (٣٩٦هـ) أي وهو في أوّل الثالثة عشرة من عمره، في مجلس الحاجب المظفر حينما كان صاعد البغدادي يمدح المظفّر بقصيدة «ولمّا رآني أبو العلاء أستحسنها وأصغي إليها كتبها لي بخطّه وأنفذها إليّ»[٢].

وتعلم ابن حزم العلوم المعروفة في عصره وتبحّر في بعضها ولاسيّما الفقه وأصوله، ودرس علوم القرآن والحديث واللغة والأدب والتاريخ والأنساب، وامتدّ ليدرس الفلسفة والمنطق والطبّ. وأوّل من درس عليه من الشيوخ هو ابن الجَسُوْر (ت٤٠١هـ) ثمّ درس على ابن وَجْهِ الجَنَّة (ت ٤٠٢هـ)، وابن الفَرَضِي (ت ٤٠٣هـ) والطَّلَمَنْكِي (٤٢٩هـ)، وابن مُفْلِت الظاهري (ت ٤٢٦هـ)، وحاز ثقافة هائلة ورسالته «في فضل الأندلس وذكر رجالها»[٣] دليل واضح على سعة علمه وتبحّر معارفه.

ولكنّ حياة ابن حزم تبدّلت من الاستقرار والرفاهيّة إلى الاضطراب والتشرّد منذ هبوب رياح الفتنة على قرطبة سنة (٣٩٩هـ) إذ ترك قصر أبيه وعاد إلى داره القديمة،

---

(١) جذوة المقتبس: ٣٠٢، طبقات الأمم: ١٨٤.

(١) طوق الحمامة (رسائله): ١٦٦/١.

(٢) انظر كتابي: صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي: ١٧٠، وانظر: جذوة المقتبس: ٢٣٢-٢٣٣، المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٣٤.

(٣) انظر: رسائل ابن حزم ١٧١/٢-١٨٨.

ودخل البربر قرطبة ونهبوها فارتحل إلى مدينة المريّة أوائل محرّم سنة (٤٠٤هـ)[١]، وفيها نكبه خيران الفتى العامري لسعيه « في القيام بدعوة الدولة الأمويّة، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب فصرنا إلى حصن القصر...ثمّ ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمّد، وساكنّاه بها»[٢]كما يقول ابن حزم نفسه.

وسار معه لمحاربة ابن حمّود المتغلّب على قرطبة، فقتل المرتضى وأُسر ابن حزم مدّة ثمّ أفرج عنه[١]، ثمّ عاد إلى قرطبة سنة (٤٠٩هـ) ولمّا قام المستظهر سانده ابن حزم وصار من كبار وزرائه، ولكنّ ذلك لم يدم أكثر من (٤٧) يوماً، إذ قتله المستكفي الخليفة الجديد سنة (٤١٤هـ)[٢]، واعتقل ابن حزم.

وذكر ياقوت أنّ ابن حزم وزر للمعتدّ بالله آخر خلفاء بني أميّة (حكم ٤١٨-٤٢٢هـ) وكانت هذه آخر مشاركة له في الحياة السياسيةّ، إذ اعتزلها بعدها وتفرّغ للتصنيف والتدريس و«أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار»[٣]، بيد أنّ اعتناقه للمذهب الظاهري بعد أن كان شافعيّاً في الأندلس المالكيّة، وشدّته في المنافحة عنه ومناظرته للعلماء أدّى إلى بغض أغلب علماء عصره ومصره له ومحاربتهم له، وكانت ردوده عليهم حادّة ومؤلمة وجارحة حتّى قيل «كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقين»[٤]، وقال ابن حزم في ظاهريّته:

وذي عَـذَلٍ فـيمنْ سَـبَانيَ حُسْـنُهُ ... يُطِيـلُ مَلامـي في الهَـوَى ويقـولُ

أَمِـنْ حُسْـنِ وَجْـهٍ لاحَ لمْ تَـرَ غَـيرَهُ ... ولم تَـدْرِ كيـفَ الجِسْـمُ أنـتَ قَتيـلُ

فقلـتُ لَـهُ أسْـرَفْتَ في اللـومِ فاتّئِـدْ ... فعنـديَ ردٌّ لـوْ أشـاءُ طويـلُ

(١) انظر: طوق الحمامة (رسائله): ٢٥١/١.

(٢) انظر: المصدر نفسه ٢٦١/١-٢٦٢.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١١٥/٤.

(٢) رسائله: ٢٠١/٢-٢٠٢.

(٣) معجم الأدباء: ٢٣٧/١٢.

(٤) وفيات الأعيان: ٣٢٥/٤

أَلَمْ تَـــرَ أنّي ظـــاهِرِيٌّ وأَنَّنِـــي علـى مَـا بـدا حـتَّى يقـومَ دَلِيـلُ[1]

لكنّهم اجتمعوا عليه وألّبوا العامّة والخاصّة عليه حتّى أدّى ذلك إلى إحراق كتبه فقال:

فـإنْ تحرقُـوا القِرطـاسَ لا تحرقُـوا الـذي تَضَـمَّنَهُ القرطـاسُ بـلْ هـوَ في صَـدْرِي
يسـيرُ معـيْ حيـثُ اسـتقلَّتْ ركـائِبِي ويَنْـزلُ إنْ أنـزِلُ ويُـدْفَنُ في قَـبرِي
دَعـوِنِيَ مـنْ إحـراقِ رَقٍّ وكَاغَـدٍ وقولُـوا بعلـمٍ كي يَرى الناسُ من يدرِي
وإلّا فعـودُوا في المكاتـبِ بَـدْأةً فكـمْ دونَ مـا تَبْغُـون للهِ مـنْ سـترِ[1]

وزاد على ذلك ميل ابن حزم إلى الأمويّين وتأييده لهم، ممّا أدّى لاضطراب حياته وكثرة تشرّده بين المدن وتجواله بينها، نقل ابن بسّام الشنتريني عن ابن حيّان القرطبي قوله عن ابن حزم إنّ العلماء تمالؤوا عليه « فمالوا على بغضه وردّ أقواله، فأجمعوا على تضليله، وشنّعوا عليه وحذّروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوّ إليه والأخذ عنه، وطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيّرونه عن بلادهم، إلى أن انتهوا به منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة»[2].

وتوفّي ابن حزم لليلتين بقيتا من شعبان سنة[3] (٤٥٦هـ) وكان قد رثى نفسه وذكر يومه المحتوم قال[4]:

كأنَّـكَ بـالزوّارِ لي قـدْ تبـادرُوا وقِيـلَ لهـم أودَى عَلـيُّ بـن أحمـدِ
فيـا رُبَّ محـزونٍ هنـاكَ وضـاحكٍ وكـمْ أدْمـعٍ تُـذْرَى وخَـدٍّ مخـدَّدِ
عفـا اللهُ عـنِّي يـومَ أرحـلُ ظاعنـاً عـنِ الأهْـلِ مَحمـولاً إلى بطـنِ مَلْحـدِ
وأتـرُكُ مـا قـدْ كنـتُ مغتَبطـاً بِـهِ وألقَـى الَّـذي آنَسْـتُ دَهْـراً بِمَـرْصَدِ
فـوا راحتـي إنْ كـانَ زادِي مقَـدَّماً ويـا نَصَبِـي إنْ كنْـتُ لَمْ أتَـزَوَّدِ

(١) معجم الأدباء: ٢٤٣/١٢-٢٤٤.
(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١٦٨/١/١-١٦٩.
(٢) معجم الأدباء: ٢٥٢/١٢-٢٥٣.
(٣) طبقات الأمم: ١٨٤، الصلة: ٤١٧/٢.
(٤) الذخيرة: ١٧٢/١/١، معجم الأدباء: ٢٥٣/١٢.

الثناء عليه وعلى علمه:

لم يكن ابن حزم على وفاق مع أغلب علماء عصره، ومع ذلك، فقد نال بعض ثناء منهم كقول ابن حيّان (ت ٤٦٧هـ): « كان أبو محمّد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلّق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة »[1].

وقد ذكر ابن حزم مدى غمط أهل بلده له، وعدم تقديرهم له حقّ قدره غير مرّة، ومن أشهر ذلك قوله[1]:

ولـــوْ أنّ رِسْـــطَالِيْسَ حـــيٌّ بزرتُـــهُ ... ومَـا عـاشَ إلَّا وهْـوَ لِي بـالحرَى تِـرْبُ
يسـافرُ علمِـي حيـثُ سـافرتُ ظاعنـاً ... ويصحبُنِـي حيـثُ اسـتقلَّتْ بيَ الرَّكْـبُ
محلَّتُـــهُ صـــدرِي ومســـكنُ عمـــرِهِ ... بحيـثُ التقَـى مـنِّي الترائـبُ والتِّـرْبُ
إذا مَـا الجنـوبُ استوطأتْ فِي ضـجاعِهَا ... فعنْـهُ نَبَـا عَـنْ مَضْـجَعِيْ مِـنِّيَ الجَنْـبُ
أنـا الشَّـمْسُ في جـوِّ العلـومِ منـيرةً ... ولكـــنَّ عيـــبِي أنَّ مَطْلعـــي الغـــربُ
ولـوْ أنَّـني مـنْ جانـبِ الشَّـرقِ طـالعٌ ... لجَدَّ على مـا ضـاعَ مـنْ ذكـرِي النَّهْـبُ
ولي نَحْـوَ أكنـافِ العـراقِ صـبابةٌ ... ولا غَـرْوَ أنْ يَستوحِشَ الكَلِـفُ الصَّـبُّ
فـإنْ يُنـزِلِ الـرَّحمنُ رَحْلِـيَ بيـنَهمْ ... فحينئـذٍ يبـدو التأسُّـفُ والكَـربُ
فكـمْ قائـلٍ أغْفَلْتُـهُ وهـوَ حاضـرٌ ... وأطْلـبُ مـا عَنْـهُ تجـيءُ بـهِ الكُتْـبُ
هنالِـكَ يَـدْرِي أنَّ للبعْـدِ قِصـةً ... وأنَّ كسـادَ العلـمِ آفتُـهُ القُـربُ
فواعَجَبَـا مَـنْ غـابَ عـنْهم تَشَـوَّقوا ... لـهُ ودُنُـوُّ المـرءِ مـنْ دارِهـم ذنـبُ
وإنَّ مكانـاً ضـاقَ عـنِّي لضـيّقٌ ... علـى أنَّـهُ فـيحٌ مذاهبُـهُ سُـهْبُ
وإنَّ رِجـالاً ضَـيَّعونِي لضُـيّعٌ ... وإنَّ زَمَانـاً لم أنـلْ خَصْـبَهُ سَـغْبُ

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١٦٧/١/١.

(١) الديوان: ٧٧.

وقوله:

أنـــا العِلـــقُ الـــذي لا عيـــبَ فيـــهِ ســـوى بلـــدِي وأنّي غـــيرُ طـــارِي
تقـــرُّ ليَ العـــراقُ ومـــنْ يليهـــا وأهـــــلُ الأرضِ إلَّا أَهـــــلَ دارِي
طَـــوْا حَسَـــداً علـــى أدبٍ وفَهْـــمٍ وعِلْـــمٍ مـــا يُشَـــقُّ لـــهُ غبـــارِي
فمهمـــا طـــارَ في الآفـــاقِ ذكـــرِي فمـــا سَـــطَعَ الـــدخانُ بغـــيرِ نـــارِ[1]

وقد أثنى عليه تلميذه الحافظ الحميدي (ت ٤٨٨هـ) فقال: «كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنّة، متفنّناً في علوم جمّة عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمّة»[1].

ونقل ابن بشكوال عن صاعد الأندلسي قوله فيه« كان أبو محمّد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسّعه في علم اللسان، ووفور حظّه من البلاغة، والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار»[2].

وقال المراكشي:« ثمّ إنّه نبذ الوزارة واطَّرحها اختياراً، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس» [3].

وكذلك أثنى عليه المشارقة ثناء عريضاً كقول الحافظ الذهبي الذي حلّاه بنعته له: «الإمام الأوحد البحر ذو الفنون والمعارف... الفقيه الحافظ المتكلّم الأديب والوزير الظاهري صاحب التصانيف... وفيه دين وخير، ومقاصده جميلة ومصنفاته مفيدة»[4] وقال الفيروزآبادي:« إمام في الفنون، ترك الوزارة وأقبل على التصنيف ونشر العلم»[5].

---

(١) الديوان: ٩٤.

(١) جذوة المقتبس: ٣٠٢.

(٢) الصلة: ٤١٦.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٣٤

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٨/١٨٥-١٨٧.

(٥) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: ١٤٦

مؤلّفاته:

نقل صاعد الأندلسي عن أبي رافع ولد ابن حزم أنّ مؤلّفات أبيه «نحو أربعمئة مجلّد، يشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممّن كان في دولة الإسلام قبله إلّا الطبري»[1].

وقال المراكشي:" له مصنفات كثيرة جليلة القدر، شريفة المقصد"[1]

وقال ابن حزم:

مُنَـــايَ مِـــنَ الـــدُّنْيَا علـــومٌ أَبُثُّهَـــا وَأَنْشُـــرُها في كُـــلِّ بـــادٍ وحَاضِـــرِ

دعـــاءٌ إلى القُـــرْآنِ والسُّـــنَنِ الَّتِـــي تَنَاسَى رجـالٌ ذِكْرَهَـا في المَحَاضِـرِ[2]

ومن مؤلّفاته المطبوعة:

في الأدب: طوق الحمامة، ديوان شعر.

في التاريخ والأنساب: نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ورسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، وجمهرة أنساب العرب.

وفي التربية: رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق.

وفي الفلسفة: التقريب لحدّ المنطق، رسالة في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها، التوقيف على شارع النجاة ، رسالة الرد على الكندي الفيلسوف.

وفي العلوم الدينيّة: المحلّى بالآثار، والإحكام لأصول الأحكام، رسالة البيان عن حقيقة الإيمان، رسالة الدرّة في تحقيق الكلام فيما يلزم الإنسان اعتقاده ،رسالة في الغناء الملهي.

وفي الملل والنحل:، والفصل في الملل والأهواء والنحل، ورسالة في الردّ على ابن النغريلة اليهودي.

---

(١) طبقات الأمم: ١٨٣.

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٣٤

(٢) رسائله: ٢٥١/١.

شعره:

تعلّم ابن حزم في صباه من الجواري المؤدّبات له الشعر والنظم، وروّض قريحته على نظمه، ومن شعره في الصبا قوله:

منعـــتِ جمـــالَ وجهـــكِ مُقلتيّـــا ولفظُـــكِ قـــدْ ضـــننتِ بـــهِ عليَّـــا
أراكِ نـــــذرتِ للـــــرحمنَ صَـــــوماً فلســـــتِ تكلّمـــــينَ اليـــومَ حيَّـــا
وقـــدْ غنّيـــتِ للعبّـــاسِ شِـــعْراً هنيئـــــاً ذا لعبّـــــاسٍ هنيّـــــا
فلـــوْ يلقـــاكِ عبّـــاسٌ لأضـــحى لفـــوزٍ قاليـــاً وبكـــمْ شـــجِيّا[1]

أمّا رأيه في الشعر فينبع من التعاليم الدينيّة والأخلاقيّة ؛ قال ابن حزم: "وأمّا علم الشعر فإنّه على ثلاثة أقسام: أحدها أن لا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام. يبين ذلك قوله عليه السلام " لأن يملأ – أو يمتلئ – جوف أحدكم قيحاً حتّى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً "؛

والثاني الاستكثار منه، فلسنا نحبّه وليس بحرام، ولا يأثم المستكثر منه إذا ضرب في علم دينه بنصيب. ولكنّ الاشتغال بغيره أفضل.

والثالث: الأخذ منه بنصيب، فهذا نحبّه ونحضّ عليه لأن النبيّ عليه السلام قد استنشد الشعر، وأنشد حسّان على منبره عليه السلام، وقال عليه السلام: "إنّ من الشعر لحكماً "، وفيه عون على الاستشهاد في النحو واللغة، فهذا المقدار هو الذي يجب الاقتصار عليه من رواية الشعر، وفي هذا كفاية وحسبنا الله ونعم الوكيل. وأمّا من قال الشعر في الحكمة والزهد فقد أحسن وأجر، وأمّا من قال معاتباً لصديقه ومراسلاً له وراثياً من مات من إخوانه بما ليس باطلاً ومادحاً لمن استحقّ الحمد بالحقّ فليس بآثم ولا يكره ذلك، وأمّا من قال هاجياً لمسلم ومادحاً بالكذب ومشبّباً بحرم المسلمين فهو فاسق، وقد بين الله هذا كله بقوله "والشعراء يتبعهم الغاوون"[2].

---

(١) رسائله طوق الحمامة: ٢٥١/١.والعبّاس هو العبّاس بن أحنف الشاعر العبّاسي الشهير وحبيبته فوز.

(٢) الردّ على ابن النغريلة: ١٦٢.

وصقلت موهبة ابن حزم الشعريّة مع الأيّام بمخالطة الأدباء والشعراء والتمرّس بالشعر إلّا أنّ طغيان العلوم المختلفة على صاحبه صبغ شعره بالصبغة العلميّة العقليّة، قال تلميذه الحافظ الحميدي « وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه»[1] حتّى إنّ أغلب شواهد كتابه طوق الحمامة من شعره:

وَدِدْتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمُدْيَةٍ ... وأُدخلتِ فيهِ ثمَّ أُطْبِقَ في صَدرِي
فأصبحتِ فيهِ لا تحلِّينَ غَيْرَهُ ... إلى مُقْتضَى يومِ القيامةِ والحَشْرِ
تعيشينَ فيهِ ما حييتُ فإنْ أَمُتْ ... سكنتِ شِغافَ القلبِ في ظُلَمِ القَبْرِ[2]

وقد جمع الحميدي شعر أستاذه في ديوان، ولكنّه ضاع فيما ضاع من تراث أندلسي، وقد نظم ابن حزم في أغلب الأغراض الشعريّة المعروفة، ويغلب عليه الطابع الذاتي في مختلف الأغراض كالغزل والفخر والرثاء والهجاء والزهد، لذلك كان المدح فيه قليلاً ولأسباب معيّنة.

ويتّسم شعر ابن حزم بتنوّع خصائصه بين سهولة اللفظ وجزالته، ومتانة التراكيب وسلاستها، وتوسّطه في المحسّنات البديعيّة، ويظهر في بعضه ثقل النظم والطابع العقلي والجدلي، وثقافته العلميّة الهائلة:

فَلَيسَ لِعَيْنِي عندَ غيرِكَ موقفٌ ... كأنَّكَ ما يحكونَ مِنْ حَجَرِ البَهْتِ
أُصرِّفُهَا حيثُ انصرفْتَ وكيفَمَا ... تقلّبتَ كالمنعوتِ في النَّحوِ والنّعتِ[3]

وأقول أيضاً:

يَعيبونَها عندِي بشُقرةِ شَعْرِها ... فقلتُ لهمْ هذا الذي زانَها عندِي
يَعيبونَ لونَ النَّوْرِ والتِّبْرِ ضَلَّةً ... لرأيٍ جهولٍ في الغوايةِ مُمتدِّ

(١) جذوة المقتبس: ٣٠٢.
(٢) رسائله – طوق الحمامة: ٢/ ٦١.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ٢٩.

وهلْ عابَ لونَ النرجسِ الغضِّ عائبٌ ... ولونَ النجومِ الزاهراتِ على البُعدِ

وأبعدُ خَلقِ اللهِ منْ كُلِّ حكمةٍ ... مُفضِّلُ جُرْمٍ فاحمِ اللونِ مُسودِّ

بهِ وُصفتْ ألوانُ أهلِ جهنّمٍ ... ولِبْسَةُ باكٍ مُثْكَلِ الأَهلِ محتدِّ

ومذْ لاحتِ الراياتُ سُوداً تيقّنتْ ... نفوسُ الورى أنْ لا سبيلَ إلى الرُّشدِ[1]

ومن شعره:

هلِ الدَّهرُ إلَّا مَا عَرفْنَا وأدْرَكْنَا ... فجَائِعُهُ تَبْقَى ولَذَّاتُهُ تَفْنَى

إذا أمْكنَتْ فيهِ مَسَرَّةُ ساعةٍ ... تولَّتْ كمَرِّ الطَّرْفِ واستَخلَفَتْ حُزْنَا

إلى تَبِعاتٍ في المعادِ ومَوقفٍ ... نَوَدُّ لدَيْهِ أنَّنَا لَمْ نَكُنْ كُنَّا

حَصَلْنا على هَمٍّ وإثمٍ وحَسْرةٍ ... وفاتَ الَّذي كُنَّا نَلَذُّ بِهِ عَيْنَا

حنينٌ لِمَا وَلَّى وشُغلٌ بما أتى ... وغَمٌّ لِمَا يُرْجَى فَعيْشُكَ لا يَهْنَا

كأنَّ الَّذي كُنَّا نُسَرُّ بكَوْنِهِ ... إذا حَقَّقْتُهُ النفسُ لَفْظٌ بلا مَعْنَى[2]

ومن شعره:

وَلَّى فولَّى جميلُ الصبرِ يتبعُهُ ... وصَرَّحَ الدمعُ ما تخفيهِ أضلعُهُ

جسْمٌ مَلولٌ وقلبٌ آلِفٌ فإذا ... حلَّ الفِراقُ عليهِ فَهْوَ مُوْجَعُهُ

لمْ يستقرَّ بِهِ دارٌ ولا وَطَنٌ ... ولا تَدفّأَ منهُ قطُّ مَضْجِعُهُ

كأنّما صِيْغَ مِنْ رَهْوِ السحابِ فَمَا ... تَزالُ ريحٌ إلى الآفاقِ تَدْفعُهُ

كأنّما هُوَ تَوْحيدٌ تَضِيْقُ بِهِ ... نفسُ الكفورِ فتأبى حينَ تُوْدَعُهُ

أو كوكبٌ قاطعٌ في الأُفْقِ منتقلٌ ... فالسيرُ يُغْرِبُهُ حيناً ويُطلعُهُ

أظنُّهُ لو جَزَتْهُ أو تساعدُهُ ... ألقتْ عليهِ انهمالُ الدمعِ يَتْبعُهُ[3]

---

(١) رسائله طوق الحمامة: ٢/ ١٣٢.

(٢) الصلة: ٤١٦.

(٣) رسائله طوق الحمامة: ٢/ ٢١٠.

ابن زيدون القرطبي

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي القرطبي علم الأندلس في القرن الخامس الهجري، وزير من أعظم الشعراء والكتّاب في الأندلس.

ولد في قرطبة في الرصافة منها سنة (٣٩٤هـ) في أسرة سريّة ثريّة من الأعيان، وبيت حسب ونسب من سلالة بني مخزوم القرشيّين [١].

نشأ ابن زيدون في قرطبة موئل العلم والعلماء نشأة علميّة متينة وتثقّف ثقافة واسعة، تبدّت آثارها في أدبه ولاسيّما نثره، ولعلّه درس أوّلاً على أبيه الفقيه العالم ولكنّه توفّي سنة (٤٠٥هـ) وابن زيدون في الحادية عشرة من عمره، ولا نعرف أحداً من أساتذته إلّا أبا بكر مسلم بن أحمد بن أفلح الأديب النحوي القرطبي (ت ٤٣٣هـ) ولا ندري ماذا قرأ ابن زيدون عليه من كتب ومن فنون العلوم، وإن كان ابن زيدون يشير في شعره إلى ثقافته الجمّة وعلمه الغزير فيقول[٢]:

ونَجَّـــدَنِي عِلْـــمٌ تَوالَـــتْ فُنُونُـــهُ كمـــا يَتَـــوالى في النِّظـــامِ سِـــخابُ

ولم تهتمَّ المصادر بباكورة حياة ابن زيدون ونشأته وشبابه في إبّان أواخر الدولة الأمويّة في الأندلس، ويبدو أنّ لابن زيدون يداً في وصول آل جهور إلى حكم قرطبة وإنشاء دولتهم، لذلك جعله أبو الحزم بن جهور من المقرّبين إليه ومن كبار حاشيته وأوكل إليه مهامّ عدّة، منها النظر في بعض أمور أهل الذمّة والسفارة بين ملوك الطوائف.

ولكن ابن زيدون كان يطمع إلى أكثر من ذلك، وقد صرّح بذلك في مدحه لأبي الحزم غير مرّة، ويبدو أنّه كان مستبشراً بقرب نجاح مساعيه وتحقّق مآربه قال:

إِيـــهِ أَبَـــا الحَـــزْمِ اهْتَبِـــلْ غِـــرَّةَ أَلْسِـــنَةُ الشُّـــكْرِ عَلَيْهَـــا فِصَـــاحْ

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/٣٣٧.

٢- الديوان: ٢٩.

لَا طَـــارَ لي حَـــظٌّ إلى غَايَـــةٍ إنْ لَمْ أَكُـــنْ مِنْـــكَ مَـــرِيشَ الجَنَـــاحْ
عُتْبَـــاكَ بَعْـــدَ الْعَتْـــبِ أُمْنِيَّـــةٌ مَـا لِـي عَلَـى الـدَّهْرِ سِـوَاها اقْـتِرَاحْ
لَمْ يَثْنِـــنِي عَـــنْ أَمَـــلٍ مَـــا جَـــرَى قَـدْ يُرْقَـعُ الخَـرْقُ وَتُؤْسَـى الجِـرَاحْ[1]

ولا نـدري لماذا لم يهتبـل أبـو الحـزم تلـك الغـرّة، ولا نـدري مـا الـذي جـرى فخـرق وجـرح، وثلـم سـيفه العضـب وجعلـه صـدئاً، لكـنّ ابـن زيـدون يرجـع السـبب إلى الوشـاة المبغضـين الكاشـحين الحاسـدين، ولكـن لابـدّ مـن الإشـارة إلى الاخـتلاف الواضـح في سلوكهما وطبيعتهما فأبو الحزم كهل كما يصفه ابن زيدون:

مَلِـــكٌ أَطَـــاعَ اللهَ مِنـــهُ مُوَفَّـــقٌ مَـــازَالَ أَوَّابـــاً إِلَيْـــهِ مُنِيْبَـــا
يَـــأْتِي رِضَـــاهُ مُعَاديـــاً ومُوَالِيـــاً ويَكُـــونُ فِيْـــهِ مُعَاقِبـــاً وَمُثِيْبَـــا[1]

وابـن زيـدون في ريعـان الشـباب وسـورته، يجـنح إلى اللهـو ويطـرب للخمـر، ويقـوم بمغامرات غراميّة، قد يكون لها أثر كبير في تغيّر ابن حزم عليه، ففي حياة ابن زيدون قصّة عشـق مشـهورة مع بنـت الخليفـة الأمويّ قبـل الأخير ولّادة بنـت المستكفي، وكانـت على قدر كبير من الجمال والملاحة والثقافة تزدان بالشقرة والبياض والرقّة والشباب.

وقـال ابـن خاقـان في وصـفها: «وكانـت مـن الأدب والظَّـرْف، وتتيـيم المسـمع والطَّرْف، بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب!»[2].

وكـان لـولّادة الـتي تثقّفـت ثقافـة عريضـة، ولاسـيّما في الأدب والشـعر، مجلـس أو منتدى أدبي، يجتمع فيه الأدباء والشعراء من علية القوم، أكمل ابن بسّام وصفه لها فقال: «وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلوّ نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب، على أنّها-

---

١- الديوان: ٥-٦-٧.

١- الديوان: ٢.

٢- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: ٢٢٥/١.

سَمَح الله لها، وتغمّد زللها- اطّرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلّة مبالاتها ومجاهرتها بلذّاتها، كتبتْ- زعموا- على أحد عاتقي ثوبها:

أَنَـــا واللهِ أَصْـــلُحُ لِلْمَعَـــالِي وَأَمْشِـــي مِشْيَتِـــي وأتِيـــهُ تِيْهَـــا

وكتبت على الآخر:

وأُمْكِـنُ عاشِـقِي مـن صَـحْنِ خَـدِّي وأُعطِـــي قُبْلَـــتِي مَـــنْ يَشْتَهِيْهَـــا

هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه»[1].

ومهما يكن من أمر صدق هذا الخبر أو كذبه، فمن المؤكّد أنّ ولّادة كانت على قدر من التحرّر زائد على الحدّ، وفي شعرها-الذي أضرب ابن بسّام عن ذكره لأنّ أكثره هجاء فاحش نزّه كتابه عنه[2]- ما يشي بذلك، ثمّ نراه ينقل عن ابن زيدون مباشرة من دون ذكر سند الخبر، «قال أبو الوليد: كنت في أيّام الشباب، وغمرة التصابي، هائماً بغادة، تدعى ولّادة، فلمّا قدّر اللقاء، وساعد القضاء كتبت إليّ:

ترقّـــبْ إذا جَـــنَّ الظّـــلامُ زيـــارتِي فـــإنّي رأيـــتُ الليـــلَ أكـــتمَ للسِّـــرِّ

وبي منـكَ مـا لـو كـانَ بالبـدرِ مـا بـدا وبالليـلِ مـا أدجـى وبـالنجمِ لَـمْ يسـرِ

فلمّـا طـوى النهـار كـافوره، ونشـر الليـل عنـبره، أقبلـت بقـدّ كالقضـيب، وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبّج، وظلّ سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودرّ الطلّ منثور، وجيب الراح مزرور، فلمّا شببنا نارها، وأدركت فينا ثارهـا، باح كلّ منا بحبّه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلـة نجني أقحـوان الثغـور، ونقطف رمّان الصـدور، فلمّا انفصلت عنها صباحـاً،

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/٤٢٩- ٤٣٠.

٢- المصدر نفسه: ١/١/٤٣٢.

أنشدتها ارتياحاً[1]:

ودَّعَ الصَّـــبرَ مُحـــبٌّ ودَّعَـــكْ ذائـعٌ مـنْ سـرِّهِ مَـا اسـتودعَكْ

يقـرعُ السِّـنَّ علـى أنْ لم يكـنْ زادَ في تلـكِ الخُطَـا إذْ شـيّعَكْ

يـا أخـا البـدرِ سـناءً وسـناً حفـظَ اللهُ زمانـاً أطلعَـكْ

إنْ يَطُـلْ بعـدَكَ ليلِـي فلكَـمْ بِـتُّ أشـكو قِصَـرَ الليـلِ مَعَـكْ

إذاً فقد كانت بداية هذا الحبّ مادّيّة اتّقدت جذوتها وتأجّجت حتّى لا يكاد يستطيع أن يفارقها، ويبتعد عن جناها المعلّل، وقد تبادلا الحبّ مدّة على غفلة من الرقيب والواشي، غير أنّ سحب العتب بدأت تغطّي سماء علاقتهما، وقد ذكر ابن زيدون نفسه سبب ذلك برأيه فقال: «وكانت عتبة قد غنّتنا:

أحِبَّتَنَـا إنِّي بَلَغْـتُ مُـؤَمَّلِي وسـاعَدَنِي دَهْـرِي وَواصَـلَنِي حِـبِّي

وجـاءَ يُهَنِّيـنِي البَشـيرُ بقُرْبِـهِ فَأَعْطَيْتُـهُ نَفْسِـي وَزِدْتُ لـهُ قَلبِي

فَسألتُها الإعادة بغير أمر ولّادة، فخبا منها برق التبسّم، وبدا عارض التجهّم وعاتبتْ عتبة، فقلتُ:

ومـا ضُـربتْ عُتْبَى لِـذَنْبٍ أتَـتْ بـهِ وَلكنَّمـا وَلَّادَةٌ تَشْـتَهِي ضَـرْبِي

فَقَامَـتْ تَجُـرُّ الـذَّيْلَ عـاثِرةً بِـهِ وتَمْسَـحُ طَـلَّ الـدَّمْعِ بـالعَنَمِ الرَّطْـبِ

فبتنا على العتاب في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك، فلمّا قامت خطباء الأطيار، على منابر الأشجار، وأنفتْ من الاعتراف، وباكرت إلى الانصراف، وشّتْ بمسك الأنقاس، على كافور الأطراس:

لـو كُنْـتَ تُنصفُ في الهَوَى مـا بَيْنَنَـا لَـمْ تَهْـوَ جـارِيتِي وَلَـمْ تَتَخَـيّرِ

وَتَرَكْـتَ غُصْـناً مُثْمِـراً بجمالِـهِ وجَنَحْـتَ للْغُصـنِ الَّـذِي لَمْ يُثْمِـرِ

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/٤٣٠-٤٣١.

ولَقَـدْ عَلِمْـتَ بِـأنَّني بَـدْرُ السَّـما لكِـنْ دُهِيـتَ لِشَـقْوَتِي بالمُشْتَـرِي»[1]

إذاً فهي نار الغيرة التي تحرق مندل الحبّ وتجعله بخوراً، ولعلّها أحد أهمّ الأسباب التي أدّت إلى جفائها له، ولعلّ السبب الآخر هو ضرب ابن زيدون لها في أثناء غضبه منها، وجداله معها، فندم على ذلك[1].

وذكر المقّري سبباً آخر لغضب ولّادة، وهو نقد ابن زيدون لبيت شعر لولّادة وتخطئتها فيه[2].

ولعلّ لذلك أسباباً أخر منها أنّه كان له يد في زوال الخلافة الأمويّة، وهي بنت الخليفة قبل الأخير فيها.

ومنها أنّها كانت كثيرة المعجبين، عديدة العشّاق، ولم يكن حبّها عذريّاً يتّصف بالعفّة والوَحْدة والديمومة، بل كان عشقاً مادّيّاً ينتهي بانتهاء المادّة، فنعلم أنّ أبا عبد الله ابن القلّاس كان من منافسي ابن زيدون على عشقها فأنذره ابن زيدون وهدّده وسخر منه[3].

أمّا المنافس الأخطر على ابن زيدون فهو الوزير أبو عامر ابن عبدوس، لما يمتلكه من جاه ومال وسلطة، فغضب ابن زيدون لتحولّ ولّادة عنه إلى صديقه الوزير ابن عبدوس وأرسل إليه قصيدة وعد ووعيد، وإنذار وتهديد بدأها بقوله:

أَثَـرْتَ هِزَبْـرَ الشَّـرَى إذْ رَبَـضْ وَنَبَّهتَـهُ إذْ هَـدَا فاغْتَمَـضْ

وذكّره بصداقته القديمة وحذّره من التورّط في بحرها العميق، معرّضاً بولّادة غير مرّة في هذه القصيدة [4].

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/٤٣١-٤٣٢.

١- الديوان: ١٩٧.

٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٤/٢٠٧.

٣- الديوان: ٧١-٧٢.

٤- الديوان ٧٠- ٧١.

ولم يكترث ابن عبدوس لتهديد ابن زيدون له، وظلّ على علاقته مع ولّادة بل زادت علاقته بها وتوثّقت وتمتّنت، فكتب ابن زيدون رسالته الهزليّة على لسان ولّادة، ساخراً بابن عبدوس فيها سخرية مريرة بل يصل الأمر بابن زيدون إلى التشهير بولّادة والطعن في شرفها من حيث لم يقدّر [1]. فغضبت ولّادة غضباً شديداً وهجته ببيتين معيبين، وبانت عنه بوناً كاملاً، وغضب الوزير وابن عبدوس وغضب الحاكم أبو الحزم ابن جهور لبذاءة ابن زيدون وتماديه في غيّه، كما ذكر ابن زيدون نفسه في إحدى رسائله إذ قال عن أبي الحزم:«وصفني بالبذاء وعابني بالتسلّط على الأعراض»[1].

وصادف ذلك حدوث مؤامرة لإعادة الخلافة الأمويّة إلى قرطبة سنة (٤٣١هـ) فاتّهمه بعض خصومه ومنافسيه، وهم كثر بالاشتراك فيها.

وزجّ في السجن بتهمة ملفّقة، زعم فيها أنّه استولى على عقار لبعض مواليه بعد وفاته، وكان بينه وبين القاضي ابن المكوى الذي حكم عليه بالسجن موجدة قديمة «وظفر أحجن»[2] فاستعجل بسجنه من دون الالتفات إلى الأدلّة ال التي قدّمها ابن زيدون.

ووصف ابن زيدون في رسالته هذه حاله وأورد تفصيلات دقيقة عن سجنه الذي كان سنة (٤٣٢هـ)، ونقله من السجن الخاصّ إلى السجن العامّ مع سفلة الناس واللصوص، ثمّ نقله إلى السجن الانفرادي ثمّ إعادته إلى السجن العام.

وذكر ابن زيدون أنّه اجتهد في الاعتذار وتلطّف في التودّد غير أنّه حرم التوفيق[3]. وتشفّع ابن زيدون بكلّ من يعرفهم من الوزراء الجلّة والكتّاب المرموقين كابن برد الأصغر ولم يفلح، لذلك لم يكن له بدّ من الهروب، و«تهيّأ له الفرار من السجن»[4]، بأن «أعمل

١– الديوان: ٢٤٦.

١– الديوان: ٢٥٦.

٢– إعتاب الكتّاب: ٢٠٨.

٣– الديوان: ٢٥٨.

٤– إعتاب الكتّاب: ٢١٢.

لنفسه في الخلاص من سجنه حيلاً»[1]، وتخفّى في بعض ضواحي قرطبة [2].

ثمّ انتقل إلى الزهراء «ليتوارى في نواحيها، ويتسلّى برؤية من فيها...» وفيها قال:

إنِّي ذَكَرْتُـــكِ بِـــالزَّهْرَاءِ مُشْـــتَاقَا والأُفْـقُ طَلْـقٌ ومَـرْأَى الأَرْضِ قَـدْ رَاقَـا[1]

ثمّ تشفع ابن زيدون بولي العهد أبي الوليد بل « فتشفّع له، وانتشله من نكبته، وصيّره في صنائعه»[2].

ولعلّ أبا الحزم عفا عنه بعد أن أفلت من قبضته فخشي أن يضيع منه، وتضيع مواهبه أو تذهب إلى غيره من ملوك الطوائف، فعفا عنه سنة (٤٣٤هـ)، وعاد إلى مكانته الرفيعة في بلاط ابن حزم الذي لم يلبث أن توفّي (٦/محرّم/٤٣٥هـ)، وخلفه ابنه أبو الوليد. فرثا ابن زيدون الحاكم الراحل ومدح الحاكم القادم في قصيدة ترشح بالفرح والحبور لخلاصه ممّن سجنه ظلماً وعدواناً- بزعمه -:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الشمسَ قَدْ ضَمَّها القبرُ وأنْ قَدْ كفانا فقدَها القمرُ البَدْرُ
وأنَّ الحيَا إنْ كانَ أقلعَ صَوْبُهُ فقدْ فاضَ للآمالِ في إثْرِهِ البَحْرُ
إساءةُ دَهْرٍ أحسَنَ الفعلَ بعدَها وذنبُ زمانٍ جاءَ يتبَعُهُ العُذْرُ
فلا يتهَنَّ الكاشحُونَ فما دجَا لنا الليلُ إلّا رَيثما طلعَ الفَجْرُ
وإنْ يكُ ولّى جهورٌ فمحمّدٌ خليفتُهُ العدلُ الرضَا وابنهُ البَرُّ[3]

ومدح ابن زيدون الحاكم الجديد الذي كانت تربطه به علاقات مودّة وصداقة، ولاسيّما أنّه تربه سنّاً، فمدحه بقصائد عدّة لعلّ أوّلها[4]:

١- المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٦٨.
٢- الديوان: ٢٥٠.
١- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: ١/٢٢٥-٢٢٦.
٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١/٣٣٨.
٣- الديوان: ٣٦.
٤- الديوان: ٤١.

مَـــا للمُـــدَامِ تُـــدِيرُهَا عَيْنَـــاكِ فَيَمِيـلُ فِي سُـكْرِ الصِّـبَا عِطْفَـاكِ[1]

وفيها يقول مشيراً إلى رغبته في تولّي بعض المهام العليا[2]:

قَلِّـــدْنِي الـــرَّأيَ الجَمِيـــلَ فَإنَّـــهُ حَسْـــبِي لِيَـــوْمَيْ زِينَـــةٍ وعِـــرَاكِ

وَإذَا تَحَـــدّثَتِ الحَـــوَادِثُ بالرَّنَـــا شَـــزْراً إليّ فَقُـــلْ لَهَـــا إيّـــاكِ

هُـوَ فِي ضَـمانِ العَـزْمِ يَعـبِسُ وَجهُـهُ للخَطْـبِ والخُلُـقِ النَّـدِي الضَّـحّاكِ

نقل ابن بسّام:« ولـمّا ولي الأمر بعد والده، نوّه به وأسنى خطّته، وقدّمه في الذين اصطنعهم لدولته، وأوسع راتبه، وجلّله كرامة لم تقنعه، زعموا»[1].

لذلك نجد أغلب قصائده فيه لا تخلو من شكوى له من عدم نيل ما يستحقّ، أو إشارة إلى طلب له في رفع مرتبته، ويبدو أنّ ابن زيدون بلغ ما أمّله من أبي الوليد بن جهور إذ نلحظ رضا ابن زيدون ممّا قرّبه وأسبغه عليه من ألقاب جديدة فصار يدعى بذي الوزارتين، وما كلّفه من مهامّ؛ إذ صار سفيراً خاصّاً له بينه وبين ملوك الطوائف، وقام ابن زيدون بمهمّته القديمة الجديدة بكلّ اقتدار بما يمتلكه من مواهب أدبيّة وكياسة ولباقة في معاملة، وخزائن من المعارف المتنوّعة، بل ربّما طاب له المقام عند بعضهم لما وجد من حفاوة وإكرام، ولهو ولعب في مجالسهم ممّا أغضب أبا الوليد عليه فعزله من منصبه قبل قفوله إلى قرطبة[2].

فاستصفحه فعاد ابن زيدون إلى ما كان عليه، وظلّ ينعم بالسعادة في كنف أبي الوليد حتّى حدثت فتنة بني ذكوان سنة (٤٤٠هـ) الذين سعوا «في الوثوب على السلطان بقرطبة»[3]. وهم أصدقاء ابن زيدون، فخاف من أن يناله شيء من نار هذه المؤامرة

١- الديوان: ٤١.

٢- الديوان: ٤٤.

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:١/١/ ٣٣٨.

٢- المصدر نفسه: ١/١/٣٣٨-٣٣٩.

٣- ابن زيدون (علي عبد العظيم): ١٥٦.

لصلته الوثيقة ببني ذكوان، وصداقته للذي قام بالانقلاب، ولكنّ أبا الوليد جفاه وأعرض عنه، وخشي أن يحلّ به ما حلّ به سابقاً في عهد أبي الحزم بن جهور، فغادر قرطبة، وذهب ابن زيدون إلى بطليوس فاستقبله المظفّر بالرحب والسعة، ثمّ عاد إلى قرطبة، ومنها كتب إلى صديقه القديم الوزير أبي عامر ابن مَسْلَمة وزير المعتضد بن عبّاد، وأعلمه برغبته في القدوم إلى بلاط المعتضد في إشبيليّة، فأبلغه الوزير ابن مسلمة بموافقة المعتضد، فارتحل ابن زيدون إلى بلاط المعتضد سنة إحدى وأربعين وأربعمئة فجعله من وزرائه المقرّبين، والمستشارين المسموع لهم والسفراء الموثوقين، وأكبر كتّابه وأعظم شعرائه وأعلى مقامه فلقّبه بذي الوزارتين أو الرياستين، وقابل ابن زيدون ذلك بأن نثر عليه درر شعره، ومدحه بقصائد كثيرة منها القصيدة الداليّة التي مطلعها:

للحُـــبِّ في تِلْـــكَ القِبَـــابِ مَـــرَادُ لَـوْ سَـاعَفَ الكَلِـفَ المَشُـوْقَ مُـرَادُ

ويقول فيها:

إنْ أغـــتَرِبْ فَمَواقِـــع الكَـــرَمِ الَّـــذي في الغَـــرْبِ شِـــمْتُ بُرُوقَـــهُ أرْتَـــادُ
أوْ أَنْـأَ عَـنْ صِـيْدِ المُلُـوكِ بِجَانِـبِي فَهُـــمُ العَبِيـــدُ مَلِـــيْكُهُمْ عَبَّـــادُ
المجْـدُ عُـذْرٌ في الفِـرَاقِ لِمَـنْ نَـأَى لِيَـرَى المصَـانِعَ مِنْـهُ كَيْـفَ تُشَـادُ[1]

ولقد توطّدت علاقته بالمعتضد كثيراً، وبلغت حدّاً كبيراً،فلقد استطاع ابن زيدون بكياسته ودماثته وحسن تصرّفه وروعة أدبه أن يروّض جماح المعتضد الحرون الذي قتل ابنه إسماعيل بيديه، بل صار شاعر المعتضد وكاتبه ونديمه وسميره وسفيره ولم تشب علاقته إلّا أويقات قليلة.

وقد سئل عن قدرته على التأقلم معه والنجاة من بطشه فقال: «كنت كمن يمسك بأُذني الأسد يتقّي سطوته، تركه أو أمسكه»[2].

وظل ابن زيدون في مكانته السامية في كنف المعتضد عشرين سنة، حتّى توفّي

١- الديوان: ٩٣، ٩٤.

٢- فوات الوفيات: ١٤٨/٢.

المعتضد «عشي الأربعاء لست خلون من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين»[1] سنة (٤٦١هـ) فيرثيه بقصيدة مطوّلة حارّة العواطف مطلعها:

هُوَ الدّهرُ فاصْبِرْ للذي أحدثَ الدَّهْرُ فَمِنْ شِيَمِ الأَبْرَارِ في مثلِهَا الصَّبْرُ[2]

ولا ينسى فيها مدح المعتمد، وكان وقتها في بداية الثلاثين من عمره:

وما أعطتِ السبعونَ قبلَ أولي الحِجَا مِنَ الإربِ ما أعطتْكَ عُشْرُوْكَ والعَشْرُ

ألَسْتَ الذي إنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بحادِثٍ تَبَلَّجَ مِنْهُ الوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ[1]

بعد هذه القصيدة العصماء المليئة بالعواطف نرى حتماً عدم صحّة البيتين المنسوبين إلى ابن زيدون في هجاء المعتضد بعد موته، وأنّهما من صنع حسّاده الكثر، ومنافسيه الذين طمحوا أن يزيحوه عن مكانته، بل أشاروا عليه بقتله ائتساء بما كان يفعل أبوه المعتضد مع حاشيته الذين كان يراوده شكّ في ولائهم[2].

ولو نظرنا في القطع التي جاوب فيها المعتمدُ ابن زيدونَ لوجدنا أنّه يخاطبه بعبارات الاحترام والتقدير، كقوله:

أيُّهـا الفـائِقُ أهْـلَ الـ ـعَصْرِ في مَـرْأى وَمَخْبَـرْ

لَـكَ آرَاءٌ مَـتى تَنْـ ـهَدُ إلى الأَعْـداءِ تظْفَـرْ

وافـقَ العَنْبَـرَ مِـنْ لَفْـ ـظِكِ مِـنْ ذِهْـنِيَ مجْمَـرْ[3]

بل إنّ المعتمد يمدح ابن زيدون مدحاً يدلّ على مدى حبّه وتقديره له[4].

وظلّ ابن زيدون يَهْنأ في ظلّ المعتمد الملك الشابّ، وإن لم يعد يصلح نديماً لفارق

١- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٣/٢٠٤.

٢- الديوان: ١٥٢.

١- الديوان: ١٥٦-١٥٧.

٢- الديوان: ١٥٩-١٦٠.

٣- الديوان: ١٤٠.

٤- الديوان: ١٤٦-١٤٧.

السنّ الكبير بينهما، ولكن بقي من أعظم رجال دولة المعتمد ولعلّه اعتمد عليه في فتح قرطبة وضمّها إلى مملكته وكان للمعتمد ذلك في شعبان سنة (٤٦٢هـ)، «فوصل إليها وآنس أهلها، وبثّ المعروف فيها وأحسن السيرة في أهلها فسرّوا بإيالته»[١].

وعاد ابن زيدون الشاعر المغترب إلى مسقط رأسه قرطبة وهو شيخ يقارب السبعين، ولكنّه لم يهنأ برؤيتها كثيراً، ولا برؤية أحبابه وأصدقائه القدامى لأنّه لم يقم فيها إلّا مدّة يسيرة، إذ قامت فتنة في إشبيليّة بين العامّة واليهود، فأشار بعض منافسي ابن زيدون كابن عمّار وابن مرتين على المعتمد أن يرسل ابن زيدون في جيش ابنه سراج الدين، لما له من وجاهة وما لديه من كياسة، وما يمتلك من أسلوب ذكيّ في التعامل مع الناس، فأذعن ابن زيدون لذلك على مرضه، ثمّ لحق ابنه به، ولكنّه قضى نحبه «وهلك بدار هجرته إشبيليّة صدر رجب سنة ثلاث وستّين، فدفن بها مشهوداً مفتقداً »[١].

الثناء على أدبه

أثنى أغلب النقّاد القدامى الذين تعرّضوا لأدب ابن زيدون ثناء وافراً عليه في حياته وبعدها، ولعلّ أهمّ هؤلاء هو ابن حيّان (ت ٤٦٩هـ) الذي وصفه «بفتى الآداب وعمدة الظرف والشاعر البديع الوصف والرصف؛ أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوّة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم»[٢].

وقال أيضاً في نهاية ترجمته له: «تولّى من أبي الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالاً وبياناً وبراعة ولساناً وظرفاً وحلولاً من مراتب البلاغة نظماً ونثراً، بمرقبة لم يخلف لها بعده عاطياً، بقرانه بين الكلامين، وبراعته في الفنّين، إلّا أنْ يكون عند أولي التحقيق والتحصيل في النظم أمدّ طلقاً، وأحثّ عنقاً، فلا يلحقه فيه تقصير، ولا يخشى رهقاً، أشهاده في الفنّين عدول مقانع حضور، عند أهل المعرفة»[٣].

١- أعمال الأعلام: ١٧٥/٣.

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٤١٩/١/١.

٢- المصدر نفسه: ٣٣٧/١/١.

٣- المصدر نفسه: ٤١٩/١/١.

وقال فيه الحميدي (ت ٤٨٨هـ): «شاعر مقدّم وبليغ مجوّد»[١].

وحبّر ابن خاقان مديحه تحبيراً ؛ فقال: «بهر بنظامه، وظهر كالبدر ليلة تمامه، فجاء من القول بسحر، وقلّده أبهى نحر، لم يصرّفه إلّا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلّا في سماء مؤانسة وأفراح، ولا تعدّى به الرؤساء والملوك، ولا تردّى منه إلّا حظوة كالشمس عند الدلوك، فشرّف بضائعه، وأرهف بدائعه وروائعه»[١].

وقال:« وقد أثبتّ من مقاله، في مقامه وانتقاله، وسراحه واعتقاله، ما هو أرقّ من النسيم، وأشرق من المحيّا الوسيم»[٢].

أمّا ابن بسّام (ت ٥٤٢هـ) فقد وجد فيه متّسعاً للمدح والثناء ما يرضي أندلسيّته فقال فيه: «كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم، أحد من جرّ الأيّام جرّاً، وفات الأنام طرّاً، وصرّف السلطان نفعاً وضرّاً، ووسع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفّقه، ولا للبدر تألّقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه، وحظّ من النثر غريب المباني، شعري الألفاظ والمعاني»[٣].

وقال فيه أيضاً: «فأمّا سعة ذرعه، وتدفّق طبعه، وغزارة بيانه، ورقّة حاشية لسانه، فالصبح الذي لا ينكر ولا يردّ، والرمل الذي لا يحصر ولا يعدّ، أخبرني من لا أدفع خبره من وزراء إشبيليّة قال: "لعهدي بأبي الوليد قائماً على جنازة بعض حرمه، والناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمع يجيب رجلاً منهم بما أجاب به آخر، لحضور جنانه وسعة ميدانه".وقد أخرجت من أشعاره التي هي حجول وغرر، ونوادر أخباره التي هي مآثر وأُثر، ورسائله التي أخرست ألسنة الحفل،واستوفت أمد المنطق الجزل، ما يسرّ الآداب ويصوّرها، ويستخفّ الألباب ويستطيرها»[٤].

١- جذوة المقتبس: ١٣١.

١- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: ٢٠٩/١.

٢- المصدر نفسه: ٢١٦/١.

٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣٣٦/١/١.

٤- المصدر نفسه: ٣٣٩/١/١.

وبالغ عبد الواحد المراكشي (ت ٦٢١هـ) في الثناء عليه بذكر تفوقه على أعظم الشعراء المشارقة: «ذو الأدب البارع والشعر الرائع، أحد شعراء الأندلس المجيدين، وفحولها المبرّزين، كان إذا نسب أنساك كثيّراً، وإذا مدح أزرى بزهير، وإذا فخر أناف على امرئ القيس»[١].

ووصفه ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ) بأنّه «شاعر قرطبة وزعيمها، ونخبة بني مخزوم وضميمها»[٢].

وذكره الذهبي (ت ٧٤٨هـ) في كتبه الثلاثة فقال في العبر: «ابن زيدون شاعر الأندلس»[٣]. وقال في السير: «الشاعر، حامل لواء الشعر في عصره»[٤]. وقال في تاريخ الإسلام: «الشاعر المشهور»[٥].

وذكر صلاح الدين الصفدي أنّ ابن زيدون «كان يسمّى بحتري الغرب لحسن ديباجة نظمه، وسهولة معانيه»[٦].

ولن نتعرّض لخصائصه الفنّيّة في هذا المبحث، بل سنحاول استنباطها من قراءتنا واستقرائنا لنماذج دالّة من شعره.

آثاره

- ديوان شعر.
- الرسالة الجديّة
- الرسالة الهزليّة
- وسائر رسائله.

١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١٠٥-١٠٦.

٢- المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٦٤.

٣- العبر في خبر من غبر: ٢٥٥/٣.

٤- سير أعلام النبلاء: ٢٤١/١٨.

٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ١١٤/٣١.

٦- الوافي بالوافيات: ٩١/٧.

أغراضه الشعرية

١- الغزل

أضْـحَى التَّنَـائِي بَـديلاً مِـنْ تَدَانِيْنَـا ... وَنَـابَ عَـنْ طِيْـبِ لُقْيَانَـا تَجَافِيْنَـا

ألَّا وَقَـدْ حـانَ صُـبحُ البَـيْنِ صَبّحَـنَا ... حَـيْنٌ فَقَـامَ بِنَـا للحَـيْنِ نَاعِيْنَـا

مَـنْ مُبْلِـغُ المُلْبِسِيْنَـا بانتزَاحِهِـمُ ... حُزْنـاً مَـعَ الدَّهْـرِ لا يَبْلَـى وَيُبْلِيْنَـا

أنَّ الزمـانَ الـذي مَـا زالَ يُضْحِكُنَـا ... أُنْسـاً بقُرْبِـهِمُ قَـدْ عَـادَ يُبْكِيْنَـا

غِـيظَ العِـدَا مِـنْ تَسـاقِينَا الهَوَى فَـدَعْوا ... بِـأنْ نَغَـصَّ فَقَـالَ الدَّهْـرُ آمِيْـنَـا

فَانحَـلَّ مَـا كَـانَ مَعْقُـوداً بِأنْفُسِنَـا ... وَانْبَـتَّ مَـا كَـانَ مَوْصُـولاً بِأيْدِيْنَـا

وَقَـدْ نَكُـونُ وَمَـا يُخْـشَى تَفَرّقُنَـا ... فَـاليَوْمَ نَحْـنُ ومَـا يُـرْجَى تَلَاقِيْنَـا

يـا لَيْـتَ شِـعرِي ولم نُعتِـبْ أعادِيَـكُمْ ... هَـلْ نَـالَ حَـظّاً مـنَ العُتْبَـى أعادِيْنَـا

لم نَعتَـقِدْ بَعْـدَكُمْ إلّا الـوَفاءَ لكُـمْ ... رَأْيـاً ولمْ نَتَقَـلَّدْ غَيْـرَهُ دِيْنَـا

مَـا حَقُّنَـا أنْ تُقِـرّوا عَـيْنَ ذِي حَسَـدٍ ... بِنَـا ولا أَنْ تَسُـرُّوا كاشِـحاً فِيْنَـا

كُنّـا نَـرَى اليَـأْسَ تُسْـلينا عَوَارِضُـهُ ... وَقَـدْ يئسْـنَا فَمَـا لليـأسِ يُغْرِيْنَـا

بِنْتُـمْ وبِنَّـا فَمَـا ابتَلَّـتْ جَوَانِحُنَـا ... شَوْقـاً إلَيكُـمْ وَلَا جَـفَّتْ مَآقِيْنَـا

نَكَـادُ حِـينَ تُنَاجِـيكُمْ ضَمـائرُنا ... يَقضـي عَلينَـا الأَسَـى لَـوْلَا تَأسّيْنَـا

حَالَـتْ لِفَقْدِكُـمُ أيَّامُـنَا فَغَـدَتْ ... سُـوْداً وكانـتْ بكُـمْ بِيْضـاً لَيَالِيْنَـا

إذْ جانِـبُ العَـيشِ طَـلْقٌ مـن تألُّفِنـا ... وَمَرْبَـعُ اللَّهْـوِ صَـافٍ مَـنْ تَصَافيْنَـا

وإذْ هَصَرْنَـا فُنُـونَ الوَصْـلِ دَانِيَـةً ... قطوفُهَـا فَـجَنَيْنَـا مِنْـهُ مـا شِيْنَـا

لِيُسْـقَ عَهْـدُكُمُ عَهـدُ السّـرُوْرِ فَمَـا ... كُنْـتُمْ لِأَرْوَاحِنَـا إلَّا رَيَـاحِيْـنَـا

لا تَحْسَـبُوا نَـأيَكُمْ عَنّـا يُغَيّرُنَـا ... أنْ طَـالَ مـا غَيّـرَ النّـأيُ المُحِبِّيْنَـا

وَاللهِ مَـا طَلَبَـتْ أهْواؤُنَـا بَـدَلاً ... مِـنْكُمْ وَلَا انصـرَفَتْ عـنكمْ أمانِيْنَـا

يَـا سَـارِيَ البَـرْقِ غـادِ القَصْـرَ وَاسْـقِ بِـهِ ... مَـنْ كَـانَ صِـرْفَ الهَـوَى وَالـوُدِّ يَسْقِيْنَـا

وَاسـألْ هُنالِـكَ هَـلْ عَـنّى تَذَكُّرُنَـا ... إلْفـاً تَذَكُّـرُهُ أمْسَـى يُعنّيْنَـا

وَيَـا نَسِـيمَ الصَّـبَا بَلّـغْ تحيّتَنَـا ... مَـنْ لَـوْ على القُـرْبِ حَيّا كـانَ يُحْيِيْنَا

فَهَـلْ أرَى الـدَّهْرَ يقضـينَا مُسَـاعَفَةً ... مِنْـهُ وإنْ لمْ يكُـنْ غِبّـاً تَقَاضِيْنَـا

رَبِيْـبُ مُلْـكٍ كَـأنَّ اللهَ أنْشَـأَهُ ... مِسْـكاً وَقَـدَّرَ إنشـاءَ الـوَرَى طِيْنَـا

أوْ صَـاغَهُ وَرِقـاً مَحْضـاً وَتَوّجَـهُ ... مِـنْ نَاصِـعِ التّـبْرِ إبْداعـاً وتَحْسِيْنَـا

إذا تَـأَوَّدَ آدَتْـهُ رَفاهِيَـةً ... تُـومُ العُقُـودِ وأَدْمَتْـهُ البُـرَى لِيْنَـا

كَانَـتْ لَـهُ الشّـمسُ ظِئْـراً في أكِلّتِـهِ ... بَـلْ مَـا تَجَلَّـى لهـا إلَّا أَحَايِيْنَـا

كَأنّمَـا أُثبِتَـتْ في صَحْـنِ وَجْنَتِـهِ ... زُهْـرُ الكَوَاكِـبِ تَعويـذاً وتَزْيِيْنَـا

مَـا ضَـرَّ أنْ لمْ نَكُـنْ أكفـاءَهُ شَـرَفاً ... وَفي المَـوَدّةِ كَـافٍ مِـنْ تَكَافِيْنَـا

يـا رَوْضَـةً طالَمـا أجْنَـتْ لَوَاحِظَنَـا ... وَرْداً جَـلَاهُ الصِّـبَا غَضّـاً وَنَسْرِيْنَـا

وَيَـا حَيَـاةً تَمَلّيْنَـا بِزَهْرَتِهَـا ... مُـنًى ضُـرُوباً وَلَـذّاتٍ أفَانِيْنَـا

وَيَـا نَعِيمـاً خَطَرْنَـا مِـنْ غَضَارَتِـهِ ... في وَشْـيِ نُعْمَـى سَـحَبنَا ذيلَـهُ حِيْنَـا

لَسْـنَا نُسَـمِّيْكِ إجْـلالاً وَتَكْرِمَـةً ... وَقَـدْرُكِ المُعْتَـلِي عَـنْ ذاكَ يُغْنِيْنَـا

إذا انفَـرَدَتِ وَمـا شُـورِكْتِ في صِـفَةٍ ... فَحَسـبُنَا الوَصْـفُ إيضَـاحاً وتَبْيِيْنَـا

يـا جَنّـةَ الخُلْـدِ أُبْـدِلْنا بِسِدْرَتِهَـا ... وَالكَـوْثَرِ العَـذْبِ زَقّومـاً وغسلِيْنَـا

كَأنّنَـا لمْ نَبِـتْ وَالوَصْـلُ ثالِثُنَـا ... وَالسّـعدُ قـدْ غَـضَّ مـنْ أجفـانِ وَاشِيْنَـا

سِـرّانِ في خـاطِرِ الظّلمـاءِ يَكتُمُنَـا ... حَـتَّى يَكـادُ لِسـانُ الصّـبْحِ يُفشِيْنَـا

لا غَـرْوَ في أَنْ ذكرنـا الحـزْنَ حـينَ نَهَـتْ ... عنـهُ النُّهَـى وَتَرَكْنـا الصّـبرَ ناسِيْنَـا

إنّـا قَرَأْنـا الأسَـى يَـوْمَ النَّـوَى سُـوَراً ... مَكتوبَـةً وَأخَـذْنا الصّـبرَ تَلْقِيْنَـا

أمّـا هَـواكِ فَلَـمْ نَعْـدِلْ بِمَنْهَلِـهِ ... شُـرْباً وإنْ كَـانَ يُرْوِينَـا فيُظْمِيْنَـا

لم نَجْـفُ أُفْـقَ جَمَـالٍ أنـتِ كَوْكَبُـهُ ... سـالِينَ عَنْـهُ ولَمْ نَهجُـرْهُ قَالِيْنَـا

وَلَا اخْتِيـاراً تَجَنّبنـاهُ عَـنْ كَثَـبٍ ... لكـنْ عَـدَتْنَا علـى كُـرهٍ عَوَادِيْنَـا

نأسَـى عَلَيْـكِ إذَا حُثّـتْ مُشَعْشَعَـةً ... فِينـا الشَّـمُولُ وَغَنّانَـا مُغَنِّيْنَـا

لا أَكْـؤسُ الـرّاحِ تُبْـدِي مِـنْ شمائِلِنَـا ... سِـيْمَا ارْتيـاحٍ وَلَا الأوْتَـارُ تُلْهِيْنَـا
دُومِـي علـى العهـدِ مـا دُمْنَـا مُحَافِظَـةً ... فـالحُرُّ مَـنْ دانَ إنْصـافاً كمـا دِيْنَـا
فَمـا استَعَضْـنا خَلـيلاً مِنْـكِ يَحْبِسُـنَا ... وَلَا اسـتَفَدْنا حَبِيبـاً عَنْـكِ يَثْنِيْنَـا
وَلَـوْ صَـبَا نَحْوَنَـا مـن عُلْـوِ مَطْلَعِـهِ ... بَـدْرُ الـدُّجَى لَمْ يكـنْ حاشـاكِ يُصْبِيْنَـا
أَوْلِي وَفَـاءً وإنْ لَمْ تَبْـذُلِي صِـلَةً ... فـالطّيْفُ يُقْنِعُنَـا والذّكـرُ يَكفِيْنَـا
وفِي الجَـوَابِ مَتَـاعٌ إنْ شَـفَعتِ بِـهِ ... بِـيْضَ الأَيـادي الـتي مَـا زِلْـتِ تُوْلِيْنَـا
عَلَيْـكِ مِنَّـا سَـلَامُ اللهِ مَـا بَقِيَـتْ ... صَـبَابَةٌ مِنْـكِ نُخْفِيْهَـا فتَخْفِيْنَـا

٢- **المدح:**

مَـا للمُـدَامِ تُـدِيرُها عَيْنَـاكِ ... فَيَمِيـلُ فِي سُـكْرِ الصِّـبَا عِطْفَـاكِ
هَـلّا مَزَجْـتِ لعَاشِـقِيكِ سُلافَـها ... بِبَـرُودِ ظَلْمِـكِ أو بِعَـذْبِ لَمَـاكِ
بَلْ ما عَلَيكِ وَقد مَحضْتُ لكِ الهَوَى ... فِي أنْ أفُـوزَ بِحُظْـوَةِ المِسْـوَاكِ
ناهِيـكِ ظُلْمـاً أنْ أضَـرَّ بِيَ الصَّـدَى ... بَرْحـاً وَنَـالَ البُـرْءَ عـُودُ أرَاكِ
وَاهـاً لِعَطْفِـكِ والزّمَـانُ كَأنّمَـا ... صُـبِغَتْ غَضَـارَتُهُ بِبُـرْدِ صِبَـاكِ
واللّيـلُ مَهْمَـا طَـالَ قَصَّـرَ طُولَـهُ ... هَـاتِي وَقَـدْ غَفَـلَ الرَّقِيْـبُ وَهَـاكِ
وَلَطَالَمَـا اعْتَـلَّ النّسِـيمُ فَخِلْتُـهُ ... شَـكْوَايَ رَقّـتْ فَاقْتَضَـتْ شَكْـوَاكِ
إنْ تَـأْلَفِي سِـنَةَ النّـؤومِ خَلِيّـةً ... فَلَطَالَمـا نَـافَرْتِ فِيَّ كَـرَاكِ
أوْ تَحْتَبِـي بـالهَجْرِ فِي نـادِي القِـلَى ... فَلَكَـمْ حلَلْـتُ إلى الوِصَـالِ حُـبَـاكِ
أمّـا مُـنَى نَفْسِـي فَأنـتِ جَمِيعُـها ... يـا لَيْتَـنِي أصْـبَحْتُ بَعْـضَ مُنَـاكِ
يَـدْنُو بِوصْـلِكِ حِـيْنَ شَـطَّ مَـزَارُهُ ... وَهْـمٌ أَكَـادُ بِـهِ أُقَبِّـلُ فَـاكِ
وَلِـئِنْ تَجَنّبْـتِ الرّشَـادَ بِغَـدْرَةٍ ... لَمْ يَهْـوِ بِي فِي الغَـيِّ غَيْـرُ هَـوَاكِ
لِلْجَهْـوَرِيِّ أبي الوَلِيْـدِ خَلَائِـقٌ ... كـالرّوضِ أضْـحَكَهُ الغَـمَامُ البـاكِي
مَلِـكٌ يَسـوسُ الـدّهرَ منـهُ مُهـذَّبٌ ... تَـدْبِيرُهُ للمُلْـكِ خَيْـرُ مِـلَاكِ
جَـارَى أبَـاهُ بَعـدَما فَـاتَ المَـدَى ... فَـتَلَاهُ بَـيْنَ الفَـوْتِ والإدْرَاكِ

شَـــمْسُ النّهَـــارِ وَبَـــدْرُهُ ونُجومُـــــهُ ... أبْنَـــاؤُهُ مِـــنْ فَرْقَـــدٍ وسِـــمَاكِ

يَسْتَوْضِـــحُ السّـــارُونَ زُهْـــرَ كَوَاكِـــبٍ ... مِنْـــهُمْ تُنِيْـــرُ غَيَاهِـــبَ الأَحْـــلاكِ

بُشْـــرَاكِ يـــا دُنْيَـــا وَبُشْـــرَانَا معـــاً ... هَـــذَا الـــوَزِيرُ أبُـــو الوَلِيْـــدِ فَتَـــاكِ

تُلْفَـــى السّـــيَادَةُ ثَمَّ إنْ أصْلَلْتِـــها ... وَمَـــتَى فَقَـــدْتِ السّـــرْوَ فهـــوَ هُنَـــاكِ

وإذا سَـــمِعْتِ بِوَاحِـــدٍ جُمِعَـــتْ لَـــهُ ... فِـــرَقُ المَحَاسِـــنِ في الأَنَـــامِ فَـــذَاكِ

صَمْصَـــامُ بَـــادِرَةٍ وَطَـــوْدُ سَكِيْـــنَةٍ ... وَجَـــوادُ غَايَـــاتٍ وَجَـــذْلُ حِكَـــاكِ

طَلْـــقٌ يُفَنَّـــدُ في السّـــماحِ وَجَاهِـــلٌ ... مَـــنْ يَسْتَشِـــفُّ النّـــارَ بـــالمِحْرَاكِ

صَـــنَعُ الضّـــمِيرِ إذا أجـــالَ بِمُهْـــرَقٍ ... يُمْنَـــاهُ في مَهَـــلٍ وفي إيْشَـــاكِ

نظـــمَ البَلاغَـــةَ في خِـــلَالِ سُطـــُورِهِ ... نَظْـــمَ الّـــلآلي التُّـــومِ في الأسْـــلاكِ

نَـــادَى مَســـاعِيَهُ الزّمَـــانُ مُنَافِســـاً ... أحْـــرَزْتِ كُـــلَّ فَضِـــيلَةٍ فَكَفَـــاكِ

مـــا الـــوَرْدُ في جَنـــاهُ ســـامَرَهُ النـــدى ... مُتَحَلّيـــاً إلّا بِـــبَعْضِ حُـــلاكِ

كَـــلّا وَلَا المِسْـــكُ النَّمُـــومُ أرِيجُـــهُ ... مُتَعَطّـــراً إلّا بِوَسْـــمِ ثَنَـــاكِ

اللّهـــوُ ذكـــرُكِ لا غنـــاءُ مرجِّـــعٍ ... يفـــتنّ في الإطـــلاقِ والإمســـاكِ

طـــارتْ إليـــكِ بأوْليائِـــكِ هـــزّةٌ ... تهفـــو لهـــا أسـفاً قلـــوبُ عـــداكِ

يـــا أيّهَـــا القَمَـــرُ الّـــذِي لِسَـــنَائِهِ ... وَسَـــنَاهُ تَعْنُـــو السَّـــبْعُ في الأفْـــلاكِ

فـــرحُ الرّياســـةِ إذْ ملكـــتَ عنانَهَـــا ... فـــرحُ العـــروسِ بصـــحّةِ الإمـــلاكِ

مَـــنْ قـــالَ إنّـــكَ لستَ أوحـــدَ في النُّهَـــى ... والصّـــالحاتِ فـــدانَ بالإشـــراكِ

قلِّـــدْنِيَ الـــرّأيَ الـــجميلَ فإنّـــهُ ... حســـبي ليـــومَيْ زينـــةٍ وعـــراكِ

وإذا تحـــدّثَتِ الحـــوادثُ بالرَّنَـــا ... شَـــزْراً إليّ فَقُـــلْ لَهَـــا إيّـــاكِ

٣- **العتاب:**

مَـــا عَلَـــى ظَنِّـــيَ بـــَاسُ ... يَجْـــرحُ الدّهْـــرُ وَيَاسُـــو

رُبَّمَـــا أشْـــرَفَ بِالمَـــرْ ... ءِ عَلَـــى الآمَـــالِ يَـــاسُ

وَلَقَـــدْ يُنْجِيـــكَ إغْفَـــا ... لٌ ويُرْدِيْـــكَ احْتِـــرَاسُ

وَالمَحَاذِيـــرُ سِهـــَـــامٌ ... والمَقَـــــادِيْرُ قِيـــَـــاسُ

وَلَكَـــمْ أجْـــدَى قُـــعُودٌ ... وَلَكَـــمْ أكْـــدَى التِمـــَاسُ

وَكَـــذَا الـــدّهْرُ إذَا مَـــا ... عَـــزَّ نَـــاسٌ ذَلَّ نـــَاسُ

وَبَنُـــو الأيّـــامِ أحْيـــَا ... فٌ سَـــرَاةٌ وَخِسـَـــاسُ

نَلْـــبَسُ الـــدّنْيَا وَلَكِـــنْ ... مُتْعَـــةٌ ذَاكَ اللّبـــَـــاسُ

يَـا أبـا حَفْـصٍ وَمَـا سَـا ... وَاكَ فِي فَهْـــمٍ إيـــَـــاسُ

مِـنْ سَـنَا رَأيِـكَ لِي فـــي ... غَسَـــقِ الخَطـــبِ اقتبـــاسُ

وَوِدَادِي لَـــكَ نـــَـــصٌّ ... لَمْ يُخَالِفـــــهُ قِيـــَـــاسُ

أنَـــا حَيْـــرَانٌ وَلِلأُمـــــ ... ـرِ وُضُـــوحٌ والتِبـــَـــاسُ

مَـا تَـرَى فِي مَعْشَـرٍ حـا ... لـوا عَـنِ العَهـدِ وَخـَاسُوا

وَرَأوْنِي سَـــــــــامِرِياً ... يُتّقـــى مِنْـــهُ المَسَـــاسُ

أذْؤبٌ هَامَـــتْ بِلَحْمِـــي ... فانْتِهَـــاشٌ وَانْتِهـــَـــاسُ

كُلّهُـمْ يَسْـأَلُ عَـنْ حـا ... لِي وَلِلـــذّئْبِ اعْتِسـَـــاسُ

إنْ قَسَـا الـدّهْرُ فَلِلْمَـا ... ءِ مِـنَ الصّـخْرِ انْبِجَـاسُ

وَلَـــئِنْ أمسَـــيْتُ محْبُـــو ... ســـاً فَلِلغَيْـثِ احْتِبـَـاسُ

يَلْبُـــدُ الـــوَرْدُ السَّـــبَنْتَى ... وَلَـــهُ بَعْـــدُ افْتِـــرَاسُ

فَتَأمّـــلْ كَيْـــفَ يَغْـــشَى ... مُقْلَـــةَ المَجْـــدِ النّعـــَاسُ

وَيُفَـــتُّ المِسْـــكُ فِي التُّـــرْ ... بِ فَيُوطَـــا ويـُـــدَاسُ

لَا يَكُـــنْ عَهْـــدُكَ وَرْداً ... إنَّ عَهْـــدِي لَـــكَ آسُ

وَأدِرْ ذِكْـــرِيَ كَأســـاً ... مَـا امتَطَـتْ كَفَّـكَ كـاسُ

وَاغْتَـــنِمْ صَـــفْوَ اللّيَـــالِي ... إنَّمـــا العَـــيْشُ اخْتِـــلَاسُ

وَعَسَـى أنْ يَسـمحَ الدّهـــ ... ـرُ فَقَـدْ طَـالَ الشِّمَـاسُ

المعتمد بن عبّاد

هو أبو القاسم محمّد بن عبّاد بن محمّد بن إسماعيل بن عبّاد[1]، المعتمد على الله، والمؤيّد بالله، والظافر بإذن الله.

استطاع جدّه محمّد بن إسماعيل السيطرة على مدينة إشبيليّة وحكمها سنة (٤١٣هـ) ثمّ تولّى ابنه عبّاد حكمها سنة (٤٣٣هـ) وقام بحروب كثيرة ليوسّع دويلته حتّى صارت من أكبر دويلات الطوائف وأقواها.

ولد المعتمد في ربيع الأوّل سنة (٤٣١هـ)[2] في مدينة باجة قرب إشبيليّة ثمّ انتقل إلى إشبيليّة، ونشأ في قصور أبيه نشأة أولاد الملوك، وتثقّف ثقافة أدبيّة ولغويّة واسعة. ومن أساتذته الأديب العالم ابن زيدون، ولمّا شبّ أسند إليه أبوه بعض المهامّ العسكريّة، فأرسله مع أخيه على رأس جيش لضمّ مالقة، فانتصر ثمّ لم يلبث أن انتزعها منه باديس ابن حبّوس الصنهاجي، فهرب المعتمد إلى رندة فغضب المعتضد على ابنه الذي فرّط فيها، فاستعطفه بأشعار كثيرة أجملها:

سَكِّنْ فؤادَكَ لا تذهبْ بكَ الفِكَرُ مَاذَا يعيدُ عليكَ البثُّ والحَذَرُ[3]

فسكن غضب المعتضد، ورضي عن المعتمد وأعاده إليه، ثمّ أرسله لضمّ مدينة شلب إلى ملكه، ففعل وتولّى حكمها واستوزر ابن عمّار وعاش عيشة لاهية، قال ابن الأبّار: «كان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل، مخالفاً لأبيه في القهر والسفك، والأخذ بأدنى سعاية. ردّ جماعة ممّن نفى أبوه، وسكّن وما نفر، وأحسن السيرة، وملك فأسجح، إلّا أنّه كان مولعاً بالخمر، منغمساً في اللذات، عاكفاً على البطالة، مخلداً إلى الراحة، فكان ذلك سبب عطبه، وأصل هلاكه»[4].قال في الخمر:

---

(١) وفيات الأعيان: ١٧٧/٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٧/١/٢، الحلة السيراء: ٥٣/٢.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٤٨/١/٢،

(٤) الحلة السيراء: ٥٤/٢.

وَلَقَـدْ شَـربتُ الـرّاحَ يَسْـطَعُ نُورُهـا ... وَاللَّيـلُ قَـدْ مَـدَّ الظَّـلَامَ رِداءَ
حَـتّى تَبـدَّى البَـدْرُ في جَوزائِـهِ ... مَلِكـاً تَنَـاهَى بَهْجَـةً وَبَهَـاءَ
لَمّـا أَرادَ تَنَزُّهـاً في غَرْبِـهِ ... جَعَـلَ المِظَلَّـةَ فَوقَـهُ الجَـوزَاءَ
وَتَناهَضَـتْ زُهْـرُ النُّجـومِ يَحُفُّـهُ ... لأَلَاؤُهَـا فاسـتَكْمَلَ الـلألَاءَ
وَتَـرى الكَواكِـبَ كالـمَواكِبِ حَولَـهُ ... رُفِعَـت ثُرَيَّاهَـا عَلَيـهِ لِـواءَ
وَحَكَيْتُـهُ في الأَرضِ بَـيْنَ مَواكِـبٍ ... وَكَواعِـبٍ جَمَعَـتْ سَـناً وَسَـناءَ
إِنْ نَشَّـرتْ تِلْـكَ الـدُروعَ حَنَادِسـاً ... مَـلأتْ لَنـا هَـذي الكُـؤوسَ ضِـياءَ
وَإِذا تَغَنَّـتْ هَـذِهِ في مِزْهَـرٍ ... لَم تَـأْلُ تِلْـكَ عَلـى التَّرِيـكِ غِنَـاءَ[1]

ثمّ استدعاه أبوه لجواره، وظلّ على حياته العابثة، ومن الحوادث التي كان لها أثر في حياته أنّه كان يتنزّه مع شاعره ابن عمّار على ضفاف الوادي الكبير بإشبيليّة قرب مرج الفضة، فأعجب المعتمد بما تحدثه الريح على سطح الماء من تموّج فقال:

«صَنَـعَ الرِّيْـحُ مَنَ المَـاءِ زَرَدْ

فأطال ابن عمّار الفكرة، فقالت امرأة من الغسّالات:

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَـالٍ لَـوْ جَمَـدْ

فتعجّب ابن عبّاد من حسن ما أتت به، مع عجز ابن عمّار، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة، فأعجبته فسألها: أذات زوج هي، فقالت: لا، فتزوّجها، وولدت له أولاده الملوك النجباء، رحمهم الله تعالى..» [2].

وتوفّي المعتضد سنة (٤٦١هـ) فخلفه ابنه المعتمد على ملك عريـض، زاد فيه فضمّ إليه قرطبة سنة (٤٦٢هـ)، واستدعى ابن عمّار وجعله وزيره الأثير لديه، ثمّ ولّاه على مدينة شلب تلك المدينة التي كان له فيها ذكريات جميلة، صوّرها في قصيدة أرسلها إلى شاعره في شلب:

---

(١) الديوان: ٢٨.
(٢) نفح الطيب ٤/٢١١.

أَلا حَـيِّ أَوطـانِي بِشِـلْبٍ أَبـا بَكْـرٍ وَسَـلْهُنَّ هَـلْ عَهْـدُ الوِصَـالِ كَمـا أَدْرِي
وَسَلِّمْ عَلى قَصْرِ الشَّراجِيْبِ عَنْ فَتىً لَـهُ أَبَـداً شَـوقٌ إِلى ذَلِـكَ القَصْـرِ
مَنـازِلُ آسـادٍ وَبِـيْضٍ نَـواعِمٍ فَناهيـكَ مـن غِيْـلٍ وَناهيـكَ مِـن خِـدْرِ
وَكَـم لَيْلَـةٍ قَـدْ بِـتُّ أَنعَـمُ جُنْحَهـا بِمُخْصِـبَةِ الأَرْدافِ مُجْدِبَـةِ الخَصْـرِ
وَبِيْـضٍ وَسُـمْرٍ فَـاعِلاتٍ بِمُهجَـتي فِعَـالَ الصِّـفاحِ البـيضِ وَالأَسَـلِ السُّـمْرِ
وَلَيـلٍ بِسُـدِّ النَّهـرِ لَهْـواً قَطَعْتُـهُ بِـذاتِ سِـوارٍ مِثـلَ مُنْعَطَـفِ البَـدْرِ
نَضَـتْ بُرْدَهَـا عَـنْ غُصْـنِ بَـانٍ مُـنَعَّمٍ نَضـيرٍ كَمـا انْشَـقّ الكِمَـامُ عَـنَ الزَّهْـرِ
وَباتَـتْ تُسَقِّيْنِـي المُـدَامِ بِلَحظِهَـا فَمِـنْ كأسِـها حينـاً وَحينـاً مِـنَ الثَّغْـرِ
وَتُطرِبُنِـي أَوتارُهَـا وَكأَنَّنِـي سَـمِعْتُ بِأَوْتَـارِ الطُّلَـى نَغَـمَ البُتْـرِ[1]

وظلّ على حياته بين حبّ ولهو وترف وأدب وحرب، أمّا الحبّ واللهو والترف فقد ذكر أنّه كان لديه «ثمانئة امرأة أمّهات أولاد، وجواري متعة، وإماء تصرّف»[2].

وأمّا الأدب فمتأصّل في بني عبّاد فآباؤه وأجداده وأولاده وبناته كلّهم من الشعراء أو ممّن ينظمون الشعر، والمعتمد كان أشعرهم، وله ديوان شعر جمعه ابن بسّام صاحب الذخيرة وسمّاه «الاعتماد على ما صحّ من شعر المعتمد بن عبّاد»[3].

وكان عالماً بالشعر خبيراً به ناقداً له، وكان لا يستوزر إلّا شاعراً أو أديباً أو عالماً، وقد اجتمع ببلاطه من كبار شعراء عصره ما لم يجتمع في أيّ بلاط سابق له، وقد ذكرنا له في ترجمة ابن زيدون وابن حمديس بعض الرسائل الشعريّة والإجازات الشعريّة المتبادلة بينهما.

وأمّا الحرب مع ملوك دويلات الطوائف فلم تتوقّف ولم تفتر، وكان أغلبهم يستعينون بالنصارى على بعض، ويدفعون لهم الجزية خوفاً من غزوهم لهم، وكذلك فعل

(١) الديوان: ١١.
(٢) الحلة السيراء: ٥٥/٢.
(٣) الذخيرة: ٨١/١/٢.

المعتمد.

وفي سنة (٤٧٥هـ) أرسل أذفونش السادس سفيراً يهوديّاً لقبض الجزية فادّعى أنّ الذهب مُزيّف، فغضب المعتمد وقتل اليهودي، فأعدّ أذفونش العدّة لقتاله فأخذ طليطلة أوّلاً ثمّ نهد إليه، فلم يجد المعتمد بدّاً من الاستعانة بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين البربريّة الفتيّة مع أنّ بعض أولاده وبعض ملوك الطوائف حذّروه عاقبة ذلك، وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد، فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مثلاً: "رعي الجمال خير من رعي الخنازير"، ومعناه أنّ كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً له يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزّقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة»[1].

وسارع ابن تاشفين لنجدته، وكانت معركة الزلّاقة الشهيرة سنة (٤٧٩هـ)، ثمّ ساعده ثانية (٤٨١) ولكنّه رأى أنّ أحوال ملوك الطوائف لم تزل على سوئها من ترف وإسراف وظلم للرعيّة، وخنوع للقشتاليّين واستعانة بهم ودفع الجزية لهم، فجهّز ابن تاشفين حملة كبيرة أواخر (٤٨٣هـ) وراح يستأصل شأفة ملوك الطوائف، فاستنجد المعتمد بأذفونش فأمّده بجيش ولكنّ المرابطين تصدّوا لجيش القشتاليّين قبل أن يصلوا لإشبيليّة وهزموهم ثمّ قتل بعض أولاد المعتمد وأسر المعتمد، وحمل مكبّلاً من إشبيليّة إلى طنجة في المغرب ثمّ مكناسة ثمّ إلى أغمات[2]، ووضع في بيت شديد التواضع، فلمّا دخلته زوجه اعتماد قالت: يا سيدي لقد هنّا هنا، فقال:

قَالَتْ لَقَدْ هُنَّا هُنَا ... مَوْلَايَ أَيْنَ جَاهُنَا

قُلْتُ لَهَا إِلَهُنَا ... صَيَّرَنَا إِلَى هُنَا[3]

وبقي المعتمد مغلول الساقين زمناً طويلاً، ثمّ فكّ قيده، ولمّا قام ابنه عبد الجبّار

(١) نفح الطيب: ٣٥٩/٤.

(٢) الديوان: ١١٤.

(٣) الحلة السيراء: ٥٥/٢.

بانتفاضة في الأندلس أعيد إلى الثقاف والقيد ثمّ قتل ابنه، وظلّ هو بقيوده التي خاطبها قائلاً:

قَيـــدي أَمـــا تَعلمُـــني مُسْـــلِمَا ... أَبَيْـــتَ أَنْ تُشْـــفِقَ أَوْ تَرْحَمَـــا
دَمِـــيْ شَـــرَابٌ لَـــكَ وَاللحـــمُ قَـــدْ ... أَكَلتـــهُ لا تَهْشِـــمِ الأَعظُمَـــا
يُبصِـــرُنِي فيـــكَ أَبـــو هاشـــمٍ ... فَيَشْـــني وَالقَلـــبُ قَـــد هُشِّمَـــا
اِرحَـــمْ طُفَـــيْلاً طائِشـــاً لُبّـــهُ ... لَم يَخْـــشَ أَنْ يأتيـــكَ مُستَرحِمَـــا
وارحَـــمْ أُخَيَّـــاتٍ لَـــهُ مِثْلَـــهُ ... جَـــرَّعْتَهُنَّ السُّـــمَّ والعَلْقَمَـــا
مِـــنهُنَّ مَـــنْ يَفهَـــمُ شَـــيئاً فَقَـــدْ ... خِفْنَـــا عَلَيْـــهِ لِلبُكَـــاءِ العَمَـــى
وَالغَيْـــرُ لَا يَفْهَـــمُ شَـــيْئاً فَمَـــا ... يَفْـــتَحُ إِلَّا للرِّضَـــاعِ فَمَـــا[1]

ولعلّ العاطفة المتوهّجة المتدفّقة في وصف محنته وأسره، أهمّ سمة في شعره كقوله:

لَمّـــا تَماسَـــكتِ الدُّمـــوعُ ... وَتَنَبَّـــهَ القَلـــبُ الصَّدِيْـــعُ
وَتَنَـــاكَرَتْ هِـمَمِـــي لِمَـــا ... يَسْـــتَامُهَا الخَطْـــبُ الفَظِيْـــعُ
قَـــالوا الخُضـــوعُ سياسَـــةٌ ... فليَبْـــدُ مِنْـــكَ لَهُـــمْ خُضُـــوْعُ
وَأَلَـــذُّ مِـــنْ طَعْـــمِ الخُضُـــو ... عِ عَلـى فَمِـــي السُّـــمُّ النَّقِيْـــعُ
إِنْ يَسْـــلِبِ القَـــوْمُ العِـــدَى ... مُلْكِـــي وتُسْـــلِمْنِي الجُمُـــوْعُ
القَلْـــبُ بَـــيْنَ ضُـــلُوْعِهِ ... لَمْ تُسْـــلِمِ القَلْـــبَ الضُّلُـــوْعُ
لَمْ أُسْـــتَلَبْ شَـــرَفَ الطِّبَـــا ... عِ أَيُسْـــلَبُ الشَّـــرَفُ الرَّفِيْـــعُ[2]

وزاره في سنواته الأربع التي قضاها في الأسر بعض شعرائه المخلصين كابن حمديس وابن اللبّانة. «ودخل عليه بناته السجن في يوم عيد، وكنّ يغزلن للناس بالأجرة في أغمات، فرآهنّ في أطمار رثّة وحالة سيّئة، فصدعن قلبه وأنشد:

(١) الديوان: ١١٢.
(٢) الديوان:٨٨.

في مَـا مَضَـى كُنْـتُ بالأَعْيَـادِ مَسْـرُورَا ... فَسَـاءَكَ العِيـدُ في أَغْمَـاتَ مَأْسُـورَا
تَـرَى بَنَاتِـكَ في الأَطْمَـارِ جَائِعَـةً ... يَغْـزِلْنَ لِلنَّـاسِ مَـا يَمْلِكْـنَ قِطْمِـيرا
بَـرَزْنَ نَحْـوَكَ لِلتَّسْـلِيْمِ خَاشِـعَةً ... أَبْصَـارُهُنَّ حَسِـيْرَاتٍ مَكَاسِـيرا
يَطَـأْنَ في الطِّـيْنِ والأَقْـدَامُ حَافِيَـةٌ ... كَأَنَّهَـا لَمْ تَطَـأْ مِسْـكاً وَكَـافُورا
أفطَـرْتَ في العيـدِ لا عـادَتْ إسـاءَتُهُ ... فكـانَ فِطْـرُكَ للأعيـادِ تَفْطِـيرا
قَـدْ كَـانَ دهـرُكَ إِنْ تـأمُرْهُ مُمْتَـثِلاً ... فَـرَدَّكَ الدَّهْـرُ مَنْهِيَّـاً ومَـأْمُورا
مَـنْ بَـاتَ بَعْـدَكَ في مُلْـكٍ يُسَـرُّ بِـهِ ... فإنَّمَـا بَـاتَ بِـالأَحْلَامِ مَغْـرُورا[1]

وتوفّيت زوجه اعتماد، واستعدّ هو للمعاد، ورثى نفسه بأبيات شجيّة أوصى أن تكتب على قبره:

قَـبرَ الغريـبِ سـقاكَ الـرَّائحُ الغـادِي ... حقّـاً ظَفِـرْتَ بأشـلاءِ ابـنِ عَبَّـادِ
بـالحِلْمِ بـالعلمِ بـالنُّعمى إذا اتّصـلَتْ ... بالخِصْـبِ إنْ أجـدَبُوا بـالرِّيِّ للصَّـادِي
بالطّـاعنِ الضّـاربِ الرّامـي إذا اقْتَتَلُـوا ... بـالموتِ أحمـرَ بالضِّرْغَامَـةِ العَـادِي
بالدَّهْـرِ في نِقَـمٍ بـالبَحْرِ في نِعَـمٍ ... بالبَـدْرِ في ظُلَـمٍ بالصَّـدْرِ في النَّـادِي
نعـمْ هـوَ الحـقُّ حَابَـاني بِـهِ قَـدَرٌ ... مِـنَ السَّـمَاءِ فَوَافَـانِي لِمِيْعَـادِ
ولَمْ أَكـنْ قبـلَ ذاكَ الـنَّعْشِ أعلمُـهُ ... أنَّ الجبـالَ تهـادَى فَـوْقَ أَعْـوَادِ
كفـاكَ فـارفُقْ بمـا استُودعتَ مِـنْ كَـرَمٍ ... رَوَّاكَ كُـلُّ قَطُـوبِ البَـرْقِ رَعَّـادِ
يَبْكِـي أَخَـاهُ الَّـذِي غَيَّبْـتَ وَابِلَـهُ ... تَحْـتَ الصَّـفِيْحِ بـدمعٍ رائـحٍ غَـادِي
حـتّى يَجُـودَكَ دمـعُ الطَّـلِّ مُنهمـراً ... مِـنْ أَعْـيُنِ الزَّهْـرِ لَمْ تَبْخَـلْ بِإِسْـعَادِ
ولَا تَـزَلْ صـلواتُ اللهِ دائمـةً ... عَلَـى دَفِيْنِـكَ لَا تُحْصَـى بِتِعْـدَادِ[2]

وتوفّي المعتمد في شوّال سنة (٤٨٨هـ)، وبكاه الناس فقد «رزق[3] من الناس حبّاً ورحمة، فهم يبكونه إلى اليوم» كما قال ابن الأبّار.

---

(١) الديوان: ١٠٠– ١٠١.
(٢) الديوان: ٩٦.
(٣) الحلة السيراء: ٥٥/٢.

أدبـــه

وقد حاز المعتمد ثناء عريضاً في شخصه وشعره، أمّا شعره فقد قال فيه ابن بسّام: «كان متمسّكاً من الأدب بسبب، وضارباً في العلم بسهم، وله شعر كما انشقّ الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عمّن جعل الشعر صناعة، واتخذه بضاعة، لكان رائعاً معجباً، ونادراً مستغرباً، فما ظنّك برجلٍ لا يجدّ إلّا راثياً، ولا يجيد إلّا عابثاً، وهو مع ذلك يرمي فيصيب، ويهمي فيصوب»[1].

وفصّل ابن الصيرفي فقال: «فذّ في البلاغة، طِرْف في الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب، جزل الألفاظ، كثير المعاني، حرّ المآخذ، لدن معاطف الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المتن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة، حسن الإشارة، جمّ التوليد»[2].

والمعتمد أشعر الشعراء الملوك الأندلسيّين قاطبة، وهو من دون شكّ شاعر مجيد، ولكنّ ما بين أيدينا من شعره لا يجعله بمصاف شعرائه كابن زيدون وابن حمديس وابن اللبّانة.

ويتميّز شعره بسهولة اللفظ ووضوح المعنى وقرب المأخذ، وعذوبة موسيقيّة، وجمال في الأسلوب، واهتمام غير يسير بالصنعة، واستفادة واضحة من ثقافته التراثيّة الأدبيّة العميقة.

أغراض شعره

١- الغزل

القَلْـــبُ قَـــدْ لَـــجَّ فَمَـــا يُقْصَـــرُ ... وَالوَجْـــدُ قَـــدْ جَـــلَّ فَمـــا يُسْـــتَرُ

وَالدَمْـــعُ جَـــارٍ قَطْـــرُهُ وَابِـــلٌ ... وَالجِسْـــمُ بَـــالٍ ثَوْبُـــهُ أَصْـــفَرُ

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة: ٢/١/٤١-٤٢.

(٢) أعمال الأعلام: ١٥٧.

هَـــذَا وَمَـــنْ أَعْشَـــقُهُ وَاصِـــلٌ ... كَيْـــفَ بِـــهِ لَـــو أَنَّـــهُ يَهْجُـــرُ

لَكِـــنْ عَـــدَتْنِي نائِبـــاتُ النَّـــوَى ... فِي دَوْحِـــهِ وَالشـــادنُ الأَحْـــوَرُ

وَالكَوكَـــبُ الوَقّـــادُ تَحـــتَ الـــدُجى ... فِي أُفْقِـــهِ وَالقَمَـــرُ الأَزْهَـــرُ

وَالنَـــرجِسُ الفَـــوّاح غَـــبَّ النَـــدى ... فِي رَوضـــهِ وَالمِنْـــدَلُ الأَذْفَـــرُ

قَـــدْ خُبِّـــرَتْ عَـــنِّيَ أَنِّي امْـــرُؤٌ ... فيـــهِ شُـــحوبٌ وَظَـــنِّي يَظْهَـــرُ

فَأَبْـــدِتِ الإِشْـــفَاقَ مِـــنْ حَـــالَتِي ... وَمِثْـــلُ مَـــا تُبْدِيْـــهِ مَـــا تُضْمِـــرُ

واِســـتفهمتْ إِنْ كُنْـــتُ ذَا عِلَّـــةٍ ... أَوْ ذَا اِشْـــتِيَاقٍ نَـــارُهُ تُسْـــعَرُ

سَـــيِّدَتِي لَمْ تُنْصِـــفِي عَاشِـــقاً ... أَضْـــحَى كَمَـــا أَخْبَـــرَكِ المُخْبِـــرُ

إِذْ قُلْـــتُ هَـــلْ مِـــنْ أَلَمٍ طـــائِفٍ ... مـــا بِـــكِ أَوْ شـــوقٌ فَمـــا تَصْبُـــرُ

ظَلَمْـــتِ بالشـــكِّ هَـــوَايَ الَّـــذي ... يَعْرِفُـــهُ العُيَّـــبُ وَالحُضَّـــرُ

وَاللَّـــهِ مـــا سُـــقْمِيَ إِلَّا هَـــوىً ... كُـــلَّ هَـــوىً فِي جَنْبِـــهِ يَصْغُـــرُ

غيّـــرَ جِســـمي فـــاِعلَمي أَنَّـــني ... أَرومُ لُقيـــــاكِ وَلا أَقْـــــدِرُ

فاِسْـــتَغْفِري اللَّـــهَ مِـــنَ الظلْـــمِ لي ... فَـــإِنَّ مَـــنْ يَظْلِـــمُ يَسْـــتَغْفِرُ[1]

وقال أيضاً:

يـــا لَيْـــتَ مُـــدّةَ بُعْـــدِكْ ... رَشِـــيْقَةٌ مِثْـــلُ قَـــدِّكْ

كَمُـــدَّةِ الـــوَرْدِ وَرْدِ الـــ ... ـــرَبِيْـــعِ لَا وَرْدِ خَـــدِّكْ

فَعُمْـــرُ ذَا عُمْـــرُ صَـــبْرِي ... وَعُمْـــرُ ذَا عُمْـــرُ صَـــدِّكْ

رَضِـــيْتُ منـــكَ وَإِنْ لَـــمْ ... تُنْجِـــزْ بِلَـــذَّةِ وَعْـــدِكْ[2]

---

(١) الديوان: ١٦.

(٢) الديوان: ١٠.

وقال أيضاً:

قُلـــــتُ مَـــــتَى تَرْحَمُنِـــــي ... قـــــالَ وَلا طـــــولَ الأَبَـــــدْ

قُلـــــتُ فَقَـــــدْ أيأستَنِـــــي ... مِـــــنَ الحَيَـــــاةِ قَـــــالَ قَـــــدْ[1]

وقال أيضاً:

بَرَكَـــتْ تَلـــوحُ وَفِي الفُـــؤادِ بَلابِـــلُ ... سَـــفَهاً وَهَـــلْ يُثْـــنِي الحَلِـــيْمَ الجاهِـــلُ

يـــا هَـــذِهِ كفِّـــي فَـــإِنِّيَ عَاشِـــقٌ ... مَـــنْ لا يَـــرُدُّ هَـــوايَ عَنهـــا عـــاذِلُ

حُـــبّ اعْتِمـــادٍ فِي الجَـــوانِحِ ســـاكِنٌ ... لا القَلْـــبُ ضـــاقَ بِـــهِ وَلَا هُـــوَ راحِـــلُ

يَـــا ظَبيَـــةً سَـــلَبَتْ فُـــؤادَ محمّـــدٍ ... أَوَلَـــمْ يُرَوِّعْـــكِ الهِـــزَبْرُ الباسِـــلُ

مَـــنْ شَـــكَّ أَنّي هَـــائِمٌ بِـــكِ مُغـــرَمٌ ... فَعَلـــى هَـــواكِ لَـــهُ علـــيَّ دَلَائِـــلُ

لَـــونٌ كَسَـــتْهُ صُـــفْرَةٌ وَمَـــدَامِعٌ ... هَطَلَـــتْ سَـــحَائِبُها وَجِســـمٌ ناحِـــلُ[2]

وقال أيضاً:

يـــا بَـــدِيْعَ الحُسْـــنِ وَالإِحـــ ... ـــسانِ يـــا بَـــدْرَ الدَّيَـــاجي

يـــا غَـــزالاً صـــادَ مِـــنّي ... بِـــالطُلَى لَيْـــثَ الهَيَـــاجِ[3]

قَـــدْ غَنِيْنَـــا بِسَـــنا وَجْـــ ... ـــهِكَ عَـــنْ ضَـــوْءِ السِّـــرَاجِ

٢- الخمريات

عَلِّـــلْ فُـــؤادَكَ قَـــدْ أَبَـــلَّ عَلِيْـــلُ ... وَاغْـــنَمْ حَيَاتَـــكَ فَالبَقـــاءُ قَلِيـــلُ

لَـــوْ أَنَّ عُمْـــرَكَ أَلـــفُ عـــامٍ كامِـــلٍ ... مـــا كـــانَ حَقّـــاً أَنْ يُقـــالَ طَوِيـــلُ

أَكَـذا يَقُـوْدُ بِـكَ الأَسى نَحْـوَ الـرَّدى ... وَالعُـــوْدُ عُـــوْدٌ وَالشَّـــمولُ شَـــمُولُ

---

(١) الديوان: ٧.

(٢) الديوان: ٢٣.

(٣) الديوان: ٢١.

لا يَسـتَبِيْكَ الهَـمُّ نَفسَـكَ عنـوَةً ... وَالكـأْسُ سَـيْفٌ في يَـدَيْكَ صَـقِيلُ

بِالعَقْـلِ تَـزْدَحِمُ الهُمـومُ عَلـى الحَشـا ... فالعَقـلُ عِنْـدي أَنْ تَـزُوْلَ عُقـولُ[1]

قال في الخمر:

دُرّاً بَعَثْـتَ مُفصَّـلاً بِجُمَـانِ ... أَو رَوْضَـةً مِسْـكيَّةَ الريحـانِ

لا بَـلْ عُروسـاً قَـدْ زَفَفْـتَ تولّـدتْ ... مـا بَـيْنَ فكْـرٍ نَاقِـدٍ وَبَنَـانِ

سَمعـاً لأمـرِكَ إِذْ دعـوْتَ إِلى الَّـتي ... تَـدَعُ القُلـوبَ قَليلَـةَ الأَحْـزانِ

أَمّـا الكُـؤوسُ فَقَـدْ جَـرَتْ مـا بَينَنـا ... بِيَـدَي غَـزالٍ سـاحِرِ الأَجْفـانِ

خَنِـثٍ يُسَـقِّيْنِي المُـدامَ بطَرفِـهِ ... وَبِكَفِّـهِ وَمَـتَى أَشَـأْ غَنَّـاني

فِعـلاً لعمـرُك لم أَكُـنْ لأضَـيعهُ ... لا تَحْسَـبَنَّا مِـنْ بَـنِي سَـهْوَانِ[2]

وقال أيضاً:

رِيْعَـتْ مِـنَ الـبَرَقِ وَفي كَفِّهَـا ... بَـرْقٌ مِـنَ القَهْـوَةِ لَمَّـاعُ

يَـا لَيْـتَ شِـعْرِي وَهْـيَ شَمْـسُ الضُّـحَى ... كَيْـفَ مِـنَ الأَنـوارِ تَرتـاعُ[3]

وقال أيضاً:

يـا كَـريمَ المَحَـلِّ في كُـلِّ معـنى ... وَالكَـريمُ المحـلُّ لَـيْسَ يُعَـنَّى

هَـذِهِ الخَمْـرُ تَبْتَغِيْـكَ فَخُـذْهَا ... أَوْ فَـدَعْهَا أَوْ كَيْفَمَـا شِـئْتَ كُنَّـا

٣- الفخر

الجُـوْدُ أَحلـى عَلـى قَلْـبي مِـنَ الظَّفَـرِ ... وَمِـنْ مَنـالِ قَصـيِّ السُّـؤْلِ وَالـوَطَرِ

وَمِـنْ غِنـاءٍ أُرَيْـوَى في الصـبوح لَنـا ... يـا طلعـةَ الشَـمْسِ في الآصـالِ وَالبُكَـرِ

وَمِـنْ حَنَنْـتُ إِلى مـا اعْتَـدْتُ مِـنْ كَـرَمٍ ... حَنـينَ أَرْضٍ إِلى مُسـتأخرِ المَطَـرِ

---

(١) الديوان: ٢٥.

(٢) الديوان: ٢٨.

(٣) الديوان: ٢١.

وَقَدْ تناهتْ يَدِي عَنْ كأسِها غَضَباً ... وَمجَّتِ الأُذْنُ أَيضاً نَغْمَةَ الوَتَرِ

حَتّى أُمَلِّكَ هذي مَا تَجودُ بِهِ ... وَأَسْمَعَ الحَمْدَ بِالأُخْرَى عَلى الأَثَرِ

فَهَاتِهَا خِلَعاً أُرْضِي السَّمَاحَ بِهَا ... مَحْفُوفَةً فِي أَكُفّ الشَّرْبِ بِالبِدَرِ[1]

وقال أيضاً:

مَنْ لِلمُلوك بِشأوِ الأَصْيَدِ البَطَلِ ... هَيْهَاتَ جاءَتكمُ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ

خَطَبتُ قُرطبةَ الحَسناءَ إِذْ مَنَعَتْ ... مَنْ جاءَ يَخطُبُها بالبِيْضِ وَالأَسَلِ

وَكَمْ غَدَتْ عاطِلاً حَتَّى عَرَضْتُ لَها ... فَأَصبَحتْ فِي سَرِيِّ الحُلْيِ وَالحُلَلِ

عِرْسُ المُلوك لَنا فِي قَصْرِها عُرُسٌ ... كُلُّ المُلوكِ بِهِ فِي مَأْتَمِ الوَجَلِ

فَراقِبُوا عَنْ قَرِيْبٍ لَا أَبَا لَكُمُ ... هُجومَ لَيْثٍ بِدرعِ البأسِ مُشتَمِلِ[2]

وقال أيضاً:

أَبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ ... فَللَّهِ صبري لذاكَ الأُوَارِ

ذكرتُ شخيصكَ مَا بينَهَا ... فلمْ يَدْعُنِي حُبُّهُ للفِرَارِ[3]

٤- الرثاء

يا غَيمُ عَيني أَقوى مِنكَ تَهْتَانَا ... أَبكي لِحُزني وَما حُمِّلْتَ أَحزانا

وَنارُ بَرقِكَ تَخبوْ إِثْرَ وَقْدَتِهَا ... وَنارُ قَلبي تَبقى الدَّهْرَ بُركانا

نارٌ وَماءٌ صَميمُ القَلْبِ أَصْلُهُما ... مَتى حَوى القَلْبُ نيرانا وَطوفانا

ضدّانِ أَلَّفَ صَرْفُ الدَّهْرِ بَيْنَهُما ... لَقَدْ تَلَوّن في الدهرِ أَلوانا

بَكيتُ فَتحاً فَإِذ رُمْتُ سَلْوَتَهُ ... ثَوى يَزيدُ فَزادَ القَلبَ نيرانا

يا فلذتَي كبِدِي يأبى تقطُّعَها ... مِن وَجْدِها بِكُما ما عِشتُ سُلْوانا

لَقَدْ هَوَى بِكُما نِجمانِ ما رَميا ... إِلَّا مِنَ العُلْوِّ بِالأَلحاظِ كِيْوانا

---

(١) الديوان: ٦٥.

(٢) الديوان: ٦٥ -٦٦.

(٣) الديوان: ٤٨.

مُخَفَّــفٌ عَــنْ فُــؤادي أَنَّ ثُكْلَكُمَــا ... مُثَقِّــلٌ لِيَ يَــوْمَ الحَشْــرِ ميزانــا
يـا فَـتحُ قَـد فتحَـتْ تِلـكَ الشـهادَةُ لي ... بــابَ الطَّمَاعَــةِ في لُقيــاكَ جَــذْلانا
وَيــا زَيْــدُ لَقَــدْ زادَ الرَّجَــا بِكُمــا ... أَنْ يَشــفَعَ اللَّــهُ بِالإحســانِ إِحْســانا
لمَّــا شــفعتَ أَخــاكَ الفَــتْحَ تَتْبَعُــهُ ... لقَّاكُمَــا اللَّــهُ غُفْرانــاً وَرِضْــوانا
مِنِّــي السَّــلامُ ومــنْ أُمٍّ مُفجَّعــةٍ ... عَلَيْكُمــا أَبَــداً مَثْــنَى وَوحــدانا
أَبكــي وَنَبكــي وَنُبكــي غَيرنــا أَسَــفاً ... لــدى التَــذَكُّرِ نِســوانا وَوُلــدانا[1]

وقال أيضاً:

بَكَــتْ أَنْ رأتْ إِلفَــينِ ضَــمَّهُمَا وَكْــرُ ... مَســاءً وَقَــدْ أَحْنى عَلى إِلفِها الــدَّهْرُ
بَكَــتْ لَمْ تُــرِقْ دَمعــاً وَأَسـبلتُ عَــبرَةً ... يُقصّــرُ عَنهــا القطــرُ مَهمــا هَمَــا القَطْــرُ
وَناحَــتْ فَباحَــتْ وَاسـتَراحَتْ بِسـرِّها ... وَمَــا نَطقَــتْ حَرْفــاً يَبــوحُ بِــهِ سِــرُّ
فَمَــالِيَ لا أَبكــي أَمِ القَلْــبُ صَخْــرَةٌ ... وَكَــمْ صَـخْرَةٍ في الأَرْضِ يَجْـرِي بِهَـا نَهْـرُ
بَكَــتْ وَاحِــداً لَمْ يُشْــجِها غَيْــرُ فَقْــدِهِ ... وَأَبكِــي لأَلّافٍ عديــدُهُمُ كُثْــرُ
بُــنيٌّ صَــغيرٌ أَو خَليــلٌ مُوافِــقٌ ... يُمَــزّقُ ذا قَفْــرٌ وَيُغــرِقُ ذا بَحْــرُ
وَنجمــانِ زَيْــنٌ لِلزَمــان اِحتواهُمَــا ... بِقُرطبــةَ النكــداءِ أَو رُنْــدَةَ القَبْــرُ
عُــذرتُ إِذا إِن ضَــنَّ جَفــني بِقَطــرَةٍ ... وَإِنْ لؤُمَــتْ نَفسـي فَصَـاحِبُها الصَّـبْرُ
فَقَــل لِلنُجــومِ الزُّهْــرِ تبكيهِمَــا معــي ... لِمِثْلِهِمَــا فَلْتَحْــزَنِ الأَنجُــمُ الزُّهْــرُ[2]

وقال:

يَقُولــونَ صَــبْراً لا سَــبيلَ إِلى الصَــبْرِ ... سَـأَبكي وَأَبكـي مَـا تَطَـاوَلَ مِـنْ عُمْـرِي
نَــرى زُهْرَهــا في مــأتمٍ كُــلَّ لَيْلَــةٍ ... يُخَمّشــنَ لَهَفــاً وَسْـطَهُ صَـفْحَةَ البَـدْرِ
يَــنُحْنَ عَلــى نَجْمَــيْنِ أَثْكَلْــنَ ذَا وَذَا ... وَيا صَبرُ مَا لِلقَلبِ في الصَّبرِ مِن عُذْرِ
مَــدَى الــدهرِ فَلْيَبْــكِ الغَمــامُ مُصَــابَهُ ... بِصِـنْوَيْهِ يُعْـذَرُ في البُكـاءِ مَـدى الـدَّهْرِ

---

(١) الديوان: ٦٩ –٧٠.

(٢) الديوان: ٦٨ –٦٩.

بِعَـينِ سَـحابٍ وَاِكِـفٍ قَطْـرُ دَمْعِهَـا ... عَلـى كُـلِّ قَـبْرٍ حَـلَّ فيـهِ أَخـو القَطْـرِ
وَبَـرْقٌ ذَكِـيُّ النـارِ حَـتّى كَأَنَّمـا ... يُسَـعَّرُ مِمَّـا في فُـؤادي مِـنَ الجَمْـرِ
هَـوى الكَوكَبـانِ الفَـتحُ ثُمَّ شَـقيقُهُ ... يَزيـدُ فَهَـلْ بَعْـدَ الكَواكِـبِ مِـنْ صَـبْرِ
أَفَـتْحٌ لَقَـدْ فَتَّحْـتَ لي بَـابَ رَحْمَـةٍ ... كَمَـا بِيَزيـدِ اللَّـهُ قَـدْ زادَ في أَجْـرِي
هَـوى بِكُمـا المِقْـدَارُ عَـنّي وَلَمْ أَمُـتْ ... وَأُدْعَـى وَفيّـاً قَـدْ نَكَصْـتُ إِلى الغَـدْرِ
تَوَلَيتُمَـا وَالسِّـنُّ بَعْـدُ صَـغيرَةٌ ... وَلَمْ تَلْبَـثِ الأَيّـامُ أَنْ صَـغَّرتْ قَـدْرِي
تَوَلَيتُمَـا حـينَ اِنتَهَـتْ بِكُمـا العُـلَا ... إِلى غايَـةٍ كُـلٌّ إِلى غايَـةٍ يَجْـرِي
فَلَـوْ عُـدْتُمَا لاخترتُمَـا العَـوْدَ في الثَّـرَى ... إِذَا أَنْتُمَـا أَبْصَـرْتُمَانِيَ في الأَسْـرُ
يُعيـدُ عَلـى سَمعـي الحَديـدُ نَشـيدَهُ ... ثَقـيلاً فَتَبكـي العَـينُ بـالجسِّ وَالنَقْـرِ
مَعـي الأَخَـواتُ الهالِكـاتُ عَلَيكُمَـا ... وَأُمُّكمـا الثَكلـى المُضَرّمـةُ الصَـدْرِ
تُـذَلِلُها الـذِكرى فَتَفـزَعُ لِلبُكـا ... وَتَصبرُ في الأَحيّـان شُـحّاً عَلى الأَجْرِ
فَتَبكـي بِـدَمعٍ لَـيْسَ للقَطْـرِ مِثْلُـهُ ... وَتَزجُرُهـا التَّقْـوَى فَتُصْـغِي إِلى الزَجْـرِ
أَبَـا خَالِـدٍ أَورَثْتَـني البَـثَّ خالِـداً ... أَبَـا النَّصْـرِ مُـذْ وُدَّعْـتَ وَدَّعَـني نَصْـرِي
وَقَبْلَكُمَـا مَـا أَوْدَعَ القَلْـبَ حَسْـرَةً ... تُجَـدّدُ طـولَ الـدَّهْرِ ثكـلُ أَبي عَمْـرِو[1]

وقال أيضاً:

إِذا كـانَ أَرْدَى الزَمـانُ بِمِثْلِـهِ ... وَلَمْ يَبْـقَ في عَـوْدٍ لَـهُ طَمَـعٌ بَعْـدُ
فَـلا بُـتِرَتْ بُتْـرٌ وَلَا فَنِيَـتْ قَنَـا ... وَلا زَأرتْ أَسْـدٌ وَلَا صَـهلَتْ جُـرْدُ
وَلا زالَ ملـذوعاً عَلـى سَـيِّدٍ حَشـاً ... ولا انفـكّ مَلطومـاً عَلـى مَلِـكٍ خَـدُّ[2]

وقال أيضاً

بَكـى المُبَـارَكُ في إِثْـرِ ابـنِ عَبَّـادِ ... بَكـى عَلـى إِثْـرِ غِـزلانٍ وَآسـادِ
بَكَـتْ ثُرَيّـاهُ لا غُمَّـتْ كَواكِبُهـا ... بِمِثـلِ نَـوْءِ الثرَيّـا الـرائح الغـادي

---

(١) الديوان طبعة السوسي: ١٦٢ – ١٦٤.
(٢) الديوان: ٦٨.

بَكَـىَ الوَحيـدُ بَكَـى الزاهـي وَقُبَّتُـهُ ... وَالنَّهْـرُ وَالتَّـاجُ كُـلٌّ ذُلُّـهُ بَـادِ

مَـاءُ السَّـماءِ عَلَـى أَبنائِـهِ دَرَرٌ ... يَـا لُجَّـةَ البَحْـرِ دومـي ذاتَ إِزْبَـادِ[1]

وقال أيضاً

وَلَمْ أَدْرِ مَـنْ أَلْقَـى عَلَيْـهِ رِدَاءَهُ ... سِوَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضِ[2]

٤- المديح والاعتذار

قال يمدح أباه ويعتذر منه:

سَكِّنْ فُـؤادَكَ لا تَـذهَبْ بِـهِ الفِكَـرُ ... مَـاذا يُعيـدُ عَلَيـكَ البَـثُّ وَالحَـذَرُ

وَازجُـرْ جفونَـكَ لا تَـرْضَ البُكـاءَ لَهـا ... وَاصْبِرْ فَقَدْ كُنْتَ عندَ الخطبِ تَصطَبِرُ

وَإِنْ يَكُـنْ قَـدَرٌ قَـدْ عَـاقَ عَـنْ وَطَـرٍ ... فَـلَا مَـرَدَّ لِمَـا يَـأْتي بِـهِ القَّـدَرُ

وَإِنْ تَكُـنْ خَيْبَـةٌ في الـدَّهْرِ واحِـدَةٌ ... فَكَـمْ غَـدَوتَ وَمـنْ أَشْـيَاعِكَ الظَّفَـرُ

إِنْ كُنْـتَ في حَيْـرَةٍ مِـنْ جُـرْمِ مُجْـتَرِمٍ ... فَـإِنَّ عُـذْرَكَ في ظَلْمَائِهَـا قَمَـرُ

كَـمْ زَفـرَةٍ مِـنْ شَغَافِ القَلْـبِ صاعِدَةٍ ... وعَبْـرَةٍ مِـنْ شـؤونِ العـينِ تَنْحَـدِرُ

فَـوِّضْ إِلى اللَّـهِ فِيمـا أَنـتَ خائِفُـهُ ... وَثِـقْ بِمُعتَضِـدٍ بِاللَّـهِ يَعْتَفِـرُ

وَلا تَرُعْـكَ خُطـوبٌ إِنْ عَـدَا زَمَـنٌ ... فاللَّـهُ يَـدْفَعُ وَالمَنْصُـورُ يَنْتَصِـرُ

وَاصـبِرْ فَإِنَّـكَ مِـنْ قـومٍ أُولِي جَلَـدٍ ... إِذَا أَصـابَتْهُمُ مَكْرُوْهَـةٌ صَـبَرُوا

مَـنْ مِثْـلُ قَومِـكَ وَالمَلِـكُ الهُمَـامِ أَبـو ... عَمْـرٍو أَبُـوْكَ لَـهُ مَجْـدٌ وَمُفتَخَـرُ

سَـمَيْدَعٌ يَهُـبُ الآلافَ مُقْتَـدِراً ... وَيَسْـتَقِلُّ عَطَايَـاه وَيَحْتَقِـرُ

لَـهُ يَـدٌ كُـلُّ جَبَّـارٍ يُقَبِّلُهَـا ... لَـولا نَـدَاها لَقُلْنَـا إِنَّهَـا الحَجَـرُ

يـا ضَـيْغَماً يَقتُـلُ الأَبطـالَ مُفْتَرِسـاً ... لا تُوْهِنَنِّـي فَـإِنِّي النَّـابُ وَالظُّفُـرُ

وَفَارِسـاً تَحـذَرُ الأقـرانُ صَـوْلَتَهُ ... صُـنْ عَبْـدَكَ القِـنَّ فَهْـوَ الصَّـارِمُ الـذَّكَرُ

هُـوَ الَّـذي لَمْ تَشِـمْ يُمنـاكَ صَـفْحَتَهُ ... إِلّا تَـأَتَّى مُـرَادٌ وَانقَضَـى وَطَـرُ

---

(١) الديوان: ٩٥.

(٢) الديوان طبعة السوسي: ١٠٩.

قَـدْ أَخْلَقَتْنِـي صُـرُوْفٌ أَنْـتَ تعلمُهـا ... وَقَـالَ موردُهَـا مَـا لِي بِهَـا صَـدَرُ
فـالنَفْسُ جازِعَـةٌ وَالعَـينُ دامِعَـةٌ ... وَالصّـوتُ مُرتَفِـعٌ وَالسِـرُّ مُنْتَشِـرُ
وَزادَ هَمّـيَ مـا بالجسـمِ مِـنْ سَـقَمٍ ... وشِـبتُ رأسـاً وَلَمْ يَبْلُغْـنِيَ الكِـبَرُ
وَذُبْـتُ إِلَّا ذَمَـاءً فِيَّ يُمسـكني ... أَنِّي عَهـدتُكَ تَعفـوْ حـينَ تَقْتَـدِرُ
لَمْ يـأتِ عبـدُكَ ذنبـاً يَسْـتَحِقُّ بِـهِ ... عُتْبَـى وَهَـا هُـوَ نَـادَاكَ يَعْتَـذِرُ
مـا الـذَّنْبُ إِلَّا عَلـى قَـوْمٍ ذَوْي دَغَـلٍ ... وَفَى لَهُـمْ عهـدُكَ المعهـودُ إِذْ غَـدَرُوا
قَـوْمٌ نَصِيْحَتُهُـمْ غِـشٌّ وصِـدْقُهُمُ ... مَيْـنٌ وَنَفْعُهُـمْ إِنْ صَـرَّفُوا ضَـرَرُ
يُمَيِّـزُ البُغْـضُ في الأَلفـاظِ إِنْ نَطَقـوا ... وَيُعْـرَفُ الحِقْـدُ في الأَلحـاظْ إِنْ نَظَـرُوا
إِنْ يَحْـرِقِ القَلْـبَ نَفْـثٌ مِـنْ مَقَالِـهُمُ ... فَإِنَّمَـا ذاكَ مِـنْ نَـارِ القِلَـى شَـرَرُ
مَـولايَ دعـوةَ مَملـوكٍ بِـهِ ظَمَـأٌ ... بَـرْحٌ وَفِي راحَتَيْـكَ السَّلْسَـلُ الخَصِـرُ
أَجِـبْ نِـدَاءَ أَخِـي قَلْـبٍ تَمَلَّكَـهُ ... أَسـىً وَذِي مُقْلَـةٍ أَوْدَى بِـهَا السَّـهَرُ
لَمْ أُوتَ مِـنْ زَمَـني شَـيئاً أُسِـرُّ بِـهِ ... فلسـتُ أَعهَـدُ مـا كـأسٌ وَلا وَتَـرُ
وَلا تَمَلَّكَنِـي دَلٌّ وَلا خَفَـرٌ ... وَلا سَبَـى خَلَـدِي غُـنْجٌ وَلَا حَـوَرُ
رِضَـاكَ رَاحَـةُ نَفْسِـي لَا فُجِعْـتُ بِـهِ ... فَهْـوَ العَتَـادُ الَّـذي لِلدَّهْـرِ أَدَّخِـرُ
وَهْـوَ الـمُدامُ الَّـتي أَسْـلُو بِهـا فَـإِذا ... عَـدِمْتُهَا عَبِثَـتْ في قَلْـبِيَ الفِكَـرُ
مَـا تَرْكَـيَ الخَمْـرَ مِـنْ زُهْـدٍ وَلا وَرَعٍ ... فَلَـمْ يُفَـارِقْ لَعَمْـرِي سِـنِّيَ الصِّـغَرُ
وَإِنَّمَـا أَنَـا سـاعٍ في رِضـاكَ فَـإِن ... أَخْفَقْـتُ فيـهِ فَـلَا يُفْسَـحْ لِيَ العُمُـرُ
مَـا سَـرَّنِي وَأُحاشـي عَصْـرَ عَطْفِكـمُ ... يَـومٌ أَخَـلَّ بـهِ في عيـنيَ النَّظَـرُ
أَجَـلْ وَلِي رَاحَـةٌ أُخـرى عَلِقْـتُ بِهـا ... نَظْـمُ الكُلَـى في القَنَـا وَالهَـامُ تَنْتَثِـرُ
كَـمْ وقْعَـةٍ لِيَ في الأَعـداءِ واضِـحَةٍ ... تَفْـنَى اللَّيـالي وَمـا يَفْـنَى لَهَـا الخَبَـرُ
سارَتْ بِهـا العيسُ في الآفـاقِ فانتَشَـرَتْ ... فَلَـيسَ في كُـلِّ حَـيٍّ غَيْرَهَـا سَمَـرُ
لازلْـتَ ذَا عِـزّةٍ قَعْسَـاءَ شـامِخَةٍ ... لا يَبلُـغ الـوَهْمُ أَدْنَاهَـا وَلا البَصَـرُ
وَلا يَـزلْ وَزَرٌ مِـنْ حُسْـنِ رأيِـكَ لِي ... آوي إِلَيـهِ فَـنِعْمَ الكَهْـفُ وَالـوَزَرُ

إِلَيْكَ رَوْضَةُ فِكْرِي جَادَ مَنْبَتَهَا ... نَدَى يَمِينِكَ لَا طَلٌّ ولَا مَطَرُ
جَعَلْتُ ذِكْرَكَ فِي أَرْجَائِهَا شَجَراً ... فَكُلُّ أَوْقَاتِهَا لِلمُجتَنِي ثَمَرُ[1]

٦- شعر الأسر

غَريبٌ بِأَرضِ المغربينِ أَسيرُ ... سَيَبكي عَلَيهِ مِنبَرٌ وَسَريرُ
وَتَندُبُهُ البيضُ الصَوارِمُ وَالقَنَا ... وَينهَلُّ دَمعٌ بينَهُنَّ غَزيرُ
سَيبكيهِ في زاهيهِ وَالزاهرِ النَّدَى ... وَطُلَّابُهُ وَالعُرْفُ ثَمَّ نَكيرُ
إِذا قيلَ في أَغماتَ قَدْ ماتَ جودُهُ ... فَما يُرتَجى لِلجودِ بَعدُ نُشورُ
مَضى زَمَنٌ وَالمُلْكُ مُستأنِسٌ بِهِ ... وَأَصبَحَ مِنْهُ اليَومَ وَهْوَ نَفورُ
بِرأيٍ مِن الدهرِ المُضلِّل فاسِدٍ ... مَتى صَلُحَتْ لِلصالِحِينَ دُهورُ
أَذَلَّ بَني ماءِ السَّماءِ زَمانُهُم ... وَذُلُّ بَني ماءِ السَّمَاءِ كَبيرُ
فَما ماؤُها إِلَّا بُكاءٌ عَلَيهِمُ ... يَفيضُ عَلى الأَكبادِ مِنهُ بُحورُ
فَيا لَيْتَ شِعري هَلْ أَبيتَنَّ لَيْلَةً ... أَمامي وَخَلفي رَوْضَةٌ وَغَديرُ
بِمُنْبَتَةِ الزَّيتونِ مورِثَةُ العُلَا ... يُغَنّي حَمامٌ أَو تَرِنُّ طُيورُ
بِزاهِرِها السامي الذُّرَا جادَهُ الحَيَا ... تُشيرُ الثُرَيَّا نَحْوَنا وَنُشِيْرُ
وَيلحُظُنا الزاهي وَسعدُ سعودِهِ ... غيورَينِ وَالصَّبُّ المُحِبُّ غَيورُ
تُراهُ عَسيراً أَو يَسيراً مَنالُهُ ... أَلَا كُلُّ ما شاءَ الإِلَهُ يَسيرُ
قَضى اللَّهُ في حِمْصَ الحِمَامَ وَبُعثِرَتْ ... هُنالِكَ مِنّا لِلنُشورِ قُبورُ[2]

وقال:

هَذي جِبالُ دَرَنِ ... قَلبي بِها ذُوْ دَرَنِ
يا لَيْتَني لَمْ أَرَها ... وَلَيْتَها لَم تَرَني
كَأَنَّها تُخْبِرُني ... بِأَنَّها تَقْبُرُني

(١) الديوان: ٣٦-٤٠.
(٢) الديوان: ٩٨ -٩٩.

الحُصْري

أبو الحسن عليّ بن عبد الغنيّ الفِهْري الحُصْري القيرواني الضرير

من كبار شعراء القيروان وعلمائها.

والفهري نسبة إلى فهر بن مالك القبيلة القرشيّة المشهورة.

والحُصْرِي نسبة إلى بلدة حُصْر قرب القيروان، وقيل نسبة إلى صناعة الحُصْر.

والقَيْرَوَاني لأنّه من أهل القيروان تلك المدينة الشهيرة التي بناها عقبة بن نافع.

والأندلسي[1] وقد وصفه بذلك بعض المترجمين له، لأنّ أغلب حياته الأدبيّة والعلميّة كانت فيها.

والضرير لأنّه كان أعمى ولا نعرف هل ولد أعمى أم أصيب به بعد ولادته، وقد ذكر عماه في شعره غير مرّة فقال:

وقالوا قدْ عَميتَ فقلتُ كلَّا ... فإنّي اليومَ أبصَرُ مِنْ بصيرِ

سوادُ العينِ زادَ سوادَ قلبِي ... ليجتمعَا على فَهْمِ الأمورِ[2]

ولد الحصري في القيروان زهاء سنة (٤٢٠هـ) وتلقّى العلم على بعض مشايخ عصره وأهمّهم أبو بكر عتيق بن أحمد القصري الذي حفظ الحصري على يديه القرآن وقرأه عليه بالروايات تسعين مرّة في عشر سنوات؛ منذ أن كان في العاشرة من عمره[3].

كما درس العلوم الدينيّة واللغويّة والأدبيّة.

وفي سنة (٤٤٩هـ) حدثت فتنة أعراب بني هلال التي خرّبت القيروان وشرّدت أهلها، فارتحل الحصري إلى مدينة سبتة، وفي شعره قصيدة جميلة في رثاء القيروان بعد أن تركها أهلها، قال فيها:

---

(١) نعته ياقوت الحموي بالأندلسي، معجم الأدباء: ٣٩/١٤.

وذكر العماد الأصبهاني في خريدة القصر أنّه «من الأندلس»: ١٨٦/٢.

(٢) الحلّة السيراء: ٢٣/١، معجم الأدباء: ٤١/١٤.

(٣) ذكر ذلك في قصيدته الرائيّة في القراءات.

مَــوْتُ الكــرامِ حيــاةٌ في مــواطنِهمْ فـإنْ [هُـمُ] اغتربُـوا مـاتُوا ومـا مـاتُوا
يَـا أهــلَ ودِّي لا واللهِ مــا انتكثَــتْ عنــدِي عُهــودٌ ولا ضــاقَتْ مَــودَّاتُ
لِـئَنْ بَعُـدْتُمْ وحــالَ البَحْــرُ دونَكــمُ لَبَــيْنَ أرواحِنَــا في النّــومِ زَوْرَاتُ
مَـا نِمْـتُ إلّا لكـيْ ألقَـى خَيـالَكُمُ وأيــنَ مِــنْ نــازحِ الأوطــانِ نَوْمَــاتُ
إذا اعتللْنَــا تَعَلَّلْنَــا بِذِكرِكُــمُ لَــوْ أحســنَتْ بُــرْءَ عِــلّاتٍ تَعِــلَّاتُ
مَـاذا علـى الـرّيحِ لَـوْ أهْـدَتْ تحيّتَهـا إلـيكُمُ مِثْـلَ مَـا تُهْـدَى التَّحِيَّـاتُ [1]

وأقام الحصري في سبتة زمناً يدرّس التجويد والقراءات، قال ابن بشكوال: «وكان عالماً بالقراءات وطرقها، وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها»[2].

وذاع صيت الحصري ووصل إلى الأندلس فاستدعاه المعتمد وأرسل إليه خمسمئة دينار، فاعتذر ورفض متعلّلاً بخوفه من البحر وأمواجه:

أمرتَنِــي بركــوبِ البحــرِ أقطعُــهُ غـيرِي لـكَ الخـيرُ فاخصصُـهُ بـذا الـداءِ
مَــا أنــتَ نــوحٌ فتنجينِــي ســفينتُهُ ولا المسـيحُ أنَـا أمشـي علـى المـاءِ[3]

ثمّ جاز إلى الأندلس لكثرة ما سمع عن خيراتها وتهافت ملوك الطوائف على الأدباء والعلماء، وحدّد معاصره الحميدي (ت ٤٨٨هـ) زمن دخوله إلى الأندلس فقال: «دخل الأندلس بعد الخمسين وأربعمئة»[4].

وأكدّ ذلك ابن بسّام (ت ٥٤٢هـ) فقال: وطرأ على جزيرة الأندلس منتصف المئة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان»[5].

"وقال أوّل جوازه إلى الأندلس:

في كــــــلِّ أرْضٍ مَــــــوْطنٌ يُعــــــرَفُ فيــــــهِ جاهُنــــــا

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٧٧/١/٤.
(٢) الصلة: ٤٣٢.
(٣) وفيات الأعيان: ٣٣٤/٣.
(٤) جذوة المقتبس: ٣٠٨.
(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٤٦/١/٤.

وإِنَّـــــــــمَا أَلْجَـــــــــأَنَا إِلَى هُنَـــــــــا إِهُنَـــــــــا [1]

"قال ابن بسّام: وكان الحصري المكفوف القروي قد طرأ على الأندلس في مدّة ملوك طوائفها، فتهادته تهادي الرياض للنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم"[2]

ولا ندري أيّ ملك من ملوك الطوائف قصده أوّلاً، ولكنّنا نرى الحصري يذكر وفاة المعتضد بن عبّاد في أثناء مديحه لابنه المعتمد:"وله في موت المعتضد وولاية المعتمد:

مـــــاتَ عبّـــــادٌ ولكـــــنْ بقـــــيَ الفـــــرعُ الكـــــريمُ
فكـــــأنَّ الميْـــــتَ حـــــيٌّ غـــــيرَ أنَّ الضـــــادَ مـــــيمُ"[3]

ومن أجمل مديحه للمعتمد قوله:

وبَلَـــوْتُ النَّـــاسَ فلســـتُ أرى كَبـــنِي عبّـــادٍ مِـــنْ أحـــدِ
القـــومُ بحـــارٌ مَســـجورا تٌ مَخْفُوفـــاتٌ بالزَّبَـــدِ
لم يعَـــدمْ وارِدُهـــا دُرَرَ الـــ آدابِ ولا دُرَرَ الصَّـــفَدِ
أبـــني عبّـــادٍ مـــا حَسُـــنَتْ إلّا بكـــمُ الـــدُّنيا فَقَـــدِ
نَقَـــدَ الكُرمَـــاءَ الـــدَّهرُ معـــي فتَخَيّـــرَكُم في المنتقَـــدِ
وقضـــى لكُـــمُ بالفَضـــلِ علـــى مَـــنْ في أدْنى أو في البُعُـــدِ[4]
دانَـــتْ بَغـــدادُ لقُرْطُبَـــةٍ وخَلائِفُهـــا للمُعْتَمِـــدِ

وكان الحصري يلحف بالعطاء كما يقول المراكشي[5] أو هو «مشحوذ المدية في أبواب الكدية» كما يعبّر ابن بسّام[1].

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٥٩/١/٤.
(٢) المصدر نفسه:٣ / ٦٦
(٣) المطرب: ١٤، الحلّة السيراء: ٥٤/٢، معجم الأدباء: ٣٩/١٤.
(٤) الذخيرة: ٢٦٢/١/٤.
(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١٤٤.
(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٢٧٢/١/٤.

وطاف الحصري على بعض مدائن الأندلس الكبيرة وممالكها الشهيرة؛ فتوجّه إلى سرقسطة ومدح صاحبها المقتدر بن هود ووزيره ابن حَسْدَاي، وأقام مدّة فيها، ولـمّا توفّي المقتدر رثاه ثمّ انتقل إلى المريّة ومدح حاكمها المعتصم بن صُمَادِح، ثمّ ارتحل إلى مرسية ومدح محمّد بن طاهر (ت ٥٠٧هـ) ومكث في مرسية ودرّس فيها، ومن أشهر تلاميذه ابن صواب (بعد ٥١٠هـ) الذي قال «لقيته بمرسية في إحدى وثمانين وأربعمئة»[١]، وقد وُشِيَ بالحصري فزعم أنّه شتم الأمير ابن طاهر في أحد مجالسه العلميّة، فتنصّل من هذا ودفع عن نفسه هذه الفرية الباطلة ومدحه بقصيدته الداليّة الذائعة التي مطلعها:

يـــا ليـــلُ الصـــبُّ مـــتى غـــدُهُ أقيـــامُ السَّـــاعةِ مَوْعِـــدُهُ[٢]

ثمّ عاد الحصري إلى العدوة المغربيّة نحو عام (٤٨٣هـ) زمن بدء سيطرة المرابطين على الأندلس، ولكنّه ظل متّصلاً ببعض ملوكها كالمعتمد الذي أرسل غلامه إليه فلم يحفل به المعتمد لأنّه كان لديه ما يشغله،قال الصفدي: « ولما كان الحصري مقيماً بطنجة، أرسل غلامه إلى المعتمد بن عباد، والمغاربة يسمّون إشبيليّة حمص، فأبطأ عنه. وبلغه أنّ المعتمد لم يحتفل به فقال:

نبِّـــهِ الرَكْـــبَ الهُجُوعَـــا ولُمِ الدَّهْـــرَ الفَجُوعـــا
حِمْـــصٌ الجنَّـــةُ قَالَـــتْ لغلامِـــي لا رُجُوعـــا
رَحِـــمَ اللهُ غُلَامِـــي مَـــاتَ في الجَنَّـــةِ جُوعـــا»[٣]

ولمّا أسر المعتمد وسيق إلى طنجة، لم يمنع الحصري هذا الموقف العصيب من أن يذهب إلى المعتمد ويقدّم له مجموعة من القصائد التي مدحه فيها سابقاً، قال ابن بسّام عن ملوك الطوائف « ولما خلعوا وأخوت تلك النجوم، وطمست للشعر تلك الرسوم، اشتملت عليه مدينة طنجة وقد ضاق ذرعه، وتراجع طبعه، فتصدّى إلى المعتمد في

(١) الصلة: ٤٣٢.
(٢) علي الحصري، دراسة ومختارات: ١٦٩.
(٣) الوافي بالوفيات ٢١/١٦٤-١٦٥، شذرات الذهب: ٣/٣٨٦.

طريقه، وهو في تلك الحال، من الاعتقال، بأشعار له قديمة صَدْرها في الرباب وفَرْتَنَى، وعجزها في الاستجداء وطلب اللهى، خارجة عن الغرض والمغزى، ممّا كان فيه المعتمد يومئذ، وألحّ عليه بالوصول بتلك الأشعار إليه، فندبه كرم جبلته إلى مقارضته عند مفاوضته، فطبع على ثلاثين مثقالاً لم يمكنه سواها، وأدرج قطعة شعر طيّها معتذراً من نزرها، راغباً في قبول أمرها، فلم يجاوبه الحصري عمّا حصل حينئذ من قبله لديه، فكتب المعتمد بهذه الأبيات إثر ذلك إليه:

قُلْ لِمَنْ قَدْ جمعَ العلـ ... ـمَ ومَنْ أَحصى صَوابَه
كانَ في الصرةِ شعرٌ ... فتنظّرنا جَوابَه
قَدْ أثبناكَ فهلّا ... جلبَ الشّعرُ ثَوابَه

واتّصل فعل المعتمد بالحصري إلى جماعة من زعانف الشعراء، وكلّ طالب حباء، من مشحوذ المدية، في الكدية، فتعرّضوا له بكلّ قارعة طريق، وجاؤوه من كلّ فج عميق[1]، ولعل هذا كان بسبب الحياة الصعبة التي كان يحياها هو وسواه من الشعراء:

برِمتُ بما ألقاه مِمَّنْ أُوَامِقُ ... وأوذِيتُ حتّى لا أرى من أُصادقُ
إذا ما اِمرُؤ أصفيته الودَّ واثقا ... بخُلّته لم تصفُ منه الخلائقُ
فيا ليت شِعري هل إلى الناس كُلِّهِم ... أنا مذنبٌ أم ليس فيهم مُوافقُ
فلا أنا مسرورٌ بمن هُوَ واصلي ... حِذَاراً ولا آسي على من أُفارِقُ
حِذَاراً ولا آسي على من أُفارِقُ ... إذا قلتُ حقّاً قال لي أنت صادقُ
وإن قلتُ غيرَ الحقِّ لم يرضَ لي به ... وأَوْضَح للفكر الّذي هُوَ لائقُ[2]

وتوفّي الحصري بطنجة سنة (٤٨٨هـ)[3] وهي السنة نفسها لوفاة المعتمد.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/١/٦٦-٦٧، وانظر المعجب: ١٤٤-١٤٦، والحلّة السيراء: ٦٧/٢.

(٢) انظر: علي الحصري، ج٢- المعشّرات واقتراح القريح

(٣) الصلة: ٤٣٣، وفيات الأعيان: ٣٣٤/٣، العبر: ٣٢٣/٣، سير أعلام النبلاء: ٢٧/١٩، الوافي بالوفيات: ١٦٤/٢١، شذرات الذهب: ٣٨٦/٣.

مؤلّفاته:

١- المعشّرات: وهي (٢٩) قصيدة غزليّة كلّ واحدة منها مكوّنة من عشرة أبيات منظومة على كلّ حرف من حروف الهجاء (مع زيادة لام ألف)، وتبدأ كلّ قصيدة بالحرف المماثل للقافية تبدأ الأولى منها بالألف في أوّل البيت وآخره:

أمالـــك يـــا داء المحـــبّ دواء ... بلى عند بعض الناس منك شفاء[1]

أَسـيرُ العِـدا بِالمـالِ يَفديـهِ أَهلُـهُ ... وَمـا لِأَسـيرِ الغانِيـاتِ فِـداءُ

أُسـودُ الشَـرى في الحَـربِ تَحمـي ... بِنَجـدَتِها مـا لَم تعـنَّ ظبـاءُ

إِذا كُنـتَ خِلـواً فاعـذر الصَـبَّ في ... فَمـا المبتَلـى وَالمسـتَريحُ سَـواءُ

أَتَـأمُرُني بِالصَـبرِ عَمَّـن أُحِبُّـه ... وَهَيهـاتِ مـا لي في هَـواهُ عَـزاءُ

أَمـوتُ اِشـتِياقاً ثُمَّ أَحيـا لِشـقوَتي ... كَـذاكَ حَيـاةُ العاشِـقينَ شَـقاءُ

أَلا إِنَّ قَلـبَ الصَـبِّ في يَـدِ حِبِّـه ... يُقَلِّبُـهُ في الحُـبِّ كَيـفَ يَشـاءُ

إِلَيـكَ فَلَـو ذُقـتَ الهَـوى لَعَـذَرتَني ... جُفونـكَ وَسـنى وَالفُـؤادُ هَبـاءُ

أَنا لُمتُ أَهلَ العِشقِ قَبلَكَ في الهَوى ... فَهـا أَنـا أزرى بَيـنَهُم وَأَسـاءُ

أَصـابَت فُـؤادي أَسـهُمُ اللَحـظِ إِذ ... فَلِلَّـهِ قَتلـى الأَعـيُنِ الشُـهَداءُ

٢- مستحسن الأشعار، وهو مجموع خاصّ بقصائد مدحه للمعتمد بن عبّاد[2]، وهو مفقود.

٣- ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح ويشمل (٢٥٩١) بيت شعر في رثاء ولده عبد الغني الذي توفّي نحو (٤٧٥هـ)، وهو قسمان: الأصل والذيل[3].

٤- ما بقي من شعره[4].

٥- رسائل نثريّة: أورد بعضها ابن بسّام وانتقدها.

---

(١) انظر: علي الحصري، ج٢- المعشّرات واقتراح القريح: ١٣.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١١٤.

(٣) انظر: علي الحصري، ج٢- المعشرات واقتراح القريح: ٦٠.

(٤) انظر علي الحصري، دراسة ومختارات: ١/ ١٢٣.

٦- منظومة رائيّة في قراءة نافع وتشتمل على (٢١٢) بيت ومطلعها:

إذا قلتُ أبياتاً حِسَاناً مِنَ الشعرِ ... فَلا قُلْتُهَا في وصفِ وصلٍ ولا هَجْرِ

ولا مدح سلطان ولا ذمّ مسلم ... ولا وصف خلّ بالوفاء أو الغدر

ولكنّني في ذمّ نفسي أقولها ... كما فرّطت في ما تقدّم من عمري

ولا بدّ من نظمي قوافي تحتوي ... فوائد تغني المقرئين عن المقري

رأيت الورى في درس علم تزهّدوا ... فقلت لعلّ النظم أحرى من الشر

وقد رواها ابن خير[١] ولها غير شرح.

شعره:

أثنى عدد من النقّاد على شعره فقال معاصره الحميدي (ت ٤٨٨هـ) «شاعر أديب، رخيم الشعر، حديد الهجو، دخل الأندلس وانتجع ملوكها، وشعره كثير، وأدبه موفور»[٢].

وقال ابن بسّام عنه (ت ٥٤٢هـ) «كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة»[٣].

وقال العماد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ):«صاحب تصنيفات وتأليفات وإحسان في النظم»[٤].

ونقل ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) كلام ابن غالب (ق ٦هـ):«كان من أهل العلم بالنحو، وشاعراً مشهوراً»[٥].

وقال ابن عسكر (ت ٦٢٩هـ): «من جملة الأدباء وفحول الشعراء، كانت مجالس

---

(١) فهرسة ابن خير: ٧٤.

(٢) جذوة المقتبس: ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٤/١/٢٤٥-٢٤٦.

(٤) خريدة القصر: ٢/١٨٦.

(٥) معجم الأدباء: ١٤/٣٩.

الملوك تبتهج بأشعاره، وكان مقرّباً لديهم معظّماً عندهم»[1].

وقال ابن خلّكان: «الشاعر المشهور»[2]

وقال الحافظ الذهبي في العبر: «المقرئ الشاعر... كان مقرئاً محقّقاً وشاعراً مفلقاً، مدح ملوكاً ووزراء»[3].

وقال في السير: «الأديب العلّامة... من كبار الشعراء وله تصانيف في القراءات...ونظمه عذب جزل»[4].

وقال ابن الجزري: «أستاذ ماهر أديب حاذق»[5].

وفي قبالة ذلك، قليل من النقاد القدامى ذمّوا شعره كعبد الواحد المرّاكشي (ت بعد٦٢١هـ) الذي قال: كان: «الحصري الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطراً إلّا أنّه كان قليل الجيّد منه»[6].

ويتّسم شعره عامّة، بسعة معجمه الشعري وجمعه بين الجزالة والسهولة مع شيء من الغريب، والاستفادة من المعاني والصور المعروفة مع مقدرة كبيرة في الصناعة ولاسيّما التورية والجناس، ولزوم ما لا يلزم، وهي ظاهرة نجدها بوضوح لدى أبي العلاء المعرّي وأضرابه من المكفوفين لإثبات تفوّقهم على سواهم من الشعراء المبصرين.

مختار من شعره:

يا ليلُ الصبُّ متى غدُهُ ... أقيامُ السَّاعةِ مَوْعدُهُ

رقدَ السُّمَّارُ فأرَّقه ... أسفٌ للبينِ يردِّدُهُ

فبكاهُ النجمُ ورقَّ لَهُ ... ممّا يرعاه ويرْصُدُهُ

---

(١) أدباء مالقة: ٣٠٨-٣٠٩

(٢) وفيات الأعيان: ٣/٣٣١.

(٣) العبر: ٣/٣٢٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٩/٢٦-٢٧.

(٥) غاية النهاية في طبقات القراء١/٥٥٠.

(٦) المعجب: ١٤٥.

كَلِـــفٌ بغـــزالٍ ذِي هَيَـــفٍ ... خـــوفُ الواشـــينَ يُشَـــرِّدُهُ

نصـــبَتْ عينـــايَ لَـــهُ شَـــرَكاً ... في النـــومِ فعـــزَّ تَصـــيُّدُهُ

وكفـــى عجبـــاً أنِّي قـــنصٌ ... للسّـــربِ ســـباني أغْيَـــدُهُ

صـــنمٌ للفتنـــةِ منتصـــبٌ ... أهـــواهُ ولا أتعبَّـــدُهُ

صـــاحٍ والخمـــرُ جَـــنَى فمِـــهِ ... ســـكرانُ اللحـــظِ مُعرْبِـــدُهُ

ينضُـــو مِـــنْ مُقْلَتِـــهِ ســـيْفاً ... وكـــأنَّ نُعاســـاً يُغْمـــدُهُ

فيُريـــقُ دمَ العشّـــاقِ بِـــهِ ... والويـــلُ لمـــنْ يتقلَّـــدُهُ

كـــلّا لا ذنْـــبَ لمـــن قَتَلَـــتْ ... عينـــاهُ ولم تَقْتُـــلْ يـــدُهُ

يـــا مـــنْ جَحَـــدَتْ عينـــاهُ دَمِـــي ... وعلـــى خدَّيْـــهِ تَـــوَرُّدُهُ

خـــدَّاكَ قـــدْ اعْتَرفـــا بـــدَمِي ... فعـــلامَ جُفونُـــكَ تَجحَـــدُهُ

إنِّي لَأُعيـــذُكَ مـــنْ قَتْلِـــي ... وأظُنُّـــكَ لا تَتَعَمَّـــدُهُ

بـــاللهِ هَـــبِ المشـــتاقَ كَـــرًى ... فلعَـــلَّ خيالَـــكَ يُسْـــعدُهُ

مـــا ضَـــرَّكَ لـــو داوَيْـــتَ ضَـــنًى ... صَـــبٍّ يُـــدْنِيك وتُبْعـــدُهُ

لم يُبـــقِ هـــواكَ لَـــهُ رَمَقـــاً ... فلْيَبْـــكِ عليـــهِ عُـــوَّدُهُ

وغـــداً يَقْضـــى أو بَعْـــدَ غَـــدٍ ... هـــلْ مـــنْ نَظَـــرٍ يَتَـــزَوَّدُهُ

يـــا أهْـــلَ الشـــوقِ لنـــا شَـــرَقٌ ... بالـــدّمعِ يَفـــيضُ مَـــوْرّدُهُ

يهْـــوى المشْـــتَاقُ لقـــاءَكُمُ ... وصـــروفُ الـــدَّهْرِ تُبَعِّـــدُهُ

مـــا أحلـــى الوَصْـــلَ وأعْذَبَـــهُ ... لـــولا الأيَّـــامُ تُنَكِّـــدُهُ

بـــالبَيْنِ وبـــالهجْرانِ فيـــا ... لفُـــؤَادِي كيـــفَ تَجَلُّـــدُهُ[1]

الحُـــبُّ أعَـــفُّ ذَويـــهِ أنـــا ... غـــيرِي بالباطِـــلِ يُفْسِـــدهُ

---

١ – علي الحصري، دراسة ومختارات: ١٦٩ –١٧٠.

لسان الدين بن الخطيب

هو أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي.

أهمّ أعلام الأندلس في القرن الثامن الهجري، وأعظم أدبائها وعلمائها قاطبة.

والسلماني نسبة إلى بني سلمان بن يشكر بن ناجية بن مراد وهم بطن من مراد من القحطانيّة[١].

وكان يلقّب بذي الوزارتين القلم والسيف، وبذي العمرين؛ لأنّه كان مصاباً بداء الأرق طوال عمره، «ويلقّب من الألقاب المشرقيّة بلسان الدين»[٢] كما قال لسان الدين بن الخطيب في ترجمته لنفسه في آخر كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» ممّا وضّح لنا أغلب مراحل حياته، قال: «مولدي في الخامس والعشرين لرجب عام ثلاثة عشر وسبعمئة»[٣].

وهو من أسرة نابهة سرية كانت تعرف أصولها ببني الوزير وصارت تعرف فروعها ببني الخطيب[٤]، وتولّى أبوه مناصب متعدّدة منها الوزارة ومنها الإشراف على مخازن الطعام، ومنها الكتابة في ديوان الإنشاء حتّى وفاته سنة (٧٤١هـ)[٥].

نشأ لسان الدين في غرناطة في كنف أبيه وبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويده، ثمّ درس العلوم اللغويّة والأدبيّة والدينيّة على مشايخ عصره، وأهمهم ابن الفخّار ويحيى بن هذيل وأبو البركات بن الحاجّ وابن جزي وأبو جعفر بن الزبير وابن الجيّاب الذي تدرّب على يديه في الكتابة والإنشاء، وأخذ كذلك عن بعض المغاربة كابن مرزوق وابن يربوع[٦].

---

(١) معجم القبائل: ٨٨/٢، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ٢٩٢.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤٣٩/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٦٣٤/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤٣٩/٤.

(٥) ترجم له في الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٨٦/٣-٣٩٢.

(٦) الإحاطة...: ٤٥٧/٤، أزهار الرياض: ١٨٧/١، نفح الطيب: ٧٢/٤، البدر الطالع: ٨١/٢.

عاصر ابن الخطيب خمسة من سلاطين بني نصر، هم:

١- إسماعيل بن فرج، حكم (٧١٣-٧٢٥هـ).

٢- محمّد الرابع بن إسماعيل (٧٢٥-٧٣٣هـ).

٣- أبو الحجّاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ).

٤- محمّد الخامس الغنيّ بالله ابن يوسف، حكم مرّتين (٧٥٥-٧٦٠هـ)، (٧٦٣-٧٩٣هـ).

٥- محمّد السادس بن إسماعيل (٧٦٠-٧٦٣هـ).

وأوّل من اتّصل لسان الدين بهم من هؤلاء هو السلطان محمّد بن إسماعيل (ت ٧٣٣هـ) وقد مدحه لسان الدين وهو دون العشرين من عمره بقصيدة قدّم لها بقوله إنّها «من أوّليات ما نظمت، أنشدتها إيّاه بالقصر المنسوب إلى السيّد من مالقة في عام اثنين وثلاثين وسبعمئة:

نبِّهْ نديمَكَ للصَّبُوحِ وهاتِهَا ... كالشمسِ تشرقُ منْ جميعِ جِهاتِهَا

واصرِفْ بصرفِ الراحِ همّاً كامناً ... واحي السُّرورَ تنعُّماً بحياتِهَا

...

دعْ عنْكَ هِنداً والديارَ ومنْ بَهَا ... ودعِ الغرامَ يكونُ بعضَ عُفَاتِهَا

وانهضْ بِمدحتِكَ التي حلَّيْتَهَا ... بِثَنَا أميرِ المسلمينَ وهاتِهَا

ملكٌ أعدَّتْهُ الخلافةُ ناشئاً ... والذُّعْرُ يبرُقُ تحتَ حدِّ ظُبَاتِهَا

فغدَا أحقَّ بها وقامَ بعبئِهَا ... وسَمَا بأقرِهَا إلى غاياتِهَا

وأتاحَ أندلُساً بحدِّ حسامِهِ ... نصراً فأحيا الأرضَ بعدَ مَماتِهَا[1]

واتّصل لسان الدين بالسلطان الجديد أبي الحجّاج يوسف بن إسماعيل منذ اليوم الأوّل لبيعته وتولّيه الحكم سنة (٧٣٣هـ) ومدحه وهنّأه بقصيدة فائيّة قدّم لها بقوله: «قلت يوم البيعة السعيدة وهي أوّل قصيدة نظمتها فيه:

تَلاَفَيْتَ نَصْرَ الدِّينِ إذْ كَادَ يَتْلَفُ ... وأبْجَزْتَ وَعْدَ الحَقِّ وَهْوَ مُسَوَّفُ

(١) ديوانه: ١/١٦٩-١٧١، والصيّب والجهام: ٣٢٦-٣٢٧، وانظر قطعة أخرى في مدحه: ٣٣٣.

وأَنْشَـأْتَ في أُفْقِ العُـلَا سُـحُبَ النَّـدَى وَسَـقَّيْتَ رَوْضَ المَجْـدِ فَهْـوَ مُفَـوَّفُ
وَجَمَّعْـتَ أَسْـبَاطَ المَكَـارِمِ والعُـلَا وَنَادَيْـتَ لا تَثْرِيـبَ إِذْ أَنْـتَ يُوسُـفُ
وَقَـرَّ سـرِيرُ المُلْـكِ لَمَّـا حَلَلْتَـهُ وَلَـوْ لَمْ تُشِـدْ أَرْجَـاءَهُ كَـادَ يَرْجُـفُ
دَعَتْـكَ قُلُـوبُ النَّـاسِ إِذْ عَـمَّ جَـدْبُهَا وَلَـجَّ الأَسَـى فِيهَـا وَجَـلَّ التَّأَسُّـفُ
فَأَطْلَلْـتَ غَيْثـاً في سَـمَاءٍ عَجَاجَـةٍ تَـرَى دَلْوَهَـا شُـهْبَ الأَسِـنَّةِ تَقْـذِفُ[1]

قال ابن خلدون عن ابن الخطيب « وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الاحمر وملأ الدولة بمدائحه وانتشرت في الآفاق قدماه فرقّاه السلطان إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجيّاب شيخ العدوتين في النظم والنثر... إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة فولّى السلطان أبو الحجاّج يومئذ محمّد بن الخطيب هذا رياسة الكتّاب ببابه وثناه بالوزارة ولقبه بها فاستقلّ بذلك»[2].

وقال ابن الخطيب نفسه: « فقلّدني السلطان سره، ولمّا يستكمل الشباب ويجتمع السنّ، معزّزة بالقيادة ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي، وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحي»[3].

وفي ديوان ابن الخطيب نحو (٥٠) قصيدة ومقطّعة في مدح أبي الحجّاج يوسف وتهنئته بانتصاراته واحتفالاته بالأعياد وسائر المناسبات؛ استطاع بها أن يصل إلى مبتغاه ولاسيّما بعد وفاة أستاذه ابن الجيّاب (ت ٧٤٩هـ).

واخترمت المنية السلطان أبا الحجّاج إذ قتل في صلاة عيد الفطر سنة (٧٥٥هـ)

---

(١) ديوانه ٦٦٩/٢، والصيّب والجهام: ٦٢٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٣٣٣/٧، وانظر أزهار الرياض: ٢٠٤/١-٢٠٥، والبدر الطالع: ٨١/٢.

(٣) الإحاطة: ٤٤٣/٤.

وخلفه ابنه محمّد وهو صغير السنّ «يافع قريب عهد بحال المراهقة»[1] إذ ولد سنة (٧٣٩هـ)، وكان قد هنّأ لسان الدين أبا الحجّاج بمولوده هذا فقال: «وباكرته يوم ميلاد ابنه الأمير أبي عبد الله -أسعده الله- بهذه القصيدة من المبتدهات:

بُشْرَى تَقُوْمُ لَهَا الدُّنيا على قَدَمِ ... حَيَّا بها اللهُ حَيَّ النصرِ في القِدَمِ
وأصبحَ الدينُ جَذْلاناً بموقِعِهَا ... يُثْنِي بكلِّ لسانٍ ناطقٍ وفمِ
ويا أميرَ الهُدَى هُنِّيْتَهَا نِعَماً ... موصولةَ العدِّ قدْ جلَّتْ عنِ النِّعَمِ
أَجْدَى منَ الغيثِ بعدَ الجدبِ في بلدٍ ... أَوِ الشبيبةِ بعدَ الشيبِ والهَرَمِ
شهابُ هَدْيٍ تجلَّى في سماءِ عُلاً ... وفرعُ مُلْكٍ نَمَا في دوحةِ الكَرَمِ
تاهتْ بهِ الجردُ واهتزَّتْ بهِ طَرَباً ... معاطفُ الشمِّ والمصقولةِ الحَذَمِ
وللتَّنَافُسِ في تقبيلِ رَاحتِهِ ... ظَلَّ التفاخرُ بينَ السيفِ والقَلَمِ[2]

إذاً فقد كانت علاقة لسان الدين بالملك الجديد قديمة منذ ولادته، فلا غرو أن يرفع من مكانة ابن الخطيب، وأن يحلّه «المحلّ الذي لا فوقه في الخصوصيّة» وأن يعامله «بما لا مزيد عليه من العناية»[3]، وقال ابن الخطيب كذلك: «ولمّا هلك قدّس الله روحه ضاعف ولده مولاي رضي الله عنه حظوتي وأعلى مجلسي وقصر المشورة على نصحي»[4].

وقد مدحه لسان الدين منذ أوّل يوم لتسلّمه السلطة فهنّأه بعقد بيعته أوّل شوّال عام (٧٥٥هـ) بقصيدة محبّرة:

مُحَمَّدٌ قَدْ أحْيَيْتَ دينَ مُحَمَّدٍ ... وَأَبْجَزْتَ مِنْ نَصْرِ الهُدَى سَابِقَ الوَعْدِ
طَلَعْتَ عَلَى الدُّنْيَا بِأيْمَنِ غُرَّةٍ ... أَضَاءَ بِهَا نُورُ السَّعادَةِ في المَهْدِ
وَكَمْ رَصَدَتْ مِنَّا العُيُونُ طُلُوعَهَا ... فَحُقِّقَ نَصْرُ اللهِ في ذَلِكَ الرَّصْدِ

(١) اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة: ١٠٠.
(٢) ديوانه ٥٣٢/٢، الصيّب والجهام: ٥٧٩.
(٣) الإحاطة: ١٧/٢، وانظر أزهار الرياض: ١٩٤/١.
(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤٤٣/٤.

هَنِيئـــا لمُلْـــكٍ فَاْتَحَتْـــكَ سُـــعُودُهُ وَعِـــزٍّ عَلَـــى الأَيَّـــامِ مُنْـــتَظِمُ العِقْـــدِ
وَعُقْـــدَةِ مُلْـــكٍ كَـــانَ رَبُّـــكَ كالِئـــاً لَهَـا وَأَصِـيلُ السَّـعْدِ يُغْـنِي عَـنِ الجـدِّ
جَمَعْـــتَ بِهَـــا الأهـــواءَ بَعْـــدَ افْتِرَاقِهَـــا فَقَـدْ كَـانَ فِيْهَـا الضِّـدُّ يَـأْنَسُ بِالضِّـدِّ
أَمَـــوْلَايَ هَـــذَا الأَمْـــرُ جِـــدٌّ وَإِنَّمَـــا يَلِيْـقُ بِـهِ مَـنْ عَامَـلَ الجِـدَّ بِالجِـدِّ[1]

واعتمد عليه كما اعتمد أبوه من قبل في السفارات إلى ملوك المغرب فأرسله إلى السلطان المغربي أبي عنان يحثّه على الجهاد ومساعدة إخوانه في الأندلس فأنشد بين يديه:

خَلِيفَـــةَ اللهِ سَـــاعَدَ القَـــدَرُ عُـلَاكَ مَـا لَاحَ فِي الـدُّجَى قَمَـرُ[2]

«اهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس ما ترجع إليهم إلّا بجميع طلباتهم ثمّ أثقل كاهلهم بالإحسان، وردّهم بجميع ما طلبوه. وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد: لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلّا هذا »[3].

وفي سنة (٧٦٠هـ) انقلب إسماعيل بن يوسف على أخيه محمّد الغنيّ بالله واستولى على ملكه فهرب الغنيّ بالله إلى المغرب، وبقي ابن الخطيب في الوزارة مدّة، ومدح السلطان الجديد المتغلّب بقصيدة واحدة مطلعها[4]:

مَـــوْلَايَ يَـــا خَيْـــرَ مُلُـــوْكِ الـــوَرَى وَنُخْبَـــــةُ النَّصْـــــرِ وَأَرْبَابِـــــهِ
قُمْـــتَ بِـــأَمْرٍ أَنْـــتَ أَهْـــلٌ لَـــهُ فَلْتَـــأْتِ هَـــذَا الأَمْـــرَ مِـــنْ بَابِـــهِ

قال لسان الدين: « فاقتدى فيّ أخوه المتغلب على الأمر به، فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم حمله أهل الشحناء من أهل أعوان ثورته على القبض عليّ، فكان ذلك، وتقبض عليّ، ونكث ما أبرم من أماني، واعتقلت بحال ترفيه »[5].

(١) ديوانه: ١/٣٠٧-٣٠٨، الصيّب والجهام: ٤٣٦.
(٢) ديوانه ١/٤٠٣، الصيّب والجهام: ٥٤٣.
(٣) أزهار الرياض: ١/٢٠٦-٢٠٧.
(٤) ديوانه ١/١٣٤، والصيّب والجهام: ٢٩٢.
(٥) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/٤٤٣.

ثمّ شفع له سلطان المغرب الجديد أبو سالم المريني فالتحق لسان الدين بسلطانه المخلوع في فاس في (٦ محرم عام ٧٦١هـ)[١].

ثمّ استأذن لسان الدين للتجوّل في المغرب والإقامة بمدينة سلا، فاستقرّ فيها ما يزيد على السنتين، وقال: «فجنحت إلى السكنى بمدينة سلا، حيث ضربت الحرمة رواقها، وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدّس أسواقها، تجري عليّ النعم، ويظلّلني المجد والكرم، فلا أعدّ من عمري إلّا أيّام مقامي بها، وسكناي فيها، تفرّغاً إلى ما أريده من دنيا وآخرة وعاقبة شاملة وجنّة عاجلة»[٢]. وزار قبر المعتمد على الله وأنشد على قبره[٣]:

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بأغْمَاتِ ... رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى المُهمَّاتِ
لِمَ لَا أَزُوْرُكَ يَا أَنْدَى المُلُوكِ يَداً ... وَيَا سِرَاجَ اللَّيَالِي المُدْلَهِمَّاتِ
وَأَنْتَ مَنْ لَو تَخَطَّى الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... إِلَى حَيَاتِي أَجَادَتْ فِيْهِ أَبْيَاتِي
نَافَ قَبْرُكَ فِي هَضْبٍ يُمَيِّزُهُ ... فَتَنْتَحِيْهِ حَفِيَّاتُ التَّحِيَّاتِ
كَرُمَتْ حَيّاً وَمَيْتاً وَاشْتَهَرْتَ عُلاً ... فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتِ
مَا رِيءِ مِثْلُكَ فِي مَاضٍ ومُعْتَقَدِيْ ... أَنْ لَا يُرَى الدَّهْرَ فِي حَالٍ وَفِي آتِ

وفي ذي القعدة من سنة (٧٦٢هـ) قتل السلطان أبو سالم، وتولّى الحكم أبو زيّان محمّد بن عبد الرحمن، فلم ير ابن الخطيب بأساً في مدحه حفاظاً على نفسه ومكانته ومكاسبه.

ثمّ عاد الغنيّ بالله إلى ملكه في الأندلس في جمادى الآخرة عام (٧٦٣هـ) فاستدعى لسان الدين مباشرة واصفاً إيّاه بأرفع الصفات وأفخمها؛ فقال لسان الدين[٤]:

قَالُوا لِخِدْمَتِهِ دَعَاكَ مُحَمَّدٌ ... فَأَنِفْتَهَا وَزَهِدْتَ فِي التَنْوِيْهِ
فَأَجَبْتُهُمْ أَنَا وَالمُهَيْمِنِ كَارِهٌ ... فِي خِدْمَةِ المَوْلَى مُحِبٌّ فِيْهِ

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/٤٤٤.
(٢) أعمال الأعلام: ٣١٣.
(٣) ديوانه: ١/١٨٢، الصيّب والجهام: ٣٣٨-٣٣٩.
(٤) ديوانه: ٢/٧٤٦، الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/٤٤٥.

ثمّ استجاب لسلطانه وعاد في (٢٠ شعبان عام ٧٦٣هـ) فكرّمه الغني بالله وأصدر «ظهيراً» أو مرسوماً بتعيينه رئيس الوزراء ولقّبه ذا الوزارتين السيف والقلم، وصار بيده تدبير أمر المملكة والحلّ والعقد والكلمة العليا بعد السلطان[١]، ودام ذلك نحو عشر سنوات ممّا أكثر حاسديه وغصّوا فيه وسعوا فيه، وقد عرف ذلك لسان الدين فقال: «صرت أنظر إلى الوجوه فألمح الشرّ في نظراتها، وأعتبر الكلمات فأتبيّن الحسائف في لغاتها»[٢].

وأحسّ ابن الخطيب بتلوّن إخوانه عليه، وأنّ كثيراً ممّن كانوا يأكلون على خِوانه صاروا من خوّانه، وخشي على نفسه من تغيّر سلطانه عليه، فراسل سلطان المغرب أبا فارس عبد العزيز (حكم ٧٦٨-٧٧٤هـ) طالباً اللجوء إليه، فأجابه بما يهوى فهوى إليه، وهرب إلى المغرب سنة (٧٧٢هـ) فلقي منه كلّ ترحيب واحترام.

ولكنّ أعداء ابن الخطيب في الأندلس وصنائعه الخائنين ولاسيّما تلميذه ابن زمرك والقاضي أبي الحسن النباهي الذي رقّاه ابن الخطيب إلى مرتبة قاضي القضاة لم يتركوه بحاله بل أوغروا صدر الغني بالله وزعموا أنّ ابن الخطيب راح يغري السلطان المغربي بضمّ الأندلس إليه، فازداد الغني بالله غضباً على غضب واستشاط غيظاً، فصمّم أن يقتل ابن الخطيب وعقدت له محكمة في الأندلس وحكم عليه بالزندقة، وطلب من السلطان المغربي أن يسلّمه، فقال لهم: «هلّا أثبتم ذلك عليه وهو عندكم»[٣].

ورفض أن يسلّمه لهم وتوفّي سنة (٧٧٤هـ) وسيطر الوزير ابن غازي على مقاليد الأمور، وأبى كذلك أن يسلّم ابن الخطيب لهم.

فقام سلطان الأندلس محمّد الغني بالله بمساعدة أبي العبّاس أحمد بن أبي سالم في تسلّم مقاليد الحكم في المغرب بشرط أن يسلّم لهم لسان الدين بن الخطيب ، وكان ذلك فقبض على لسان الدين وأودع السجن، قال صديقه ابن خلدون: «وكان، عفا الله عنه،

---

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون: ٣٩٥/٧.

(٢) أعمال الأعلام: ٢٦٤، وانظر الإحاطة: ٤٤٦/٤، وذكر أنّ ذلك كان أوّل عام (٧٧١هـ).

(٣) الدرر الكامنة: ٢١٦/٥.

أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتجهش هواتفه بالشعر، يبكي نفسه، وممّا قال في ذلك[1]:

بَعُدْنَـــا وإِنْ جَاوَرْتْنَـــا البُيُـــوْتْ وَجِئْنَـــا بِـــوَعْظٍ ونحـــنُ صُـــمُوْتْ
وأَنْفاسُـــــنَا سَـــــكَنتْ دَفْعَـــــةً كَجَهْـــرِ الصَّـــلَاةِ تَـــلَاهُ القُنُـــوْتْ
وَكُنَّـــا عِظَامـــاً فَصِـــرْنا عِظَامـــاً وكُنَّـــا نَقُـــوتُ فهـــا نحـــنُ قُـــوْتْ
وَكُنَّـــا شُمُـــوسَ سَمَـــاءِ العُـــلَا غَـــرَبْنَ فَنَاحَـــتْ علينـــا السّـــمُوْتْ
فَكَـــمْ خَـــذَلَتْ ذا الحُسْـــامِ الظُّبـــا وذو البُخـــتِ كـــمْ جَدَّلَتْـــهُ البُخُـــوْتْ
وَكَـــمْ سِـــيقَ لِلقَـــبْرِ في خِرْقَـــةٍ فـــتىً مُلِئَـــتْ مِـــنْ كُسَـــاهُ التُّخُـــوْتْ
فَقُـــلْ لِلْعِـــدَا ذَهَـــبَ ابْـــنُ الخَطِيـــبِ وَفَـــاتَ وَمَـــنْ ذَا الَّـــذِي لَا يَفُـــوْتْ
ومَـــنْ كـــانَ يفـــرحُ مـــنهمْ لَـــهُ فَقُـــلْ يَفْـــرحُ اليَـــومَ مَـــنْ لا يمُـــوْتْ»

وطار خبر سجن ابن الخطيب إلى الأندلس، فأرسل الغني بالله كاتبه ابن زمرك إلى المغرب وعقدت محكمة « وأحضر ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه المحبّة، فعظم النكير فيها، فوبخ ونكّل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ، ثمّ نقل إلى محبسه، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودسّ سليمان بن داود له بعض الأوغاد من حاشيته بمقتله، فطرقوا السجن ليلاً، ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم، مع سراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرج شلوه من الغد، فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على سافة قبره طريحاً، وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فأحرق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته »[2]. وكان ذلك- رحمه الله- سنة ٧٧٦هـ[3].

(١) أزهار الرياض: ٢٣١/١ وانظر ديوانه: ١٨٥/١.
(٢) أزهار الرياض: ٢٢٩/١.
(٣) نثير فرائد الجمان: ٢٤٢، شذرات الذهب ٢٤٣/٤.

مؤلّفاته:

ذكر لسان الدين بن الخطيب في ترجمته[1] لنفسه في الإحاطة ثبتاً مطوّلاً لمؤلّفاته، وهي تدور في مجالات متعدّدة، فمن أهمّ كتبه التي وصلت إلينا في **مجال التاريخ والتراجم والسير**:

١- الإحاطة في أخبار غرناطة.

٢- اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة.

٣- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

٤- الكتيبة الكامنة في من لقيته في الأندلس من شعراء المئة الثامنة.

٥- معيار الاختيار.

وفي مجال الأدب والشعر:

٦- الصيّب والجهام والماضي والكهام (ديوان شعره).

٦- ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب (رسائله).

٧- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

٧- جيش التوشيح.

٨- السحر والشعر.

وفي مجال التصوّف:

٩- روضة التعريف بالحبّ الشريف.

١٠- استنزال اللطف الموجود في سرّ الوجود.

وفي مجال الطبّ:

١١- الوصول لحفظ الصحة في الفصول.

١٢- عمل من طبّ لمن حبّ.

١٣- مقنعة السائل عن المرض الهائل.

---

(١) الإحاطة ٤/٤٥٩-٤٦٢.

الثناء على أدبه

كان لسان الدين أديب عصره من دون منازع، وقد أثنى عليه جلّ من ترجم له ثناء هائلاً، فقال فيه معاصره الأمير ابن الأحمر (ت ٨٠٧هـ): «شاعر الدنيا، وعالم الفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض»[١].

وقال فيه معاصره ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): «ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما، وأصبح شاعر الأندلس والمغرب في عصره»[٢].

وقال فيه أيضاً: «وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه»[٣].

وقال ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): «وتولّع بالشعر فنبغ فيه ففاق أقرانه»[٤].

وقال شهاب الدين المقّري (ت ١٠٤١هـ): «المثل المضروب في الكتابة والشعر والطبّ ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها»[٥].

وقال: «شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع، ولا معرّج على شاعر بعده للآذان والسامع»[٦].

خصائص شعره:

سمّى لسان الدين بن الخطيب ديوانه الشعري بـ«الصيّب والجهام والماضي والكهام»، ليشفع صيّبه في جهامه، وماضيه في كهامه»[٧]، أي إنّ شعره بعضه جيّد وبعضه غير ذلك، وفي أثناء ديوانه يعترف بهذا غير مرّة، كقوله: «وانحطاط هذه الأبيات

---

(١) نثير فرائد الجمان: ٢٤٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦٨٩/٧.

(٣) المصدر نفسه: ٩٥٩/٧.

(٤) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ٢١٤/٥.

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٧/٥، وأزهار الرياض: ١٨٦/١.

(٦) أزهار الرياض: ٢٣٤/١.

(٧) ديوانه: ٩٠/١، الصيّب والجهام: ٢٢٩.

عن الإجادة لما قدّمناه في العذر بيّن، ولا يحتاج إلى عذر مع تسمية الكتاب بحول الله»[1].

وكان لسان الدين يروض النظم وينتحله ويتدّرب عليه، ويقلّد المشارقة ويتكلّف القريض، ويظهر أثر النظم فيه حتّى مهر فيه وملك زمامه وصار فارساً مشهوراً فيه في عصره.

وتتّسم ألفاظ شعر لسان الدين بالفصاحة والجزالة والرقّة معاً، وتتصف معانيه بالمبالغة والوضوح والتكرار والإطالة، كما كان يكثر من معارضة المشارقة، ويقدّم لقصائده بذلك، ويتبدّى ثقل ثقافته الأدبية والدينيّة والعلميّة في شعره في الاقتباس والتضمين واستخدام أساليب المنطق والبرهان كما يكثر من البديع ولاسيّما الجناس والتورية، ومع ذلك فقد كان من أعظم شعراء عصره.

أغراضه الشعريّة:

أكثر لسان الدين من شعر المديح وشعر المناسبات والتهاني وذلك لكونه شاعر بلاط محترفاً، وطرق أغلب أبواب الشعر المعروفة من غزل وفخر وهجاء ورثاء وزهد وتصوّف ووصف، ونظم الموشّحات والأزجال.

أغراض شعره

١- الغزل[2]

يَا هِلَالاً يَا قَضِيْباً يَا رَشَا ... إنْ تَبَدَّى أوْ تَثَنَّى أَوْ مَشَا

يَا غَزَالاً وِرْدُهُ فِي أَدمُعِي ... كُلَّمَا شَاءَ وَمَرْعَاهُ الحشَا

قَدْ فَشَا فِيكَ هُيَامِي فِي الوَرَى ... وَهْوَ لَوْلَا دَمْعُ عَيْنِي مَا فَشَا

ولَكِمْ آثَرْتُ كِتْمَانَ الهَوَى ... غَيْرَ أَنَّ الدَّمْعَ بالسِّرِّ وَشَا

---

(١) ديوانه ١/١٧٣، والصيب والجهام: ٣٢٩.

(٢) ديوانه ٢/٧٣٩-٧٤٠، والصيّب والجهام: ٦٥٢.

كَيْـفَ بالكِتْمَـانِ يَوْمـاً لامْـرِىءٍ ... سِـرُّهُ فِي خَـدِّهِ قَـدْ نُقِشَـا

أَوْ بِسُـلوَانٍ لِمَـنْ فِي رِيَّـةٍ ... جِسْـمُهُ والقَلْـبُ فِي وَادِي الأَشَـا

خُـذْ فُـؤَادِي لَـكَ مِـنِّي هِبَـةً ... حُـرَّةً وَافْعَـلْ بِقَلْـبِي مَـا تَشَـا

بِعْـتُ فِيـكَ النَّـوْمَ بالسُّـهْدِ فَـلَا ... فَـرْقَ عِنْـدِي بَـيْنَ صُـبْحٍ وَعِشَـا

كَـمْ لَيَـالٍ بِـتُّ فِي ظَلْمَائِهَـا ... أَمْتَطِـي مِـنْ نَـارِ شَـوْقِي فُرُشَـا

كُلَّمَـا صِـحْتُ بِهَـا وَاكَبِـدِي ... مَـادَتِ الأَرْضُ لِمَـا بِي دَهَشَـا

وَكَـأَنَّ الـنَّجْمَ شَـرْبٌ ثَمِـلٌ ... وَاصَـلَ الثَّمْلَـةَ حَـتَّى ارْتَعَشَـا

وَكَـأَنَّ الصُّـبْحَ فِي اللَّيْـلِ وَقَـدْ ... مَـلَأَ الأَرْجَـاءَ مِمَّـا جَيَّشَـا

ثَـائِرٌ رَاقَـبَ مِنْـهُ فُرْصَـةً ... ثُمَّ لَمَّـا أَمْكَنَتْـهُ بَطَشَـا

وَتَخَـالُ الأُفْـقَ ثَغْـراً قَاصِـياً ... غَلَـبَ الـرُّومُ عَلَيْـهِ الحَبَشَـا

مُلِئَـتْ مِـنْ جَـوْهَرِ الـدَّمْعِ يَـدِي ... عَجَبـاً أَقْبَـلُ فِي قَلْـبِي الرُّشَـا

وَجَـرَى مِـنْ مَـاءِ عَيْـنِي نَهَـرٌ ... حِـينَ أَرْسَـلْتُ دُمُـوعِي مُجْهِشَـا

فَـاعْجَبُوا مِـنْ جَـوْهَرٍ لا يُقْتَـنَى ... وَلِنَهْـرٍ لَـيْسَ يَـرْوِي عَطَشَـا

يَـا نَـدِيمَيَّ فُـؤَادِي كُلَّمَـا ... نَفَحَـتْ رِيـحُ النُّعَـامَى انتعشَـا

آنِّسَـا قَلْـبِي بِتَـذْكَارِ الحِمَـى ... فَـالحِمَى مِـنْ أَهْلِـهِ قَـدْ أَوْحَشَـا

ضَـاعَ يَـوْمَ البـينِ قلـبي فَابْحَثَـا ... بَـيْنَ أَخْفَـافِ المطَايَـا وَانْبِشَـا

وَامْزُجَاهَـا قَهْـوَةً عِطرِيَّـةً ... كَرُمَـتْ كَرَمـاً وَطَابَـتْ عُرُشَـا

فَـإِذَا أَبْصَـرَها ذُو قِـرَّةٍ ... ظَنَّهَـا بالْبُعْـدِ نَـاراً فَعَشَـا

وإِذَا قَبَّلَهَـا شَـارِبُهَا ... قَطَّـبَ الوَجْـهَ لَهَـا وانْكَمَشَـا

فَسَـلَا السَّـاقِي الَّـذِي أَتْرَعَهَـا ... حَيَّـةً أَوْدَعَهَـا أَوْ حَنَشَـا

٢- الخمريات:

ودَيْـــرٍ أَنَخْنَـــا فِي قَرارتِـــهِ العِيْسَـــا ... بِحِلّـــةِ رُهْبَـــانٍ إِلَهُهُـــمُ عِيْســـى

عُكـــوفٍ علَـــى التِّمْثـــالِ يَسْـــتَلِمُوْنَهُ ... ويُعْنَـــوْنَ بالإِنْجيـــلِ حِفْظـــاً وتَدْرِيْســـا

زَعَقْنَـــا بِهِـــمْ بعْـــدَ العَشـــيِّ فهَيْنَمـــوا ... كأَنَّـــا ذَعَرْنَـــا غابَـــةً منْـــهُ أو خِيْســـا

وقُلْنَـــا بَنُـــو سُـــبْلٍ جَـــوَانِحُ للقِـــرَى ... فقـــالَ زَعـــيمُ القـــوْمِ رحْبـــاً وتَأْنِيْســـا

فَقُلْنَـــا هَـــوَاءُ الشَّـــامِ غَـــالَ نُفُوْسَـــنَا ... فَهَـــلْ لَـــكَ فِي شَـــيْءٍ يُـــنَفِّسُ تَنْفِيْســـا

فَقَـــالَ أَخَمْـــرٌ وَهْـــيَ شَـــيْءٌ مُحَـــرَّمٌ ... عَلَـــيْكُمْ لَبِـــئْسَ المسْـــلِمُونَ إِذَنْ بِئْســـا

فَقُلْنَـــا دَعِ الإِنْكَـــارَ إِنَّـــا عِصَـــابَةٌ ... يُطِيْعُـــوْنَ فِيْمَـــا تَشْـــتَهِي الـــنّفْسُ إِبْلِيْســـا

فَقَـــامَ يَجُـــرُّ المِسْـــحَ ثُمَّ أَتَـــى بِهَـــا ... فَأَبْصَـــرْتُ كِيْوَانـــاً تَنَـــاوَلَ بِرْجِيْســـا

وَصَـــارَفْتُهُ فِيْهَـــا لُجَيْنـــاً بِعَسْـــجَدٍ ... فَنَـــاوَلَنِي كَأْســـاً وَنَاوَلْتُـــهُ كِيْســـا

وَلِلَّـــهِ مِـــنْ عَـــيْشٍ نَعِمْنَـــا بِلَهْـــوِهِ ... حَمِـــدْنَا بِـــهِ مِنَّـــا مَقِـــيْلاً وَتَعْرِيْســـا[1]

٣- المديح:

زَارَتْ ونَجْـمُ الـدُجَى يَشْـكُو مِـنَ الأَرَقِ ... والزُّهْـــرُ سَـــابِحَةٌ في لُجَّـــةِ الأُفُـــقِ

واللّيْـلُ مِـنْ رَوْعَـةِ الإِصْـبَاحِ في دَهَـشٍ ... قـدْ شـابَ مَفْرِقُـهُ مِـنْ شِـدّةِ الفَـرَقِ

وأَوْشَـكَتْ أنْ تضِـلَّ القَصْـدَ زائِـرَةٌ ... لـوْلا أَتَتْـني في بـاقٍ مِـنَ الرّمَـقِ

قالـتْ تَناسَـيْتَ عهْـدَ الحُـبِّ قُلْـتُ لَهـا ... لا والـذي خَلَـقَ الإنسـانَ مـنْ عَلَـقِ

مـا كـانَ قَـطُّ تَناسِي العهْـدِ من شِيَمِي ... ولا السُّـلُوُّ عـنِ الأحْبـابِ مـنْ خُلُقِـي

ولا ترحّلْـتُ عـنْ مَغْنـاكِ مـنْ مَلَـلٍ ... قـدْ يُتْـرَكُ المـاءُ يوْمـاً خِيْفَـةَ الشَّـرَقِ

---

(١) ديوانه:٢/٧٢٠- ٧٢١، والصيّب والجهام: ٦٤٨-٦٤٩.

كَمْ ليلةٍ بتُّهَا والطَّيْفُ يشهدُ لي ... لمْ تَطْعَمِ النّوْمَ أجْفاني ولمْ تَذُقِ

أشكوْ الى النّجْمِ وهْناً ما أُكابِدُهُ ... حتّى شَكا النّجْمُ منْ وَجْدي ومِنْ قَلَقِي

يا لائِميَّ أفِيقَا منْ ملامِكُمَا ... فإنَّني مُذْ سُقِيْتُ الحُبَّ لمْ أُفِقِ

هَلْ تذْكُرانِ لَيالِيْنَا وقدْ نَفَحَتْ ... ريحُ الصَّبا في رِياضِ للصَّبا عَبِقِ

وإذْ نَعِمْنا برَغْمِ الدّهْرِ فيهِ وقدْ ... عضَّ الأنامِلَ منْ غيْظٍ ومِنْ حَنَقِ

بكُلِّ ساحِرَةِ الألْبابِ آيَتُهَا ... أنْ تُطْلِعَ الشّمْسَ في جُنْحٍ منَ الغَسَقِ

تُنَازِعُ الغُصْنَ لَدْناً في تأوّدِهِ ... وتخْصِمُ الرّيْمَ في الألحاظِ والعُنُقِ

والرّوضُ يجْلو عِذَارَيْهِ وَقَدْ لَبِسَتْ ... عَقَائِلُ الوُرْقِ دِيْبَاجاً مِنَ الوَرَقِ

كأنّما الغُصْنُ فيهِ شَارِبٌ ثَمِلٌ ... بكأسِ مُصْطَبِحٍ في الأُنْسِ مُغْتَبِقِ

فكلَّما ارْتاحَ هزَّ العِطْفَ منْ طَرَبٍ ... وزادَ زَهْواً بمَنْثُورٍ مِنَ الوَرَقِ

كأنّما الدَّوْحُ والأغصانُ جَائِلَةٌ ... قدْ جادَهَا كلُّ جَهْمِ الغيْثِ مُنْدَفِقِ

كأنّما الطّلُّ إذْ طُلَّ الشّقيقُ بهِ ... خَدٌّ بِصَفْحَتِهِ رَشْحٌ منَ العَرَقِ

همّتْ تُغورُ الأقاحي أنْ تُقَبِّلَهُ ... فلِلْبَنفْسَجِ وجْهُ الواجِمِ الحَنِقِ

كأنَّ أوْراقَهُ والرّيحُ تعطِفُهَا ... سَواعِدٌ رفَعَتْ خُضْراً مِنَ الوَرَقِ

كأنّمَا الآسُ آذانُ الجِيادِ وقدْ ... شَعَرْنَ بالرّوْعِ في قَفْرٍ منَ الطُّرُقِ

كأنّما النّهْرُ في أثْنائِهِ أفُقٌ ... والوَرْدُ في الشّطِّ مِنْهُ حُمْرَةُ الشّفَقِ

أو سَيْفُ يوسُفَ يوْمَ الرّوْعِ سالَ بهِ ... نَجيعُ أعْدائِهِ المحمرُّ في الزُّرَقِ

إمامُ عَدْلٍ يُحبُّ اللهُ سيرَتَهُ ... عَفُّ العُيونِ كريمُ الخَلْقِ والخُلُقِ

أقامَ للدّينِ قِسْطاساً فأمّنَهُ ... مَا سَامَهُ الجَوْرُ مِنْ بَخْسٍ ومِنْ رَهَقِ

وعــمَّ بــالرِّفْقِ هــذا القُطْــرَ فابْتَــدَرَتْ ... تَنْمِـــي مـــآثِرُهُ جوّابَـــةُ الأُفُـــقِ

أقــولُ للرّاكــبِ المُزْجِــي مَطِيَّتَــهُ ... يُحُثُّهَــا السّــيْرَ بــيْنَ الــنَّصِ والعَنَــقِ

يــا زاجــرَ العِــيْسِ أنْضــاءً مُضَــمَّرَةً ... كأنَّهــا أسْــهمٌ يَمْرُقْــنَ عــنْ فُــوَقِ

أهِلّــةٌ مــا لَهــا عَهْــدٌ بمنزِلَــةٍ ... مِــنْ كــلِّ مُنْخَسِــفِ الجثْمَــانِ مُنْمَحِــقِ

أرِحْ رِكابَــكَ قــدْ أوْرَدْتَ في نَهَــلٍ ... وقْــدْ ظَفِــرْتَ بحبْــلِ اللهِ فــاعْتَلِقِ

حَلَلْــتَ بالمنــزِلِ المَحْبُــوِّ نَائِلُــهُ ... ببــابِ مَلْــكٍ لبــابِ البِــرِّ مُسْــتَبِقِ

نَمَتْــهُ أمْــلاكُ صِــدْقٍ بــلْ ملائِكَــةٌ ... مِــنْ كــلِّ مُحْتَــزِمٍ بــالحَزْمِ مُنْتَطِــقِ

آثــارُهُمْ في سَمَــاءِ المُلْــكِ لائِحَــةٌ ... تَهْــدِي وذِكْــرُهُمُ مِسْــكٌ لِمُنْتَشِــقِ

وحَــلَّ مــنْ مَحْتِــدِ الأنصــارِ مُنْتَسِــباً ... في معْشَــرٍ صُــبُرٍ عِنْــدَ الــوَغَى صُــدُقِ

حِــزْبُ النّــبِيّ الأُلَى إنْ رَوْعــةٌ دَهَمَــتْ ... مِــلْءَ الفَضــا لمْ تَهِــنْ ذَرْعــاً ولم تَضِــقِ

يــا قائِــدَ الخَيْــلِ تــرْدِي في أعنّتِهــا ... هَــزْلَى الأبــاطِنِ والأنْســاءِ والصُّــفُقِ

مــنْ كــلِّ أحْمَــرَ ورْديٍّ تُنازِعُــهُ ... ظِبــاءُ وجْــرَةَ في الألْــوانِ والخِلَــقِ

وأشْــهَبٍ في سَمَــاءِ النّقْــعِ مُخْــتَرِقٍ ... كأنّــهُ قــاذِفٌ يَهْــوِي لمُسْتَــرِقِ

وأدْهَــمِ اللــوْنِ إنْ أبْــدَاكَ غُرّتَــهُ ... تخــالُ زِنْجيّــةً تفــترُّ عــنْ يَقَــقِ

كأنّــهُ وهْــوَ بالظَّلْمــاءِ مُشْــتَمِلٌ ... خَاضَــتْ قَوائِمُــهُ نَهْــراً مــنَ الفَلَــقِ

وأبْلَــقَ شُــغِفَتْ حُــورُ العُيــونِ بــهِ ... كأنّمــا عَطفَتْهــا نســبَةُ الحَــدَقِ

تُشــارِكُ اللّيْــلَ في إحْكــامِ صــنْعَتِه ... واليــوْمَ واتّفَقــا فيــهِ عَلَــى البَلَــقِ

أنتَ الذي خاصَمَتْ فيكَ السّيوفُ إلى ... أنْ خلّصَ الحقُّ رهْنَ المُلْكِ مِنْ غَلَقِ

وأنــتَ أمّنْــتَ حقّــاً ثغْــرَ أنْــدَلُسٍ ... وقَلْــبُ ســاكِنِها يَــرْتَجُّ مِــنْ خَفَــقِ

قـدْ عـاوَدَتْ دولَـةُ الإسـلامِ جِـدّتَهَا ... والكُفْـرُ مُشـتَمِلٌ بـالواهِنِ الخَلِـقِ

فـأَفْلِقِ البـيضَ واهْـزُزْ كـلَّ غالِبَـةٍ ... فالـدّينُ في مَـرَحٍ والكُفْـرُ في وَهَـقِ

حـتَّى إذا الـرّومُ رامَـتْ فُرصَـةً ونَـزا ... يومـاً مُنافِقُهـا الأشْـقَى عَـنِ النَّفَـقِ

فـاهْزُز برُعْبِـكَ قبـلَ الجـيْشِ مـا جمَعـوا ... واضْـرِبْ بسَـعْدِكَ قبـلَ الصّـارِمِ الـذَّلِقِ

واسْـتقْبلِ الفَـتْحَ والنّصْـرَ الـذي نطَقَـتْ ... آثـارُهُ بصَـحيحٍ غـيرِ مُخْتَلَـقِ

وإنْ شـكَتْ مرْهَفَـاتُ البيضِ مِـنْ ظَمَـأٍ ... فسـقّهَا عَلَـلاً صِـرْفاً مـنَ العَلَـقِ

وإنْ هُـمُ جنَحَـوا للسِّـلْمِ واعْتَلَقـوا ... منْهـا بمُسْـتَحْكَمِ الأسْـبابِ والعُلَـقِ

اجْـنَحْ لهـا بكتـابِ اللهِ مُقْتَـدِياً ... إذْ ذاكَ واسْـتَبْقِ فـلاًّ مـنْ ظُبـاكَ بَقِـي

واهْنـأْ بقابِـلِ أعْيـادٍ مَواسِمُهـا ... منْظومـةً ككُعـوبِ الـرُّمْحِ في نَسَـقِ

في ظـلِّ مُلْكـة مـنْ دونِ سـاحَتِها ... رِدْءٌ مـنَ اللهِ يحْمِـي حَوْزَهـا ويَقِـي

مـؤْلايَ دونَكَهـا عِقْـداً فرائِـدُهُ ... تُزْهَـى بمنـتَظِمِ الإبْـداعِ مُتَّسِـقِ

يوَدُّهَـا الـدوْحُ في أغْصـانِهِ زَهَـراً ... غَضّـاً وتحْسِـدُها داريـنُ في العَبَـقِ

تُـزْرِي بطيـبِ أواليهـا أواخرُهَـا ... كـذلِكَ السّـبْقُ يبْـدُو آخِـرَ الطَّلَـقِ

لـوْ جِئْـتُ في حَلْبَـةِ العُـرْبِ التي سبقَتْ ... مَـا كُنْـتُ في القـوْمِ إلَّا حـائِزَ السّـبَقِ

وإنْ تـأخّرَ بي عـنْ جـيلِهِمْ زمَـني ... فرمّـا جـاءَ معْـنَى الصّـبْحِ في اللَّحَـقِ

والعقْـلُ كـالبَحْرِ إنْ هالَتْـكَ هيبتُـهُ ... فالشّـعْرُ يسْـبُرُ منْـهُ مُنْتَهـى العُمُـقِ

فـإنْ وفّيْـتُ بمعـنَى المـدْحِ فهْـوَ جَـنَى ... روْضٍ بإنعامِـكَ السّـحِّ الغَمـامِ سُـقِي

وإنْ عجَـزْتُ فعَـنْ عُـذْرٍ وثقـتُ بـهِ ... مَـنْ رامَ عـدَّ الحَصى والقَطْـرَ لمْ يُطِـقِ[1]

وإنْ وفَيْـتُ بِـبَعْضِ القَـوْلِ رُبَّمَـا ... يَكْفِـي مِـنَ العِقْـدِ مَـا قَـدْ حَـفَّ بـالعُنُقِ

---

(١) ديوانه ٢/٦٩٠– ٦٩٣، والصيّب والجهام:٦٣٤–٦٣٩

٤- الفخر

لَنَـــا فِي الْفَخْـــرِ أَسْـــنِمَةٌ مُطِلَّـــهْ ... تَقُـــومُ عَلَـــى دَعَاوِيْهَـــا الأَدِلَّـــهْ

وَشَـــمْسُ الْحَـــقِّ مَنْظُـــورٌ سَـــنَاهَا ... عَلَـــى الشُّـــبَهِ الْمُخَيَّلَـــةِ الْمُخِلَّـــهْ

بَـــنِي سَـــلْمَانَ سَـــلْ عَـــنْهُمْ سَـــتَدْرِي ... عَلَـــى الأَجْيَـــالِ مِـــنْهُمْ كُـــلَّ جِلَّـــهْ

يَمَانِيَـــــةُ الْمَنَاسِـــــبِ وَالْمَوَاضِـــــي ... مَفَاخِرُهَـــــا رُسُـــــومٌ مُسْتَقِلَّـــــهْ

فَمِـــنْ نَـــارِ الْـــوَغَى فِيْ كُـــلِّ وَادٍ ... وَمِـــنْ نَـــارِ الْقِـــرَى فِي كُـــلّ حِلَّـــهْ

وَمِـــنْ فَصْـــلِ الْخِطَـــابِ بِكُـــلِّ نَـــادٍ ... ومِـــنْ فَضْـــلِ الثنـــاءِ بِكُـــلِّ مِلَّـــهْ

تَهَـــشُّ لَنَـــا البُـــدُوْرُ بِكُـــلِّ خِـــدْرٍ ... وَتَهْوَانَـــا الشَّـــمُوْسُ بِكُـــلِّ كِلَّـــهْ

ويمرضُـــنَا العَفَـــافُ فَكَـــمْ عَلِيْـــلٍ ... وَمَـــا غَيْـــرُ الْهَـــوَى وَالْكَـــتْمُ عِلَّـــهْ

تَحُـــجُّ بُيُوتَنَـــا الْقُصَّـــادُ دَأبـــاً ... فَـــلَا تَنْفَـــكُّ طَائِفـــةً مُهِلَّـــهْ

بِحَيْـــثُ البِـــيْضُ ضَـــامِنَةُ المَسَـــاعِي ... وَحَيْـــثُ السُّـــمْرُ مُثْمِـــرَةٌ مُغِلَّـــهْ

فَعِنْـــدَ السِّـــلْمِ مُحْرِمَـــةٌ عُكُـــوْفٌ ... وَعِنْـــدَ الْحَـــرْبِ فَاتِكَـــةٌ مُحِلَّـــهْ

وَحَيْـــثُ الْجُـــرْدُ لِلْغَـــارَاتِ تُـــرْدَى ... فَتَتْرُكُهَـــا حَوَاسِـــرَ مُشْمَعِلَّـــهْ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَنَـــا فِي الـــدَّهْرِ قَوْمـــاً ... رِيَـــاحَ الْجَـــوِّ تُلْحِـــفُ بالأَجِلَّـــهْ

وَتَضْـــطَبِنُ الصَّـــوَاعِقُ فِي غُمُـــودٍ ... وَتَقْـــتَصُّ البَـــوَارِقُ بِالأَهِلَّـــهْ

فَتُطْعِمُنَـــا الْمَغَـــانِي وَالـــرَّوَابِي ... وَتَسْـــقِيْنَا الْغُيُـــوْثَ المُسْتَهِلَّـــهْ

وَتَفْـــتَرِشُ الْبِطَـــاحَ لَنَـــا الْحَشَـــايَا ... وَلِلرَّايَـــاتِ أَرْوِقَـــةٌ مُظِلَّـــهْ

وَتُعْـــرَفُ مِـــنْ أَعِزَّتِنَـــا الدَّيَـــاجِي ... لِعِـــزِّ اللَّـــهِ خَاشِـــعَةً أَذِلَّـــهْ

أَبَـــا عَبْـــدِ اللَّـــهِ فَـــدَتْكَ نَفْـــسٌ ... عَلَـــى مَـــا حُـــزْتَ مِـــنْ فَضْـــلٍ مُدِلّـــهْ

دَعَوْتُـــكَ مُسْـــتَجِدّاً عَهْـــدَ أُنْـــسٍ ... أَمَلَّتْـــــهُ اللَّيَـــــالِي الْمُسْتَمِلَّـــــهْ

وَقَـــدْ طَعَـــنَ الصِّـــبَا إِلَّا ادِّكَـــارٌ ... وَقَـــدْ ذَهَـــبَ الْهَـــوَى إِلَّا تَعِلَّـــهْ

فَسَـــاعِدْنِي عَلَيْـــهِ مِـــنَ اغْـــتِرَابٍ ... لَـــهُ فِي مُهْجَـــتِي وَخْـــزُ الأَخِلَّـــهْ

وَسَـــاجِلْنِي بِفَخْـــرِكَ فِي صَـــرِيْحٍ ... فَكَـــمْ تَـــاجٍ هُنَـــاكَ وَكَـــمْ تَجَلَّـــهْ

وَدُمْـــتَ مُجَمِّعـــاً شَمْـــلَ الْمَعَـــالِي ... وَمُفْتَـــاداً مِـــنَ الـــدُّنْيَا شِمِلَّـــهْ[1]

٥- التصوّف

هَـــبَّ النّســـيمُ مُعَطِّـــرَ الأَرَاجِ ... فَشَـــفَى لَـــوَاعِجَ قَلْبِـــيَ المُهْتَـــاجِ

وَافَى يُحَـــدِّثُ عَـــنْ أَحِبّـــتِيَ الأُلَى ... أَصْـــبَحتُ أُكْـــنِي عَـــنْهُمُ وأُحَـــاجِي

فَاشْـرَبْ عَلَـى ذِكْـرِ الحَبِيْـبِ وسَـقِّنِي ... صَـهْبَاءَ تُشْـرِقُ فِي الظَّـلَامِ الـدّاجِي

مِـــنْ خَمْـــرَةِ السِّـــرِّ المُقدّسَـــةِ الـــتي ... كَلِفَـــتْ بِطاسَـــتِها يَـــدُ الحَـــلَّاجِ

وأَرَتْ لـــهُ الأَشـــياءَ شـــيئاً واحـــداً ... فَغَـــدَا يُخاطِـــبُ نَفْسَـــهُ ويُنَـــاجِي

ورأى ابْـــنُ أَدْهَـــمَ لَمْحـــةً مِـــنْ نورِهـــا ... تَلْتَـــاحُ بـــينَ مَخـــارِمٍ وفِجَـــاجِ

فَغَـدَا ومِـنْ صـوفِ الصّـفاءِ شِـعارُهُ ... واعْتاضَـــهُ مِـــنْ لِبْسَـــةِ الـــدِّيْبَاجِ

رَفَعُـــوا لَهَـــا قَبَســـاً بجانِـــبِ طُـــوْرِهِمْ ... فَعَشَـــوْتُ نَحْـــوَ سِـــرَاجِهِ الوَهَّـــاجِ

وبَحَثْـــتُ عَنْهـــا خَمْـــرَةً لمَّـــا تَـــزَلْ ... سَـــبَبَ النّجـــاةِ لِطالِـــبٍ أَوْ راجِ

لمّـــا عَلِمْـــتُ مَكَانَهَـــا وزَمَانَهَـــا ... أَعْمَلْـــتُ فِي لَيْـــلِ السُّـــرَى إِدْلَاجِـــي

وأَتَيْـــتُ رَبَّ الـــدّيْرِ فِي مِحْرابِـــه ... فَبَثَثْـــتُ إِفْلاســـي إِلَيْـــهِ وَحَـــاجِي

نَادَيْتُـــهُ مُتَرَجِّمـــاً واللّيْـــلُ قـــدْ ... رَجَعَـــتْ كتائِبُـــهُ عَلَـــى الأَدْرَاجِ

مَـا لِي سِـواكَ فَـلَا تُخَيِّـبْ مَقْصَـدِي ... مَـا خَـابَ فيـكَ رَجَـاءُ عَبْـدٍ رَاجِ

وافَيْـــتُ مـــنْ أَرْضٍ بَعيـــدٍ خَطْوُهـــا ... مِـــنْ بَعْـــدِ طـــولِ تَخَـــبُّطٍ ولَجَـــاجِ

مَهْمـا ضَـحَيْتُ فظِـلُّ حُبِّـكَ مَلْجَئِـي ... ومَـتَى مَرِضْـتُ فَفـي يَـدَيْكَ عِلَاجِـي

---

(١) ديوانه: ٥٢٣، ٥٢٤

ومَـدَدْتُ كـفَّ الفَقْـرِ أسْـأَلُهُ فَيـا ... عِـزَّ الغَـنِيِّ وذِلّـةَ المُحْتَـاجِ

فَـرَأَى افْتِقَـارِي في يديْـهِ فَجَـادَ لي ... مِـنْ جُـوْدِهِ بالوابِـلِ الثَّجَّـاجِ

وأحَلَّـنِي مِـنْ دَيْـرِهِ في هَضْـبَةٍ ... تَـنْحَطُّ عَنْهـا الشُّـهْبُ في الأَبْـرَاجِ

وجَـلا عَلَـيَّ الـرّاحَ في أكْوَاسِـهَا ... فَشَـرِبْتُها صِـرْفاً بغَـيْرِ مِـزَاجِ

تَخْفَـى عـن الإدْراكِ إلَّا أنَّهـا ... يَهْـدي سَـنَاها راحَـةَ المُـزَّاجِ

فَـتَرى زُجَاجَتَهـا بِغَـيْرِ مُدَامَـةٍ ... وتَـرَى مُـدَامَتَها بِغَـيْرِ زُجَـاجِ

وَالَى عَلَـيَّ بِهـا وَقَـالَ هِـيَ الـتي ... فِيهـا سَمَحْـتَ بخَيْرِهـا النَّسَّـاجِ

فَاشْـرَبْ وبُـحْ بـاسْمي جِهَـاراً لَا تَخَـفْ ... في الـدّيْرِ مِـنْ نَصَـبٍ ولا إحْـرَاجِ

يَـا صـاحِبَيَّ وَمـا أرَى لي صـاحِباً ... غـيْري أُعاطِيـهِ الهَـوَى وَأُنَـاجِي

عُوْجَـا علَـى طَلَـلِ الوُجُـودِ وبَلِّغَـا ... عـنِّي السّـلامَ فَـلَاتَ حِـيْنَ مَعَـاجِ

للّـهِ إخْـوانُ الصّـفاءِ فـإنّهُمْ ... سَـلَكوا الطّريـقَ الواضِـحَ المِنْهَـاجِ

مِـنْ كُـلِّ ذِي طِمْـرَيْنِ أَشْـعَثَ أَغْـبَرٍ ... عَبِثَـتْ بشَـمْلَتِهِ يَـدُ الإنْهَـاجِ

وقَفُـوا بِـأبْوابِ اليَقـينِ وفَتَّحُـوا ... مَـا كَـانَ مِنْهـا قَبْـلُ ذَا إرْتَـاجِ

حَـتَّى إذَا كَـادَتْ سِمَـاتُ طَـرِيْقِهِمْ ... تَخْفَـى بِكُـلِّ مُمَـوِّهٍ ومُـدَاجِ

نَـادَتْ هَلُمّـوا جَـدِّدوا عهْـدَ الرِّضـا ... أيّـامَ مَولانـا أبي الحَجَّـاجِ

فاسْـتَقْبَلوا داعِـي المَقَـامِ كأنَّمـا ... أَتَـتِ المَقَـامَ رَكائِـبُ الحُجَّـاجِ

أحْيَـا الإلـهُ بـهِ رُسـومَ طَـرِيقِهِمْ ... وحَمـاهُمُ مِـنْ مُلْكِـهِ بسِـيَاجِ

مَلِـكٌ يَحُـثُّ الصّـالِحِينَ ويَقْتَـدِي ... في الـدِّينِ مِـنْ أَنْـوَارِهِم بِسِـرَاجِ

ويُواصِـلُ اللَّيْـلَ التَّمَـامَ مُسَـهَّداً ... للّـهِ بـيْنَ مُراقِـبٍ ومُنَـاجِ

أَبْـدَى رُسُـومَ العِلْـمِ بَعْـدَ عَفَائِهَـا ... وأعـادَ وَجْـهَ الحَـقِّ ذَا إبْهَـاجِ

وغَـدَا الزّمـانُ بسَـيْفِهِ وبِسَـيْبِه ... يَـوْمَيْنِ يَـوْمَ نَـدىً ويَـومَ هِيَـاجِ

وأَحَـقُّ مَـنْ مَلَـكَ الخِلافَـةَ نَاصِـرٌ ... يَنْمِيْـهِ صَـاحِبُ صَـاحِبِ المِعْـرَاجِ

كُـلُّ الفَضَـائِلِ لَمْ تُحَـلَّ بحَمْـدِهِ ... لَبَّاتُهَـا فَتَمَامُهَـا بِخِـدَاجِ

خُـــذْهَا أمـــيرَ المُسْلِميـــنَ قَوَافِيـــاً ... ثـــارَتْ عَجَاجَتُهَـــا عَلَـــى العَجَّـــاجِ
أَنَـــا جَـــوْهَرِيُّ اللَّفْـــظِ لا عَجَـــبٌ إذا ... جَمْعِـــي مُنَظِّمُهَـــا بِهَـــذا التَّـــاجِ
أَبْقَيْـــتُ بِالـــذِّكْرِ الجَمِيْـــلِ مَـــدَائِحاً ... لَـــكَ فِي فَـــمِ الـــرّاوي وقَلْـــبِ الرَّاجِـــي
واخْلُـــدْ ونَصْـــرُ اللهِ جَـــلَّ جَلَالُـــهُ ... يَأْتِيْـــكَ أَفْوَاجـــاً عَلَـــى أَفْـــوَاجِ[1]

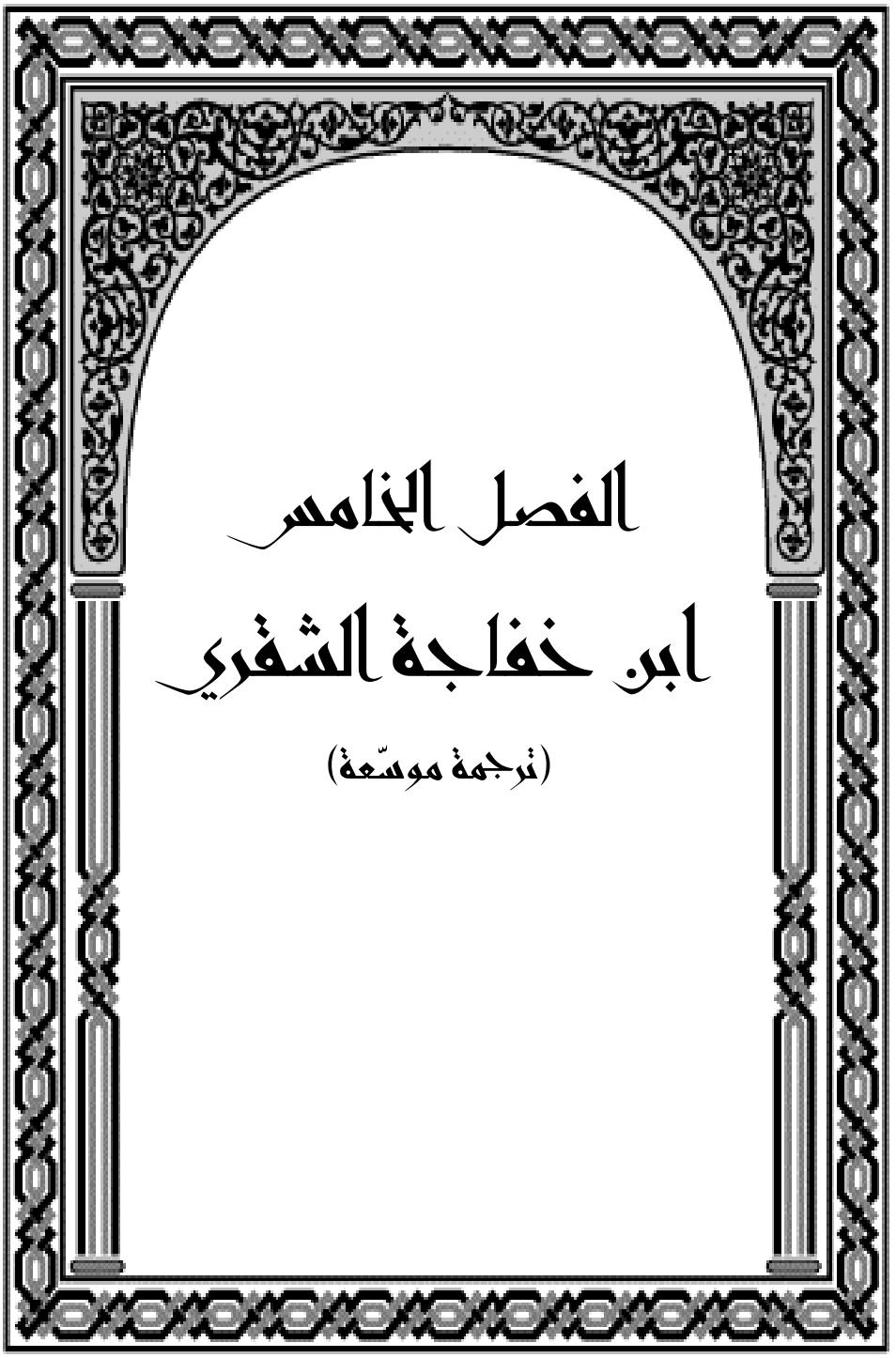
٧- الوعظ

مَـــا أَوْبَـــقَ الأَنْفُـــسَ إِلَّا الأَمَـــلُ ... وَهْـــوَ غُـــرُورٌ مَـــا عَلَيْـــهِ عَمَـــلُ
يَفْـرِضُ مِنْـهُ الشَّـخْصُ وَهْمـاً مَـا لَـهُ ... حَـــالٌ وَلَا مَـــاضٍ وَلَا مُسْتَقْبَـــلُ
مَـا فَـوْقَ وَجْـهِ الأَرْضِ نُفْـسٌ حَيَّـةٌ ... إِلَّا قَـــدِ انْقَضَـــى عَلَيْهَـــا أَجَـــلُ
لَـوْ أَنَّهُـمْ مِـنْ غَيْرِهَـا قَـدْ كُوِّنُـوا ... لَامْـــتَلأَ السَّـــهْلُ بِهِـــمْ وَالْجَبَـــلُ
مَـــا ثَمَّ إِلَّا لُقْمَـــةٌ قَـــدْ هُيِّئَـــتْ ... لِلْمَـــوْتِ وَهْـــوَ الآكِـــلُ الْمُسْتَعْجِـــلُ
وَالْوَعْـــدُ حَـــقٌّ وَالْـــوَرَى فِي غَفْلَـــةٍ ... قَـــدْ خُودِعُـــوا بِعَاجِـــلٍ وَضُلِّلُـــوا
أَيْـــنَ الَّـــذِينَ شَـــيَّدُوا وَاغْتَرَسُـــوا ... وَمَهَّـــدُوا وَافْتَرَشُـــوا وَظَلَّلُـــوا
أَيْـــنَ ذَوُو الرَّاحَـــاتِ زَادَتْ حَسْـــرَةً ... إِذْ جُنِّبُـــوا إِلَى الثَّـــرَى وَانْتَقَلُـــوا
لَمْ تَـدْفَعِ الأَحْبَـابُ عَـنْهُمْ غَيْـرَ أَنْ ... بَكَـــوْا عَلَـــى فِـــراقِهِمْ وَأَعْوَلُـــوا
اللَّـــهَ فِي نَفْسِـــكَ أَوْلَى مَـــنْ لَـــهُ ... ذَخَـــرْتَ نُصْـــحاً وَعِتَابـــاً يَقْبَـــلُ
لاَ تَتْرُكَنْهَـــا فِي عَمـــى وَحَيْـــرَةٍ ... عَـــنْ هَـــوْلِ مَـــا بَـــيْنَ يَـــدَيْهَا تَغْفُـــلُ
حَقِّـــرْ لَهَـــا الْفَـــانِي وَحَـــاوِلْ زُهْـــدَهَا ... وَشَـــوِّقْهَا إِلَى الَّـــذِي تَسْتَقْبِـــلُ
وَفِـــدْ إِلَى اللَّـــهِ بِهَـــا مُضْـــطَرَّة ... حَـــتَّى تَـــرَى السَّـــيْرَ عَلَيْهَـــا يَسْهُـــلُ
هُـــوَ الْفَنَـــاءُ وَالْبَقَـــاءُ بَعْـــدَهُ ... وَاللَّـــهُ عَـــنْ حِكْمَتِـــهِ لَا يُسْـــأَلُ
يَـــا قُـــرَّةَ الْعَـــيْنِ وَيَـــا حَسْـــرَتَهَا ... يَـــوْمَ يُـــوَفَّى النَّـــاسُ مَـــا قَـــدْ عَمِلُـــوا[2]

---

(١) ديوانه: ١٩٩ – ٢٠٢، والصيّب والجهام: ٣٤٨–٣٥١

(٢) ديوانه: ٥١٢–٥١٣.



الفصل الخامس

ابن خفاجة الشقري

(ترجمة موسّعة)

ابن خفاجة الأندلسي

ابن خفاجة الأندلسي أديب مبدع، وشاعر الصورة الفنّيّة، وشاعر الطبيعة الأوّل، وشاعر عصره ومصره من دون منازع، وناثر بليغ ، وأحد أرباب البيان.

لقد كثرت الدراسات والبحوث في العصر الحديث عن الأديب الكبير والشاعر المفلق ابن خفاجة وشعره ، لشهرة هذا العلم في حياته وبعد مماته، ولذيوع شعره وجماله وعذوبته وروعته ، فلا تكاد تخلو دراسة عن الشعر الأندلسيّ أو شعر الطبيعة فيه من ذكر أو شعر له ، زيادة على عدد من الدراسات المفردة له ، والكتب المختصّة به ؛ إلّا أنّ أغلب هذه الدراسات والكتب التي تعرّضت له ضمن بحوثها أو أفردت له كلّ صفحاتها ما تزال قصيرة القامة، ضئيلة الهامة ، بالقياس إلى طول قامة أدب ابن خفاجة واعتدالها وشموخها، فما تزال جوانب كثيرة من حياة ابن خفاجة وأدبه غامضة ، ولاسيّما علاقته بدويلات ملوك الطوائف ، ثمّ علاقته بدولة المرابطين المغربيّة التي بسطت نفوذها على الأندلس، وعلاقته بمعاصريه من علماء وأدباء وقضاة، وما يزال نثره روضة أنفاً بحاجة إلى بحث أو بحوث موسّعة ومعمّقة في آن معاً.

وقد جعلنا هذه الترجمة الواسعة للشاعر الناثر المبدع ابن خفاجة الأندلسي في قسمين اثنين ، خصصنا الأوّل منهما لتعريف هذا الأديب تعريفاً وافياً ؛ فأوردنا اسمه ونسبه، ثمّ عرضنا مراحل حياته، وذكرنا صفاته، وسردنا أسماء تلاميذه، وخصصنا الثاني منهما لأدبه فبدأنا بذكر الثناء على شعره، ثمّ عرضنا آثاره، وعرّجنا على أنواع رسائله، وتوسّعنا في سرد أغراضه الشعريّة. ولقد قصرنا اهتمامنا على سيرة ابن خفاجة الأندلسي وشعره، فقمنا برسم لوحتها بتفصيل وتعمّق وتحقيق اعتماداً على ديوان شعره بالدرجة الأولى ، ثمّ على مجموع نثره ، ثمّ على المصادر التي ترجمت له مع سرد دقيق لآثاره ، وإيراد نماذج موضّحة لأغراض شعره لتكون مدخلاً لدراسة أدبه دراسة فنّيّة مفصّلة معمّقة.

القسم الأوّل: حياته

أوّلاً: اسمه ونسبه

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهوّاريّ[1] الجزيريّ[2].

ولد نحو منتصف القرن الخامس الهجري سنة (٤٥٠ أو ٤٥١ هـ)

وقد أغفلت المصادر التي عاصرته تحديده ، ونصّ على سنة (٤٥٠) كلّ من ابن خلّكان (ت ٦٨١ هـ) ، والبهائي الغزولي (ت ٨١٥ هـ) وشهاب الدين المقّري (ت ١٠٤١هـ) وصدّيق القنّوجي (ت ١٣٠٧هـ) والباباني الحلبي البغدادي (ت١٣٣٩هـ)[3] ، وأغفلت بعض المصادر سنة مولده، وإن أشار بعضها إلى أنّ ابن خفاجة عاش(٨٣) سنة وأنّه توفّي سنة (٥٣٣ هـ)[4].

وفي قبالة ذلك ذكرت بعض المصادر أنّه عاش (٨٢) سنة؛ ممّا ينتج عنه أنّه ولد سنة)٤٥١هـ)[5]. وتفرّد ابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) في "التكملة" بإيراد خبر مهمّ عن ولادته، فقال بعد أن ذكر أنّه توفّي سنة (٥٣٣ هـ): «وهو ابن اثنتين وثمانين سنة.

قال أبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن المكناسي: سألته عن مولده فقال: سنة إحدى وخمسين وأربعمئة»[6].

وهذا الخبر دليل قويّ على ترجيح)٤٥١هـ) سنة لولادة ابن خفاجة، لولا أنّ ابن الأبّار نفسه لم يكن واثقاً من ذلك تمام الوثوق ، ففي كتابه الآخر "المعجم في أصحاب القاضي الصدفي" ذكر أنّ ابن خفاجة عاش عاماً أو عامين بعد الحادية والثمانين من عمره[7] !.

---

١ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي: ٥٨ ، التكملة: ١٧٧.

٢ – معجم السفر: ١٥١ ، خريدة القصر: ١٤٧/١ ، وهي نسبة إلى بلدته جزيرة شقر.

٣ – وفيات الأعيان: ٥٦/١ ، مطالع البدور: ٨٤ ، نفح الطيب: ٤٨٨/٣ ، أبجد العلوم: ٩٢/١ ، هدية العارفين: ٩/١.

٤ – انظر: سير أعلام النبلاء: ٥٢/٢٠ ، تاريخ الإسلام: ٣١٣/٣٦ ، الوافي بالوفيات: ٥٥/٦.

٥ – بغية الملتمس: ١٩٨ ، وانظر بغية الوعاة: ٤٢٢/١ ، وذكر ابن بشكوال أنّه تجاوز الثمانين ، الصلة: ٩٩.

٦ – التكملة: ١٧٧

٧ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي: ٦١.

وأمّا مسقط رأس ابن خفاجة فهو في "شُقْر" أو جزيرة شقر ، وهي: «بليدة بين شَاطِبَة وبَلَنْسِيَة، وإنّما قيل لها جزيرة لأنّ الماء محيط بها»[1]، وهي من أعمال مدينة بلنسية ، إلى الجنوب منها ، وبينهما (١٨) ميلاً.

وقد أثنى عليها الجغرافيّون العرب ، فقال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ): «جزيرة شقر: في شرقي الأندلس، وهي أنزه بلاد الله، وأكثرها روضة وشجراً وماء»[2].

وقال ابن عبد المنعم الحميري (ق٨ هـ) عنها إنّها:« حسنة البقعة، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار، وبها ناس وجلّة، وبها جامع ومساجد وفنادق وأسواق، وقد أحاط بها الوادي، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب، وفي الصيف على مخاضة»[3].

وأمّا المؤرّخون والمؤلّفون الأندلسيّون فقد حبّروا جمال جزيرة شقر تحبيراً، وطرّزوا ثوب وصفها تطريزاً، فوصفها ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) بأنّها: «صحيحة الهواء قليلة الأدواء خضلة العشب زاهية الأزاهير، وقد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور، والأيك قد نشرت ذوائبها على صفيحه، والروض قد عطّر جوانبها بريحه»[4].

ونعتها ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) نعتاً جميلاً فقال: «وهي جزيرة قد أحدق النهر بها كما أحدق بحدقة شفر، وحسبك من ماء سائح، وطائر صادح، وبطاح عريضة، ورياض أريضة، فلا ترى إلّا انسجام الغَمام ، ولا تسمع إلّا ترنّم البلبل والحمام»[5].

لذلك كلّه لا غرو أن يفتن ابن خفاجة بجمالها، زيادة على كونها مسقط رأسه، وملعب صباه، ومدرج شبابه، ومسرح أنسه، فيسطّر أجمل الأشعار في وصفها أو في عشقها.

---

١ – وفيات الأعيان: ٥٦/١.

٢ – معجم البلدان: ٣٥٤/٣.

٣ – الروض المعطار: ٣٤٩.

٤ – مطمح الأنفس: ٣٤٨ (مع انتقاء بعض روايات النسخ الأخر).

٥ – المطرب من أخبار أهل المغرب: ١١١.

ثانياً: مراحل حياته

١- حياته في عصر الطوائف:

سوف نرصد في هذا الجزء من سيرة حياته تعلّمه وتحصيله العلمي، وأساتذته وشيوخه، وعلاقته بملوك الطوائف في عصره، وجانباً من حياته الخاصّة.

ثمّة إشارة خاطفة يسيرة في تقديم ابن خفاجة لإحدى قصائده في أحد أصدقائه تلمح إلى بعض المواد العلميّة التي كان يدرسها في صغره إذ قال:

«كان قد جمعت بينهما أذمّة الشباب، ومحضر الكتّاب، وقراءة الحساب والآداب»[١]، وحضور الكتّاب يعني – بلا ريب – دراسة القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، ولكنّ ابن خفاجة لم يحدّد مكان هذا الكتّاب، وإن غلب على الظنّ أنّه في بلدته شقر فهو «من أهل جزيرة شقر»[٢]، فقد أخذ فيها علومه الأولى، ثمّ استكمل علومه الأدبيّة والدينيّة في المدائن الشرقيّة للأندلس المجاورة والقريبة من بلدته.

أمّا أساتذته فنعرف أربعة منهم ذكرهم ابن الأبّار في تكملته فقال: «جالس أبا عمران ابن أبي تليد، ولقي أبا عليّ الصدفي ، وأخذ عن أبي إسحاق ابن صواب، وروى عن أبي بكر ابن أسد»[٣].

وتضلّع ابن خفاجة من عدد من العلوم الأدبيّة واللغويّة، ومن يقرأ شعره ونثره وخطبة الديوان النقديّة يجد أنّ ابن خفاجة على علم عميق بعلم الشعر ونقده وشعرائه، ويصف في تلك الخطبة جنوحه إلى الأدب منذ أوائل شبابه، واطلاعه على أشعار المشارقة وتقليدهم، وتمكّنه من الشعر، وتمكّن الشعر منه[٤].

وأمّا العلوم اللغويّة فقد ذكر عدد من المترجمين له أنّ لابن خفاجة تأليفاً أو تآليف

---

١ – ديوان ابن خفاجة: ١٧٨.

٢ – التكملة: ١٧٥

٣ – التكملة: ١٧٥

٤ – الديوان : ٦

لغويّة[1]، حتّى إنّ السيوطيّ (ت ٩١١ هـ) ترجم له في كتابه «بغية الوعاة في طبقات النحاة» على أنّه واحد منهم[2]، ممّا يدل على تعمّقه فيها ووصوله إلى مستوى التأليف فيها، بل إنّ ابن سعيد الأندلسيّ في كتابه « المغرب في حلى المغرب» ترجم لشاعرنا في باب العلماء[3]! وترجم له صدّيق القنّوجي في باب «علماء الشعر»[4].

بيد أنّ ابن خفاجة كان يميل منذ أن شبّ إلى المرح والعبث، ولا يترك موقفاً يمكن أن يتندّر عليه إلّا وفعل،كقوله في تفريق أحد الأساتذة لجمع من الطلّاب وهو منهم:

لَقَـدْ نَثَـرَ الأُسْـتَاذُ مَنْظُـومَ عِقْـدِنَا ... وَعَهْـدِي بِـهِ مِـنْ قَبْلِهَـا وَهْـوَ نَـاظِمُ

فَعُـدْنَا كَبَيْـتٍ غَيَّـرَ الكَسْـرُ نَظْمَـهُ ... فَأَلفَاظُـهُ كَسْـرٌ وَمَعْنَـاهُ قَـائِمُ [5]

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن الجانب اللاهي من حياته الأولى، فقد كان ابن خفاجة يجنح إلى اللهو والاستمتاع بمباهج الحياة في أحضان الطبيعة الأندلسيّة الفاتنة مع ثلّة من أصحابه، ويصوّر لنا ذلك في صور فنّيّة بديعة:

وَنَـدِيٍّ أُنْـسٍ هَـزَّنِي ... هَـزَّ الشَّـرَابِ مِـنَ الشَّـبَاب

وَاللَّيْـلُ وَضَّـاحُ الجَبِيـ ... ـن قَصِـيرُ أَذْيَـالِ الثِّيَـاب

فَقَنَصْـتُ مِنْـهُ حَمَامَـةً ... بَيْضَـاءَ تُنْسَـخُ مِـنْ غُـرَاب

وَالنَّـوْرُ مُبْتَسِـمٌ وَخَـدْ ... دُ الـوَرْدِ مَحْطُـوطُ النِّقَـاب

يَنْـدَى بِـأَخْلاقِ الصِّـحَا ... بِ هُنَـاكَ لا بِنَـدَى السَّـحَاب

وَكِلاهُمَـا نَثْـرٌ كَمَـا ... نَثَـرُوا القَـوَافِيَ فِي الخِطَـاب

فَكَـأَنَّ كَـأْسَ سُـلافَةٍ ... ضَـحِكَتْ إِلَـيْهِمْ عَـنْ حَبَـاب

ويلفت الانتباه استفادته من المصادر الأدبيّة أيضاً كالشعر والنثر وما يتعلّق بهما

---

١ – تاريخ الإسلام: ٣١٣/٣٦ والوافي بالوفيات: ٥٥/٦ ، بغية الوعاة: ٤٢٢/١.

٢ – بغية الوعاة: ٤٢٢/١

٣ – المغرب في حلى المغرب: ٣٦٧/٢.

٤ – أبجد العلوم: ٩٢/١.

٥ – الديوان : ٣٧١

في صنع بعض الصور الجديدة.

وساعده على ذلك سورة شباب، وقدر من الوفر، وحالة اجتماعيّة مضطربة في أواخر زمن دول الطوائف، وقد قال فيه معاصره ابن خاقان: «وكان في شبيبته مخلوع الرسن، في ميدان مجونه، كثير الوسن، بين صفا الانهتاك وحجونه، لا يبالي بمن التبس، ولا أيّ نار اقتبس»[1].

وتحدّث ابن خفاجة — غير مرّة — عن رؤيته في الحياة وسنّته في العشق التي لا تتبع سَنَناً معيّناً، ولعلّها تشبه حياة الفروسيّة التي تجمع بين القوّة والحماسة والرقّة واللين، والعشق العفيف واللهو الظريف، وتمزج بين ما يسمّى بالحبّ العذريّ والحبّ العمريّ، يجمل ابن خفاجة كلّ هذه الرؤى المتناقضة في قوله الجميل:

إِنّي وَإِن كُنتُ هَضْبَةً جَلَداً ... أَهتَزُّ لِلحُسنِ لَوعَةً غُصُنا
قَسَوتُ بَأساً وَلِنْتُ مَكرُمَةً ... لَم أَلتَزِمْ حالَةً وَلا سَنَنا
لَستُ أُحِبُّ الجُمودَ في رَجُلٍ ... تَحسِبُهُ مِن جُمودِهِ وَثَنا
لَم يَكحَلِ السُهدُ جَفنَهُ كَلَفاً ... وَلا طَوى جِسمَهُ الغَرامُ ضَنى
فَمَن عَصى داعِيَ الهَوى فَقَسا ... وَكانَ صلداً مِنَ الصَّفا خَشِنا
فَإِنَّني وَالعَفافُ مِن شِيَمي ... آبى الدَّنايا وَأَعشَقُ الحَسَنا
طَوراً مُنيبٌ وَتارَةً غَزِلٌ ... أَبكي الخَطايا وَأَندُبُ الدِّمَنا
إِذا اعتَرَت خَشيَةٌ شَكا فَبَكى ... أَو انتَحَت راحَةٌ دَنا فَجَنى
كَأَنَّني غُصنُ بانَةٍ خَضِلٌ ... تَثنيهِ ريحُ الصَّبا هُنَا وَهُنَا[2]

ومع كلّ هذا السجلّ الطويل من الغزل والمغامرات العشقيّة فإنّ ابن خفاجة عاش عمره «صرورة لم يتزوّج قطّ»[3] كما قال ابن الأبّار، ولم يعرف سحر الحنان الأبويّ ومعنى

---

١ – قلائد العقيان: ٤/٧٤٠.

٢ – الديوان : ١٢١، ١٢٢

٣ – التكملة: ١٧٦

الدفء الأسريّ.

ولا نكاد نعرف شيئاً ذا بال عن أسرة ابن خفاجة سوى أنّ له أختاً أو أختين، وإنّ تأريخ ابن خفاجة لبعض مقطّعاته وقصائده ومعرفة بعضها الآخر بما يُستدلّ به من قرائن يساعد في رسم صورة تطوّريّة أقرب إلى الدقّة لحياته.

وأوّل خبر مؤرَّخ في ديوان ابن خفاجة يرجع إلى سنة (٤٨٠ هـ) أي حينما كان عمره زهاء (٣٠) سنة مع أستاذه ابن أبي تليد (ت ٥١٧ هـ) ويحدّد ابن خفاجة المكان والزمان، ويقصّ الحدث – كما يريده – بدقّة:

«وقال: "ذهبت يوماً أريد باب السَّمَّارين بِشَاطِبَةَ، ابتغاء الفرجة على جرية ذلك الماء بتلك الساقية، وذلك سنة ثمانين وأربعمئة. وإذا الفقيه أبُو عِمْرَانَ ابنُ أبِي تَلِيد– رحمه الله– قد سبقني إلى ذلك، فألفيته جالساً على مصطبة كانت هناك مبنيّة لهذا الشأن، فسلّمت عليه، وجلست إليه متأنّساً به وبتلك الحال. فأنشد أثناء ما تناشدناه قول ابْنِ رَشِيق، رحمه الله:

يَـــا مَـــنْ يَمُـــرُّ وَلا تَمُـــرْ ... رُ بِـــهِ القُلُـــوبُ مِـــنَ الحُـــرَقْ

بِعِمَامَـــةٍ مِـــنْ خَـــدِّهِ ... أَوْ خَـــدُّهُ مِنْهَـــا اسْـــتُرِقْ

فَكَأَنَّـــــهُ وَكَأَنَّهَـــــا ... قَمَـــرٌ تَعَمَّـــمَ بِالشَّـــفَقْ

فَـــإِذَا بَـــدَا وَإِذَا مَشَـــى ... وَإِذَا رَنَـــا وَإِذَا نَطَـــقْ

شَـــغَلَ الجَـــوَانِحَ وَالجَـــوَا ... رِحَ وَالخَـــوَاطِرَ وَالحَـــدَقْ

فقال، وقد أعجب بها جدّاً، وأثنى عليها كثيراً: أحسن ما في القطعة حسن سياقة الأعداد. فقلت له: هي حسنة، ولكنّها دون موقعها منك، وإلّا، ألست تراه قد استرسل، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فيُنزل بإزاء كلّ واحد منها ما يلائمها؟ وهل يحسن أن يُنزِل بإزاء قوله «وَإِذَا نَطَقْ»، قوله «شَغَلَ الحَدَقْ»؟ وكأنّه نازعني القول في هذا غاية الجهد، فقلت أنسج على ذلك المنوال:

وَمُهَفْهَفٍ طَاوي الحَشَا خَنِثِ المَعَاطِفِ وَالنَّظَرْ
مَلأَ العُيُونَ بِصُورَةٍ تُلِيَتْ مَحَاسِنُهَا سُوَرْ
فَإِذَا رَنَا وَإِذَا شَدَا وَإِذَا سَعَى وَإِذَا سَفَرْ
فَضَحَ المُدَامَةَ وَالحَمَا مَةَ وَالغَمَامَةَ وَالقَمَرْ

فاستحسنها ابنُ أبِي تَلِيد"»[1].

وهذا نموذج بسيط من اللقاءات الأدبيّة البسيطة العفويّة التي كانت تجري في ذلك الوقت، وأشباه هذه القصص التي يقصّها الشعراء عن تفوّقهم كثير، ودلالتها واضحة في إظهار المهارات والمقدرات الشعريّة، هذا من جانب؛ ومن جانب آخر نجد أنّ مكان الخبر هو شاطبة، وفي السنة نفسها سنة (٤٨٠ هـ) نجد خبراً آخر مسرحه هو بليدته شُقْر؛ ممّا يدلّ على أنّه كان يتردّد بين شقر والمدائن الشرقيّة للأندلس كثيراً، ولاسيّما شاطبة ومرسية وبلنسية بل يقيم فيها، فهو يصف سيلاً أصاب جزيرة شقر وما أحدثه من دمار هائل في الأبنية بطريقة ساخرة[2].

وفي سنة (٤٨١ هـ) يصف ابن خفاجة عودته من إحدى أسفاره الكثيرة في يوم شاتٍ مبلول الجناح إلى منزله في جزيرة شقر الذي يبدو متواضعاً متهدّماً بسبب توالي الأمطار على سقفه، ويطلب من أحد الكبراء الأثرياء في جزيرته أن يعطيه بيتاً يسكنه ، فيجزيه بيتاً من الشعر يخلّده[3].

وذكر ابن خفاجة في تقديمه لبعض قطعه الشعريّة أنّه صدر من العدوة المغربيّة سنة (٣٨٣ هـ)؛ أي إنّه كان في المغرب زمناً محدّداً بين سنتي (٣٨١-٣٨٣ هـ)، ولكنّه لم يذكر المكان.

وثمّة خبر شديد الأهمّيّة – على وجازته – غفل عنه جلّ من عرّف ابن خفاجة من

---

١ – الديوان: ٣٥٧، ٣٥٨

٢ – الديوان: ٣٠٨

٣ – الديوان: ٣٠٧ ، ٣٠٨

المحدثين، يدلّ على أنّ ابن خفاجة ذهب إلى المهديّة في إفريقيّة (تونس) منتجعاً الأمير تميم بن المعزّ الصنهاجيّ (ت٥٠١ هـ)، قال ابن الأبّار في ترجمة الأمير تميم: «انتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس منهم أبو إسحاق ابن خفاجة في صباه»[١].

وهو خبر ذو دلالات عدّة يمكننا أن نستخلصها، منها أنّ ابن خفاجة كان شاعراً مكتمل الأدوات منذ ريعان شبابه، حتّى تستقبله بلاطات الملوك والأمراء، ومنها – أيضاً– أنّه لم يكن على درجة كبيرة من الوفر والغنى حتّى تبعده عن انتجاع الملوك ومدحهم ، بل إنّه لا يقتصر على ملوك ما تبقّى من الأندلس، بل يعبر البحر ليجوز إلى المغرب وإلى وسط إفريقيّة ليصل إلى مدينة المهديّة ، ليمدح أميراً من أمراء الصنهاجيّين، وأمّا ضيعته التي يذكرها في التقديم لشعره مرّتين[٢] فلعلّه اقتناها بما كسبه فيما بعد، فقد رأيناه يطلب من أحد الأثرياء أن يسكنه في بيت بعد أن تداعى بيته جرّاء المطر.

ومنها أيضاً أنّ الصورة التي يرسمها ابن خفاجة لنفسه ويصوّرها للمؤرّخين من أنفته من الطلب وعدم تعرضه للملوك في عهد الطوائف ليست دقيقة، فقد كان بعض المؤرّخين يتلقّفون أخباره وأشعاره من بعيد كابن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) الذي كان يراسل الأدباء والشعراء البعيدين منه ليزوّدوه بأخبارهم وأشعارهم، قال: «لا أعرفه تعرّض لملوك الطوائف بوقتنا على أنّه نشأ في أيّامهم، ونظر إلى تهافتهم في الأدب وازدحامهم»[٣].

وقال ابن الأبّار عن ابن خفاجة إنّه «كان نزيه النفس لا يتكسّب بالشعر ولا يمتدح رجاء الرفد...مقتصراً على ما ملكت يده من ضيعة»[٤].

غير أنّ قراءة دقيقة لديوانه تبيّن أنّه لم يكن عزوفاً عن السلطان وبلاطه، بل كان «يحمل على خدمة السلطان:

---

١ – الحلّة السيراء: ٢/٢٢.

٢ – انظر الديوان : ٣٣ – ٤٨.

٣ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣/٢/٥٤٢.

٤ – التكملة: ١٧٦.

حَسْبُ الفَتى حِلْيَةً أَنْ يَسْتَقِلَّ بِهِ مَلْكٌ عَزيزٌ فَلا يَقعُدْ بِكَ العَطَلُ
فَما احتَمى جانِبٌ لَمْ يَحْمِهِ مَلِكٌ وَلا مَضى صارِمٌ لَمْ يُمْضِهِ بَطَلُ[1]

وكان في بلاط المعتصم ابن صمادح (ت ٤٨٤ هـ) في المريّة ، ويحضر مجالس أنسه فهل من المعقول أن يحضر ابن خفاجة مجلس أنس لابن صمادح ولا تكون له قصيدة في مدحه: «وطرأ أنّ المُعْتَصِمَ- رحمه الله- أحضر مجلسه في بعض ليالي أنسه صورة حسنة قد ركّبت من ريحان في هيئة جارية، ثمّ طيّبت وقلّدت، وأمر من حضر من الشعراء بوصفها، فقال في ذلك:

أَما وَاعتِزازِ الضَّيفِ وَالسَّيفِ وَالنَّدى بِخَيرِ مَليكٍ هَشَّ في صَدْرِ مَجلِسِ
بَدا بَينَ كَفٍّ لِلسَّماحِ مُغيمَةٍ تَصوبُ وَوَجهٍ لِلطَّلاقَةِ مُشْمِسِ
لَقَد زَفَّ بِنْتاً لِلخَميلَةِ طِفْلَةً يَهُزُّ إِلَيها الدَّسْتُ أَعطافَ مُعْرِسِ
تُشيرُ إِلَيها كُلُّ راحَةِ سَوْسَنٍ وَتَشْخَصُ فيها كُلُّ عَيْنٍ لنَرجِسِ
تَنوبُ عَنِ الحَسْناءِ وَالدَّارُ غُربَةٌ فَما شِئْتَ مِنْ لَهْوٍ بِها وَتَأَنُّسِ[2]

كما أنّ ابن خفاجة يذكر خبراً آخر يدلّ على نوع من الاتّصال مع المعتمد بن عبّاد الذي أسر سنة (٤٨٤ هـ) وتوفّي سنة (٤٨٨ هـ) ويدل على معرفته بالمعتمد[3] وجواريه.

نعم لقد طويت صفحة دويلات الطوائف، ولم يكن ابن خفاجة من شعرائها البارزين لصغر سنّه إذ ولد نحو (٤٥٠ - ٤٥١هـ)، وبدأت تتلاشى منذ (٤٨٣ هـ)، فقد شبّ ابن خفاجة في أواخرها وذروة اضطرابها، لذلك لم يكن اتّصاله بملوكها عميقاً ولم يرثِ ملوكها وممالكها بعد زوالها كما فعل كلّ من ابن اللبّانة الداني (ت ٥٠٧ هـ) وابن

١ – الديوان: ٢٣٩
٢ – الديوان: ١٥٥
٣ – الديوان: ٢٧٩

عبدون اليابري (ت نحو ٥٢٩ هـ)، ولكنّنا نجد تعاطفاً خفيّاً، وحزناً شجيّاً عليها في قطعة صغيرة: «وقال في صفة مصنع جميل خلع سلطانه:

وَمُرتَبَـــعٍ حَطَطـــتُ الرَّحـــلَ مِنـــهُ بِحَيـــثُ الظِّـــلُّ وَالمـــاءُ القَـــراحُ

تَخَـــرَّمَ حُسْـــنُ مَنْظَـــرِهِ مَليْـــكٌ تَخَـــرَّمَ مُلْكَـــهُ القَـــدَرُ الـــمُتاحُ

فَجِريَـــةُ مـــاءِ جَدْوَلِـــهِ بُكـــاءٌ عَلَيـــهِ وَشَـــدوُ طائِـــرِهِ نِيـــاحُ»[1]

وعاد ابن خفاجة من العدوة المغربيّة إلى العدوة الأندلسيّة سنة (٤٨٣هـ)، والتقى الشاعرَ ابنَ وَهْبُون (ت نحو٤٨٣ هـ) بين لورقة والمريّة، وترافقا في طريق العودة، قال: «صاحبت في صَدَرِي من المَغْرِبِ، سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة، أبَا محمّد عبدَ الجليلِ بنَ وَهْبُونَ، شاعر المُعتمدِ»[2]. وقد رأى في أثناء الطريق المخيف رأسين مقطوعين موضوعين على أكوام من الصخر فوصفهما ابن خفاجة وأنشد القطعة أمام ابن وهبون الذي تطيّر بها وتشاءم منها، وتحقّق ما ظنّ؛ فقُتل ابن وهبون وسُلب بعض متاع ابن خفاجة بعد وقت يسير«فما أجلت إلّا وعبد الجليل قتيل، وابن خفاجة سليب، وهذا من أغرب تقوّل، وأصدق تفوّل»[3].

وعلى خطورة السفر ــ في ذلك الوقت ــ فإنّ ابن خفاجة كثيراً ما يصف تجوّله في الليل ويفتخر بذلك بوصفه دليلاً على الشجاعة والجرأة وجانباً من حياة الفروسيّة ويرى الجانب الآخر في اللهو والشراب، ويبدو أنّ هذا الأمر ظلّ يلازمه حتّى بداية مشيبه.

٢– حياته في عصر المرابطين

لم يمدح ابن خفاجة مؤسّس دولة المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ)، ولم يمدح ابن خفاجة كذلك أمير المسلمين التالي عليّ بن يوسف بن تاشفين (ت٥٣٧هـ)

---

١ – الديوان: ١٣٧

٢ – الديوان: ٣٦٧ ، ٣٦

٣ – قلائد العقيان: ٧٤٣/٤.

الذي عاش في أثناء حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة[1] بقصيدة مفردة مخصّصة له، ولم يذكر اسمه بلفظه في ديوانه مطلقاً، بل مدحه ببضعة أبيات لإعادته القاضي ابن عصام إلى منصبه، ضمن قصيدة في تهنئة القاضي لا الأمير، هي:

وَالتَـــأَمَ الشَّـــعْبُ وَمـــا إِن عَـــدا ... رَأْيَ أَمـــيرِ الـــمُسْلِمِينَ الصَّـــلاحْ

خَـــيرُ إِمـــامٍ رَاحَ فِي عَســـكَرَيْ ... جِـــدٍّ وَجَـــدٍّ مِـــلْءِ صَـــدْرِ البَـــرَاحْ

يَعطِـــسُ عَـــن أَنـــفٍ حَمِـــيٍّ لَـــهُ ... أَضـــرَعَ خَـــدَّيْ كُـــلِّ حَـــيٍّ لَقَـــاحْ

أَرعَـــدَ فِي تُـــدْمِيرَ زَجْـــراً لَهَـــا ... فَمَـــا لِعَنـــزَينِ هُنـــاكَ انتِطَـــاحْ

وَغَـــضَّ مِـــن أَصْـــواتِها صَـــوتُهُ ... إِنَّ زَئِـــيرَ اللَّيـــثِ غَـــيرُ النُّبَـــاحْ

وَشَـــدَّ أَزرَ ابـــنِ عِصـــامٍ بِمَـــا ... حَبَّـــرَ مِـــن أَلفـــاظِ بِـــرٍّ فِصَـــاحْ[2]

وذكر ابن خفاجة أمير المرابطين في ديوانه مرّة ثانية في رسالة تشكّر له – نيابةً عن أهل مدينته لإرجاع القاضي[3]– بلقبه أمير المسلمين وناصر الدين، مع أنّ إتمام السجعة باسمه، عليّ بن يوسف بن تاشفين، سهل يسير.

ولعلّ في قصائد مديح ابن خفاجة لأمراء المرابطين ومقدّماتها ما يوضّح علاقته بهم ويحدّدها، وقد مدح ابن خفاجة خمسة من أمراء المرابطين المشهورين الذين حكموا مدينته أو بعض مدائن الأندلس أو كانوا فيها، وهم أربعة رجال وامرأة، وأهمّ هؤلاء لدى ابن خفاجة هو:

أ- **أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين** (ت ٥٢٨ هـ)، تولّى الأمير الشابّ إبراهيم في عهد أخيه الأكبر عليّ بن يوسف أمير المسلمين عدّة مدائن في شرق الأندلس وجنوبها حتّى لقّبه ابن سعيد "ملك شرق الأندلس"[4].

---

١ – حكم علي بن يوسف بن تاشفين من سنة (٥٠٠) إلى وفاته(٥٣٧هـ) وتوفّي ابن خفاجة سنة (٥٣٣هـ) الديوان : ١٦٦ .

٢ – الديوان: ١٦٦

٣ – انظر ديوانه : ١٦٩ .

٤ – المغرب في حلى المغرب: ٢٥٣/٢.

وقد زعم ابن خفاجة في مقدّمة ديوانه أنّه عاد إلى قول الشعر وقرضه لأجل هذا الأمير[1]، ومع أنّ هذا ليس صحيحاً فإنّ أبا إسحاق هو أهمّ ممدوحيه قاطبة، وأكثر من وجّه إليهم مدائحه، فثمّة خمس قصائد خصّصها له؛ واثنتان منهما متّصلتان بقطعتين نثريّتين أيضاً.

ويرجع زمن قول القصيدة الأولى إلى عيد الفطر سنة (٥١٠ هـ) ومكان إنشادها هو مدينة شاطبة، قال ابن خاقان في ترجمة ابن خفاجة وهو معاصره، وحضر هذا اليوم بنفسه: «ووصلتُ شاطبة في فطر سنة عشر وخمسمئة، والأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين – أيّده الله – معيّد بها، ومجدّد ذاهب رتبها، وكان عيداً، كان عهد أهلها بمثله بعيداً بل لم يعهد بالقطر شبيهه، ولم يحضر مثله خامله ولا نبيهه، وكان ابن خفاجة هذا حاضراً لاستنجاز وعده، بالتوقيع على صكّ يحاول نفاذه من غده، فلمّا كان يوم العيد، واحتفل جمعه واحتشد، قام أبو إسحاق وأنشد»[2].

في حين نجد ابن خفاجة قد ذكر في التقديم لها أنّه أرسلها إلى الأمير ولم ينشدها أمامه: «وقالَ، وكتبَ بها إلى الأميرِ الأجلِّ، أَبِي إسْحَاقَ إبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ، أَيَّدَهُ الله:

سَجَعْتُ وَقَدْ غَنَّى الحَمَامُ فَرَجَّعَا وَمَا كُنْتُ لَوْلا أَنْ تَغَنَّى لأَسْجَعَا

ونظنّ أنّ تقديم ابن خاقان لهذه القصيدة أدقّ وأصدق من تقديم ابن خفاجة لها، فهو ينصّ في آخر القصيدة على حاجته لتوقيع الأمير على صكّ لأمر طلبه منه، ويشير إلى أنّ يوم إنشاده للقصيدة هو يوم عيد، ويهنّئه به كما ذكر ابن خاقان:

فَمَنْ مُبْلِغُ الأَيَّامِ عَنِّيَ أَنَّنِي تَبَوَّأْتُ مِنْهُ حَيْثُ شِئْتُ تَمَتُّعَا

وَطِرْتُ ثَنَاءً وَاطَّلَعْتُ ثَنِيَّةً فَأَسْرَفْتُ إيضَاعاً وَأَشْرَفْتُ مَوْضِعَا

وَهَلْ بَقِيَتْ لِلنَّفْسِ إلَّا اطِّلَاعَةٌ إلَى القَلَمِ الأَعْلَى يَخُطُّ مُوَقِّعَا

---

١ – انظر الديوان : ٧– ٨.

٢ – قلائد العقيان: ٤/٧٥٧ .

فَمَـا القَمَـرُ السَّـارِي بِأَجْمَـلَ غُـرَّةً وَلا الوَابِـلُ الغَـادِي بِـأَكْرَمَ مَصْـنَعا

وَهُنِّئْـتَ عِيـداً قَـدْ تَلَقَّـاكَ قَادِمـاً وَلَمْ يَـكُ لَـوْلا أَنْ طَلَعْـتَ لِيَطْلُعَـا[1]

إذاً فمديح ابن خفاجة لم يكن عن محبّة وولاء خالصاً لوجه الممدوح، بل كان لأغراض وحاجات، وتوقيع على صكوك تقضى بها حوائجه، وتنال رغائبه، وتبعده من الضرائب، وتقرّبه من الممدوح، وتجعله في جنابه.

وكان يطلب من بعض وزراء المرابطين إيصال قصائده إلى الأمير ممّا يدلّ على تعذّر وصول ابن خفاجة بنفسه إلى الأمير لإنجاز مطلبه وتحقيق مأربه[2].

أما قصيدته الخامسة إلى الأمير إبراهيم ففي شهر شوّال وهو الشهر الذي قامت فيه ثورة في قرطبة على المرابطين بُعيد عيد الأضحى كما هو معروف، وفي هذه القصيدة الأخيرة التي أرسلها للأمير حزن شديد وغضب شديد، وعتب شديد، ويأس شديد، وكتب بها إليه بإشبيليّة على نأي الدار بينه وبين ممدوحه –كما يقول ابن خفاجة – مادحاً ومعاتباً مصرّحاً بمطلبه مستنجزاً وعداً متكرّراً ممطولاً، بأن يعامله بما يستحقّه، وأن يراعى وضعه وتتقدّر مكانته بوصفه عيناً من الأعيان وأديباً من كبار الأدباء وعلقاً نفيساً كانت الملوك في العهد السابق تتسابق على أمثاله، وتفتخر بحيازته في بلاطها. يبدأ ابن خفاجة قصيدته بنسيب حزين يندب فيه نفسه وشبابه وخلّانه، ويقدّم للقصيدة – قبل ذلك – بقوله: « وقال يستنجز ميعاداً تكرّر في جهته من الأمير أبي إسحاق ابن أمير المسلمين – أيّده الله – يحمله في جميع شؤونه على الأفضل الأجمل، وكتب بها إليه بإشبيليّة في شوّال سنة أربع عشرة وخمسمئة:

أَلَا تَلْعَـــةٌ مَطْلُولَـــةٌ وَقَبُـــولُ فَيَنْـدَى صَـبَاحٌ أَوْ يَـرِقَّ أَصِـيْلُ

وَتُفْصِحَ عَنْ شُـكْرِ الغَمَـامِ خَمِيْلَـةٌ وَيُعْـرِبَ عَـنْ سِـرِّ الغَـرَامِ هَدِيْـلُ

---

١ – الديوان: ٥٩، ٦٠.

٢ – الديوان: ١٩٨.

وَقَـدْ شَـطَّ مَحْبُـوبٌ وَأَجْـدَبَ مَرْتَـعٌ وَأَخْفَـقَ مَـأْمُولٌ وَقَـلَّ خَلِيْـلُ
وَأَخْلَـقَ رَسْـمٌ للشَّـبَابِ وَمَعْلَـمٌ وَأَرَّقَ لَيْـلٌ بِـالفُرَاتِ طَوِيْـلُ
وَحَـنَّ إِلَى مَـيٍّ عَلَـى النَّـأْيِ نَـازِحٌ يَحُـومُ عَلَـى وَصْـلٍ فَعَـزَّ وُصُـولُ[1]

وتشفُّ رموز ابن خفاجة بصاحبها فما هذا العاشق إلّا الشاعر نفسه وما ميّ إلّا مطالبه الممطولة غير المطلولة وغير المنجزة، لذلك لم تفصح الخميلة – وهي الشاعر أيضاً – عن شكر الغمام، ولم يهدل الحمام – وهو الشاعر أيضاً – ولم يفصح عن سرّ الغرام بل يصل الشاعر إلى دركة من اليأس سحيقة إذ بَعُد نيل المطلوب، وما من بديل يغني أو يسلّي عنه، بل يقول بكلّ صراحة ووضوح ومباشرة بأنّ مأموله قد أخفق، وما من معين على تحقيقه لقلّة الخلّان.

ويشير – بعد ذلك – إلى ضيم لحقه، وضريبة فرضت عليه، وغرم أثقل ظهره، وخفّض قدره، ويستغرب من ذلك ومن دونه ممدوحه الكريم القويّ:

وَأَنَّى يُلِـمُّ الضَّـيْمُ يَوْمـاً بِجَـانِبِي وَدُوْنِيَ مَطْـرُورُ الـذُّبَابِ صَـقِيْلُ
وَأَغْلَـبُ ضَـارٍ مِـنْ لُيُـوثِ عَمَايَـةٍ تَسِـيْلُ سَمَاحـاً كَفُّـهُ وَتَصُـولُ

...

فَيَـا أَيُّـهَا الـمَلِكُ الأَغَـرُّ وِلايَـةً وَخَصْـلاً وَأَصْـلاً وَالجَلِيْـلُ جَلِيْـلُ
أَمِثْلُـكَ مَوْجُـوْدٌ بِحِمْـصَ مُـؤَمَّراً عَزِيـزاً وَمِثْلِـي بِـالعِرَاقِ ذَلِيْـلُ
أَيَجْمُـلُ أَنِّي شِـيْعَةٌ وَصَـنِيْعَةٌ وَيَبْهَظُنِي عِـبْءٌ عَلَـيَّ ثَقِيْـلُ
فَأَغْـدُو وَحَظِّـوِي إِنْ خَطَـوْتُ لِطِيَّـةٍ قَصِـيْرٌ وَطَـرْفِي إِنْ نَظَـرْتُ كَلِيْـلُ
وَمِثْلُـكَ مِـنْ قَـرْمٍ تَحَمَّـلَ مِثْلَـهُ حَمَالَـةَ غُـرْمٍ وَالكَـرِيمُ حَمِيـلُ[2]

ثمّ يتبع هذه القصيدة بقطعة نثريّة يشرح فيها شكواه، ويقول في مقدّمتها:

---

١ – الديوان: ٢٩٣ .

٢ – الديوان: ٢٩٥.

«الأَمِيْرُ الأَجَلُّ الأَوْحَدُ- أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَفَسَحَ للأَكَارِمِ أَعْطَانَهُ!، وَعَمَرَ بِاتِّسَاقِ السَّعَادَةِ وانْتِسَاقِ الإِرَادَةِ أَوْطَانَهُ- يَتَقَبَّلُ هَذِهِ الكَلِمَةَ عَلَى النَّأْيِ تَحِيَّةً، وَيَهُزُّ لَهَا مِنْ مَعَاطِفِ سُؤْدَدِهِ أَرْيَحِيَّةً»[1].

فممّا يلفت الانتباه هي تلك الدعوة الفريدة العجيبة التي اعترض ابن خفاجة الجملة الأولى في رسالته بأن يفسح الله تعالى أعطان الممدوح ويوسّعها للأكارم ويعني نفسه وأمثاله!، والأعطان مبارك الإبل حول الحوض، ويقال للكريم هو واسع العَطَن، ومعنى تلك الدعوة أنّ أعطان الممدوح ضيّقة لا تتسع للأكارم؛ ومن ثَمّ فالأمير غير كريم.

ثمّ يذكر ابن خفاجة غرضه بوضوح وجلاء فيقول: « وَمِثْلُ الأَمِيْرِ الأَجَلِّ- وَصَلَ اللهُ سَعْدَهُ- اعْتَقَدَنِي عَلَى نَأْيِ الدَّارِ أَحَدَ مَنِ انْتَظَمَ فِي جَمَاعِتِه، أَوِ اعْتَصَمَ بِهِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، فَحَمَلَنِي مَحْمَلَ هَذَا أَوْ ذَلِكَ، وَاشْتَمَلَ عَلَيّ هُنَا مِنْ هُنَالِكَ. وَأَنَّ كَانَ، فَإِنَّهُ مِنْهُ إِجْمَالٌ، وَبِالدَّوْلَةِ السَّعِيْدَةِ جَمَالٌ»[2].

وهذا أسلوب عالٍ في الطلب غير المباشر، ويقتصر هذا الطلب على أن يعامله الأمير كفردٍ من جماعته الخاصّة أو رجل من أهل طاعته، وما أيسره من طلب، وما أقدر الأمير على تحقيقه، فإن لم يكن ابن خفاجة يعامل وهو في الثالثة أو الرابعة والستّين من عمره كفرد من جماعته فمتى يكون ذلك؟ وإن لم يكن يُحمل على أنّه من صنائعهم ومن رجالهم فمتى يحمل؟!.

أمّا الأمير الثاني الذي مدحه ابن خفاجة فهو:

ب- أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين (ت بعد٥٢٣ هـ)

وقد خصّه ابن خفاجة بقصيدتين؛ وقدّم الأولى منهما على جميع قصائد الديوان، وقد نظمها في ولاية الأمير الأولى لغرناطة وبعض مدائن الأندلس أوائل القرن السادس، ولكنّه لم ينشدها أمام الأمير، ولم يرسلها إليه في ولايته الأولى، بل تركها مدّة حتّى غادر

---

١ – الديوان: ٢٩٦ .

٢ – الديوان: ٢٩٧ .

الأمير إلى تلمسان سنة (٥٠٤ هـ)، أرسلها مع أحد أصدقائه من وزراء الدولة عند انتقاله إلى العدوة المغربيّة.

إنّ اللافت للنظر في تقديمه أنّه يطلب فيه من الأمير أن يتشكّر له أخاه من أمّ ثانية القائد الأعلى ووالي مرسية الأسبق الأمير ابن عائشة لرعايته جانبه وتحقيق مطالبه، و"الحديث لك يا كنّة فاسمعي يا جارة"، مشيراً إلى وفائه للأمراء والولاة حتّى بعد خروجهم من الولاية ومن الأندلس كافّة، وحاثّاً الأمير أن ينهج النهج نفسه ليلقى الجزاء نفسه: «قال، وكتب بها إلى الأمير الأجلّ أبي الطاهر تميم ابن أمير المسلمين وناصر الدين – أيّده الله وعضده بتقواه – يمدحه، ويسأله مخاطبة القائد الأعلى أبي عبدالله محمّد بن عائشة – شفاه الله – متشكّراً له على رعاية جانبه، وتسنّي أوطاره عنده ومآربه، كتب بها إليه بتلمسان– حرسها الله –:

أَمَا وَالتِفَاتِ الرَّوْضِ عَنْ زَرَقِ النَّهْرِ وَإِشْرَافِ جِيدِ الغُصْنِ فِي حِلْيَةِ الزَّهْرِ[1]

وفي أواخر القصيدة يجأر بشكواه إلى الأمير، ويذكر حاجته إلى كتاب شفاعة من الأمير يقدّمه إلى العمّال عندما يثقلون بالمغارم والضرائب ظهره، ليعامل معاملة خاصّة الأمير وأهل طاعته، يقول:

فَلَوْ مَسَحَتْ يُمْنَاهُ عَنْ وَجْهِ لَيْلَةٍ لَحَطَّتْ قِنَاعَ اللَّيْلِ عَنْ قَمَرٍ يَسْرِي

رَمَيْتُ بِآمَالِي إِلَيْهِ وَإِنَّمَا حَمَلْتُ بِهِ المَرْعَى الجَدِيبَ إِلَى القَطْرِ

وَلا أَمَلٌ إِلَّا كِتَابُ شَفَاعَةٍ إِذَا الخَطْبُ أَعيَا وِزْرَهُ شَدَّ مِنْ أَزْرِي

شَفِيْعٌ لَو اسْتَعْطَفْتُ عَصْرَ الصِّبَا بِهِ لعَاجَ سَقَتْهُ دَمْعَةُ المُزْنِ مِنْ عَصْرِ

وَبِي مَسُّ شَكْوَى لا أُطِيقُ لَهَا السُّرَى فَإِنْ لَمْ أَطَأْ بَابَ الأَمِيرِ فَعَنْ عُذْرِ[2]

ولعلّ هذه القصيدة من أوائل القصائد التي أرسلها ابن خفاجة إلى الأمراء المرابطين

---

١ – الديوان: ٢٣ .

٢ – الديوان: ٢٧ .

إذ ينحصر زمن نظمها بين (٥٠١ – ٥٠٤ هـ)، ممّا يدلّ على أنّ علاقة ابن خفاجة بالمرابطين لم تكن لمحبّة وولاء بل للتشكّي من جور عمّال المرابطين، وللحصول على كتب الشفاعة أو الوساطة، ليشدّ من أزره إذا ادلهمّ خطب العمّال واستفحل خطره.

لقد كان ابن خفاجة « من أعيان مدينة شقر»[١]، وكان « رئيساً مفخّماً»[٢]، وكان لا يرضى أن يعامل معاملة الرعيّة، ولا أن يُتَعسّف في أمر الحريّة، وقد بيّن ذلك في القصيدة الثانية التي خصّ بها الأمير تميماً بعد عودته إلى الأندلس وتولّيه مدينة مرسية، فقال في التقديم لها مصرّحاً وموضحاً:« ولمّا ولي مرسية – حماها الله – الأمير الأجلّ أبو الطاهر تميم – أيّده الله – تعسّف في أمر الحريّة، وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة، فقال يشير إلى حال الثغر – تلافاه الله – وإلى العدول به عن رسمه، وعن حمله فيما تقبّل باسمه، وكتب بها إليه. فأمر لذلك – أيّده الله – برعايته في جميع أعماله، وحمله على أتمّ البرّ فيما حقّ من أحواله:

بِمِثْلِ عُلَاكَ مِنْ مَلِكٍ حَسِيبِ ... عَدَلْتُ إِلَى المَدِيحِ عَنِ النَّسِيبِ
وَظَاهَرَنِي بِمُعْتَرَبِي حُسَامٌ ... أَنِسْتُ بِهِ وَنِعْمَ أَخُو الغَرِيبِ
أَشِيمُ بِهِ سَنَى بَرْقٍ يَمَانٍ ... يُخَفِّرُنِي إِلَى المَرْعَى الخَصِيبِ[٣]

بدأ ابن خفاجة بالمديح مباشرة من دون مقدّمات، وكأنّه كان في عجلة من أمره، وقد ذكر ذلك ابن خفاجة نفسه،ثمّ أسهب في المديح وعرض بعدها إلى هجوم الإسبان على ثغور الأندلس وما فعلوه من أمور تشيب لها النواصي، وحثّه على تدارك الأمر وتحرير الثغر ونجدته، ثمّ دعاه لنجدته هو ممّا دهمه من حوادث الليالي التي لا توقّر من مشيبه، ويبثّه شكواه ويصف علّته ؛ وليس سوى الممدوح من طبيب:

فَإِنَّكَ وَالرِّبَاطُ إِلَى اغْتِبَاطٍ ... كَفِيلُ السَّعْدِ بِالفَتْحِ القَرِيبِ

---

١ – المطرب من أشعار أهل المغرب: ١١١ .

٢ – الوافي بالوفيات: ٥٥/٦ .

٣ – الديوان : ٩١ – ٩٢.

وَإِنِّي وَالنَّسِيمُ يَهُبُّ لَدْناً ... لَمُشْتَمِلٌ عَلَى نَفَسٍ مُذِيبِ
لِحَادِثَةٍ تُصَدِّعُ مِنْ صَفَاتِي ... ولاءً أَوْ تُكَدِّرُ مِنْ قَلِيبِي
فَهَا أَنَا أَلحَظُ الأَيَّامَ شَزْراً ... وَأَرْمِيهَا بِطَرْفِ المُسْتَرِيبِ
وَأَشْكُو لَوْ شَكَوْتُ إِلَى مُصِيخٍ ... لَيَالِيَ لا تُوَقِّرُ مِنْ مَشِيبِي
تَمَشّى تَارَةً مِشْيَ السَّبَنْتَى ... وَآوِنَةً تَدِبُّ دَبِيبَ ذِيبِ
وَكُنْتُ مَتَى اسْتَرَبْتُ مِنَ اللَّيَالِي ... فَزِعْتُ إِلَى ثَبِيرٍ أَوْ عَسِيبِ
إِلَى جَبَلٍ أَصُدُّ بِهِ العَوَادِي ... وَأَقْتَادُ المُنَى قَوْدَ الجَنِيبِ
أَظَلُّ بِهِ أُنَادِي مِنْ بَعِيدٍ ... وَأَلتَمِسُ المَطَالِبَ مِنْ قَرِيبِ
فَيَا مَلِكَ المُلُوكِ وَلِي لِسَانٌ ... يُشِيرُ بِهِ البَيَانُ إِلَى خَطِيبِ
يَفُضُّ بِكُلِّ قَافِيَةٍ خِتَاماً ... وَيُفْعِمُ كُلَّ نَادٍ رِيْحَ طِيبِ
دَعَاكَ وَلَوْ دَعَوْتُ بِهِ جَمَاداً ... لَهَزَّ مَعَاطِفَ الغُصْنِ الرَّطِيبِ
وَمِثْلِي هَزَّ مِثْلَكَ ثُمَّ أَصْغَى ... عَلَى ثِقَةٍ يُصِيخ إِلَى مُجِيبِ
وَرَدَّدَ فِيكَ نَظْرَتَهُ رَجَاءً ... كَمَا التَفَتَ العَلِيلُ إِلَى الطَّبِيبِ[1]

إنّها نفثة مصدور تذيب الحديد، ينبّه فيها ابن خفاجة على أنّ هذه الحادثة تكاد تصدّع صخرة ولائه للمرابطين وتكدّر صفاء بئر مودّته لهم، وإنّه لحادث جلل ألّا توقّر الليالي من مشيبه، ثمّ نجد شبه تهديد مبطّن للأمير إن لم يجب دعوته، فشعر ابن خفاجة يحرّك الجماد ويجعله يهتزّ كالغصن الرطيب فكيف لا يحرّك الأمير، ثمّ يساوي ابن خفاجة نفسه بالأمير في قوله: "ومثلي هزّ مثلك"، وهو أمر نادر الحدوث من مادح أو طالب حاجة، ولكنّه خفّف من غلوائه في البيت التالي مستثيراً الناحية الإنسانيّة في الأمير بجعله الطبيب الذي يقدر أن يداوي العليل، فيلتفت نحوه، راجياً منه أن يداوي علّته.

ويلوح لابن خفاجة أنّه لا النظر ولا الشعر بقادرين على توضيح شكواه وتحديدها بدقّة فيتبع قصيدته برسالة نثريّة قصيرة لا تدع مجالاً للتأويل ويقول:« الأَمِيرُ

---

١ – الديوان : ٩٣ – ٩٤ .

الأَوْحَدُ، الأَمْجَدُ –أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَمَهَّدَ بِالسَّعَادَةِ أَعْطَانَهُ– يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ مُتَرَتِّبُونَ بَيْنَ عُلْوٍ وَسُفْلٍ، وَمُتَقَسِّمُونَ إِلَى نَبِيهٍ وَغُفْلٍ، وَأَنَّ لِكِلَيْهِمَا مَكَانَةً مِنَ السِّيَاسَةِ مَرْسُومَةً، وَمَرْتَبَةً مِنَ الرِّيَاسَةِ مَعْلُومَةً. عَلَى هذَا مَضَتِ الدُّوَلُ، وَانقَرَضَتِ القُرُونُ الأُوَل. وَإِنِّي –وَالحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ لِكُلِّ مُنْعِمٍ غَمَرَ بِحُسْنَاهُ، وَبَسَطَ بِالفَضْلِ يُمْنَاهُ – مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ، مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُؤَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا. وَهَا أَنَا – وَقَدْ أَخْلَقَ رِدَاءُ الشَّبَابِ، وَلَحِقَ بِالتُّرَابِ، أَكْثَرُ الأَتْرَابِ – أَلْيَقُ بِذَلِكَ المَأْخَذِ الكَرِيمِ، وَأَخْلَقُ بِوُجُودِ بَرْدِ ذَاكَ النَّسِيمِ، وَرَأْيُ الأَمِيرِ– أَيَّدَهُ اللهُ– أَجْمَلُ، وَبَاعُ طَوْلِهِ أَطْوَلُ. وَهُوَ بِشَرَفِ مَوْلِدِهِ، وَكَرَمِ مَحْتِدِهِ، يُنْعِمُ بِإِقْبَالِهِ، وَيَسِمُ بِإِجْمَالِهِ، وَيَكْتَنِفُ بِإِحْسَانِهِ، وَيُشْرِفُ بِسُلْطَانِهِ – لا زَالَ شَامِلاً بِالبِرِّ، مُشْتَمِلاً بِالنَّصْرِ، سَعِيدَ الجَدِّ، حَمِيدَ القَصْدِ، بِحَوْلِ اللهِ»[1] ويعلّق ابن خفاجة على القطعة النثريّة بمثل ما قدّم للقصيدة:« فما فرغ من قراءته، حتّى عهد بما هو أهله أيّده الله»[2]

ج– الأميرة الحرّة مريم

ولم يقتصر ابن خفاجة على مدح الأمير تميم فقد مدح زوجه الحرّة مريم بنت ابن تيفلويت بقصيدة، وفي كلتيهما يزعم أنّها نجحت في تحقيق مطالبها، ولا يصحّ ذلك، فلو نجحت القصيدة التي قالها في الأمير لما احتاج إلى شفاعة زوجه، ولو نجحت القصيدة التي قالها في زوج الأمير لما احتاج إلى قصيدة العتب الشديد الموجّهة إلى الأمير. يقدّم ابن خفاجة للقصيدة بقوله:

«وقال، وكتب بها إلى الحرّة مريم – رحمها الله – يتشفّع بها إلى زوجها الأمير أبي الطاهر تميم – أيّده الله – وكانت ممّن تقوم على كثير من الخير، وتحفظ جملة وافرة من الشعر، وتحاضر به، وتثيب عليه. فما وقفت على ما كتب به حتّى نفذ العهد بحملانه على أتمّ وجوه البرّ والمحافظة والمراعاة والمكارمة:

يَمَّمْتُ مِنْ عَلْيَاكِ خَيْرَ مُيَمَّمِ وَحَلَلْتُ مِنْ مَغْنَاكِ دَارَ مُخَيَّمِ

---

١ – الديوان: ٩٤ – ٩٥ .

٢ – الديوان: ٩٥.

فَخَلَعْتُ عَنْ عُنُقِي حِمَالَةَ صَارِمٍ وَأَرحْتُ نَفْسِي مِنْ حَمَالَةِ مَغْرَمِ[1]

يتحدّث ابن خفاجة عن غرم ثقيل يريد أن يرتاح منه، وأن يصون مكانته بتعلّقه بذّمة الحرّة الأميرة، ويسهب في القصيدة في تصوير عزّ المرابطين وكرمهم وشجاعتهم إلّا أنّه يصدمنا بيت يتحدّث عن جود الأميرة فيقول:

وَيَفُكُّ مِنْ أَغْلالِ أَسْرَى فَاقَةٍ وَفَصِيحِ قَوْمٍ فِي مَقَادَةِ أَعْجَمِ[2]

فهل قصد ابن خفاجة بالفصيح نفسه، وهل قصد بالأعجميّ المرابطين البربر الذين يحكمون الأندلسيّين، والذين لا يفهمون العربيّة فهماً دقيقاً؟.

د- الأمير ابن تيفلويت (ت ٥١٠ هـ)

ومدح ابن خفاجة والد الحرّة مريم؛ وهو أبو يحيى أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت وهو كذلك زوج أخت أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين وابن عمّه، وكان والياً على غرناطة سنة (٥٠٠ هـ)، ثمّ على مرسية ثمّ ضمّ إليها بلنسية نحو (٥٠٢ هـ)، ثمّ طرطوشة وسرقسطة نحو سنة (٥٠٨ هـ) إلى وفاته، وكان مشهوراً بالكرم والشجاعة، وعاش حياة باذخة فخمة، وانهمك في اللذّات والشراب[3]، لذلك كان ابن تيفلويت أقرب أمراء المرابطين إلى ابن خفاجة، وقد مدحه بقصيدة واحدة نصّ في التقديم لها على اسم الأمير، ولكنّها أطول قصائده قاطبة في المدح وغيره، وتبلغ (٩٩) بيتاً، وأرسلها إليه وهو في العدوة المغربيّة، يقول ابن خفاجة في التقديم لها: «وقال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم – رحمه الله – ويسأله تشكّر القائد الأعلى أبي عبدالله بن عائشة – شفاه الله – عن برّه به، وإجماله معه، وحمله في أمر ضياعه على أتمّ الحرّية وأعمّ المزيّة، وكتب بها إليه بالعدوة ، فراجع عن ذلك بما اقتضاه طوله – رحمه الله:

---

١ – الديوان: ٩٦ – ٩٧ .

٢ – الديوان: ٩٨ .

٣ – عصر المرابطين: ٨٩.

سَمَــحَ الخَيَــالُ عَلَــى النَّــوَى بِمَــزارِ وَالصُّبْحُ يَمْسَــحُ عَــنْ جَبِــينِ نَهَــارِ»[1]

فابن خفاجة يعبّر بدقّة عن مطالبه وعمّا يعنيه بالبرّ به والإجمال معه بعبارة مختصرة وهي «حمله في أمر ضياعه على أتمّ الحريّة وأعمّ المزيّة»، فهو في مديحه للمرابطين لا يستجدي أو يطلب عطاء بل يرجو من ولاتهم أن يجملوا معه في الضرائب المفروضة على ضيعته أو ضياعه –كما يقول – وأن يتركوا له الحرّية فيها.

ويطنب ابن خفاجة في تعداد مآثر ممدوحه ابن تيفلويت مبالغاً في ذلك مبالغة لا نجدها في سائر قصائده المدحيّة، ويطيل في مديحه من دون تلميح أو ذكر لمطالب أو رغائب إلّا في البيت الأخير الذي يطلب فيه – بشكل مباشر – الشفاعة والوساطة له على تنائي الشقّتين:

وَاشْــفَعْ عَلَــى شَــحْطِ الــدِّيَارِ لآمِــلٍ أَهْــدَى الثَّنَــاءَ عَلَــى تَنَــائِي الــدَّارِ[2]

ولقد توطّأ لابن خفاجة عند ابن تيفلويت «مكان مرعيّ، وبرّ بجانبه حفيّ»[3]، مهّد له تشابههما في نمط حياتهما الخاصّة في الميل إلى اللهو والمرح، لذلك فإنّه الوحيد الذي رثاه ابن خفاجة من أمراء المرابطين الذين عاصرهم أو اتّصل بهم، وقد رثاه بمقطوعتين قصيرتين لا تتجاوز الواحدة منهما ثلاثة أبيات في حين أنّ مدحته له تبلغ المئة إلّا بيتاً، ولهذا دلالته الواضحة.

هـ– الأمير ابن الحاج

الأمير الخامس والأخير من أمراء المرابطين الذي نجد له مدحة في ديوان ابن خفاجة هو أبو يحيى؛ أبو بكر بن محمّد بن الحاجّ، وقد مدحه ابن خفاجة عندما تولّى أبوه القائد المرابطي محمّد بن الحاجّ ولاية بلنسية سنة (٥٠٢ هـ) التي يسكنها ابن خفاجة وفيها ضيعته، ويبدو أنّ ابن خفاجة كان يتقرّب من كلّ من يحكم مدينته ويمهّد لنفسه عنده،

١ – الديوان: ٣٥.

٢ – الديوان: ٣٩.

٣ – الديوان: ١٠٥ .

ليكون من شيعته وخاصّته، ويظلّ في كنفه ورعايته وحمايته، ويتخلّص من مغارمه وضرائبه، قال ابن خفاجة في التقديم لقصيدته هذه الموصولة بقطعة نثريّة:

«وكان أبو بكر ابن الحاجّ – رحمه الله – جليلاً، وكان بينه وبين ابن خفاجة اتّصال اقتضى مخاطبته خلال كونه خارج بلنسية، فقال،وكتب بها إليه، عند صرف أبي محمّد بن فاطمة عنها – رحمه الله – وولاية أبيه إيّاها:

لِـذِكْرِكَ مـا عَـبَّ الخَلـيجُ يُصَـفِّقُ وَبِاسمِـكَ مـا غَـنّى الحَمـامُ الـمُطَوَّقُ[1]

ومن ذلك كلّه نستطيع أن نقول بكلّ ثقة إنّ مديح ابن خفاجة لأمراء المرابطين لم يكن عن إعجاب بهم، ولا عن محبّة وولاء لهم، بل كان لحاجات ومتطلّبات كثيرة.

وفي قصيدة نظمها ابن خفاجة بعد أن حلب الدهر أشطره، تحسّر فيها على فقد شبابه مقرّراً انتفاء الأكابر والأعيان في عصره الذين يستحقّون أن يمدحوا « وقال يتوجّع لفقد الشباب وعدم العلية الأعيان ، ويصف فرساً أشهب:

أَلَا سَـرَتِ القَبُـوْلُ [2] وَلَـوْ نَسِـيْما وَجَـاذَبَنِي الشَّـبَابُ وَلَـوْ قَسِـيْما[3]

وَطَـالَعَنِي الظَّـلَامُ بِـهِ خَيَـالاً فَأَقْبَـلَ نَـاظِرِي وَجْهـاً وَسِـيْما

.....

وَكُنْـتُ رَجَـوْتُ أَنْ أَعْتَـاضَ مِنْـهُ زَعِيْمـاً [4] أَو عَلِيْمـاً [5] أَو حَلِيْمـا[6]

وَلَمَّـا أَنْ نَظَـرْتُ مَـعَ اللَّيَـالي فَلَـمْ أَنْظُـرْ بِـهَا إِلَّا مَلِيْمـا [7]

---

١ – الديوان : ١٨٤– ١٨٥ .

٢ – القَبول: الريح تأتي من مطلع الشمس أو هي ريح الصبا لأنّها تستقبل الدبور.

٣ – القسيم: الشطر ، النصف.

٤ – الزعيم: هو سيّد قومه ورئيسهم والمتكلّم عنهم.

٥ – العليم: هو العارف حقّ المعرفة ، المتقن ، الخبير.

٦ – الحليم: ذو الأناة والعقل وضبط النفس ، والسكون عند الغضب.

٧ – المَليم: الذي يأتي بما يلام عليه ، ويستحق اللوم ويستوجبه ، يقال: ربّ لائم مليم

عَبَامـــاً[1] أَو كَهَامـــاً [2] أَو جَهَامـــاً[3] لَئِيْمـــاً[4] أَو دَمِيْمـــاً[5] أَو ذَمِيْمـــا[6]

شَـدَدْتُ عَلَـى القَـوَافِي كَـفَّ حُـرٍّ كَـــــرِيْمٍ لَا يُسَـــــوِّغُهَا لَئِيْمـــــا

فَمَـــا أُطْـــرِي إِذَا أَطْرَيْـــتُ إِلَّا حَمِيّـــاً [7] أَو حَبِيْبـــاً أَو حَمِيْمـــا[8]

وَمَطْـــرُوراً [9] أُجَـــرِّدُهُ صَـــقِيْلاً وَيَعْبُوبـــاً[10] أَكُـــرُّ بِـــهِ كَرِيْمَـــا[11]

إذاً فابن خفاجة يتحدّث أنّه كان يرجو أن يعتاض من شبابه المنصرم عنه زعيماً أو عليماً أو حكيماً من الناس، ولكنّه وجد – عكس ذلك – مجامع للمعايب والقبح، لا خير يرتجى منهم، ولا يجدي الخير فيهم.

فما كان منه إلّا أن قرّر قراراً محدّداً ملزماً بألّا يسفح مدامة شعره على من كان بتلك الصفات الذميمة، ولا يطري – حين يطري – إلّا حميّاً أو(حفيّاً) أو حبيباً أو حميماً، وجعل مدحهم إطراء، ولعلّ هذا ما وجدناه في ثنائه لبعض الوزراء والأدباء والقضاة الأندلسيّين، إذ إنّ قصائده فيهم أقرب إلى الإخوانيّات منه إلى المديح. ويطري ابن خفاجة –كذلك – صديقين ملازمين له وهما سيفه الصقيل وفرسه الكريم، فلعلّهما أكثر فائدة ووفاء من كثير من الناس.

---

١ – العَبام: كلمة جامعة للذمّ ، فهو الثقيل العيي الذي لا عقل له ولا أدب ولا شجاعة ولا رأس مال ، والأحمق الكليل اللسان والغليظ الخلقة في حمق.

٢ – الكَهام: الكليل العيي البطيء المسنّ لا غناء عنده ، وكهم السيف: كلّ فلم يقطع

٣ – الجَهام: السحاب لا ماء فيه ، يقال جاء من هذا الأمر بجهام أي بما لا خير فيه.

٤ – اللئيم: المَهين ، دنيء الأصل شحيح النفس.

٥ – الدميم: القبيح المسيء.

٦ – الذميم: المعاب المهجوّ.

٧ – الحميّ: الذي لا يحتمل الضيم والظلم ، وجاءت في رواية أخرى: " حفيّاً " وهي أنسب للسياق ، والحفيّ: هو المبالغ في إكرامك مظهر السرور والفرح له والمكثر من السؤال عن حالك.

٨ – الحميم: القريب الذي تودّه ويودّك.

٩ – المطرور: السيف.

١٠ – اليعبوب: الفرس الكريم الجواد الواسع الجري.

١١ – الديوان : ١١٤ – ١١٥ .

ولهذا كلّه نرى أنّ ابن خفاجة لم يكن راغباً في مدح أمراء المرابطين، وأنّه قد أحجم حقّاً عن مدحهم نحو عقدين من الزمن، ولكنّ الأيّام اضطرّته إلى مدح بعض أمراء المرابطين الذين حكموا المدائن التي كان يقيم بها ابن خفاجة ويتردّد إليها، فعل ذلك حماية لنفسه وصيانة لمكانته ورعاية لضيعته.

٤ – حياته بعد انقضاء الشباب:

مضى شباب ابن خفاجة مسرعاً وانقضى ما فيه من أوطار، وكأنّه حلم جميل يشدّ جفونه عليه ولا يريد أن يصحو منه، وكثيراً ما يصف سرعة انقضائه[١].

وأمّا الشيب فلابن خفاجة معه حديث ذو شجون، وجاءت الكهولة تثقله بكلكلها وتدعوه إلى أن يرعوي، ولكنّ ذكريات الشباب وما فيه من لهو ومرح أشدّ تأثيراً منها، وسريعاً ما تطلّ لتطغى على داعي التعقّل.

وجاءت **الخمسون** وذرّت الأمراض بقرنيها تنهش جسمه الناحل، وإن كان الأمل في الشفاء منها كبيراً في هذه المرحلة: «وقال في أثناء علّة ملتزماً ما لا يلزم من حرف الحاء:

جَهِلتُ وَما ألقَى عَلَيْماً وَإِنَّمَا ... مَرِهتُ وَأَعيَا أَنْ أَمُرَّ بِكاحِلِ
فَسِرْتُ وَقَدْ أَجدَبْتُ أَرْتَادُ مَرتَعاً ... فَلَمْ تَطَأِ الوَجْنَاءُ بِي غَيْرَ مَاحِلِ
وَخُيِّلَ لِي أَنِّي أُقِيمُ وَإِنَّمَا ... أَسِيرُ وَإِنْ لَمْ أَحتَقِبْ زَادَ رَاحِلِ
فَقُلْتُ وَقَدْ خَلَّفْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً ... وَرَائِي لَقَدْ أَعْجَلْتُ طَيَّ المَرَاحِلِ
أَنُوءُ بِعِبءِ السُّقْمِ بَيْنَ حُشاشَةٍ ... تَجُودُ وَجِسْمٍ قَدْ تُعُرِّقَ نَاحِلِ
وَأَسبَحُ فِي بَحْرِ الشَّكَاةِ لَعَلَّنِي ... سَأَعْلَقُ يَوْماً مِنْ نَجَاةٍ بِسَاحِلِ[٢]

---

١ – الديوان : ٨٥.

٢ – الديوان: ٢٦٢.

فجانب التفاؤل في هذه المرحلة واسع ، وإقباله على الحياة والمرح مايزال قويّاً، لذلك نراه يتغزّل بأمة صغيرة له وعمره إحدى وخمسون سنة[1].

وتختلف الأمور بعد أن تجاوز **الستّين** كثيراً ، فتكثر العلل ويدبّ الضعف في أعضاء ابن خفاجة، إنّه «ضعف طبيعيّ ، وكسل يتشبّه بعيّ» كما يقول، وفي رسالته لأستاذه ابن صواب التي كتبها إليه بعد أن أكمل الستّين سنة يتحسّر ابن خفاجة على شبابه وأحبابه، بل يترقّب فواته واقتراب وفاته، فكان ذلك انعطافاً في حياته، وتبدّلاً في سلوكه وميله إلى التفكّر والتديّن:

«وَلا تَذَكَّرْتُ مَا رَاقَ مِنْ عِشْرَةٍ، وَرَقَّ عَنْهَا مِنْ قِشْرَةٍ، إِلَّا تَمَلَّكَ جَفْنِي الاسْتِعْبَارُ، وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي النَّهَارُ. فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الأَيَّامِ، المُتَخَيَّلَةِ مِنَ الأَحْلامِ؟ وَأَيْنَ مَنْ قَدْ عَرَفْنَا وَأَلِفْنَا مِنَ الإِخْوَانِ؟ بَانُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا، وَفُقِدُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا وُجِدُوا. فَهَا أَنَا لا أَسْتَرِيحُ فِيهِمْ إِلَّا إِلَى شَكْوَى، تُقِضُّ المَضْجَعَ، وَتَفُضُّ الأَضْلُعَ، وَلا أَنْطَوِي إِلَّا عَلَى ذِكْرَى، تُصَدِّعُ حَصَاةَ القَلْبِ، وَتُؤْذِنُ بِالظَّعْنِ فِي أَعْقَابِ ذَلِكَ الرَّكْبِ. فَآهٍ ثُمَّ آهٍ عَلَى شَبَابٍ قَدِ انْقَلَبَ، وَذَهَابٍ قَدِ اقْتَرَبَ، فَلَا تَنَاجِيَ إِلَّا بِعَمَلٍ يُتَعَقَّب، وَأَجَلٍ يُتَرَقَّبُ. وَعَلَى ذِكْرِ ذَلِكَ، أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيَال قَدْ أَرِقْتُ، فَتَلَدَّدْتُ أَنْظُرُ فِي أَعْقَابِ مَا مَضَى، مِنْ عُمْرِي فَانْقَضى، وَأَتَوَقَّى، عَلَى شَفَافَةِ مَا غَبَرَ مِنْهُ وَتَبَقَّى، فَسَنَحَ لِي أَنْ قُلْتُ:

أَلا سَاجِلْ دُمُوعِي يَا غَمَامُ ... وَطَارِحْنِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ

فَقَدْ وَفَّيْتُهَا سِتِّينَ حَوْلاً ... وَنَادَتْنِي وَرَائِي هَلْ أَمَامُ

وَكُنْتُ وَمِنْ لُبَانَاتِي لُبَيْنَى ... هُنَاكَ وَمِنْ مَرَاضِعِيَ المُدَامُ

يُطَالِعُنَا الصَّبَاحُ بِبَطْنِ حُزْوَى ... فَيُنْكِرُنَا وَيَعْرِفُنَا الظَّلامُ

وَكَانَ بِهِ البَشَامُ مَرَاحَ أُنْسٍ ... فَمَاذَا بَعْدَنَا فَعَلَ البَشَامُ

---

١ – الديوان: ٨١.

فَيَـا شَـرْخَ الشَّـبَابِ أَلا لِقَـاءٌ يُبَـلُّ بِـهِ عَلَـى يَـأْسٍ أُوَامُ

وَيَـا ظِـلَّ الشَّبَابِ وَكُنْـتَ تَنْـدَى عَلَـى أَفْيَـاءِ سَـرْحَتَك السَّـلامُ

فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ صَرَخْتُ عَوِيلاً، وَانْتَحَبْتُ طَوِيلاً، حَتَّى أَيْقَظْتُ مَنْ كانَ إِلَى جَانِبِي ضَجِيعاً، وَزِدْتُ فَكِدْتُ أُحِيلُ الدَّمْعَ نَجِيعاً. وَحُقَّ لِمَنْ شَاهَدَ تَضَعْضُعَ أَرْكَانِهِ، وَتَدَاعِيَ بُنْيَانِهِ، وَذَهَابَ خِلّانِهِ، وَإِدْبَارَ عُمْرِهِ وَزَمَانِه، أَنْ يُطْرِقَ هُنَالِكَ فِكْرَةً، وَيَمْلأَ جَفْنَيْـهِ عَبْـرَةً، وَيُرَدِّدَ الأَسَفَ جَمْرَةً، حَتَّى يَذُوبَ كَمَداً أَوْ يَقْضِيَ حَسْرَةً»[1].

وثمّة أربع قصائد مديح في ديوانه مؤرّخة بتاريخ سنة (٥١٤ هـ) أي وهو في الثالثة أو الرابعة والستّين من عمره؛ إحداها يبدأ فيها بالغزل بطلب من الأمير إبراهيم، ولا تخلو من ذكر مغامراته العشقيّة مع أنّه ابن ستّين سنة:

صَـمَّ سَـمْعِي فيـهِ عَـن عَـذَلِي وَابْـنُ سِـتّينَ أَخُـو صَـمَمِ[2]

والثانية في الأمير إبراهيم في شوّال من السنة نفسها ، وفي مقدّمتها يشير إلى أنّ رسم الشباب قد أخلق وفي نهايتها يشير إلى شحوبه وعجزه عن الرحيل[3]:

وَلَـوْلَا شُـحُوْبٌ طَـائِفٌ بِـابْنِ كَبْـرَةٍ لَـهُ فَـوْقَ أَكْـوَارِ الـمَطِيِّ مَمِيـلُ

والقصيدة الثالثة في الوزير زهر ابن زهر في منتصف محرّم، وفيها يشير إلى صروف الدهر الذي تقاضت شبيبته، ويصلها بقطعة نثريّة يذكر فيها تبدّل عمّال المدينة "واسْتِغْلاقِ الأُنْسِ"، وما لذلك من أثر سلبيّ فيه وفي أدبه.

أمّا القصيدة الرابعة فهي في الوزير زهر بن زهر أيضاً، نظمها في شهر رمضان سنة(٥١٤ هـ) وفيها يطنب في وصف أيّام لهوه وصباه، ويتقطّع كمداً على ذهابه وهو في الستّين:

---

١ – الديوان: ٦٣– ٦٥

٢ – الديوان: ١٠٧ ، ١٠٨.

٣ – الديوان: ٢٩٦.

وَأَعوَلــتُ أَنــدُبُ عَصــراً خَــلا وَقَصْــرُ ابــنِ سِــتّينَ أَنْ يَنْــدُبا[1]

إذاً فقد انتهى أنس ابن خفاجة وغلّقت أبوابه ، لتوقّف الدهر عن مساعدته وإسعافه، وجاءت **السبعون** فنجد تحوّلاً كبيراً منه إلى التديّن والزهد، ففي رسالة عتاب أرسلها إلى ابن أبي الخصال، يصف نفسه وهو في السبعين من العمر مترقّباً شبح الموت متزهّداً في الدنيا متوسّلاً بربّ العباد ويرى حاله «حَالَ مَنْ خَلَّفَ السَّبْعِينَ وَرَاءَهُ، فَهُوَ يَرْتَقِبُ يَوْمَهُ وَيُنْدُبُ أَمْسَهُ، وَيُوَدِّعُ دُنْيَاهُ وَيُنْشِدُ نَفْسَهُ:

هَــلْ فَــاتَ صَــرْفَ الــرَّدَى لَبِيــدُ وَطَــــاوَلَ الــــدَّهْرَ لَا يَبِيــــدُ[2]

وشبّه ابن خاقان تنسّك ابن خفاجة بتنسّك ابن أذينة (ت نحو ١٣٠ هـ) الشاعر الأموي الفقيه المحدّث فقال: «نسك اليوم نسك ابن أذينة، وغضّ عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه»[3]، أي إنّ نفسه ما تزال تنازعه بعض الشيء لكنّه قد تغلّب عليها يوضّح ابن خفاجة هذا بقوله في فصل من رسالة له: «وَإِنَّ لِلشَّبِيْبَةِ صَبْوَةً، وَلِلْحَدَاثَةِ هَفْوَةً ، وَقُصَارَى الطَّيْشِ رَكَانَةٌ وَوَقَارٌ، وَأَوَّلُ قُرَّحِ الخَيْلِ المِهَارُ، وَلَمْ أَرَ كَالشَّبَابِ مَطِيَّةً لِلْجَهْلِ ، وَلَا كَالمَشِيْبِ فِطْنَةً لِلْعَقْلِ»[4].

وفي ديوان شعره إشارات متعدّدة إلى زهده في الحياة وملاهيها ودعوته إلى ذلك، وثمّة خبر يسير يدلّ على أنّ ابن خفاجة كان ينشد طلّابه وهو في هذه السنّ المتقدّمة بعضاً من شعره، فقد نقل ابن الأبّار عن ابن غلبون: «قال أنشدنا أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة لنفسه بجزيرة شقر؛ بلده في بضع وعشرين وخمسمئة ممّا كان قاله لمّا بلغ الستّين من عمره:...»[5].

وتغيّر ما كان من اعتداد ابن خفاجة بفتوّة الصبا، وما فيها من قصف ومجون إلى

---

١ – الديوان: ١١٧.

٢ – الديوان: ٣١٤ ، ٣١٥.

٣ – قلائد العقيان: ٤/ ٧٤٠

٤ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٥٨/٢/٣.

٥ – التكملة: ١٧٦

الانزواء وحيداً، واعتزال الناس أحياناً، والتفكّر في حاله، قال ابن عميرة الضبّيّ (ت ٥٩٩ هـ): «أخبرني بعض أشياخي أنّه كان يخرج من جزيرة شُقْر، وهي كانت وطنه في أكثر الأوقات إلى بعض تلك الجبال التي تقترب من الجزيرة وحدَه، فكان إذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا إبراهيم تموت – يعني نفسه – فيجيبه الصوت، ولا يزال كذلك حتّى يخرّ مغشيّاً عليه»[1].

وقد ذكر ذلك في قصيدته الشهيرة في الاعتبار التي يصف فيها الجبل الباذخ، ويستمع إلى حديثه العجيب، جاعلاً إيّاه معادلاً موضوعيّاً له، إذ تفنى دموع الجبل من فراق أصحابه، وترتجف أيك أضلعه لظعنهم، وتندب ورقه لرحيلهم الأبديّ.

وصار ابن خفاجة يأنس بالمقابر عامّةً، فيزورها كثيراً، ويعتبر منها، ويستعبر فيها: «وقال وقد مرّ يوماً بالمقابر فأطال الوقوف بها بين اعتبار واستعبار:

أَلا صُمَّتِ الأَجداثُ عَنِّي فَلَمْ تُجِبْ ... وَلَمْ يُغْنِني أَنّي رَفَعتُ بَهَا صَوْتِي

فَيا عَجَباً لي كَيفَ آنَسُ بِالمُنَى ... وَغايَةُ ما أَدرَكتُ مِنها إِلى فَوْتِ

وَهَلْ مِنْ سُرورٍ أَو أَمانٍ لِعاقِلٍ ... وَمُفْضَى غُبُورِ الغَابِرِينَ إِلى المَوْتِ

جعلنا الله منه على حذر، وزوّدنا له من سفر، وتغمّدنا برحماه، وأهّلنا لنعماه فهو أهل ذلك، لا إله سواه»[2].

وأمّا **الثمانون** – وبلّغتها – فلم تترك ل ابن خفاجة أيّ نوع من أنس أو هناءة في غذاء وطعام، أو راحة في سنة ومنام، بل ضاءلت من شخصه، وقيّدت خطوه: «وقال عندما بلغ إحدى وثمانين سنة، يجيب أبَا العَرَبِ عَبْدَ الوَهَابِ التُّجِيبِيَّ، وقد سأله عن حاله:

أَيُّ أُنْسٍ أَو غِذاءٍ أَو سِنَهْ ... لِابْنِ إِحدى وَثَمانينَ سَنَهْ

---

١ – بغية الملتمس: ١٩٨.

٢ – الديوان: ٣٠٩.

قَلَّصَ الشَّيْبُ بِهَا ظِلَّ اِمرِئٍ طَالَمَا جَرَّ صِبَاهُ رَسَنَهْ
تَارَةً تَخْطُو بِهِ سَيِّئَةٌ تُسْخِنُ العَيْنَ وَأُخْرَى حَسَنَهْ[1]

واستسلم ابن خفاجة أخيراً للقضاء، واستعدّ ليومه المحتوم؛ حتّى إنّه صنع أبياتاً شجيّة يتبدّى فيها حرصه على معاني الأخوّة والرحمة والوفاء وترشح منها بقايا اعتزازه بنفسه بل بأشلائه التي وصفها بالكرم، وجهّزها لتنقش أو تكتب على شاهدة قبره الذي كان معروفاً بظاهر جزيرة شقر، وقد أورد له ابن الأبّار هذه المقطّعة التي «أعدّها لتكتب على قبره[2]:

خَلِيلَيَّ هَلْ مِنْ وَقْفَةٍ لِتَأَلُّمِ عَلَى جَدَثِي أَوْ نَظْرَةٍ لِتَرَحُّمِ
خَلِيْلَيَّ هَلْ بَعْدَ الرَّدَى مِنْ ثَنِيَّةٍ وَهَلْ بَعْدَ بْطِن الأَرْضِ دَارُ مُخَيِّمِ
وَإِنَّا حَيِيْنَا أَوْ رَدِيْنَا لِإِخْوَةٌ فَمَنْ مَرَّ بِيْ مِنْ مُسْلِمٍ فَلْيُسَلِّمِ
وَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ مُحَيِّياً أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَوْ يَقُولَ أَلَا اسْلَمِ
وَفَاءً لأَشْلاءٍ كَرُمْنَ عَلَى البِلَى فَعَاجَ عَلَيْهَا مِنْ رُفَاتٍ وَأَعْظُمِ
يُرَدِّدُ طَوْراً آهَةَ الحُزْنِ عِنْدَهَا وَيَذْرِفُ طَوْراً دَمْعَةَ المُتَرَحِّمِ

وتوفّي ابن خفاجة ببلدته ومسقط رأسه شُقْر سنة (٥٣٣ هـ) كما أجمع على ذلك أغلب من ترجم له.

وقال ابن الأبّار في "التكملة" إنّه: «توفّي يوم الأحد السادس والعشرين من شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة»[3]، وأكمل: «ولم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة، ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صلحاً، وأجلوا أهلها في آخر سنة تسع وثلاثين وستّمئة».

رحمه الله تعالى.

---

١ – الديوان : ٣٥٥.

٢ – الديوان: ٣٦٣.

٣ – التكملة: ١٧٧، وانظر بغية الملتمس: ١٩٨ ، وفيات الأعيان: ٥٦/١ ، بغية الوعاة: ٤٢٢/١

ثالثاً: صفاته

إنّ وضوح الصفة الذاتيّة لأدب ابن خفاجة جعلت منه مرآة واضحة لصفاته، وقد انعكست فيها صفتان خَلقيّتان ماديّتان هما النحول والسمرة، قال في وصف الرمح:

وَمُثَقَّفٌ لَدنُ المَهَزِّ يَشُوقُهُ ... ما شاقَني فَإِذا اهْتَزَزْتُ تَأَطَّرا

وَقَدِ اشتَبَهنا سُمْرَةً وَنَحافَةً ... فَلَوِ التَفَتَّ لَمَا عَرَفْتَ الأَسْمَرا[1]

أمّا الصفات الخلقيّة المعنويّة فهي الأكثر ، فكثيراً ما تتبدّى الصفات الانفعاليّة الحارّة في شعره، وكثيراً ما يصف نفسه بالشجاعة والفتوّة والفروسيّة، وقد وجدنا ذلك مراراً، في عشق الفرسان ولهوهم، هذا اللهو الذي كان في مرحلة الشباب، وبحدود معيّنة مقبولة في مجتمعه وعصره، وفي قبالة ذلك لا نجد أيّ عبث بالدين وفرائضه، بل كان يؤدّي فروضه ويذكر الله تعالى ويتوكّل عليه ،كقوله في رسالة يصف عودته إلى دياره: «وَذِكْرُ اللهِ- تَعَالَى- مِلْءُ الصُّدُورِ وَالأَفْوَاهِ وَشِعَارُ الأَلسِنَةِ وَالشِّفَاهِ. وَمَا كُنَّا لِنَعْبُرَ مَسَافَةَ تِلْكَ المَجَابَةِ، إِلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ، وَعَطْفَةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ، وَنَظْرَةٍ مِنْ رَحِيمٍ كَرِيمٍ. وَتَلافَانَا اللهُ بِحَافِلٍ نُعْمَاهُ، وَشَامِلٍ رُحْمَاهُ...

وَلَمَّا قُمْتُ لأَدَاءِ المَكْتُوبَةِ، فَتَلَقَّيْتُ بِوَجْهِي الأَرْضَ، وَقَضَيْتُ الفَرْضَ»[2].

وقد وصفه الرشاطي بـ «الطبع الكريم والهدي القويم»[3].

ومن أهمّ ما تميّز به ابن خفاجة من صفات هو النبل والعزّة والمروءة والأنفة، فهو يرى نفسه من الجلّة النبهاء، والأعيان النبلاء لذلك صار شاعراً، وقال: «أَعْتَقِدُ أَنَّ الشِّعْرَ مِنْ خِلالِ الجِلَّةِ، وَحِلْيَةِ النُّبَلاءِ العِلْيَةِ»[4]، وبذلك وصفه ابن دحية فقال: «من أعيان مدينة شقر».

---

١ – الديوان: ٢٥٦.

٢ – الديوان: ٣٠٤ – ٣٠٦.

٣ – التكملة: ١٧٦

٤ – الديوان: ٦

ووصف ابن الأبّار ابن خفاجة بأنّه «كان نزيه النفس»[1]، فقد كان يحترم نفسه ويصونها ويوقّرها، لا يرضى لها ما ينقصها ويشينها، فكان يأبى أن يعامل معاملة الرعيّة، أو يتعسّف بأمر الحريّة، وقد ذكر ذلك غير مرّة في خطابه لأمراء المرابطين كقوله: إنّي «مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ، مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُوَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا»[2].

ويتجلّى –كذلك – في عدم إراقة ابن خفاجة ماء وجهه في الطلب والإلحاح والكدية، بل كان زاهداً بما في أيدي الناس، غنيّاً عنهم ، وكان قنوعاً بما كتبه الله، وقد ذكر ذلك مفصلاً مرّة ومجمِلاً مرّة ثانية في قوله: «مَعَ اقتناعٍ، قامَ مقامَ اتّساعٍ، فأَغناهُ عنْ تبذُّلٍ وانتجاعٍ»[3].

لقد كان ابن خفاجة متميّزاً في خصاله ، رفيعاً في شمائله، متأنّقاً في تعامله حتّى مع الباعة في انتقاء طعامه، فقد ذكر ابن عميرة الضبّيّ أنّه: «كان يأتي الجزيرة إلى المعالج الذي يبيع الفاكهة فيساومه، فإذا سمّى له عدداً أو وزناً نقصه من ذلك العدد أو الوزن على شرط أنّه يختار ما أحبّ بيده»[4].

وكان يتعامل ابن خفاجة مع الناس عامّة وخاصّة بمودّة وأدب عالٍ، ولا يتكبّر عليهم، ولا يرى نفسه أعظمهم، يقول في قصيدة حماسيّة بعد وصف أصدقائه بأوصاف هائلة:

وَإِنِّي عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرَ قَنَاتِهِمْ لَخِدْنُ العُلَا تِرْبُ النَّدَى لِدَةُ المَجْدِ[5]

وكان ابن خفاجة يقوم بمدّ يد العون لأهل بلدته والمحتاجين بمروءة وطيبة ظاهرتين في شعره ونثره[6].

---

١ – التكملة: ١٧٦.

٢ – الديوان: ٩٥.

٣ – الديوان: ٢٩٠.

٤– بغية الملتمس: ١٩٨.

٥ – الديوان: ٣٢٩.

٦ – الديوان: ٣٢١. وانظر: ٢٣٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢.

رابعاً: تلاميذه

كان ابن خفاجة يروي بعض الحديث وشعره لطلبته، وثمّة إشارات يسيرة في بعض كتب التراجم إلى عدد من تلاميذه الذين رووا وأخذوا عنه، أو حملوا ديوانه عنه، أو قرؤوا شعره عليه، ومنهم:

١- **علي بن أحمد بن الباذش** (ت ٥٢٨ هـ)

ذكر ابن الأبّار وابن عبد الملك (ت٧٠٣هـ) أنّه روى عن ابن خفاجة الشاعر[١].

٢- **محمّد بن عبد الرحمن الكتندي** (ت ٥٨٣ هـ)

ذكر كلّ من ابن الأبّار والذهبيّ والصفديّ أنّه لقي ابن خفاجة فأخذ عنه[٢].

٣- **اليسع بن عيسى الغافقي** (ت ٥٧٥ هـ)

ذكر كلّ من الذهبي وابن حجر العسقلاني أنّه روى عن ابن خفاجة[٣].

٤- **يعقوب بن محمّد الشقري** (ت ٥٨٤ هـ)

ذكر الحافظ الذهبي أنّه صحب ابن خفاجة وحمل عنه[٤].

٥- **يحيى بن محمّد الأركشي** (ت ٥٨٦ هـ)

عرّفه ابن سعيد أنّه «هو راوية ابن خفاجة»[٥].

٦-**إبراهيم بن يوسف بن قرقول الحمزي** (ت ٥٦٩ هـ)

ذكره ابن الأبّار وصلاح الدين الصفدي، وقال الحافظ الذهبي: «أخذ عن أبي إسحاق الخفاجي ديوانه»[٦].

٧- **أبو يوسف يعقوب بن طلحة ، وغيرهم**. ذكرهم ابن الأبّار[٧]

---

١ – التكملة: ١٧٦، الذيل والتكملة: ١٦٦/١ ، وانظر المعجم في أصحاب الصدفي: ٢٨٧

٢ – التكملة: ١٧٦، تاريخ الإسلام: ١٦١/٤١، الوافي بالوفيات: ١٩٢/٣، المطرب: ٨١.

٣ – تاريخ الإسلام: ١٦٤/٤٠ ، لسان الميزان: ٢٩٩/٩.

٤– تاريخ الإسلام: ٢٠٦/٤١ ، المطرب: ٩٤ ، ١١٤.

٥ – المغرب في حلى المغرب: ٣١٦/١. وانظر: تاريخ الإسلام: ٢٥٨/٤١

٦ – تاريخ الإسلام: ٣٣٢/٣٩. التكملة: ١٧٦، الوافي: ١٠٩/٦

٧ – التكملة: ١٧٦.

القسم الثاني أدبـــــه

أولاً: الثناء على شعره ونقده

١ – الثناء على شعره

كما كان ابن خفاجة ظاهرة فريدة في حياته كان كذلك شعره الذي انتشر في المشرق والمغرب وطبّقت شهرته الآفاق، وتداول الناس ديوانه بسنده إليه وتنافسوا فيه، كما ذكر ابن الأبّار في التكملة: «وديوان شعره متنافس فيه، مرويّ عنه»[١].

وقال ابن خلّكان: «وله ديوان شعر قد أحسن فيه كلّ الإحسان»[٢]. وقال الحافظ الذهبيّ: «له ديوان مشهور»[٣]، وقال: «وديوانه موجود بأيدي الناس»[٤].

وقد أثنى النقّاد الأندلسيّون والمشارقة على شعر ابن خفاجة في حياته وبعد مماته ثناء كثيراً، وقد أسبغ عليه الثناء معاصروه الأندلسيّون ولاسيّما ابن خاقان (ت ٥٢٩هـ)، فقال في ترجمته الموسّعة له، وقد قدّمه على جميع الأدباء والشعراء في قسم تراجم «بدائع نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء»:

«مالك أعنّة المحاسن وناهج طريقها، العارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها الراقم لبرودها، المجيد لإرهافها، العالم بجلائها وزِفافها، تصرّف في فنون الإبداع كيف شاء، وأتبع دلوه في الإجادة الرشاء، فشعشع القول وروّقه، ومدّ في ميدان الإعجاز طُلُقَه، فجاء نظامه أرقّ من النسيم العليل، وآنق من الروض البليل، يكاد يمتزج بالروح، وترتاح إليه النفس كالغصن المروح، إن شبّب فغمزات الجفون الوطف، أو إشارة البنان التي تكاد تعقد من اللطف، وإن وصف سراه والليل بهيم ما فيه وضوح، وخدّ الثرى بالندى منضوح، فناهيك من غَرَض انفرد بمضماره، وتجرّد لحمى ذماره، وإن مدح فلا الأعشى للمحلّق، ولا حسّان لأهل جلّق، وإن تصرّف في فنون الأوصاف، فهو فيها كفارس

---

١ – التكملة: ١٧٦

٢ – وفيات الأعيان: ٥٦/١، الوافي بالوفيات: ٥٥/٦.

٣ – سير أعلام النبلاء: ٥٢/٢٠.

٤ – تاريخ الإسلام: ٣١٣/٣٦.

خَصَاف... وقد أثبتُّ له ما يقف عليه اللواء، وتصرف إليه الأهواء»[1].

ومنهم ابن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) الذي اختلط بعض عباراته بعبارات ابن خاقان، ولا نعلم من هو صاحبها على وجه التحديد، ممّا لا داعي لتكرارها، قال: «في ذكر الأديب أبي إسحاق إبراهيم ابن خفاجة:الناظم المطبوع، الذي شهد بتقديمه الجميع، المتصرّف بين حكمه وتحكّمه البديع... نشأ ببلاد الجانب الشرقي من الأندلس فلم يذكر معه هناك محسنٌ... وهو اليوم بمطلعه من ذلك الأفق، يبلغني من شعره ما يُبْطل السحر، ويعطّل الزهر، وقد أثبتُّ بعض ما وقع إليّ من كلامه فتصفّحْه تعلمْ أنّه بحر النظام، وبقيّة الأعلام»[2].

وقال فيه ابن بشكوال (٤٩٤ – ٥٧٨ هـ) الذي أدركه قرابة أربعة عقود: «هو حامل لواء الشعر بالأندلس، والإمام فيه غير مدافع، فإنّه سلك فيه طريق الحلاوة والجزالة.. وله مقطّعات ترويها الرقاع، وتزدان بسماعها الأسماع»[3].

ومنهم الحجاريّ (ت ٥٨٤ هـ) الذي قال عن ابن خفاجة: «هو اليوم شاعر هذه الجزيرة، لا أعرف فيها شرقاً ولا غرباً نظيره»[4].

وقال ابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) في تكملته:« وكان عالماً بالآداب، صدراً في البلغاء، متقدّماً في الكتّاب والشعراء، يتصرّف كيف يريد، فيبدع ويجيد ناظماً وناثراً، ومادحاً وراثياً، ومشبّباً ومشبّهاً»[5].

ووصفه الحافظ الذهبيّ (ت ٧٤٨ هـ) بأنّه « شاعر وقته»[6]، وله «النظم المفلق، والنثر الرائق»[7].

---

١ – قلائد العقيان: ٤/٧٣٩ – ٧٤٠.

٢ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣/٢/٥٤١ – ٥٤٢.

٣ – الصلة: ٩٩.

٤ – المغرب في حلى المغرب: ٢/٣٦٧.

٥ – التكملة: ١٧٦

٦ – سير أعلام النبلاء: ٢٠/٥٢.

٧ – تاريخ الإسلام: ٣٦ /٣١٣

٢– نقد شعر ابن خفاجة

ثمّة لمحات نقديّة سريعة تحدّد شعر ابن خفاجة، وتصفه وتبيّن مكامن الجودة فيه، وتتجاوز ذلك لتبيّن أخذ ابن خفاجة من سابقيه، وأخذ من تلاه عنه، فقد قال صلاح الدين الصفدي عنه: «وهو ممّن أجاد الاستعارة»[١].

وتطرّق الشاعر الناقد حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) لمن له قوّة التشبيه في جميع كلامه من الشعراء أو في أكثره فقال:« ومن أئمّة هذا الصنف:الشريف، ومهيار، وابن خفاجة»[٢].

وذكر حازم أنواع الشعراء وأنماطهم فرأى أنّ بعضهم يمشي على نهج غيره، «ومنهم من اختصّ بمنزع يتميّز به شعره من شعر سواه، نحو منزع مهيار ومنزع ابن خفاجة»[٣].

ووصف ابن الزبير (ت ٧٠٨ هـ)شعره فقال: له «شعر سلس»[٤].

وأشار ابن الأبّار إلى أنّ ابن خفاجة استفاد من شعر من سبقه من الشعراء، وأمّا ما أُخذ من صور ابن خفاجة ومعانيه فهو أكثر بكثير.

وقال ابن حجّة الحمويّ (ت ٨٣٧ هـ) «وهذا المعنى مولّد من قول ابن خفاجة الأندلسي»[٥].

وجعل بعض النقّاد ابن خفاجة مقياساً للشعر الجيّد كقول ابن سعيد الأندلسي عن ابن قزمان الزجّال (ت ٥٥٤ هـ): إنّه ترك نظم الشعر وانتقل منه إلى الزجل لأنّه رأى نفسه:« تقصّر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره»[٦].

---

١ – الوافي بالوفيات: ٥٥/٦

٢ – منهاج البلغاء: ٣٤٣

٣ – المصدر نفسه: ٣٦٦.

٤ – بغية الوعاة: ٤٢٢/١.

٥ – خزانة الأدب: ٥٠/١. وانظر معاهد التنصيص: ١٥٨/٢، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة: ٥٥٦/٢. نفح الطيب: ١٦١/٧.

٦ – المغرب في حلى المغرب: ١٠٠/١.

وقال الصفديّ عن الشاعر الأندلسيّ محمّد بن أحمد البرتانيّ البلنسيّ (ت٥٣٣ هـ): «كان من طبقة ابن خفاجة في الأندلس»[١].

ووصف ابن الخطيب شعر ابن زمرك بأنّه «خفاجيّ النزعة، كلف بالمعاني البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزير المادّة»[٢].

وثمّة رأي غريب نقله ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عن شيوخه يعيب فيه كثرة معاني ابن خفاجة وازدحامها، واستغلاق بعضها على الفهم، مع اعترافه بكون ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس، قال:

«ولا يكون الشعر سهلاً إلّا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن، ولهذا كان شيوخنا – رحمهم الله – يعيبون شعر أبي إسحاق ابن خفاجة – شاعر شرق الأندلس – لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد»[٣].

ولعلّه مديح بما يشبه الذمّ ، إذ لا تذمّ كثرة المعاني ولا الصور الفنّيّة بل قلّتها، أو هو فهم قاصر في مرحلة معيّنة لطبيعة الشعر ووظيفته، ساد فيها الاهتمام بالصبغ البديعي وطغى على ما سواه.

٣– ملامح نقديّة عند ابن خفاجة

ربّما علم ابن خفاجة أنّ بعض شعره يحتاج إلى شرح فقام بشرح بيت وضبط آخر وعلّق على ثالث، وقدّم لجميع قطعه وقصائده بمقدمات توضّحها كما ذكرنا، فقال ابن خفاجة شارحاً البيت الأخير من قصيدته في تهنئة القاضي ابن عصام بعوده إلى خطّة القضاء ، وتعريضه بحاسده:

« مـــا غَـــصَّ بِالدَّمْعَـــةِ إِلَّا هَفَـــا فَـــانظُر تَجِـــدْ ثَمَّ السِّـــوَارَ والوِشَـــاحْ

شأن حلية الأذرع والأسوُق أنْ توصف بالغَصَص والشَّرَق، كما أنّ حلية الآذان

---

١ – الوافي بالوفيات: ٦٨/٢.

٢ – الإحاطة: ٣٠٣/٢.

٣ – تاريخ ابن خلدون: ٧٩١/١.

والخصور توصف بالجَولان والقَلَق. فالمعنى أنَّ هذا الحاسد قد جمع بين الشَّرَق والقَلَق، فهو كلّ واحد من هذين الموصوفين في حالة واحدة»[1].

وقال ابن خفاجة معلّقاً على البيت الأخير من قطعة شعرية له، وهو:

فَرَغِبتُ عَن نَورِ الصَباحِ لِزَوْرَةٍ أُغْرَى لَها بِنَفسَجِ الظَلْماءِ

نَوْر الصباح في البيت الأخير من القطعة المهموزة ثبّت فيها مفتوحَ النون، وسيُغيّر فينشد – لا محالة – مضموم النون، فينقص رونق البيت»[2].

فابن خفاجة ضبط البيت بالفتح ونبّه على ذلك، خشية من تغييره، وذلك ليحافظ على الصورة الفنّيّة المتّسقة في طرفي البيت الشعريّ، ولئلّا ينقص معنى البيت وتختلّ صورته، ممّا يدلّ على علم عميق بفنّ الشعر وصنعته.

وعلّق ابن خفاجة على بعض أبياته الشعرية وبيّن مصدر بعض صوره، وناقش ونقد نقدَ أديب ولغويّ عارف متمكّن قال:

«قوله في هذه القصيدة: "وَنَزَلتُ أَعتَنِقُ الأَراكَ مُسَلِّما"

ينظر إلى قول أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا

والقسم الآخر من هذا البيت من الكلام الموجز – وهو تضمين جميع معنى قول أبي الطَّيِّبِ في بيان المعنى بقوله «نزلتُ مُسَلِّمَا» – غنيّ بالإشارة عن العبارة. وهلْ نزل مسلّماً إلَّا إجلالاً للديار، وتكرمة للرسوم والآثار؟ ثمّ إنّه لمّا مشى في قصيدته شيئاً، عطف بنحوه، وأتى ببيتين مع زيادة وإفادة، وهما قوله:

في مَنزِلٍ ما أَوطَأَتْهُ حَافِراً عُرْبُ الجِيادِ وَلا المَطَايَا مَنْسِمَا

---

١ – الديوان: ١٦٧.

٢ – الديوان: ١٥٤ ، وانظر: ١٦٧.

أَكرَمتُـــهُ عَـــنْ أَن يُـــذَالَ بِوَطْـــأَةٍ وَلِمِثلِـــهِ مِـــنْ مَنـــزِلٍ أَن يُكْرَمـــا

فجمع بين المراكب من خيل وإبل. ولـمّا فرغ من المعنى في صدر البيت الثاني، تمّمه بقوله: «وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما » فإنّه قد يكرم غير كريم، ويجلّ غير جليل.

وفي بيت الـمُتَنَبِّي لفظة تغضّ من شرفه، وهي لفظة «من»، وهي ها هنا مستجفاة، لا مستحلاة، ولو أنّه قال:

نَزَلْنَـا عَـنِ الأَكْـوَارِ نَمْشِـيْ كَرَامَـةً لِأَهْلِيْـهِ أَنْ نَغْشَـى رُسُـوْمَهُمُ رَكْبَـا

لجاء البيت أتمّ جلالة وجزالة، لكنّ أبَا الطَّيِّبِ إنّما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالألفاظ. وربّما قال قائل: للفظة «بان» معنى في البيت. فيقال له: إنّ لفظة الرسوم تعطي ما تعطيه لفظة «بان» من إقواء المنزل، فاللفظان متساويان هنا.

وربّما أنكر علينا منكر ما أوردناه في لفظة «من»، إمّا لاعتياده إنشاد البيت حسب ما وقع حتّى ألفته نفسه وطبعه، واستساغه لسانه وسمعه، وإمّا لجساوة في حسّه، وغباوة في نفسه، وذلك ما ليس في رفع أَوَدِه من أمل، ولا عمل.

والدليل على ما ذكرناه في لفظة «من»، أنّك تجد قولك « لقيت من ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت الذي ضرب زيداً»، وقولك «لقيت الذي ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت ضارب زيد». وكلّ ذلك إنّما ينزل في النفس عن مرتبة الجلالة لا عن المعنى.

وربّما حمل علينا حامل فقال: إنّ هذا الرجل يتعاطى رتبة في الشعر فوق رتبة الـمُتَنَبِّي. وليس الأمر كذلك، لأنّه لم يعترضه في جملة شعره، وإنّما اعترضه في لفظة، وهذا ليس بمستنكَر ولا بمستكبر»[1].

وثمّة خبر آخر أورده ابن الأبّار في " معجمه " يدلّ على حسّ ابن خفاجة النقدي الثاقب النافذ، وهو أنّه سمع بيتين لأبي الحسين العاصمي (ت٤٨٢ هـ) في الطواف يقول

١ – الديوان : ٢٨٣ ، ٢٨٤، ٢٨٥.

فيهما:

وحـرّمَ غمضـي والحجـيجُ علـى مِـنى غـــزالٌ رأينـــاهُ بمكّـــةَ مُحْرِمَـــا

رَمَـى وهـوَ يَسـعى بالجمـارِ وإنَّمَـا رَمَـى حبّـةَ القلـبِ المعـذَّبِ إذْ رَمَـى

فغيّر ابن خفاجة عبارة "حبّة القلب" إلى "جمرة القلب" فيما ذكره أستاذه عتيق بن أسد، فصارت النتفة تنشد كما أصلحها ابن خفاجة[1].

وتتجلّى رؤيته النقديّة للشعر عامة، في خطبة ديوانه حيث ذكر أجزاء الشعر:

«وَالشِّعْرُ، وَإِنِ اهْتُبِلَ بِهِ وَاعْتُمِلَ فِيهِ، لَيْسَ يَخْلُو جَيِّدُه مِنْ سَقَطٍ، وَانْقِسَامٍ إلى طَرَفَيْنِ وَوَسَطٍ، فَإِنَّ الأَذْهَانَ بِأَخْرَةٍ تَكِلُّ، وَالمَوَادَّ مِنْ ألفَاظٍ وَقَوَافٍ تَقِلُّ. وَأَيْضاً، فَكُلُّ مَا يَنْشَأُ مِنْ أَجْزَاءٍ مُؤْتَلِفَةٍ، فَإِنَّمَا يَتَرَكَّبُ مِنْ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ.

وَالشِّعْرُ يَأْتَلِفُ مِنْ مَعْنىً ولَفْظٍ وَعَرُوضٍ وَحَرْفٍ رَوِيٍّ، فَقَدْ يَتَعَاصَى فِي بَعْضِ الأَمْكِنَةِ جُزْءٌ مِنْ هذِهِ الأَجْزَاءِ أَوْ أَكْثَرُ، فَطَوْراً يُنْظَمُ البَيْتُ وَآوِنَةً يُنْثَرُ، حَتَّى يَنْتِظِمَ بِحَسَبِ المَأْمُولِ، أوْ يَنْشَأَ نَاقِصَ مَاءِ الحُسْنِ وَالقَبُولِ:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ»[2]

ثمّ وضّح قضيّة جوهريّة في الشعر وهي أن المقصود من الشعر التخييل لا الصدق ولا الكذب، قال:« يُسْتَجَازُ فِي صِنَاعَةِ الشِّعْرِ، لا فِي صِنَاعَةِ النَّثْرِ، أَنْ يَقُولَ القَائِلُ فِيهِ "إِنِّي فَعَلْتُ" وَ "إِنِّي صَنَعْتُ"، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، فَإِنَّ الشِّعْرَ مَأْخَذٌ وَطَرِيقَةٌ، وَإِذَا كَانَ القَصْدُ فِيهِ التَّخْيِيلَ، فَلَيْسَ القَصْدُ فِيهِ الصِّدْقَ، وَلَا يُعَابُ فِيهِ الكَذِبُ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَهَذَا السَّرْدُ مِنَ الكَلامِ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ أَهْلُهُ، وَمَنْ شَأْنُهُ عَقْدُهُ وَحَلُّهُ»[3].

وابن خفاجة أهل للكلام في ذلك بملء فيه.

---

١ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي: ٣٠٤ – ٣٠٥.

٢ – الديوان: ٩.

٣ – الديوان: ١٠.

ثانياً: آثاره

١- تأليف لغوي:

نقل جلال الدين السيوطيّ عن ابن الزبير في كتابه "صلة الصلة" أنّ لابن خفاجة «تآليف لغويّة»[١]، ولكنه لم يذكر لنا أسماءها ، ولم يشر إلى محتوياتها.

وذكر الحافظ الذهبي في ترجمته لابن خفاجة أنّه: «له تأليف في غريب اللغة»[٢]، ولا نعرف عن هذه الكتب أو هذا الكتاب شيئاً، بيد أنّ اهتمام ابن خفاجة باللغة واضح، ومعرفته واسعة بها، تبدّى في غنى مفرداته اللغويّة وسلامة تركيبه اللغويّ، وظهر في تعليقاته النقديّة[٣].

وثمّة رسالة لابن خفاجة فريدة في نوعها استعمل فيها المصطلحات النحويّة والصرفيّة وبعض المصطلحات العروضيّة من أوّلها إلى آخرها:

«وكانت بينه وبين بعض إخوانه مقاطعة ، فاتّفق أن ولي ذلك الصديق حصناً فخاطبه أبو إسحاق برقعة منها: أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي، النَّبِيهَةِ أَوْصَافُهُ النَّزِيْهَةِ عَنِ الاسْتِثْنَاءِ، المَرْفُوعَةِ إِمَارَتُهُ الكَرِيمَةِ بِالابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمِّ.

كَتَبْتُ عَنْ وُدٍّ قَدُمَ هُوَ الحَالُ لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرُمَ هُوَ الفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ اعْتِلالٌ، وَاللهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الحُرُوفِ الجَازِمَةِ، وَإِنَّمَا أَسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ، إِلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ، بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الوَصْلِ وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الفَصْلِ، وَإِلَى عُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ القَطْعِ، إِلَى بَابِ أَلِفِ الوَصْلِ وَالجَمْعِ، حَتَّى تَسْقُطَ لِدَرْجِ الكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ، وَيَدْخُلَ الانْتِقَالَ حَالُ الصَّمْتِ»[١].

١- بغية الوعاة: ٤٢٢/١.

٢ - تاريخ الإسلام: ٣١٣/٣٦.

٣ - الديوان: ٢٨٣ ، ٢٨٤.

١ - الديوان: ٣٢٦.

٢– مقامة

في الديوان ما نصّه: «وقال من مقامة في صفة سيل حدث بالجزيرة سنة ثمانين وأربعمئة»[١]، بيد أنّه في بعض نسخ مخطوطاته: "مقالة " بدل "مقامة ".

٣– رسائله النثرية

ثمّة قسم من رسائل ابن خفاجة الأدبيّة في ديوان شعره الذي جمعه ابن خفاجة وضمّ إليه «بعض ما اقترن به من نثره»[٢]، وقسم آخر منها في بعض كتب التراث الأندلسيّ والمشرقي، ولاسيّما "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ثمّ "خريدة القصر وجريدة العصر"، و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"[٣].

٤– ديوان شعره

وصل إلينا ديوان شعريّ لابن خفاجة على قدر كبير من الأهمّيّة، لأهمّيّة هذا الشعر ذاته، ولأنّه من صنع مؤلّفه وناظمه، وقد جمعه في منتصف العقد السابع من عمره قال: «وَلَمَّا ارْتَقَتْ بِي السِّنُّ مُرْتَقَاهَا، وَشَارَفَتِ الحَيَاةُ مُنْتَهَاهَا، وَتَوَالَتْ رَغْبَةُ الإِخْوَانِ فِيهِ تَتَجَدَّدُ، وحِرْصُ الأَعْيَانِ عَلَيْهِ يَتَأَكَّدُ، تَوَخَّيْتُ أَنْ أَقْصُرَهُ، فِي مُجَلَّدٍ وَأَحْصُرَهُ، وَأَحْشُرَهُ جُمْلةً وَأَنْشُرَهُ. وَكَانَ قَدْ بَادَ، أَوْ كَادَ، لِدُثُورِ رِقَاعِ مُسْوَدَّاتِهِ، وَإِخْلاقِ حَوَاشِي تَعْلِيقاتِهِ. وَاقْتَضَى النَّظَرُ فِيمَا حَاوَلْتُهُ أَنْ أَتَعَهَّدَهُ ثَانِياً تَعَهُّدَ مُؤَلِّفٍ، وأَتَفَقَّدَهُ عَائِداً تَفَقُّدَ مُتَأَمِّلٍ مُثَقِّفٍ، فَمِنْهُ مَا تَعَهَّدْتُهُ فَقَيَّدْتُهُ، وَمِنْهُ مَا لَحَظْتُهُ فَلَفَظْتُهُ، وَمِنْهُ مَا تَصَفَّحْتُهُ فَأَصْلَحْتُهُ، إِمَّا لاسْتِفَادَةِ مَعْنىً، وَإِمَّا لاسْتِجَادةِ مَبْنىً. وَكَانَ قَدْ شَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَذَاعَ، فَمِنْ مُتَعَلِّقٍ بِنَفْسٍ، وَمِنْ مُعَلَّقٍ فِي طِرْسٍ. وَسَيَخْتَلِفُ وُجُودُهُ بِمَا عَاوَدْنَاهُ مِنْ مُفْتَقَدِهِ وَمُنْتَقَدِهِ، فَلا يَوجَدُ وَاحِداً، لا مِنْ طَرِيقِ صِيغَتِهِ، وَلا مِنْ جِهَةِ عَدَدِهِ»[١].

---

١ – الديوان: ٣٠٨.

٢ – الديوان: ٥.

٣ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٤٢/٢/٣ – ٥٦٢، خريدة القصر: ٥٤٨/٢ – ٥٥٢، مسالك الأبصار: ٩١ – ٩٣.

١ – الديوان: ٨–٩.

إذاً فهذا الديوان الذي جمعه ابن خفاجة بنفسه لا يحوي كلّ شعره الذي قاله؛ بل قد حذف منه ما لم يرق له مستواه الفنّيّ أو ما لا يريد إظهاره.

ثمّ وعد أن يجعل ديوانه مرتّباً على حروف الهجاء إن أطال الله تعالى عمره[1]، ولعلّه فعل، فقد قال ابن بشكوال: «جمع ذلك في جزء فائق على حروف المعجم»[2] ولكنّ النسخ المخطوطة التي حقّق عليها الديوان غير مرتّبة.

ثالثاً: رسائله

جمع ابن خفاجة أكثر شعره في ديوان، وضمّ إليه شطراً من رسائله النثريّة المتعلّقة بهذا الشعر غالباً ، وصدّر ديوانه بخطبة نقديّة مطوّلة مهمّة تتحدّث عن مفهومه للشعر وتجربته الشعريّة المتفرّدة.

وقد وضع ابن خفاجة لأكثر مقطوعاته وقصائده التي جمعها في ديوانه مقدّمات نثريّة توضّحها وتذكر مناسبتها وغرضها ، وربّما علّق على بعضها تعليقاً نثريّاً نقديّاً أو لغويّاً، وقد أورد ما أبدعه من شعر ونثر بحسب صدورهما عنه لينشّط ذهن القارئ ويروّح عنه، ويبعد الملالة منه من توالي النظم، قال: «وَإِنَّ مِنْ قَوْلِنَا مَا كُنَّا قَدِ افْتَتَحْنَاهُ بِمَنْثُورٍ، وَوَشَّحْنَاهُ بِفقَرٍ مُزْدَوَجَةٍ وَشُذُورٍ. وَهَا نَحْنُ قَدْ أَوْرَدْنَاهُ، كَمَا كُنَّا سَرَدْنَاهُ، وَنَقَلْنَاهُ، بِحَسَبِ مَا قُلْنَاهُ، تَعَلُّقاً بِحُرٍّ مِنَ النَّثْرِ يُسَاقُ خِلالَ النَّظْمِ، وَيَنْتَقِلُ مُطَالِعُهُ عَنْ قِسْمٍ مِنَ الكَلامِ إِلَى قِسْمٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ أَبْسَطُ لِلنَّفْسِ وَأَنْشَطُ، وَأَذْهَبُ مَعَ الأُنْسِ وَأَهْذَب»[3]. وذكر ابن فضل الله العمريّ (ت ٧٤٩ هـ) نثره فقال: «وله نثر كثير، وآخى فيه نظمه، وإن كان ما زاد عليه رونقاً، وجرى لا تردّه القافية متدفّقاً، ولا إخال الدرّ يؤاخيه، ولا أراه في الحسن دون أخيه»[1].

---

١ – الديوان: ١١.

٢ – الصلة: ٩٩.

٣ – الديوان: ١٠.

١– مسالك الأبصار: ٩١.

١– الرسائل الديوانيّة:

لم يكن ابن خفاجة كاتباً من كتّاب الإنشاء في ديوان أحد من الأمراء المرابطين أو الولاة أو الوزراء أو القضاة، بل كان يرى نفسه فوق ذلك، لكنّ بعض الرسائل النثريّة قد تكون جزءاً مكمّلاً لقصيدة المديح الرسميّة بما فيها من تهنئة وشكر[١]، وبما أنّ أماديحه للأمراء المرابطين لم تكن من باب الإخوانيّات لذلك فإنّ الرسائل الملحقة بها لا تعدّ كذلك، وقد تكون هذه الرسائل توضيحاً لأمر معيّن أو تأكيداً لطلب محدّد لمّح إليه في القصيدة كما رأينا سابقاً في قصائده للأمراء إبراهيم وتميم وابن تيفلويت[٢].

وقد تكون القطعة النثريّة الديوانيّة مفردة مكتفية بذاتها تؤدي وظيفتها بنفسها من دون شعر، وهو الأقلّ كرسالته إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين التي كتبها نيابة عن أهل بلده؛ يشكره على إعادة القاضي ابن عصام إلى منصبه قال ابن خفاجة:

«كِتَابُنَا هَذَا مِنَ المَسْجِدِ الجَامِعِ –عَمَّرَهُ اللهُ بِذِكْرَاهُ– وَقَدْ حَضَرَهُ المَلأُ – أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِتَقوَاهُ– تَطَلُّعاً إلى مَا وَرَدَ بِهِ الكِتَابُ العَزِيزُ في جِهَةِ قَاضِي القُضَاةِ –وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَهُ– فَمِنْ أَسْمَاعٍ تُنْصَبُ وَتُؤَلَّلُ، وَمِنْ أَوْجُهٍ تَسْتَشْعِرُ المسَرَّةَ فَتُهَلِّلُ، فَمَا تُلُقِّيَ مُفْتَتَحاً بِمَا يَلْزَمُ مِنَ الإجْلالِ والاهْتِبَالِ، حَتَّى قُفِّيَ مُخْتَتَماً بِمَا يَتَعَيَّنُ مِنَ الدُّعَاءِ والابْتِهَالِ»[٣].

٢– الرسائل الإخوانيّة:

هي الرسائل التي تبادلها مع أصدقائه من الأدباء والعلماء والقضاة والوزراء في موضوعات كثيرة؛ أهمّها التهنئة والشكر، والتقريظ، والحنين، والعتاب، والشكوى، والتعزية، والشفاعة، والاستدعاء، والاستهداء، والإهداء، وأقرب ما يعبّر عن أسلوبه وحياته في شبابه قوله في استدعاء مغنّ:

«إِنَّ لِلطَّرَبِ– أَعَزَّكَ اللهُ– جِسْماً وَنَفْساً، يُسَمَّيَانِ سَمَاعاً وَكَأْساً. وَقَدْ حَضَرَتْنَا

---

١ – الديوان: ٢٧ ، ٩٠ ، ١٨٨.

٢ – الديوان: ٢٩٦ ، ٩٤ ، ١٧٠.

٣ – الديوان: ١٦٩ ، ١٧٠.

خَمْرَةٌ، كَأَنَّهَا جَمْرَةٌ، قَدْ تَنَاسَبَتْ سَوْرَتُهُمَا، كَمَا تَضَارَعَتْ فِي الخَطِّ صُورَتُهُمَا:

لَـوْ تَـرَى الشَّـرْبَ حَوْلَهَـا مِـنْ بَعِيْـدٍ قُلْـتَ قَـوْمٌ مِـنْ قِـرَّةٍ يَصْـطَلُونَا

فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْنِسَ، وَتُطْرِبَ الـمَجْلِسَ، فَتُجْرِيَ فِي ذَلِكَ الجِسْمِ الكَرِيْمِ رُوْحَهُ، وَتُحْضِرَهُ مِنْكَ مَسِيحَهُ، وَصَلْتَ، وَأَجْمَلْتَ»[1].

٣- الرسائل الأدبيّة:

هي الرسائل التي ألّفها ابن خفاجة لغرض فنّيّ لإشباع نزعته الوصفيّة، ولإثبات مقدرته الفنّيّة، وغالباً ما تمتزج مع الرسائل الإخوانيّة، ومن نماذجها المفردة وصفه النحلة والشهدة[2]، ووصفه للرياض كقوله:

«فَاحْتَلَلْنَا فِيْهِ خَضْرَاءَ، مَمْدُودَةَ أَشْطَانٍ، الأَغْصَانِ، سُنْدُسِيَّةَ رِوَاقِ، الأَوْرَاقِ. وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهُ بِبَرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيْمٍ عَلِيْلٍ، وَنُجِيلُ النَّظَرَ فِي نَهْرٍ صَقِيْلٍ، صَافِي لُجَيْنِ المَاءِ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ، مُؤْتَلِقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الأَحْبَابِ. وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِي مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا، وَيُغَنِّي لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا، فَصِيحُ لِسَانِ النَقْرِ، يَشْفِي مِنَ الوَقْرِ، كَأَنَّهُ كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، تَمْشِقُ يُمْنَاهُ، وَتَعْقِدُ يُسْرَاهُ:

يُحَـرِّكُ حِـيْنَ يَشْـدُو سَـاكِنَاتٍ وَيَبْتَعِـثُ الطَّبَـائِعَ لِلسُّـكُونِ»[3]

ومن هنا نجد أنّ أغراض النثر وموضوعاته عند أديبنا ابن خفاجة الذي يجمع فنّي الشعر والنثر لا تختلف كثيراً عن أغراض الشعر عنده إلّا أنّها تزيد عليها بموضوعات اجتماعيّة تتّصل بالحياة اليوميّة والأمور الشخصيّة ؛ كالإهداء والاستدعاء إلى مجلس، والتهنئة والشكر، وما إلى ذلك.

---

١ – الديوان: ٣١٦– ٣١٧

٢ – الديوان: ٣٢٥ – ٣٢٦.

٣ – الديوان: ٣١٧ ، ٣١٨.

رابعاً– أغراضه الشعريّة

١: الغزل

لم يعرف ابن خفاجة بحبّ امرأة معيّنة في حياته، ولا تغزّل بامرأة واحدة في شعره، بل نجد في ديوانه أسماء متعدّدة كعفراء وميّ وميّة وسليمى وأمّ مالك، ونعلم عنه أنّه لم يتزوّج مطلقاً، مع أنّه كان على قدر من اليسار والوفر، وفّر له حياة هانئة، ولم يشغله بهموم الحياة اليوميّة وتأمين لقمة العيش، بل يسّر له أجواء اللهو والحبور والتمتّع بمباهج الحياة، والانغماس في حمأتها ولاسيّما زمن الشباب، ثمّ أقلع عن ذلك وعاش عيشة قويمة وإن ظلّت أطياف الماضي تطلّ من نافذة الذكريات في شعره الغزليّ، لذلك فإنّ غزله ينقسم أقساماً متعدّدة:

١– من حيث الشكل:

يقع بعض غزل ابن خفاجة في مقطّعات مفردة، وبعضه يقع في مقدّمات قصائده المدحيّة بل إنّ بعضه بطلب الأمير نفسه كقول الوزير ابن الرقيق بعقب زيارته للأمير إبراهيم، «السلطان يريد أن تقول فيه شعراً تفتحه بالغزل»[١].

ومن الغريب النادر لديه أنّه قدّم لغرض الرثاء بمقدّمة غزليّة حماسيّة، وقدّم لها بقوله: «وممّا تصرّف فيه من الغزل إلى الرثاء قوله:

أَفِي مَا تُؤَدِّي الرِّيحُ عَرْفُ سَلامِ ... وَمِمَّا يَشُبُّ البَرْقُ نارُ غَرَامِ

وَإِلَّا فَمَاذَا أَرَّجَ الرِّيحَ سُحْرَةً ... فَأَذْكَى عَلَى الأَحْشَاءِ لَفْحَ ضِرَامِ

أَمَا وَجُمَانٍ مِنْ حَدِيثِ عَلاقَةٍ ... يَهُزُّ إِلَيْهِ الشَّيْخُ عِطْفَ غُلامِ

تَحَلَّتْ بِهِ مَا بَيْنَ سَلْمَى وَمَنْعِجٍ ... سَوَالِفُ أَيَّامٍ سَلَفْنَ كِرَامِ

لَقَدْ هَزَّنِي فِي رَيْطَةِ الشَّيْبِ هِزَّةً ... أَرَتْنِي وَرَائِي فِي الشَّبَابِ أَمَامِي

---

١ – الديوان : ١٠٦.

فَلـوْلا دِفَـاعُ اللهِ عُجْـتُ مَـعَ الهَـوَى وَجُلْـــتُ بِوَادِيـــهِ أَجُـــرُّ خِطَـــامِي

ثمّ يتحدّث مع نسيم الريح ، ويطلب منه أن يعوج على دار لهوه، ويسلّم على نداماه، وأن يخاطب الغمام ليظلّل الشاعر، ويبرّد مضجعه، ويبلّ ظمأه لفقد أترابه الكرام، فينتقل بذلك إلى رثائهم[1].

٢– من حيث النوع

ثمّة الغزل العفيف والغزل اللاهي ، والنوع الأوّل قليل، ولا يشي بأنّه عاش تجربة حبّ عميقة، ومن نماذجه:

لا وَالَّـــــذي تُجلَـــــى الكُـــــرو بُ بِـــــهِ وَتَنفَـــــرِجُ الخُطـــــوبْ
لا بِـــــتُّ إلَّا بَـــــيْنَ دَمـــــــ ـــــع يَنْهَمـــــي وَحَشـــــاً يَـــــذوبْ
حَـــــرّانَ أَنْتَشِـــــقُ النَّسِيـــــــ ـــــمَ وَنِعـــــمَ مَسْـــــلاةُ الكُـــــروبْ
لا تَلتَقِـــــي الأَجْفَـــــانُ فِيْـــــ ـــــكَ وَلا الـــــمَضَاجِعُ وَالجُنـــــوبْ
أَبَـــــداً أَحِـــــنُّ إلَيْـــــكَ شَـــــو قـــــاً كَالغَرِيْـــــبِ مَـــــعَ الغُـــــرُوبْ
وَأَقُـــــوْلُ لِلّـــــريحِ الجَنُـــــو بِ مَـــعَ الأَصـــيلِ صِـــلِي الهُـــبُوبْ
فَهَـــــلِ اســـــتَطَبتَ بِيَ الشَّـــــمَا لَ كَمَـــا اســـتَطَبتُ بِـــكَ الجَنُـــوبْ[2]

أمّا الغزل اللاهي الحسّيّ فهو الأغلب، ويكون في مقطّعاته وقصائده، وتتبدّى اللمحات الحسيّة من أوصاف دقيقة لجسد المرأة من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها، ومن إشارات إلى الضمّ والعناق والتقبيل حتّى في مقدّمات قصائد المديح، ويبدو أنّ ذلك كان مقبولاً لدى أمراء المرابطين منذ عهد الأمير عليّ بن يوسف بن تاشفين؛ كقول ابن خفاجة في نسيب مدحته للأمير تميم:

---

١ – الديوان: ٥٣.

٢ – الديوان: ٢٥١.

أَمَا وَالتِفَاتِ الرَّوْضِ عَنْ زَرَقِ النَّهْرِ وَإِشْرَافِ جِيدِ الغُصْنِ فِي حِلْيَةِ الزَّهْرِ

...

وَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيْلِ عَنْهَا وَإِنَّمَا رَفَعْتُ جَنَاحَ السِّتْرِ عَنْ بَيْضَةِ الخِدْرِ
وَقَبَّلْتُ مَا بَيْنَ المُحَيَّا إِلَى الطُّلَى وَعَانَقْتُ مَا بَيْنَ التَّرَاقِي إِلَى الخَصْرِ
وَأَطْرَبَ سَجْعُ الحَلْيِ مِنْ خَيْزُرَانَةٍ تَمِيلُ بِهَا رِيحُ الشَّبِيبَةِ وَالسُّكْرِ
غَزَالِيَّةُ الأَلحَاظِ رِيمِيَّةُ الطُّلَى مُدَامِيَّةُ الألمَى حَبَابِيَّةُ الثَّغْرِ
تَرَنَّحُ فِي مَوْشِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ كَمَا اشْتَبَكَتْ زُهْرُ النُّجُومِ عَلَى البَدْرِ
تَلاقَى نَسِيبِي فِي هَوَاهَا وأدمُعِي فَمِنْ لُؤْلُؤٍ نَظْمٍ ومِنْ لُؤْلُؤٍ نَثْرِ
وَقَدْ خَلَعَتْ لَيْلاً عَلَيْنَا يَدُ الهَوَى رِدَاءَ عِنَاقٍ مَزَّقَتْهُ يَدُ الفَجْرِ[1]

وبسبب الأوضاع الاجتماعيّة السائدة في ذلك الوقت، وخوفاً من العقاب والجزاء، لذلك فإنّ ابن خفاجة كثيراً ما يلحّ على جانب العفّة في علاقاته والبعد عن الريبة يقول مصرّحاً بذلك:

فَإِنَّني وَالعَفافُ مِن شِيَمي آبى الدَنايا وَأَعشَقُ الحَسَنا
طَوراً مُنيبٌ وَتارَةً غَزِلٌ أَبكي الخَطايا وَأَندُبُ الدِّمَنا
إذا اعتَرَت خَشيَةٌ شَكا فَبَكى أَو انتَحَت راحَةٌ دَنا فَجَنى[2]

ولكنّ للعفّة عنده مفهوماً آخر، «قال يتغزّل[3]:

وَلَيْلٍ طَرَقْتُ المَالِكِيَّةَ تَحْتَهُ أَجَدَّ عَلَى حُكْمِ الشَّبَابِ مَزَارَا
فَخَالَطْتُ أَطْرَافَ الأَسِنَّةِ أَنْجُماً وَدُسْتُ بِهَالاتِ البُدُورِ دِيَارَا

---

١ – الديوان: ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
٢ – الديوان: ١٢٢.
٣ – الديوان: ٨٤.

وَلَمْ تَـــكُ إِلَّا رَشْـــفَةً وَاعْتِنَاقَـــةً وَيُعْجِبُـــــني أَنِّي أَعِـــــفُّ إِزَارَا

ويعجب ابن خفاجة بعفّته الخاصّة غير مرّة:

وَقَـدْ لُثْـتُ بُـرْدِي عَلَـى عِفَّـةٍ وَيُعْجِبُـــنِي أَنَّـــنِي عَفُّـــهُ[1]

٤– من حيث الزمن

ثمّة قسم من غزل ابن خفاجة قاله في زمن الصبا والشباب، ونصّ على ذلك في التقديم لقطع من غزله كقوله: «وفي النحول، من قوله في الصبا:

بَهَـــرتَ جَمَـــالاً فَرُعْـــتَ البَصَـــرْ وَذُبْـــتُ سَـــقاماً فَفُـــتُّ النَّظَـــرْ

فَصِـــرْتُ إِذا أَمكَنَـــتْ لُقيَـــةٌ أُريـــكَ السُّـــهَا وَتُـــريني القَمَـــرْ[2]

وهو ممّا لا شكّ فيه يختلف كثيراً عن غزله بعد أن تجاوز الخمسين، إذ تتحوّل المغامرات إلى أمنيات:

وَيَـا لَيْتَنِي كُنْـتُ ابْـنَ عَشْـرٍ وَأَرْبَـعٍ فَلَـمْ أَدْعُهَـا بِنْتـاً وَلَمْ تَـدْعُنِي عَمَّـا[3]

ويستمرّ توهّج جمرة الغزل بالانطفاء بعد الستّين، ويستحيل الغزل إلى ذكريات وأمنيات، وإن تكلّف صوغه إرضاء لأحد الأمراء[4].

٥– من حيث التقليد والتجديد

نصّ ابن خفاجة في خطبة ديوانه على أنّ شعره عامة وغزله خاصّة يسير شطر منه في ركاب بعض الشعراء المشارقة، وأهمّهم عبد المحسن الصوريّ، والشريف الرضيّ، وأبو الطيب المتنبّي، ومهيار الديلميّ، وذكر نماذج من شعره تشبه أشعارهم في خطبة الديوان، وخصّ أوّلهم عبد المحسن الصوريّ بالنصّ على النهج على أسلوبه خمس مرّاتٍ في متن

١ – الديوان: ١٠٠.

٢ – الديوان: ١٩٠.

٣ – الديوان: ٨١.

٤ – الديوان: ١٠٨.

الديوان[1].

ويتبدّى التقليد عن عمد في بعض الموضوعات المغرقة في القدم كالوقوف على الأطلال وبكاء الديار وهو عنده من باب الحنين إلى زمن الشعر الجميل:

وَتَلَدَّدَتْ نَحْوَ الحِمى بِي نَظْرَةٌ ... عُذْرِيَّةٌ ثَنَتِ العِنانَ إِلَى الحِمَى

فَلَوَيْتُ أَعْنَاقَ المَطِيِّ مُعَرِّجاً ... وَنَزَلْتُ أَعْتَنِقُ الأَرَاكَ مُسَلِّما

فِي مَنْزِلٍ مَا أَوْطَأَتْهُ حَافِراً ... عُرْبُ الجِيَادِ وَلا المَطَايا مَنْسِما

دَمَعَتْ بِهِ عَيْنُ الغَمَامِ صَبابَةً ... وَلَرُبَّمَا طَرِبَ الجَوَادُ فَحَمْحَما

مَا أَذْكَرَتْنِي العَهْدَ فِيهِ أَيْكَةٌ ... إِلَّا بَكَيْتُ فَسَالَ وَادِيهَا دَمَا

وَسَجَعْتُ أَنْدُبُ لَوْعَةً وَلَرُبَّمَا ... صَدَحَ الحَمَامُ يُجِيبُنِي فَتَعَلَّمَا[2]

أمّا تجديد ابن خفاجة في الشعر عامّة وفي الغزل خاصّة، فيتبدّى في اختراعه المعاني الجديدة، ويتجلّى إبداعه في مزجه بين الغزل وعناصر الطبيعة المتنوّعة، فيرى في الطبيعة أنثى رائعة، ويرى في الأنثى عناصر الطبيعة الرائعة، فيصنع أجمل الصور الفنّيّة منهما، كقوله في الغزل:

يَا رُبَّ لَيْلٍ بِتُّهُ ... وَكَأَنَّهُ مِن وَحْفِ شَعْرِكْ

تَنْهَلُّ مُزنَةُ دَمعَتِي ... فِيهِ وَيَنْدى نَورُ ذِكْرِكْ

أَتْبَعْتُ فِيهِ وَقَدْ بَكيـ ... ـتُ عَقيقَ خَدِّكِ دُرَّ ثَغْرِكْ

وَشَرَقتُ فيكِ بِعَبرَةٍ ... قَد وَرَّدَتها نارُ هَجْرِكْ

فَكَأَنَّما يَنْفَضُّ عَن ... حَبَبٍ لَهَا رُمّانُ نَحْرِكْ

وَلَرُبَّ لَيلٍ قَد صَدَعْـ ... ـتُ ظَلامَهُ بِجَبينِ بَدْرِكْ

---

١ – انظر الديوان : ١٩٢– ١٩٣ ، ٦٧ ، ١٢٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨.

٢ – الديوان : ١٥ ، وانظر: ٢٨٢ ، ٢٨٣.

وَلَهَـــوتُ فِيـــهِ بِـــدُرَّةٍ مَكنونَـــةٍ في حُـــقِّ خِـــدْرِكْ
تَنـــدى شَـــقائِقُ وَجنَتَيـــ ـــكِ بِـهِ وَتَـنفَحُ ريـحُ نَشْـرِكْ
وَقَـــدِ اســـتَدارَ بِصَـــفحَتي سُوسَـــانِ جِيـــدِكِ طَـــلُّ دُرِّكْ
حَيـــثُ الحَبابَـــةُ دَمعَـــةٌ تَجـــرِي بِوَجنَـــةِ كَـــأسِ خَمْـــرِكْ
وَتَهُـــزُّ مِنـــكِ فَتَنثَـــني بِقَضـيبِ قَـدِّكِ ريـحُ سُـكرِكْ
وَتُعَـــبُّ مِـــن رَجـــرَاجِ رِدْ فِـكِ مَوجَـةٌ في شَـطِّ خَصـرِكْ[1]

وابن خفاجة يعلم أنّه يصنع ذلك عن وعي واقتدار، حتّى ليجعل من نسيبه وغزله روضة حقيقيّة، قال:

كَتَبْـــتُ وَقَلْـــبِي فِي يَـــدَيْكَ أَسِـــيْرُ يُقِـــيْمُ كَمَـــا شَـــاءَ الهَـــوَى وَيَسِـــيْرُ
وَلِيْ كُـلَّ حِـيْنٍ مِـنْ نَسِـيْبِي وَأَدْمُعِـي بِكُـــلِّ مَكَـــانٍ رَوْضَـــةٌ وَغَـــدِيرُ[2]

يتعمّق هذا المزج بين الغزل والطبيعة والخمر في مغامرات ليليّة حماسيّة:

وَلَيـــلٍ تَعاطَينـــا الـــمُدَامَ وَبَيْنَنـــا حَـديثٌ كَمـا هَـبَّ النَّسـيمُ عَلـى الـوَرْدِ
نُعـــاوِدُهُ وَالكـــأْسُ تَعبَـــقُ مِسْـــكَةً وَأَطيَـبُ مِنْهَـا مَـا نُعِيـدُ وَمـا نُبْـدِي
وأَشْـــرُبُهَا مِـــنْ كَفِّـــهِ وَكَأَنَّهَـــا سَـــناً وصَـــفَاءً مِـــنْ سَـــنَاهُ ومِـــنْ وُدِّي
وَنقْلِـي أَقَـاحُ الثَّغْـرِ أَوْ سُوسَـنُ الطُّلَـى وَنَرجِسَـةُ الأَجْفَـانِ أَو وَرْدَةُ الخَـدِّ
إِلى أَن سَـرتْ في جسـمِهِ الـراحُ والكَـرَى وَمـالا بِعِطْفَيْـهِ فَمـالَ عَلـى عَضْـدِي
فَأَقبَلـتُ أَسـتَهدي لِمـا بَـينَ أَضـلُعي مِـنَ الحَـرِّ مـا بَـينَ الثَّنَايَـا مِـنَ البَـرْدِ
وَعَانَقْتُـهُ قَـدْ سُـلَّ مِـن وَشْـيِ بُـردِهِ فَعانَقْـتُ مِنـهُ السَـيفَ سُـلَّ مِـنَ الغِمْـدِ

---

١ – الديوان: ١٢٢ ، ١٢٣.

٢ – الديوان: ٣٦٠.

لَيـــانَ مَجَـــسٍّ وَاِســـتِقامَةَ قَامَـــةٍ وَهِـــزَّةَ أَعطـــافٍ وَرَونَـــقَ إِفْرِنْـــدِ
أُغـــازِلُ مِنـــهُ الغُصـــنَ فِي مَغْـــرَسِ النَّقَـــى وَأَلْـــثُمُ وَجـــهَ الشَّـــمْسِ فِي مَطلَـــعِ السَّـــعْدِ
فَـــإِنْ لَمْ يَكُنْهَـــا أَوْ تَكُنْـــهُ فَإِنَّـــهُ أَخُوهَـــا كَمَـــا قُـــدَّ الشِـــراكُ مِـــن الجِلْـــدِ
تُسَـــافِرُ كِلتَـــا راحَـــتَيَّ بِجِســـمِهِ فَطَـــوْراً إِلى خَصْـــرٍ وَطَـــوْراً إِلى نَهْـــدِ
فَتَهـــبِطُ مِـــن كَشـــحَيهِ كَـــفٌّ تِهامَـــةً وَتَصـــعَدُ مِـــن نَهَديـــهِ أُخـــرى إِلى نَجْـــدِ
وَقَـــدْ مِلْـــتُ مِـــنْ تَقْبِيـــلِ خَـــدٍّ إِلَى فَـــمٍ أَقُـــوْلُ بِتَفْضِـــيلِ القَـــرَاحِ عَلَـــى الـــوَرْدِ
وَغَيَّـــرْتُ بِـــالتَّجْمِيشِ كَـــافُورَ خَـــدِّهِ وَإِنِّي لَعَـــفٌّ مِئْـــزَرِي طَـــاهِرٌ بُـــرْدِي[1]

وأخيراً؛ فإنّ غزل ابن خفاجة من التنوّع والإبداع ما يجعله من أهمّ أغراضه الشعريّة.

٢: المديح:

لقد مرّت نماذج كثيرة من المديح الخاصّ بأمراء المرابطين، والخاصّ بالأصدقاء من الكبراء، هذا المديح الذي كان يجعله ابن خفاجة هديّة وحده:

وَقَـدْ كُنْـتُ أُهْـدِي الـمَدْحَ وَالـدَّارُ غُرْبَـةٌ فَكَيـفَ بِإِهْـدَائِي إِلَيْـهِ المَراثِيـا[2]

وذُكرت خصائص كثيرة له، وحسبنا هنا أن نشير إلى أن قصيدة المدح الرسميّة تميل إلى الطول عامّة، وقد تشارف مئة بيت[3]، وأنّها قد تبدأ بالغزل أو تهجم على المديح مباشرة، وأنّها قد تحتوي على عدد من الأغراض كالغزل والوصف والمديح والفخر معاً، ونورد هنا جزءاً من قصيدة مديح لم ترد من قبل مطلقاً:

أَمـا وَخَيـالٍ قَـد أَطـافَ فَسَـلَّما لَقَـدْ هـاجَني وَجْـدٌ أَنـاخَ فَخَيَّمـا

---

١ – الديوان: ٣٤٨ ، ٣٤٩.

٢ – الديوان: ٦٢.

٣ – الديوان: ٣٥.

...

خِـــلَالٌ كَمَـــا مَـــرَّ الغَمَـــامُ بِتَلْعَـــةٍ فَطَـــرَّزَ أَثْـــوَابَ الرَّبِيـــعِ وَسَـــهَّمَا

وَأَلْقَـــى العَصَـــا بَـــيْنَ الأَبَـــاطِحِ والرُّبَـــا فَـــدَنَّرَ أَعْطَـــافَ الـــمَجَانِي وَدَرْهَمَـــا

وَقَلَّـــدَ نَحْـــرَ الـــرَّوْضِ عِقْـــداً مُفَصَّـــلاً وَطَـــوَّقَ جِيْـــدَ الغُصْـــنِ وَشْـــياً مُنَمْنَمَـــا

أَمَـــا إِنَّـــهُ وَالحَـــقُّ أَبْلَـــجُ وَاضِـــحٌ لَقَـــدْ بَـــاتَ مُغْـــرىً بِالـــمَكَارِمِ مُغْرَمَـــا

وَقَـــدْ أَفْصَـــحَتْ أَعْطَافُـــهُ عَـــنْ سِـــيَادَةٍ فَشَـــاهَدْتُ مِنْـــهُ صَـــامِتاً مُتَكَلِّمَـــا[1]

٣: الوصف

كان شعر ابن خفاجة انعكاساً لوجدانه ومشاعره، وصدى لمراحل حياته، ولمّا كانت الطبيعة الجميلة في بلدته شقر خاصّة، وفي الأندلس عامّةً، منى نفسه، ومسرح أنسه، في مختلف مراحل حياته، كان وصفها وصفاً لشيء عزيز وعلق نفيس، وكان يمتزج بها وتمتزج به، وكانت تحتضن أفراحه وتواسيه في أتراحه.

وللوصف عامّة حيّز كبير جدّاً من شعر ابن خفاجة، فقد أفرد له القصائد والمقطّعات، ونثره في أغراض شعره الأخر، ولعلّه لم يترك شيئاً وقع عليه بصره، وأعجب به قلبه إلّا وصفه، وهو أقسام متعدّدة:

أ–الأوصاف العامّة:

١–وصف الأشخاص والأحوال

كوصف الأحدب والحسود والبخيل والأخوين والسابح والحالية والسويداء والمغنّية وذات الثوب المعصفر ووصف الخال والشيب والنحول.

٢– الأبنية و العمائر:

كوصف الدار والقصر والحمّام والجسر والزورق والسفينة كقوله:

---

١ – الديوان : ١٧٢ – ١٧٦.

وَجارِيَــةٍ رَكِبــتُ بِهــا ظَلامــاً يَطـيرُ مِـنَ الصَّـبَاحِ بِهـا جَنـاحُ
إذا المـاءُ اطمَـأَنَّ فَـرَقَّ خَصْـراً عَــلا مِــن مَوجِــهِ رِدْفٌ رَداحُ
وَقَـد فَغَـرَ الحِمَـامُ هُنـاكَ فـاهُ وَأَتلَـعَ جيْـدَهُ الأَجَـلُ الـمُتاحُ
فَمــا أَدري أَمَــوجٌ أَم قُلــوبٌ وَأَنفــاسٌ تَصَــعَّدُ أَم رِيــاحُ[1]

٣- الآلات والأدوات

كوصف أدوات الكتابة كالقلم والنقس والقرطاس، ووصف آلات التدفئة والإنارة، كالموقد والشمعة والسراج، وكوصف آلات الحرب وأدواتها كاللواء والقوس والرمح والسيف

ب – وصف الطبيعة

١- الطبيعة الصائتة

ينقسم وصف ابن خفاجة للطبيعة الحيّة الصائتة أقساماً متعدّدة:

أً- وصف الحيوانات الأليفة والمتوحّشة: كوصف الفرس والناقة والكلب والأرنب والكبش والنعجة والسمك والأسد والذئب.

بً- وصف الطيور الأليفة والكاسرة

كوصف الحمام والمكّاء والعصفور والقطاة والبازي والنسر ، ومن وصف الحمام قوله:

وَمــا شــاقَني إلَّا حَفيــفُ أَراكَــةٍ وَسَــجعُ حَمــامٍ بِــالغَمِيْمِ تَرَنَّمــا[2]
وَسَـرحَةُ وادٍ هَزَّهـا الشَّـوقُ لا الصَّـبَا وَقَـد سَـجَعَ العُصـفورُ فَجـراً فَهَيَنَمـا
أَطَفـتُ بِهـا أَشـكو إِلَيهـا وَتَشـتَكي وَقَـد تَـرجَمَ الـمُكّاءُ عَنهـا فَأَفهَمـا
تَحِـنُّ وَدَمـعُ العَـيْنِ يَسْـجُمُ وَالنَّـدَى وَقَــرَّ بِعَيــنِي أَن تَحِــنَّ وَيَسْــجُما

---

١ – الديوان: ١٣٨.

٢ – الديوان: ٢٣٦.

وَحَسبُكَ مِن صَبٍّ بَكَى وَحَمامَةٍ فَلَم تَدْرِ حَقّاً أَيُّما الصَّبُّ مِنهُما

جً- وصف الزواحف والحشرات كوصف النحل والحيّة.

٢- الطبيعة الصامتة

يستفيد ابن خفاجة من عناصر الطبيعة استفادة غير مسبوقة تدلّ على عمق محبّته لها أو محبّتها له، يقول في قصيدة إخوانيّة:

فَإِنْ أَنَا لَمْ أَشْكُرْكَ وَالدَّارُ غُرْبَةٌ فَلا جَادَنِي غَادٍ مِنَ المُزْنِ رَائِحُ

وَلا اسْتَشْرَفَتْ يَوْماً إِلَيَّ بِهَا الرُّبا جَلالاً وَلا هَشَّتْ إِلَيَّ الأَبَاطِحُ[1]

أً- الطبيعة الكونيّة:

وصف ابن خفاجة كلّاً من الليل والنهار والشمس والقمر والرعد والبرق والريح والثلج والبرد والسيل والندى والمطر والسحاب: «وقال في صفة الثلج:

وَالأَرْضُ فِضِّيَّةُ الآفَاقِ تَحْسَبُهَا شَمْطَاءَ حَاسِرَةً قَدْ مَسَّهَا الكِبَرُ

فَكُلُّ نَجْدٍ وَوَهْدٍ قَدْ أَطَلَّ بِهِ رَوْضٌ تَجَلَّى بِنَوْرٍ مَا لَهُ ثَمَرُ

وَلِلأَفَاحِي ثُغُورٌ فِيْهِ بَاسِمَةٌ لَهَا مِنَ الثَّلْجِ رِيْقٌ بَارِدٌ خَصِرُ

كَأَنَّ فِي الجَوِّ أَشْجَاراً مُنَوَّرَةً هَبَّ النَّسِيمُ عَلَيْهَا فَهِيَ تَنْتَثِرُ[2]

بً- العناصر الطبيعيّة

وصف ابن خفاجة عدداً من عناصر الطبيعة الأرضيّة كالربا والبطاح والخرق والجبل، وقد تميّز كثيراً بوصف المسطّحات المائيّة كالأنهار والبحار، وقد اشتهرت له قطعة في وصف النهر:

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءِ أَشْهَى وُروداً مِن لَمَى الحَسْناءِ

---

١ - الديوان: ٧٩.

٢ - الديوان: ٣٧٢.

مُتَعَطِّــفٌ مِثــلَ السِّــوَارِ كَأَنَّــهُ وَالزَّهْــرُ يَكنُفُــهُ مَجَــرُّ سَــمَاءِ
قَــدْ رَقَّ حَــتّى ظُــنَّ قَوْســاً مُفْرَغــاً مِــن فِضَّــةٍ فِي بُــردَةٍ خَضــراءِ
وَغَــدَت تَحُــفُّ بِــهِ الغُصــونُ كَأَنَّهَــا هُــدْبٌ تَحُــفُّ بِمُقْلَــةٍ زَرقــاءِ
وَلَرُبّمَــا عاطَيــتُ فيــهِ مُدَامَــةً صَــفَرَاءَ تَخْضِــبُ أَيــدِيَ النُّــدَماءِ
وَالــرِّيحُ تَعبَــثُ بِالغُصــونِ وَقَــد جَــرَى ذَهَــبُ الأَصِيلِ عَلى لُجَينِ المَاءِ[1]

جـ- الرياض والأشجار والثمار والأزهار:

وصف ابن خفاجة الأندلس بأنّها جنّة الخلد في الدنيا فقال:

يَــا أَهْــلَ أَنــدَلُسٍ لِلَّــهِ دَرُّكُــمُ مــاءٌ وَظِــلٌّ وَأَنهــارٌ وَأَشــجارُ
مــا جَنَّــةُ الخُلــدِ إِلَّا فِي دِيــارِكُمُ وَهَــذِهِ كُنْــتُ لَــوْ خُيِّــرْتُ أَخْتَــارُ
لا تَتَّقُــوا بَعْــدَ ذَا أَنْ تَــدْخُلوا سَــقَراً فَلَــيسَ تُــدخَلُ بَعــدَ الجَنَّــةِ النَّــارُ[2]

ووصف الحجاريّ الأندلسيّين بأنّهم «هم أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار، الحائز فيه قصب الرهان»[3].

وقال الشقنديّ (ت ٦٢٩ هـ) في مفاخرته لابن المعلّم الطنجيّ:

«وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه، وما يتعلّق بذلك فانتهى إلى راية السباق، وفضح كلّ من طمع بعده في اللحاق ، وهو أبو إسحاق ابن خفاجة»[4].

وقال المقّريّ: «وأبو إسحاق ابن خفاجة كان أوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين»[1].

---

١ – الديوان: ٣٥٦ – ٣٥٧.
٢ – الديوان: ٣٦٤.
٣ – نفح الطيب: ١٥٥/٣.
٤ – المصدر نفسه: ٢٠٠/٣.
١ – المصدر نفسه: ٦٨١/١.

وقال أيضاً في مثل ذلك: «وكان صنوبريّ الأندلس أبو إسحاق ابن خفاجة... وشهرته تغني عن الإطناب فيه – مغرىً بوصف الأنهار والأزهار وما يتعلّق بها، وأهل الأندلس يسمّونه الجَنَّان، ومن أكثر من شيء عرف به»[1].

وقال لسان الدين ابن الخطيب: «وممّن فتن بالأندلس فتنة هذا أبو إسحاق ابن خفاجة»[2]

وكان ابن خفاجة بإحساسه المرهف وفكره الثاقب، يعرف هذا عن نفسه لذلك لا يرى بأساً في أن يقدّم تسويغاً لإكثاره من وصف الرياض عامّة وشجرها وزهرها ومائها ومكّائها خاصّة، في ديوانه نفسه ، قال:

«إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماءٍ، ورنَّة طائر، ما هو إلّا لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِر عليها وجِبلَّة، وإمَّا لأنّ الجزيرة كانت داره، ومنشأَه وقراره، وحسبك من ماءٍ سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة، وأرض أريضة. فلم يعدمْ هنالك، من ذلك، ما يبعث مع الساعات أُنْسَه، ويحرّك إلى القول نفسَه، حتّى غلب عليه حبُّ ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ، لا تكلّفٍ»[3].

ثمّ يردف بمثال على ذلك بقوله: «فمن قوله في ذلك، يصف مكاناً صابته سماء، وطلّته أنداء، فَتَبَيَّضَ بنُوّاره ، وتفضّض، وتذهّب بأزهاره ،وتلهّب، وينبت إلى راح وارتياح، وينعت طائراً يولول هناك ويهدر، وشجرة يتساقط نُوَّارها عليه وينتثر:

أَذِنَ الغَمَامُ بِديمَةٍ وَعُقَارِ ... فَامْزُجْ لُجَيناً مِنْهُما بِنُضَارِ

وَارْبَعْ عَلى حُكْمِ الرَّبِيعِ بِأَجْرَعٍ ... هَزِجِ النَّدَامَى مُفصِحِ الأَطيارِ

مُتَقَسِّمَ الأَلحَاظِ بَيْنَ مَحَاسِنٍ ... مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ

نَثَرَتْ بِحِجْرِ الرَّوْضِ فيهِ يَدُ الصَّبَا ... دُرَرَ النَّدَى وَدَرَاهِمَ الأَنْوَارِ

---

١ – نفح الطيب: ٤٨٨/٣.

٢ – أعمال الأعلام: ٥.

٣ – الديوان : ٢٩٠.

وَهَفَـــتْ بِغِرِّيْـــدٍ هُنالِـــكَ أَيكَـــةٌ خَفّاقَـــةٌ بِمَهَـــبِّ ريـــحِ عَـــرَارِ

هَـــزَّتْ لَـــهُ أَعْطَافَهَـــا وَلَرُبَّمَـــا خَلَعَـــتْ عَلَيْـــهِ مُـــلاءَةَ النُّـــوَّارِ[1]

وإضافة إلى الإكثار وزيادة على التجسيد والتشخيص، فإنّ عناصر الطبيعة تغدو هي التي تشبهه، قال:

أَمُسْـتَمَعٌ مِـنْ سَـجْعِ أَوْرَقَ صَـادِحِ وَمُرْتَبَـعٌ فِي شَـطِّ أَزْرَقَ سَـائِحِ

يَسِـيلُ فَيَحْكِيـنِي صَـفَاءَ سَـرِيرَةٍ وَجَـرِيَ دُمُـوعٍ وَاضْـطِرَابَ جَـوَانِحِ

وَلُوْعـاً بِـأَحْوَى مِـنْ جَـآذِرِ جَاسِـمٍ شَـهِيِّ التَّحَايَـا وَاللَّمَـى وَالـمَلامِحِ

وَمَـا العَـيْشُ إِلَّا بَـيْنَ رِيْـحِ حَدِيْقَـةٍ وَرَنَّـةِ غِرِّيـدٍ وَغُـرَّةِ سَـابِحِ

فَنَـلْ مِـنْ جَـنَى هَـذَا وَذَاكَ وَهَـذِهِ وَجُـلْ بَـيْنَ هَاتِيـكَ الرُّبَـا والأبَـاطِحِ[2]

إذاً فالحياة الجميلة لا تكون لدى ابن خفاجة إلّا بشمّ ريح حديقة، وسماع رنّة طائر، وركوب ظهر فرس، ويجعل الحديقة في مقطوعة أخرى «أخت المنى»[3]، كما أنّ ابن خفاجة لا يشبّه نفسه بالنهر بل النهر هو الذي يشبهه، وهي مرحلة متقدّمة من التعاطف والتمازج مع الطبيعة، ولا يقتصر ابن خفاجة على وصف الطبيعة بأوصاف إنسانيّة ومشاركتها وجدانيّاً، فيحدّثها وتحدّثه ويبثّها أشواقه وأحاسيسه ومخاوفه وقلقه، فتكون خير أنيس ونعم الجليس، بل يعبّر عن نفسه بعناصر الطبيعة ذاتها، فلا يقتصر على تشبيه نفسه بالطبيعة أو تشبيه الطبيعة بنفسه، بل يكون هو الطبيعة ذاتها كقوله:

وَرُبَّ نَسـيمٍ مَـرَّ يَخْطِـرُ عـاطِراً رَقِيـقِ الحَواشـي لا يُحَـسُّ دَبيبـا

وَجَـدتُ بِـهِ مِـن ذَلِـكَ المـاءِ بَلَّـةً وَمِـنْ نَـوْرِ هاتِيـكَ الأَبـاطِحِ طِيبـا

فَمَـا كَـانَ إِلَّا أنْ هَتَفْـتُ حَمَامَـةً وسَـاعَدْتُ شَـوْقِي فـاهْتَزَزْتُ قَضِـيبا

---

١ – الديوان: ٢٩١.

٢ – الديوان: ٢٩١ ، ٢٩٢.

٣ – الديوان: ٦٨.

ففي الشطر الأوّل من البيت الأخير استحال ابن خفاجة حمامةً ، وفي الشطر الثاني منه استحال قضيباً وغصناً رطيباً مهتزّاً.

والطبيعة مسرح للأنس والخمر لدى ابن خفاجة، وكثيراً ما يشير إلى ذلك مختصراً أو مطيلاً، «وقال يصف متفرّجاً:

وَصَـــقيلَةِ النُّـــوَّارِ تَلْـــوِي عِطْفَهَـــا ... ريـــحٌ تَلُـــفُّ فُرُوعَهـــا مِعْطَـــارُ

عَـــاطَى بِهَـــا الصَّـــهْبَاءَ أَحْـــوَى أَحْـــوَرٌ ... سَـــحَّابُ أَذْيَـــالِ الصِّـــبَا سَـــحَّارُ

وَالنَّـــوْرُ عِقْـــدٌ وَالغُصُـــونُ سَـــوَالِفٌ ... وَالجِـــزْعُ زَنْـــدٌ وَالخَلِـــيْجُ سِـــوَارُ

بِحَديقَـــةٍ مَثَـــلَ اللَّمَـــى ظِـــلاًّ بِهَـــا ... وَتَطَلَّعَـــتْ شَـــنَباً بِهَـــا الأَنْـــوَارُ

رَقَـصَ القَضِـيبُ بِهَـا وَقَـدْ شَـرِبَ الثَّـرَى ... وَشَـــدَا الحَمَـــامُ وَصَـــفَّقَ التَّيّـــارُ

غَنّـــاءَ أَلحَـــفَ عِطفَهـــا الـــوَرَقُ النَّـــدِيْ ... وَالتَـــفَّ فِي جَنَباتِهَـــا النُّـــوّارُ[1]

فَتَطَلَّعَـــتْ فِي كُـــلِّ مَوقِـــعِ لَحْظَـــةٍ ... مِـــنْ كُـــلِّ غُصْـــنٍ صَـــفحَةٌ وَعِـــذَارُ

وكما يرى ابن خفاجة في المرأة عناصر طبيعيّة، فكذلك يرى في الطبيعة عناصر أنثويّة، حتّى إنّه ليتعذّر فصل كلّ واحدة عن الأخرى: «وقال يصف شجرة منوّرة وماء سائحاً:

يـــا رُبَّ مائِسَـــةِ الـــمَعاطِفِ تَزدَهـــي ... مِـــن كُـــلِّ غُصـــنٍ خـــافِقٍ بِوِشَـــاحِ

مُهتَـــزَّةٍ يَـــرتَجُّ مِـــن أَعْطَافِهـــا ... مـــا شِـــئتَ مِـــن كَفَـــلٍ يَمُـــوجُ رَدَاحِ

نَفَضَـــتْ ذَوائِبَهـــا الرِيـــاحُ عَشِـــيَّةً ... فَتَمَلَّكَتهـــا هِـــزَّةُ الـــمُرتَاحِ

حَـــطَّ الرَبيـــعُ قِناعَهـــا عَـــن مَفْـــرِقٍ ... شَـــمِطٍ كَمَـــا تَزْبَـــدُّ كَـــأْسُ الـــرَّاحِ

لَفَّـــاءُ حَـــاكَ لَهَـــا الغَمَـــامُ مُـــلاءَةً ... لَبِسَـــتْ بِهَـــا حُسْـــناً قَمِـــيْصَ صَـــبَاحِ

نَضَـــحَ النَّـــدَى نُوَّارَهـــا فَكَأَنَّمَـــا ... مَسَـــحَتْ مَعاطِفَهـــا يَمِـــينُ سَـــمَاحِ

---

١ – الديوان : ٢٨١.

وَلَـوى الخَليجُ هُنـاكَ صَـفْحَةَ مُعْـرِضٍ لَثَمَـتْ سَـوالِفَهَا ثُغُـورُ أَقَـاحِ[1]

وقد يصف ابن خفاجة صنفاً محدّداً من الفاكهة كقوله في التين:

وَقَـدْ كُنْـتُ أُغْـرَى بِلُعْـسِ الشِّـفَاهِ فَكَيْـفَ بِـهِ وَهْـوَ كُـلٌّ لَعَـسْ

وَهَـا هُـوَ يَبْسِـمُ تَخْطِيطُـهُ وَقَـدْ كَـانَ بِـالأَمْسِ يَتَلُـوْ عَـبَسْ

وَقَـدْ سَـالَ مِـنْ فَمِـهِ شُـهْدُهُ كَمَـا سَـالَ رِيْـقُ حَبِيْـبٍ نَعَـسْ[2]

أو يصف نوعاً معيّناً من الشجر كقوله في وصف شجرة نارنج[3].

ولا يقتصر وصف ابن خفاجة للطبيعة على الوجه الضاحك المشرق من الطبيعة بل يصوّر- باقتدار- الوجه العابس المتجهّم منها؛ المشارك للشاعر في عبوسه وتجهّمه ؛ كقوله في مقدّمة قصيدة يعرّض فيها ببعض الأقوام ويهجوهم:

مِـن لَيْلَـةٍ لِلرَّعـدِ فِيْهـا صَـرْخَةٌ لا تُسْـتَطابُ وَلِلحَيَـا إِيْقَـاعُ

خَلَعَـت عَلَـيَّ بِهـا رِداءَ غَمامَـةٍ ريـحٌ تُهَلهِلُـهُ هُنـاكَ صَـنَاعُ

وَالصُّـبحُ قَـدْ صَـدَعَ الظَّـلامَ كَأَنَّـهُ وَجْـهٌ وَضـيءٌ شَـفَّ عَنْـهُ قِنَـاعُ

فَرَفَلـتُ في سَـمَلِ الـدُّجى وَكَأَنَّمـا قَـزَعُ السَّـحَابِ بِجانِبَيـهِ رِقَـاعُ[4]

وقد تحلّ مقدّمات الطبيعة محلّ مقدّمات الغزل في بعض قصائد ابن خفاجة ليصل الشاعر إلى غرضه الأساسي بسرعة وإبداع، كقوله في المديح[1]:

يَـا نَشْـرَ عَـرْفِ الرَّوْضَـةِ الغَنَّـاءِ وَنَسِـيمَ ظِـلِّ السَّـرْحَةِ الغَيْنَـاءِ

هـذَا يَهُـبُّ مَـعَ الأَصِيلِ عِـنِ الرُّبَـا أَرِجـاً وَذَلِـكَ عَـنْ غَـدِيرِ الـمَاءِ

---

١ – الديوان: ٢٨١ – ٢٨٢.

٢ – الديوان: ٣٧٤.

٣ – الديوان: ٣٧٤.

٤ – الديوان: ٢٢٤.

١ – الديوان: ٤٠.

عُوجَا عَلَى قَاضِي القُضَاةِ غُدَيَّةً ... فِي وَشْيِ زَهْرٍ أَوْ حُلَى أَنْدَاءِ

وَتَحَمَّلا عَنِّي إِلَيْهِ أَمَانَةً ... مِنْ عِلْقِ صِدْقٍ أَوْ رِدَاءِ ثَنَاءِ

وَإِذَا رَمَى بِكُمَا الصَّبَاحُ دِيَارَهُ ... فَتَرَدَّدَا فِي سَاحَةِ العَلْيَاءِ

بل إنّ ابن خفاجة يقدّم لغرض الرثاء بمقدّمة يستفيد فيها من عناصر الطبيعة استفادة كبيرة، ويكثر منها، فيقول في رثاء صديق له:

فِي كُلِّ نَادٍ مِنكَ رَوضُ ثَنَاءِ ... وَبِكُلِّ خَدٍّ فيكَ جَدْوَلُ مَاءِ

وَلِكُلِّ شَخصٍ هِزَّةُ الغُصنِ النَدِي ... تَحْتَ البُكَاءِ وَرِنَّةُ المُكَّاءِ

يَا مَطلَعَ الأَنوارِ إِنَّ بِمُقلَتِي ... أَسَفاً عَلَيكَ لَمَطْلَعَ الأَنواءِ[1]

ويستخلص د. إحسان عبّاس بعض خصائص شعر الوصف لدى ابن خفاجة بقوله: «وقد حاول ابن خفاجة أن يجمع في القصيدة الوصفيّة بين التدفّق والجزالة من ناحية، والصور المحدثة من ناحية أخرى، فخرج بضرب من الشعر في الطبيعة مثقل متزاحم بين الموسيقى القويّة والصورة البعيدة»[2].

ولا يقتصر وصف الطبيعة عند ابن خفاجة على الشعر وحده بل يشارك النثر في ذلك كقوله: وكتب في استدعاء صديق له إلى مجلس أنس: «إِنَّ النَّبِيذَ بِسَاطُ مَوْضِعِ الرَّاحَةِ وَالانْبِسَاطِ، وَقَلَّمَا يَطِيبُ رِضَاعُ الكَأْسِ إِلَّا مَعَ الصَّدِيقِ الشَّفِيْقِ، المُشْتَبَهِ بِالأَخِ الشَّقِيقِ، فَهُوَ رِضَاعٌ ثَانٍ تُرْعَى حُرْمَتُهُ، وَتُحْفَظُ ذِمَّتُهُ. وَهَذا يَوْمُنَا قَدْ ضُرِبَتْ بِهِ أَرْوِقَةُ الأَنْوَاءِ، وَأَعْرَسَتِ الأَرْضُ فِيْهِ بِالسَّمَاءِ؛ فَالغُصْنُ يَتَلَوَّى وَيَتَثَنَّى، وَالحَمَامَةُ تُرَجِّعُ وَتَتَغَنَّى، وَالمَاءُ يَرْقُصُ مِنْ طَرَبٍ وَيُصَفِّقُ، وَالزَّهْرُ يَشُقُّ جَيْبَ كِمَامِهِ وَيُمَزِّقُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكُونَ فِيْمَنْ شَهِدَ هَذَا الإِمْلاكَ، وَتَحْضُرَ فِيْمَنْ حَضَرَ هُنَاكَ، أَجَبْتَ مُنَعَّماً»[1].

---

١ – الديوان : ١٧٨.

٢ – تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين: ١١٧.

١ – الديوان: ٣١٩ –٣٢٠.

٤: الحنين

يأخذ الحنين عند ابن خفاجة أبعاداً متعدّدة، فهو قد نأى عن الأندلس واضطرّ لمغادرة بلده الحبيب والرحيل إلى المغرب وإفريقيّة، فاضطرمت عاطفته واشتعل شوقه إلى وطنه الكبير الأندلس فصاح بأبيات خالدات، «وقال في التشوّق إلى الأندلس وهو بالعدوة:

إنَّ لِلجَنَّـــــــةِ بالأَنْدَلُـــــــسِ مُجتَلـــى حُسْـــنٍ وَرَيّـــا نَفَـــسِ
فَسَـــنا صُـــبحَتِها مِـــن شَـــنَبٍ وَدُجـــى لَيْلَتِهـــا مِـــنْ لَعَـــسِ
فَـــإذا مـــا هَبَّـــتِ الـــريحُ صَـــباً صِحْـــتُ وا شَـــوْقِي إِلى الأَنْدَلُـــسِ[1]

ويبتعد ابن خفاجة عن وطنه الأصغر ومسقط رأسه جزيرة شقر، ويرتحل إلى مدائن كثيرة في الأندلس لأغراض متعدّدة، فتنمو بذرة الحنين في قلبه، ويسقيها من دموعه المدرارة، فتزهر شوقاً جارفاً، وتثمر شعراً رائعاً.

ويرتبط حنينه إلى المكان بحنينه إلى الزمان فيجتمع شوقه إلى شقر حيث معاهده مع ذكريات شبابه وتحسّره على فقدهما معاً، فيذرف أجمل قصائد الحنين إليهما، «وقال يتشوّق إلى معاهده بجزيرة شقر ويندب ماضي زمانه:

بَـــيْنَ شُـــقْرٍ وَمُلْتَقَـــى نَهْرَيْهَـــا حَيْـــثُ أَلقَـــتْ بِنَـــا الأَمَـــانِي عَصَاهَـــا
وَيُغَـــنِّي المُكَّـــاءُ فِي شَـــاطِئَيْهَا يَسْـــتَخِفُّ النُّهَـــى فَحَلَّـــتْ حُبَاهَـــا
عِيْشَـــةٌ أَقْبَلَـــتْ يُشَـــهَّى جَنَاهَـــا وَارِفٌ ظِلُّهَـــا لَذِيـــذٌ كَرَاهَـــا
لَعِبَـــتْ بِـــالعُقُولِ إِلَّا قَلِـــيلاً بَـــيْنَ تَأْوِيْبِهـــا وبَـــيْنَ سُرَاهَـــا
فَانْثَنَيْنَـــا مَـــعَ الغُصُـــونِ غُصُـــوناً مَرَحـــاً فِي بِطَاحِهَـــا وَرُبَاهَـــا
ثُمَّ وَلَّـــتْ كَأَنَّهَـــا لَـــمْ تَكُـــدْ تَلْـــ ـــبَثُ إِلَّا عَشِـــيَّةً أَوْ ضُحَاهَـــا

---

١ – الديوان : ١٣٦.

فَانْـدُبِ الـمَرْبَعَ فَالكَنِيسَـةَ فَالشَّـطْ ... طَ وَقُـلْ آهٍ يَـا معاهـدُ آهَـا

آهٍ مِـنْ غُرْبَـةٍ تُرَقْـرِقُ بَثّـاً ... آهٍ مِـنْ رِحْلَـةٍ تَطُـولُ نَوَاهَـا

آهٍ مِـنْ فُرْقَـةٍ لِغَـيْرِ تَـلاقٍ ... آهٍ مِـنْ دَارٍ لَا يُجِيـبُ صَدَاهَـا

لَسْـتُ أَدْرِي وَمَـدْمَعُ الـمُزْنِ رَطْـبٌ ... أَبَكَاهَـا صَـبَابَةً أَمْ سَقَاهَـا

فَتَعَـالَي يَـا عَـيْنُ نَبْـكِ عَلَيْهَـا ... مِـنْ حَيَـاةٍ إِنْ كَـانَ يُغْـنِي بُكَاهَـا

وَشَـبَابٍ قَـدْ فَـاتَ إِلَّا تَنَاسِيـ ... ـهِ وَنَفْـسٍ لَمْ يَبْـقَ إِلَّا شَجَاهَـا

مَـا لِعَيْـنِي تَبْكِـي عَلَيْهَـا وَقَلْـبِي ... يَتَمَـنَّى سَـوَادُهُ لَـوْ فَدَاهَـا[1]

ويرتبط حنينه إلى المكان –كذلك – بحنينه إلى الأصدقاء والخلّان، وإلى أيّام اللهو التي كانت تجمعهم معاً، ويفردهم بقصائد خاصّة، «وقال في الحنان إلى الإخوان بظهر البحر وصفة سفينة:

تَهَـادَى بِي لِـذِكرِكُمُ ارْتِيَـاحُ ... فَبِـتُّ وَكُـلُّ جانِحَـةٍ جَنَـاحُ

وَدَمعِـي جِرْيَـةً مَطَـرٌ تَـوالى ... وَجِسْـمي هِـزَّةً غُصـنٌ يُـرَاحُ

أَإِخـوانِي وَلا إِخـوانَ صِـدقٍ ... أُصـافي بَعـدَكُم إِلَّا الصِّـفَاحُ

بِحُسـنِ الصَّـبرِ دونَكُـمُ جِـرَانٌ ... وَلِلعَـبَراتِ بَعـدَكُمُ جِمَـاحُ

فَـدَيتُكُمُ بِنَفسـي مِـن كِـرَامٍ ... يَهُـزُّ بِهِـمْ مَعَاطِفَـهُ السَّـمَاحُ

أَرى بِهِـمُ النُّجُـومَ وَلا ظَـلَامٌ ... وَأَوضـاحَ النَّهـارِ وَلا صَـبَاحُ

تَخايَـلُ نَخْـوَةً بِهِـمُ المَذَاكِـي ... وَتَعسِـلُ هِـزَّةً لَهُـمُ الرِّمَـاحُ

لَهُـمْ هِمَـمٌ كَمَـا شَمَخَـتْ جِبَـالٌ ... وَأَخـلاقٌ كَمَـا دَمَثَـتْ بِطَـاحُ[1]

---

١ – الديوان: ٣٦٤ – ٣٦٥.

١ – الديوان: ١٣٨.

٥: الخمرة

كان للخمرة حيّز كبير من اهتمام ابن خفاجة في الشطر الأوّل من حياته فلا يرى الحياة من دونها، ولا يجد اللذّة من غيرها، لذلك كثر ذكرها في شعره، وزاد ورودها[١] في ثناياه حتّى ولو كان في شطر بيت من الشعر كقوله:

كَـأَنِّيَ لَمْ أَذْهَـبْ مَـعَ اللَّهْـوِ لَيْلَـةً وَلَمْ أَتَعَـاطَ البَـابِلِيَّ الـمُشَعْشَعَا[٢]

ويتّسع وصف الخمر في شعره -خلا ذلك -في قصائد ومقطّعات كثيرة وينقسم أقساماً متعدّدة:

١- استهداء الخمرة

قال ابن خفاجة: «في عصر الصّبا يستهدي خمراً في يوم برد:

كَتَبْـتُ وَقَـد خَصِـرَتْ رَاحَـتي فَهَـلْ مِـنْ حَرِيـقٍ لِكـأْسِ الرَّحِيْـقِ

وَقَـد أَعـوَزَتْ نارُهَـا جُمْلَـةً فَلَـولَاكَ شَـبَّهْتُها بِالصَّدِيْـقِ[٣]

٢- وصف الساقي

كقوله[٤]:

وَأَهيَـفٍ قَـامَ يَسـقِي وَالسُّـكْرُ يَعْطِـفُ قَـدَّهْ

وَقَـد تَـرَنَّحَ غُصْـناً وَاحْمَـرَّتِ الكَـأْسُ وُرْدَهْ

وَأَلْهَـبَ السُّـكْرُ خَـدّاً أَورَى بِـهِ الوَجْـدُ زَنْـدَهْ

فَكَـادَ يَشـرَبُ نَفْسِـي وَكِـدْتُ أَشـرَبُ خَـدَّهْ

---

١ - انظر الديوان : ٦٤-٦٨-٧٠-١٨١-١٨٤-٢١٠-٢١١-٢٢١-٢٢٤-٢٤٥-٢٨١-٢٨٩-٢٩١-٣٤٠-٣٥١-٣٥٥-٣٥٦-٣٦٧.

٢ - الديوان: ٥٧.

٣ - الديوان: ١٣٤.

٤ - الديوان: ٣٥٤ ، وانظر: ٨٣ ، ٢٧٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ .

٣- وصف الشاربين والندامى

قال ابن خفاجة يصف شجرة النارنج ويصف الشَّرْب تحتها في صورة فنّيّة فريدة:

أَنْعِمْ فَقَدْ هَبَّتِ النُّعَامَى ... وَنَبَّهَتْ رِيحُهَا الخُزَامَى

وَمِلْ إِلَى أَيْكَةٍ بَلِيلٍ ... تَهْفُو اهْتِزَازاً بِهَا قُدَامَى

تَهُزُّ أَعْطَافَهَا القَوَافِي ... لَهَا وَأَكْوَاسَهَا النَّدَامَى

كَأَنَّ أُمّاً بِهَا رَؤُوماً ... تَحْضُنُ مِنْ شَرْبِهَا يَتَامَى[1]

٤- وصف الخمر

قال ابن خفاجة يصف الخمرة الحمراء:

وَشَرِبْتُها عَذراءَ تَحْسَبُ أَنَّهَا ... مَعصورَةٌ مِن وَجنَتَي عَذراءِ

حَمراءُ صافِيَةٌ تَطيبُ بِنَفسِهَا ... وَغَنَائِهَا وَخَلائِقِ النُّدَمَاءِ[2]

٥- وصف الخمر في مجالس اللهو

قال ابن خفاجة بعد أبيات في عرض حكمته الخاصّة ورؤيته للحياة:

وَابتَعْ بِكَيْسٍ كأسَ مَشْمُولَةٍ ... وَاسحَبْ ذُيولَ اللَّهْوِ وَاخلَعْ وَهَبْ

وَاستَضحِكِ المَجْلِسَ عَنْ قَهْوَةٍ ... نَبَّهَتِ الصُّبْحَ هُدُوّاً فَهَبْ

نَارِيَّةِ اللَّذْعَةِ نُورِيَّةٍ ... في صُفْرَةٍ فَاقِعَةٍ أَو صَهَبْ

وَهُزَّ مِنْ عِطْفَيكَ عَنْ نَشوَةٍ ... غُصْناً إِذا ما نَفَسُ الصُّبْحِ هَبْ

بِأَبيَضٍ كَالماءِ مُستَودَعٍ ... ما شِئْتَهُ مِنْ أَحْمَرٍ كَاللَّهَبْ[1]

لَو ذابَ هَذا لَجَرى فِضَّةً ... أَو جَمَدَتْ تِلْكَ لَكانَتْ ذَهَبْ

---

١ – الديوان: ٦٩ ، وانظر: ٣٥٧ ، ٣٧٢.

٢ – الديوان: ٢٥٠.

١ – الديوان: ٢٤٩ ، وانظر: ٢٤٢ ، ٣٦١.

٦- وصف الخمرة في أحضان الطبيعة:

يمزج ابن خفاجة عن عمد بين الطبيعة والخمرة مزجاً لا مثيل له، فهو يرى في عناصر الطبيعة خمراً وفي الخمرة عناصر الطبيعة، «قال في صباه:

إِنَّمـــا العَـــيشُ مُـــدامٌ أَحمَـــرُ قـــامَ يَســـقيهِ غُـــلامٌ أَحـــوَرُ
وَعَلـــى الأَقـــداحِ وَالأَدواحِ مِـــن حَبَـــبٍ نَثْـــرٌ ونَـــوْرٍ جَوْهَـــرُ
فَكَـــأَنَّ الـــدَوحَ كـــأْسٌ أَزْبَـــدَتْ وَكَـــأَنَّ الكَـــأْسَ دَوْحٌ يُزهِـــرُ[1]

وكثيراً ما يقتضي وصف الطبيعة وصف الخـمرة عنده لأنّ الطبيعـة مسرح لهوه ومرحه، وأجواؤهـا الرائعة تدعوه للشـرب، فيلتقي الشـاعر والخمر والساقي والندمان في حضن الطبيعة الدافئ، قال:

حُـــثَّ الـــمُدامَةَ فَالنَّســـيمُ عَلِيـــلُ وَالظِّـــلُّ خَفّـــاقُ الـــرِّواقِ ظَلِيـــلُ
وَالنَّـــوْرُ طَـــرْفٌ قَـــد تَنَبَّـــهَ دامِـــعٌ وَالمـــاءُ مُبْتَسِـــمٌ يَـــرُوْقُ صَـــقِيلُ
وَقَـد انْتَشَـى عِطْـفُ الأَرَاكَـةِ فَـانْثَنَى سُـكْراً وَرَجَّـعَ في الغُصُـونِ هَـدِيلُ
وَتَطَلَّعَـــتْ مِـــنْ بَرْقَـــةٍ وَغَمَامَـــةٍ في كُـــلِّ أُفـــقٍ رايَـــةٌ وَرَعِيـــلُ
حَـتّى تَهـادى كُـلُّ خُوْطَـةِ أَيكَـةٍ رِيّـــاً وَغَصَّـــتْ تَلعَـــةٌ وَمَسِـــيلُ
فَـالرَّوضُ مُهتَـزٌّ المَعاطِـفِ نِعْمَـةً نَشـــوانُ تَعْطِفُـــهُ الصَّـــبَا فَيَمِيـــلُ
رَيّـــانُ فَضَّضَـــهُ النَّـــدَى ثُمَّ انجَلَـــى عَنـــهُ فَـــذَهَّبَ صَـــفحَتَيهِ أَصِـــيلُ
وَارتَـــدَّ يَنظُـــرُ في نِقـــابِ غَمامَـــةٍ طَـــرْفٌ يُمَرِّضُـــهُ العَشِـــيُّ كَلِيـــلُ
ســـاجٍ كَمـــا يَرنُـــو إِلى عُـــوّادِهِ شـــاكٍ وَيَلـــتَمِحُ العَزيـــزَ ذَلِيـــلُ
فَالشَّـــمْسُ شَـــاحِبَةُ الجَبِـــينِ مَريضَـــةٌ وَالرِّيْـــحُ خَافِقَـــةُ الجَنَـــاحِ بَلِيْـــلُ

---

١ – الديوان : ١٣٥.

والــزِّقُّ مُنْجَــدِلٌ يَكُــبُّ لِوَجهِــهِ وَيَمُــجُّ رُوْحَ الــرَّاحِ مِنْــهُ قَتِيْــلُ
وَالكَـأسُ طِـرْفٌ أَشْـقَرٌ قَـدْ جَـالَ في عَــرَقٍ عَــلَاهُ مِــنَ الحَبَــابِ يَسِــيلُ
يَســعى بِهــا قَمَــرٌ لَــهُ وَلِكَأسِــهِ وَجــهٌ أَغَــرُّ وَمَبْسِــمٌ مَعْسُــولُ
شــاكِي السِّــلاحِ بِقَــدِّهِ وَبِطَرْفِــهِ رُمــحٌ أَصَــمُّ وَصــارِمٌ مَسْــلُولُ
وَأَخٍ تَهُــزُّ لَــهُ العُــلا أَعْطَافَهَــا فَكَأَنَّــهُ رَيحانَــةٌ وَشَــمُولُ
راضَــعتُهُ كَــأسَ الــمُدامِ وَبَينَنــا لِجَــنى الحَــديثِ حَديقَــةٌ وَقَبُــولُ[1]

٧- المغامرات الخمريّة

ومنها في وصف معاطاته الخمرة مع الساقية ومغامرته العاطفيّة معها، ومنها في وصف رحلته إلى الحانة وشربه الخمر كقوله:

أَلَا قَلَّصَــتْ ذَيْلَهــا لَيْلَــةٌ تَجُــرُّ الرَّبَــابَ بِهَــا هَيْــدَبا
وَقَــد بَرَقَــعَ الــثَّلْجُ وَجــهَ الثَّــرَى وَأَلحَــفَ غُصــنَ النَّقَــى فَــاحتَبَى
فَشــابَتْ وَراءَ قِنــاعِ الظَّــلامِ نَوَاصِــي الغُصــونِ وَهَــامُ الرُّبَــا
فَمَهْمَــا تَيَمَّمْــتُ خَمَّــارَةً رَكِبْــتُ إِلَى أَشْــقَرٍ أَشْــهَبَا
وَحَيَّيْــتُ حَانَتَهَــا طَارِقــاً فَقَالَــتْ تُجِيْــبُ أَلَا مَرْحَبَــا
وَقامَــتْ بِأَجْيَــدَ مِــنْ كَأْسِــهَا لِأَوقَــصَ مِــنْ دَنِّهَــا أَحْدَبَــا
فَجَــاءَتْ بِحَمــراءَ وَقَّــادَةٍ تَلَهَّــبُ في كَأْسِــهَا كَوكَبَــا
عَثَــرْتُ بِــذَيْلِ الــدُّجَى دونَهــا فَأَضحَكْــتُ ثَغْــراً لَهَــا أَشْنَبَــا[1]
وَقَدْ مَسَحَ الصُّبْحُ كُحْلَ الظَّلَامِ وَأَطْلَــعَ فَــوْدَ الدُّجَــى أَشْيَبَــا

---

١ – الديوان: ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، وانظر: ٨٣ ، ١٣٩، ٢٩٨.

١ – الديوان: ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، وانظر: ٢٤٢ ، ٣٤٨.

٦: الفخر والحماسة

الفخر هو الحيّز الذاتيّ الأهمّ الذي تتنفّج فيه نفس الشاعر، وتنتفخ لتعبّر عن ذاتها، وتشير إلى مميّزاتها الخاصّة في الشجاعة والقوّة، وفي الإبداع الشعريّ.

***– الفخر بالقوة والشجاعة**

أ– من حيث الموضوعات:

١ – الفخر بالشجاعة والقوّة في الحروب ، قال ابن خفاجة « في الحماسة:

هَجَرْتُ لِبِيْضِ الشَّيْبِ بِيْضَ العَمَائِمِ وَآلَيْتُ لَا أَعْتَمُّ إلَّا بِفَاحِمِ

فَلَوْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الغَمَامَ لِغُلَّةٍ لَمَا قُمْتُ فَاسْتَسْقَيْتُ غُرَّ الغَمَائِمِ

فَمَا أَرْتَدِيْ إلَّا بِأَحْمَرَ قَانِئٍ سَقَتْهُ الطُّلَى مِنْ نَصْلِ أَبْيَضَ صَارِمِ

بِحَيْثُ يُهَزُّ المَوْتُ مِنْ أَكْعُبِ القَنَا غُصُوناً وَيَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الجَمَاجِمِ

وَيَنْظُرُ عَنْ طَرْفٍ مِنَ الرُّمْحِ أَزْرَقٍ وَيَضْحَكُ عَنْ ثَغْرٍ مِنَ السَّيْفِ بَاسِمِ

وَقَدْ فَاضَ بَحْرٌ لِلرَّدَى مِنْ دَمِ العِدَا فَسَالَ حَيَاءً فِي وُجُوهِ الصَّوَارِمِ[١]

٢ – الفخر بالشجاعة في قطع الجرود والسير ليلاً وحيداً لا يرافقه إلّا حسامه وفرسه[٢]

٣– الفخر بشجاعته في مغامراته الغزليّة، والدخول إلى خدور[٣] الحبيبة الممنّعة على طريقة ابن أبي ربيعة.

ب– من حيث الشكل:

١– يفرد ابن خفاجة مقطّعات خاصّة للفخر والحماسة ومن أجملها قوله:

وَظَلَامِ لَيْلٍ لا شِهابَ بِأُفقِهِ إلَّا لِنَصْلٍ مُهَنَّدٍ أَو لَهْذَمِ

---

١ – الديوان: ٣٥١ ، ٣٥٢ ، وانظر: ١٣١ ، ٢٢١ ، ٢٥٣.

٢ – الديوان: ٨٥ ، ٨٦ ، وانظر: ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥.

٣ – الديوان: ١٤٣ ، وانظر: ٢٣ ، ٨٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧.

لاطَمْتُ لُجَّتَهُ بِمَوجَةِ أَشْهَبٍ يَرْمِي بِها بَحْرَ الظَلامِ فَيَرتَمِي
قَدْ سَالَ في وَجهِ الدُّجُنَّةِ غُرَّةً فَاللَّيلُ في شِيَةِ الأَغَرِّ الأَدْهَمِ
أَطْلَعْتُ مِنْهُ وَمِنْ سِنَانٍ أَزْرَقٍ وَمُهَنَّدٍ عَضْبٍ ثَلاثَةَ أَنْجُمِ
إِنْ يَعْتَكِرْ لَيلُ العَجَاجَةِ تَسْتَنِرْ أَو يَعتَرِضْ شَيطانُ حَربٍ تَرْجُمِ
جاذَبتُهُ فَضلَ العِنانِ وَقَد طَغَى فَانْصَاعَ يَنْسَابُ انْسِيَابَ الأَرْقَمِ
في خَصْرِ غَوْرٍ بِالأَراكِ مُوَشَّحٍ أَو رَأسِ طَوْدٍ بِالغَمَامِ مُعَمَّمِ
أَو نَحْرِ نَهْرٍ بِالحَبَابِ مُقَلَّدٍ أَو وَجهِ خَرقٍ بِالضَّريبِ مُلَثَّمِ
حَتّى تَهَادَى الغُصْنُ يَأْطِرُ مَتْنُهُ طَرَباً لِشَدْوِ الطَّائِرِ المُتَرَنِّمِ[1]
وَكَأَنَّ ضَوْءَ الصُبْحِ رايَةُ ظَافِرٍ نَفَضَتْ بِهَا الهَيْجَاءُ نَضْحاً مِنْ دَمِ

٢- يخصّص ابن خفاجة في ديوانه قصائد كاملة مطوّلة لغرض الفخر[2].

٣- ويرد الفخر ضمن قصائد المديح، اللافت أنّه يأتي في أوائل القصائد غالباً [3].

٤-وقد يرد فخره في وسط[4] قصائد المديح، وقد يرد في أواخرها بقلّة [5].

*: **الفخر بأدبه** هو الشطر الثاني والأهمّ لفخره

أ- من حيث الأغراض

يرد أكثر فخر ابن خفاجة بشعره في غرض المديح والثناء والإطراء، وقد اقتصر ابن خفاجة على هذا الجزء المحبّب إلى نفسه من إحدى مدائحه، فلم يبق من قصيدة المديح إلّا فخره بهذه القصيدة التي وجّهها إلى الممدوح:

---

١ – الديوان: ٢٤٤ ، ٢٤٥.

٢ – الديوان: ١٣١ – ١٣٣ ، وانظر: ١١٩ – ١٢١ ، ٢١٥ – ٢١٧.

٣ – الديوان: ٢٥٩ – ٢٦٠ ، وانظر: ٢٣ ، ٥٧ ، ١٤٣ ، ١٧٢ – ١٧٤ ، ٢٢٨.

٤ – الديوان: ٥٠.

٥ – الديوان: ٤٦ ، ٤٧ ، ٩٤.

خُـــذْهَا إِلَيْـــكَ وَإِنَّهَـــا لَنَضِـــيرَةٌ ... طَـــرَأَتْ عَلَيْـــكَ قَلِيلَـــةَ النُّظَـــرَاءِ

حَمَلَـتْ وَحَسْـبُكَ نَفحَـةٌ فِي لَفْحَـةٍ ... عَبَـقَ العَـرُوسِ وَخِحْلَـةَ العَـذْرَاءِ

مِـنْ كُـلِّ وَارِسَـةِ القَمِـيْصِ كَأَنَّهَـا ... نَشَـأَتْ تُعَـلُّ بِرِيْقَـةِ الصَّـفْرَاءِ

نَجَمَـتْ تَـرُوقُ بِهَـا نُجُـومٌ حَسْـبُهَا ... بِالأَيْكَـةِ الخَضْـرَاءِ مِـنْ خَضْـرَاءِ

وَأَتَتْـكَ تُسْـفِرُ عَـنْ وُجُـوهٍ طَلْقَـةٍ ... وَتَنُـوْبُ مِـنْ لُطْـفٍ عَـنِ السُّـفَرَاءِ

يَنْـدَى بِهَـا وَجْـهُ النَّـدِيِّ وَرُبَّمَـا ... بَسَـطَتْ هُنَـاكَ أَسِـرَّةَ السَّـرَّاءِ

فَاسْتَضْحَكَتْ وَجْهَ الدُّجَى مَقْطُوعَةٌ ... جَمُلَـتْ جَمَـالَ الغُـرَّةِ الغَـرَّاءِ

تَشْـدُو بِهَـا مَهْمُـوْزَةً وَلَرُبَّمَـا ... هَزِجَـتْ تَدَفَّـعُ فِي رَوِيِّ الـرَّاءِ[1]

ولم يرد فخره في غير ذلك الغرض إلّا مرّتين في غرض العتاب في عتابه للوزير ابن خاقان وورد فخره كذلك مرّة أخرى في غرض الرثاء.

ب – من حيث المرسل إليه:

ورد أغلب فخر ابن خفاجة بشعره في مدائحه التي وجّهها إلى أصدقائه الوزراء، وثمّة أميران مرابطيّان حكما بعض الأندلس ذيّل فخره بمدحتيهما، وهما: تميم بن يوسف، وابن تيفلويت[2].

ج– من حيث المكان:

إنّ أغلب ورود فخره بشعره كان في آخر قصائده على عادة الشعراء في قصائد المديح، وقد خالف هذا مرّتين إحداهما في قصيدته في عتاب ابن خاقان إذ بدأ بالفخر، وثانيتهما في مدح ابن زُهْر إذ ورد فخره في وسطها ثمّ ختامها[1].

---

١ – الديوان: ٧١.

٢ – الديوان: ٣٩ ، وانظر: ٩٤.

١ – الديوان: ١١٧ – ١١٩.

د– من حيث الأسلوب:

فإن شطراً منها يبدأ بألفاظ مثل:إليك، وإليكها، ودونكها، وهاك، وخذها...

هـ– من حيث عدد أبياتها

لا يزيد أطولها على ثمانية أبيات فقط وقد سلفت نماذج من ذلك آنفاً، وقد تقتصر على بيت واحد كقول ابن خفاجة في استدعاء صديق له من الوزراء:

فَعُـــجْ تَتَصَـــفَّحْ بَدِيْـــعَ البَدِيْـــعِ وَتَلمَـحْ سَـلَامَةَ شِـعْرِ السَّـلَامِي [1]

ز– من حيث الخصائص الفنّيّة:

١– المبالغة: وهي سمة عامّة فيها.

٢– وصفها بالعناصر الطبيعيّة وهذا أمر شائع في فخره.

٣– الإبداع والرقّة.

ح– من حيث النوع:

لم يقتصر الفخر على الشعر فحسب بل شارك النثر في ذلك، واستطاع ابن خفاجة أن يطوّع النثر للفخر والمديح معاً[2].

٧– ٨: العتاب و الشكوى

وهما من الأغراض الذاتيّة الاجتماعيّة التي تنجم عن وجود اختلال في السلوك الاجتماعيّ من تعدٍّ على حقّ أو تقصير في حقّ؛ يؤلم فيستدعي الشكوى، وقد يتطلّب تنبيه الفاعل على سوء ما فعل، وعتابه عليه، ليكفّ عنه أو يصحّحه، وقد يصل الأمر إلى التهديد، ومزج الوعد بالوعيد، كما رأينا عتابه لابن خاقان الذي كان قد تندّر بأخبار صبوة ابن خفاجة في قلائده[1].

---

١ – الديوان: ٢٤٦. والبديع: هو بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨ هـ) أحد أئمّة الكتّاب ومخترع المقامات. والسَّلاميّ: هو محمّد بن عبد الله (ت ٣٩٣ هـ) أحد أشعر أهل العراق في عصره.

٢ – الديوان: ٢٩٦ ، ٢٩٧.

١ – الديوان: ٢٠٤ – ٢٠٧.

ويتّسم عتب ابن خفاجة بالعاطفيّة والمشاعر المتألّمة من انتقاص في حقٍّ أو تقصير في واجب، فيصف المعاتب بالأخ، ويمزج عتبه له بشيء من الثناء، ويخلط ملامته له بشكره كعتابه للوزير ابن عامر[1].

كما أنّ المناصب الرفيعة تغيّر النفوس الوضيعة، وهذا ما تعرّض ابن خفاجة له: «وقال يعاتب بعض إخوانه، وقد اجتاز على الجزيرة فلم يعرّج على مكانه، على حين ولي رسم الكتابة، ودعي لخطّة الوزارة:

قُل لِلمُقيمِ مَعَ النُفوسِ عَلاقَةً ... يا راكِباً ظَهْرَ المَطِيِّ بُرَاقَا
لِم صِرْتَ تَرغَبُ عَنْ سَجَايَا حُرَّةٍ ... قَدْ كُنْتَ مُقتَنِياً لَهَا أَعْلَاقَا
أَتَمُرُّ لَا تُلوي عَلَى مَثْوَى أَخِي ... ثِقَةٍ وَلَا تَقِفُ الرِّكَابَ فُواقَا
أَتُرى الوِزارَةُ غَيَّرَتكَ خَلِيْقَةً ... إِنَّ الوِزَارَةَ تَنْقُلُ الأَخْلاقَا[2]

أمّا الشكوى فتنقسم عدّة أقسام:

١- الشكوى من الزمان:

ثمّة صورة فريدة لخفض الزمان عِلية الناس، ورفعه لسفلتهم في قول ابن خفاجة:

مَا لِلزَّمَانِ يَجُورُ فِي أَبْنَائِهِ ... حُكْماً وَيَرْمُقُهُمْ بِعَيْنِ العَائِبِ
فَيَحُطَّ عُلْوَهُمُ وَيَرْفَعَ سُفْلَهُمْ ... فَكَأَنَّهُمْ قَلَمٌ بِيُمْنَى كَاتِبِ[3]

٢- **شكوى حقيقيّة** من إنسان ظالم تعدّى عليه فشكاه إلى الأمير ابن تيفلويت[4].

٣- الشكوى من الأمراء:

قد سبق أن وجدنا ابن خفاجة يشكو للأمير تميم أمراً، ويطلب منه كتاب شفاعة في أولى قصائد الديوان:

---

١ - الديوان: ٥٠.
٢ - الديوان: ١٦٢.
٣ - الديوان: ٣٥٧.
٤ - انظر الديوان: ١٧٠.

وَبِي مَسُّ شَكْوَى لا أُطِيقُ لَهَا السُّرَى فَإِنْ لَمْ أَطَأْ بَابَ الأَمِيرِ فَعَنْ عُذْرِ[1]

ثمّ وجدناه يشكو الأمير نفسه، لمّا «تعسّف في أمر الحريّة، وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة» فقال:

وَأَشْكُو لَوْ شَكَوْتُ إِلَى مُصِيخٍ لَيَالِيَ لا تُوَقِّرُ مِنْ مَشِيْبِي[2]

وثمّة شكوى أشدّ قسوة وأعلى صوتاً، ممزوجة بعتب شديد أرسلها للأمير إبراهيم سنة (٥١٤ هـ)، قال فيها:

أَمِثْلُكَ مَوْجُوْدٌ بِحِمْصَ مُؤَمَّراً عَزِيزاً وَمِثْلِي بِالعِرَاقِ ذَلِيْلُ
أَيَجْمُلُ أَنِّي شِيْعَةٌ وَصَنِيْعَةٌ وَيَبْهَظُنِي عِبْءٌ عَلَيَّ ثَقِيْلُ[3]

٤- الشكوى من الهرم:

بدأت شكوى ابن خفاجة من تقدّمه في السنّ وهو في الخمسين، فرأى نفسه أنّه استعجل "طيّ المراحل"، وأنّه صار ينوء "بعبء السقم" كما سلف[4]، وبعد الستّين من عمره وفي سنة (٥١٤ هـ) بالتحديد يصف نفسه بأنّه "ابن كبرة" ذو شحوب لا يستطيع الرحيل[5]، وفي السنة نفسها يرى بأنّ الهرم هو سبب افتقاده للعيش الكريم:

مَالَ بِي عَنْ عِيشَةٍ كَرُمَتْ عُمُرٌ أَدَّى إِلى الهَرَمِ[6]

ولم يتسبّب كبر السنّ بفقد ابن خفاجة للحسناوات اللواتي صرن يقلن له يا عمّ[1]، وصار يقول لهنّ يا ابنتي فقط ، بل أدّى إلى تراجع في عمل حواسّه الأساسية كالسمع والبصر[2].

---

١ – الديوان: ٢٧.
٢ – الديوان : ٩٣.
٣ – الديوان : ٢٩٥.
٤ – الديوان : ٢٦٢.
٥ – الديوان : ٢٩٦.
٦ – الديوان : ١٠٨.
١ – الديوان : ٨١.
٢ – الديوان : ٢٣٧.

وحينما بلغ الحادية والثمانين من العمر لم يبق له أي أنس أو متعة بغذاء أو هناءة بنومة[1].

وأخيراً فإنّ الشيب الذي يشكو منه ويرغب عنه، صار يرغب به، ويبقيه ليبقى حيّاً:

أَمـا وَشَـبابٍ قَـد تَرامَـت بِـهِ النَّـوى ... فَأَرسَـلْتُ في أَعقابِـهِ نَظْـرَةً عَبْـرَى
لَقَـد رَكِبَـتْ ظَهْـرَ السُّـرى بِيَ نَومَـةٌ ... فَأَصـبَحتُ في أَرضٍ وَقَـد بِـتُّ في أُخْـرى
فَهـا أَنـا لا نَفْـسٌ تَخِـفُّ بِهـا الـمُنَى ... فَتَلْهُـو وَلا سَمْـعٌ تطـوُرُ بِـهِ بُشْـرى
أُقَلِّـبُ جَفْنـاً لا يَجِـفُّ فَكُلَّمـا ... تَأَوَّهـتُ مِن شَكوى تَأَمّلْتُ عَن شَكْرى
وَإِنّي إِذا مـا شـاقَني لِـحَمامَةٍ ... رَنـينٌ وَهَـزَّتني لِبارِقَـةٍ ذِكْـرى
لأَجمَـعُ بَـينَ المـاءِ وَالنَّـارِ لَوعَـةً ... فَمِـن مُقْلَـةٍ رَيّـا وَمِـن كَبِـدٍ حَـرّى
وَقَد خَفَّ خَطبُ الشَّـيبِ في جانِبِ الرَّدى ... فَصارَت بِـهِ الصُّغرى الَّـتي كانَـتِ الكُبْـرى
وَلِلشِّـعْرِ عِنْـدِي كُلَّمـا نَـدَبَ الصِّـبَا ... فَـأَبكى مَحَـلٌّ أَلْـحَقَ الشِّـعْرَ بالشِّعْرى[2]
فَلَيـتَ حَـديثاً لِلحَداثَـةِ لَـو جَـرَى ... فَأَسْـلَى وَطَيفـاً لِلشَّـبيبَةِ لَـو أَسْـرَى

٥- الشكوى من الأمراض:

يبدو أنّ المرض قد غزا شاعرنا منذ الخمسين من عمره مراراً وتكراراً فنجده يقدّم لعدد من قصائده ومقطّعاته بما يدلّ على ذلك ويؤكّده،كقوله:«وقال في أثناء علّة»[3] و«قال وهو موعوك». و«قال وقد عاده أبو عبد الله بن عائشة رحمه الله»[1].

ويعتذر ابن خفاجة عن عدم الإطالة في مدح أحد أصدقائه بسبب المرض: «وقال وهو مضطجع»[2].

---

١ – الديوان : ٣٥٥.
٢ – الديوان : ١٤٨ – ١٤٩.
٣ – الديوان : ٢٦٢.
١ – الديوان : ١٤٥– ٢٦٦.
٢ – الديوان : ٢٦٣.

وثمّة قصيدة له نظمها في أثناء حمّى أصابته فأرقصته هزّة، وأنطقته بقصيدة فيها حكمة واعتراف ذاتيّ وذكريات جميلة، «وقال في أثناء شكاية:

أَلا إِنَّهـا سِـنٌّ تَزيْـدُ فَـأَنقُصُ ... وَنفضَـةُ حُمَّـى تَعتَريـني فَـأَرقُصُ
فَهـا أَنـا أَمحـو مـا جَنيـتُ بِعَـبرَتي ... وَأَنظُـرُ في مـا قَـد عَمِلـتُ أُمَحِّـصُ
وَألـمَحُ أَعقـابَ الأُمـورِ فَـأَرعَوي ... وتَسْتَشْـرِفُ الـدُّنْيا إِليّ فَـأَحْرِصُ
أُقَلِّـبُ عَـيْنَ الـرأْيِ طَـوْراً فَـأَجْتَلِي ... وَيُعمـى عَلَـيَّ الأَمـرُ طَـوراً فَـأَفحَصُ
وَيـا رُبَّ ذَيـلٍ لِلشَّـبابِ سَـحَبتُهُ ... وَمـا كُنـتُ أَدري أَنَّـهُ سَـيُقَلَّصُ
وَلَمحَـةِ عَـيشٍ بَـينَ كَـأسٍ رَوِيَّـةٍ ... تُـدارُ وَظَـبيٍ بِـاللِّوى يُتَقَـنَّصُ
أَلا بـانَ عَـيشٌ كـانَ يَنـدى غَضـارَةً ... فَيـا لَيـتَ ذاكَ العَـيشَ لَـو كـانَ يَـنكُصُ
وَعِـزٌّ شَـبابٍ كـانَ قَـد هـانَ بُرهَـةً ... أَلا إِنَّهـا الأَعـلاقُ تَغلـو وَتَـرخُصُ
فَمَـن مُبلِـغٌ تِلـكَ اللَّيـالي تَحِيَّـةً ... يَعُـمُّ بِهـا طَـوراً وَطَـوراً يُخَصِّـصُ
عَلـى حـينَ لا ذاكَ الغَمـامُ يُظِلُّـني ... وَلا بَـردُ تِلـكَ الـريحِ يَسـري وَيَخلُـصُ
وَقَـد طَلَعَـتْ لِلشَّـيْبِ بـيضُ كَواكِـبٍ ... أُقَلِّـبُ فيهـا نـاظِري أَتَخَـرَّصُ
كَـأَنْ لَمْ أُقَبِّـلْ صَـفحَةَ الشَّـمسِ لَيلَـةً ... وَلَم يَتَعِلْ لِي دُونَهـا النَّجْمَ أَخْمَـصُ[1]
وَلا بِـتُّ مَعشـوقاً تَطـيرُ بِأَضـلُعي ... قَطَـاةٌ لَهـا بَـينَ الجَـوانِحِ مَفْحَـصُ

٩: الهجاء

وصف ابن عميرة الضبّيّ ابن خفاجة بأنّه «خبيث الهجاء»[1] ولكنّنا لا نجد في ديوانه من هذا الهجاء الخبيث إلّا نتفة واحدة أفحش فيها[2]، وهي لا تعدّ دليلاً كافياً على هذا الوصف، ولعلّ ندرة هذا الفحش أنّ بعض رواة الديوان «استثنى ما فيه من هجاء» كما يقول ابن الأبّار[3].

---

١ – الديوان : ٢٧٨.

١ – بغية الملتمس: ١٩٨.

٢ – انظر الديوان : ٣٥٢.

٣ – المعجم في أصحاب القاضي الصدفي: ٥٩.

وينقسم هجاؤه قسمين اثنين:

١- ذمّ جماعي

فقد هجا ابن خفاجة جيش المرابطين الهارب المتقهقر[١]، وهجا ابن خفاجة – كذلك – أقواماً لم يحدّدهم من مبغضيه وحاسديه[٢]. وهجا بعض اللئام الذين يتكشّفون عند الفحص.

٢- ذمّ الأفراد

ذمّ ابن خفاجة أشخاصاً متعدّدين من ذكور وإناث، وأحوالاً مختلفة غير سويّة للناس؛ فذمّ البخيل والمتزمّت والجاهل والمنافس له، والأسود والحسود، والأسود البليد[٣]، وذمّ ابن خفاجة شعر شاعر شعرور وخطّه، «وقال في ذمّ خطّ واستبراد شعر:

لَحَــى اللهُ أبْيَاتــاً بَعَثْــتَ ذَمِيمَــةً فَلَــوْ كُــنَّ أَعْضَــاءً لَكُــنَّ مَخَارِجَــا

مُعَوَّجَــةً أَسْــطَارُهَا وَحُرُوفُهَــا كَــأَنَّ بِهَــا مِــنْ بَــرْدِ لَفْظِــكَ فَالِجَــا

وَلَا عَجَــبٌ مِــنْ سُــخْفِهِنَّ فَإِنَّــهُ إِذَا سَــاءَ فِعْــلُ الــمَرْءِ سَــاءَ نَتَائِجَــا[٤]

وذمّ من النساء ذات الخال، والحالية المتحلّية بالدرّ وهي لا تستحقّه.

١٠: الرثاء

يتسم رثاء ابن خفاجة بالعاطفيّة والذاتيّة والتنوّع، وينقسم أقساماً متعدّدة:

١- رثاء المدن:

رثى ابن خفاجة مدينة بلنسية التي حرّرها المرابطون من نير السيّد القمبيطور سنة (٤٩٥ هـ)، ولكنّه لم يخرج منها حتّى أحرقها، «فقال يصف حال بلنسية بعد أن أحرقها النصارى عند خروجهم منها، سنة خمس وتسعين وأربعمئة:

---

١ – الديوان : ١٠٩.

٢ – انظر الديوان : ٢٢٤ ، ٢٢٥.

٣ – انظر الديوان : ٢٣٥ ، ١٦٥ ، ٦٨ ، ١٤٥ – ١٤٦ ، ٧٧ ، ٢٧٤.

٤ – الديوان : ٣٥٣.

عَاثَــتْ بِسَــاحَتِكِ العــدا يَــا دَارُ وَمَحَــا مَحَاسِــنَكِ البِلَــى وَالنَّــارُ

وَإِذَا تَــرَدَّدَ فِي جَنَابِــكِ نَــاظِرٌ طَــالَ اعْتِبَــارٌ فِيْــكِ وَاسْــتِعْبَارُ

أَرْضٌ تَقَاذَفَــتِ الخُطُــوبُ بِأَهْلِهَــا وَتَمَخَّضَــتْ بِخَرَابِهَــا الأَقْــدَارُ

كَتَبَــتْ يَــدُ الحَــدَثَانِ فِي عَرَصَــاتِهَا «لَا أَنْــتِ أَنْــتِ وَلَا الدِّيَــارُ دِيَــارُ»[1]

٢- رثاء النفس:

وهو موضوع شجيّ تعرّض له نفر من الشعراء عند إحساسهم بدنوّ آجالهم، وسبق أن ذكرنا أنّ ابن خفاجة صنع أبياتاً لتكتب على شاهدة قبره[2].

٣- رثاء الأمراء:

لم يرث ابن خفاجة مؤسّس دولة المرابطين وأميرها الأوّل يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠ هـ) مع أنّه عاصره زمناً طويلاً، بل إنّه لم يرث أحداً من أمراء المرابطين الذين عاصرهم والتقاهم سوى الأمير ابن تيفلويت (ت ٥١٠ هـ) الذي كان أقرب الأمراء إليه ورثاه بمقطوعتين عارض فيهما مقطوعة لابن باجة، قال في إحداهما:

لا لَعَمْــرُ المَجْــدِ وَالكَــرَمِ وَمَــزَارِ البَيْــتِ وَالحَــرَمِ

لا سَــلَوْتُ الــدَّهْرَ عَــنْ مَلِــكٍ طَلْــقِ وَجْــهِ العُــرْفِ وَالشِّــيَمِ

هَــذِهِ نُعْمَــاهُ مِــلءُ يَــدِي وَنَثَــا حُسْــنَاهُ مِــلْءُ فَمِــي[1]

٤- رثاء الأقارب:

رثى ابن خفاجة ابن أخته محمّداً الذي توفّي شابّاً في أغمات في المغرب:

فَيــا لَغَريــبٍ فاجأَتــهُ مَنِيَّــةٌ أَتَتــهُ عَلــى عَهــدِ الشَّــبابِ تُجَلِّــحُ[2]

كَــأَنَّ لَهيبــاً بَــينَ جَنــبَيَّ واقِــداً بِــهِ وَرَكايــا بَــيْنَ جَفــنَيَّ تُمــتَحُ

---

١ – الديوان: ٣٥٤ ، وانظر قطعة في رثاء مصنع جميل: ١٣٧.

٢ – انظر الديوان: ٣٦٣.

١ – الديوان : ١٠٦.

٢ – الديوان : ٢٦٧، ٢٦٨ .

جَلَسْتُ أَسُوْمُ الدَّهْرَ فِيْهِ مَلَامَةً وَكُنتُ كَما قَدْ قُمْتُ أُثْنِي وَأَمْدَحُ
تَرى بي إذا أَعْوَلْتُ حُزْناً حَمَامَةً تُرِنُّ وَطَوْراً أَيْكَةً تَتَرَنَّحُ
غَريقاً بِبَحرِ الدَّمْعِ وَالهَمِّ وَالدُّجى وَلَو كَانَ بَحْراً وَاحِداً كُنْتُ أَسْبَحُ

٥- رثاء الأصدقاء:

ذكر ابن خفاجة أسماء بعض أصدقائه الذين رثاهم بأعيانهم وأقربهم إلى قلبه قاطبة هو صديق طفولته وشبابه عبد الله بن ربيعة، وقد رثاه بثلاث قصائد من روائع شعر الرثاء وقد تكون مقطّعات الرثاء خالية من الأسماء ولكنّها عامرة بالمعاني، كقوله «يرثي صديقاً له من أبيات[1]:

تَيَقَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ جِيْرَةً فَأَزمَعَ عَن دَارِ الحَياةِ رَحِيلا
فَإِنْ أَقفَرَتْ مِنْهُ العُيُوْنُ فَإِنَّهُ تَعَوَّضَ مِنْها بِالقُلوبِ بَدِيلا
وَلَمْ أَرَ أُنْساً قَبْلَهُ عَادَ وَحْشَةً وَبَرْداً عَلَى الأَكْبَادِ عَادَ غَلِيلا
وَمَنْ تَكُ أَيّامُ السُّرُورِ قَصِيْرَةً بِهِ كَانَ لَيْلُ الحُزْنِ فِيْهِ طَوِيلا

ويبدو أنّ سبحة حياة أصدقاء ابن خفاجة قد انفرطت، فتوالى فقد الأصدقاء والأخلّاء، وكأنّه صار يوميّاً:

أَفِي كُلِّ يَومٍ رَجفَةٌ لِمُلِمَّةٍ بِفَقدِ خَليلٍ يَملأُ العَيْنَ مُؤْنِسِ
أَبيتُ لَهُ تَندى جُفوني لَوعَةً كَما دَمَعَت تَحتَ الحَيا عَينُ نَرْجِسِ
وَحَسبي إذا ما أَوْحَشَتْنِيَ كُربَةٌ بِمُؤنِسِ يَعقوبٍ وَمُنقِذِ يُوْنُسِ[1]

لذلك صار يندب أحبّته بالجملة بعد أن بانوا وكأنّهم ما كانوا، وتارة يندب قبورهم الدوارس التي محاها السيل[2]، بيد أنّ الغريب حقّاً أنّه يجمع في القصيدة بين أغراض غير

١ – الديوان : ٣٦٩ ، ٣٧٠.
١ – الديوان : ١٨٣.
٢ – الديوان : ١٧٧.

متّسقة، وقد تبدو متناقضة كجمعه بين الرثاء والمديح في مديح ابن زهر السالف، وأغرب منه بدؤه بالغزل في قصيدة الرثاء[1].

١١: الزهد

لابن خفاجة بضع قطع في غرض الزهد وما يتعلّق به، زهد فيها بحطام الدنيا بعد أن فارق الشباب، بل زهد حتّى في الصورة الفنّيّة التي تميّز بها في شعره، وتساوى لديه كلّ ما فيها من حزن وسرور، لأنّ مصير كلّ شيء هو الفناء. وكما لبس ابن خفاجة القناعة حلّة أغنته عن كثير من الانتجاع، فإنّ القناعة قد ترسّخت فيه حتّى صارت زهداً حقيقياً ودعوة إلى الزهد، قال:

أَلا قانِعٌ مِن مُلْكِ كِسرى بِكِسرَةٍ ... فَما الوَجدُ إِلَّا الخُلدُ لا ما حَبا كِسْرى
فَما بالُنا وَالمالُ عُرضَةُ حادِثٍ ... تَرَكْنَا مَطايا الرِّيحِ في إِثرِهِ حَسْرَى
وَما الغَيُّ إِلَّا أَن يُعَبِّدَنَا الهَوَى ... وَلَم نَدْرِ جَهْلاً أَنَّنَا مَعْشَرٌ أَسْرى
وَقَد لَاحَ صُبحُ الشَّيْبِ وَانسَلَخَ الصِّبَا ... فَيا صُبْحَ ما أَجْلَى وَيَا لَيْلَ مَا أَسْرى
فَيا لَيْتَ أَنّي مَا خُلِقْتُ لِمَطْعَمٍ ... وَلَمْ أَدرِ مَا اليُسْرَى هُنَاكَ وَلَا العُسْرى
فَلَستُ أَراني وَالمَغَبَّةُ خِسَّةٌ ... يَفي غَسْلِيَ اليُمْنى بِغَسْلِيَ اليُسْرى[1]

ويدعو ابن خفاجة للاستعداد للبعث والحساب بالعمل الصالح الذي يمهّد له منزله الأخير، دالّاً على إيمانه العميق بالبعث والنشور فليس عجيباً أن يتكوّن الإنسان ثانية بعد أن يغدو تراباً، إذ إنّه رأى كيف يتكوّن أوّلاً:

كَفَى حِكْمَةً لِلَّهِ أَنَّكَ صائِرٌ ... تُرَاباً كَما سَوّاكَ قَبْلُ فَعَدَّلَكْ
وَلَيْسَ بِخافٍ كَيْفَ كَوْنُكَ ثَانِياً ... وهَا أَنْتَ رَاءٍ كَيْفَ كَوَّنَ أَوَّلَكْ
فَهَل أَنتَ في دارِ الفَنَاءِ مُمَهِّدٌ ... مَحَلَّكَ في دَارِ البَقَاءِ وَمَنْزِلَكْ[2]

---

١ – الديوان : ١٩٨ ، ٥٢ – ٥٣.

١ – الديوان : ١٦٤.

٢ – الديوان : ٢١٥.

ويفنى شباب ابن خفاجة ويرتحل أترابه وأهله وأحبّته، ويعلم أنّه مهما طال عمره فإنّه سيلحق بهم ينظر فلا يرى لنفسه توبة نصوحاً فينوح على نفسه، وليس هذا بكثير لمذنب قربت نهايته[1]، ويحثّ ابن خفاجة على العبادة والقيام وخشية الخالق والخضوع له من دون رياء، ويثني على من يقوم بذلك، ثمّ يتذكّر نفسه ويتحسّر على غوايتها وتفريطها زمن الشباب فيعضّ يديه ندماً، ويتضرّع إلى الله سبحانه وتعالى أن يعامله بما هو سبحانه أهل له لا ما يستحقّه الشاعر:

طُوْبَى لِعَبْدٍ قَامَ خِشْيَةَ رَبِّهِ ... وَاللَّيْلُ قَدْ ضَرَبَ الظَّلَامَ رِوَاقَا
خَضِلِ المَدَامِعِ خَوْفَ عَرْضَةِ مَالِكٍ ... خَضَعَ المُلُوْكُ لَهُ بِهَا أَعْنَاقَا
وَالنَّاسُ مِنْ كَابٍ هُنَاكَ وَسَابِقٍ ... قَدْ أُلْزِمُوا أَعْمَالَهُمْ أَطْوَاقَا
فَحَنَانَكَ اللَّهُمَّ فِي عَبْدٍ غَوَى ... زَمَناً فَشَدَّ إِلَى الفُسُوقِ نِطَاقَا
قَلِقِ المَضَاجِعِ بَاتَ يَقْرَعُ سِنَّهُ ... نَدَماً وَيُرْسِلُ دَمْعَهُ إِشْفَاقَا
سَحَبَ الشَّبِيبَةَ فِي الغَوَايَةِ ضِلَّةً ... حَتَّى تَسَرْبَلَ ثَوْبَهَا أَخْلَاقَا
فَلَئِنْ سَطَوْتَ بِهِ فَلا ظُلْماً لَهُ ... وَلَئِنْ صَنَعْتَ لَهُ فَلَا اسْتِحْقَاقَا[1]

ويتبدّى في مقطّعات ابن خفاجة الزهديّة صدقه العميق، وتوبته النصوح، وحزنه الشديد على ما فرّط في جنب الله، وتسليمه الأمر لله عزّ وجلّ.

١٢: الحكمة والاعتبار

عاش ابن خفاجة حياة مديدة زادت على الثمانين من السنين، وخبر الزمان وأهله، وانتقل من سلوك عابث لاهٍ إلى سلوك متعقّل متّزن، فصرنا نراه يتحدّث عن "العقل الوافر" والعمل "بمقتضى الشريعة والعقل" كما أنّ شعوره بالوَحدة والفقد أعطاه رؤية خاصّة للحياة والكون والمصير، وأن يكون للحكمة والاعتبار حيّز واضح في شعره، وزيادة على ما في بعض أغراضه الأخر كالرثاء والزهد والمديح من أبيات في الحكمة فإنّ له نتفاً

١ – الديوان : ٣١٠.
١ – الديوان : ٢١٤.

ومقطّعات في الحكمة والتوجيه والاعتبار والتأمّل ، تنقسم ثلاثة أقسام:

أ- التعاليم الأخلاقية والسلوكيّة

١-كتم السرّ[١].

٢- حفظ اللسان.

٣- تنبيه الأطفال والشباب بالزجر أو الكلام:

ثمّة مقطوعتان لابن خفاجة «وقال يحمل على تنبيه أفهام الشباب[٢]:

نَبِّــهْ وَلِيْــدَكَ مِــنْ صِــبَاهُ بِزَجْــرَةٍ ... فَلَرُبَّمَــا أَغْفَــى هُنَــاكَ ذَكَــاؤُهُ

وَانْهَــرْهُ حَــتَّى تَسْــتَهِلَّ دُمُوعُــهُ ... فِي وَجْنَتَيْــهِ وَتَلْتَظِــي أَحْشَــاؤُهُ

فَالسَّــيْفُ لَا تَذْكُــو بِكَفِّــكَ نَــارُهُ ... حَــتَّى يَسِــيْلَ بِصَــفْحَتَيْهِ مَــاؤُهُ»

ب- رؤيته العامّة للحياة

١ - الحثّ على اغتنام صفو الزمان[١]

٢- الدعوة إلى المخاطرة في طلب الرزق: قال:

جَــرِّرْ مُــلاءَةَ كُــلِّ يَــومٍ شــامِسِ ... وَاسْــحَبْ ذُؤابَــةَ كُــلِّ لَيْــلٍ دامِــسِ

وَاطلُــعْ بِكُــلِّ فَــلاةِ أَرضٍ غُــرَّةً ... غَــرّاءَ في وَجــهِ الظَّــلامِ العَــابِسِ

وَانــزِلْ بِهــا ضَــيْفاً لِلَيْــثٍ خَــادِرٍ ... يَقْرِيْــكَ أَوْ جَــاراً لِظَــبْيٍ كَــانِسِ

وَإِذا طَعِمْــتَ فَمِــنْ قَنِــيْصٍ فِلْــذَةً ... وَإِذا شَــرِبْتَ فَمِــنْ غَمَــامٍ رَاجِــسِ

وَالرِّيْــحُ تَلْــوِي عِطْــفَ كُــلِّ أَراكَــةٍ ... لَيَّ السُّــرَى وَهْنــاً لِعِطْــفِ النَّــاعِسِ

وَسَلِ الغِنى مِنْ ظَهْرِ طِرْفٍ أَشْقَرٍ ... يَطَــأُ القَتِيْــلَ وَصَــدْرِ رُمْــحٍ دَاعِــسِ[٢]

---

١ – الديوان: ٦٢.

٢ – الديوان: ١٠١، والواضح أنّ ابن خفاجة في هذه القطع يهتمّ بإبراز المعنى وتوضيحه أكثر من عنايته بإخراجه في ثوب قشيب من الصور الفنّيّة، وهذا من نكد الشعر ، كما قال الأصمعي.

١ – الديوان: ٢٤٩.

٢ – الديوان : ٢٢٨.

ج – النظر والتفكّر والاعتبار

في رسالة ابن خفاجة لأستاذه ابن صواب بعد أن أكمل الستّين من العمر ذكر ابن خفاجة أنّه أرق ليلة فتلدّد ينظر في أعقاب ما مضى من عمره، فقال قطعة شعريّة، ثمّ أعول وانتحب «وَحُقَّ لِمَنْ شَاهَدَ تَضَعْضُعَ أَرْكَانِهِ، وَتَدَاعِيَ بُنْيَانِهِ، وَذَهَابَ خِلّانِهِ، وَإِدْبَارَ عُمْرِهِ وَزَمَانِه، أَنْ يُطْرِقَ هُنَالِكَ فِكْرَةً، وَيَمْلأَ جَفْنَيْهِ عَبْرَةً، وَيُرَدِّدَ الأَسَفَ جَمْرَةً، حَتَّى يَذُوبَ كَمَداً أَوْ يَقْضِيَ حَسْرَةً»[1]. وتغيّر ما كان من اعتداد ابن خفاجة بفتوّة الصبا، وما فيها من لهو إلى الانزواء وحيداً، واعتزال الناس أحياناً، والتفكّر في حاله والبحث عن نفسه[2]:

وَشَأْنُ مِثْلِي أَنْ يُرَى خَالِياً ... بِنَفْسِهِ يَبْحَثُ عَنْ نَفْسِهِ

غير أن أهمّ ما في حكمه هو الاعتبار الذي يبوح به في حديث ذاتيّ مع الجبل في أثناء ذرعه البلاد شرقاً وغرباً، وسيره وحيداً في الليل البهيم، وقدّم للقصيدة بقوله: «وقال في الاعتبار:

بَعَيشِكَ هَلْ تَدْرِي أَهُوْجُ الجَنَائِبِ ... تَخُبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النَّجَائِبِ
فَما لُحْتُ في أُوْلَى المَشَارِقِ كَوكَباً ... فَأَشرَقْتُ حَتَّى جُبْتُ أُخْرَى المَغَارِبِ
وَحِيْداً تَهَادَانِي الفَيَافِي فَأَجْتَلِي ... وُجُوْهَ المَنَايَا فِي قِنَاعِ الغَيَاهِبِ
وَلا جَارَ إِلَّا مِنْ حُسَامٍ مُصَمَّمٍ ... وَلا دَارَ إِلَّا فِي قُتُودِ الرِّكَائِبِ
وَلا أُنْسَ إِلَّا أَنْ أُضَاحِكَ سَاعَةً ... ثُغُورَ الأَمَانِي فِي وُجُوهِ المَطَالِبِ
بِلَيلٍ إِذا ما قُلْتُ قَدْ بَادَ فَانْقَضى ... تَكَشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظَّنِّ كَاذِبِ
سَحَبتُ الدَّياجي فيهِ سُوْدَ ذَوائِبٍ ... لِأَعْتَنِقَ الآمَالَ بِيْضَ تَرَائِبِ
فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيلِ عَن شَخْصِ أَطْلَسٍ ... تَطَلَّعَ وَضّاحِ المَضاحِكِ قَاطِبِ
رَأَيتُ بِهِ قِطْعاً مِنَ الفَجْرِ أَغْبَشاً ... تَأَمَّلَ عَنْ نَجْمٍ تَوَقَّدَ ثَاقِبِ
وَأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤَابَةِ بَاذِخٍ ... يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ

---

١ – الديوان : ٦٥.

٢ – الديوان : ١٦٢.

يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وُجْهَةٍ ... وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهْبَهُ بِالمَناكِبِ
وَقُوْرٍ عَلَى ظَهْرِ الفَلَاةِ كَأَنَّهُ ... طَوَالَ اللَّيَالي مُطْرِقٌ في العَوَاقِبِ
يَلُوْثُ عَلَيْهِ الغَيْمُ سُوْدَ عَمَائِمٍ ... لَهَا مِنْ وَمِيْضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ
أَصَخْتُ إِلَيْهِ وَهْوَ أَخْرَسُ صَامِتٌ ... فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالعَجَائِبِ
وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَ فَاتِكٍ ... وَمَوْطِنَ أَوّاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبِ
وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ ... وَقَالَ بِظِلِّي مِنْ مَطِيٍّ وَرَاكِبِ
وَلاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيَاحِ مَعَاطِفِي ... وَزَاحَمَ مِنْ خُضْرِ البِحَارِ جَوَانِبِي
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَتْهُم يَدُ الرَّدَى ... وَطَارَتْ بِهِمْ رِيْحُ النَّوَى وَالنَّوائِبِ
فَمَا خَفْقُ أَيْكِي غَيْرَ رَجْفَةِ أَضْلُعٍ ... وَلا نَوْحُ وُرْقِي غَيْرَ صَرْخَةِ نَادِبِ
وَمَا غَيَّضَ السُّلْوَانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا ... نَزَفْتُ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الأَصَاحِبِ
فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيَظعَنُ صَاحِبٌ ... أُوَدِّعُ مِنْهُ رَاحِلاً غَيْرَ آيِبِ
وَحَتّى مَتَى أَرْعَى الكَوَاكِبَ سَاهِراً ... فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرَى اللَّيَالِي وَغَارِبِ
فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعٍ ... يَمُدُّ إِلى نُعْمَاكَ رَاحَةَ رَاغِبِ
فَأَسْمَعَنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلَّ عِبرَةٍ ... يُتَرجِمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
فَسَلَّى بِمَا أَبْكَى وَسَرَّى بِمَا شَجَا ... وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرى خَيْرَ صَاحِبِ
وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَّبْتُ عَنْهُ لِطِيَّةٍ ... سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيْمٍ وَذَاهِبِ[1]

وبعد؛ فهذه الدراسة مقدّمة لدراسة أدب ابن خفاجة دراسة معمّقة، والاقتصار على أدبه لسبر أغواره واستكناه بنيته الأولى والنفوذ إلى وحداته التكوينيّة؛ للوصول إلى جوهر شعره ونثره، وسحر إبداعه وسرّ خلوده، وهي خطوة أولى تتبعها خطوات إن شاء الله تعالى، فابن خفاجة أديب يستأهل أن يبذل في دراسة أدبه الوقت الوفير، ويراق في الكتابة عنه المداد الكثير، إنّه أديب شاعر وناثر كبير، جدير بهذا اللقب جدارة لا يختلف عليها ناقدان اثنان، ويستحقّ كلّ إكبار وتقدير.

---

١ – الديوان : ٢١٥ – ٢١٧.



الفصل السادس

تحليل قصيدة

ابن حمديس

رثاء جوهرة

ابن حمديس الصقلّي

١- يهـــدمُ دارَ الحيـــاةِ بانيهـــا ... فـــأيُّ حـــيٍّ مخلّـــدٌ فيهـــا

٢- وإنْ تـردّتْ[١] مـنْ قَبْلِنَـا أممٌ ... فَهْـيَ نفـوسٌ رُدّتْ [٢]عواريهـا

٣- أَمَـا تراهـا كأنّهـا [٣]أُجُـمٌ ... أَسْـوَدُها[٤] بيننـا دواهيهـا

٤- إن سـالمتْ وهْـيَ لا تسـالِمُنَا ... أيّامُنـا حاربـتْ لياليهـا

٥- واوحشـتا مـنْ فـراقِ مؤنسـةٍ ... يميتنـي ذكرُهـا ويحييهـا

٦- أذكُرُهَـا والـدموعُ تسـبقني ... كـأنّني للأسـى [٥]أجاريهـا

٧- يا بحرُ أرخصتَ غيرَ مكترثٍ ... مَـنْ كنـتُ لا للبيـاعِ أُغليهـا

٨- جـوهرةً كـانَ خـاطري صـدفاً ... لهـا أقيهـا بـهِ وأحميهـا

٩- أَبَتَّهـا فـي حشـاكَ مُغْرَقَـةً ... وبـتُّ فـي سـاحلَيْكَ أبكيهـا

١٠- ونفحةُ[٦] الطيبِ في ذوائبها ... وصـبغةُ الكحـلِ فـي [٧]مآقيهـا

١١- عانَقَهـا البحـرُ ثـمَّ فارقهـا ... عـنْ ضـمّةٍ فـاضَ روحُهـا فيهـا

١٢- ويلي من الماءِ والترابِ ومنْ ... أحكـامِ ضـدّينِ حُكِّمَـا فيهـا

١٣- أماتَهـا ذا وذاكَ غَيَّرَهَـا ... كيـفَ مـنَ العنصـرينِ[٨] أَفـديها

١- رَدِيَ وتردَّى في البئر: تهوَّر في مهواة، وسقط ومات.

٢- العَارِيَة والعَارِيَّة والعَارَة: ما تداوله الناس بينهم، جمعها: عواريُّ وعوارٍ، وعاره الشيء: منحه إيّاه عاريةً .

٣- الأَجَمَة: الشجر الكثير الملتفّ، الجمع (ج): أَجَم، وجمع الجمع (جج):إِجَام، وجمع جمع الجمع (جججج): أُجُم وأُجْم، وجمع جمع جمع الجمع (جججج): آجام .

٤- الأَسْوَد: العظيم من الحيّات وفيه سواد، جمعها: أساود وأساويد وأسودات .

٥- أجاريها: أجري معها وأتابعها.

٦- نَفَحَ الطيبُ: أَرِج وفاح، والنفحة من الطيب: فوحته، وتكون من غيره، جمعها: نَفَحَات .

٧- المُؤْق والمَأْق والمؤقي(ج): المآقي، من العين: طرفها ممّا يلي الأنف، وهو مجرى الدمع منها، وقيل هو المأق، والمؤخّر: المؤق.

٨- ديوان ابن حمديس: ٥١٧-٥١٨.

حياة الشاعر:

هو أبو محمّد عبد الجبّار بن أبي بكر بن محمّد بن حمديس الأزديّ الصّقلّيّ[1].

ولد سنة (٤٤٧ هـ) في صقلّيّة، ونشأ وترعرع فيها، وفي سنة (٤٧٠ هـ) غزا ملك النورمان رجّار صقلّيّة، ونزل بها، ولم يستطع الصقلّيّون دفع هذا الغزو فنزح ابن حمديس إلى صفاقس سنة إحدى وسبعين وأربعمئة، وأقام مدّة يسيرة في إفريقيّة، ومدح بعض ملوكها ولكنّه لم يجد فيها ما يشدّه إليها، فعزم الرحيل إلى الأندلس واصطحب ولداً واحداً معه، وترك زوجه وسائر أولاده وبناته، وفارق ابن حمديس أحبّته مضطّراً، وسافر عبر البحر لشؤونه، فيضجّ الحنين وتلفحه نار الشوق فيخرج هائماً على وجهه فيجد قدميه قد أوصلتا جسده المتعب إلى شاطئ البحر، فيزوره يرقب إياب سفينة لا ترجع، فيتمازج مع البحر، ويتوحّد معه فيصير هو نفسه بحراً تطفح عيونه بلآلئ الدمع الرطيب النديّ:

كَمْ ذا يَزورُ البحرَ بحرُ أسى ... في العينِ منكَ جمانُهُ رَطْبُ[2]

وينظر ابن حمديس فلا يرى إلّا زرقة البحر الممزوجة بزرقة السماء ويطول انتظاره، وينفد الصبر، ويضعف الجلد، فلا يجد إلّا الأماني يتعلّق بحبالها الواهية[3]:

وراءَكَ يا بحرُ لي جنّةٌ ... لبستُ النعيمَ بها لَا الشقاءَ

إذا أنَا حاولتُ منهَا صَبَاحاً ... تعرّضتْ مِنْ دونِهَا لي مساءَ

فلو أنّني كنتُ أُعْطَى المنَى ... إذْ منعَ البحرُ منها اللقاءَ

ركبتُ الهلالَ بهِ زَورقاً ... إلى أنْ أعانقَ فيهَا ذُكَاءَ

إذاً فقد دخل الأندلس سنة (٤٧١ هـ) أي في عهد دويلات الطوائف المتصارعة ومكث زمناً فيها، وانتقى أكثر الأمراء محبة للأدب «فمدح المعتمد بن عبّاد، وأحسن إليه

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣ / ٢١٢.

٢ - ديوان ابن حمديس: ٨.

٣- الديوان: ٤.

وأجزل عطاياه»[1]، وابتسم الزمان لابن حمديس زمناً، فذاع صيته، ولمع نجمه، وعاش منعّماً وغشي مجالس الطرب واللهو، وحضر المجالس الأدبيّة، وساجل الشعراء غير أنّ الزمان لم يدع ابن حمديس يهنأ طويلاً بل نغّص عليه عيشه بأمور متعدّدة منها: توالي سقوط المدائن الصقلّيّة وسقوط مدينته سرقوسة وسقوط الدولة العبّاديّة، وأسر المعتمد في رجب سنة (٤٨٤هـ) ونقله إلى طنجة في المغرب ثمّ منها إلى أغمات، فبقي ابن حمديس في الأندلس زمناً قصيراً بعد المعتمد.

ثمّ قرّر أن يهجر الأندلس ويلحق بالمعتمد في منفاه في المغرب وفاء ومحبة له، وفي طريق البحر انكسر المركب الذي يقلّه، وماتت جاريته جوهرة التي أهداها المعتمد إليه ونجا ابن حمديس بفضل الله، لذلك فإنّ لابن حمديس مع البحر قصّة طويلة زاخرة بالعاطفة الحزينة، وثأر مطلول بلا عقل ولا قود، فقد سرق منه جوهرته التي يضنّ بها في أثناء رحيله من الأندلس إلى المغرب، إذ عطب المركب الذي يقلّهما فغرقت جاريته جوهرة لتكفّنها الأصداف، يذكر ابن حمديس هذه الواقعة الأليمة ويبكي جاريته بدموع حمر يعقبها نزيف الروح:

أقــولُ للبحــرِ إذْ أغشــيتُهُ نَظَــرِي ... مَــا كَــدَّرَ العــيشَ إلَّا شــربُها كَــدَرَكْ

هــلَّا كففــتَ أُجَاجــاً منــكَ مــنْ أَشَــرٍ ... مــنْ ثغــرِ لميــاءَ لَــولا ضــعفُهَا أَسَــرَكْ

هــــلَّا نظــــرتَ إلى تفتــــيرِ مُقْلَتِهَــــا ... إنّي لأعجــبُ منــهُ كيــفَ مَا سَحَرَكْ[2]

ووصل ابن حمديس إلى أغمات، فسمع به المعتمد وأرسل إليه والتقاه، وتبادلا الرسائل الشعريّة.ونقّب ابن حمديس في بلاد المغرب الأقصى فالأوسط، فالأدنى، إفريقيّة، ليستقرّ عند بني باديس الصنهاجيّين، فيمدح يحيى بن تميم، ثم يمدح ابنه وحفيده ،وبعض أمراء المناطق.وألقى ابن حمديس عصا التسيار في بجاية لدى بني حمدون وفيها توفّي في شهر رمضان سنة (٥٢٧ هـ)[1]. رحمه الله تعالى.

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣ / ٢١٤

٢- الديوان:٥١٧ – ٥١٨

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٣/ ٢١٥،كشف الظنون ١ /٢٩٠

مستويات التحليل التكاملي:

أولاً: مستوى المضمون:

لا بدّ قبل أيّ تحليل عميق من الفهم الدقيق للمعاني التي تحملها القصيدة، وهذا الفهم يمرّ بمراحل متعددة؛ من الشرح الأوّليّ إلى تحديد النظائر الدلاليّة إلى التحليل اللغويّ المعنويّ وفق السياق، ومن ثمّ استنتاج خصائص المعاني.

هذه صورة مسكونة بشيء غير يسير من السحر، ممزوجة بحنين عاصف في مرثية- توشك أن تكون صلاة- تقطر حزناً وترشح ألماً تصوّر قلبه الذي لا يطيق على فراقها صبراً فيأخذ منه الحزن كلّ مأخذ، ونفسه التي ذهبت عليها حسرات، وتروي ذلك الحدث الفاجع.

١- الشرح الأوّلي:

بـ١: يبدأ الشاعر ابن حمديس الصقلّي بتمهيد لغرضِه الشعري بعرض رؤية خاصّة للحياة فيقول: إنّ مَنْ ينقض دار الحياة ويسقطها هو نفسه الذي يبنيها، لذلك لا خلود لأيّ حيّ فيها.

بـ٢: ولا عجب من هلاك الأمم الماضيات السابقات، فإنّما النفوس عارية مستردّة ترجع إلى صاحبها.

بـ٣: ينظر فيه الشاعر إلى الجانب المظلم من الحياة، فيقول كأنّ الحياة غابة كثيفة تخفي الخبيث من الحيّات التي هي مصائب الدنيا.

بـ٤: وهي في حالة حرب مستمرّة علينا، فإنْ سالمتنا الأيّام- وهذا محال- فإنّ الليالي تحاربنا وتؤذينا.

بـ٥: ينتقل الشاعر إلى رثاء جاريته جوهرة، فيذكر أثر فراقها فيه، ويندب نفسه لفقد التي كانت تؤنسه وتزيل وحشته، والتي يميته ذكرُه لها ويحييها في قلبه.

ب٦: ويقول: كلّما أذكرها فإنّ الدموع تسبقني، وكأنّني أتنافس معها في الأسى والحزن.

ب٧: ويخاطب البحر قائلاً بأنّك بخست ثمن جاريتي الغالية، وهي ليست للبيع، من دون مبالاة منك.

ب٨: أرخصتَ جوهرةً نفيسة كنت أحميها وأقيها في صدف خاطري.

ب٩: جعلتها تغرق ليلاً في أعماقك، بينما تركتني أبكيها في شواطئك.

ب١٠: ويصف مرثيته في أثناء موتها بعطر ذوائبها الفوّاح وتجملّها بالكحل.

ب١١: لقد ضمّها البحر ضمّة، وعانقها عناقاً شديداً أدّى لموتها.

ب١٢: ثمّ يلوم الشاعر عنصري الماء والتراب المتضادّين اللذين تحكّما بجوهرته.

ب١٣: فالماء أغرقها وأماتها والتراب غيّر محاسنها، فيتساءل كيف ينقذها ويفديها من العنصرين الأزليّين.

٢- النظائر الدلالية:

وهي مجموعة الأفكار التي تسير في نسق واحد، وتعبّر عن موضوع واحد أو موضوعات متقاربة، ونظائر النصّ هي:

- **النظيرة الأولى**: فناء الناس، وتشمل فكرتي تهدّم دار الحياة، وموت الأمم (ب١ -٢)
- **النظيرة الثانية**: مصائب الحياة وقسوتها، وتشمل تصويرها بغابة مليئة بالحيّات ومحاربتها للناس (ب٣-٤)
- **النظيرة الثالثة**: أثر ذكر المرثيّة فيه، موته وحياتها، مسابقته للدموع (ب٥-٦)
- **النظيرة الرابعة**: إغراق البحر لجوهرته، وفيه أفكار: إرخاص جوهرته الغالية، حماية الشاعر لها، غرقها ليلاً وبكاء الشاعر عليها وبحثه عنها، وصف الجوهرة، سبب إغراق البحر لها هو حبّه لها (ب ٧-١١)
- **النظيرة الخامسة**: تفجّع الشاعر وتحسّره عليها (ب ١٢-١٣)

٣- التحليل اللغوي المعنوي:

يبثّ الشاعر مشاعره ومعانيه بأسلوب سرديّ وخطابيّ في هذا النصّ الغنائيّ الذي تتتابع نظائره الدلاليّة لتكوّن كلّاً دلاليّاً ، وسوف نتتبع المضمون أي المعنى مشكّلاً في هذه النظائر بيتاً فبيتاً:

النظيرة الأولى: حتميّة الفناء (الآخر)

ب١: يهدم دار الحياة بانيها:

بدأ الشاعر قصيدته بفعل، والفعل يدلّ على حدث في زمن ما، وانتقى من الأزمان الزمن المضارع، والمضارع يفيد الاستمراريّة في الحدث، أمّا الحدث الذي انتقاه لبدء قصيدته فهو الهدم وهو النقض والإسقاط، إذاً فالهدم ذو الدلالة السالبة حاضر ومستمرّ.

أمّا فاعل هذا الفعل فمتأخّر عنه لغرض معنويّ بلاغيّ، وهذا الهدم يقع أثره على الدار، فكأنّنا نرى الهادم يهوي بمعوله أو فأسه على حيطان الدار، فينقض بنيانها ويسقط أسقفها، ولكنّ هذه الدار ليست داراً حقيقيّة إذ تضاف إلى شيء معنوي وهو الحياة فتغدو "دار الحياة" أو تغدو الحياةُ داراً تدبّ فيها الحركة، وهذا الهدم لا يقتصر على الدار بل يصل إلى الحياة أي تهدم الحياة وتفنى.

وأخيراً يأتي فاعل الهدم مصرّعاً كمصراع باب الدار، ليزيد الأمر دهشة فالذي يقوم بفعل الهدم هو الباني نفسه، ويحدث مفارقة شعوريّة تثير الاستغراب وتنثر رماد اليأس، ويتّصل الفاعل بالضمير "ها" العائد على دار الحياة، ليؤكّد الحدث بنوعيه البناء ثمّ الهدم.

لذلك يستفهم الشاعر في الشطر الثاني وينفي – في الوقت نفسه– بقاء أيّ حيّ يحمل صفة من صفات الحياة خالداً في هذه الدار، أي ليس هناك من حيّ مخلّد فيها، ومخلّد اسم مفعول من خُلِّد أي جُعِل خالداً، ولا نعلم مَنْ خلّده أو ما خلّده في هذه الحياة الدنيا.

ويلفت الانتباه أنّ الشطر الثاني كان جملة اسميّة كلّ عناصرها من الأسماء، والجمل

الاسميّة تدلّ على الثبوت والاستقرار، وكأنّ ما يقوله حكمة ثابتة راسخة، فالاستفهام الإنكاري يدلّ على النفي أي لا حيّ مخلّد في هذه الدار.

ب٢: ثم يسوّغ هذا الفناء أو الإفناء بطريقة مشابهة إذ يذكر في صدر البيت الثاني جملة شرط فعليّة جوابها جملة اسميّة، فيقول "إن تردّت..." والتردّي يحمل معنى الهلاك والسقوط في مهوى كالبئر ونحوه، وفصل الشاعر بين الفعل وفاعله بشبه الجملة المجرورة "من قبلنا" ليدلّ على الاستغراق في القدم، ويضيف قبل إلى "نا" الجماعة ليظهر الشاعر أوّل ظهور له ضمن الجماعة، ويأتي الفاعل "أمم" نكرة بصيغة الجمع، جمع أمّة، والأمّة ذاتها تدلّ على جمع غفير من الناس أو على جيل من كلّ شيء، ليهوّل الأمر، فالمتردّون أجيال كثيرة، ثمّ ليهوّنه في جواب الشرط الذي جاء بصيغة الجملة الاسميّة المرتبطة بالفاء "فهي نفوسٌ.." مستعارة أُعيدت إلى صاحبها الحقيقيّ، لتكون أشبه بالحقيقة الثابتة الراسخة، فلا عجب بعد ذلك ولا حزن بسبب التردّي الهائل للأمم السابقة، وردّت: جاءت بصيغة الماضي المبني للمجهول ليبتعد عن ذكر الفاعل "الموت" الذي يقوم بإعادة النفوس إلى مكانها الأوّلي.

النظيرة الثانية: مصائب الحياة (الآخر)

ب٣: أما تراها، استفهام تقريري استأنف به الكلام، ليشارك الآخر الغائب العام معه الرؤية القلبيّة للحياة في الوقت الحالي المضارع "تراها" أي أما تراها – الآن– مثلما أراها ومثلما أصوّرها لك بصورة تقريبيّة تشبيهيّة؛ "كأنها أُجُمٌ"، والأَجَمَة: الشجر الكثير الملتفّ وجمعها: أَجَمٌ، وجمع الجمع: إِجَام، وجمع جمع الجمع أُجُمٌ، أي هي كالغابات المخيفة التي تحتوي على مختلف النباتات والحيوانات وأخطرها الزواحف، الأساود أو الأَسْوَد بصيغة الإفراد أي الحيّة الخبيثة وهذه الحيّة هي دواهي الحياة ومصائبها بصيغة الجمع، فالأَسْوَدُ الواحد يساوي أو يؤدّي إلى إحداث المصائب الكثيرة، وهذا الأَسْود هو بيننا، وهذه البينيّة تدلّ على الاندساس والخفاء والمعيّة، فهو معنا وبيننا ولكن لا نشعر به إلّا عندما يعضّنا أو يعضّ أحبابنا عضّات قد تكون مميتة.

ب ٤: ويزيد الشاعر من قسوة الحياة وسوادها في البيت الرابع فيبدأ بأداة الشرط "إنْ" التي تفيد التشكّك والتقليل على خلاف إذا التي تفيد التحقّق والتأكّد، ففعل الشرط "سالمت" مشكوك في تحقّق حدوثه وهو المسالمة، وصيغة سالمَ فاعلَ وشارك أي الحياة تشارك في المسالمة مع الناس، فهو يشخّص الحياة أو الأيام تشخيصاً إنسانيّاً، فهي قد تسالم الناس وقد لا تسالمهم، ولكنّه فصل بين الفعل وفاعله بجملة اسميّة تزيد الأمر يأساً، وهي لا تسالمنا، فهي تفيد الثبات والاستقرار، فالقاعدة الأساسيّة والسمة الرئيسة لها عدم المسالمة، فهو بذلك ينفي فعل المسالمة المشروط، وينفي فعلها قبل أن يذكر فاعله، ويلغي حدث الجملة الفعليّة قبل أن تكتمل "إن سالمت... أيّامنا، فالأيّام هي الفاعل المؤخّر والفاعل "غير الفاعل"، والأيّام هي جمع يوم، واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها وقد يراد به ما يشمل النهار والليل معاً أي من الطلوع إلى الطلوع أو من الغروب إلى الغروب في اليوم التالي.

وهذه الأيّام ينسبها الشاعر إلى أنفسنا "أيّامُنا"، وفي هذا تشديد للمعنى، فالأيّام التي تعود ملكيتها لنا لا تسالمنا فمَا بالكم بالأيّام الأُخر، ثمّ يأتي جواب الشرط أخيراً بصورة تزيد المعنى قتامة وقسوة وسوداويّة "حاربت لياليها" فقد شخّص الليالي كذلك وجعلها تصارع الناس وتغالبهم وتقاتلهم، ونتيجة ذلك أنّ المصائب دائمة وأنّ صراع الإنسان مع الحياة مستمّر، ويلفت الانتباه أنّه نسب الأيّام المسالمة أحياناً لنفسه، ونسب الليالي المحاربة دائماً إلى الحياة.

النظيرة الثالثة: أثر ذكر المرثيّة فيه (الشاعر/ الجوهرة)

ب٥: ويصوّر فيه حزنه الشديد على جاريته ويبدأ بواو النُّدْبَة نادباً حياته السالفة، صارخاً بصوت مرتفع لاستيحاشه من الناس وعدم استئناسه بهم بسبب فراق مؤنسة ؛كانت من قبل تؤنسه، وهو اليوم مستوحش من دونها، أو كأنّ الفراق صار وحشاً ضارياً يؤذي الشاعر الذي لا يفتأ يذكر جوهرته، ويشخّص ذكرها الذي يجرّ عليه آلاماً جساماً فهو يميت الشاعر بصيغة الفعل المضارع أي يميته في كلّ لحظة يذكرها فيها، ولذكرها في الوقت

نفسه فعل آخر معاكس للموت وهو الإحياء حتّى ليكاد يتمثّلها الشاعر ويتحسّسها أمامه.

ب٦: ويعود في البيت التالي لذكر المحبوبة وأثره فيه، بالفعل المضارع أذكرها الذي يدلّ على الحاضر والاستمرار، أي هو لا يفتأ يذكرها، ثمّ يردف بجملة اسميّة حاليّة، والدموع تسبقني، فالدموع- بصيغة الجمع- لتهوّل الموقف، تشخّص بإسناد الفعل المضارع إليها "تسبقني" فهو يتكلّم بلسان الدمع، والدموع تسبق الشاعر، وكأنّه يباريها ويجاريها، والنتيجة فوز الدموع دائماً وهو يجاريها للأسى والتأسّي أي للعلاج من الحزن والمداواة منه، أي ليخفّف عن نفسه من شدّة الحزن، والأسى كذلك - الحزن- فيكون المعنى كأنّني أجاريها بمقدار الحزن وشدّته.

النظيرة الرابعة: لوم البحر (الشاعر- البحر- الجوهرة)

ب٧: يصرخ الشاعر في ندائه الغاضب للبحر ويشخّصه تشخيصاً إنسانيّاً ويجعله تاجراً متهوّراً يرخص الغالي، فالإرخاص من مفردات حقل التجارة والبيع والشراء، فيقول له أنت أرخصت بصيغة الماضي أي تمّ الإرخاص وانقضى الأمر، أرخص من كان يغليه الشاعر بصيغة المضارع أي حطّ البحر من قيمة شخص غالي القيمة مرتفع الثمن لا لغرض البيع بل لمكانته العالية عند الشاعر، ويعترض في هذا البيت مرّتين، فالبحر أرخص الجوهرة- غير مكترث- فاعترض بين فعل الإرخاص ومن وقع عليه الفعل مصوّراً بعبارة مفاجئة هذا البحر، فالبحر لا يقدّر قيمة من أغرق، في قبالة صورة الشاعر الذي كان يغلي هذه الجارية، واعترض بعبارة -لا للبِيَاع- بين اسم كان وخبرها كنتُ... أغليها ليبيّن شدّة حرصه عليها وتقديره لها.

ب٨: جوهرة محبوبة الشاعر وجاريته الغريقة، وقد تكون منصوبة على البدليّة من مَنْ "أرخصت... مَنْ" أو تكون مرفوعة أي هي جوهرة، وتأتي الجملة بعدها لتصف حياطته لها واهتمامه بها فهي إن كانت جوهرة أو لؤلؤة فهو قد جعل خاطره أو هاجسه وكلّ ما يخطر على القلب من تدبير أو أمر أو رأي، صدفاً في سبيل حمايتها، والصورة غريبة

فكيف يقيها بالخاطر، وهو شيء معنوي ويحوله إلى القشر المادي الصلب المنيع للصدف، وليس صدفة واحدة، فكيف للؤلؤة واحدة أن تحمى بكل الصدف، ولعلّه يريد أن يجمع كلّ الأصداف ليشكّل وقاية كاملة لها من الآخرين، أو لعلّه يعني أنّه يصونها من سائر الهواجس ويمنع صور جميع الخواطر من أن ترد على خاطره فقد أغلق خاطره على لؤلؤة ارتضاها واقتصر عليها فبذلك يحميها ويصونها ويحفظها من الأذى الناجم عن مزاحمة الأخريات لها، كما أنّها لا تغيب عن ذهنه ولا تذهب من خلده.

وكرّر فعلي الوقاية والحماية بصيغة المضارع ليدلّ على استمرار هذين الحَدَثَيْن؛ الوقاية: وهي الحفظ والصيانة، ثمّ الحماية، وهي الصيانة والمدافعة عن حبيبته، فهو ما يزال يصونها ويحفظها ويمنعها ويدافع عنها.

ب٩: أبتَّها في حشاك... يخاطب البحر الذي شخّصه تشخيصاً إنسانيّاً ويلومه فيقول له كيف جعلتها تقضي مبيتها ليلة الحادثة في حشاك، والحشا ما ضمّت عليه الضلوع أو ما تحتوي البطن، أي ابتلعها البحر حتّى وصلت إلى الحشا منه بعد أن أُغرقت، ولم يقل للبحر أغرقتَها، ولم ينسب الإغراق إليه بل جعل الذي قام بذلك مجهولاً.

وفي قبالة صورة الحبيبة المُغْرقة ليلاً في حشا البحر، صورته وهو يقضي ليلة الحادثة ساهراً لا يقرّ له قرار، متنقّلاً بين ساحلي بحر الزقاق عند مضيق جبل طارق بين الأندلس والمغرب باحثاً عن حبيبته باكياً عليها.

وإن كانت الصورة الأولى تصوّر حبيبته مغرقة مسلوبة الإرادة والحركة والبحر هو صاحب الفعل، فإنّ الشاعر في الصورة الثانية هو صاحب الفعل، كثير الحركة والانتقال بين العُدْوَتَيْن، وإن كانت الحبيبة مغرقة في البحر، فهو كذلك غريق ببحر الدمع الناجم من البكاء بالفعل المضارع أبكيها.

ب١٠: يصف حبيبته المغرقة، والدم في عروقه يكاد يتجمّد، فكيف للبحر أن يفعل هذا الفعل الشنيع لمن هي كالربيع، نضرة عطرة، مليحة حسناء، كيف يغرقها وفوحة العطر وشذاه لم يزل باقياً في ذوائبها أي ضفائرها المرسلة، أو النواصي أو منبتها من الرأس،

وغالباً ما تهتمّ الفتيات الصغيرات بالضفائر أي إنّ حبيبته لم تزل في مقتبل العمر صغيرة السنّ تهتمّ بنفسها وتطيّب شعرها.

وكيف يستطيع البحر أو تطاوعه نفسه ويداه في ابتلاعها بحشاه، والكحل الأسود الراسخ كأنّه صبغة ، لم يَزُلْ ولم يَحُل ولم يتغيّر، ولم يَزَلْ في مؤقَيْها، والمؤق هو طرف العين ممّا يلي الأنف، وهو مجرى الدمع منها، وقيل المَأْق هو القريب من الأنف، والمؤخّر أو الطرف الآخر هو المؤق، واستخدام الجمع بدل الإفراد أو التثنية في العيون وتوابعها كثير معروف لأنّ العين أجمل ما في وجه المرأة والشاعر يرى وجه حبيبته جميلاً، فلا غرو أن يرى عينيها عيوناً.

إذاً فقد سجّيت حبيبته وهي في أجمل هيئاتها وأعطر حالاتها، ولم يستطع البحر أن يزيل فوحة العطر ولا أن يمسح صبغة الكحل – على غير العادة– بل هي ثابتة راسخة ثبوت الجملة الاسميّة في شطري البيت الذي لم تظهر فيه سوى الحبيبة الجميلة.

ب١١: ويذكر فيه سبب إغراق البحر لجوهرته وهو عشق البحر لها وولعه بجمالها فلم يظهر في هذا البيت سوى البحر والجوهرة، وقد غيّر الشاعر من صيغة الكلام من المخاطب: يا بحرُ.. أبتّها، إلى الغائب: عانقَها البحر، فقد شخّص هذا البحر كعملاق صغير، وعانق: أي أدنى رقبته من رقبتها، وجعل يده على عنقها، وضمّها إلى صدره بشدّة مدّة عبّرت عنها "ثُمَّ " التي تفيد المشاركة في الحكم والترتيب مع التراخي والتمّهل، ثمّ فارقها، أي تركها وباينها بعد انتهاء ضمّ البحر العاشق لها، وعانق وفارق لا يحملان معنى مشاركة الطرف الآخر في الفعل أو الإحساس، ولو كان ذلك لقال تعانقا تفرّقا.

عن ضمّة أي بعد عناق وجذب وقبض، فاض روحها فيها: فاض ويقال: فاظ وهو الأكثر والأفصح، والروح تذكّر وتؤنّث أي خرجت روحها بسبب هذه الضمّة الشديدة ولولا شدّتها لما فاضت روحها فيها.

وكثرة الأفعال في هذا البيت تدل على شدّة الانفعال وتأجّج المشاعر في هذا البيت الذي يخلو من الجمل الاسمية.

إذاً فإغراق البحر لجوهرة الشاعر لم يكن كرهاً وبغضاً لها بل كان حبّاً شديداً أنانيّاً من طرف واحد، لجمالها وحسنها وعطرها.

النظيرة الخامسة: تفجّع الشاعر على جوهرته (قرار الموجة)

ويلي مصدر للتفجّع عليها "وكلّ من وقع في الهلكة دعا بالويل، فيقال يا ويلي ويا هلاكي"، ويظهر في الصورة عنصر جديد هو "التراب" مع سائر العناصر (الماء = البحر، الشاعر، الحبيبة).

فويل الشاعر وهلاكه من الماء والتراب وهما العنصران الأوّليّان للحياة وهما ضدّان متخالفان: اليابسة والماء= البحر، وهذان العنصران شُخّصا إنسانيّاً وأعطيا وظيفة الحكم والقضاء، واتّفق هذان الحاكمان المتضادّان في الحكم عليها بالموت والأذى، وأخرجت هذه الجارية ودفنت في لحد ترابيّ.

ب١٣: أماتها ذا

أي جعلها تموت، وذا اسم إشارة للقريب، والمقصود به البحر، ولم يشأ أن يذكر اسمه لغضبه منه ووجده عليه، ولعلّها دفنت في مكان قريب من البحر أو لعلّه يرثيها وهو على سطح البحر فيكون الماء أقرب إليه من اليابسة التي استخدم لها اسم الإشارة للمتوسّط في البعد "ذاك" وذاك غيّرها أي التراب الذي دفنت فيه فبدّل شكلها ومحا محاسنها. وجاء الفعلان المحزنان بصيغة الماضي أي انتهى الحدث وانقضى فلا سبيل إلى إعادة الزمن وإعادتها.

وأخيراً يتساءل تساؤل العارف المتجاهل: كيف أفديها من العنصرين؟ وفصل بين كيف وأفديها بشبه الجملة، ليؤكّد استحالة الأمر فالعنصران المتضادّان المكوّنان للحياة قد اجتمعا عليها واشتركا في موتها وإفنائها فكيف يفديها وينقذها ويخلّصها ولو دفع فدية كائنة ما كانت. وجاء فعل الفداء مضارعاً يدل على استمرار رغبته أو أمنيته المستحيلة في الفداء حاضراً ومستقبلاً ويدلّ كذلك على نبله وكرم نجاره.

٤- خصائص المعاني:

أ–الثنائيات الضدّيّة:

الأبيات نفثة مصدور أرسلها قلب جريح يرتجف كعصفور بلله القطر إلى سمع الزمن، يعيش صاحبها على اجترار آلامه على الذكرى أو أشلاء الذكرى، يكاد يتجمّد الدم في عروقه عندما يتذكّر حبيبته وقد اختطفها البحر بطيبها وكحلها. وأبرز خاصّة في هذه الأبيات إيحاء ساحر مفجّر للمشاعر عبر تيّار متلاحق من الصور الفنّيّة لا تقطع مجراه أو تعيقه أيّة صورة زائدة أو غريبة عن الجوّ الشعوري والوجداني تجري فيها شحنات من العاطفة وينتظم أغلبها سلسلة من الثنائيات الضدّيّة كما يطلق عليها البنيويّون، وتدلّ على رؤية عقليّة خاصّة تعتمد على المتضادّات في عرض المعاني وصوغها، وتصوّر جدليّة الصراع الخفيّ أو الواضح بين المتناقضات، أو بين الإنسان والطبيعة.

- الباني يهدم، الحيّ غير باق، سالمني حاربني.
- الوحشة، الإيناس، يميت يحيي، الإرخاص والإغلاء
- مبيت الحبيبة غريقة في حشى البحر/ مبيت الشاعر في الساحل
- المعانقة/ المفارقة
- الضدّان: الماء والتراب

وتعبّر– فيما أعتقد– عن الصراع بين الإنسان والطبيعة، والتناقض بين الواقع والحلم.

ب. تعانق المعنى:

أي إنّ معاني القصيدة يأخذ بعضها برقاب بعض في يسر وسهولة ، وهذا الترابط يتبدّى نحويّاً ومعنويّاً:

ب٥–٦ يميتني ذكرها/ أذكرها

ب٧–٨ أرخصت مَنْ/ جوهرةً

ب١٢-١٣ أحكام ضديّن/ أماتها ذا وذاك غيرّها

ج. تفصيل المعنى:

يقوم الشاعر بشرح مطوّل لبعض أفكاره التي يريد عرضها ويفصّل الحديث عنها تفصيلاً يتجاوز حدود البيت الواحد أحياناً:

ب١-٢ عدم الخلود

ب٣-٤ مصاعب الحياة

ب٥ ذكرها يحيي ويميت

ب٦ أذكرها والدموع

ب٨ صدف، أقيها وأحميها

ب١٢-١٣ الماء والتراب/ أماتها ذا وذاك غيرّها

د. الوضوح:

عامّ في أكثر الأبيات مع وجود بعض الأبيات التي تحتاج إلى إعمال الفكر فيها:

- يهدم الباني دار الحياة
- يميتني ذكرها ويحييها

هـ. المنطقيّة في عرض أفكاره:

التمهيد عن حتميّة الموت

العرض: غرق الحبيبة وحزن عليها وعتابه للبحر لإغراقها

الخاتمة: تفجّع عليها.

ز. العاطفية:

القصيدة ذاخرة بمشاعر عاطفيّة دافئة، تحمل طاقة تأثيريّة فعّالة:

واو الندبة، الدموع، البكاء، يصرخ بوجه البحر

بتُّ في ساحليك جيئة وذهاباً

عانقها البحر

التفجّع في الخاتمة

ح. المبالغة:

وللمبالغة أثر بالغ في تحقيق الأثر المطلوب حدوثه

يهدم دار الحياة، تردّت أممٌ.

كأنّها أُجُمٌ جمع جمع الجمع

وهي لا تسالمنا

يميتني ذكرها

يجاري الدموع فتسبقه.

ثانياً: مستوى البنية العامّة (الشكل)

نبدأ في هذا التحليل الأسلوبي من الكبير إلى الصغير ومن المركّب إلى البسيط؛ أي من مستوى البنية العامّة ، وهو الهيكل العامّ وما فيه من مجموع الجمل، إلى مستوى التركيب أي الجمل ، فمستوى اللفظ المفرد، فمستوى الصوت والموسيقا، ونختم بمستوى الصورة الفنّيّة ؛ وهي وإن كانت جزءاً من مستوى التركيب فإنّ تشعّبها الشديد وأهمّيّتها القصوى يدعوان إلى دراستها وحدها.

١- البنية الخارجيّة:

قبل البدء بالتحليل نحدّد نوع العمل الأدبيّ الذي نحلّله ونتبيّن هيكله الخارجيّ أي شكله الذي يتّخذه، وممّا لا شكّ فيه أنّ هيكل الشعر يختلف عن هيكل النثر، فهيكل الشعر أكثر وضوحاً وأشدّ تمايزاً من هيكل النثر، وللنثر هياكل متعدّدة موسّعة؛ تختلف كلّ

واحدة عن الأخرى، فيختلف هيكل المقامة عن هيكل الرواية عن القصّة عن القصّة القصيرة عن المقالة عن الخاطرة.

وللشعر هياكل محدّدة ضيّقة، وهي – مع ذلك – تختلف فيما بينها، فممّا لاشكّ فيه أنّ الشعر العربيّ الأصيل ذا الشطرين المكرّرين والقافية الموحّدة في القصيدة كلّها يختلف عن نمط الرجز الذي قد يكون لكلّ بيت فيه قافية مختلفة عن الآخر، أو قد يكون البيت فيه مكوّناً من شطر واحد.

ويختلف الشعر الأصيل عن نمط المربّعات والمخمّسات أو الموشّحات، كما يختلف الشعر العربيّ القديم عن الشعر العربي الحديث، وحتّى في بنية الشعر العربيّ الأصيل الذي يسمّى تقليديّاً أو غنائيّاً فإنّ ثمة اختلافاً بيّناً بين بنية القصيدة وبنية المقطّعة أو القطعة الشعريّة، وقد قيل إذا بلغت القصيدة سبعة أبيات فهي قصيدة، وقيل عشرة أبيات وما دون ذلك فهي قطعة أو مقطّعة، والعرب تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها.

إذاً كما هو واضح، فهذا النص هو من الشعر التقليدي الغنائي، ولكنّه فاق طول المقطّعة في عدد أبياتها، ولم يتّبع قواعد القصيدة ومنهجها فالشاعر يحاول أن يقصّد المقطّعة بتطويل أبياتها إلى ثلاثة عشر بيتاً وبتصريعها على عادة الشعراء في القصائد الطوال (بانيها، فيها) فهي بذلك قصيدة قصيرة.

وتسير هذه القصيدة على منهج قصائد الرثاء عامّة بمقدّمة أو تمهيد وعرض وخاتمة بنظائر دلاليّة تشكّل كلّاً دلاليّاً فتبدأ بتمهيد عامّ عن الموت وعن مصاعب الحياة ومصائبها.

ثمّ العرض: وفيه قصّة غرق الحبيبة، وتبدأ بتصوير حزن الشاعر عليها ثمّ تأنيبه للبحر الذي قام بإغراق جوهرته الثمينة الرائعة بسبب حبّه المميت لها.

ثمّ الخاتمة: نهاية القصّة بدفنها وتغيّر ملامحها وتلاشي محاسنها، وتفجّع الشاعر ابن حمديس عليها.

وتبدأ هذه القصّة بأسلوب خبري سردي، وتنتهي –كذلك– بأسلوب خبري سردي. وتصور واقعاً مريراً للحبيبة الغارقة فيعود بطريقة "الخطف خلفاً– ليسرد قصّة موتها وسببه.

الأبطال: الشاعر، الجارية، البحر وأخيراً التراب.

الزمان: الليل: أبتّها وبتّ، الأيّام، الليالي.

المكان: البحر، الصدف، الحشا، الساحلان، التراب (اللحد).

الحوار: داخلي: واوحشتا، يميتني ذكرها.

خارجي: يا بحر (نداء) الخطاب: أما تراها، أرخصتَ، أبتَّها.

الجزئيات الموحية: نفحة الطيب، صبغة الكحل، في ساحليك.

٢- البنية الداخلية:

وهنا نبحث في الوحدات التركيبيّة التي تشكّل هذا النصّ عامّة، وتكسو هيكله لحماً ودماً وأعصاباً، فننظر إلى الجمل ذات الدلالات المتقاربة على مختلف اتجاهاتها وما تكوّن من بنى داخليّة.وتتنوع الأساليب وتتعدّد البنى التي كوّن الشاعر منها أجزاء هيكل نصّه الشعري، وفيما يلي أهمّها:

أ. **بنية التشابه**: أي التعبير عن المعنى الواحد أو الموضوع الواحد بعبارتين أو صورتين فأكثر، وهي البنية الطبيعيّة في النصوص عامّة.

الفناء ب١–٢

المصائب ب٣–٤

حزن وألم ب٥–٦

ذكره لها يميته، ويجري دموعه ب٧–٨

يقيها بصدف خاطره ويحميها ب٩

جمال الجارية، نفحة الطيب، صبغة الكحل ب١٠

ويلي من الضدّين، العنصرين ب١٢-١٣

ب. بنية التناقض: عندما يرد التضادّ اللغويّ والمعنويّ بصورة لافتة ، ويكثر في النصّ فإنّه يشكّل بنية خاصّة هي بنية التناقض ، وتمتلئ قصيدة ابن حمديس بهذه البنية المثيرة للغرابة والدهشة والمفاجأة:

ب١ الباني يهدم دار الحياة

ب٤ إن سالمت الأيّام حاربت الليالي

ب٥ الوحشة، الإيناس، الذكر يميته ويحييها

ب٦ الدموع تسبقه وهي بعضه

ب٧ البحر يرخص وهو يغلي

ب٩ باتت في حشا البحر ، وبات في ساحليه

ب١١ عانقها فعل محبّة نتيجته الموت

د. بنية التوتّر: أي عندما تجتمع عدّة جمل تحمل شحنات عالية من المشاعر المتوفّزة العصبية المتوتّرة، وتؤلّف ظاهرة واضحة:

ب٥ وا وحشتا

ب٧ يا بحر كيف أرخصت

ب١٢ ويلي

ب١٣ كيف أفديها

وتنوّع هذه البنى وتعدّدها يدلّ على غنى قصيدة ابن حمديس وتنوّع تشكيلها البنيوي وتنوّع ما تحتويه.

ثالثاً: مستوى التركيب

ندرس هنا الجملة مفردة بوصفها الوحدة التركيبيّة الصغرى التي تحمل معنى متكاملاً ونستخلص خصائصها، ونبيّن أساليبها المكوّنة لها.

أ- الخصائص التركيبيّة

بتوجيه أشعّة النظر والفكر إلى النصّ بوصفه جملاً، وقراءته بوصفه تراكيب تظهر خصائص متعدّدة أهمّها:

١- البدء بجملة فعلية والانتهاء بجملة فعليّة

يهدم دار... أفديها

أي البدء بالحركة والانفعال والانتهاء بالحركة والانفعال كذلك، وغلبة البدء بالجمل الفعليّة في القصيدة كلّها، (جميع الأبيات ما عدا ٨-١٠-١٢)

أي غلبة الحركة والانفعال على السكون والهدوء في المشاعر والانفعالات.

٢- **غلبة الجمل الفعليّة على الجمل الاسميّة:** ونحصي هنا نوعي الجملة في الأبيات كافّة.

ب١: ١ فعليّة (ف)- ١ اسمية (س)

ب٢: ٢ف- ١ س

ب٣: ١ف- ٢ س

ب٤: ٣ف- ١س (توتّر، حركة، غضب)

ب٥: ٣ف اضطراب توتّر

ب٦: ٣ ف- ٢س

ب٧: ٣ف- ١ف ناقص

ب٨: ٢ف- ١ ف ناقص

ب٩: ٣ ف اضطراب توتّر

ب١٠: ٢ س- خمود

ب١١: ٣ ف اضطراب توتّر

ب١٢: ١ف- ١ س

ب١٣: ٣ ف- ١ س

المجموع: ٣٠ ف — ١١ س

ونستنتج من ذلك أنّ الحركة والانفعال في هذه القصيدة أكثر من ضعف السكون والهدوء لأنّ الجملة الفعليّة تحمل إلى جانب حدثها حركة وزمناً معيّناً، أمّا الجملة الاسميّة فهي تقتصر على الحدث، وتميل إلى الهدوء والثبوت، كما يلفت الانتباه أنّ بعض الأبيات تقتصر على الجمل الفعليّة وهي (ب٥-٩-١١) فتحمل شحنات عاطفيّة عالية متوتّرة. وأنّ (ب١٠) يقتصر على جملتين اسميتين فتدلّ على خمود وقتيّ لجذوة الانفعال وكأنّه يسرح في تفصيل جمال حبيبته، وما يلبث أن يرتفع الخط البياني للعاطفة والتوتّر في البيت الذي يليه.

٣- طول الجمل عامّة دلاليّاً: أي استغراق المعنى في بيت كامل أو أكثر.

ب١: نفي الخلود بسبب هدم دار الحياة.

ب٢: جملة شرطيّة من أوّل البيت إلى آخره.

إن تردّت... فهي نفوس ولكنّ المعنى لا يكتمل إلّا بالجملة الواصفة للنفوس ، ردّت عواريها.

ب٣: أما تراها... متشابكة كأنّها شجر ملتفّ لكنّ المعنى لا يكتمل والصورة لا تتوضّح إلّا بالجملة الواصفة التي تليها، فدلالة الأُجُم إيجابيّة وهي لا تناسب المقصود فتأتي جملة الصفة لتجعل تحت هذا الجمال موتاً، فبين هذه الأدغال حيّة قاتلة، وثمّة ضميران يربطان الجملة الثالثة بالثانية، أسودها، دواهيها. فثمّة ٣ جمل قصار، ولكنّها مرتبطة نحويّاً ودلاليّاً بعضها ببعض.

ب٤: جملة الشرط جوابها آخر البيت.

ب٥: ٣ جمل دلاليّة، تصف الجملتان الثانية والثالثة الجملةَ الأولى.

ب٦: ٣ جمل؛ الجملة الثانية تصوّر حالة الشاعر والثالثة تشبّه حالة الجملة الثانية.

ب٧: يا بحر أرخصت من أغليها جملة واحدة من أوّل البيت إلى آخره.

ب٨: جوهرة، الجمل الثلاث في هذا البيت ترتبط بضمائر ظاهرة لها، أقيها، أحميها عائدة على الجوهرة.

ب٩: كلّ شطر جملة متوسّطة.

ب١٠: كلّ شطر جملة متوسّطة.

ب١١: ٣ جمل ترتبط بضمائر ظاهرة عانقها فارقها، فاض روحها.

ب١٢: الماء والتراب هما الضدّان مرتبطان بضمير حكّما فيها.

ب١٣: ٣ جمل؛ أماتها، غيّرها، أفديها منهما.

٤- الثنائيّة:

ب٨: أقيها به وأحميها

ب٩: أبتّها وبتّ

ب١٠: ونفحة، وصبغة

ب١٢: ويلي من الماء والتراب

ب١٣: أماتها ذا، وذاك غيّرها

٥- الإنشاء والخبر

ب١: خبريّة، إنشائيّة استفهاميّة

ب٢: خبريّة شرطيّة

ب٣: إنشائيّة، استفهاميّة، كأنّها أجم، خبريّة أسودها خبريّة

ب٤: خبريّتان

ب٥: إنشائيّة، تفجّع، خبريّتان

ب٦: ٣ خبريّة

ب٧: ١ إنشائية- أرخصت، كنت أغليها خبريّتان

ب٨: ٣ خبريّة

ب٩: ٢ خبريّتان

ب١٠: ٢ خبريّتان

ب١١: ٣ خبريّة

ب١٢: ١ إنشائيّة- ١خبريّة

ب١٣: ٣ خبريّة- ١ إنشائيّة

المجموع: ٢٥خبرية ، ٦ إنشائية

ب- الأساليب التركيبيّة:

١- التقديم والتأخير

منذ الجملة الأولى في البيت الأوّل نجد تقديم المفعول به على الفاعل

يهدم دار الحياة بانيها: أي يهدم الباني دارَ الحياة.

ب٢: وإن تردّت من قبلنا أممٌ، إن تردّت أممٌ من قبلنا

ب٦: كأنّني للأسى أجاريها: كأنّني أجاريها للأسى

ب٧: من كنت لا للبياع أغليها، من كنت أُغليها لا للبياع

ب٩: أبتّها في حشاك مغرقة، وبتّ في ساحليك أبكيها

أبتّها مغرقة في حشاك، وبتّ أبكيها في ساحليك

ب١٠: كيف من العنصرين أفديها؟، كيف أفديها من العنصرين؟

فهو مضطرب كأنّه يقدّم قدماً ويؤّخر أخرى.

٢- الجملة الاعتراضيّة:

ب٤: إن سالمت- وهي لا تسالمنا- أيامنا

ب٧: أرخصت - غير مكترث- مَنْ كنت

٣- أسلوب الإضافة:

ب١: دار الحياةِ- أيّ حيٍّ

ب٥: فراق مؤنسة.

ب١٠: نفحة الطيب، صبغة الكحل.

ب١٢: أحكام ضدّين.

٤- أسلوب الاستفهام

ب١: أيّ حيّ؟

ب٣: أما تراها؟

ب١٣: كيف أفديها؟

٥- أسلوب الشرط

ب٢: إن تردّت...فهي نفوس

ب٤: إن سالمت.... حاربت

٦- أسلوب النفي

ب٤: وهي لا تسالمنا

ب٧: لا للبياع

ب١: أيّ حيّ؟! أي لا حيّ

٧- أسلوب النداء والخطاب

ب٧: يا بحر.

ب٣: أما تراها

ب٩: أبتَّها

٨- أسلوب النُّدبة

ب٥: واوحشتا

ب١٢: ويلي.

رابعاً: مستوى الألفاظ

إنّ اللفظة المفردة هي الوحدة الأساسيّة، في بناء الجملة، لذلك فإنّ الأسلوبيّة تهتمّ بها من الناحية التكوينيّة بوصفها أفعالاً وأسماءً وحروفاً، فتدرس أنماطها وأنواعها، وتهتمّ بها من الناحية الدلاليّة، فترصد حقولها المختلفة.

أ. الناحية التكوينيّة

- الأفعال:

١- البدء بفعل مضارع: يهدم، وكلّ الأبيات تحتوي على أفعال ما عدا ب١٠

أبيات تقتصر على فعل واحد في شطريها: ب١-٣-١٢

أبيات تقتصر على فعلين في شطريها: ب٢-٥

أبيات تحتوي على ثلاثة أفعال: ب٤-٦-٧ - ٨-٩-١١-١٣

وهي أكثر حركة وانفعالاً ممّا سبقها.

٢- أنماط الأفعال:

- المضارع: (يهدم، تراها، تسالمنا، يميتني، يحييها، أذكرها، تسبقني، أجاريها، أغليها، أقيها، أحميها، أبكيها، أفديها)=١٣
- الماضي: (تردّت، سالمت، حاربت، أرخصت، كنت ، كان، أبتّها، بتّ، عانقها، فارقها، فاض، أماتها، غيّرها)= ١٣
- ماض مبنيّ للمجهول: (رُدّت، حُكّما)= ٢
- الأمر: (لا يوجد لأنّها بوح ذاتي)
- نجد تساوياً بين المضارع والماضي، فعين على الماضي الجميل وعين على الحاضر الحزين.

٣- الحركيّة:

ثَمَّة أفعال كثيرة في القصيدة تحمل طاقة إيحائيّة في ذاتها وتحملنا على الإحساس بذلك

ب١: يهدم – حركة تخريبيّة

ب٢: تردّت – حركة سقوط وهويّ مستمرّ.

ردّت– حركة إعادة الشيء إلى مكانه

ب٤: حاربت– حركة شديدة للعراك بالسيوف

ب٦: تسبقني، أجاريها– حركة سباق

ب٩: أبكيها– حركة الدموع وانهمارها

ب١١: عانقها فارقها

عانقها: حركة ضمّ ، فارقها: حركة ترك وإبعاد

فاض– فاظ: حركة خروج الروح

ب١٣: غيّرها– حركة إزالة ومحو

الأسماء:

١– كثرة الأسماء: مع انّنا ذكرنا أنّ الجمل الفعليّة تزيد على ضعف الجمل الاسميّة؛ وذلك لأنّ الفعل يرتبط بعدد من الأسماء كالفاعل والمفعول وما إلى ذلك.

فمثلاً البيت الأوّل: ثمّة فعل واحد: يهدم، يرتبط بثلاثة أسماء ارتباطاً عضوياً: بانيها دار الحياة، ثمّ الجملة الاستفهاميّة الاسميّة كلّها أسماء.

حتّى في الأبيات التي تحتوي على ثلاث جمل فعليّة، ولا تحتوي على جمل اسميّة فإنّ الأفعال لا تزيد على الأسماء (ب٩–١١).

ب٩: أبتّها في حشاك مغرقة وبتّ في ساحليك أبكِيها

(٣ أسماء– ٣ أفعال)

ب١١: عانقها البحر ثمّ فارقها عن ضمّة فاض روحها فيها

(٣ أسماء– ٣ أفعال)

٢- التنكير والتعريف:

التنكير: حيّ، مخلّد، أمم، نفوس، أجم، مؤنسة، بحرُ، مكترث، جوهرة، صدفاً، مغرقة، ضمّة.

جاء التنكير للمبالغة والتهويل: "عن ضمّة" ما هذه الضمّة التي أدّت لقتلها وكيف هيئتها وما مدّتها.

التعريف: دار الحياة، بانيها، عواريها، أسودها، دواهيها، أيّامنا، لياليها، فراق مؤنسة، ذكرها، الدموع، للأسى، للبياع، خاطري، حشاك، ساحليك، (نفحة الطيب ذوائبها، صبغة الكحل، مآقيها)

البحر، روحها، ويلي، الماء، التراب أحكام ضدّين.

ذا، ذاك، العنصرين.

والنتيجة أنّ التعريف أكثر من التنكير بكثير لأنّه يتكلّم عن شيء يعرفه تمام المعرفة؛ عن قصّة حدثت معه شخصيّاً، عن شخص الحبيبة الذي يعرفه تماماً.

ب١٠ كلّه معرفة: فنفحة الطيب في ذوائبها وصبغة الكحل في مآقيها

٣- الإفراد والجمع والمثنى

يلفت الانتباه أنّ أغلب الصيغ الاسميّة تتّسم بالإفراد، أمّا الجمع فنجده متركزاً في القسم التمهيدي (ب١-٤) الذي يصف مصائب الحياة فيأتي الجمع ليزيد الأمر هولاً وشدّة ومبالغة.

أمم، نفوس، عواريها، أيّامنا، لياليها

الدموع، الصدف، ذوائبها، مآقيها.

ويلفت الانتباه استخدام صيغة جمع جمع الجمع فالأجمة: لفظة مفردة، وهي تعني الجمع أي الشجر الكثير الملتفّ، جمعها أَجَمٌ، وجمع الجمع إجَام، وجمع جمع الجمع أُجُمٌ.

ويشدّ الانتباه بعض العلاقات الجدليّة بين المفرد والجمع كقوله: أسودها بيننا

دواهيها فالأسود الواحد المفرد (الحيّة الواحدة)= الدواهي (الجمع) ليبالغ في تصوير قسوة الحيّة وشدّتها.

وكذلك قوله: جوهرة كان خاطري صدفاً

الخاطر المفرد= الصدف (الجمع) ليشدّد صورة الحماية والمنع

كما تبرز صيغة المثنّى لتعطي دلالات جديدة:

في ساحليك: ساحل الأندلس وساحل المغرب في مضيق جبل طارق، من البحر المتوسط الضدّان، العنصران: (الثقافة الفلسفيّة القديمة).

٤- التذكير والتأنيث

في الشعر غالباً ما يطغى المذكّر على المؤنّث طغياناً كبيراً في أغلب الأغراض الشعريّة لدى الشعراء عامّة، لكنّنا نجد هنا تقارباً بين الكلمات المذكّرة والمؤنّثة أفعالاً وأسماءً وضمائر، وهذا أمر جديد مهّم يسمى (تأنيث القصيدة)، والأهم من ذلك كلّه هو ذلك التمازج بين المذكّر والمؤنّث في اللفظة الواحدة فعلاً واسماً.

ففي الأسماء: بانيها، الباني مذكّر، وها: عائدة على دار الحياة المؤنّثة

ذكرها: الذكر مذكّر، ها عائدة إلى الحبيبة- مؤنّثة.

وفي الأفعال: تراها- ترى أنت (مذكّر)، ها: لدار الحياة المؤنثّة.

تسالمنا- تسالم فعل مضارع مؤّنث- نا: جماعة الذكور

يحييها- يحيي الذكر (مذكر) ها: تعود إلى الحبيبة (مؤنث)

أغليها- أغلي الفاعل هو الشاعر (مذكر)، ها: مفعول به يعود إلى الحبيبة (مؤّنث)

كذلك أقيها، أحميها، أبتّها، أبكيها، عانقها، فارقها، أماتها، غيّرها، أفديها (كلّها الفاعل فيها مذكّر، والمفعول به مؤنّث)

وهذه ظاهرة نادرة تدلّ على مدى التمازج بين الشاعر وحبيبته.

الصفات المفردة

مع أنّ القصيدة وصفيّة، ومع أنّه حرص على وصف حاله ووصف محبوبته فإنّه لم

يستعمل الصفات الظاهرة المفردة مطلقاً، لكنّه استخدم جمل الصفات التي في محلّ الصفة التي تحوج العقل إلى مقدار أكبر من العمل ليصل إلى المقصود من جملة الصفة:

عن ضمة فاضَ روحها فيها، أي عن ضمّة شديدة ضاغطة أدّت إلى صعود روح الحبيبة إلى بارئها.

ب- الناحية الدلالية:

لكلّ غرض شعري معجم لغويّ يميّزه، ولكلّ موضوع من موضوعات الشعر مفرداته، وللرثاء ألفاظ خاصّة تكثر في القصائد التي تنتهجه كألفاظ الموت والتفجّع والبكاء لكنّ الموت كان –هنا– غرقاً فانتشرت ألفاظ البحر ومتعلّقاته في القصيدة وسبب الموت هو الحبّ والأثرة فانتثرت ألفاظ الحبّ وأفعاله، والحبيبة الميتة جميلة فذاعت ألفاظ الحسن والجمال.

حقول الألفاظ:

الإنسان: الحيّ، الأمم، نفوس

الحبيبة المؤنسة

الشاعر: يميتني، أغليها، أقيها، أحميها، بتُّ، أبكيها

الجسد الإنساني: ذوائبها، مآقيها، الروح، الخاطر

الأفعال الإنسانيّة الماديّة: يهدم، سالم، حارب

- أذكرها، أبكي، أسابق الدموع، أغليها، أقيها، أحميها
- عانقها، فارقها، غيّرها، أفديها
- التزيّن صبغة الكحل، نفحة الطيب، الاستعارة:عواريها

الأفعال الإنسانيّة المعنويّة:

- الاستيحاش، الحزن الشديد، الإيناس

الحرف، البناء، بانيها، الهدم، يهدم

التجارة، أرخصت، أغليها، لا للبياع

الألفاظ الطبيعيّة: أُجُم، بحر، البحر، جوهرة، الصدف، ساحلاك
الماء، التراب

الحيوانات: الأَسْود

الألفاظ الفلسفيّة: الضدّان، العنصران

ويلفت النظر خلوّ الأبيات من الألفاظ الدينيّة والأدبيّة وأسماء الأعلام.

خامساً: مستوى الصوت

١- الموسيقا الخارجية

تنبع الموسيقا الخارجيّة للقصيدة من منابع متعدّدة أهمها:

أ. البحر الشعري

نظم ابن حمديس قصيدته القصيرة على بحر المنسرح ومعنى المنسرح السهولة،

وسَرَح السيل: جرى جرياً سهلاً. والسراح السهولة

وسَرِح الرجل: خرج في أموره سهلاً

وسَرَحت الماشية: رعت بنفسها

والمنسرِح: السريع في سيره

ومعنى هذا أنّ البحر المنسرح سمي بذلك لسهولة وسرعة فيه.

وأصل وزن هذا البحر هو:

مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولَاتُ مُسْتَفْعِلنْ (عروض)

مستفعلن مفعولات مستفعلن (ضرب)

لكنّ تفعلية العروض لا تأتي فيه إلّا مطويّة (والطيّ حذف الرابع الساكن)

مُسْتفْعلن ـــــــ مُسْتَعِلُنْ. ممّا يكثر الحركات كثرة لافتة ويعطي البحر رشاقة وسلاسة.

كما أنّ تفعيلة الضرب لا تأتي تامّة "مستفعلن" بل تكون على نوعين:

أ. مطويّة كتفعلية العروض: مُسْتَعِلُنْ

ب. مقطوعة: والقطع هو حذف السابع الساكن وتسكين ما قبله

مستفعلُنْ ـــ مُسْتَفْعِلْ

وانتقى الشاعر النمط الثاني أي الضرب المقطوع.

أمّا الزحافات التي استخدمها الشاعر، وتدخل في حشو البيت فهي:

١- الطيّ: مستفعلن ـــ مستعلن

مفعولاتُ ـــ مُفْعَلَاتُ

٢- الخبن: أي حذف الثاني الساكن

مستفعلن ـــ مُتَفْعِلُنْ

فتفعيلات هذا البحر التي يستخدمها الشاعر هي:

مُسْتَفعِلُنْ مَفْعُوْلاتُ مُسْتَعِلُنْ مُتَفْعِلُنْ مُفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلْ

وقد انتقى الشاعر هذا البحر ذا التفعيلات المختلفة المختلطة التي تعبّر عن اختلاف المشاعر واختلاطها واضطرابها.

كما أنّ هذا البحر هو البحر الوحيد الذي تأتي فيه تفعيلة محرّكة لا يسكّن آخرها من دون زحاف طارئ عليها وهي تفعيلة "مفعولاتُ".

يهدم دار الحياة بانيها فأيّ حيّ مخلّد فيْها

يهدم دا/ رلحياةِ /بانيها فأيْيُ حَيْـ/ بِنْ مُخَلْلَ /دُنْ فِيْهَا

بـ١: مُسْتَعِلنْ مُفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلْ مُتَفْعلُنْ مُفْعَلَاتُ مُسْتَفْعِلْ

بـ٢: متفعلن مَفْعُولاتُ مستعلن مستعلن مفعولات مستفعلْ

بـ٣: متفعلن مفعلات مستعلن مستعلن مفعلات مستفعل

بـ٤: مُسْتَفْعِلُنْ مفعلات مستعلن مستفعلن مفعلات مستفعل

بـ٥: مستفعلن مفعلات مستعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٦: مستعلن مفعلات مستعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٧: مستفعلن مفعلات مستعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٨: مستعلن مفعلات مستعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ٩: متفعلن مفعلات مستعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١٠: متفعلن مفعلات مستعلن مـــتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١١: مستعلن مفعلات مستعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١٢: مستفعلن مفعلات مستعلن مســـتفعلن مفعـــلات مســـتفعل

بـ١٣: متفعلن مفعلات مستعلن مســـتعلن مفعـــلات مســـتفعلْ

تفعيلة: مُسْتَفْعِلْ: تكرّرت(١٤) مرّة،(١٣) في الضرب(١) في العروض المصّرع وهي لازمة

تفعيلة مُسْتَعِلُنْ: تكرّرت (١٢) مرّة في العروض وهي لازمة و(٧) مرّات في الحشو والمجموع (١٩) مرّة.

تفعيلة مُفْعَلَاتُ تكرّرت في الحشو (٢٤) مرّة+ بصيغتها الأصلية (٢)= (٢٦) مرّة.

تفعيلة مُتَفْعِلُنْ تكرّرت في الحشو (١٢) مرّة

تفعيلة مُسْتَفْعِلُنْ تكرّرت في الحشو (٧) مرّات

والمجموع: ٧٨ تفعيلة

فإذا تركنا التفعيلتين الثابتتين في بحور الشعر عامّة وهما الضرب المقطوع مستفعل (الذي تكرّر في آخر تفعيلة في الأبيات كلّها) والعروض المطويّة مستعلن التي تكرّرت في آخر الشطر الأوّل في الأبيات كلّها ما عدا البيت الأوّل الذي جاء مصرّعاً فحسن فيه أن يتبع العروض الضرب، فسوف نجد أنّ الشاعر يحافظ كثيراً على أنغامه الشعريّة في حشو الأبيات فالتفعيلة الثانية المتوسّطة مفعولات تأتي غالباً مطويّة مُفْعَلَاتُ (٢٤) مرّة، ولا تأتي إلّا مرّتين على أصلها مفعولاتُ في البيت الثاني، ومعنى ذلك أنّ ثلثي الأبيات تقريباً على

نغم واحد، وتفعيلات ثابتة، وأنّ التغيير يكون في التفعيلة الأولى من كلّ شطر فحسب مستفعلن التي جاءت كتفعيلة العروض مستعلن(٧) مرّات، فعزّزت هذه النغمة وجعلت البحر أكثر موسيقية بتوالي ثلاث حركات يعقبها سكون ///٥.

وجاءت متفعلن (١٢) مرّة، وجاءت كاملة مستفعلن (٧) مرّات

ومعنى أن تأتي التفعيلتان التامّتان مستفعلن ومفعولاتُ بنسبة ضئيلة بالموازنة مع التفعيلات التي حذف منها حرف أنّ البحر الشعري قد تقلّص كثيراً وضاق إهابه الشعري وصار أكثر رشاقة وسلاسة.

ويصل الإيقاع الموسيقي إلى درجة كاملة من التطابق بين أشطار الأبيات في زهاء ثلثي القصيدة (٩ أبيات من أصل ١٣) بيتاً.

ب٤/٧/١٢: مستفعلن مفعلات مستعلن مستفعلن فعلات مستفعلْ

ب٩/١٠: متفعلن مفعلات مستعلن متفعلن مفعلات مستفعلْ

ب٣/١٣: متفعلن مفعلات مستعلن مستعلن مفعلات مستفعلْ

ب٦/٨: مستعلن مفعلات مستعلن متفعلن مفعلات مستفعلْ

ب. القافية والروي

القافية هي من الحرف المتحرّك بعد الساكن الثاني آخر الشطر الشعري وهي هنا: (فِيْهَاْ)

أمّا الرويّ فهو الهاء ، والألف بعدها: وصل

والياء قبلها: ردف، ويجوز فيها المبادلة بين الياء والواو ولكنّه التزم الياء فحسب وقيّدها به، فكأنّ الصرخة كانت محبوسة ثمّ تنفرج مع الهاء ثمّ تصعد مع الألف فتتلاشى وتنتهي.

والهاء من أعمق الحروف مخرجاً في أقصى الحلق بعد الهمزة في أرجح أقوال القدماء، ومن صفاته: الرخاوة والانفتاح والهمس وهو جريان النَفَس مع النطق بالحرف لضعف

الاعتماد في المخرج.

ج. التصريع

يحمل التصريع في طيّاته إيقاعاً موسيقياً خاصّاً درجت عليه أكثر القصائد العربيّة الطويلة دالّة على كونها قصائد وليست مقطّعات.

وهو هنا: بانيها، فيها.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن التصريع هنا غيّر من التفعيلة الأخيرة (العروض) في الشطر الأوّل (الصدر) من البيت الأوّل لتناسب التفعيلة الأخيرة (الضرب) في الشطر الثاني (العَجُز) من البيت الأوّل فعروض الأبيات كلّها على وزن مستعلن ما عدا البيت الأوّل فعروضه يماثل ضربه على وزن مُسْتَفْعِلْ.

د. طول الجملة الموسيقيّة

ب١: جملتان موسيقيّتان متوسّطتان.

ب٢: جملة موسيقيّة مطوّلة

ب٣: جملتان موسيقيّتان متوسّطتان

ب٤: جملة مطوّلة

ب٥: ٣ جمل قصار

ب٦: ٣ جمل قصار

ب٧: جملة موسيقيّة

ب٨: ٣ جمل قصار

ب٩: جملتان متوسّطتان

ب١٠: جملتان متوسّطتان

ب١١: جملتان قصيرة وطويلة

ب١٢: جملة طويلة ممتدّة

ب١٣: ٣ جمل قصار

هـ. التوازن

ب٩: أبتّها في حشاك مغرقة وبتّ في ساحليك أبكيها

توازن كامل: ب١٠: ونفحة الطيب في ذوائبها وصبغة الكحل في مآقيها

توازن عام: اقتصار كلّ شطر على موسيقاه: ب١-٢-٣-٤-٥-٦-٩.

٢- الموسيقا الداخلية

أ. الألفاظ:

١- تكرار الأسماء والأفعال وجذورهما

ب١: الحياة، حيّ ب٥: يحييها

ب٢: تردّت، ردّت (مع اختلاف الجذر)

ب٤: سالمت، تسالمنا

ب٥: ذكرها ب٦: أذكرها

ب٧: يا بحر، البحر

ب٩: أبتّها، بتّ

ب١٢: أحكام، حكّما

ب١٣: أماتها ب٥: يميتني

ب١١: فيها ب١٢: فيها (إيطاء) ب١: فيها

٢- تكرار أوزان الأسماء والأفعال

عواريها، دواهيها، لياليها، مآقيها، أجاريها، أغليها، أحميها، أبكيها، أفديها أمم أجم، سالمت حاربت، مؤنسة مغرقة.

نفحة، صبغة/ الطيب، الكحل

عانقها، فارقها/ ذِكْرُها، رُوْحُها

أسودها، أذكرها/ أيّام، أحكام

ب. الحروف

١- تكرار الحروف

تبرز حروف القافية المتكررّة بروزاً لافتاً للنظر (يها)

الياء في الأبيات كلّها: في الحشو وفي العروض وفي الضرب

ب١: يهدم، الحياة، بانيها، فأيّ، حيّ، فيها

ب٢: فهي، عواريها

ب٣: بيننا، دواهيها

ب٤: أيّامنا، لياليها

ب٥: يميتني، يحييها (٣ ياء)

ب٦: تسبقني، كأنّني، أجاريها

ب٧: غَيْر، البياع، أغليها

ب٨: خاطري، أقيها، أحميها

ب٩: ساحليك- أبكيها

ب١٠: الطيب، مآقيها

ب١١: فيها

ب١٢: ويلي، ضدّين، فيها

ب١٣: غيَّرها (مشدّدة) العنصرين، أفديها

الهاء حرف الرويّ

ب١: يهدم، فيها

ب٢: فهي، عواريها

ب٣: تراها، كأنّها، أسودها، دواهيها (٥ مرّات)

ب٤: هي، لياليها.

ب٥: ذكرها، يحييها

ب٦: أذكرها، أجاريها

ب٧: أغليها

ب٨: جوهرة، لها، أقيها، به، أحميها (٥ مرّات)

ب٩: أبتّها، أبكيها.

ب١٠: ذوائبها، مآقيها.

ب١١: عانقها، فارقها، روحها، فيها (٤ مرّات)

ب١٢: فيها.

ب١٣: أماتها، غيّرها، أفديها.

الألف:

ب١: دار، الحياة، بانيها، فيها

ب٢: قبلنا، عواريها.

ب٣: أما، تراها، كأنّها، أسودها، دواهيها (في أغلب ألفاظ البيت)

ب٤: سالمت، لا، تسالمنا، أيّامنا، حاربت لياليها.

ب٥: واوحشتا، فراق، يحييها.

ب٦: أذكرها، أجاريها.

ب٧: يا، لا، للبياع، أغليها.

ب٨: كان خاطري صَدَفاً، لها، أقيها، أحميها.

ب٩: أبتّها، حشاك، ساحليك، أبكيها.

ب١٠: ذوائبها، مآقيها.

ب١١: عانقها، فارقها، فاض روحها، فيها

ب١٢: حُكّما فيها

ب١٣: أماتها ذا، ذاك، غيّرها، أفديها

٢- التناسب الحرفي

مخلّد: الشدّة لشدّة تشبّثه فيها، وللتكرار والدوام

تردّت: تضعيف الحرف لاستمرار الموت

ردّتْ: تضعيف الحرف للإعادة المستمرّة.

أُمَم، أُجُم: كثرة

دواهيها: المصائب الخفيّة

واوحشتا: وا ندبة، الألف للندبة أيضاً

وا للتعجب (اسم فعل)، وحشتا، وحش

أبتَّها: إشارة إليه بالذنب القيد بالألف

بتُّ: إشارة للإطلاق

ضمّة: قبض الذراعين واليدين عليها، مع تقييد الميم بالشدّة ثمّ إطلاقها

ويلي: مصدر، هلاكي

وقد تكون: وي اسم فعل مضارع بمعنى أتوجّع، وي، لي

غيّرها، التغيير مستمّر شديد مع الشدّة

ج. الحركات

١- إيقاع التنوين للتنوين إيقاع موسيقيّ مضاعف زخم مكثّف ، يعطي صوت نون ساكنة مسبوقة بحركة معيّنة من الحركات الثلاث ؛الضمّة أو الفتحة أو الكسرة.

ب١: حيٍّ، مخلّدٌ

ب٢: أممٌ، نفوسٌ

ب٣: أجمٌ

ب٥: مؤنسةٍ

ب٧: مكترثٍ

ب٨: مغرقةً

ب١١: ضمّةٍ

٢- إيقاع النبر- الشدّة

للشدّة صوت صاخب شديد بتكرار الحرف المشدّد مرّتين ساكناً ثمّ متحركاً.

ب١: أيّ، حيٍّ، مخلّد (اجتماع التشديد والتنوين) صوت مضاعف

ب٢: تردَّت، ردّت

ب٣: كأنّها

ب٤: أيّامنا

ب٦: كأنّني

ب٩: أبتَّها، بتُّ

ب١١: ثمَّ، ضمّةٍ (تشديد وتنوين)

ب١٢: ضدّين، حكّما.

ب١٣: غيّرها

٣- السكون والحركة (الإطلاق والتقييد)

ب١: الشطر الأوّل مطلق محرّك ما عدا العروض المصرّع والضرب المقيّدين دائماً فالعرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرك

يهدمُ دارَ الحياةِ فأيُّ، الشطر الثاني ما عدا اللفظة الأولى مقيّد: حيٍّ، مخلّد، فيها

ب٢: أغلبه مقيّد

وإنْ، تردّتْ، منْ، قبلناْ أممْ

فَهْيَ: اللفظة الوحيدة المحرّكة، ولكنّها قيّدتْ من وسَطها على غير الأصل

نفوس، ردّتْ، عواريها

ب٣: كلّه مقيّد أما تراها، كأنّهاْ، أجمنْ، أسودهاْ، بيننا، دواهيها

ب٤: أغلبه مقيّد

إنْ، سالمتْ (وهْيَ) لاْ تسالمناْ، أيّامناْ، حاربتْ، لياليها

ب٥: واوحشتاْ منْ مؤنسةٍ، يميتني ذكرها ويحيها (لفظة واحدة مطلقة فراقِ)

ب٦: أذكرها تسبقني، كأنّني للأسى أجاريها (لفظة واحدة مطلقة: الدموعُ)

ب٧: المقيّد: يا، مكترثٍ، منْ، لا، أغليها

المطلق: بحرُ أرخصتَ غيرَ، كنتُ للبياعِ

ب٨: المقيّد: جوهرةً، خاطري ،صدفاً، لها، أقيها بِهِيْ وأحميها

المطلق، كانَ

ب٩: مقيّد أبتّها مقيّد (للجوهرة) مغرقةً، أبكيها

المطلق: حشاكَ، بتُّ مطلق (الشاعر) ،ساحليكَ

ب١٠: مطلق مطلق مقيّد مقيّد مطلق مطلق مقيّد مقيّد

نفخةُ الطيبِ في ذوائبها صبغةُ الكحلِ في مآقيها

٨- إيقاع الإعراب

ونرصد هنا أنواع الحركات والسكنات وما تمنحه من نغمات:

ونفحةُ الطيبِ في ذوائبها وصبغةُ الكحلِ في مآقيها

تماثل بين شطري البيت في أنواع الحركات والنغمات

إن سالَمَتْ، حارَبَتْ

عَانَقَهَا، فَارَقَهَا

إيقاع الضمّ: قليل، يهدمُ، فأيُّ، والدموعُ، يا بحرُ، كنتُ، ونفحةُ، وصبغةُ.

إيقاع الفتح: دارَ، فهيَ، أرخصتَ، أبتَّها، حشاكَ، ساحليكَ، ثمَّ، فاضَ، كيفَ، مِنَ.

إيقاع الكسر: الحياةِ فراقِ، للبياع، بهِ، الطيب، الكحلِ

ب١٢: الماءِ والتراب، أحكامِ ضدّين، العنصرين

إيقاع السكون: وله منابع شتّى

ألف الإطلاق هاْ

الشدّة، ساكن فمتحرّك

التنوين متحرّك فساكن

الألف: للأسى، تراها

تاء التأنيث، تردتْ، ردّتْ

ال التعريف: دار الْ حياة

الياء: خاطري يميتني، في

لقد عزف الشاعر ابن حمديس في قصيدته موسيقا جنائزية مؤثّرة بفرقته الموسيقيّة المكوّنة من العناصر اللغويّة والمعنويّة، جعلتنا نشارك الشاعر في مشاعره المضطربة وأحزانه المتعدّدة.

سادساً: مستوى الصورة الفنية

إنّ مفهوم الصورة الفنّيّة مفهوم نقديّ مهمّ قد أدركه الشعراء العرب على مختلف عصورهم، ووعاه النقّاد، ولكنّ هذا المفهوم لم يقيّض له أن يحدّد فيتخذ صيغة واحدة ودلالة واحدة حتّى الآن، فظهر في صيغ مختلفة كالتصوير والصورة والصورة الشعريّة والصورة البلاغيّة والصورة البيانيّة والصورة الأدبيّة والصورة الفنيّة.

ويختلف مفهوم الصورة تبعاً لاختلاف اتجاهات درسها ضمن حقول المعرفة الإنسانيّة عامّة وفي الدراسات الأدبيّة خاصة، ومن أدقّ تعريفاتها أنّها «تعبير لغويّ عن تراسل بين لفظين أو تراسل بين علاقتين، وسواء أكانت هذه الصورة بسيطة أم معقّدة فإنّها تعبّر عن مشابهة إذا ما حقّقت بوساطة أداة مثل الكاف ونظير وتعبّر عن مماثلة وتوحّد إذا ما حقّقت دون أداة»[1]

١- بنية الصورة الفنية عند أبي تمّام ، د. فهد عكّام ، التراث العربي ، دمشق ، عدد: ١١-١٢ ، ص ٢٥٤

وبعبارة بسيطة دقيقة إن الصورة الفنيّة هي «كلّ تعبير غير حرفي»[1] ليس بالضرورة أن يكون مجازيّاً.

وإنّ الاهتمّام بالصورة الفنيّة قديم قدم الشعر، فالشعر قائم على الصورة منذ أن وجد، وعلى مر العصور واختلاف الاتجاهات والمذاهب والمدارس الشعريّة ظلّت الصورة الخاصّة الأساسيّة للشعر وأداته الأولى والرئيسيّة ، تفرّق عصراً من عصر وتياراً من تيار وشاعراً من شاعر، وتظهر أصالة الشاعر، وتدلّ على قيمة فنّه وترمز إلى عبقريته وشخصيته وتحمل خصوصيته وفرديته.

وثمّة سيل من الأقوال عن أهميّة الصورة الفنّيّة ، وأنّها أساس الشعر وجوهره إن لم تكن الشعر نفسه، ولكن يجب ألّا ننجرف وراء هذه المبالغات فالصورة عنصر أساسيّ من عناصر الشعر وليست جميع العناصر[2] .

١– طبيعة الصورة الفنية في القصيدة

الأدب في الأساس تعبير بالصور، والصورة الفنّيّة هي الوحدة الأساسيّة في بنائه ، وهي كذلك عند ابن حمديس فهو ينحو إلى التعبير التصويري منذ البيت الأوّل ، حتّى إنّها لتشمل أغلب أبيات قصيدته. هذا من جهة، والصورة الفنّيّة – من جهة أخرى — هي إحدى أهمّ القيم المعياريّة التي تقاس بها جودة الشعر قديماً وحديثاً.

السؤال المهمّ في هذا المجال هو هل الصورة الفنيّة لاحقة تزيينية تتمّ بمرحلتين، عرض الفكرة ثمّ إلباسها صورة أم هي عنصر بنائيّ عضويّ في التشكيل الفنيّ الجمالي للقصيدة، منذ البداية نجد أنّ الشاعر يفكّر بالصورة لا بالتعبير الحرفي:

يهدم الباني داراً، تعبير حرفي مباشر.

يهدم الباني دار الحياة تعبير تصويري إذ صوّر الحياة وهي شيء معنوي، بشيء مادي وهو الدار، فالتعبير بالصورة مقصود لذاته، كما أنّ المعنى كلّه يتّجه إلى الحياة

---

١ – مقدمة لدراسة الصورة الفنّيّة: ٤٦

٢ – الصورة والبناء الشعري:١٩

والضمائر ترجع إليها.

ويكون التصوير لديه بالأدوات البلاغيّة في أغلب الأحوال، وقد يكون بالألفاظ الموحية التي تعمل الخيال كالبيت الثاني: وإن تردّت التي توحي بالسقوط في بئر الموت العميقة.

وبحذف الصورة أو أي جزء منها ينهدم ركن من أركان الجملة بل تتلاشى الجملة كلّها فلا نستطيع أن ننزع الصورة من إهاب الجملة لأنّ التركيب البلاغي مشكّل تشكيلاً نحويّاً أساسيّاً:"إن سالمت أيامنا حاربت لياليها" فإذا حذفنا أي ركن من أركان الصورة تتلاشى الجملة نفسها فهو يعبّر بالصور بشكل أساسي.

وحتّى إذا كانت الصورة الفنيّة أقلّ ارتباطاً نحويّاً فلم تكن مسنداً أو مسنداً إليه ولا عمدة بل فضلة فإنّها لا تكون زائدة لاحقة وليست وظيفتها تزيينيّة كما رأينا في مستهلّ القصيدة.

٢- أدوات الصورة

أ. **الصورة البصرية:** وممّا لا شك فيه أنّ الصورة الفنية البصريّة هي أكثر أنواع الصور الحسية وفرة في الشعر كلّه، لأنّ حاسّة البصر هي الأداة الأولى في صنع الصور، ومنذ البيت الأوّل نجد الصورة البصريّة صورة هدم: دار الحياة ثمّ تتوالى الصور البصريّة: صورة التردّي والسقوط

أما تراها حثّ على الرؤية، غابة ملتفّة فيها حيّة

حاربت، الدموع تسبقه، البحر، الجوهرة، الصدف، صورة المغرقة، صورته وهو يبكي، صبغة الكحل، صورة العناق الشديد، ذاك غيّرها

ب. الصور اللمسيّة:

يهدم: ملامسة اليد للمعول وملامسة المعول لجدار الدار

أقيها، أحميها، خاطري صدف، وهو محيط بالجوهرة وقرار لها

أبتّها في حشاك، عانقها البحر، ضمّة، إغراق الماء لها وغمرها به، غيّرها محا محاسنها

ج. الصور السمعيّة

صوت الهدم، تردّت صوت الهوّي، حاربت، واوحشتا (صراخ)، ذكرها، أذكرها، نداء البحر، خطابه للبحر أرخصت، أبتّها، صوت البكاء أبكيها.

د. الصور الشمية

ونفحة الطيب في ذوائبها

٣- الأدوات البلاغية للصورة

أ. التشبيه وهو قليل

دار الحياة: الحياة دار "تشبيه بليغ"

الحياة كأنّها أجم، مصائبها حيّاتها "تشبيه تمثيلي"

كأنّني أجاريها، كأنّني للشكّ وليس للتشبيه

ب. الاستعارة

هي الأداة التي يرتاح إليها ابن حمديس في صنع صوره الفنّيّة لما للاستعارة من قدرة كبيرة على التشخيص والتجسيد، وبثّ الحياة والحركة في العناصر الثابتة والجامدة.

سالمت الأيّام، حاربت لياليها

الذكر يميت ويحيي، الدموع تسبقه وهو يسابقها

يشخّص البحر ويخاطبه

عانقها البحر فارقها

حُكّما فيها، أماتها البحر وغيّرها التراب

٤- أنماط الصورة الفنية:

أ. الصور الحركيّة

يهدم، يبني، تردّت حركة السقوط، ردّت

حاربت، يحييها (علاقة الحياة بالحركة)

تسبقني الدموع، أجاريها، أقيها، أحميها، عانقها، فارقها، ضمّة، فاض، غيّرها التراب.

ب. الصور اللونيّة والضوئية

- اللون الأخضر: الأُجُم
- اللون الأسود: الليالي، الأَسْود
- اللون الأزرق: البحر
- اللون الأبيض: اللؤلؤة
- اللون البنّي: التراب
- الصورة الضوئيّة: الماء، الجوهرة

ج. صور المفارقة الشعورية

يهدم الباني، إن سالمت حاربت، يميتني ذكرها ويحيها

يُرخص الغالي، عن ضمة: العناق يؤدّي إلى الموت

أحكام ضدّين لكنّهما اتّفقا عليها

د. الصور الإشاريّة:

ب١: أي حيّ مخلّد فيها، أي لا خلود بل فناء: كلّ من عليها فان

ب٢: نفوس ردت عواريها: من قول الناس: عارية مستردّة، يشير إلى بيت لبيد الشهير:

وما المال والأهلون إلّا ودائع ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع

هـ. الصور الوهميّة

ب١: هدم دار الحياة

ب٣:الأيّام تسالم وتحارب

ب٥: يميتني ذكرها ويحييها

ب١١: عانقها البحر

٥- وظيفة الصورة الفنية:

أ. التعبير عن المعنى

فالشاعر يعبّر بالصورة الفنيّة عن المعنى أكثر من التعبير المباشر.

ب. التأثير

وهي من أهمّ وظائف الصورة وهي إحداث الأثر المطلوب إحداثه في المتلّقي، وقد استطاع الشاعر تحقيق هذا الأثر حتّى لتجد القارئ يشارك الشاعر في أحزانه وأتراحه واضطرابه.

ج. الجماليّة:

وبها يتميّز النصّ الأدبي من سواه وتهدف إلى إظهار السمات الفنّيّة والجماليّة التعبيريّة في النصّ، ليشعر القارئ بلّذة النصّ والإعجاب بطرائقه التصويرية التي أحدثت هذه القيم الجماليّة في النفس، ويتبدّى ذلك بوضوح في شريط الصور الجميلة الحزينة في آن التي حكى فيها الشاعر قصّة غرق حبيبته وجعلنا لا نتأثر بما قاله فحسب بل نشعر بمتعة الجمال وروعة الجلال، جمال المحبوبة وجلال البحر المخيف.

٦- خصائص الصورة الفنية

أ. الجدّة والحداثة والتفرّد: تشخيص البحر ومخاطبته

ب. الامتداد: الأبيات من البيت الخامس إلى النهاية كلّها لتصوير غرق الحبيبة في البحر وحزنه عليها

ج. الغرابة: هدم دار الحياة، الأيّام تسالم وتحارب، الدموع تسبقه، البحر يعانق ويفارق

د. الجزئيّات الموحية: ونفحة الطيب، وصبغة الكحل، لا للبياع

هـ. الدقّة:

أماتها ذا، ذاك غيّرها، بتّ في ساحليك.

وفي نهاية هذه الرحلة الماتعة في لجج قصيدة ابن حمديس لا بدّ من التنبيه على أنّ هذه دراسة أسلوبيّة تطبيقيّة مختصرة، تهتمّ بالتحليل والتشريح والتفكيك أكثر من اهتمامها بإصدار الأحكام وتقرير النتائج، وتتّسم باللمحة الخاطفة والإشارة السريعة التي لا تتّضح ولا تكتمل إلّا بالمناقشة والحوار وتلاقح الأفكار.

المصادر و المراجع

(أ)

- **أبجد العلوم؛ الرحيق المختوم من تراجم أئمّة العلوم**، صدّيق القنّوجي، تحقيق عبد الجبّار زكّار، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٩.
- **إبراهيم الساحلي ودوره الثقافي في مملكة مالي**، د. محمّد بن شريفة ، معهد الدراسات الإفريقيّة، الرباط،١٩٩٢.
- **اتّجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري**، د. نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.
- **الإحاطة في أخبار غرناطة**، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤.
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم**، مجهول المؤلّف، دار أسامة، دمشق، د.ت.
- **أدباء مالقة**، ابن خميس المالقي، تحقيق د.صلاح جرّار، دار البشير، عمّان، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- **الأدب الأندلسي في عهد الموحّدين**، د. فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ١٩٩١.
- **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، د. أحمد هيكل، دار المعارف، القاهرة، ط٧ ، ١٩٧٩.
- **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط١١، ٢٠٠٥.
- **الأدب العربي في الأندلس**، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط٢، ١٩٧٦.

- **الأدب العربي في الأندلس والمغرب**، د. محمّد رضوان الداية، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٣ – ١٩٨٤.
- **أزهار الرياض في أخبار عياض**، شهاب الدين المقّري، تح سعيد غراب وعبد السلام الهرّاس، إحياء التراث الإسلامي، المغرب، الإمارات، ١٩٨٠.
- **إعتاب الكتّاب**، ابن الأبّار، تحقيق صالح الأشتر، مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٩٦١.
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٧٩.
- **الإعلام بوفيات الأعلام**، شمس الدين الذهبي، تح مصطفى عوض، ربيع عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.
- **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، ابن ماكولا، تصحيح عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد الدكن، ط٢، د.ت.
- **الأمراء الأمويّون الشعراء في الأندلس**، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٧.

(ب)

- **بدائع البدائه**، ابن ظافر الأزدي، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، الشوكاني اليمني، تعليق محمّد بن محمّد زبارة اليمني، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٢٩.
- **البديع في فصل الربيع**، أبو الوليد الحميري، تحقيق د. علي كردي، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ١٩٩٧.

- **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، ابن عميرة الضبّي، تحقيق د.صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصريّة، صيدا، ط١، ٢٠٠٥.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة**، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، د.ت.
- **أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس**، د.محمّد رضوان الداية، مكتبة سعد الدين بيروت ، ط٢، ١٩٨٦.
- **البلغة في تاريخ أئمّة اللغة**، مجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق محمّد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢.
- **بلوغ الأمل في فنّ الزجل**، ابن حجّة الحموي، تحقيق رضا محسن القريشي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٤.
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ابن عذاري المراكشي، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٦.

(ت)

- **تاج العروس من جواهر القاموس**، المرتضى الزبيدي، ج١٠، تحقيق إبراهيم الترزي، حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٢. وتواريخ متعدّدة.
- **تاج المفرق تحلية علماء المشرق**، خالد بن عيسي البلوي، تحقيق الحسن السائح، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المغرب والإمارات العربيّة المتّحدة، د. ت.
- **تاريخ آداب العرب**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.
- **تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر سيادة قرطبة**، د.إحسان عبّاس، الطبعة السابعة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥.
- **تاريخ الأدب الأندلسي؛ عصر الطوائف والمرابطين**، د.إحسان عبّاس، الطبعة

السابعة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥.

- **تاريخ الأدب العربي**، د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
- **تاريخ الأدب العربي**، كارل بروكلمن، ترجمة عبد الحليم النجّار، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٧.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين الذهبي، تح عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- **تاريخ افتتاح الأندلس**، ابن القوطيّة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٩.
- **تاريخ الأندلس ووصفه**، لابن الكردبوس، تح أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١.
- **تاريخ التراث العربي**، فؤاد سزكين، ترجمة د. عرفة مصطفى، جامعة الإمام محمّد ابن سعود الإسلاميّة، الرياض، ١٩٨٤.
- **تاريخ ابن خلدون**، ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١.
- **تاريخ الزجل في الأندلس**، د.أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، حلب،ط١ ، ٢٠١٧.
- **تاريخ عبد الرحمن الناصر**، مجهول المؤلّف، تح عدنان آل طعمة، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ١٩٩٢.
- **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، ابن الفرضي، تح عزّة العطّار الحسيني، مطبعة المدني، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨.
- **تاريخ الفكر الأندلسي**، أنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، د.ت.

- **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، د. إحسان عبّاس، دار الشروق، عمّان، د.ت.
- **تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين**، الفيروزآبادي، تحقيق محمّد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٣.
- **تحفة القادم**، ابن الأبّار، تحقيق د.إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، القاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، الدلائي العذري، تح عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلاميّة، مدريد، ١٩٦٥.
- **التشبيهات من أشعار أهل الأندلس**، ابن الكتّاني الطبيب، تح د. إحسان عبّاس، ط٣، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦.
- **التصوير الفنّي للحياة الاجتماعيّة في الشعر الأندلسي**، د.حسن أحمد النوش دار الجيل، بيروت، ط١ ،١٩٩٢.
- **تقويم البلدان**: أبو الفداء الحموي، بعناية رينود وومال كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت (مصوّر عن طبعة باريس، ١٨٤٠م).
- **التكملة لكتاب الصلة**، ابن الأبّار، تح عزّة العطّار الحسيني، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٥.
- **التكملة لكتاب الصلة**، ابن الأبّار، تحقيق د. عبد السلام الهرّاس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
- **تلخيص كتاب أرسطو في الشعر**، ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣.
- **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**،صلاح الدين الصفدي ،تحقيق محمّد أبو الفضل

إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، د،ت.

- **أبو تمّام وأبو الطيب في أدب المغاربة**، د. محمّد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٨٦.
- **توشيع التوشيح**، صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ)، تح ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.
- **تيّارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري** ، د. مصطفى عليّان عبد الرحيم، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

(ث)

- **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**(رسالة ابن عبد الرؤوف) تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد العلمي للدواسات الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥.

(ج)

- **جذوة المقتبـــس** في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر، الحافظ الحميدي، تح د.صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، ط١ ،٢٠٠٤.
- **جمهرة أنساب العرب**، ابن حزم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- **جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى**، ابن عاصم، تحقيق صلاح جرّار، دار البشير، عمّان، ١٩٨٩.
- **جيش التوشيح**، لسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦هـ) تح هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ١٩٧٦.

(ح)

- **الحركة اللغويّة في الأندلس منذ الفتح العربي حتّى نهاية عصر ملوك الطوائف**، ألبير

حبيب مطلق، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ١٩٦٧.

- **الحضارة الفينيقيّة في إسبانية**، د. يولي تسيركين، ترجمة د.يوسف أبي فاضل، مراجعة ميشال أبي فاضل، جرّوس برس، بيروت، ١٩٨٧.
- **حلبة الكميت**، شمس الدين النواجي، المطبعة الميريّة، القاهرة، ١٢٧٦هـ.
- **الحلّة السيراء**، ابن الأبّار، تحقيق د.حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٥.
- **الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة**، شكيب أرسلان، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- **الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة**، الوزير السراج، تح محمّد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤.
- **الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيّة**، أبو راس المعسكري، تح سليمة بنعمر، دار صنّين، بيروت، ٢٠٠٢.

(خ)

- **خريدة القصر وجريدة العصر**، العماد الأصبهاني، تحقيق آذرتاش آذرنوش ومحمّد المرزوقي ومحمّد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ط١، ١٩٧١.
- **خزانة الأدب وغاية الأرب**، ابن حجّة الحموي، المطبعة الخيريّة، القاهرة، ١٣٠٤هـ.
- **خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة**، محمّد وليد سرميني، ماجستير جامعة حلب ،حلب، ١٩٨٦.
- **ابن خفاجة الأندلسي؛ حياته وروائع أدبه**، د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، ط١، ٢٠١٤.

- **دائرة المعارف الإسلاميّة** – الأندلس، ج، س، كولان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٠.
- **دار الطراز في عمل الموشّحات**، ابن سناء المُلك (٦٠٨هـ)، تح د.جودة الركابي، دار الفكر ، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.
- **دراسات أندلسيّة في الأدب والتاريخ والفلسفة**، د.الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٠.
- **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.
- **دولة الإسلام في الأندلس؛ عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس**، محمّد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨.
- **ديوان ابن الأبّار**، تحقيق د. عبدالسلام الهرّاس، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ١٩٨٥.
- **ديوان أبي إسحاق الإلبيري**، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨١.
- **ديوان الأعمى التطيلي**، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
- **ديوان البحتري**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٧.
- **ديوان ابن بقي**، جمع د. محمّد مجيد السعيد ، مجلّة المورد، بغداد، المجلّد٧،العدد١، ١٩٧٨.
- **ديوان أبي الحسن الششتري**، جمع وتحقيق د. علي سامي النشّار ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠.
- **ديوان ابن حمديس**، صحّحه د.إحسان عبّاس، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.

- **ديوان ابن خاتمة**، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، دار الحكمة، دمشق، ط٢، ١٩٧٨.
- **ديوان ابن خفاجة**، تحقيق د.السيّد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ١٩٦٠.
- **ديوان ابن دراج القسطلي** – تحقيق د. محمود علي مكّي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٣٨٩ هـ.
- **ديوان ابن رشيق القيرواني**، جمع د.عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- **ديوان ابن الرومي**، تحقيق د.حسين نصّار، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٧٣.
- **ديوان ابن الزقّاق**، تحقيق عفيفة ديراني، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- **ديوان ابن زمرك الأندلسي**، تحقيق د. محمّد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧
- **ديوان ابن زيدون**، تحقيق محمّد سيّد كيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٥.
- **ديوان ابن سهل الأندلسي**، تحقيق د.محمّد فرج دغيم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- **ديوان ابن شهيد الأندلسي**، جمع يعقوب زكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.
- **ديوان ابن عبد ربّه**، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- **ديوان عبد الكريم القيسي البسطي**، تحقيق د.جمعة شيخة ومحمّد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة ، قرطاج، ١٩٨٨.
- **ديوان ابن عبدون**، تحقيق سليم التنير، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.
- **ديوان عنترة**، تحقيق محمّد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

- **ديوان ابن فركون** ،تقديم وتعليق د. محمّد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربيّة، المغرب، ط١، ١٩٨٧.
- **ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني**، تحقيق د. محمّد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩.
- **ديوان المبتدأ والخبر** في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تح خليل شحادة، مراجعة د. سهيل زَكّار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١
- **ديوان المتنبّي بشرح العكبري**، تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- **ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث**، تحقيق عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو مصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥.
- **ديوان الموشّحات الأندلسيّة** ، سيّد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩.
- **ديوان الموشّحات الأندلسيّة** ، محمّد بوذينة، د.ن، تونس، ١٩٨٩.
- **ديوان النابغة الذبياني**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٧.
- **ديوان ابن هانئ**، شرح كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤.
- **ديوان يحيى بن حكم الغزال**، جمع د. محمّد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٩٨٢- ط٢، دار الفكر العربي، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣.

(ذ)

- **الذخيرة في محاسن أهل [هذه] الجزيرة**، ابن بسّام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- **الذيل والتكملة** ، ابن عبد الملك المراكشي ، السفر الخامس، الجزء الأوّل ، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

- **الذيل والتكملة**، ابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، تحقيق د. محمّد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربيّة، الرباط، ١٩٨٤.

(ر)

- **رايات المبرزين وغايات المميزين**، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧.
- **رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي**، د.مهجة الباشا، شراع للدراسات والنشر، دمشق،٢٠٠٢م.
- **رسائل ابن حزم**، تحقيق د. إحسان عبّاس، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- **رسائل ابن أبي الخصال** ، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت ط١، ١٩٨٨.
- **رسائل ومقامات أندلسيّة**، تحقيق د. فوزي عيسى، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ١٩٨٩.
- **رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها**، ابن حزم (ضمن رسائله) تحقيق د. إحسان عبّاس، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
- **الروض المعطار في خبر الأقطار**، محمّد عبد المنعم الحميري، تح د. إحسان عبّاس، مؤسّسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.
- **روضة الأديب في التفضيل بين المتنبّي والحبيب**؛ ضمن كتاب "ابن لبّال الشريشي"، د. محمّد بن شريفة، د.ن ، المغرب ، ١٩٩٦.
- **ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب**، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٠.

(ز)

- **زاد المسافر وغرّة محيّا الأدب السافر** ، أبو بحر التجيبي ، تحقيق عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠.
- **الزجل والموشّح**، جيمس. ت.مونرو، ضمن كتاب"الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس" تحرير د.سلمى الخضراء الجيّوسي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- **ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس** ، د. فوزي سعد عيسى ،منشأة المعارف ، الإسكندريّة ،١٩٧٧.
- **ابن زيدون** – علي عبد العظيم، دار الكاتب العربي ، القاهرة، ١٩٦٧.

(س)

- **السحر والشعر**، لسان الدين بن الخطيب، تح J.M.contnerte Ferrer ، مدريد ، ١٩٨١.
- **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، ،تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصريّة ، صيدا ،بيروت ، ١٩٨٦.
- **سقوط الأندلس؛ تاريخه وأسبابه**، د. مهجة الباشا، شراع للدراسات والنشر، دمشق،٢٠٠٢.
- **سلسلة محاضرات عامّة في أدب الأندلس وتاريخها**، ليفي بروفنسال، ترجمة محمّد عبد الهادي شعيرة، المطبعة الأميريّة، القاهرة، ١٩٥١.
- **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين الذهبي، تحقيق مجموعة، مؤسّسة الرسالة، بيروت، (تواريخ متعددة).

(ش)

- **الشاعر الوزير المؤذن عبيد الله بن يحيى بن إدريس الأندلسي**، حياته ومجموع شعره، د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، دار شراع، حلب، ٢٠١٢.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد الحنبلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- **شعر أبي بكر ابن القوطيّة**، جمع هدى شوكة بهنام، مجلّة المورد، مجلّد ١٤، العدد الأوّل، بغداد، ١٩٨٥.
- **شعر إدريس بن اليمان اليابسي الأندلسي**، دراسة وجمع د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٦.
- **الشعر الأندلسي**، إميليو غرسية غومث، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦.
- **الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين**، فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ، ١٩٩٦.
- **الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري؛ موضوعاته وخصائصه**، قاسم الحسيني، الدار العالميّة للكتاب، الدار البيضاء، الدار العالميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- **شعر الجهاد في عصر الموحّدين**، شفيق الرقب، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨٤.
- **شعر حازم القرطاجني**، جمع عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.
- **شعر ابن حزم**، جمع صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، طنطا مصر، ط١، ١٩٩٠.
- **شعر الرصافي البلنسي**، جمع د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت،١٩٨٩.
- **شعر الرمادي**، جمع ماهر زهير جرّار، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠.

- **شعر ابن زهر الحفيد**، ضمن كتاب:" ابن زهر الحفيد وشّاح الأندلس"، د. فوزي عيسى، منشأة المعارف، الإسكندريّة ، ١٩٧٧.
- **شعر السميسر**، جمع بنيونس الزاكي ، مجلّة عالم الفكر، الكويت، المجلّد: ٢٥، العدد:١، ١٩٩٦.
- **الشعر السياسي في الأندلس في عهد الطوائف**، سلمان حطّاب، رسالة ماجستير، جامعة حلب، حلب، ١٩٨٨.
- **شعر ابن شخيص الأندلسي**، دراسة وجمع د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، دار ابن القيّم، دمشق، ط١، ١٩٩٢.
- **شعر الشريف الطليق** ، ضمن كتاب " مع شعراء الأندلس والمتنبّي" ، إميليو غرسية غومث، ترجمة د. الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٨.
- **شعر عبّاس بن فرناس**، ضمن كتاب "فصول في الأدب الأندلسي"، د.حكمة الأوسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٧.
- **شعر ابن عبد ربه الأندلسي**، جمع د. محمّد أديب جمران، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠.
- **الشعر العربي الأندلسي بين المشرقية الأندلسيّة**، د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٦.
- **شعر ابن عمّار**، جمع د. صلاح خالص، مطبعة الهدى، بغداد، ١٩٥٧.
- **الشعر في عصر المرابطين والموحّدين بالأندلس**، د.محمّد مجيد السعيد، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠.
- **شعر ابن القوطيّة**، جمع هدى شوكت بهنام، مجلّة المورد، بغداد، المجلد١٤، العدد١، ١٩٨٥.

- **شعر ابن اللبّانة الداني**، جمع وتحقيق د.محمّد مجيد السعيد ،جامعة البصرة، العراق، ١٩٧٧.
- **شعر ابن مرج الكحل**، جمع فوزي عيسى، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ١٩٧٩.
- **شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي**، دراسة وجمع وتحقيق د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٩٩٧.
- **شعر ابن هذيل القرطبي الأندلسي**، دراسة وجمع د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، دار شراع، دمشق، ط١، ٢٠٠٥.

(ص)

- **صاعد اللغوي البغدادي الأندلسي؛حياته ومجموع شعره**، د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، ط١، ٢٠١٢.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القلقشندي، تح د. يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧.
- **الصحاح**، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة الرابعة،١٩٩٠.
- **الصقالبة في إسبانية وعلاقتهم بحركة الشعوبيّة**، أحمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الإسلاميّة، مدريد، ١٩٥٣.
- **الصلة**، ابن بشكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.
- **الصلة**، ابن بشكوال، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني، ط١، ١٩٨٩.
- **الصورة الفنية في شعر ابن درّاج القسطلّي الأندلسي**، د. أشرف دعدور، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، القاهرة، د.ت.
- **الصورة والبناء الشعري**، محمد حسن عبد الله، دار المعارف، مصر، ١٩٨١.

- **صور الخيال في الشعر الأندلسي** "أطروحة دكتوراه" د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٩٥.
- **صور من المجتمع الأندلسي** ، د. سامية مصطفى مسعد، عين للدراسات والبحوث والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- **الصيّب والجهام والماضي والكهام**، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمّد الشريف قاهر، الشركة الوطنيّة، الجزائر، ط١، ١٩٧٣.

(ط)

- **طبقات الأطبّاء والحكماء**، ابن جلجل، تحقيق فؤاد السيّد، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥.
- **طبقات الأمم**، صاعد الأندلسي، تح د. حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، ١٩٨٨.
- **طبقات النحاة واللغويّين**، ابن قاضي شهبة، مخطوط بمكتبة الأسد الوطنية ، رقم ٣٤٦٨.
- **طبقات النحويّين واللغويين**، الزبيدي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٤.

(ع)

- **العاطل الحالي والمرخص الغالي**، صفي الدين الحلّي، تح د. حسين نصّار، الهيئة المصريّة العامّة لكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
- **العبر في خبر من غبر**، شمس الدين الذهبي، تح صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٦.
- **العقد**، ابن عبد ربّه، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣.

- **علم الدين اللورقي؛ حياته وقصيدته الميميّة**، دراسة وتحقيق د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، دار شراع، دمشق، ط١، ١٩٩٨.
- **علي الحصري، دراسة ومختارات**، محمد المرزوقي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٤.
- **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية**، الغبريني، تحقيق عادل نويهض ،دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- **عنوان المرقصات والمطربات**، ابن سعيد الأندلسي، دار حمد ومحيو، بيروت، ط١، ١٩٧٣.

(غ)

- **غاية النهاية في طبقات القراء**، ابن الأثير الجزري، تح ج برجستراسر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٦.
- **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة**، برهان الدين الوطواط، دار صعب، بيروت، د.ت.
- **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة**، ابن سعيد، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة ، ط٣، د.ت.
- **الغزل في الشعر الأندلسي في ظلّ بني الأحمر**، د.سراب اليازجي، دار شراع، دمشق، ١٩٩٥.

(ف)

- **فتوح إفريقيّة والأندلس**، ابن عبد الحكم، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨٧.
- **فرحة الأنفس في أخبار الأندلس** (قطعة منه)، ابن غالب، تح لطفي عبد البديع، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجلّد الأوّل، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٥٥.

- **فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة**، حكمة علي الأوسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧.
- **فقه اللغة وأسرار العربية**، أبو منصور الثعالبي، تحقيق د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا ،بيروت، ط٢، ٢٠٠٠.
- **فنّ التوشيح**، د. مصطفى عوض الكريم، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، ابن خير الإشبيلي، تح فرانسيسكو كوديرا- ج ريبراتراجو، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- **فوات الوفيات**، ابن شاكر الكتبي، تح د.إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- **في الأدب الأندلسي**، د. جودة الركابي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٦.
- **في الأدب الأندلسي**، د.محمّد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ، بيروت، دار الفكر ، دمشق،٢٠٠٠.
- **قيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى القسنطينة والزاب** ، ابن الحاج النميري، تحقيق د. محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

(ق)

- **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- **قضاة قرطبة**، الخشني القيرواني، تح عزّت العطّار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة، القاهرة، ١٩٥٣.
- **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، ابن خاقان ،تحقيق محمّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ١٩٩٠.
- **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، ابن خاقان ، تحقيق د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، عمّان، ١٩٨٥.

(ك)

- **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧.
- **الكامل في ترجمة ابن قزمان إمام الزجّالين**، تح رضيّة إحسان الله، د.ن، د.ت.
- **كتب ورسائل (المستلحق)**، ابن جناح القرطبي، par: joseph Derenbourg، Paris ، د. ت.
- **الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة**، لابن الخطيب ، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.
- **كشف الحجب المستوره في محاسن المقصورة**، الشريف السبتي الغرناطي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٤هـ.
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

(ل)

- **لسان العرب**، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.
- **لسان الميزان**، ابن حجر العسقلاني، مؤسّسة الأعلمي، بيروت ،د.ت.
- **لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة**، ابن مماتي، تح نسيم مجلي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- **اللمحة البدريّة في الدولة النصريّة**، ابن الخطيب، تحقيق محبّ الدين الخطيب، المطبعة السلفيّة، القاهرة، ١٩٥٥.

(م)

- **محاضرات في الأدب الأندلسي**، د.السعيد الورقي، مكتبة كرديّة، بيروت، ١٩٨٤

- **محمّد بن الحسين الطبني الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره**، د. أحمد عبد القادر صلاحيّة،شراع للدراسات والنشر والتوزيع، حلب،ط١، ٢٠١٢.
- **المخصص** ، ابن سيده الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان**، عبد الله اليافعي، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٣٩هـ.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ابن فضل الله العمري، تحقيق فاروق الهاشمي، أطروحة دكتوراه.
- **المستطرف في كلّ فن مستظرف**، شهاب الدين الإبشيهي، تح عبد الله أنيس الطبّاع، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨١
- **مصارع العشّاق**، السرّاج القارئ، شرح كرم البستاني، دار صادر ، بيروت ، د.ت.
- **المطرب من أشعار أهل المغرب**، ابن دحية الكلبي، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي، المطبعة الأميريّة، القاهرة، ط١، ١٩٤٩.
- **مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس**، ابن خاقان، تح محمّد علي شوابكة، دار عمّار، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- **المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس**، عبد العزيز فيلالي، دار المعارف، سوسة، تونس، ١٩٩١.
- **مظهر النور الباصر في أمداح مولانا لأبي الحجّاج الملك الناصر**، ابن فركون، تحقيق محمّد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، ١٩٩١.
- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، عبد الرحيم العبّاسي، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة.د.ت.
- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، عبد الواحد المراكشي، تحقيق محمّد سعيد العريان

ومحمّد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١، ١٩٤٩.

- **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩.
- **معجم السفر**، الحافظ السلفي، تح عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٩٣.
- **المعجم العربي في الأندلس**، عبد العلي الودغيري، مكتبة المعارف، الرباط، ط١، ١٩٨٤.
- **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي**، ابن الأبّار، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، عمر رضا كحّالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٩٨٥.
- **مع شعراء الأندلس والمتنبّي**، إميليو غرسية غومث، تعريب د. الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨.
- **المغرب في حلى المغرب**، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط٣، ١٩٧٨.
- **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، طاش كبري زاده، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- **المقتبس**، ابن حيان، ج٥، نشر ب. شالميتا، ف. كورينطي، م. صبح، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلّيّة الآداب، الرباط، مدريد، ١٩٧٩.
- **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، ابن حيّان، تح. عبد الرحمن الحجّي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

- **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، ابن حيّان، تح.د. محمود علي مكّي ، السفر الثاني، القسم الأوّل، مركز الملك فيصل، الرياض، ط١، ٢٠٠٣.
- **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، ابن حيان، تح د. محمود علي مكي، السفر الثاني القسم الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٩٧٣.
- **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، ابن حيّان، تح٠د. محمود علي مكّي ، السفر الثالث، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض، ط١، ٢٠٠٩.
- **المقتطف من أزاهر الطرف**، ابن سعيد، تحقيق سيّد حنفي حسنين، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- **ملامح الشعر الأندلسي**، د. عمر الدقّاق، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت.
- **ملك إشبيليّة الشاعر المعتمد بن عبّاد**، د. رضا السيوسي، دار بوسلامة للطباعة، تونس، ١٩٨٥.
- **من مطالع البدور في منازل السرور**، علاء الدين البهائي الغزولي، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩ هـ.
- **المنّ بالإمامة**، ابن صاحب الصلاة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.
- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجنّي، تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦.
- **المهنّد البغدادي الأندلسي؛ حياته ومجموع شعره**، دراسة وجمع، د.أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر، حلب،ط١، ٢٠١٢
- **موسى بن ميمون؛ حياته ومصنّفاته**، إسرائيل ولفنسون، دار التكوين، بيروت، ٢٠٠٦.
- **الموشّح الأندلسي**، صمويل ستيرن، ترجمة عبد الحميد شيحة ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط١، ١٩٩٠.

- **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، تحقيق د. محمّد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ابن تغري بردي، تقديم محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الشريف الإدريسي، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، د.ت.
- **النشاط المعجمي في الأندلس**، د. يوسف عيد، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، لسان الدين ابن الخطيب، ج٣، تحقيق د. السعديّة فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط١، ١٩٨٩.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شهاب الدين المقّري، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.
- **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**، محمّد أمين المحبّي، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.
- **نكت الهميان في نُكت العميان**، صلاح الدين الصفدي، تح أحمد زكي، المطبعة الجماليّة، مصر،١٩١١.
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، شهاب الدين النويري، مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، (تواريخ متعدّدة).
- **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، القلقشندي، تح.إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١ ، ١٩٥٩.
- **النوريّات في الشعر الأندلسي**، مقداد رحيم ، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

(هـ)

- **هديّة العارفين وأسماء المؤلّفين والمصنّفين**، إسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

(و)

- **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين الصفدي (تحقيق مجموعة) فيسبادن، ألمانيا، (تواريخ متعددة).
- **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين الصفدي، تحقيق أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ٢٠٠٠.
- **وصف البحر في الشعر الأندلسي**، د. أحمد عبد القادر صلاحيّة، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٤.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- **أبو الوليد بن الأحمر**، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٨.

(ي)

- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، أبو منصور الثعالبي تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- **اليهود في الأندلس**، د.محمّد بحر عبد المجيد، الهيئة المصريّة للتأليف، مصر، ١٩٧٠.
- **اليهود في الدولة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس**، د. خالد الخالدي، دار الأرقم، غزة ، فلسطين، ٢٠١١.

تمّ تدقيق الكتاب علميًّا من قبل

الأستاذ الدكتور	الأستاذ الدكتور	الأستاذ الدكتور
عبد الستار سيّد أحمد	أحمدعبد القادر دواليبي	صلاح عبد القادر كزّارة

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة
لمديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة